ستيڤن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

الجزء الثالث

مملكة عكا



ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

ترجمة

نور الدين خليل

تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المرفقات:

الخرائط:

مقدمة المترجم

منطق التاريخ

هذا هو الجزء الثالث من "تاريخ الحملات الصليبية" الذى أخذنا على عاتقنا ترجمته بأكمله ، لما تميز به من خصائص علمية وفنية تفرده بين ما كُتب فى مختلف العصور عن تلك الحملات . وليس ثَمّة شك فى أن هذا التاريخ ، الذى يوفى على كل غاية للخصائص التى أسلفناها ، يتفرد تفردا عبقريا قلّما يتاح لغيره فى ناحية واحدة مميّزة وجليلة الخطر ، تتمثل فى أن كاتبه التزم فيه حيدة موضوعية علمية قلما يتسم بها مؤرخ فى تناوله لأمور تمس عقيدة أخرى غير عقيدته ، وحضارة لا ينتمى إليها. فالإنسان هو الإنسان لا يتأتى له - وإن أراد - أن يخلص عن وعى أو عن غير وعى من آثار تنشئته الإجتماعية والدينية والسياسية . وإذا أجلنا النظر فيما يدور حولنا الآن يستبين لنا أن الصراع الدائر فى شتى أرجاء العالم اتخذ فى العقود الأخيرة شكلا جديدا

يمكن أن نحمله على أنه "صراع فكرى" . فالسلاح ، وقد بلغ به الإنسان مبلغا يمكن أن ينتهى بالعالم إلى أسوأ مصير ، أمسى نتيجة لذلك عقيما لا يكاد يُبلِغ جماعة من الناس غاية ما تريد ، فالضوابط التى تحكم استخدامه أصبحت حدودا لا يمكن تجاوزها إلا إذا أراد الإنسان أن يضع حدا للحياة نفسها . غير أن العقائد هى العقائد ، والمذاهب السياسية وغير السياسية هى المذاهب ، باقية على ما كانت عليه ، ولا بد لها من أن تصطرع محاولةً تحقيق غاياتها أو بعض غاياتها . ولم يعد فى يد الإنسان بعد مسيرة الحضارات الطويلة سوى فكرِه كي يخوض به غمار عالم قميىء لم يكد يتعلم شيئا أو يلقن درسا من ماضي أيامه . وكلمة "فكر" فى هذا السياق لا تحمل على ما فيها من إيجاب ، بل هى تقارب السلب أيما مقاربة . ومن الغريب أن هذه حال صَدُقت فيما مضى وتصدق فى أيامنا . إذ أن روح "المؤامرة" التى غلبت على سياق الحملات الصليبية فى شتى مراحلها الطويلة ، هى نفس الروح التى تغلب على الفكر السياسى فى الوقت الحاضر.

ولعل أقرب مثال على ذلك ما حدث للإتحاد السوفياتى السابق الذى كان يشكّل طوال خمسة وسبعين عاما قوة هائلة يحسب لها كل حساب ، انتهى وانتهت أيامه وانتهت العقيدة التى بشّر بها وظن أنها باقية إلى يوم الدين . والمفكرون السياسيون فى شتى بقاع العالم يكادون يجمعون على أن ذلك الإتحاد السوفياتى إنما قضت عليه "المؤامرة" . فالمعسكر الغربى الذى بنى أمجاده على أساس فلسفة رأسمالية ، والذى لم يأبه بانسانية الإنسان ، إلاّ عندما تهددت كيانه تلك الإيديولوجية التى سادت ردحا من الزمان فى الإتحاد السوفياتى ، لم يتأتّ لسلاحه النووى الرهيب أن يتصدى لذلك الخصم القوى أو يقضى عليه . ولم تكن ثمة سبيل إلى ذلك إلاّ بإنفاق قدر هائل من المال خاطب فى الإنسان غرائزه وجموحه واستطاع أن يستلب عقيدته ووطنيته . وبات من المعروف أن أمريكا انفقت ذلك المبلغ الطائل كى تجتنب الجنوء إلى السلاح الذى كان سيؤدى بالضرورة إلى هلاكها إن هى أقدمت على استخدامه . ولا يتسع هذا المجال لتفصيل كل ذلك ، وإنما الذى يعنينا هو التماثل الواضح بين الأمس واليوم . فالإنسان على إدعائه الإيمان لا يستطيع فى كل حال أن يقبض في يقين على ما يعتنقه ، وفى هذه العبارة مفتاح يعيننا على أن نتفهم ما جرى إبان الحملات الصليبية.

فالمسلمون أصحاب عقيدة تستطيع أن تتصدى دون غيرها لمنطق عام يتفق مع فطرة الإنسان، وتحرك قدراته ولا تتجاهل طبائع الأشياء وحقائقها ، ومع ذلك استطاع الصليبيون عبر عقود متعاقبة أن يحققوا بعض انتصار على المسلمين ، لا لأنهم كانوا

مدافعين عن عقيدة وإنما لأنهم كانوا أصحاب دنيا وأصحاب سياسة أى أصحاب "مؤامرة" . والحملات الصليبية في تتابعها تظهر فى جلاء أنه لم يتأتّ للصليبيين أن يحققوا شيئا من نصر إلاّ عندما نجحوا فى أن يخذّلوا المسلمين بعض حين عمّا يعتقدون . وفى اللحظات التى غلب فيها الإيمان على هوى الإنسان لم يستطع أحد عبر التاريخ كله أن يغنم من المسلمين مغنما وإن كان يسيرا ، على كثرة العدو وقلّة المسلمين. وهذا الرأي ليس رأي مسلم ، وإنما هو منطق التاريخ ، وفيه دلالة واقعية على أن ما هو صحيح لا بد أن يصح فى منطق الواقع إذا التزم الإنسان كائنا من كان جادة إيمانه وصواب عقله ، أى أن التاريخ نفسه دلّل ، ولسوف يدلّل ، على صحة هذه العقيدة التي جمع الخصوم لها ويجمعون ، وحاولوا وهم يحاولون.

ففترات الإضمحلال في دورات الحضارة لا تدل على أن قوة قاهرة استطاعت أن تدحر قوة دونها، وإنما تدل على أن فكر الإنسان وقدرته على الخديعة استطاع فى غيبة الإيمان أن يجد له منفذا عند بعض طلاب الدنيا.

"الخطر" القديم الجديد

والذى يتدبر ما أورده رانسيمان فى مجلداته الثلاثة على عمقها وشمولها، يتاح له أن يستبين في غير ما شك أن الصليبيين على اختلاف انتماءاتهم وقومياتهم وعقائدهم وعلى اختلاف أيامهم ، لم يكونوا سوى طلاب منفعة و لم يكن للدين موضع فى وجدانهم، وإنما اتخذوه ذريعة يتعللون بها لاستلال سيوفهم . ولنعد ، فى لمحة سريعة ، إلى القرن العشرين لنرى أنه فى العقد الثاني منه بدا يلوح فى الأفق عدو للغرب مكين ، أنساه عداوته للإسلام إلى حين . وما أن دار الزمان دورته وانتهى الإتحاد السوفياتى الذى كان يقوم على فكر وضعى ، حتى عاود الغرب الإحساس بالخطر بما هو ماثل بالإمكانية فى الإسلام . وبدأ مفكرو الغرب يعيدون استكناه التاريخ ليكتشفوا من جديد مدى ما يمكن أن يتمثل فى ذلك العدو القديم من خطر شديد . وعلينا فى هذا السياق أن نقصر النظر على مجال واحد لنتبين مدى خطورة ذلك . ففى الوقت الذى يتاح فيه لإسرائيل أن تملك السلاح النووى ، وأن ترفض فى صلف التوقيع على معاهدة منع انتشار السلاح النووى ، يحال بين أية دولة إسلامية وبين أن تحاول بمجرد محاولة امتلاك ذلك السلاح أو غيره مما يوصف بأنه متقدم . ولقد نجح الغرب فى ذلك كله من خلال نفاذه إلى عقول كثير من الحاكمين الذين يستهويهم ما فى الدنيا من متاع

رخيص ، بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين ما ينبغي لهم أن يلتزموه من أمر دينهم ، وبعد أن وجدوا من يبرر لهم مسلكهم ويزيّنه.

لقد أجملنا في نظرة عامة ما توحي به في النهاية قراءة ما كتبه رانسيمان عن الحملات الصليبية ، والذى لا بد لنا أن نستخلص منه أنه ينبغي للمسلمين إن أرادوا البقاء أن يعودوا إلى ما يفرضه عليهم دينهم . ولقد سبق أن أوضحنا فى مقدمتي الجزأين الأول والثانى من هذه الترجمة كثيرا مما أعاننا رانسيمان على أن نتفهمه من اللوحة العامة التى رسمها فى فن واقتدار للحملات الصليبية والتى أبرز فيها على نحو يدهش المتأمل كثيرا من الخصائص التى يتميّز بها من يحق لهم أن يقولوا أنهم صدروا عمّا تمليه عليهم ضمائرهم ومقتضيات دينهم . ونحن كرانسيمان نستطيع أن نلتزم الحيدة العلمية الموضوعية غير متأثرين بانتمائنا وإنما مستجيبين لمقتضيات العقل والمنطق برغم غيبتهما فى عالم تناءى تنائيا يكاد يكون كاملا عمّا هو عقلانى أو منطقى . ولن نعاود هنا بطبيعة الحال ذكر ما سبق أن تناولناه فى مقدمتى الجزأين السابقين ، وإنما سننظر على نحو عام فى مجمل ما حققه رانسيمان تحقيقا تاريخيا علميا ، ضاربين عددا من الأمثلة المدلّلة التى تعبر فى صدق وعمق عن واقع حال تلك الصفحات السوداء التى خطها الصليبيون فى صلف وعدوان فى كتاب التاريخ .

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

ولعل لنا أن نبدأ بالإشارة إلى الأحوال العامة التى كانت سائدة بين جماعات المسلمين باختلاف تسمياتها السياسية لنتأمل من خلالها ما يسود العالم العربي والإسلامي الآن من أحوال مشابهة . ونحن فى ذلك لا نقول مع القائلين "إن التاريخ يعيد نفسه" ، فهذه العبارة تبدو للوهلة الأولى كما لو كانت صحيحة، وواقع الحال أنها ليست كذلك إلا بمعيار واحد . فالتاريخ لا يعيد نفسه أبدا كوقائع وأحداث ، ومَن يتأمل تفاصيل أحداث التاريخ ، أو بالأحرى أحداث التواريخ ، يجد أنها لا تتماثل على الإطلاق . ونحسب أن مَن قال بهذه العبارة إنما يعنى ما نعنيه بقولنا إن العبارة قد تكون صحيحة بمعيار واحد يتمثل فى الإنسان نفسه . ذلك أن "الإنسان العاقل" – مذ كان يزحف على ظهر الأرض فى بدائية لا تكاد تدرى من أمرها أو من أمر غيرها شيئا، وحتى عصرنا الحالى الذى يقال فيه إن الحضارة السائدة هى حضارة الإنسان المعاصر أو حضارة القرن العشرين على إطلاق – لا يكاد يثبت إزاء منطق سَويّ إلاّ من حيث

ظاهر القشرة التى تُرقّش العالم بألوانها الخادعة . وليس ثمة شيء يمكن أن يكون ثابتا سوى أثَرة الإنسان وتنائيه عن القيمة ، فهذان هما العاملان الأساسيان اللذان حركا ويحركان تواريخ الإنسان فى مختلف حِقب حضاراته . ونحسب أن عبارة "إن التاريخ يعيد نفسه" لا تصدق أو تصح إلا بهذا المعيار . فبرغم ما تقلب فيه الإنسان من عقائد وأديان وأيديولوجيات لم يستطع فى أية حال أن يعلو على أثَرته أو يُثبت على قيم عليا تستطيع أن تبرر وجودها عبر منطق سَوي أو عام . فلكل جماعة من البشر منطقها الذى يقوم أساسا للدفاع عن مصالحها الخاصة المنبثقة عن أثَرتها وظلمها برغم ما قالته الآلهة وما قاله الله وما نادى به المخلدون ، وبرغم ما تدعو إليه المسيحية من تسامح . ونقف هنا عند المسيحية بصفة خاصة لأننا نعالج "الحملات الصليبية" . ولعل ذلك يعود بنا إلى واقعة تدلل على صحة ما أسلفناه . فعندما أراد ريتشارد قلب الأسد أن يغادر عكا فى لهفة للذهاب إلى القدس ، كان وجود أسرى المسلمين لديه يشكّل حجر عثرة تسبب له الحرج ، فلم يجد سبيلا إلى بلوغ غايته سوى أن يتخلص من أولائك الأسرى على نحو لا نحسب أن عقلا أو إيمانا أو قلبا به مسحة من إنسانية يستطيع أن يتدبر الأمر فى منطق قويم يمكن أن يجد شبه مبرر لما قام به قلب الأسد . ويحسن بنا أن ننقل ما جاء به رانسيمان عن هذه الواقعة:

> "وبرحيل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذى وافق على الإلتزام بالمعاهدة التى أبرمها ضباطه فى عكا. وبينما انهمك الصليبيون فى إعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين فى جمع الأسرى والمال المطلوب منه. وفى الثانى من أغسطس استقبل صلاح الدين فى معسكره ضباط مسيحيين ينقلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجزئة المدفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يُطلَق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسُمح للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذى كان صلاح الدين يحتفظ به فى حالة من الوقار. وفى الحادى عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تحددت أسماؤهم لم يصلوا جميعا، ومن ثم فلن يطلقوا سراح جنود السلطان المأسورين فى عكا. فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات المفقودين واطلاق

سراح رجاله، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رجاله؛ ورفض السفراء العرضين كليهما ، وطلبوا دفعة المال وإعطائه مجرد تعهد بشأن الأسرى العرب . لكن صلاح الدين لا يثق فى كلمتهم، ولذا رفض إعطاءهم أى شىء ما لم يفرجوا عن رجاله.

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس ، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة تحرجه ، فسرّه أن يجد ذريعة للتخلص منهم . وفى العشرين من أغسطس ، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفرائه إليه ، أعلن أن صلاح الدين قد أخل بتعهده ، وبكل العمد وسبق الإصرار أمر بقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير . وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشارد فى سرورهم - راح جنوده المتلهفون يعملون السيف ذبحا شاكرين الرب على هذه الفرصة للإنتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة. وقتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم ، وأبقوا على مجرد القليل من الوجهاء وأقوياء البنية لإستخدامهم فى أعمال السخرة . وشاهد العرب فى المخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم ، بيد أنه برغم بسالتهم فى القتال حتى هبوط الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف إليهم . وعندما انتهى الذبح غادر الإنجليز مكان المذبحة بما فيه من جثث تمزقت أوصالها وفسدت ، وبات بإمكان المسلمين الحضور للتعرف على أصدقائهم الشهداء".

وحشية طائشة وإنسانية حليمة

ويتبين من تفاصيل هذه الواقعة ، التى لا نجد من الألفاظ ما يعبر عن سوء ما فيها، أن قلب الأسد لم يُقِم وزنا للضمير المسيحى ، أو مقتضيات ضمير الإنسان كإنسان ، ولم يلتزم بما ينبغى أن تفرضه عليه العهود والأعراف ، كما أنه وسفراءه لم يستجيبوا للعروض المنطقية التى عرضها صلاح الدين فى المفاوضات لبلوغ حل لهذه المسألة، على ما فى ذلك كله من عدم الإعتداد بما يمكن أن يحدث لكبار الأسرى المسيحيين لدى صلاح الدين ، مما ينبئ عن روح مجازفة لا تقيم وزنا لحياة الإنسان حتى وإن كان من الرفاق المحاربين ، وإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على أن الآصرة التى كانت تشد

أولائك الرفاق الصليبيين بعضهم إلى بعض لم تكن تنبثق عن وازع من دين أو رغبة فـي الدفاع عن قيمة وإنما هي أثرة الإنسان وظلمه . ونضيف إلى ذلك أن المؤرخين المدافعين عن ريتشارد قلب الأسد حاولوا تبرير مسلكه الذى لا يتأتى لعقل أو قلب أن يقبله . بل إنهم يجاوزون ذلك إلى تمجيد الرب شكرا على المذبحة التـى ارتكبها أولائك الذين يجاوزون الوحوش فى وحشيتهم . ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما يجاوزه إلى المخاطرة بعودة "الصليب المقدس" الذى كان فى حوزة صلاح الدين . والأمر على هذا النحو ليس أمر دين أو أمر اعتداد بأهم رمز لهذا الدين الذى قامت الحملات الصليبية تحت رايته . وإذا وقفنا عند "الصليب" فى المسيحية فإنه يمثل الفداء فى أحلى صورة من وجهة نظر المسيحية التى ترى أن الرب نفسه ، تعبيرا عن المحبة ، يفتدى الإنسان، ذلك الخاطىء الذى خرج عن طاعته . فأى فداء وقد تُرك المحاربون المدافعون عن الصليب لدى صلاح الدين ؟ ثم أى فداء والصليب المقدس نفسه لا يُؤبه به ؟

ولنعد مرة أخرى إلى واقعة تظهر أن ريتشارد لم يكن بطبيعته يجنح إلى شىء سوى الإفحاش فى سفك الدماء ، ولنر ما يقوله رانسيمان مقارنا ريتشارد قلب الأسد بصلاح الدين الأيوبى:

> "وبعد خمسة أيام من القتال المستعر، قُصف أسف المدينة (مدينة دارون) واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف، وألقى بالبعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض فى عبودية سرمدية"

وليس ثمة فحش يدل على شذوذ العقل من قتل المستسلمين بإلقائهم من علٍ ، فهذا درك لا تنحط إليه الوحوش فى همجيتها.

منطق الدعاية وواقع التاريخ

ونحن إذ نعرض لريتشارد قلب الأسد إنما نعرض لقائد فرد يستطيع أن يوجه الأمور حيثما يعِنّ له وحيثما تشاء نزواته . وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإننا إذا انتقلنا إلى نظرة عامة نجد أن الصدع بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة اليونانية الشرقية ينبثق عن نزوع إلى تعصب لا يتهيأ له أن يقيم وزنا لما يراه الآخرون من أتباع نفس الدين من ناحية ، وعن تعلق بما يمكن أن تتيحه الحرب "المقدسة" من مغانم ينعم بها

أصحاب الشأن دون اعتبار للرأى العام المسيحى الذى كانت الكنيسة تعمل جاهدة على اقناعه بأن الحملات الصليبية موجّهة فى أساسها للدفاع عن الصليب. ولنقرأ الفقرة التالية من الباب الثانى الذى عمد رانسيمان إلى تسميته "حملات صليبية ضالة" ، إذ يقول فى الفصل الأول من هذا الباب ، وعنوانه "الحملة الصليبية ضد المسيحيين: "

"على أن الصليبى العادى قد لُقّن الإعتقاد الذى مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الخيانة ضد العالم المسيحى طوال الحروب المقدسة. فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن. وابهج الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا فى سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين المنشقين إلى الحظيرة . أما الأكثر ولعا بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون فى ثراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب. وربما تطلع بعض البارونات ، وفيهم بونيفاس نفسه ، إلى نفس التوقعات ، وراحوا يوازنون حساباتهم التى تقول إن الضياع على شواطىء بحر إيجة أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يجدونها فى أراضى سوريا القاحلة . وأسهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحى الشرقى، فجعل من اليسير على داندولو وبونيفاس تطويع الرأى العام وشدّه لمناصرتهما"

ويبدو أن الحروب على اختلاف زمانها وظاهر دواعيها تنصرف فى التحليل النهائى إلى أسباب اقتصادية بالمعنى العام لهذه الكلمة ، وهذا المعنى العام يشمل بطبيعة الحال نزوع الفرد إلى تحقيق أمانيه الجامحة واتجاه الجماعة إلى التصرف على نحو يرضى مطامعها ويكفل لها أسباب الرفاهية ، وإن تحقق ذلك على حساب أية قيمة وإن كانت ديناً. ولنتأمل معا الدوافع الحقيقية التى تبرزها الفقرة التالية من نفس الفصل، وإن لم تكن هذه الدوافع حينذاك متمثّلة إلاّ فيما يتعلق بآمال أصحابها (قبل الإستيلاء على القسطنطينية)، ولا شك فى أن أمل الإنسان ، على زيفه ، يحدد مسار خطاه:

"وتقرر فى نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لإختيار الامبراطور بعد الإستيلاء على المدينة مباشرة . وإذا كان الامبراطور الذى سيقع عليه الإختيار فرنجيا – وهو الأفضل – فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريق . وينبغى أن يكون للإمبراطور

القصر الإمبراطورى الفخيم وقصر الإقامة بلاشيرنا ، وربع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نصفها للبنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبين يقتسمونها إلى اقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا الدوج . وهكذا يكون كل شيء قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن تواصل الحملة مسيرتها فى وقت ما لمحاربة الكفرة، فقد تخلوا عنه صراحة".

للتاريخ دلالة عامة

ولننظر حولنا الآن لنرى أن الأمس البعيد لا يختلف إلا من حيث الشكل عن يومنا هذا . فلقد نجحت القوى الإستعمارية في تقسيم العالم العربى إلى دول ودويلات ، ربما لا يتوفر لبعضها مقومات الدولة كما يراها علماء السياسة ، وكانت الغاية من وراء ذلك أن تصطنع تلك القوى لنفسها دُمىً تتولى حكم هذه الدول والدويلات ، وهذه الدُمى تستجيب دونما تردد لكل ما يمليه السيد صاحب الأمر في سياسات العالم الحديث، وتعمل فى نفس الوقت على الإستماتة فى الدفاع عن مصالحها الشخصية دون اعتبار لأية مقتضيات قومية أو دينية أو إنسانية . وبذلك استطاع أعداء المسلمين أن يُحكِموا وثاقهم وأن يسيروهم تبعا لأهوائهم وحسبما تقتضيه مصالحهم إلى حد يصيب كل صاحب عقل باغتراب لا يكاد يقرّ على قرار. ولعل لنا أن نستخلص من هذه النظرة العامة أن الإنسان - كما قلنا - هو الإنسان ، يحرك التاريخ ، أو يتحرك به التاريخ طبقا للعاملين الأساسيين اللذين أشرنا إليهما واللذين يتمثلان فى أنانية الإنسان ونزوعه إلى الظلم.

ونعود هنا إلى ما سبق أن ارتأيناه من أن التاريخ لا يعيد نفسه إلا من حيث دلالته العامة . فواقعة تخريب القسطنطينية التى أوردها رانسيمان فى نفس الفصل تدل فى جلاء على أن الإنسان الذى يدعى التحضر لم يبلغ فى تحقيق ادعائه هذا أى حد بالمعنى الأخلاقى أو القيَمى فى القديم والجديد . فالفقرة التى سوف تلى عن دخول الصليبيين القسطنطينية تجاوز قدرة الإنسان على الوصف ، وتدل فى نفس الوقت على أن أولائك الصليبين لم يكونوا سوى شراذم من البرابرة لم يتح لهم أى قدر من التحضر وإن دافع عنهم المدافعون . فأهل البندقية على سبيل المثال لم يبلغوا فى عدوانهم همجية

الصليبين، لأنهم كانوا ما يزالون يمثلون أبناء الحضارة الإغريقية القديمة التي تدعي الحضارة الأوروبية الحديثة أنها وليدتها . ومن ثم كانوا على قدر من التقدم بالمعنى الإقتصادي والتجارى والفني وبقدرتهم على ارتياد البحار ، ولذلك بذلوا الجهد في سبيل الإبقاء على ما كانوا عليه من رفاهة وهيمنة . ولن نفيض في التعليق على ما جاء في الفقرة التالية ، فقد أغنانا رانسيمان عن ذلك:

"انتهبت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها في التاريخ . ولتسعة قرون خلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية ؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التي بقيت من اليونان القديمة ، والطُرف المشوقة التي أبدعتها أيدي أبنائها المهرة ؛ وكان البنادقة يعرفون حقا قيمة تلك الأشياء ، إذ أينما وجدوا كنوزا كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزيين ميادين مدينتهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيك كانوا قد أُشربوا في قلوبهم شهوة التخريب فكانوا يندفعون متجمهرين في جماعات تعوى في وحشية في الشوارع وفي البيوت، ينتزعون أي شيء يبرق أمامهم ، ويدمرون كل ما لا يستطيعون حمله ، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتحطيم بوابات أقبية النبيذ لينتعشوا ، فلم يخلص من تخريبهم دير أو كنيسة أو مكتبة . وفي كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة الفضية العظيمة ويحطمونها قطعا قطعا ، بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات . وبينما كانوا يشربون الخمر في أواني المذبح جلست إحدى العاهرات على عرش البطريق وراحت تغني أغنية فرنسية بذيئة . وهُتكت أعراض الراهبات في صوامع أديرتهن ، واقتحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها. وكانت النساء الجريحات ملقيات مع الأطفال يحتضرن في الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفزعة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استحالت المدينة الضخمة الجميلة إلى وضم كبير بحيث صرخ المؤرخ نيستاس قائلا : لو أنهم العرب لكانوا أرحم . وكان على حق".

حقيقة الإنتماء وواقع التاريخ

وتذكرنا هذه الواقعة البالغة الدلالة بما ارتكبه الصليبيون عندما دخلوا مدينة القدس قبل ذلك بحوالى مائة عام على النحو الذى ورد فى الجزء الأول من هذا التاريخ الحافل، مع فارق لا بد لنا من أن نلحظه، ذلك أنهم كان ينبغى لبربريتهم أن تجد فى قداسة مدينة القدس حائلا يحد ولو إلى بعض حد من غلوائهم ، إذ أنها مهد المسيحية وموضع صلب المسيح وقيامته ، ولكن طبيعة الصليبيين تغالب فى كل حال حسن ظن إنسانية الإنسان وما يفترض فيه من عقل وحكمة . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن دارس التاريخ ، وإن كان على غير حيدة ، لن يجد صورة كهذه أو حتى تقاربها ، أتى بها المسلمون حيثما توجه فتحهم . بل الأمر على نقيض يدعو إلى كثير من التفكير، إذ كان الظلم والجهالة سائدين فى كل الأصقاع التى فتحها المسلمون، وجاء الفتح إيذانا بانقضاء كل ما ترتب على ذلك ، فعرّب القرآن السنة أهل هاتيك الأصقاع على اختلافهم ، وأتاح القادم الجديد لعقولهم أن تفكر وأن تتدبر ، وخلق من أصحاب القدرة فيهم عبقريات ما تزال آثارها الفكرية والعلمية ماثلة فى حضارة اليوم ، ويرى المنصفون من الدارسين أن ما يقال إنه حضارة الغرب لم تكن لتبلغ ما بلغت لولا ذلك الجهد الفائق الذى قام به روّاد المسلمين الأول فى سبيل احقاق الحق وإقامة العدل وإعمال العقل. وليس من قبيل الخروج على مقتضيات البحث أن نقول إن الحضارة الإغريقية لم تكن هى الباعث القادر فى حد ذاته على أن يولد حضارة الغرب دون الجهد الذى قام به المسلمون ، أى أننا لو افترضنا جدلا أن الله لم يشأ أن يبعث برسالة الإسلام لبقى العالم على ما كان فيه من جهالة قديمة راسخة .

ولنا أن نشير على عجل إلى حملة بالغة الشذوذ جاءت بين الحملات صليبية لتضفى عليها مظهرا معبرا غير مسبوق أو ملحوق فى التاريخ كله ، الا وهى "حملة الأطفال الصليبية" . ذلك أن تلك الحملة تعبر عن أمرين : أولهما أن الهوس الدينى الذى لم يؤتِ أُكُله فيما قام به الكبار ، كان له أثره الوخيم على الأطفال الذين لم يتأتّ لخيالهم الصغير أن يتبيّن ما وراء الحملات الصليبية من دوافع حقيقية . وثانيهما أن الطفل الذي يمثل قيمة لها مغزاها فى كل ما ساد العالم من ثقافات قد فقد هذه القيمة إبّان تلك الفترة ، وفى ذلك إدانة كاملة لقدرة الصليبيين على أن يلتزموا جادة ما تفرضه عاطفة الإنسان الشخصية المباشرة . ويدل ذلك فى نفس الوقت على أن الكبار من غير ذوى المصلحة المتمثلين فى آباء أولائك الأطفال كانوا من السذاجة الدينية والإجتماعية على نحو جد مهين ، وإلا لما تركوا أولادهم يقدمون على رحلة غاية فى

المشقة تحف بها المخاطر والأهوال . وما آل إليه أمر هؤلاء الأطفال بيّنه رانسيمان فيما أورده . ولعل لنا أن نعجب الآن كثيرا ونحن نرى أبناء الغرب من حفدة الصليبين وهم يتصدون للعالم رافعين لواء ما يسمونه "حقوق الإنسان" و "حقوق الطفل." *

الوهم والتاريخ

ولنا أن ندرك أن حملة الأطفال الصليبية تلك قامت على كثير من الوهم . ويبدو أن الوهم كان يلعب دورا بالغ الخطورة في تاريخ الحركة الصليبية . فالتحالف الصليبي المغولي الذى أفاض رانسيمان في بيانه لم يقم من وجهة نظر الصليبيين على أساس تحالف قوتين معاديتين ضد عدو مشترك وحسب ، وإنما أوغل الصليبيون فى إيهام انفسهم بزعم أن القس حون الأسطورى ، وهو فى رأيهم حبشى ، تجسّد على حين غِرة في شخصية مغولية ، وأن خلاص الصليبين من المسلمين سوف يأتى من الشرق البعيد . ولنا هنا أن نطرح سؤالا بسيطا عسانا أن نجد مَن يجيب عليه : كيف يتأتى لأناس يُفترض أنهم يتحركون بوحى ربّانى أن يجدوا عونهم فى قوم وثنيين ؟ على أن لنا أن نلاحظ كذلك أن المغول على شراستهم وهمجيّتهم فى استخدام القتال كانوا أصحاب سياسة يمكن أن تتسق مع نمط فكرى ساد فى المجتمعات السابقة يتمثل فى أن القوة تصنع الحق . ونقول ، بين قوسين ، إن هذا النمط الفكرى ما زال سائدا حتى الآن. ولا شك فى أن عقد المقارنة بين المغول والصليبيين يظهر أن المغول كانوا أصحاب نظام يحكم علاقاتهم ببعضهم البعض ، فلا نراهم ينتهكون حُرماتهم أو يترامون بهرطقة تُحدث صدعا بينهم ، وأن همجيتهم لم تستشرِ فيما بينهم كما استشرت همجيّة الصليبين ضد المسيحين وضد غيرهم.

ولئن شئنا أن نضيف إلى الوهم الصليبى شيئا ، فلن نبلغ فى ذلك مبلغ رانسيمان عندما قال فى الفصل الثانى (القديس لويس) من الباب الثالث (المغول والمماليك):

> "تسببت حملة القديس لويس الصليبية فى توريط مسيحيى الشرق فى كارثة عسكرية مروعة، وعلى الرغم من أن بقاءه فى الشرق لأربع سنواتٍ قد أفاد كثيرا فى إصلاح الأضرار ، إلا أن خسارة القوة البشرية لم تُستَعوض تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام

الصليبين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألاّ يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لفشله عميق الأثر . ذلك أنه كان رجلا طيبا يخشى الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفى سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُبتلى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهى على ما ارتكبوه من جرائم وشرور، بيد أنه لم يعد فى الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية الهشّة . فهل يا ترى قد عبس الرب من الحركة الصليبية برمتها؟"

على أن للتاريخ منطقا نستفيد منه دروسا جديرة بالإعتبار إذا أعملنا عقولنا . فالوهم الصليبى الذى اقتيد به عوام الصليبين إلى مصائر لم يكونوا ليتمنوها لأنفسهم، بيّن منطق التاريخ حقيقته بمضى الزمان وتراكم النتائج التى ترتبت على الحملات الصليبية ، ونكتفى بقولة رانسيمان فى الفصل الرابع (السلطان بيبرس) من الباب الثالث (المغول والمماليك):

"والأسوأ من كل ذلك أن لا أحد بات يؤمن الآن فى المزايا الروحانية الموعودة لمن يصبح صليبيا ، اللهم سوى القليل . ويقينا فإن هذا الإنكار الذى يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرا انتشارا واسعا؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من المنشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد فى حاجة إلى الحملات الصليبية . وأخفقت مقترحات هومبرت فى مناهضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة؛ فلا جدوى فى مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن الهزائم والإهانات تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرجال بأن الحملة الصليبية هى أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أمست محاولة متأخرة للغاية".

أحداث التاريخ وموضع الثقة

ولعل ما قدمناه يبين فى كثير من وجوهه أن الأُطُر الأخلاقية الصليبية لم تكن فى عمومها تتسق مع ما يدعو إليه الدين أو ما تفترضه الفطرة السليمة . وليس ذلك فحسب ، وإنماينبغى لنا أن نلاحظ هنا أن الرأي العام الذى كان سائدا بين الشعوب على اختلافها بيّن فى نهاية المطاف وبرغم سذاجة العصر حقيقة الوهم الذى بثه فيها

أصحاب النفوذ والقوة المهيمنة وراء القيام بالحملات الصليبيـة . ومـا أورده رانسيمان يدل على أن تلك الشعوب قد تحررت من الوهم بحيث تغنّى المنشدون مرددين خيبة الأمل التي تعين على الخلاص من الوهم . ولا نكاد نجد غرابة في ذلك ، ولكن الغريب أن أولائك الصليبيين الذين كانوا يستخدمون لفظة "كفار" وهم يشيرون إلى عامة المسلمين كانوا يوقنون في دخيلتهم بأن المسلمين أصحاب قيم تحترم وتُلتزم ويقام لها كل وزن ويُعتد بها في كل مسلك من مسالكهم ، ولبيان ذلك نورد الفقرة التالية من نفس الفصل دون تعليق:

"أما الملك هيو في قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها ، وإنما يريد مجرد الحفاظ على الهدنة مع بيبرس ، ومع ذلك لم تفعل الهدنة سوى القليل لتحسين وضعه. وفي سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فبوفاة جون الثاني الإبليني انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا، ملكة قبرص الأرملة التي تُركت أرملة عذراء في سنة ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلا؛ ذلك أن افتقارها إلى العفة وعلاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا في إصدار مرسوم بابوي حثها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفي ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها لإنجليزي - هامو الأجنبي - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرتاب في الملك هيو فعندما حضرته الوفاة في العام التالي وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيبرس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة وإعادتها إلى قبرص ليزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالعهد الذي أوصى به هامو وطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عُيّن حارس مملوكي لحمايتها".

وإذا كان ما سبق يعبّر عمّا يعتور سلوك الصليبيين إزاء غيرهم بصفة عامة ، فلا بد لنا من أن نورد هنا فقرة أوردها رانسيمان في "خاتمة كتابه" ، وهي بمثابة تعليق عام على الحملات الصليبية ، وهي فقرة تتعلق بفئة كان لها دورها الدائم عبر الحملات الصليبية كلها ، ألا وهي طائفة " نظام فرسان المعبد الديني العسكري" . فهذ الطائفة، فضلا عن قيامها بدور المرابي المبتز ، كان لها من الطقوس الخفيّة المريبة ما يدمغها ويصم أخلاقها بما لا ينبغي أن توصم به فئة تلعب دورا دينيا عسكريا بالغ الخطورة . والفقرة

التالية تبيّن في جلاء تام كيف أن الصليبيين من تلك الفئة المتسيّدة لم يكونوا على خلق يتفق وأبسط ما تنادى به القيمة الإنسانية حتى في المجتمعات البدائية ، ناهيك عمّا ينادى به الدين أيا كان هذا الدين :

"أما نظام فرسان المعبد فكان أقل إقداما وأقل حظا ؛ وكان دائماأكثر إثارة للعداوة من نظام فرسان المستشفى ، وإن كان هو الأكثر غنى . وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسي ومقرض الأموال في الشرق ، يحقق النجاح في مهنة لا تلهم المودة ، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأنانية والإستهانة . وبرغم شجاعة فرسانه في قتالهم في أوقات الحرب ، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيجة قربى بين فرسانه والمسلمين؛ واتخذ كثير من الفرسان أصدقاء مسلمين ، واهتموا بالديانة والعلم الإسلاميين . وذاعت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلاعه فلسفة خفيّة وأنه كان ينخرط في طقوس ملطّخة بالهرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تجديفيّة يعوزها الإحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة . ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها اختلاق من الأعداء لا أساس له، فربما كان في تلك الشائعات ما يُنبى عمّا يكفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام".

ولعل القارىء يدرك أن هذا درك في الفحش والتدني لا ينحط إليه انسان يحق له أن يدعى أنه ينتمى إلى هذا الجنس.

القيمة وصيغة التاريخ

ويُجمل رانسيمان اتساق مسلك الصليبيين عبر فترات الحملات الصليبية المتعاقبة والمتباينة والتي حاوزت قرنين من الزمان في عبارة بليغة إذ يقول :

"وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها في قبضة الصليبيين واحتفل الغزاة بنصرهم في وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلّم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهي المذابح سوى مذبحة القدس سنة ١٠٩٩م ومذبحة القسطنطينية سنة ١٢٠٤م. ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا في أنطاكية ولا في

عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراءً غير عادى ، وقد جُنّ جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذى عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين فى المدينة شاهدوا مصانعهم ومخازنهم تنتهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دمروه ؛ ولم تسلم الكنائس من نهبهم رغم أن سيدة قبطية كسيحة شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها، ومَنْ توانى منهم فى تسليم كل ممتلكاته قُتل هو وأسرته ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف سجين من المسيحيين واليهود والمسلمين لبيعهم رقيقا . وحُملت الأسلاب على ظهور الخيول والحمير والجمال التى سارت فى خط طويل لنقلها إلى السفن الراسية فى الميناء ، وبعدما انتهت الدواب من مهمتها قتلت فى أماكنها . وغرقت المدينة كلها فى رائحة جثث الآدميين والدواب".

ولا بد لنا من أن نشير هنا إلى أن كل باحث محايد لسوف يحنى الهامة احتراما لقدرة وحيدة رانسيمان مؤرخ الحملات الصليبية الذى تجىء فقرته السابقة كأبلغ تدليل على أن تلك الحملات لم تكن "مقدسة" ولم تنبعث فى ظل أية عقيدة تعتد بإنسانية الإنسان، ونحن فى ذلك كله لا نشير الى أي دين ، وإنما نشير إلى الصليبيين الذين تناءى بهم سلوكهم عن مقتضيات دينهم ، وليس أدل على ذلك مما أصاب المسيحيين أنفسهم على أيديهم.

قيمة تسود

وخلاصة القول أن الحملات الصليبية بعد قرنين ونصف من الزمان آذنت بانقضاء ما كان للإمبراطوريتين الغربية والشرقية من سلطان حاولتا فرضه فى كل حال باسم الإنتماء إلى عقيدة تدعو إلى التسامح وعدم اللجوء إلى القوة . وترتب على ذلك نشأة وتنامى قوة الإمبراطورية العثمانية شيئا فشيئا ، والتى أرسى قواعدها عثمان بن أرطغرل وتوالى من بعده سلاطين آل عثمان الذين لم يكد يمضِ بهم أكثر من قرن وربع قرن حتى استطاع محمد الفاتح أن يفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م . ولن نعرض هنا

لأحداث أو دوافع أو ظروف سياسية ، وإنما سنجمل القول فى أن الإمبراطورية العثمانية أتاحت لها مقوماتها أسباب البقاء كإمبراطورية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وهذا يعنى أنها بقيت مذ أرسى عثمان بن أرطغرل لبناتها الأولى فى مستهل القرن الرابع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين . ولا نحسب أن الإمبراطوريات العظمى تقوم ويقدر لها طول بقاء نتيجة لمقومات يمكن أن تنحصر فى نطاق ما هو سياسى أو عسكرى أو اقتصادى . فلا بد لتلك العوامل الأساسية كلها من عامل أهم يشكّل القيمة العليا الجامعة والمحرّكة لهذه العوامل . ونعنى بهذه القيمة العليا هنا العقيدة التى تزوّد الرجال بإيمان يحيلهم إلى أبطال واثقين من أنهم إنما يدافعون عن قضية حق تصل أسباب الأرض بقيم السماء . وليس أدل على ذلك من أنه لا يحق لباحث أن يفترض أن تلك القيمة العليا التى أشرنا إليها قد انقضت بانقضاء الإمبراطورية العثمانية.

الصليبية الجديدة

والذى حدث يتلخص فى أن خصوم الإسلام اجتهدوا فى التنائى بالمسلمين والعرب عن المقتضيات التى يلزمهم بها دينهم ، فعمدوا إلى إحياء الإتجاهات العرقية والنزوع إلى تحقيق المصالح الشخصية فى نفوس أناس كانوا فى محل قيادة الشعوب الإسلامية والعربية . وأبين مثال على ذلك ما تمثل فى شخصية قائد يحسب فى العادة على المسلمين وإن كان فى حقيقة الأمر أداة من أدوات التسلط والإستعباد والتنائى عن القيمة الحقة باسم العلمانية ، ألا وهو مصطفى كمال أتاتورك الذى جاء عند نهاية الإمبراطورية ليبتعد بالأتراك عن كل مقوّمة تمت إلى الإسلام والتراث الإسلامى بصلة. ففضلا عن علمانيته المعلنة ، وإقصاء الدين عن إدارة الدولة ، لم يدع اللغة التركية فى حروفها التى أكسبها الإسلام لها ، شأنها فى ذلك شأن كثير من الشعوب الآسيوية التى عرّب الإسلام لسانها أو أكسب لغتها حروف العربية وكثيرا من ألفاظها . وكان أتاتورك فى ذلك حريصا - حرص الشيوعيين الذين تولوا أمر عدد من تلك الشعوب - على أن تنبتّ الصلة بين شكل اللغة والتراث الذى تنتمى إليه ، حتى لا يتهيأ للأجيال الجديدة أو يسهل عليها سبيل دراسة العربية والعودة إلى ذلك التراث الهائل الذى يمكن أن يحرك فيهم ما يباعد بينهم وبين اولائك الذين تآمروا وحاولوا أن يجتثوا شأفة الإسلام.

ولعل من الواضح أننا لم نبتعد عن الحملات الصليبية فيما أسلفناه من فورنا . ذلك

أن ما حدث منذ أيام أتاتورك وما يحدث فى أيامنا إن هو إلا امتداد للحملات الصليبية ينتهج سبلا تختلف عن سبيل القتال الذى باء بالفشل بعد طول محاولة . فالحملات الصليبية ما تزال ممتدة حتى الآن فى صليبية جديدة عن طريق انتهاج سياسات التفرقة والتبعية والإحتواء ووأد القدرات والإمكانيات مما أدى إلى تفرق المسلمين والعرب فى دول ودويلات تتناءى بهم فيها الأحابيل والسياسات عمّا يبثه الإسلام من إيمان وعزمات قادرة . غير أن هذه الصليبية الجديدة تغيب عنها حقيقة ماثلة لن تستطيع أن تجد حيالها مخرجا ، وهذه الحقيقة تتمثل فى العقيدة الواحدة التى تجمع الشعوب الإسلامية والعربية على نهج واحد وتكفل لها أسباب البقاء على النحو الذى تبرزه وقائع التاريخ، وما العصر الذى نحياه بالنسبة للمسلمين إلا مرحلة من مراحل التدنى تشبه تلك الفترة التى هيّأت للصليبيين أن يحاولوا محاولتهم الطويلة دون طائل حقيقى . وإعمالا لمبدأ الحيدة الكاملة الذى توخيناه فى ترجمتنا لهذا الكتاب وفى تناولنا لما جاء به، ننهى هذه المقدمة بما يختتم به رانسيمان رحلته الطويلة المقتدرة مع الحملات الصليبية :

> "أما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من أوجه الفشل البيّن لا تفسير له . لقد كانوا يحاربون لنصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت قضية الرب تلك . وفى فورة النجاح الأولى وضعوا عنوانا لتواريخهم Gesta Dei per Francos (الفرنج قاموا بعمل الرب)."

وليس هناك أدنى شك فى أن رانسيمان يقرر فى وضوح أن القضية التى حارب الصليبيون تحت شعارها ليست قضية الرب ، وإنما قضية الرب الحقيقية تتمثل فى قوله : أحبوا أعداءكم!

الإسكندرية فى يونية ١٩٩٨

نور الدين خليل

مقـدمـة

تتجه النية فى هذا الجزء الثالث إلى تناول تاريخ الشرق الفرنجى والحروب المقدسة منذ إحياء المملكة الفرنجية وقت الحملة الصليبية الثالثة إلى انهيارها بعد ذلك بقرن ، مع خاتمة تجلو المظاهر الأخيرة للروح الصليبية . وهى قصة تتشابك فيها المواضيع . إن اضمحلال الشرق الفرنجى ، بصغار مآسيه المعقدة، تخللته من آن لآخر بصورة دورية حملات صليبية ضخمة انتهت جميعها، بعد الحملة الصليبية الثالثة ، إلى الانصراف عما جاءت من أجله أو أنها انتهت بكارثة . وفى أوروبا ، ورغم اعتياد ذوى النفوذ فيها على إظهار التملق للحركة الصليبية ، فلم تستطع حتى حميا ورع القديس لويس أن توقف تدهورها ، بينما وصلت العداوة بين العالم المسيحى الشرقى والغربى ذروتها التىتمثلت فيها أضخم فواجع العصور الوسيطة ، الا وهى تدمير الحضارة البيزنطية باسم المسيح . أما فى العالم الإسلامى ، فقد أسفر حافز الجهاد المستمر عن استبدال الأيوبيين الطيبين المهذبين بالمماليك الأكثر كفاءة والأقل عاطفة ، والذين قدر لسلاطينهم القضاء على ما كان في سوريا من فرنج . وأخيرا ، جاء المغول بغزوهم الطاغى ، وبدا أول الأمر أن مجيأهم ينطوى على انقاذ العالم المسيحى الشرقى، بيد أنه لم يكن لنفوذهم فى نهاية الأمر ، ولما كان عليه حلفاؤهم من سوء تدبير واساءة فهم، من أثر سوى الدمار . والحكاية كلها هى حكاية عقيدة وحماقة، شجاعة وجشع ، آمال وتخلص من أوهام.

ولقد أدخلت فصولا قصيرة حول التجارة والفنون في الشرق الفرنجى ، والمعالجة فيها من قبيل أداء الواجب بالضرورة ؛ فليس فى الامكان فصل التاريخ التجاري أو التاريخ الفنى لدولة استعمارية مثل الشرق الفرنجى عن التاريخ العام للتجارة أو للحضارة في العصور الوسيطة. ومن ثم حاولت ألاّ أتجاوز حدود مايتصل اتصالا وثيقا

بفهم الشرق الفرنجى.

وتاريخ الحملات الصليبية موضوع ضخم ليست له حدود محددة ؛ ومعالجتى له لا تمثل سوى اختيارى الشخصى. فإذا ما رأى القارئ أننى أخطأت فيما منحته من تركيز لشتى جوانبه ، فليس فى وسعى إلا الدفع بأن للكاتب أن يكتب كتابه بالطريقة التى يراها. وليس للنقاد أن يشكوا من أن الكاتب لم يكتب الكتاب على النحو الذى كانوا هم سيكتبونه لو أنهم تناولوا الموضوع . غير أن الأمل يحدونى فى ألاّ أكون قد حذفت ما يعد أساسيا لفهم الموضوع.

والديْن الضخم الذى أنا مدين به للكثير من الثقاة أمواتا وأحياء يظهر ، على ما أظن، فى الحواشى التى أثبتها . وإن تاريخ قبرص العظيم الذى كتبه السير جورج هيل، والتاريخ بالغ الدقة للحملات الصليبية المتأخرة الذى كتبه الاستاذ عطية، كلاهما أساسى لدراسة هذه الفترة، وعلى الطلبة أن يشعروا دوما بالامتنان للأستاذ كلود كاهن لما تحويه أعماله من معلومات عميقة العلم. ولابد لى أن أذكر ما أشعر به من أسى لوفاة م. جروسيت الذى كان لبصيرته ذات الرؤية الواسعة وكتاباته النابضة بالحياة أثر كبير فى تبيان سياسات الشرق الفرنجى والخلفية الآسيوية . ومرة أخرى ، لجأت إلى الدارسين الأمريكيين ، مثل الأستاذ لا مونت الذى رحل عنا ، والسيد ب. أ. ثروب.

ومرة أخرى اشكر اصدقائى فى الشرق الأدنى الذين ساعدونى أثناء رحلاتى هناك، وأخص بالذكر شركة بترول العراق ، ومدبرى مطبعة جامعة كامبريدج على فضلهم.

لندن ١٩٥٤

ستيفن رانسيمان

الباب الأول:

الحملة الصليبية الثالثة

الفصل الأول:

ضمير الغرب

ضمير الغرب

"لم تصدق ملوك الأرض وكل سطان المسكونة أن العدو
والمبغض يدخلان أبواب أورشليم"
(مراثى أرميا ٤ : ١٢)

تنتشر الأنباء السيئة بسرعة . إذ أن الرسل سارعوا إلى أمـراء الغـرب يخـبرونهم بمـا حدث و لم تكد معركة حطين تشرف على نهايتها الفاجعة ؛ وسرعان مـا تبعهـم رسـل آخرون يحملون نبأ سقوط القدس . وهبطت أنباء الكارثتين على العالم المسيحى الغربـى فأصابته بالهلع. وبرغم النـداءات الكثيرة مـن مملكـة القـدس فـى السـنوات المتأخرة، لم يتحقق أحد من الخطر الجاثم ، وباستثناء البلاط البابوى فيمـا يبـدو. وكـان المسـافرون باتجاه الشرق من الفرسان والحجاج قد وجدوا فى الدويلات الفرنجيـة حيـاة أكـثر ترفـا ونعيمامما يعرفونه في أوطانهم جميعها، وسمعوا عن غرائب البسـالة فـى الحـرب ، ورأوا التجارة وهى في قمة ازدهارها، وقد استعصى عليهم أن يتفهموا كيـف تحـدق المخـاطر بكل ذلك الإزدهار ، والآن بوغتوا بأن كل شـئ قـد انتهـى؛ فـالجيش المسـيحى قضـى عليه، والصليب المقدس ، أقدس الآثار فى العـالم المسـيحى ، بـات فـى أيـدى الكفـرة،

والقدس ذاتها ضاعت ؛ لقد انهار صرح الشرق الفرنجى كله في غضون أشهر قليلة ، وإذا ما كان لشئ أن يُنقَذ من الأنقاض، فلا مهرب من إرسال المساعدة ، وارسالها بسرعة.

أما اللاجئون الناجون من الكارثة ، فقد تزاحموا الآن خلف أسوار صور ، وساعدتهم حمية كونراد (أوف مونتفرات) التى لا تعرف الكلل على التشبث بشجاعتهم . إذ أن مصادفة وصوله السعيدة أنقذت المدينة من الاستسلام ، وراح اللوردات الذين افلتوا من قبضة صلاح الدين ينضمون إليه فى صور الواحد تلو الآخر وقبلوا زعامته بامتنان . على أنهم كانوا جميعا يعلمون أن صور لا قبل لها بالصمود دون أن يأتي الغوث من الغرب ، وأن احتمالات استعادة الأرض المفقودة منعدمة . وفى فترة الهدوء التى أعقبت أول هجوم لصلاح الدين على صور ثم رحيله عنها لفتح شمال سوريا، أرسلوا أكثرهم مهابة ، جوسياس ، رئيس أساقفة المدينة ليخبر البابا وملوك الغرب شخصيا بمدى احتياجهم إلى المساعدة احتياج اليائس. وفى ذات الوقت تقريبا أرسل الناجون من النظامين العسكريين نفس القصة المقلقة للتأثير فى إخوتهم الغربيين[1].

١١٨٧م : بعثة رئيس أساقفة صور

أبحر رئيس الأساقفة من صور فى أواخر صيف ١١٨٧م ، وبعد رحلة سريعة وصل إلى بلاط الملك وليم الثانى ملك صقلية الذى كان فى شدة الكآبة لما أشيع عن الكارثة. وبعدما سمع وليم من رئيس الأساقفة بما وصلت إليه من مدى ارتدى رداء من الخيش واعتزل الناس أربعة ايام ، كتب بعدها إلى زملائه العواهل يحثهم على الانضمام إليه فى حملة صليبية، وأنه هو نفسه قد أعد العدة لإرسال حملة إلى الشرق فى أسرع وقت ممكن . وقد سبق له أن حارب بيزنطة عام ١١٨٥م عندما حاول جنوده احتلال ثيسالونيكى وهزم هزيمة بشعة . على أن أسطوله الآن ما يزال مبحرا فى المياه القبرصية يساعد ايزاك كومنينوس اللورد الذى اغتصب قبرص فى تمرده على الامبراطور ايزاك

---

(١) عن رحلة جوسياس انظر Ernoul, pp. 247-8 :ويرد تقرير تيرينس Terence من فرسان المعبد إلى اخوته فى المعتقد، فى Benedict of Peterborough, II, pp. 13-14، ويرد تقرير فرسان المستشفى في Ansbert, *Expedition Friderici, pp.2-4* كما كتب تيرينس إلى هنرى الثانى ؛ Benedict of Peterborough, II, pp. 40-1.

أنجيلوس . وبسرعة سالم الامبراطور ، واستدعى الأدميرال الصقلي مرجاريتوس (أوف برينديزي) لإعادة تهيئة سفنه والإبحار إلى طرابلس بصحبة ثلاثمائة فارس . وفي ذات الوقت واصل رئيس الأساقفة جوسياس طريقه ترافقه سفارة صقلية إلى روما(٢).

وهناك فهم البابا أيضا مدى خطورة الأنباء ؛ إذ سبق أن أرسل أبناء جنوا بالفعل تقريرا إلى البلاط البابوي(٣)، في عهد البابا السابق ، إيربان الثالث ، الذي كان رجلا مريضا ولم يحتمل الصدمة فمات كمدا يوم ٢٠ اكتوبر(٤). لكن خليفته البابا جريجوري الثامن أرسل على الفور رسالة عامة إلى جميع المخلصين في الغرب يخبرهم بخطورة الخسارتين : الأراضي المقدسة والصليب المقدس؛ وذكّرهم بأن ضياع الرها قبل أربعين سنة كان ينبغي أن يكون بمثابة الإنذار ، أما الآن فالمطلوب عدم ادخار أي جهد؛ فليلجأ كل فرد إلى التوبة من آثامه ، وليدخر في السماء كنزا بأخذ الصليب . ووعد بمنح غفران عام لجميع الصليبيين؛ ولسوف ينعمون بحياة أبدية في السماء ، وسوف تحفظ مقتنياتهم التي على الأرض في حماية الكرسي البابوي . واختتم رسالته بالأمر بالصوم أيام الجمعة لخمس سنوات تالية والامتناع عن أكل اللحم أيام الأربعاء والسبت، وسوف يصوم الذين تحت إمرته، وكذلك تحت إمرة كاردينالاته أيام الإثنين أيضا . وانطلق رسل آخرون من روما يحملون لكافة امراء العالم المسيحي امرا بهدنة مدتها سبع سنين ؛ وقيل إن الكاردينالات أقسموا جميعا أن يكونوا من بين أوائل الذين يأخذون الصليب ، ولسوف يعتبرون أنفسهم رهبانا متسولين(٥) ويقودون الجيوش المسيحية إلى فلسطين(٦).

ولم يقدر للبابا جريجوري أن يشهد نتائج جهوده، إذ مات في بيزا يوم ١٧ ديسمبر ، بعد أن شغل البابوية لشهرين تاركا العمل لأسقف برابنيست الذي انتخب بعده بيومين على أنه كلمنت الثالث وبينما سارع كلمنت بالاتصال بعظماء عواهل

---

(٢) Ernoul, *loc. cit.*

(٣) Benedict of Peterborough, II, pp. 11-13.

(٤) *Annales Romani* in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae*, II, pp. 682-3.

(٥) (المترجم): mendicant friar: قديما كانت توجد بعض الأنظمة الدينية يعيش أفرادها على الصدقات فقط ولا يملكون شيئا.

(٦) أورد Benedict Peterborough, II,pp. 15-19 خطابات البابا بنصها. ومع ذلك ، فإن الشاعر البروفنسالي Giraut يعتبر أن نشاط البابا لم يكن كافيا (انظر Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 29-30).

الغرب ، ارتحل الامبراطور فريدريك بارباروسا ورئيس أساقفة صور عبر جبال الألب لمقابلة ملكي فرنسا وانجلترا[٧].

ولقد سبقته أنباء بعثته قبل أن يرحل . ذلك أن إيمرى ، بطريق أنطاكية المسن ، كتب في سبتمبر رسالة إلى الملك هنرى الثاني يخبره فيها بما يعانيه الشرق من محن ، وأرسلها مع أسقف بانياس لتسليمها بيده[٨]، وقبل أن يصل جوسياس رئيس أساقفة صور إلى فرنسا كان أكبر أبناء هنرى ، ريتشارد كونت بواتو، قد أخذ الصليب[٩]. وكان هنرى نفسه يحارب فيليب أوغسطس الفرنسي حروبا متقطعة لسنوات كثيرة . وعندما وصل جوسياس في يناير ١١٨٨م وجد الملكين في جيسور على الحدود بين نورماندى والأراضي الفرنسية ، حيث تقابلا لمناقشة الهدنة . وساعدته فصاحته في اقناعهما بالاتفاق على السلام والوعد بالذهاب في حملة صليبية بأسرع ما يمكنهما . وسارع فيليب كونت فلاندرز يحذو حذوهما ، وربما كان يشعر بالخجل لحملته الصليبية التي أجهضت قبل عشر سنوات ؛ وأقسم الكثير من كبار النبلاء على مرافقة الملكين. وتقرر أن تسير الجيوش معا على أن يضع الجنود الإنجليز صلبانا حمراء ، والفرنسيون صلبانا بيضاء ، والفلاندرزيون صلبانا خضراء . ولمجابهة نفقات الحملة فرض الملكان كلاهما ضرائب خاصة[١٠]، وفي نهاية يناير اجتمع مجلس الملك هنرى في لامان La Mans لاتخاذ قرار بدفع عشور صلاح الدين ، وقدرها عشرة في المائة ضريبة على الإيرادات والمنقولات تحصّل من كل فرد من رعايا الملك من العوام في كل من انجلترا وفرنسا . ثم عبر هنرى إلى انجلترا لإعداد مزيد من الترتيبات للحملة الصليبية التي دأب رئيس أساقفة كانتربرى - بلدوين - على التبشير بها تبشيرا متحمسا . وشرع رئيس أساقفة صور في رحلة العودة وهو مفعم بالآمال[١١].

وبعد مؤتمر جيسور مباشرة كتب هنرى رده على بطريق أنطاكية قائلا إن الغوث

---

(٧) *Annales Romani* in Watterich, *op. cit.* II, p. 692 .

(٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 36-8 .

(٩) Ambroise, *L'Estoire de la Guerre Sainte*, col.3; *Itinerarium Regis Ricardi*, p.32; Rigord, pp.83-4. ومن الناحية السياسية فشل المؤتمر الذى عقد فى جيسور Gisors.

(١٠) Benedict of Peterborough, II, p. 30; Ambroise, cols. 3-4; *Itinerarium*, pp. 32-3.

(١١) Benedict of Peterborough, II, pp. 30-2 .

قادم على جناح السرعة[١٢] على أنه لم يكن هناك ما يبرر تفاؤله، وقد جمعت عشور صلاح الدين بما يبعث على الرضا برغم محاولة أحد فرسان المعبد ، جيلبرت (أوف هاكستون) أن يأكل الأموال التي جمعها ؛ بينما كان وليم الأسد ، ملك الاسكتلنديين ومن أتباع الملك هنرى ، عاجزا تماما عن اقناع باروناته المسرفين بالاسهام بنس واحد. ووضعت ترتيبات حكم البلاد أثناء غيبة الملك ووريثه في الشرق[١٣]. غير أن الحرب اندلعت مرة أخرى في فرنسا قبل أن يتجمع الجيش بوقت طويل ؛ إذ تمرد بعض أتباع ريتشارد عليه في بواتو ، وفي يونية ١١٨٨م تورط في نزاع مع كونت تولوز . وغضب الملك الفرنسي للإعتداء على تابعه ، فبادر بغزو بيرى Berry ، فغزا هنرى بدوره أراضي فيليب ، وتواصلت الحرب طوال الصيف والخريف . وكانت مشاعر البنوّة لدى ريتشارد مزعزعة ، ولذا انضم في يناير ١١٨٩م إلى فيليب في هجوم ضد هنرى . وارتاع الكثير من المسيحيين الطيبين من هذه الحرب التي لا تنتهي ، ورفض بعض اتباع فيليب ، كونت فلاندرز وكونت بلوا ، حمل السلاح إلى أن تنطلق الحملة الصليبية[١٤] وكان البابا قد أرسل في خريف ١١٨٨م أسقف البانو ، ثم أرسل في الربيع التالي - بعد وفاة الأسقف - الكاردينال جون (أوف أناني) ، يأمر الملكين بعقد السلام بينهما ولكن دون جدوى . وأخفق بلدوين رئيس أساقفة كنتربرى بنفس القدر. وكان فيليب وريتشارد قد توغلا في أراضي هنرى الفرنسية طوال بدايات الصيف ، واستولى فيليب يوم ٣ يولية على قلعة تور العظيمة ، وفي اليوم التالي وافق هنرى ، الذى كان آنذاك في حالة مرضية يائسة ، على عقد سلام بشروط مهينة ، وبعد يومين اثنين ، وقبل التصديق على معاهدة السلام ، مات هنرى يوم ٦ يولية في شينون[١٥] Chinon.

١١٨٩م : استخلاف الملك ريتشارد

هدأ الوضع بموت الملك العجوز . ومن المشكوك فيه ما إذا كان قد خطر بباله قط

---

(١٢) *Ibid.* pp. 38-9.

(١٣) *Ibid.* pp. 44, 47-8.

(١٤) *Ibid.* pp. 34-6, 39-40, 44-9; Rigord, pp. 90-3.

(١٥) Benedict of Peterborough, II, pp. 50-1, 59-61, 66-71; Rigord, pp. 94-7; Roger of Wendover, I, pp. 154-60.

على نحو حاد أن يرى نفسه ذاهبا فى حملة صليبية ، على خلاف وريثه ريتشارد الذى كان عاقد العزم على الوفاء بقسمه ، وبرغم أنه قد ورث حتما نزاع أبيه مع الملك فيليب ، إلا أنه كان على استعداد لقبول أية تسوية تمكنه من حرية الانطلاق إلى الشرق ، لاسيما أن فيليب سينضم إلى الحملة الصليبية . أما فيليب فكان ما يشعر به من رهبة حيال ريتشارد أقل منها إزاء هنرى ورأى من سوء السياسة تأجيل الحملة الصليبية أكثر من ذلك ، وسرعان ما عقدت معاهدة ، وعبر ريتشارد إلى انجلترا كي يُتوّج ويتولى شؤون الحكم(١٦).

وجرت مراسم التتويج يوم ٣ سبتمبر ، اعقبتها أعمال اضطهاد بيّن لليهود فى لندن ويورك ، إذ كان المواطنون غيورين مما أسبغه عليهم الملك الراحل من محاباة ، ودائما ما كانت الحميّة الصليبية توفر ذريعة لقتل أعداء الرب . وعاقب ريتشارد مثيرى الشغب وسمح ليهودى كان قد تحول إلى المسيحية تفاديا للقتل بأن يعود إلى يهوديته . وأذهل المؤرخين التعليق الذى قاله بلدوين رئيس الأساقفة أنه إن لم يكن رجل الرب فالأفضل له أن يكون رجل الشيطان . ومكث الملك فى انجلترا طوال الخريف يعيد تنظيم ادارة البلاد ، ومُلئت المناصب الكنسية الشاغرة . وبعد إجراء بعض التغييرات الأولية، تم تعيين وليم لونجشامب ، أسقف إيلى ، مستشارا وقاضيا لجنوب انجلترا ، بينما عُين هيو ، أسقف دورهام ، قاضيا لشمال انجلترا وأيضا وكيلا في ويندسور . ومُنحت الملكة الأم إلينورا سلطات نائب الملك لكنها لم تكن تنوى البقاء في انجلترا . ومُنح اخو الملك ، جون ، اقطاعيات ضخمة في جنوب غرب البلاد وقد سبق أن صدر بحقه حظر، له ما يبرره، من دخوله انجلترا وسُحب هذا الحظر على وجه السرعة. وبيعت الضياع الملكية لجمع المال ، واجتمعت أثمانها مع الهدايا وعشور صلاح الدين لتوفر للملك ثروة ضخمة ؛ وأرسل وليم ملك اسكتلندا عشرة آلاف جنيه نظير تحرره من الولاء للتاج الإنجليزى واستعادته لمدينتي بيرويك وروكسبورج اللتين سبق أن فقدهما في عهد هنرى(١٧).

وفي نوفمبر جاء روترود ، كونت بيرش ، من فرنسا ليعلن أن الملك فيليب كاد أن يستكمل استعداداته للحملة الصليبية وأعرب عن رغبة الملك في مقابلة ريتشارد في

---

(١٦) Benedict of Peterborough, II, pp. 74-5; Roger of Wendover, I, pp. 162-3.

(١٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 80-8, 97-101; Roger of Wendover, I, pp. 164-7; Ambroise, cols.6-7.

فيزيلاى يوم أول ابريل لمناقشة رحيلهما معا[١٨]. وفى نهاية عام ١١٨٨م وصلت إلى البلاط الفرنسي رسالة من عملائه في القسطنطينية مفادها أن الناسك المقدس دانيال تنبأ بأنه في السنة التى يقع فيها عيد البشارة[١٩] فى يوم أحد الفصح سوف يستعيد الفرنج الأراضي المقدسة ، وسوف يحدث اقتران اليومين هذا في عام ١١٩٠م . وأضاف التقرير أن صلاح الدين يواجه اضطرابات نظرا للنزاعات الدائرة فى عائلته ومع حلفائه، حتى برغم مساعدة الامبراطور إيزاك عديم التقوى، وسرت شائعة بأن صلاح الدين نفسه قد هزم هزيمة نكراء بالقرب من أنطاكية[٢٠]. و لم تكن الأخبار الواردة إلى فرنسا في العام التالى بمثل هذا التفاؤل الكبير ، غير أنه عرف أن الفرنج بدأوا يأخذون زمام الهجوم، بفضل المساعدة الصقلية[٢١]. وفضلا عن ذلك ، كان الامبراطور الغربى فريدريك بارباروسا في طريقه بالفعل إلى الشرق[٢٢] وقد حان الوقت لملكي فرنسا وانجلترا لينطلقا.

ووافق الملك ريتشارد ، مسترشدا بنصيحة مجلسه ، على أن يكون تجمع القوات في فيزيلاى ، وعاد إلى نورماندى في عيد الميلاد وأعد العدة للانطلاق إلى فلسطين في أواخر الربيع ، على أنه في اللحظة الأخيرة تقرر تأجيل كل شئ لوفاة ملكة فرنسا ايزابيلا (أوف هينو) في وقت مبكر من شهر مارس[٢٣] وحدث اللقاء في فيزيلاي يوم ٤ يوليه لا قبله ، بين الملك وفرسانه ومشاته ، استعدادا للإنطلاق في مشروعهم المقدس[٢٤].

١١٨٩م : إبحار الأسطول الإنجليزي

ومضت ثلاث سنوات على نكبة حطين التى حلت بمملكة القدس ، ومن حسن

---

(١٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 92-3.

(١٩) (المترجم): Annunciation بشارة المَلَك جبريل لمريم بحبلها بالمسيح.

(٢٠) *Ibid.* II, pp. 51-3 .

(٢١) *Ibid.* II, pp. 51-3

(٢٢) انظر ادناه (ص٤٤).

(٢٣) Benedict of Peterborough, II, p. 108; *Itinerarium,* p.146; Rigord, pp. 97-8 .

(٢٤) Benedict of Peterborough, II, p. 111; *Itinerarium,* pp. 147-9; Ambroise, cols. 8-9; Rigord, pp. 98-9.

حظ الفرنج أن كان هناك صليبيون آخرون ليسوا على هذا القدر من التمهل ؛ إذ أن الإستجابة الفورية من الملك وليم الصقلي أنقذت صور وطرابلس من الضياع . ومات وليم يوم ١٨ نوفمبر ١١٨٩، وكان على خليفته تنكريد أن يواجه اضطرابات في بلده[٢٥] على أنه وصل في سبتمبر أسطول يتألف من سفن دانمركية وفلمنكية (فلاندرز)، بالغت التواريخ المتفائلة في تقدير عددها بأنه خمسمائة سفينة، قبالة الشاطئ السورى؛ وجاء في نفس الوقت تقريبا جيمس ، لورد أفين ، أشجع فرسان فلاندرز[٢٦] وحتى الإنجليز، لم ينتظروا جميعا مليكهم لكي يتحركوا، وإنما أبحر أسطول صغير من أبناء لندن، مغادرا نهر التيمز في أغسطس، ووصل في الشهر التالى إلى البرتغال حيث وافقوا، كما فعل رفاقهم قبل أربعين سنة ، على الالتحاق باعمال مؤقتة لدى ملك البرتغال، وبفضل مساعدتهم تمكن الملك سانكو من أن ينتزع من الاسلام قلعة سيلفيس الواقعة شرق رأس القديس فينسينت . وفي يوم عيد ميخائيل كبير الملائكة (٢٩ سبتمبر) واصل اللندنيون إبحارهم خلال مضيق جبل طارق[٢٧]. غير أن أضخم قوة كانت قد شرعت فعلاً في الرحيل إلى الأراضي المقدسة هي جيش الامبراطور فريدريك بارباروسا .

وكان لأنباء الكوارث التى حلت بفلسطين عميق الأثر لدى فريدريك . فمنذ أن عاد مع عمه الملك كونراد من الحملة الصليبية الثانية التعيسة وهو يتلهف على محاربة الكفرة مرة اخرى . وقد تقدم به العمر الآن ، إذ كاد يبلغ السبعين من عمره، وأمضى في حكم المانيا خمسا وثلاثين سنة . ولم تمح السنون شجاعته ولا جاذبيته ، وانما تعلم الحذر من تجاربه المريرة الكثيرة . ولم تكن هناك روابط شخصية كثيرة تربطه بفلسطين التى لا تضم من المستوطنين من أصل الماني سوى القليل ، وأدى خلافه الطويل مع البابوية إلى أن تحجم الحكومة الفرنجية عن طلب مساعدته ، على أن آل مونتفرانت كانوا دائما من بين مناصريه ، وربما أدت شجاعة كونراد في الدفاع عن صور إلى تحريك مشاعره . وبسبب زواج وريثه هنرى مؤخرا من الأميرة الصقلية كونستانس ، أصبح على علاقة وثيقة بنورمانديي الجنوب ؛ وبوفاة البابا اربان الثالث في خريف عام

---

(٢٥) انظر Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 416-18. ويرد موت وليم في كافة التواريخ الأنجلو-رومانية والفرنسية على أنه كارثة.

(٢٦) Benedict of Peterborough, II, p. 94; *Itinerarium*, p. 65; Ambroise, cols. 77-8.

(٢٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 116-22; Ralph of Diceto, II, pp.65-6; *Narratio Itineris Navalis ad Terram* Sanctam, passim.

١١٨٧م تمكن من التصالح مع روما . وكان جريجورى الثامن شغوفا بانضمام مثل هـذا الحليف الرائع لإنقاذ العالم المسيحي ، كما كان كليمنت الثالث ودودا بنفس القدر[٢٨].

في اليوم السابع والعشرين من مارس ١١٨٨م، أخذ فريدريك الصليب في مينز من يد الكاردينال ألبانو. وكان ذلك اليوم رابع أيام الأحد في فترة الصوم الكبير Lent الذي يعرف من صلاة القداس الافتتاحية على أنه[٢٩] Laetare Hierusalem، بيد أنه انقضى ما يزيد على عام قبل أن يتهيأ للرحيل إلى الشرق . ومُنحت الوصاية على املاكه لإبنه الذي سوف يصبح هنرى السادس . أما غريمه الكبير في المانيا - هنرى أسد ساكسونيا - فقد صدرت له الأوامر إما أن يتخلى عن حقوقه في جزء من أراضيه ، أو ينضم إلى الحملة الصليبية على حسابه الخاص ، أو يُنفي لثلاث سنوات ؛ فاختار الحل الأخير وتقاعد في بلاط زوج أمه هنرى الثاني في انجلترا[٣٠] وبفضل التعاطف البابوي ، هدأت الكنيسة الألمانية بعد سلسلة طويلة من المشاحنات . وتعززت الحدود الغربية لألمانيا بانشاء منطقة عسكرية جديدة[٣١] Margravate. وبينما كان فريدريك يجمع جيشه كتب إلى عواهل الأراضي التى سوف يعبرها، ملك هنجاريا والإمبراطور ايزاك أنجيلوس والسلطان قلج أرسلان السلجوقى ؛ وأرسل إلى صلاح الدين سفيرا ، هنرى (أوف ديتز)، برسالة متبجّحة يطالبه فيها باعادة فلسطين كلها إلى المسيحين ويتحداه في معركة في ساحة زوآن[٣٢] في نوفمبر ١١٨٩[٣٣]. وقد رد ملك هنجاريا والسلطان السلجوقي برسائل تعد بتقديم المساعدة ، في عام ١١٨٨ وصلت سفارة بيزنطية إلى

---

(٢٨) لا تزال أفضل رواية عن حياة فريدريك الأول العامة هى التى أوردها Prutz في *Kaiser Friedrich I.* وأورد Ansbert حملته الكاملة إلى الشرق في *Expeditio Friderici* وكذلك في *Historia Peregrinorum*، و *Epistola de* Morte Friderici Imperatoris. ونشرت كل تلك التواريخ في Chroust, *Quellen zur Geschichts des Kreuzzuges* Kaiser Friedrichs I.

(٢٩) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* v, 2, pp. 1143-4.

(٣٠) Benedict of Peterborough, II, pp. 55-6.

(٣١) Hefele-Leclercq, *op. cit.* p. 1144, with references.

(٣٢) (المترجم): Zoan: التسمية التى أطلقها الكتاب المقدس على مدينة تانيس Tanis بدلتا مصر القديمة.

(٣٣) Ansbert, *Expeditio Friderici,* p. 16. وترد نسخة من رسالة فريدريك إلى صلاح الدين في تاريخ Benedict of Peterborough, II, pp. 62-3 ويكاد زيفها أن يكون يقينيا.

نورمبرج للترتيب لتفصيلات مرور الصليبيين عبر اراضي ايزاك[٣٤]. على أن رد صلاح الدين كان كيّسا متعاليا؛ إذ عرض الافراج عن أسرى الفرنج وإعادة الأديرة اللاتينية في فلسطين إلى أصحابها، لا أكثر، وإلاّ فهي الحرب.

١١٨٩م : الامبراطور فريدريك يغادر ألمانيا

في باكورة شهر مايو ١١٨٩، انطلق فريدريك من راتسيبون ، يصحبه ابنه الثاني فريدريك (أوف سوابيا) وكثيرون من كبار أتباعه ؛ وكان جيشه أكبر قوة تجتمع حتى ذلك الوقت لتنطلق في حملة صليبية ، وكان جيد التسليح والإنضباط[٣٥]. ورحب به الملك بيلا ترحيبا ودودا اثناء عبوره هنجاريا و لم يدخر جهدا في تقديم كل ما يطلبه من تسهيلات . وفي ٢٣ يونية عبر نهر الدانوب عند بلجراد ودخل الأراضي البيزنطية[٣٦]، فبدأ سوء التفاهم . إذ أن الامبراطور ايزاك أنجيلوس لم يكن بالرجل الذي يعالج موقفا يتطلب المهارة والصبر والشجاعة . لقد كان ذكيا ، ولكنه كان من رجال الحاشية ضعيف الإرادة ووصل إلى العرش مصادفة ويعي دائما وجود أنداد له في اراضيه ؛ لقد كان مرتابا في مسووليه جميعا لكنه لم يجرؤ على مراقبتهم مراقبة صارمة . كما أن القوات المسلحة لإمبراطوريته وخزائنها لم تبرأ من الإستنزاف الذي فُرض عليها إبان عهد المجد الزائف لمانويل كومنينوس ، وأما محاولة الامبراطور أندرونيكوس إصلاح الإدارة فقد انتهت بسقوطه ، وباتت الآن أكثر فسادا من أى وقت مضى ، وكانت الضرائب الباهظة الظالمة تسبب الإضطراب في البلقان ؛ فكانت قبرص ثائرة تحت ايزاك كومنينوس ، وضاعت كيليكيا للأرمن ، وكان الأتراك يقتطعون من الأقاليم الامبراطورية في وسط الأناضول وجنوبها الغربي ، وقد شن النورمانديون هجوما ضخما على إيبروس ومقدونيا، وكانت هزيمة النورمانديين هى النصر العسكري الوحيد الذي تحقق في عهد ايزاك انجيلوس ، أما فيما عداه فكان يستند إلى الدبلوماسية ؛ فدخل فى تحالف وثيق مع صلاح الدين مما أثار رعب فرنج الشرق ؛ ولم تكن دوافعه

---

(٣٤) Ansbert, *Expeditio Friderici*, p. 15; Hefele-Leclercq, *loc. cit.*.

(٣٥) بقدر Arnold of Lubeck أن احصاءً اجري للجيش عند عبوره نهر ساف، فكان هناك خمسون الف فارس ومائة الف راجل (pp.130-1) ويقدر المؤرخون الألمان أن قوام الجيش كله كان مائة الف.

(٣٦) Ansbert, *Expeditio Friderici*, p. 26.

أن يقضى على مصالحهم ، وانما كان يستهدف كبح قوة السلاحقة. وكان قد أنجز انجازا طارئا بإعادة الأماكن المقدسة في القدس إلى الرعاية الأرثوذكسية ، لكنه انجاز صدم الغرب خاصة . ولكي يعزز من قبضته على البلقان صادق ملك هنجاريا - بيلا - وتزوج ابنته الصغرى مارجريت عام ١١٨٥ ؛ لكن الضرائب غير العادية التى فرضها بمناسبة الزواج كانت الشرارة التى فجّرت تمرد الصرب والهنجاريين المتوقدين، ولم يستطع جنرالاته سحق المتمردين برغم القليل من النجاح أول الأمر . وعندما ظهر فريدريك في بلجراد كانت هناك دويلة صربية مستقلة تشكلت فعلا في التلال الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة ؛ وعلى الرغم من أن القوات البيزنطية كانت ما تزال تستحوذ على الغابات بطول الطريق الرئيس الذاهب إلى القسطنطينية ، كان قطاع الطرق المنجاريون هم أسياد الريف[٣٧].

١١٨٩م : فريدريك في البلقان

لم يكد الجيش الألماني يعبر نهر الدانوب حتى بدأت المتاعب ؛ إذ راح قطاع الطرق الصرب والبلغار يهاجمون الجماعات الشاردة ، وارتاع الريفيون وتوجسوا من الألمان الذين اتهموا البيزنطيين في الحال بالتحريض على تلك العداوة ، ولم يتحققوا من أن ايزاك كان أضعف من أن يضع حدا للمتاعب . وكان فريدريك حصيفا عندما سعى إلى مصادقة زعماء التمرد ؛ فجاء ستيفن نيمانيا أمير الصرب مع أخيه سراسيمير إلى مدينة نيش لتحية العاهل الألماني أثناء مروره بالمدينة في يولية ؛ وأرسل زعيما التمرد البلغاري، الأخوان فلاخ ، ايفان آسين وبيتر ، رسائل إلى العاهل الألماني يعدانه بتقديم المساعدة . وتسببت تلك المفاوضات في اثارة مشاعر قلق ليست غير طبيعية في القسطنطينية . وقد كان ايزاك مرتابا من قبل في نوايا فريدريك ؛ إذ أنه أرسل سفيريه السابقين في البلاط الألماني وهما جون دوكاس وقنسطنطين كانتاكوزينوس ، لتحية فريدريك فور دخوله الأراضي البيزنطية . وذهل صديقهما القديم المؤرخ نيستاس خونياتيس عندما وجدهما ينتهزان الفرصة ويحرضان فريدريك ضد ايزاك ، الذى سرعان ما علم بتآمرهما. وبينما كان مرافقو فريدريك يشيرون بمخططاتهم ما كان

---

(٣٧) عن ايزاك أنجيلوس انظر Cognasso, `Un Imperatore Bizantino della Decadenza. Isacco II Angelo'in *Bassarione*, vol. XXXI, pp. 29 ff., 246 ff.. وبرد خطاب فريدريك الأول إلى هنرى في Bohmer, *Acta Imperii Selecta*, p. 152

يشعر به فعلا من انعدام الثقة في ايزاك التي سبق وان نشأت من تجاربه أثناء الحملة الصليبية الثانية ، في تلك الأثناء تخلت عن ايزاك حكمته . فحتى ذلك الوقت كان نظام الجيش الألماني ، واستعدادات السلطات البيزنطية لإعادة تموين الجيش ، قد ساعدا في الحيلولة دون حدوث ما لا تحمد عقباه ؛ ولكن فريدريك احتل فليبوبوليس ومنها ارسل مبعوثين إلى القسطنطينية لإعداد ترتيبات عبور الجيش إلى آسيا، فما كان من ايزاك الا أن القي بالرسل في غيابة السجن وهو يقصد الاحتفاظ بهم رهائن كي يضمن تصرفا هادئا من فريدريك . ولقد أخفق اخفاقا تاما في الحكم على فريدريك الذي أرسل ابنه على الفور ، فريدريك (أوف سوابيا)، للاستيلاء على مدينة ديديموتيخوم في تراس كرهينة مضادة ، وكتب إلى ابنه هنرى في المانيا كي يحشد اسطولا لمهاجمة بيزنطة ، كما كتب إلى البابا ملتمسا بركاته لحملة صليبية ضد اليونانيين ، قائلا إنه ما لم يتحكم الفرنج في المضايق فلن تنجح الحركة الصليبية قط . وتوقع ايزاك وصول اسطول غربي ليساعد الجيش الالماني في هجومه على القسطنطينية ، فراح يراوغ لعدة أشهر إلى أن تراجع اخيرا وأطلق سراح السفراء الألمان. ورُقع السلام ترقيعا في ادريانوبل ، وأعطى ايزاك رهائن لفريدريك ووعد بتقديم السفن إذا وافق فريدريك على عبور الدردنيل وليس البوسفور ، كما وعد بتزويده بالمؤن أثناء عبوره الأناضول . وكانت رغبة فريدريك هي الانطلاق مباشرة إلى فلسطين ؛ فكظم غيظه ووافق على الشروط.

وكان سير الجيش الألماني في البلقان بطيئا للغاية ، وكان فريدريك في شدة الحرص بحيث لم يشأن عبور الأناضول في فصل الشتاء . فأمضى شهور الشتاء في أدريانوبل بينما كان سكان القسطنطينية يرتعدون خوفا من أن يرفض اعتذارات ايزاك ويهاجم مدينتهم . وأخيرا ، تحركت حملته كلها في شهر مارس ١١٩٠ هابطة إلى جاليبولي على الدردنيل ، وبمساعدة الناقلات البيزنطية عبرت إلى آسيا فتنفس ايزاك ورعاياه الصعداء[٣٨].

بمغادرة فريدريك الشاطئ الآسيوي للدردنيل اتخذ تقريبا الطريق الذي طرقه الاسكندر الأكبر قبل خمسة عشر قرنا ، عابرا جرانيكوس ونهر انجلوكوميتس اثناء فيضانه إلى أن اتخذ الطريق العام البيزنطي المرصوف الذي يربط ميليتوبوليس وبلقسير

---

(٣٨) Nicetas Choniates, pp. 525-37; Ansbert, *Expeditio Friderici*, pp. 27-66; *Gesta Federici in Expeditione Sacra*, pp. 80-4; Otto of St Blaise, pp. 66-7; *Itinerarium*, pp.47-9; See Hefele-Leclercq, *op. cit.* pp. 1147-9; Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 445-7.

الحديثة ، وعلى هذا الطريق اخترق كالاموس إلى فيلاديلفيا، حيث أظهر السكان الود أول الأمر ، لكنهم حاولوا بعض السرقات من حرس المؤخرة وعوقبوا . ووصل لاوديقيا يوم ٢٧ ابريل ، أي بعد ثلاثين يوما من عبوره الدردنيل ؛ ومن هناك اتجه إلى داخل البلاد بطول الطريق الذي اتخذه مانويل في مسيرته المهلكة إلى ميريوسيفالوم . وفي الثالث من مايو ، وبعد مناوشة مع الأتراك ، عبر ساحة المعركة حيث كانت عظام الضحايا ما تزال ظاهرة للعيان . وقد غدا الآن في الأراضي التي يسيطر عليها السلطان السلجوقي . وكان واضحا جليّا أن قلج ارسلان لم يكن ليترك الصليبيين يمرون في اراضيه سالمين - برغم ما وعدهم به . غير أنه ارتاع من حجم جيشهم ، فنشط في التسكع حول اطرافه ، يتصيد الشاردين ويتدخل في عمليات جمع الطعام . وأثبتت تلك التكتيكات فعاليتها ، إذ احتمع الجوع والعطش وسهام الأتراك ، فبدأت الاصابات تتوالى . واضطر فريدريك إلى اتخاذ طريق ملتف حول طرف سفوح السلطان داغ ثم إلى الطريق القديم من فيلوميليوم شرقا فوصل قونية يوم ١٧ مايو ، حيث كان السلطان وحاشيته قد انسحبوا امامه ، وبعد معركة حادة مع قطب الدين ، ابن السلطان ، تمكن كونراد في اليوم التالي من شق مدخل إلى داخل المدينة ، ولم يلبث بها طويلا وانما ترك جيشه يأخذ قسطا من الراحة في حدائق ميرام في الضواحي الجنوبية . وبعد ستة ايام انتقل إلى كارامان التي وصلها يوم ٣٠ مايو ومنها قاد الجيش خلال ممرات جبال طوروس دون مقاومة باتجاه ساحل سيلوقية الجنوبي . وكان الميناء الآن تحت سيطرة الأرمن ، فسارع بطريق الأرمن (كاثوليكوس) بارسال رسالة إلى صلاح الدين . وكان الطريق يخترق بلادا وعرة وتقلص الطعام واشتد لهيب حرارة الصيف[٣٩].

١١٩٠م : مصرع فريدريك بارباروسا

في العاشر من يونية هبط الجيش الضخم إلى سهل سيلوقية وأعد العدة لعبور نهر كاليكادنوس ليدخل المدينة . وتقدم الامبراطور على جواده مع حرسه الخاص ، ثم هبط إلى ناحية المياه . وما حدث بعد ذلك غير يقيني ، فإما أنه وثب من على جواده لينعش

(٣٩) Nicetas Choniates, pp. 538-44; Ansbert, *Expeditio Friderici*,pp 67-90; *Gesta Federici*, pp.84-97; *Epistola* de Morte Friderici, pp. 172-7; *Historcial* في *Itinerarium*, pp. 49-53. الطريق الذي سلكه فريدريك انظر Ramsay *Geography of Asia Minor*, pp.129-30 واما تحذير كاثوليكوس لصلاح الدين فقد أورده بهاء الدين Beha ed-Din (*P.P.T.S.*pp.185-9).

نفسه في تيار الماء البارد ووجد التيار أقوى مما كان يظن ، أو أن بدنه الطاعن في السن لم يتحمل الصدمة ؛ أو أن جواده انزلق وألقى به في الماء حيث غرق بثقل ما كان يحمله من دروع . وفي وقت وصول الجيش إلى النهر كانت جثته قد انتشلت وبقيت ممددة على ضفة النهر(٤٠).

كان موت الامبراطور العظيم ضربة مريرة ليس فقط لرفاقه وانما للعالم الفرنجي كله، إذ أن أنباء مجيئه على رأس جيش ضخم قد شدت كثيرا من عزائم الفرسان المحاربين على الساحل السوري . وبدت قوته وحدها كافية لدحر المسلمين ، وبانضمام جيوش ملكي فرنسا وانجلترا إليه ، التى كان مقررا أن ترحل حالا إلى الشرق ، فإن استعادة الأراضي المقدسة إلى المسيحية بدت يقينية . وكان صلاح الدين نفسه يخشى أن يكون تجمع الجيوش فوق طاقته . وعندما سمع أن فريدريك في طريقه إلى القسطنطينية أرسل كاتم سره ومترجم سيرته - بهاء الدين - إلى بغداد لتحذير الخليفة الناصر والدعوة إلى أن يتكتل المؤمنون للتصدي للتهديد ، واستدعى اتباعه جميعا للإنضمام إليه . وظل يجمع المعلومات عن كل مرحلة من مراحل تحرك الجيش الألماني ، وظن خطأ أن قلج ارسلان يساعد الغزاة سرا . وعندما سمع المسلمون فجأة بموت فريدريك ، بدا لهم أنها معجزة مهداة اليهم من السماء ، وفي الإمكان الآن تقليص الجيش الذي تجمع لصد الألمان في شمال سوريا ، وأرسلت فصائل للإنضمام إلى قواته على الساحل الفلسطيني(٤١).

كان الخطر كبيرا على الإسلام ، وكان صلاح الدين محقا في أن يرى خلاصه فى مصرع الامبراطور . فبالرغم من هلاك عدد من الجنود الألمان ، وضياع بعض المعدات أثناء الرحلة الشاقة عبر الأناضول ، كان جيش الامبراطور ما يزال ضخما . غير أن الألمان ، بتلهفهم الغريب إلى عبادة زعيم ، عادة ما تضعف معنوياتهم باختفاء الزعيم . وهيمن الارتباك على جنود فريدريك . إذ أن دوق سوابيا الذى تولى القيادة كان يفتقر إلى شخصية ابيه . وقرر بعض الأمراء العودة مع اتباعهم إلى أوروبا ، واستقل آخرون

---

(٤٠) Nicetas Choniates, p. 545; Ansbert, *Expeditio Friderici*, pp.90-2; *Epistola de Morte Friderici*, pp.177-8; *Gesta* Federici, pp.97-8; Otto of St Blaise, -p.51; *Itinerarium*, pp.54-5; Ibn al-Athir,II,p.5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.183 .4.

(٤١) Ernoul, pp.250-1; *Estoire d'Eracles*,II, p140; *Itinerarium*, pp.56-7; Ambroise, col.87; Ibn al-Athir, *loc.cit.*; Abu Shama,pp.34-5. Beha ed-Din, .*P.P.T.S.* pp.189-91 ; Bar-Hebraeus, pp. 332-4

سفينة من سيلوقية أو طرسوس إلى صور . وواصل الدوق مسيرته مع الجيش الذي تناقص عدده بصورة كبيرة ، في حمارة قيظ الصيف في سهل كيليكيا ، يحمل معه جثة الامبراطور المحفوظة في الخل . وقام الأمير الأرميني ليو بزيارة المعسكر الألماني من قبيل اللياقة بعد أن كان مترددا . و لم يتمكن القادة الألمان من عمل الترتيبات الكفيلة بإطعام رحالهم بما فيه الكفاية ، فانعدم الإنضباط بين الجنود ، وخاصة في غياب الامبراطور ، فكثير منهم جوعى ، وكثير مرضى ، وكلهم بين مشاكس وعنيد ، وأصيب الدوق نفسه بمرض عضال واضطر إلى أن يمكث في كيليكيا ، واستمر جيشه بدونه ، لكي يجابه هجوما سقط فيه ضحايا كثيرون بينما كان يعبر البوابات السورية . وكان من وصل إلى أنطاكية يوم ٢١ يونية مجرد جماعة من الغوغاء في حالة تدعو إلى الرثاء ، وبعد أيام قليلة وصل فريدريك دون سرايبا بعد أن تماثل الشفاء[٤٢].

الألمان في أنطاكية

ورحب الأمير بوهمند كونت أنطاكية بالألمان ترحيبا حارا . وكانوا في حالة دمار. فبدون قادتهم فقدوا حماسهم ، وبعد ما لا قوه من مشاق الرحلة كانوا على غير استعداد للتخلي عن رفاهية أنطاكية . كما أن ما أقبلوا عليه من إفراط في الملذات لم يكن له أثر في تقوية حالتهم الصحية . فقد اغتبط فريدريك (أوف سوابيا) لما لمسه من ترحيب بوهمند ، وتلقى دعوة من ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) من صور لزيارته، جعلته متلهفا على مواصلة الرحلة . على أنه عندما غادر أنطاكية في نهاية اغسطس كان الجيش بصحبته قد تقلص أكثر فأكثر ، ومن ثم لم يجد الكثير من الفرنج فائدة ترجى من أي جهد يبذل لمساعدتهم ، وكان معارضو كونراد جميعا يعلمون أن فريدريك ابن عمه وصديقه ، فدأبوا على الهمس بأن صلاح الدين قد دفع لكونراد ستين ألف بيزانت لكي يعمل على ابعاد فريدريك عن أنطاكية ، وهي المكان الذي يستطيع فيه أن يؤدي خدمات نافعة للقضية المسيحية . ومن الناحية الرمزية ، فشل مفعول الخل أيضا فتحللت جثة الامبراطور ، وبغاية السرعة دفنت بقاياه في كتدرائية أنطاكية ، لكن بعض العظام انتُزعت من الجثة وسافرت مع الجيش على أمل غاش في أن

---

(٤٢) Sicard of Cremona, p. 610; Otto of St Blaise, p.52; Abu Shama, pp.458-9; .Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.207-9.

يكون هناك جزء على الأقل من فريدريك بارباروسا منتظرا يوم القيامة في القدس[٤٣].

إن الإخفاق المروّع الذى منيت بـه حملـة الامـبراطور الصليبيـة ، أسـفر عـن تزايـد أهمية رحيل ملكى فرنسا وانجلترا إلى الشرق ، ليدليا بدلوهما في الصراع المصيرى المرير الذي اندلع على ساحل فلسطين الشمالى.

---

(٤٣) Abu Shama, pp. 458-60; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 212-14; Ernoul, p. 259.

الفصل الثانى:

عكـــا

عكــــا

"هأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك
بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور"
(إرميا ٢١ :٤)

أخطأ صلاح الدين فى ساعة الانتصار خطأ واحدا حسيما عندما ترك نفسه لمخاوفها من تحصينات مدينة صور ، فلو أنه زحف عليها بعد استيلائه على عكا مباشرة عام ١١٨٧م لفاز بها . وكان يظن أن استسلامها قد رُتب وإن تأخر لأيام قليلة، وعندما وصل إلى صور كان كونراد (أوف مونتفرات) قد وصلها قبله ورفض التفكير في الاستسلام ، ولم يكن لدى صلاح الدين آنذاك ما يعينه على ضرب حصار منظم حول المدينة ، فانتقل إلى أهداف أخرى أيسر في الاستيلاء عليها . وبعد سقوط القدس، هاجم صلاح الدين مدينة صور للمرة الثانية في شهر أكتوبر بجيش كبير وبكل ما لديه من آلات الحصار . غير أن الأسوار وراء البرزخ الضيّق صارت الآن حصينة بعدما قواها كونراد الذى خصص ما أحضره من أموال من القسطنطينية لتقوية الدفاعات كلها . ولم يستطع صلاح الدين النيل من الأسوار بآلات الحصار ، كما أن اسطوله دمّر في

معركة خارج مدخل الميناء، فرفع الحصار مرة أخرى وسرّح أغلب جنوده ، وقبل أن يأتي مرة أخرى لاستكمال فتح منطقة الساحل كان العون قد وصل من وراء البحار[١].

ولم تكن القوات التي أرسلها وليم الثاني الصقلي في أواخر الربيع من عام ١١٨٨ كبيرة ، إلا أنها كانت تتألف من أسطول جيد التسليح بقيادة الأدميرال مارجاريتوس ومئتين من الفرسان المدربين . وعلى أثر وصول هذه التعزيزات رفع صلاح الدين الحصار عن قلعة الكرك في يولية ١١٨٨م وأحجم عن مهاجمة طرابلس[٢] ويرضى الآن بالتفاوض على السلام . وكان هناك فارس من أسبانيا جاء إلى صور في الوقت المناسب للمشاركة في الدفاع عنها ، ولا نعرف اسمه ولكن من الدروع التي كان يرتديها كانوا يطلقون عليه الفارس الأخضر . وقد تأثر صلاح الدين كثيرا بشجاعته واقدامه ، وقابله بالقرب من طرابلس في صيف عام ١١٨٨م آملا أن يقنعه بالترتيب لهدنه وبإلحاقه بالخدمة مع العرب . لكن الفارس الأخضر أجاب بأن الفرنج لن يضعوا في اعتبارهم شيئا أقل من استعادة بلدهم ولا سيما وأن العون آتٍ من الغرب. فليخل صلاح الدين فلسطين، ولسوف يجد الفرنج بعد ذلك أكثر حلفائه اخلاصا[٣].

١١٨٨م : الإفراج عن الملك جوي

على الرغم من عدم إمكان التوصل إلى السلام ، أبدى صلاح الدين نواياه الودودة بأن اطلق سراح البعض من أبرز سجنائه . ولقد كان من عادته أن يُغوى لوردات الفرنج من أسراه بأن يفوزوا بحريتهم بالأمر بتسليم حصونهم اليه ، فكانت وسيلة رخيصة وسهلة في الحصول على القلاع . بل إن فروسيته مضت أبعد من ذلك ؛ فعندما فشلت الليدى ستيفانى سيدة منطقة الأردن في إقناع حاميتي كرك ومونتريال بالاستسلام لكي يُفرج عن ابنها همفرى (أوف طورون) ، أعاده صلاح الدين إليها

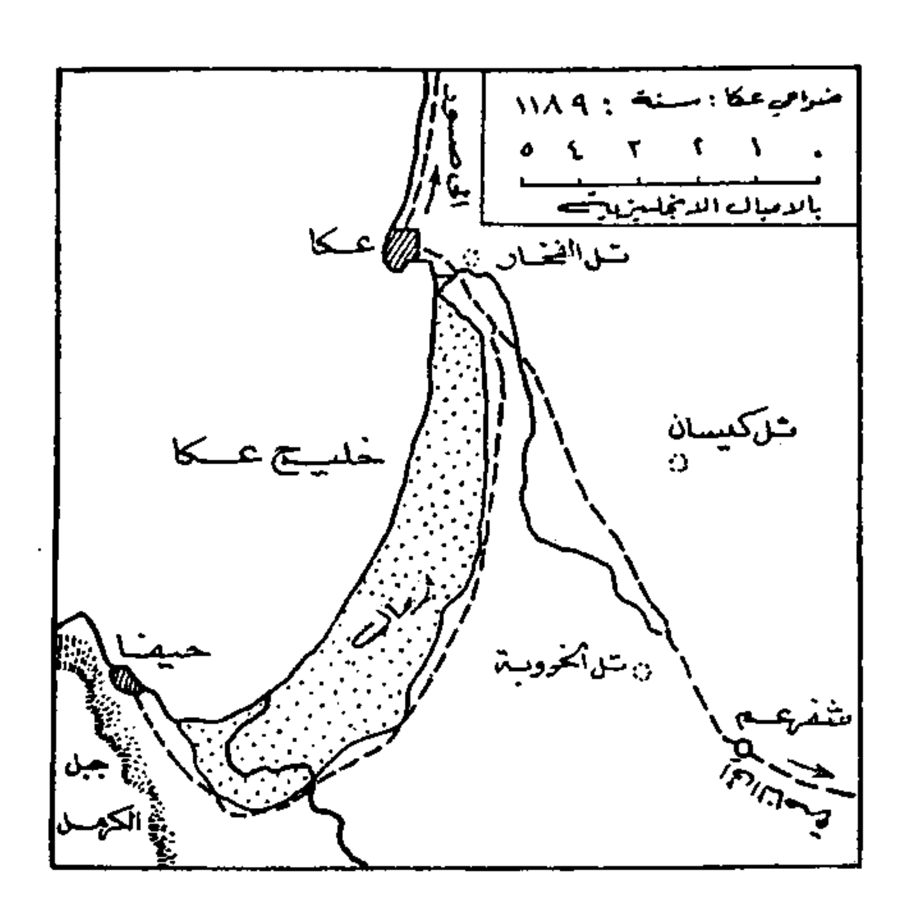
---

(١) انظر اعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحتان ٥٢٢-٥٢٣.

(٢) *Itinerarium*, pp.27-8; Benedict of Peterborough,II, p. 54; *Estoire d'Eracles*,II, pp.114, 119-20; Abu Shama, pp. 362-3; Ibn al-Athir, pp. 718, 720-1. ويقول تاريخ *Eracles* والمؤرخون الإسلاميون إن مارجاريتوس اجرى مقابلة مع صلاح الدين في اللاذقية.

(٣) .Ernoul, pp. 251-2.

خريطة رقم ١ : عكا



حتى قبل أن يستولى على القلعتين العنيدتين بالقوة . وكانت عسقلان هى ثمن الافراج عن الملك حوي ، لكن سكانها خجلوا من أنانية مليكهم فرفضوا احترام اتفاقه مع صلاح الدين . ولقد سقطت عسقلان الآن ، ولذا كتبت الملكة سيبيلا مرارا وتكرارا إلى صلاح الدين تتوسل اليه أن يعيد اليها زوجها . وفي يولية أجابها صلاح الدين إلى طلبها ، وبعد أن أقسم حوي أغلظ الأيمان بأنه سوف يعبر البحر عائدا إلى بلده وأنه لن يحمل السلاح قط في وجه المسلمين أُرسل مع عشرة من أبرز أتباعه ، بمن فيهم الكونستابل أماليك ، إلى طرابلس للانضمام إلى الملكة.وفي ذات الوقت سُمح لمركيز مونتفرات المسن بالذهاب إلى ابنه في صور(٤).

وتسبب ما كان عليه صلاح الدين من كرم وسخاء فى أن يشعر رفاقه بالخطر . إذ أنه لم يكتف بالسماح للمواطنين الفرنج فى كل مدينة تستسلم له بالذهاب إلى صور أو طرابلس للانضمام إلى رفاقهم، وإنما مضى أبعد من ذلك بأن صخّم حاميتي هاتين القلعتين المسيحيتين بالإفراج عن الكثير من اللوردات الأسرى. على أن صلاح الدين كان يدرى ما هو فاعل . ذلك أن مشاحنات التحزبات التى مزقت الفرنج في السنوات الاخيرة من مملكة القدس لم تخمد إلاّ قبل معركة حطين بأسابيع قليلة بفضل مهارة باليان (أوف ابلين)، ثم تفجّرت مرة أخرى في نفس مساء يوم المعركة ، بعد أن زادت الكارثة من مرارتهم . وراح مناصروا لوسينان وكورتناى يلقون بمسؤولية الكارثة على ريموند أمير طرابلس ؛ بينما وجد أصدقاء ريموند - وهم آل ابلين وآل حارنيه واغلب النبلاء المحليين - أسبابا أفضل ليلقوا باللائمة على ضعف الملك حوي ونفوذ فرسان المعبد ورينالد (أوف شاتيلون). والآن مات ريموند ورينالد ؛ ولكن المرارة لم تمت . ذلك أن النبلاء الذين حرموا من أملاكهم وظلوا محبوسين وسط الحشود وراء اسوار صور لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى تقاذف الاتهامات بين بعضهم البعض . والآن وبعد أن تملص باليان وأصدقاؤه من الأسر أعلنوا عن قبولهم لكونراد (أوف مونتفرات) زعيما لهم معتبرين أنه الوحيد الذى انقذ صور ؛ أما مناصروا حوى الذين برزوا من السجن بعد أن انتهت أسوأ مراحل الأزمة، فلم يكن في ناظرهم سوى متطفل وغريم محتمل لمليكهم . ولقد جاء الإفراج عن حوى ، وهو أمر أبعد ما يكون عن

---

(٤) عن مشكلة الافراج عن حوي ومكان وزمان الافراج عنه بدقة انظر اعلاه الجزء الثانى ص ٤٦٢, n.4 مع المراجع . ويشير Ernoul (p.253) وتاريخ هرقل *Eracles* (p.121) وبهاء الدين.P.P.T.S.) (p.143)إلى قسم حوى بعدم حمل السلاح ضد المسلمين . ويقول تاريخ *Itinerarium* إنه وعد بأن يهجر المملكة (p.25)كما يقول Ambroise (col.70) إنه وعد بالعودة عبر البحر . وبعد ذلك قال حوي إنه أوفى بوعده بذهابه من طرطوس الى جزيرة رودس (*Estoire d'Eracles, II*, p.131).

تقوية الفرنج ، ليصل بالمشاحنات إلى ذروتها(٥).

١١٨٨م : المنافسة بين جوي وكونراد

وانسحبت الملكة سيبلا إلى طرابلس، وربما كانت مدفوعة في ذلك بالرغبة في الهرب من الجو المعادى لزوجها . وبموت ريموند في خريف ١١٨٧م ، انتقلت طرابلس إلى الابن الأصغر لابن عمه ، بوهمند الأنطاكي الذي كان مستهترا لا يبالي بشئ ، ولذا ربما سرّه تعزيز الحامية في طرابلس و لم يعبأ بتجمع أنصارها اللوسينيين حولها . ولحق بها جوى فور إطلاق سراحه ، وعلى الفور عثر على أحد القساوسة ليحرره من قسمه الذى أقسمه لصلاح الدين . إذ كان قسما تحت الإكراه ولأحد الكفرة ولذا قالت الكنيسة إنه قسم باطل . وأغضب صلاح الدين أن يسمع بذلك غير أن دهشته جاوزت كل حد . وبعد أن زار جوى أنطاكية حيث وعده بوهمند وعدا مبهما بالمساعدة سار مع مناصريه من طرابلس إلى صور منتويا الاستيلاء على ما تبقى له من مملكته الغابرة. وأغلق كونراد البوابات في وجهه ، فكان كونراد وحزبه يرون أن جوي قد خسر المملكة فى حطين وأثناء أسره ، وقد تركها بلا حكومة ، وكان كل شئ خليقا بالضياع لولا تدخل كونراد . ولمّا طلب جوى أن يجرى استقباله كملك ، كان رد كونراد أنه يحتفظ بصور أمانة لعواهل الصليبيين الآتين لإنقاذ الأراضى المقدسة ، وعلى الإمبراطور فريدريك وملكي فرنسا وانجلترا أن يقرروا لمن تُعطى الحكم في نهاية الأمر . وبدا الجدل عادلا ويناسب كونراد تماما ؛ إذ ربما يحظى جوى في مطلبه بتأييد ريتشارد ملك انجلترا وهو السيد الأعلى للوسينيين في جين (بجنوب غرب فرنسا)؛ ولكن الامبراطور فريدريك وفيليب ملك فرنسا من أبناء عمومة كونراد ومن أصدقائه . وعاد جوى مغتمّا مع حزبه إلى طرابلس(٦). وسُر الصليبيون لإنشغال صلاح الدين في تلك الآونة باخضاع القلاع في شمال سوريا، وقد سرّح جيشه تسريحا جزئيا، ثم سرّح المزيد من الفصائل فى يناير ١١٨٩م. وقد أمضى هو نفسه الشهور الأولى من العام في القدس وعكا يعيد تنظيم حكومة فلسطين ، ثم عاد إلى عاصمته دمشق في مارس(٧).

---

(٥) ابن الأثير pp. 707-11 ، ينتقد بشدة سياسة صلاح الدين.

(٦) Ernoul, pp. 256-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 123-4; Ambroise, cols.71-3; *Itinerarium*, pp. 59-60.

(٧) Abu Shama, pp. 380-1; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 140-1.

وفي ابريل عاد جوى مع سبيلا إلى صور ومرة أخرى طلب منحه السيطرة على المدينة ، ولما وجد أن كونراد شديد العناد كسابق عهده ، عسكر أمام أسوار المدينة . وفي نفس الوقت تقريبا وصلت تعزيزات قيّمة من الغرب . ففي وقت سقوط القدس ، كانت مدينتا بيزا وجنوا تخوضان واحدة من الحروب المعتادة بينهما ، ومن بين انجازات البابا جريجورى الثامن أثناء بابويته القصيرة، مفاوضات الهدنة بينهما والوعد بأسطول من بيزا في حملة صليبية . وأبحر أبناء بيزا قبل نهاية العام لكنهم أمضوا الشتاء في ميناء ميسينا الواقع شمال شرق صقلية ، ووصلت سفنهم البالغ عددها اثنتين وخمسين سفينة إلى صور يوم ٦ إبريل ١١٨٩م تحت قيادة أوبالدو رئيس أساقفتهم . ويبدو أن أوبالدو تشاجر مع كونراد بعد وصوله مباشرة ، وعندما ظهر جوى ، انضم اليه ابناء بيزا . كما أنه فاز بتأييد القوات الصقلية التى انضمت إليه. وفى بداية الصيف حدثت بعض المناوشات الطفيفة بين الفرنج والمسلمين ، غير أن صلاح الدين كان مايزال يرغب فى أن تستريح جيوشه، وكان المسيحيون ينتظرون المزيد من المساعدة من الغرب . وفجأة هدم الملك جوي معسكره في نهاية أغسطس وانطلق مع أتباعه جنوب الطريق الساحلى للهجوم على عكا ، وأبحرت سفن بيزا وصقلية بمحاذاته.

١١٨٩م : جوي يصل أمام عكا

وكانت تلك حركة من حركات التهور اليائس ، وقرار رجل شجاع لكنه في ذات الوقت غاية في الحماقة. فبعد أن أحبطت رغبة جوي في أن يحكم صور ، شعر بحاجته الملحة إلى مدينة يستطيع منها أن يعيد انشاء مملكته . وكان كونراد آنذاك فى شدة المرض ، ورأي جوي الفرصة سانحة لكي يُظهر أنه هو القائد النشط للفرنج ، لكن المخاطرة كانت هائلة . ذلك أن حجم الحامية الإسلامية في عكا يجاوز ضعف حجم جيش جوي كله ، فضلا عن وجود قوات صلاح الدين النظامية في متناول اليد. ولم يكن أحد يتوقع النجاح لهذه المغامرة ، لكن للتاريخ مفاجآته . فإذا كان كونراد بطاقته الجامحة هو الذي أنقذ بقايا فلسطين للعالم المسيحي ، فإن حماقة جوي الطائشة هى التي حوّلت المد وبدأت حقبة جديدة من إعادة الغزو(٨).

كان صلاح الدين في التلال الواقعة وراء صيدا يحاصر قلعة بيوفورت عندما

(٨) Ernoul, p.257; *Estoire d'Eracles*, II, pp.124-5; Ambroise, cols.73-4; *Itinerarium*, pp.60-62; Beha ed-Din, *P.P.T.S. pp. 143-4*

وصلته أنباء حملة جوي . وكانت القلعة مشيدة على منحدر صخري شاهق وتبع لرينالد أمير صيدا وقد بقيت حتى آنذاك بما كان لسيدها من مكر . إذ أنه ذهب إلى بلاط صلاح الدين وسحر السلطان وحاشيته باظهار تقديره العميق للأدب العربى واهتمامه بالاسلام ، وألمع إلى أنه إذا توفر له بعض الوقت فسوف يستقر في دمشق بعد أن يتحول إلى الاسلام . غير أن الشهور انقضت ولم يحدث شئ سوى تقوية تحصينات قلعة بيوفورت . وأخيرا قال صلاح الدين في اوائل اغسطس إن الوقت قد حان لكي تستسلم قلعة بيوفورت وتبقي بمثابة ضمان لنواياا رينالد ، الذي اخذه المسلمون تحت الحراسة حتى بوابة القلعة حيث أمر قائد الحامية بتسليمها باللغة العربية ، وان يقاوم باللغة الفرنسية . ولم تنطل الخدعة على العرب ، لكنهم كانوا فاقدي الحيلة لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالهجوم ، وبينما كان صلاح الدين يجمع قواته لمحاصرتها ألقى برينالد في السجن في دمشق(٩). وظن صلاح الدين بادئ الأمر أن مسيرة جوي تستهدف سحب الجيش العربى بعيدا عن قلعة بيوفورت ، غير أن جواسيسه سرعان ما اخبروه أن جوي يريد عكا . وعندئذ أراد صلاح الدين مهاجمة الفرنج أثناء صعودهم سلم صور أو لسان الناقورة ، لكن مجلسه لم يوافق وانما رأي الأفضل أن يترك الفرنج يصلون إلى عكا لكي يقعوا بين الحامية وجيش صلاح الدين الرئيسي . ولم يكن صلاح الدين على ما يرام آنذاك ، فوافق على ما ارتآه المجلس وهو في حالة من الوهن(١٠).

وصل جوي إلى مشارف عكا يوم ٢٨ أغسطس وضرب معسكره على تل تورون، حاليا تل الفخار، الذي يبعد مسافة ميل شرقي المدينة ، على نهر بيلوس الصغير كي يتزود رجاله بالماء . وبعد ثلاثة أيام فشلت محاولته الاولى في الهجوم على المدينة ، فلبث ينتظر التعزيزات(١١). وكانت عكا قد بنيت على شبه جزيرة صغيرة ناتئة في خليج حيفا ، فوفر لها البحر الحماية من الجنوب والغرب وكذلك حاجز الأمواج القوي . وكان هناك حاجز أمواج متهدم يمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى صخرة يكللها حصن يدعي برج الذباب .Tower of Flies ووراء حاجز الأمواج مرفأ لا يؤثر فيه سوى رياح البحر البعيدة عن الشاطئ. وأما شمال المدينة وشرقها فقد توفرت لهما الحماية بأسوارها العظيمة التى تلتقي في الركن الشمالي الشرقي بزاوية قائمة مع حصن يدعى البرج

---

(٩) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 140-3, 150-3.

(١٠) *Ibid.* pp. 154, 175; Ibn al-Athir, II, p.6; Ambroise, cols. 74-5.

(١١) Ernoul, pp. 358-9; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 125-6

الملعون . Cursed Tower وكانت البوابتان الأرضيتان تقعان في نهاية كل سور من السورين على الشاطئ ، وكانت هناك بوابة ضخمة تفتح في المرفأ ، وبوابة ثانية تفتح على مرسى معرّض للرياح الغربية المستديمة . وكانت عكا في ظل ملوك الفرنج أغنى مدينة في المملكة ومكان اقامتهم المفضل ، ودائما ما كان صلاح الدين يزورها خلال الأشهر الأخيرة وقد اعتنى باصلاح الأضرار التي سببها جنوده أثناء الاستيلاء عليها. والآن اصبحت قلعة قوية بها حامية جيدة ومؤن وفيرة وخليقة بمقاومة طويلة(١٢).

وكانت التعزيزات قد بدأت تصل من الغرب في أوائل سبتمبر. فجاء أولا أسطول كبير يحمل الدانمركيين والفريزيين (قاطنو شمال هولاندا)، وهم جنود لا يعرفون الإنضباط لكنهم ملاحون مهرة كانت سفنهم ذات فائدة بالغة في احكام الحصار حول المدينة من البحر ، وخاصة عندما أدى موت وليم الصقلى فى نوفمبر إلى انسحاب الأسطول الصقلى(١٣). وبعد أيام قليلة جاءت سفن من ايطاليا تحمل كتائب البلجيك من الفلاندرز وكتائب الفرنسيين ، يقودهم الفارس المقدام جيمس (أوف آفيزن)(١٤)، وكذلك كونتات باروبرين وبريو ، وفيليب أسقف بوفيه . وقبل نهاية الشهر جاءت فرقة من الألمان بقيادة لويس ، الحاكم العسكرى في ثورينجيا، الذي فضّل السفر مع أتباعه بحرا على مرافقة الامبراطور. وكان معه كونت جيلدرز وفرقة من الايطاليين بقيادة جيرار رئيس أساقفة رافينا وأسقف فيرونا.

١١٨٩م : صلاح الدين ينتقل إلى عكا

شعر صلاح الدين بخطر هذه التعزيزات ، وبدأ يستدعي أتباعه مرة اخرى فجاءوا مع جزء من جيشه من بيوفورت ، تاركين فصيلة صغيرة لتنهي إخضاع الحصن. ولم يفلح هجومه على معسكر جوى يوم ١٥ سبتمبر ، غير أن ابن أخيه تقي الدين تمكن

---

(١٢) عن عكا انظر Enlart في *Les Monuments des Croisés*, vol. II, pp. 29.. ويرد وصف للمدينة في *Itinerarium*, pp.75-6.

(١٣) *Estoire d'Eracles*, II, pp.127-8; Ambroise, col.77، ويذكر أمبرواز بحارة من La Marche في وسط فرنسا و Cornwall أقصى جنوب غرب انجلترا؛ *Itinerarium*, pp.64-5. أنظر Riant في *Expéditions des Scandinaves*, pp.277-83

(١٤) عن James of Avesnes أنظر Benedict of Peterborough, II, pp. 94-5 ؛ Ambroise, *loc. cit.*: وفي *Itinerarium* يرد ذكر أسقف Beauvais ورفاقه والحاكم العسكري، وفي ٧٣-٤ يرد ذكر الإيطاليين

من اختراق خطوط الفرنج وإقامة اتصال مع البوابة الشمالية للمدينة، وضرب معسكره هو نفسه إلى الشرق قليلا من معسكر المسيحيين. وسرعان ما شعر الفرنج بقدرتهم على أخذ زمام الهجوم . وبينما كان لويس (أوف ثورينجيا) مارا بصور أقنع كونراد (أوف مونتفرات) بالانضمام إلى الجيش الفرنجي ، طالما وانه لن يكون مضطرا إلى الخضوع لأوامر جوي . وفي ٤ أكتوبر ، وبعد أن حصن الفرنج معسكرهم الذي تركوه تحت قيادة جودفري أخي جوي ، شنوا هجوما كبيرا على خطوط صلاح الدين. وكانت معركة مريرة ؛ ذلك أن تقي الدين الذي كان على ميمنة العرب انسحب تمويها لينصب كمينا لفرسان المعبد الذين كانوا قبالته ، لكن صلاح الدين لم ينتبه للمناورة وانطلق لإنقاذه فأضعف واسطة جيشه وكانت النتيجة أن تداعى الوسط والميمنة فاستداروا هاربين بعد أن نزلت بهم خسائر فادحة ، ولم يكبح البعض عنان جيادهم إلى أن وصلوا إلى طبرية ، بل أن كونت برين توغل حتى خيمة صلاح الدين نفسه ، لكن ميسرة العرب كانت متماسكة، وعندما تفرقت صفوف المسيحيين لمطاردة الهاربين ، هاجمهم صلاح الدين بالميسرة وردهم وهم يفرون في فوضى إلى معسكرهم الذي كان يتعرض في نفس الوقت لهجوم عنيف قامت به حامية عكا . وصمد جودفرى (أوف لوسينان) في المعسكر ، وسرعان ما اصبح الجزء الأكبر من الجيش المسيحى آمنا خلف دفاعاته ، ولم يشأ صلاح الدين أن يجازف بالهجوم عليهم . وسقط الكثير من فرسان الفرنج على أرض المعركة ومن بينهم آندرو (أوف برين) ، وأصيب الجنود الألمان بالذعر ولحقت بهم خسائر جسيمة ، كما كانت خسائر فرسان المعبد جسيمة هى الأخرى ، إذ أُسر سيدهم الأعظم جيرار (أوف ريدفورت)، وهو الذى كان يمثل العبقرية الشيطانية للملك جوى في الأيام التي سبقت حطين ، ودفع حياته ثمنا لحماقاته . ولم ينقذ كونراد نفسه من الأسر سوى تدخل غريمه الشجاع الملك جوى(١٥).

ولقد كان النصر في جانب المسلمين ، وإن لم يكن كاملا ، إذ لم يبرح المسيحيون مكانهم؛ وأثناء الخريف جاءهم المزيد من المساعدة من الغرب، فقد وصل أسطول

---

(١٥) Ambroise, cols. 78-81; *Itinerarium*, pp.68-72; Ralph of Diceto, II, p.70; *Estoire d'Eracles* II, p.129; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.162-9 ويورد بهاء الدين مقالا نابضا بالحيوية إذ أنه كان حاضرا هو نفسه. ولا تطابق روايته تماما الرواية الواردة في*Itinerarium* ، فهو لا يذكر أي خروج قامت به الحامية. ويصف المناوشات التي سبقت pp.154-62. Abu Shama,pp. 415-22.

اللندنيين في نوفمبر بعد أن شد من أزره ما احرزه من نجاح في البرتغال[١٦]. ويتحدث المؤرخون عن مجئ صليبيين آخرين كثيرين من نبلاء فرنسا ومن فلاندرز وايطاليا، وحتى من هنجاريا والدانمارك[١٧]. وقد رفض الكثير من فرسان الغرب انتظار أسيادهم المتثاقلين. وبهذه القوات الاضافية تمكن الفرنج من استكمال حصار عكا من البر . لكن صلاح الدين كان يتلقى التعزيزات هو الآخر ، إذ أن أنباء ارتحال الامبراطور فريدريك بارباروسا التى شجعت المسيحيين دفعت صلاح الدين إلى استدعاء أتباعه من سائر انحاء آسيا ، بل أنه كتب إلى مسلمي المغرب واسبانيا قائلا إنه إذا كان العالم المسيحي الغربي يرسل فرسانه للحرب من أجل الأراضي المقدسة ، فينبغي لغرب العالم الإسلامي أن يحذو حذوه . فأجابوه بعبارات التعاطف وانما بالنذر اليسير من المساعدة الايجابية[١٨]. ورغم ذلك سرعان ما غدا جيشه ضخما بما فيه الكفاية لكي يحكم بدوره حصار المسيحيين أو يكاد ؛ وإذن أمسى المحاصِرون محاصَرين . وفي ٣١ أكتوبر احترقت خمسين سفينة من سفنه الاسطول الفرنجي ، وان كان ذلك ببعض الخسائر ، وجلبت الطعام والمؤن إلى داخل عكا ، وفي ٢٦ ديسمبر أعاد أسطول من مصر (أرمادا) فتح المواصلات مع المرفأ[١٩].

١١٩٠م : توقف إجباري للطرفين

واجه الجيشان بعضهما طوال الشتاء لا يغامر أيهما باشتباك عام . وقد كانت بينهما مناوشات وصراعات ، غير أنه كان هناك في الوقت نفسه اختلاط ودي سرى بينهما ، وبدأ الفرسان في الجانبين يعرفون ويحترمون بعضهم، وقد يحدث توقف للحرب بينما الزعماء يتمتعون بمناقشة ودية ، وكانت الدعوة توجّه إلى جنود الأعداء لحضور الاحتفالات والسمر في كل من المعسكرين ، وفي أحد الأيام تحدى صبية صغار يعيشون في معسكر العرب الصبية المسيحيين في معركة وهمية مرحة . وتميز صلاح الدين نفسه

---

(١٦) يورد *Itinerarium* التاريخ على انه سبتمبر. على انه إذا صحّت التواريخ التي أوردها Benedict و Ralph of Diceto (انظر اعلاه p.9, n.6) ، يكون شهر نوفمبر هو أبكر تاريخ تستطيع السفن فيه ان تصل الى سوريا

(١٧) *Itinerarium*, pp.73-4; Ambroise, col.84. ولم يرد تاريخ وصول كلٍ من هؤلاء

(١٨) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 171, 175-8; Abu Shama, pp. 497-506.

(١٩) *Itinerarium*, pp.77-9; Ambroise, cols. 84-5; Abu Shama, pp. 430-1.

بما أظهره للأسرى المسيحيين من طيبة وبما كان يرسله إلى الأمراء المسيحيين من هداياها ورسائل تتصف بالود. أما الأكثر تعصبا من أتباعه فكانوا يتساءلون عما حدث للجهاد الذي توسل صلاح الدين إلى الخليفة أن يبشر به ، كما أن هذا الجو الغريب استعصى على فهم الوافدين الجدد من فرسان الغرب . ومن الناحية الظاهرية ، كانت الحرب خلوا من المرارة ، لكن الجانبين كليهما كانا يصران اصراراً صارماً على النصر[٢٠].

وبرغم نوادر الكياسة هذه كانت الحياة في معسكر المسيحيين صعبة ذلك الشتاء، إذ نقص الطعام ولا سيما بعد أن فقد الفرنج السيطرة على البحر . وباقتراب الأحوال الجوية الأكثر دفئا أصبحت المياه تمثل مشكلة وانهارت ترتيبات المرافق الصحية ، فانتشر المرض بين الجنود . ودفعت تلك الصعاب كلا من جوي وكونراد إلى عقد اتفاق بينهما يقضي بأن يحتفظ كونراد بصور، وكذلك بيروت وصيدا بعد استردادهما، على أن يعترف بجوى ملكا. وبعد أن أبراما السلام بينهما على تلك الهيئة غادر كونراد المعسكر في مارس وعاد في نهاية الشهر بسفن محملة بالطعام والأسلحة ، وأقلع أسطول صلاح الدين من ميناء عكا لاعتراضه ، على أنه بعد معركة حامية الوطيس رُدت سفن العرب برغم استخدامها للنار الأغريقية وتمكن كونراد من النزول إلى الشاطئ ومعه المؤن . واستغل الفرنج المواد التي احضرها فشيدوا أبراج حصار خشبية حاولوا بها الهجوم على المدينة يوم ٥ مايو ، غير أن الأبراج أُحرقت[٢١].

وسرعان ما عاد ظهور المجاعة والمرض في معسكر المسيحيين الذين شعروا بقليل من العزاء عندما سمعوا بوجود مجاعة في عكا أيضا ، رغم أن السفن العربية كانت تشق طريقها حربا إلى داخل الميناء من حين لآخر حاملة معها مؤنا جديدة[٢٢]. ودأبت فصائل من المسلمين طوال الربيع على الانضمام إلى جيش صلاح الدين . وفي ١٩ مايو، يوم السبت السابع[٢٣]، بدأ في مهاجمة المعسكر الذي صمد لثمانية أيام من الحرب[٢٤]، وفي يوم ٢٥ يولية ، وهو يوم القديس جيمس ، دارت رحى معركة على نطاق شامل

---

(٢٠) Abu Shama, pp. 412, 433; Ibn al-Athir, II, pp. 6,9.

(٢١) *Itinerarium*, pp.79-85; Ambroise, cols.85-92; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.178-80; Ibn al-Athir, II, pp.18-21

(٢٢) *Itinerarium*, pp. 85-6, 88; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 181-2

(٢٣) (المترجم) السبت السابع: Whit Saturday بعد عيد الفصح ، تخليدا لنزول الروح القدس في عيد الخمسين او العنصرة (Pentecost انظر العهد القديم ، اعمال الرسل ٢).

(٢٤) *Itinerarium*, pp. 87-8.

حدث فيها أن قام جنود الفرنج بقيادة ضباط الصف، وضد رغبة قادتهم ، بهجوم جرئ على معسكر تقي الدين على ميمنة صلاح الدين ، فهُزموا هزيمة منكرة وهلك الكثير منهم ، وخف لنجدتهم رالف (أوف التا ريبا)، وهو صليبي انجليزي مرموق ، ورئيس شمامسة كولشيستر ، وقتل في المعركة[٢٥].

وخلال الصيف جاء إلى المعسكر صليبيون آخرون رفيعو النسب حيث لقوا الترحيب رغم أن كل جندي جديد كان يعنى فما جديدا يتعين إطعامه . وكان من بينهم الكثير من أعظم النبلاء الفرنسيين والبرجاندين ، الذين اسرعوا بالمجئ يسبقون مليكهم . فكان من بينهم تيبالد كونت بلوا، وأخوه ستيفن (أوف سانسير) والذي سبق أن عزف عن الزواج بالملكة سبيلا ، ورالف كونت كليرمونت ، وجون كونت فونتيني، وألان (أوف سانت فاليري)، مع رئيس اساقفة بيزانسون وأساقفة بلوا وتول وغيرهم من رجال الدين البارزين . وكانوا تحت امرة هنرى (أوف تروى) كونت شامباني ، وهو شاب مرموق للغاية إذ أن أمه - ابنة اليانور الأكيتانية من زواجها الفرنسى - كانت اختا غير شقيقة لملكي انجلترا وفرنسا، وكان كل من خاليه يقدّراه تقديرا عاليا . وفي الحال حصل على مركز خاص كمندوب للملكين ومبعوثهما . وتولى زمام عمليات الحصار الجارية التى كان يديرها حتى آنذاك جيمس (أوف افزن) ولاند جريف (أوف ثورينجيا)[٢٦] واستغل لاندجريف وصوله ليعود إلى اوروبا بعد أن كان مريضا لبعض الوقت ، وربما بالملاريا[٢٧] ووصل فريدريك (أوف سوابيا) مع بقايا جيش بارباروسا إلى عكا في اوائل اكتوبر[٢٨] وبعد أيام قلائل هبطت في صور فصيلة انجليزية وسارت جنوبا إلى عكا. وكان على رأسها بلدوين ، رئيس اساقفة

---

(٢٥) *Itinerarium* pp. 89-91; Ambroise, cols. 93-4، ويخطئ امبرواز في تحديد تاريخ معركة ويقول انها وقعت في يوم القديس جون بدلا من يوم القديس جيمس ؛ *Estoire d'Eracles,* II, p. 151;؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 193-6

(٢٦) *Itinerarium,* pp.92-4; Ambroise, col. 94; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 197. كان هنري ابن هنرى الأول كونت شامباني. وكان تيبالد (اوف بلوا) وستيفن (اوف سانسير) الأخوين الصغيرين لأبيه. وكانت عمته Alix زوجة ثانية للملك لويس السابع ، وأم الملك فيليب الذي كان لذلك ابن عمته من الدرجة الأولى وعمه من الدرجة الثانية.

(٢٧) مات لاندجريف في طريقه الى الوطن. ويتهمه Ralph of Diceto بأنه كان على علاقة بالأعداء وقبل منهم الأموال.(II, pp. 82-3)

(٢٨) Abu Shama, p. 474، يحدد التاريخ على انه ٤ أكتوبر؛ Beha ed-Din *P.P.T.S.* pp.209,213؛ *Itinerarium,* pp. 94-5.

كنتربرى[٢٩].

١١٩٠م : قتال متهاوش

انقضى الصيف كله في قتال متهاوش، وكل جانب ينتظر التعزيزات التى تمكّنه من أخذ زمام الهجوم ، فبعد أن استولى رجال صلاح الدين على بيروت ، انضموا اليه في عكا ، لكنه كان قد ارسل جنودا للتصدي لفريدريك بارباروسا في الشمال ، ولم يعودوا حتى الشتاء . وفي تلك الأثناء انقلبت المناوشات إلى اختلاط ودي . ولاحظ مؤرخو المسيحيين، والرضا يأخذ بألبابهم، عدة أحداث أنعم فيها الرب على البطولة الصليبية وخيّب مساعى العرب ، لكن جميع محاولاتهم لتسلق اسوار عكا باءت بالفشل. وشن فريدريك (أوف سوابيا) بعد وصوله مباشرة هجوما شرسا ، حاول بعده رئيس أساقفة بيسانسون دك المدينة بآلات حصار منجنيقية متطورة شُيِّدت حديثا . ولم يكن هناك طائل من أيّ من الهجومين[٣٠] وفي نوفمبر تدبر الصليبيون زحزحة صلاح الدين عن موقعه فى تل قيسان الواقع على بعد خمسة اميال من المدينة ، لكنه رسّخ قواته في موضع اقوى في تل خروبا الأبعد قليلا ، وقد مكّنهم ذلك من شق طريق إلى حيفا في بعثة للبحث عن الطعام خففت قليلا بعض الجوع في المعسكر . على أن كلا المدينة والمعسكر كانا يعانيان من الجوع والمرض ، ولم يكن أي منهما في وضع يمكنه من بذل أقصى جهد[٣١].

١١٩٠م : زواج كونراد وايزابيللا

كانت الملكة سيبللا من بين ضحايا المرض ذلك الخريف ، وقبل وفاتها بأيام قلائل كانت البنتان الصغيرتان اللتان ولدتهما للملك جوي قد لقيتا حتفهما[٣٢]. والآن

---

(٢٩) *Itinerarium* p. 93.

(٣٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 214-18; Abu Shama, pp. 480-1; *Itinerarium*, pp.97-109، ويرد في Itinerarium أحداث معجزات متنوعة وفي الصفحات ١٠٩-١١ هجوم على برج الذباب وفي الصفحات ١١١-١١٣ هجوم رئيس اساقفة بيسانسون؛ Ambroise, cols.98-104.

(٣١) *Itinerarium*, pp.115-119; Ambroise, cols. 105-8; Abu Shama, pp. 513-14

(٣٢) *Estoire d'Eracles*, II, p. 151 حيث يرد إسما البنتين على انهما أليس وماريا؛ Ernoul, p. 267 الذي يقول انها كان لها أربعة أطفال ؛ ويُرجع Ambroise, col.104 تاريخ وفاتها في نهاية اغسطس،

أصبحت الأميرة ايزابيلا هي وريثة المملكة، وبات عرش جوى في خطر ، إذ أنه قد فاز بالتاج كزوج للملكة . فهل تبقى حقوقه بعد وفاتها؟ أما بارونات المملكة الباقين على قيد الحياة ، يقودهم باليان (أوف ابيلين) فكانت تلك فرصتهم كي يتخلصوا من حكمه الضعيف المشؤوم . وكان مرشحهم للتاج هو كونراد (أوف مونتفرات). فلو أنه استطاع أن يتزوج ايزابيلا لصارت مطالبته اقوى من مطالبة جوى . وكانت الصعوبات تكتنف هذا الحل ، إذ أن شائعات قد انتشرت بأن كونراد لديه زوجه تعيش في القسطنطينية ، وربما زوجة أخرى في ايطاليا ، ولم يعبأ البتة بمحاولة الغاء الزواج أو الطلاق . لكن القسطنطينية وايطاليا بعيدتان ، وان كانت فيهما سيدتان مهجورتان ففي الامكان نسيانهما . على أن المشكلة الأعضل كانت تتمثل في زواج ايزابيلا من همفرى أمير تبنين الذي لم يكن على قيد الحياة وحسب، وانما موجود أيضا في المعسكر. وقد كان همفرى شابا فاتنا وشجاعا ومثقفا ، لكنه كان وسيما بصورة أنثوية بحيث لم يكن الجنود الغلاظ من حوله يحترمونه ، كما لم ينس البارونات قط ضعفه الذي دفعه إلى التخلي عن قضيتهم عام ١١٨٦م عندما نال جوى التاج متحديا للشروط الواردة في وصية الملك بالدوين الرابع . فقرروا أنه لابد وأن يُطلّق . وكان من اليسير اغواء همفري نفسه بالموافقة على الطلاق ، إذ لم يكن مناسبا للحياة الزوجية ؛ فضلا عن أنه امتلأ رعبا من المسؤوليات السياسية . غير أن ايزابيلا كانت أقل انقيادا منه ، إذ كان همفري دائما لطيفا معها ، ولم ترغب في استبداله بمحارب مقيت في أواسط عمره ، ولا طموحات لديها للتاج . وترك البارونات الأمر لأمها المقتدرة الملكة ماريا كومنينا ، زوجة باليان . فمارست عليها سلطة الأمومة التي دفعت الأميرة العازفة في نهاية الأمر إلى أن تهجر همفرى . ثم أعلنت أمام الأساقفة المجتمعين أن خال الأميرة، بلدوين الرابع، قد أجبرها على الزواج وأنها لم تكن قد جاوزت عامها الثامن عندما تمت ترتيبات الارتباط . وحيث انها في شرخ الشباب ، وبالنظر إلى ما هو معروف عن همفري من تخنث، فلا بد من إلغاء الزواج . وكان البطريق هيراكليوس في شدة المرض بحيث لم يتمكن من حضور الاجتماع وعيّن رئيس أساقفة كنتربري ليكون ممثله . ولأن هذا الأخير يعلم مدى شغف سيده الملك ريتشارد بأبناء لوسينيان ، فقد رفض النطق بابطال الزواج ، وانما ذكر زواج كونراد السابق وأعلن أن الزواج بين

بينما يرد في احدى مخطوطات Ernoul تاريخ ١٥ يولية. وفي وثيقة محررة في عكا بتاريخ شهر سبتمبر ١١٩٠ م ورد اسمها على انها على قيد الحياة ، ووردت على أنها ميتة في رسالة مؤرخة في ٢١ اكتوبر .*Epistolae Cantuarenses*, pp. 228-9 ويقول Rohricht في *Regesta*, *Addimentum*, p.67 انها ماتت يوم ١ أكتوبر ١١٩٠

كونراد وايزابيلا لن يكون سوى انغماس في علاقة زنا . على أن كونـراد كـان قـد فـاز برئيس اساقفة بيزا، الذي كان مندوبا بابويا، لمناصرة قضيته في مقـابل - هكـذا قيـل - امتيازات تجارية لأبناء بلدته ؛ وقام اسقف بوفيه - وهو من ابناء عمومة الملك فيليب - باستغلال مؤازرة المندوب البابوي لضمان الإتفاق العام على طلاق ايزابيـلا ، وقـام هـو نفسه بتزويجها من كونراد يوم ٢٤ نوفمبر ١١٩٠م . وشعر أبناء لوسينان بـالحنق مـن هذا الزواج الذي أطاح بحق حوي فـي العرش ، وتعـاطف معهم للغايـة أتبـاع الملـك ريتشارد القادمين من انجلترا ونورماندي وغيين[٣٣]. أما بلدوين رئيس الأسـاقفة ، وهـو متحدثهم الرئيسي ، والذي راح يقذف أوامر الطرد من الكنيسة لكل من له صلـة بهـذا الأمر ، فقد مات فجأة يوم ١٩ نوفمبر . وبذل المؤرخـون الإنجليز كـل مـا في وسـعهم لتلطيخ ذكرى كونراد . ومضى حوى نفسه شأوا بعيدا بحيث تحدى كونراد لملاقاتـه في نزال فردى ، لكن كونراد رفض حتى قبول مناقشة هذا الأمر، بعدما أيقن مـن أن حقـه المشروع قد اصبح الآن في جانبه ، وقد رمي أبناء لوسينان كونراد بالجبن . غير أن كـل من كان حريصا على مستقبل المملكة كان على يقين من أنه لكي يستمر الخط الملكي ، كان ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة اخـرى وأن تنجـب طفـلا ؛ وكـان مـن الواضـح أن كونراد ، الذى انقذ صور ، هو الذي يقع عليه اختيارها . ومكـث العروسـان في صـور حيث ولدت ايزابيلا في العام التالي بنتا سمّتها ماريا كي تكون سميّـة لجدتهـا البيزنطيـة . وكان كونراد - محقا فى رفضه لقب الملـك إلى أن يتـم تتويجـه هـو وزوجتـه ، ورفـض العودة إلى المعسـكر لأن حوي رفض التنازل عن أيّ من حقوقه[٣٤].

---

(٣٣) (المترجم) :Guienne, Guyenne منطقة تاريخية تقع جنوب غرب فرنسا.

(٣٤) Ernoul, pp. 267-8؛ وترد الرواية الأكثر اكتمالا وبأسلوب يخلو من الهوى في الجزء الثاني ، الصفحات ١٥١-٤ من *Estoire d'Eracles* ؛ أما الروايتان الواردتان في Ambroise, cols. 110-12 ، وفى *Itinerarium*, pp.119-24 ، فكلتاهما مشـربتان بـالعداوة المريرة إزاء كونـراد وباليـان والملكة ماريا كومنينا. وقد جاء في *Itinerarium* ان ايزابيلا رضيت طواعية، بينما من الواضح في *Eracles* أنها لم ترض إلا لأن رضاها كان واجبها السياسي. واستنادا الى Ernoul ، رضي همفري بالطلاق لأنه حصل على الرشوة . فجعلته ايزابيلا يحتفظ باقطاعيـة تبنين التى كانت في حوزة جده ثم ضمها بلدون الرابع الى التاج . ويقينا كانت زوجة كونراد الإيطالية قد ماتت قبل زواجه من الأميرة البيزنطية ثيودورا آنجيليا (Nicetas Choniates, p.497)ومن أسلوب رواية المؤرخ نيسـتاس يحتمـل ان زوجتـه البيزنطية كانت قد ماتت هى الأخرى (المرجع السابق .)pp.516-17 وأما حوي(اوف سينليس) الـذي عرض تحدي همفري في نزال اذا عارض الطلاق ، فقد أسره العرب عشية الزواج

١١٩١م : المجاعة في المعسكر الفرنجي

واستمر الصليبيين في بلاياهم طوال أشهر الشتاء ، ووصلت صلاح الدين تعزيزاته من الشمال وبات الحصار محكما الآن حول معسكر الفرنج ، فلا الطعام يصلهم برا ولا البحر الهائج الهادر شتاءً يسمح بتوصيل الكثير اليهم في أشهر الشتاء ، بينما تستطيع سفن العرب أن تشق طريقها حربا من حين لآخر إلى المرفأ في عكا. ومن بين اللوردات الذين لقوا حتفهم من المرض في المعسكر تيبالد (أوف بلوا) وأخوه ستيفن (أوف سانسير)[٣٥]. وفي ٢٠ يناير ١١٩١م مات فريدريك (أوف سوابيا)، ووجد الجنود الألمان أنفسهم بلا قائد رغم أن ابن عمه ، ليوبولد كونت النمسا الذى وصل من فينيسيا في باكورة الربيع ، حاول تنظيمهم تحت رايته[٣٦]. وكان هنرى (أوف شامباني) مريضا لأسابيع كثيرة بحيث باتت زوجته يائسة من شفائه[٣٧] والقى الكثير من الجنود ، وخاصة الإنجليز ، باللائمة على كونراد لما هم فيه من بؤس لأنه كان يمضى الوقت يداعب زوجته ورفض أن يخف لمساعدتهم . غير أنه مهما كانت دوافعه ، فمن الصعب أن نتخيل ما كان بوسعه أن يفعله، خاصة وان المعسكر كان بالفعل مزدحما بدونه[٣٨] ومن حين لآخر كانت هناك محاولات لتسلق الأسوار ، وبصورة ملحوظة يوم ٣١ ديسمبر ، عندما تحرك حطام سفينة اغاثة عربية ليقف عند مدخل المرفأ ، فصرف انتباه الحامية ، لكن محاولة الفرنج باءت بالفشل . وبعد ستة ايام انهار جزء من سور المدينة من ناحية البر، ولم يستطع الصليبيون انتهاز تلك الفرصة كذلك ، وهرب الكثير منهم إلى المسلمين . وبفضل مساعدة صلاح الدين ، وجهاز جواسيسه الماهر ، تمكن من ارسال قوة اخترقت خطوط الصليبيين يوم ١٣ فبراير ، ودخل المدينة قائد جديد وحامية جديدة لإغاثة المدافعين عن المدينة الذين نال منهم التعب والرهق ، لكنه تردد

---

(٣٥) أورد المؤرخ Haymar Monachus موت تيبالد واخيه في *De Expugnatione Acconis*, p.38. وترد المحن التي ابتلي بها الصليبيون في *Itinerarium* في الصفحات ١٢٤-٣٤، مع قصيدة من الشعر تلعن كونراد؛ كما أن Ambroise, cols. 112-15 يلقي باللائمة على كونراد. ويذكر Beha ed-Din, *P.P.T.S.*p.236 موت الكونت باليات (Tibald).

(٣٦) أورد بهاء الدين Beha ed-Din, *P.P.T.S. loc.cit.* موت فريدريك (اوف سوابيا). وأورد Ansbert في *ExpeditioFriederici*,pp.96 وصول ليوبولد ملك النمسا مع مجموعة من ابناء الراين Rhinelanders من فينيسيا. وامضى الشتاء في زارا Zara. وكان ابن اخي فريدريك بارباروسا، هنرى ملك النمسا وثيودورا كومنينا

(٣٧) Beha ed-Din, *loc. cit.*.

(٣٨) *Itinerarium, loc. cit.*

هو نفسه في شن هجوم نهائي على معسكر المسيحيين ، إذ كان الكثير من جنوده في حالة ارهاق ، وعندما وصلت التعزيزات كان قد أرسل فصائل إلى اماكن بعيدة للراحة. وبدا أن البؤس في معسكر المسيحيين يقوم بالمهمة بدلا من قيام صلاح الدين بانجازها[٣٩].

ومرة أخرى جاوز حِلْم صلاح الدين حد الحكمة. وباقتراب فترة الصوم الكبير للمسيحيين بدا أن الفرنج لن يقدروا على البقاء طويلا . فكانت عملة البنس (الدرهم الصغير الفضي) في المعسكر ثمنا لمجرد ثلاث عشرة حبّة من الفاصوليا أو ثمنا لبيضة واحدة ، وكان ثمن جوال الحبوب مائة قطعة ذهبية . وذُبح الكثير من اكرم الجياد سدا لأفواه أصحابها . وكان الجندي العادي يأكل العشب ويقضم ما يجده من عظام . وحاول الأساقفة ورجال الدين تنظيم نوع من التخفيف ، لكن العقبة تمثلت فيما كان عليه تجار بيزا من بخل ، فهم الذين كانوا يسيطرون على أغلب امدادات الطعام . على أنه في شهر مارس ، وعندما بدا كل شيء باعثا على اليأس ، وصلت سفينة مليئة بالحبوب وتمكنت من إفراغ حمولتها على الشاطئ ، وبتحسن الجو تبعتها سفن اخرى . فكان الترحيب بها مضاعفا ، إذ انها لم تكن تحمل المواد الغذائية وحسب ، وانما كانت تحمل أيضا أنباء مفادها أن ملكي فرنسا وانجلترا قد وصلا أخيرا إلى مياه الشرق[٤٠].

---

(٣٩) Abu Shama, pp. 517-18; Ibn al-Athir, II, pp. 32-3

(٤٠) *Itinerarium*, pp. 136-7; Ambroise, cols. 119-20

الفصل الثالث:

قلب الأسد

قلب الأسد

"لأنى آتى بشر من الشمال وكسر عظيم.
قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم"
(ارميا ٤ : ٦-٧)

هبط الملك فيليب أوغسطس إلى البر عند المعسكر أمام عكا يوم ٢٠ ابريل ١١٩١م في يوم السبت التالي لعيد الفصح ، وبعد سبعة اسابيع ، وفي يوم السبت التالى لأحد العنصرة ، هبط الملك ريتشارد ، بعد أن انقضى ما يقرب من أربع سنوات على معركة حطين والنداء اليائس إلى الغرب للمساعدة . ورحب الجنود المرهقون المحاربون على الساحل الفلسطيني بالملكين وقد أخذ منهم السرور كل مأخذ بحيث غفروا أو تناسوا هذا التأخير الطويل . على أن المؤرخ العصري يرى شيئا من العبث في رحلة ريتشارد المتمهّلة المشاكسة إلى ميدان المعركة حيث كان مطلوبا بغايةالسرعة.

ومن اليسير أن نتفهم تريث الملك فيليب وإيثاره عدم التعجل ، إذ ليس هو بالرجل المثالي ، وانما ذهب يحارب حربا صليبية من منطلق الضرورة السياسية لا أكثر. ولو أنه أحجم عن المغامرة المقدسة لخسر النوايا الحسنة لا من الكنيسة وحسب ، وانما من

أغلب رعاياه . فكانت مملكته ضعيفة مهددة ، وكان على حق لأن يرتاب في طموحات الأنجفين[1]، ولذا لم يكن بوسعه الرحيل عن فرنسا إلى أن يستوثق من أن غريمه الإنجليزى في طريقه هو الآخر . وكانت الحكمة تستدعي أن يشرعا في الرحيل معا . كما لا يلام أي من الملكين للتأخير النهائي الذي سببه موت الملكة الفرنسية. وكان لريتشارد بعض الأعذار المعينة أيضا، إذ أجبره موت أبيه على إعادة تنظيم المملكة ، وفضلا عن ذلك ، كان ينوى الارتحال بحرا كشأن فيليب ؛ وكان الرحيل بالبحر غير عملي خلال أشهر الشتاء . على أن ضآلة ما يبديه الصليبي من تلهف أصيل تظهر غيبة الهدف والمسؤولية كلاهما.

الملك ريتشارد والملك فيليب

ولقد كانت في شخصية ريتشارد عيوب جسيمة ؛ فمن الناحية البدنية كان فاتنا، فارعا طويل الأوصال وقويا، ذا شعر ذهبي يميل إلى الحمرة وملامح فيها وسامة ، وقد ورث عن أمه ليس فقط ما يتميز به آل بواتو من وسامة ، وانما ورث عنها أيضا طريقتها الجذابة وشجاعتها وتذوقها للشعر والرومانسية ، وكان اصدقاؤه وخدمه يتبعونه في مهابة وتفان. وقد أخذ عن والديه كليهما طبعا حادا وارادة عاطفية . على أنه لم يرث عن والده دهاءه السياسي ولا اقتداره الاداري ، كما لم يأخذ من الملكة إلينور حسّها السليم . إذ أنه قد نشأ في بيئة تحيطها المشاحنات العائلية والخيانة الأسرية ؛ ولأنه كان الإبن المدلل المفضل لدى امه فقد كره أباه ، وفقد الثقة في اخوته رغم أنه احب أخته الصغرى جوانا . ولقد تعلم أن يكون محاربا عنيفا لا أن يكون محاربا مخلصا. وكان شحيحا مقترا وإن كانت به قدرة على الإتيان بلفتات سخيّة . وكان ولوعا بمظاهر التباهي بالتبذير . وكانت له طاقه ليس لها حدود ، غير أنه في فورة حماسه بما يشغله ينسى المسؤوليات الأخرى ؛ وكان يحب النظام لكنه كان يتملكه الضجر من الإدارة ، ولم يكن يستحوذ على انتباهه سوى فن الحرب ، وكجندي كانت له ملكات حقيقية ، واحساس بالاستراتيجية والتكتيكات والقدرة على قيادة الرجال . وهو الآن في الثالثة والثلاثين من عمره ، في شرخ الحياة ، شخصية ساحرة لها شهرة سبقته إلى

---

(١) (المترجم) : Angevin نسبة الى اقليم آنجو Anjou غربي فرنسا؛ أو من ينتمي الى ملوك انجلترا Plantagenet 1154-1399.

الشرق[٢].

أما الملك فيليب أوغسطس فكان مختلفا جدا . إذ كان أصغر من ريتشارد بثماني سنوات ، وأن كان قد امضى فعلا ما يزيد على عشر سنوات كملك ، وقد علّمته تجاربه المريرة الحكمة . ولم يكن ندا لريتشارد من الناحية البدنية ، وانما كان ذا بنية جيدة وكومة من شعر أشعث وقد فقدت إحدى عينيه القدرة على البصر . ولم يكن هو شخصيا يتصف بالشجاعة ، ورغم أنه كان سريع الغضب ويطلق لأهوائه عنانهافقد كانت لديه القدرة على حجب عواطفه ، ولم يكن يحب التفاخر لا عاطفيا ولا ماديا . وكان بلاطه باعثا على الملل متقشفا، ولم يكن يعبأ بالفنون ، كما لم يكن على قدر من التعليم رغم إدراكه لقيمة المتعلمين وكان يسعى من قبيل السياسة إلى اكتساب صداقتهم والحفاظ عليها بما له من فطنة وبحديثه البليغ. وكسياسى كان صبورا، يقظا ماكرا غادرا بلا ضمير . لكنه كان ذا احساس طاغ بواجباته ومسؤولياته . وبرغم تقتيره وشحّه على نفسه وعلى أصدقائه كان كريما مع الفقراء ، يحميهم من ظالميهم . كان رجلا مُنفّرا غير محبوب ، لكنه كان ملكا طيبا . ومن بين فرنج الشرق كان يتمتع بمكانة خاصة ، إذ كان السيد الأعلى للأسر التى أنجبتهم جميعا تقريبا ، وكان أغلب الصليبيين الزائرين أتباعا له بصورة مباشرة أو غير مباشرة . لكنهم كانوا يحسنون تقدير ريتشارد لشجاعته وبسالة فروسية وجاذبية ؛ وبالنسبة للعرب بدا ريتشارد الأكثر نبلا من قرينه ، والأكثر ثراءً ، والأعظم[٣].

وانطلق الملكان معا من فيزيلاى يوم ٤ يولية ١١٩٠م . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل أسطوله للابحار حول الساحل الأسباني ومقابلته في مرسيليا، لكن القوة البرية كلها تقريبا كانت معه ، وأما جيش فيليب فكان أصغر إذ أن الكثير من أتباعه قد سبق ورحلوا إلى الشرق فعلا . وسار الجيش الفرنسي من فيزيلاى يتبعه الجيش الانجليزى على مقربة إلى أن وصلا ليون ، وبعد أن عبر الجيش الفرنسى نهر الرون ، انهار الجسر العابر للنهر تحت ثقل الحشود الانجليزية ، وفقدت أرواح كثيرة ، وتأخر الركب إلى أن

---

(٢) يرد في ص ١٤٤ من *Itinerarium* وصف لشخص ريتشارد . أما عن شخصيته فانظر ما كبه Stubbsفي introduction to the *Itinerarium* ، وانظر ايضا Norgate, *Richard the Lion Heart, passim.*

(٣) يرد مديح للملك فيليب فى *Continuation of William the Breton, p. 323.* أما تاريخ *Itinerarium* فيضع في كل مكان أسوأ تفسير ممكن لشخصيته ، وللاطلاع عليه انظر Cartellieri, *Philipp II August, passim.*

اعيد تنظيم النقل. وبعد أن غادر الجيشان ليون مباشرة افترق الملكان ؛ فاتجه فيليب إلى الجنوب الشرقي عبر سفوح الألب ثم لزم الساحل بالقرب من نيس ثم بطول الساحل إلى جنوا حيث كانت السفن في انتظاره ، واتجه ريتشارد إلى مرسيليا حيث انضم اليه اسطوله يوم ٢٢ اغسطس . و لم تحدث حوادث فى الرحلة فيما عدا تأخير بسيط في البرتغال في شهر يونية حيث ساعد البحارة الملك سانكو في صد غزو من امبراطور مراكش. ومن مرسيليا أبحر إلى فلسطين مباشرة البعض من أتباع ريتشارد بقيادة بلدوين (أوف كنتربرى)، لكن الجيش الرئيس ابحر في قوافل مختلفة إلى ميسينا في صقلية حيث كان يفترض أن ينضم إلى الفرنسيين مرة أخرى(٤).

١١٩٠م : الملك تنكريد الصقلي

كان الملك وليم الثاني الصقلي قبل وفاته في نوفمبر ١١٨٩م قد اقترح أن يلتقي ملك فرنسا وملك انجلترا بقواتهما في صقلية ، وذلك عند بدء تخطيط حملتهما الصليبية أول الأمر . وكان وليم الثاني قد تزوج من أخت الملك ريتشارد، جوانّا الانجليزية، لكن الزواج لم يثمر ولدا ، ولذا ورثته خالته كونستانس، زوجة هنري (أوف هوهينشتوفن(٥) وهو اكبر ابناء فريدريك باربروسا. ورأى الكثير من الصقليين أن فكرة وجود حاكم الماني فكرة بغيضة لديهم ، ولذا حيكت مؤامرة قصيرة بموازرة من البابا كليمنت الثالث – الذي شعر بالخطر من توقع أن تتحكم أسرة هوهينشتوفن فى جنوب ايطاليا – وضعت على العرش بدلا من كونستانس وزوجها هنرى، أحد أبناء الزنا للملك الراحل ويدعى تنكريد كونت ليكّى . وكان تنكريد رجلا ضئيلا قبيحا لا يثير الاعجاب قط ، و لم يكد يجلس على العرش حتى وجد نفسه في الحال يواجه المصاعب؛ إذ حدث تمرد اسلامي في صقلية ، وغزو الماني لأراضيه ؛ وقد بدأ الأتباع الذين انتخبوه يغيرون رأيهم. ولذا اضطر تنكريد إلى استدعاء رجاله وسفنه من فلسطين ، ولولاهم لما تمكن من هزيمة أعدائه . ورغم أنه كان على استعداد لاستقبال الملكين الصليبيين بمظاهر التشريف ومساعدتهما بالمؤن إلا أنه لم يكن على استعداد البتة

---

(٤) للإطلاع على رحلة الملك عبر فرنسا انظر *Itinerarium*, pp.149-53 ؛ وانظر Ambroise, cols. 11 - 14; Benedict of Peterborough, 11, pp. 111-15; Rigord, pp. 98-9; William the Breton, pp. 95-9.

(٥) (المترجم) :Hohenstaufen: اسم الأسرة الحاكمة في المانيا (١١٣٨-١٢٠٨؛ ١٢١٥-١٢٥٤) وفي صقلية (١١٩٤-١٢٦٨).

لأن يصاحبهما في حملتهما الصليبية[٦].

وكان الملك فيليب قد غادر جنوا في نهاية اغسطس ، وبعد رحلة يسيرة على الساحل الإيطالي وصل ميسينا بيوم ١٤ سبتمبر . ولنفوره من مظاهر الأبهة ، اتخذ طريقه داخل المدينة محاطا بقدر الإمكان كي لا يتطفل عليه احد ، لكن تنكريد أصدر أوامره باستقباله بمراسم التشريف وجعله يقيم في قصر ملكي هناك . أما الملك ريتشارد فقد قر قراره على الرحيل برا من مرسيليا ، ويبدو أنه كان عزوفا عن الرحلات البحرية لأنه كان يعاني بلا شك من مرض دوار البحر . ونقل أسطوله الجيش إلى ميسينا وانتظره خارج الميناء ، بينما سار ومعه حفنة صغيرة من الحراس في الطريق البري بطول الساحل مخترقا جنوا ثم بيزا وأوستيا إلى ساليرنو حيث انتظر إلى أن سمع أن اسطوله قد وصل ميسينا ، ويبدو أنه عندئذ أرسل أغلب حرسه بحرا إلى ميسينا للإعداد لوصوله ، بينما استمر هو نفسه على جواد مع رفيق واحد فقط . وبينما كان مارا بمدينة ميليتو في منطقة كلابريا بالجنوب الايطالي حاول أن يسرق صقرا من بيت أحد الفلاحين ، وأوشك القرويون الحانقون على القضاء عليه ، ولذا كان في حالة مزاجية سيئة عندما وصل إلى مضايق ميسينا بعد يوم أو يومين ، وقد قابله رجاله على الشاطئ الايطالي واصطحبوه في مركب فخيم الي ميسينا حيث هبط هناك يوم ٣ سبتمبر . وبدت الفخامة المفرطة لدخوله المدينة صارخة في تعارضها مع وصول فيليب المتواضع.

وأثناء مرور ريتشارد عبر ايطاليا سمع عن تنكريد الكثير مما أغضبه ، إذ كانت شقيقته الملكة الأرملة المهيبة جوانا تحت الاقامة الجبرية التكديرية وقد حُرمت من بائنتها، وكان لها بعض النفوذ في المملكة ، وكان واضحا أن تنكريد لم يكن يوليها ثقته. وفضلا عن ذلك، كان وليم الثاني قد ترك ميراثا ضخما لحميه، هنري الثاني، يتألف من طبق ذهبي وأثاث ذهبي وخيمة حريرية وسفينتين كبيرتين مسلحتين والكثير من الأكياس المليئة بالمؤن . وبموت هنري ، افترض تنكريد أن بوسعه الإحتفاظ بالميراث لنفسه . ومن ساليرنو أرسل ريتشارد إلى تنكريد يطلب اطلاق سراح اخته والتخلي عن بائنتها وميراثها، وكان لهذه الطلبات وما ورد من أنباء عن تصرفات ريتشارد في كلابريا أن تسببت في خوف تنكريد ، فتدبر أن ينزل ريتشارد في قصر خارج أسوار ميسينا ، ولكي يرضيه أرسل جوانًا تصحبها حراسة ملكية لتنضم إلى أخيها ودخل في مفاوضات حول مدفوعات من الأموال بدلا من البائنة والميراث . وكان الملك فيليب ،

---

(٦) عن وضع تنكريد انظر Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 419-24.

الذى زاره ريتشارد بعد وصوله بيومين ، قد عرض مساعيه الحميدة ، وعندما ذهبت اليه الملكة جوانا للإعراب عن تقديرها ، استقبلها استقبالا بلغ من الود القدر الذي جعل الجميع يتوقعون أن يسمعوا عن زواجهما الوشيك . على أن ريتشارد لم يكن في مزاج يساعده على المصالحة ؛ فأولا أرسل فصيلة عبرت المضايق واحتلت مدينة باجنارا على ساحل كلابريا حيث نصّب اخته هناك. ثم هاجم جزيرة صغيرة في مواجهة ميسينا تماما كان بها دير اغريقى ، وطُرد الرهبان شر طردة ليحل جنوده مكانهم . وكانت المعاملة التى نالت من قداسة الرهبان أن جعلت الرعب يتملك أهل ميسينا الذين كانوا يونانيين في أغلبهم ، بينما أثار الجنود الإنجليز حنق المواطنين الأكثر ثراء لما أقدموا عليه ازاء زوجاتهم وبناتهم.

١١٩٠م : ريتشارد يحاصر ميسينا

وفي الثالث من اكتوبر حدثت مشادة في احدى الضواحى بين بعض الجنود الإنجليز وجماعة من المواطنين أدت إلى أعمال شغب . وانتشرت في المدينة شائعة بأن ريتشارد ينوى غزو صقلية كلها ، وأغلقت البوابات في وجه رجاله ، ولم تفلح محاولة لسفنه في اقتحام المرفأ . وسارع الملك فيليب إلى استدعاء رئيس اساقفة ميسينا وقائد بحرية تنكريد ، مرجاريتوس ، وغيره من الوجهاء الصقليين إلى قصره وذهب معهم في الصباح التالي لتهدئة ريتشارد في مقر اقامته خارج الأسوار . وفي اللحظة التى بدا فيها أن هناك بعض الترتيبات للمصالحة ، سمع ريتشارد بعض المواطنين المتجمعين على تل وراء النافذة يكيلون الشتائم المهينة لإسمه ، فتملكه الهياج وغادر الاجتماع وأمر جنوده بالهجوم مرة اخرى . وفي هذه المرة بوغت المواطنون وتمكن الإنجليز من احتلال المدينة في غضون ساعات قليلة وراحوا ينهبون الأحياء كلها ولم يتركوا سوى الشوارع المحيطة بالقصر الذي ينزل فيه الملك فيليب . وبالكاد تمكن مارجاريتوس والوجهاء الآخرين من الهرب مع عائلاتهم واحتل ريتشارد منازلهم ، وأحرق الأسطول الصقلى الراسى فى المرفأ ، ولم يحن عصر اليوم الا وكانت راية البلانتاجين ترفرف على المدينة.

ولم تتوقف وحشية ريتشارد وضراوته عند هذا الحد ، فبرغم موافقته على أن ترفرف راية الملك فيليب بجاور رايته ، اجبر المواطنين على أن يدفعوا له برهائن يحتفظ بها ضمانا لحسن سلوك مليكهم وأعلن أنه على استعداد للاستيلاء على المقاطعة كلها ، وفي ذات الوقت شيّد حصنا خشبيا ضخما خارج المدينة مباشرة أطلق عليه

"ماتيجريفون" اي لجام اليونانيين ، تحقيرا لشأنهم.

وشعر الملك فيليب بالقلق مما ظهر من أخلاق نظيره ، وارسل ابن عمه دوق برجندى لمقابلة الملك تنكريد في كتانيا وتحذيره من نوايا ريتشارد ، ولكي يعرض عليه المساعدة إذا ساءت الأمور، وكان تنكريد في وضع صعب إذ كان يدرك أن هنرى (أوف هوهنشتوفن) على وشك غزو اراضيه، وكان مدركا أن أتباعه غير جديرين بالثقة ، وبحساباته السريعة قرر أن ريتشارد سيكون حليفا أفضل من فيليب ؛ إذ ليس من المحتمل أن يهاجمه فيليب الآن، ولم يكن ملوك فرنسا على علاقة طيبة بآل هوهينشتوفن ، فضلا عن أن صداقة فيليب في المستقبل غير يقينية . وكان ريتشارد من الناحية الأخرى يمثل اعظم شر ماثل ، لكن المعروف أنه يمقت آل هوهنشتوفن وهم اعداء بني عمومته الويلف . وهكذا رفض تنكريد عرض مساعدة الفرنسي ودخل في مفاوضات مع الإنجليزى ، فعرض على ريتشارد عشرين الف أوقية من الذهب بدلا من الميراث المستحق لهنرى الثاني ، ونفس المبلغ لجوانا بدلا من بائنتها.

١١٩٠م: مفاوضات في صقلية

وفى الامكان دائما تهدئة غضب ريتشارد بمنظر الذهب ، فقبل العرض الخاص به والعرض الآخر نيابة عن اخته ، بل أنه وافق على خطبة وريثه الصغير ، آرثر دوق بريتاني ، لإحدى بنات تنكريد ، وعندما كشف تنكريد ما اقترحه عليه فيليب ، وافق ريتشارد طواعية على أن تُكتب الشروط في معاهدة وطلبا من البابا منحهما مؤازرته . وهكذا حل السلام ، وبناء على نصيحة رئيس أساقفة روين أعاد ريتشارد على مضض ما صادره من منقولات مستحقة لمارجاريتوس ورجهاء مواطنى ميسينا.

ولقد انخدع الملك فيليب لكنه لم يجهر بالاعتراض . وفي ٨ أكتوبر ، وأثناء صياغة المعاهدة ، تقابل مع ريتشارد مرة اخرى لمناقشة المرحلة المقبلة للحملة الصليبية ؛ فوضعت قواعد مراقبة أسعار المواد الغذائية ، وتحدد ولاء الرجال لسادتهم، وخصص كل فارس نصف أمواله لاحتياجات الصليبيين ، ومُنعت المقامرة على الجميع باستثناء الفرسان ورجال الدين ، واذا أفرطوا في الميسر يتعين معاقبتهم ، وينبغي للحجاج الذين يقعون تحت طائلة الديون أن يدفعوا ديونهم . وصدق رجال الدين على هذه اللوائح ووعدوا بمعاقبة منتهكيها بالطرد من الكنيسة . وكان من اليسير أن يوافق الملكان على هذه الأمور ، وإن لم تكن تسوية بعض الأمور السياسية على نفس القدر من اليسر ،

وبعد محاورات اتفق الملكان على اقتسام الغزوات المقبلة بينهما بالتساوى . وكانت المشكلة الأكثر حساسية تتصل بالأميرة أليس أخت الملك فيليب فمنذ سنوات طويلة أرسلوا هذه الاميرة التعسة وهى طفلة إلى البلاط الانجليزى لتتزوج ريتشارد أو أحد أبناء هنرى الثاني . وقد احتجزها هنرى الثاني برغم نفور ريتشارد من الموافقة على زواجه المقترح منها . وسرعان ما تناقل البلاط همسات قبيحة بأن هنرى نفسه قد أصبح مفرط الألفة معها . ولم يكن ريتشارد بالرجل الذي تتجه ميوله ناحية الزواج ، ولذا رفض الانقياد إلى ما أعده أبوه من ترتيبات برغم استعجال فيليب مرارا وتكرارا. وحتى بعد وفاة هنرى ، لم تكن أم ريتشارد الملكة الينورا - التى تحررت الآن بموت زوجها - لترى ابنها المفضّل مقيّدا بفتاة من أسرة تمقتها ، بل فتاة كانت تعتقد أنها عشيقة زوجها الراحل. ولحرصها على مصالح مواطنيها من أبناء منطقة حين التي نشأت فيها عزمت على تزويجه من إحدى أميرات نافار، وقد قبل اختيارها[٧]. وهكذا، وعندما أثار فيليب مرة أخرى مسألة زواج اخته اليس، رفض ريتشارد أن يعير الموضوع أي اعتبار قائلا إن سمعة أليس تحول بينه وبين التفكير فى زواجه منها. وكانت الاهانة فوق احتمال فيليب، رغم أنه كان دائم اللامبالاة بسعادة اسرته ، ولم يتدخل قط لمساعدة اخته البائسة آجنس أرملة الامبراطور الكسيوس الثاني البيزنطى . ولذا زادت علاقته بريتشارد برودا على برود وقرر مغادرة ميسينا في الحال إلى الشرق ، لكن عاصفة هوجاء أعادته إلى صقلية بعد يوم من ابحاره. ولأنه الآن في منتصف اكتوبر فقد قرر أن الحصافة تدعوه لقضاء الشتاء في ميسينا. ويبدو أن ذلك ما كان ينتويه ريتشارد دائما ، ولم توقع معاهدته مع تنكريد الا في ١١ نوفمبر . وفي الوقت ذاته أرسل يطلب من أمه إرسال الأميرة برينجاريا النافارية لتلحق به في صقلية.

وانصرم الشتاء هادئا في صقلية . وفي يوم عيد الميلاد أولم ريتشارد وليمة تقطر سخاء في حصن ماتيجريفون (لجام اليونانيين)، دعا اليها ملك فرنسا ونبلاء صقلية . وبعد أيام قلائل احتمع في مقابلة مثيرة بالراهب يواخيم المسن رئيس دير كورازو ومؤسس نظام فيورى الدينى . وشرح له القديس المبجّل معنى سفر الرؤيا . فقال له أن رؤوس التنين السبعة هى :هيرود ونيرون وكونستانتيوس ومحمد وميلسموث (وربما كان يعني به عبد المنعم مؤسس طائفة الـ Almohad) وصلاح الدين وأخيرا المسيح الدجّال

---

(٧) (المترجم): تقع منطقة حين التاريخية Guienne في جنوب غرب فرنسا المسمّاة حاليا اكيتان Aquitaine. واما نافار التاريخية Navarre فهى مملكة قديمة تقع حاليا شمال شرق اسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

نفسه الذى ، كما أعلن ، ولد بالفعل قبل ذلـك بخمس عشرة سنة في روما وسوف يجلس على العرش البابوى . ورد ريتشارد ردا يفتقر إلى الأدب لم يلق الترحيب من القديس ، قائلا أن المسيح الدجال ربما كان هو البابا الحالي كليمنت الثالث الذي قال إنه هو نفسه يبغضه ؛ ولم يتفق معه القديس في أن المسيح الدجّال قد ولد من قبيلة دان البابلية أو الأنطاكية ولا أنه سوف يحكم في القدس . على أن ريتشارد ابهجه أن يسمع من يواخيم أن المنتصر في فلسطين سيكون ريتشارد وأن صلاح الدين سرعان ما سيُقتل. وفي فبراير نظّم ريتشارد مباريات مبارزة رياضية تشاحر اثناءها مع الفارس الفرنسي وليم (أوف بار)، لكن فيليب تمكن من مصالحتهما . والواقع أن ريتشارد تصرف تصرفا سليما حدا إزاء فيليب ، بل أنه اعطاه بعد ايام قليلة عدة سفن كانت قد وصلت مؤخرا من انجلترا . وفي ذات الوقت سمع أن أمه الملكة الينور والأميرة بيرينجاريا قد وصلتا نابلي فأرسل من يقابلهما ويصطحبهما إلى برنديزى إذ كانت حاشيتهما فائقة الضخامة بحيث لا تتحملها ميسينا بمواردها المحدودة ، خاصة وأن كونت فلاندرز قد وصل ميسينا لتوه مع صحبة كبيرة للغاية.

وباقتراب الربيع تأهب الملكان لاستئناف رحلتهما. فذهب ريتشارد إلى كتانيا لزيارة تنكريد وأقسم معه قسم صداقة أبدى . وتحركت مشاعر الخوف لدى الملك فيليب من هذا التحالف فلحق بهما في تورمينا، وهو على استعداد الآن لأن يصلح على عجل جميع خلافاته مع ريتشارد ، وأعلن رسميا أن لريتشارد كامل الحرية في أن يتزوج من يرغب في اختيارها . وعندما أبحر فيليب يوم ٣٠ مارس مع كل رجاله من ميسينا كانت مشاعر حسن النية على عمومها تغلب عليه . وما أن ابحر من الميناء حتى وصلته الملكة الينور والأميرة بيرينجاريا . ولم تبق الينورا مع ابنها سوى ثلاثة ايام ثم شدت رحالها إلى انجلترا متخذة طريق روما لك تتوقف لدى البلاط البابوي لإنجاز بعض المهام لابنها ، وبقيت الأميرة بيرينجاريا في صحبة دائمة مع الملكة جونا[٨].

وأخيرا غادر ريتشارد ميسينا يوم ١٠ ابريل بعد أن فكّك حصن ماتيجريفون (لجام

---

(٨) ترد قصة تصرفات الملك في صقلية بالكامل في *Itinerarium,* pp.154-77 ؛ وكذلك عند Ambroise, cols.14-32 (كلاهما يؤيد ريتشارد بشدة)؛ وانظر Benedict of Peterborough, II, pp. 126-60 الذي يورد أكثر الروايات اكمالا ويتضح انه اكثر قليلا من الناحية الموضوعية؛ أما Rigord, pp. 106-9، فانه يقول ضمنا إن فيليب كان متلهفا على الاستمرار في الحملة الصليبية بينما كان ريتشارد يضع الصعوبات . وانظر Chalandon, op. cit. II, pp. 435-42. ويورد Benedict (II, pp. 151-5) مقابلة ريتشارد مع يواخيم ، ومن الواضح انها قائمة على اساس معلومات من شخص كان حاضرا في المقابلة

اليونانيين) . وشعر تنكريد بالأسف لرحيله وكان له ما يبرر ذلك ؛ إذ أن البابا كليمنت الثالث مات في نفس ذلك اليوم في روما ، وبعد أربعة ايام تمت رسامة كاردينال ساتنا ماريا في كوزميدين على أنه البابا سيليستين الثالث . وكان هنرى (أوف هوهنشتوفن) في روما آنذاك ، وكان أول ما فعله البابا الجديد أن قام تحت الضغوط بتوجيه هو وكونستانس الصقلية امبراطورا وامبراطورة.

وأبحر فيليب بأسطوله الفرنسي بسلام إلى صور حيث استقبله بترحاب كبير ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) ، ووصل مع كونراد إلى عكا يوم ٢٠ ابريل ، وفي الحال تم تشديد الحصار على هذه القلعة الاسلامية . وبدت أعمال الحصار الحربي جذّابة لفيليب بمزاجه الصبور الخلاّق ، فأعاد تنظيم آلات الحصار وبنى الأبراج للمحاصرين، غير أنه تقرر تأجيل محاولة الهجوم على الأسوار إلى أن يصل ريتشارد ورجاله[٩].

١١٩١م : الأسطول الإنجليزى يصل مياه قبرص

وكانت رحلة ريتشارد أقل أمانا . إذ سرعان ما هبت رياح قوية فرّقت هذا الأسطول الصغير ، وأمضى الملك نفسه يوما في ميناء بجزيرة كريت ، وأبحر منه في مياه عاصفة إلى جزيرة رودس حيث بقي عشرة ايام من ٢٢ ابريل إلى ١ مايو ، في فترة نقاهة مما يصيبه من دوار البحر . وفي تلك الأثناء ضاعت إحدى سفنه في عاصفة ، بينما ألقت الرياح بثلاث سفن اخرى إلى قبرص ، من بينها السفينة التى تقل الملكة جوانّا وبيرينجاريا ؛ وتحطمت سفينتان على الساحل الجنوبى للجزيرة ، لكن الملكة جوانّا تمكنت من الوصول إلى مرسى أمام ميناء ليماسول.

وكانت قبرص طوال خمس سنوات تحت حكم اسحق دوكاس كومنينوس الذي نصّب نفسه امبراطورا بعدما نجح في تمرده على بيزنطة وقت استخلاف اسحق أنجيلوس، والذي تمكن من الحفاظ على استقلاله بتحالفات هشّة، فتارة مع الصقليين ، وتارة مع أرمن كيليكيا، وثالثة مع صلاح الدين لقد كان مشاكسا يكره اللاتينيين ولم تكن له شعبية على الجزيرة لما كان يفرضه من ضرائب باهظة. وكان الكثير من رعاياه لا يزالون يعتبرونه متمردا ومغامرا . ولقد كان لظهور الأساطيل الفرنجية الضخمة امام الشواطئ القبرصية أثره في احساسه بالخطر ، لكنه واجه المشكلة على نحو يخلو من الحكمة . ذلك

(٩) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 155-6; Rigord, p. 108; Abu Shama, II, p. 6 .

أنه عندما تمكن بحارة ريتشارد من الوصول إلى الشاطئ بعد تحطم سفينتهم ، اعتقلهم وصادر كل ما امكنهم انقاذه من بضائع، ثم أرسل مبعوثا إلى سفينة الملكة حوانّا يدعوها هي وبيرينجاريا إلى الهبوط إلى الشاطئ ؛ لكن الملكة حوانّا كانت تعلم من التجارب قيمتها هي نفسها باعتبارها رهينة محتملة، فردت بأنها لا تستطيع مغادرة السفينة دون إذن أخيها ، والتمست السماح بارسال من يحضر لها الماء من الشاطئ ، فرفض طلبها بطريقة فظّة تخلو من الكياسة . بل أن اسحق جاء بنفسه إلى ليماسول وبنى التحصينات بطول الساحل لمنع أية محاولة للهبوط إلى الشاطئ.

وفي ٨ مايو، أي بعد أسبوع من وصول حوانّا امام شواطئ ليماسول، لاح اسطول ريتشارد على مرمى البصر . وقد كان ابحاره من رودس شنيعا ، وأوشكت سفينة ريتشارد ذاتها أن تتحطم في خليج أتاليا ، ولم يكن لدوار البحر اثره في تلطيف مزاج ريتشارد ، وعندما سمع بما لقيته اخته وخطيبته من معاملة اقسم على الإنتقام . وعلى الفور بدأ في إنزال الرجال بالقرب من ليماسول وزحف على المدينة ؛ ولم يقاوم اسحق وانما انسحب إلى قرية كيلاني على سفوح ترودوس . ولقي ريتشارد الترحيب في ليماسول ليس فقط من التجار اللاتين المستقرين في المدينة ، وانما أبدى اليونانيون صداقتهم للغزاة من منطلق بغضهم لإسحاق الذي أبدى استعداده من ثمّ للتفاوض . وبمنحه الأمان جاء إلى كولوسي وذهب إلى معسكر ريتشارد حيث وافق على دفع تعويض عن البضائع التي سرقها والسماح للجنود الانجليز بشراء المؤن معفاة من الرسوم الجمركية وإرسال قوة رمزية من مائة رجل مع الحملة الصليبية رغم أنه رفض مغادرة الجزيرة هو نفسه ، وعرض ارسال ابنته رهينة إلى ريتشارد.

وقد اقتنع اسحق من زيارته للمعسكر أن ريتشارد ليس بالرجل المرعب كما كان يُظن . ولذلك، وما أن عاد إلى كولوسي حتى تنكّر لاتفاقه وأمر ريتشارد بالرحيل عن اراضيه . لقد ارتكب غلطة حمقاء . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل سفينة إلى عكا لتعلن عن وصوله الوشيك إلى قبرص ، وفي ١١ مايو، وهو اليوم الذي تقابل فيه اسحق مع ريتشارد وعاد إلى كولوسي، دخلت إلى ميناء ليماسول سفن تحمل أبرز الصليبيين المعارضين لكونراد جميعا؛ فكان عليها الملك جوى وأخوه جيوفرى، وكونت لوسينيان وهو أحد أبرز أتباع ريتشارد في فرنسا، وكان عليها بوهمند كونت انطاكيةمع ابنه ريموند، وكان عليها الأمير لير الروبينى الذي خلف مؤخرا أخاه روبين، وكان هناك همفرى سيد تبنين وهو زوج ايزابيلا المطلّق، كما كان هناك الكثير من فرسان المعبد البارزين. ولأن فيليب انحاز إلى جانب كونراد، فقد جاءوا ليضمنوا موازرة ريتشارد

لحزبهم، ورأي ريتشارد أن قوته تعاظمت بمجيئهم ، فقـرر غـزو الجزيـرة بكاملهـا. ولا شك في أن زائريه أكدوا له أهميتها الاستراتيجية في الدفاع عن الساحل السوري كله ، والمخاطر الماثلة لو أن اسحق دخل فى تحالف وثيق للغاية مع صلاح الديـن . لقـد كـان غزو الجزيرة فرصة سانحة لا ينبغي تفويتها.

١١٩١م : ريتشارد يغزو قبرص

وفي ١٢ مايو احتفل ريتشارد بزواجه مـن بيرينجاريـا في كنيسـة القديـس جـورج الصغيرة في ليماسول ، وتوجها أسقف إيفريو ملكة لإنجلترا ، وفـى اليـوم التـالى جـاءت السفن المتبقية من الاسطول الانجليزى . أما اسحق ، الذى كان مدركـا للخطـر المحدق بـه، فقـد انتقـل إلى فاماجوسـتا ، وتبعـه بعـض الانجليز بـرا والبـاقى بحـرا . ولم يبـذل الامبراطور أية محاولة للدفاع عن فاماجوستا ، وانما انسحب إلى نيقوسيا . وبينمـا كـان ريتشارد في فاماجوسـتا جاءتـه الرسـل مـن فيليـب ومـن لوردات فلسـطين تحثـه على الاسراع إلى فلسطين . لكنه رد بغضب قائلا إنه لن يتحرك حتـى يستولى علـى قـبرص التى ركز على أهميتها لهم جميعا . وكان من المفترض أن يذهب أحـد مبعوثـى فيليـب، وهو باجان أمير حيفا ، إلى اسحق تأكيدا لتحذيره . فأرسل اسحق زوجته ، وهي اميرة ارمينية ، وابنتـه إلى قلعـة كيرينيـا ، ثـم سـار جنوبـا باتجـاه فاماجوسـتا ، وقابلـه جنـود ريتشارد بالقرب من قرية تريميثوس وهزمـوه بعـد التحـام شـديد قيـل إنـه اسـتخدم فيـه سهاما مسمومة . وهرب من ساحة القتال إلى كانتارا ، ودخل ريتشـارد نيقوسـيا دون مقاومة ، فقد أظهر قبارصة نيقوسيا لامبـالاتهم بمصير اسـحق ، بـل إنهـم كـانوا على استعداد لمساعدة الغزاة.

وفي نيقوسيا سقط ريتشارد مريضا ، وكان اسحق يأمل في أن تصمد قلاعه الأربع الشـمالية الضخمـة ، كانتـارا وبوفـافينتو وسـانت هيلاريـون وكيرينيـا ، إلى أن يكـلّ ريتشارد مـن الحـرب ويرحـل باسـطوله ، لكـن الملـك جـوى الـذي كـان آمـرا الجيـش ريتشارد زحف على كيرينيا واستولى عليهـا ، وأسـر الامـبراطورة وطفلتهـا ، ثـم بـدأ محاصرة سانت هيلاريون وبوفافينتو . وتلفت اسحق فوجد نفسـه محرومـا مـن أسـرته ، ورعاياه في حالة من الفتور أو العداوة حياله ، ففقد اتزانه واستسلم بلا قيـد أو شـرط ، واقتيد ليمثل أمام ريتشارد في سلاسله الفضية الثقيلة . وبنهاية شهر مايو كانت الجزيرة كلها في قبضة ريتشارد.

وكانت الأسلاب التي حصل عليها ريتشارد فائقة الضخامة؛ إذ كان اسحق قد كنّس ثروة هائلة من جباياته من الضرائب . واشترى الكثير من نبلائه حسن نوايا سيدهم الجديد بالهبات السخيّة ، وسرعان ما أوضح ريتشارد أن المال هو الذي يشغل جُلّ اهتمامه ، ففرض على كل يوناني ضريبة على رأسماله قدرها خمسين في المائة ، على أنه في المقابل أكّد بقاء القوانين والمؤسسات التي كانت قائمة أيام مانويل كومنينوس . ووضع الحاميات اللاتينية في قلاع الجزيرة ، وعيّن انجليزيين هما ريتشارد (أوف كامفيل) وروبرت (أوف تورنهام) كلا في منصب المندوب السامي وأنيط بهما الاشراف على الادارة في الجزيرة إلى أن يقرر ريتشارد مصيرها النهائي . وسرعان ما اكتشف اليونانيون أن فرحتهم بسقوط اسحق ليس لها دعامة ترتكز عليها ، إذ حُرموا من الاشتراك في حكومتهم ، وأُمروا بحلق لحاهم كعلامة على حالة الخنوع الذليل التي باتوا فيها[١٠].

أما ريتشارد نفسه فقد بدا له أن غزوه لقبرص قد أتاح له ثروة لم يكن يتوقعها . وواقع الأمر أن ذلك الغزو كان أكثر منجزاته بقاءً وتعبيرا عن بعد نظره من كل ما انجزه في الحملة الصليبية ؛ ذلك أن امتلاك الفرنج لقبرص أطال عمر أراضيهم في فلسطين ، وتجاوز بقاء منشآتهم التي أقاموها في الجزيرة منشآتهم في سوريا بقرنين من الزمان . على أن الغزو كان نذير شر لليونانيين . فإن كان الصليبيون على استعداد واقتدار على ضم مقاطعة ارثوذكسية، أفلا يغريهم ذلك في الإسراع في شن حرب مقدسة طال تلهفهم عليها ضد بيزنطة؟

---

(١٠) يرد غزو ريتشارد لقبرص بغاية الإكتمال في *Itinerarium*, pp.177-204، وفي Ambroise, cols. 35-57، وباكتمال أقل بصورة طفيفة في Bemedict of Peterborough, II, pp. 162-8 ؛ وانظر William of Newbury, II, pp. 59 ff.; Richard of Devizes, pp.423-6. وكلها من وجهة نظر انجليزية وما قام به ريتشارد من مهمة موجزة وارد في *Epistolae Cantuarenses*, p.347. أما إيرنول Ernoul ص: ٢٠٧-٢١٣، وتاريخ هرقل *Estoire d'Eracle* جزء ٢ ، ص ١٥٩-٧٠)وأورد Mas Latrie روايات مختلفة في *Documents*, II, pp.1 ff.III,ppp.159-70) ، عارضا وجهة نظر الشرق الفرنجي (اوتريميه) المؤيدة لريتشارد. ويبرر Rigord, pp.109-10 ، وكذلك Williamthe Breton, pp. 104-5 ما فعله ريتشارد بسبب رفض القبارصة مساعدة الصليبيين. وتوجد رواية كاملة كتبها أحد اليونانيين يدعى Neophytus ، شديد العداء لإسحاق ، لكنه يأسى للغزو ، منشورة في مقدمة Stubbs's edition of teh *Itinerarium*, pp.clxxxv-clxxxix (De Calamitatibus Cypri). ويذكر Nicetas Choniates (p.547) الغزو باقتضاب. كما يورد أبو شامة Abu Shama (II,p.8) وبهاء الدين Beha ed-Din (*P.P.T.S.*p.242) الغزو بايجاز. ولكن ابن الأثير Ibn al-Athir (II,pp.42-3) يقول إن ريتشارد استولى على الجزيرة بطريق الخيانة. ويذكر كل من ابي شامة وبهاء الدين أن بعض المسيحيين المرتدين القادمين من اللاذقية قد أغاروا على الجزيرة قبل ذلك بأشهر قليلة. انظر: Hill, *History of Cyprus, I*, pp.314-21

وفي الخامس من يونية أبحر الأسطول الانجليزي من فاماجوستا قاصدا الساحل السوري . وكان الامبراطور اسحق على ظهر الاسطول أسيرا لدى الملك جوى ، وأما ابنته الصغرى فقد ألحقت ببلاط الملكة جوانا كي تتعلم عندها أسلوب الحياة الغربية . وكان أول ما شاهده الملك ريتشارد من الساحل السوري هو قلعة المرقب . وبعد أن ظهرت له اليابسة تحول مبحرا جنوبا مرورا بطرطوس وجبيل وبيروت وهبط بالقرب من صور مساء يوم ٦ يونية . ورفضت حامية المدينة دخوله بناء على أوامر فيليب وكونراد ، ومن ثمّ واصل طريقه بحرا إلى عكا وسره أن يشاهد سفنه وهي تغرق غليونا عربيا كبيرا . ووصل أمام المعسكر يوم ٨ يونية[١١].

١١٩١م : وصول ريتشارد إلى معسكر الصليبيين

تجددت الثقة في النفس ، وعلت آمال الجنود المرهقين في حصارهم لعكا ، بوصول الملك ريتشارد على رأس خمسة وعشرين غليونا ، فارتفعت المشاعل احتفالا بمجيئه ، وقرعت الطبول في انحاء المعسكر . وكان ملك فرنسا قد شيّد الكثير من آلات الحصار المفيدة ومنها منجنيق ضخم أطلق عليه جنوده "الجار الشرير" وسلما متشابكا يعرف باسم "القط" ، وكان كل من دوق برجندى والنظامين العسكريين لديه منجنيقه ، بخلاف منجنيق آخر شُيّد من الأموال العامة التي أطلق عليها "مِقلاع الرب"[١٢].

كانت تلك المنجنيقات تدق الأسوار فتحدث فيها بعض الأضرار ، بيد أنه كان لابد من وجود قائد يستثير المحاصرين لبذل جهد أخير ، وكان ملك فرنسا شديد الحذر من هذا الدور ولم يُقدم عليه ، وكان أمراء الصليبيين الآخرين أو المحليين في غاية الإرهاق أو غير قادرين على ذلك. وبعث ريتشارد حمّيا جديدة في ذلك كله . فما أن وصل حتى أرسل مبعوثا ومعه مترجم مؤتَمَن ، وهو أسير مغربي يضع فيه ثقته ، إلى معسكر صلاح الدين يقترح مقابلته ؛ إذ تملكه الفضول لرؤية هذا الكافر الشهير ، وكان يعلق الآمال على التوصل إلى نوع من التسوية السلمية لو أنه تمكن من أن يخاطب

---

(١١) *Itinerarium*, pp.204-11; Ambroise, cols. 57-82; Benedict of Peterborough, II, pp. 168-9; Ernoul, p.273, and *Estoire d'Eracles* pp. 169-70 ويركز كل من إيرنول وتاريخ هرقل على ترحيب فيليب الرائع بريتشارد (Abu Shama, II, pp. 42-3: Beha ed-Din, *P.P.T.S.*، PP.242-248، ويذكر ابو شامة الاستيلاء على بعض وسائل النقل التابعة لريتشارد.

(١٢) *Itinerarium*, p. 218; Haymar Monachus, pp. 44-6.

في مثل هذا العدو فروسيته. بيد أن صلاح الدين رد عليه ردا حذرا بأنه من غير الحكمة أن يتقابل الملوك الأعداء قبل أن يوقعوا على هدنة ، ورغم ذلك قال إنه على استعداد لأن يسمح لأخيه العادل بمقابلة ريتشارد . وتقرر تأجيل القتال ثلاثة ايام واتفق على أن تتم المقابلة في السهل الواقع بين المعسكرين ، لكن المرض داهم فجأة ملكي انجلترا وفرنسا وسقط كلاهما مريضا بمرض يطلق عليه الفرنج أرنالديا ، وهو حمّى تسبب تساقط الشعر والأظافر. وكانت اصابة فيليب طفيفة ، أما اصابة ريتشارد فكانت شديدة استمرت عدة ايام . لكنه كان يقود العمليات من فراش مرضه ، فاصدر أوامره بالمكان الذى يوضع فيه المنجنيق الضخم وامر ببناء برج خشبي هائل مثل برج ماتيجريفون الذي بناه في ميسينا. ولم يكد يبرأ من مرضه حتى أصر على زيارة جنوده في خطوطهم(١٣).

وتلقى صلاح الدين كذلك تعزيزات في أواخر شهر يونية ، إذ وصل جيش سنجار في الخامس والعشرين من الشهر ، ووصل في أعقابه مباشرة جيش مصرى جديد وجنود من صاحب الموصل ، وفي أوائل يولية أرسل أميرا شيزر وحماة بعض الكتائب . وعلى الرغم من هذه القوات المتكاثرة لم يكن صلاح الدين بقادر على إخراجهم الصليبيين من معسكرهم ، إذ أنهم انتهزوا توقف القتال في الشتاء ونعومة التربة بفعل الأمطار وأحاطوا أنفسهم بسدود ترابية ومتاريس تحميها خنادق من اليسير عليهم الدفاع عنها. وبقي شكل المعركة كما هو طوال شهر يونية وأوائل يولية فدأبت آلات الحصار الفرنجية على قصف أسوار عكا ، وإذا حدث وأفلح الفرنج في إحداث ثغرة صغيرة واندفع خلالها الفرنج ، أشارت الحامية على الفور بعلامة ما إلى صلاح الدين الذي كان يشن في الحال هجوما على المعسكر ومن ثمّ يسحب المعتدين بعيدا عن الأسوار . وكانت هناك معارك بحرية من حين لآخر ، إذ أن وصول الأساطيل الانجليزية والفرنسية قد انتزع من العرب سيادتهم على البحار ، ولذا كان نادرا أن تتمكن سفنهم من اختراق الحصار البحري وجلب المؤن إلى المرفأ؛ فأخذ الطعام والمواد الحربية في التناقص في المدينة المحاصرة فبدأ الحديث فيها عن التسليم.

---

(١٣) *Ibid.* pp. 213-25; Ambroise, col. 123; Benedict of Peterborough, II, p. 170: أما مرض الحمى 'Arnaldia' والذى يسميه المؤرخ أمبرواز 'Leonardie' ، فربما كان نوعا من الأسقربوط ، وهو داء من اعراضه تورم اللثة ونزيفها، أو مرض الغشاء المتقرّح الذي يصيب الجنود في الميدان. أنظر La Monte وترجمة Hubert لأمبرواز ص ١٩٦ حاشية ٢.

١١٩١م : خلافات في المعسكر

وتواصل المرض والشجار في المعسكر المسيحي . ذلك أن البطريق هيراكليوس قد مات ، فحيكت المكائد حول انتخاب خليفته[١٤]. ولم يتوقف النزاع على التاج ؛ فقد ناصر ريتشارد الملك جوي ، بينما شايع فيليب كونراد ، وانضم أبناء بيزا إلى حزب ريتشارد ، ومن ثمّ كانت الأساطيل القادمة من جنوا تعرض خدماتها على فيليب . وعندما خطط فيليب لهجوم عاصف على المدينة قرب نهاية يونية ، رفض ريتشارد أن يتعاون رجاله معه ، وربما كان مرجع ذلك إلى أنه لم يبرأ بعد بالقدر الذي يسمح له بالحرب شخصيا وخشي أن يفقد مغانم النصر . وفشل الهجوم لغيبة أتباعه وأصدقائه ، وأما هجوم صلاح الدين المضاد فلم يتمكن الصليبيون من صده إلاّ بشق الأنفس[١٥]. وتعقدت العلاقات بين ريتشارد وفيليب عندما مات فى ١ يونية فيليب كونت فلاندرز، ذلك الصليبى الذى سبق أن تقاعس عن الحرب سنة ١١٧٧م، دون أن يترك وراءه ورثة مباشرين؛ فبينما كانت لملك فرنسا بعض المطالب في الميراث الفلاندرزي، كان ملك انجلترا عازفا عن أن يترك ذلك الإقليم الخصب ذا الموقع الإستراتيجي يقع في يد غريمه . وأثناء أن كان فيليب يستشهد ببنود الاتفاق الموقع في ميسينا مطالبا بنصف جزيرة قبرص ، رد ريتشارد بطلب مضاد ألا وهو نصف فلاندرز، ولم يواصل أي من الجانبين مسعاه لتحقيق مطالبه ، وانما ظل كل منهما في ترديده لشكواه[١٦].

وفي الثالث من يولية، وبعدما حاول تقي الدين ابن أخى صلاح الدين بلا جدوى شق طريقه داخل المدينة، أحدث الفرنسيون ثغرة خطيرة في الأسوار ، لكنهم أجبروا على التقهقر. وبعد ثمانية أيام قام الإنجليز وأبناء بيزا في اللحظة التى كان باقى الصليبيين يتناولون العشاء بتجربة حظهم فنجحوا أول الأمر لكنهم فشلوا في النهاية. وآنذاك، كانت الحامية قد قررت فعلا الكف عن الكفاح ، وأرسلت مبعوثين إلى معسكر الصليبيين في الرابع من يولية ، بيد أن ريتشارد رفض مقترحاتهم رغم أن سفراءه كانوا في زيارة لصلاح الدين في نفس ذلك اليوم يطلبون السماح بشراء الفاكهة والحلوى المثلجة ويلمعون باستعدادهم لمناقشة شروط السلام. وصُدم صلاح الدين لسماعه بأن

---

(١٤) أنظر مقدمة Mas Latrie للمؤرخ Haymar Monachus ، صفحة .xxxvi

(١٥) Ambroise, col. 123; Rigord, pp. 108-9; Haymar Monachus, p.35.

(١٦) Rigord, p. 113; Benedict of Peterborough, II, p.171.

رجاله داخل عكا فقدوا الأمل ، فوعدهم بالمساعدة العاجلة ، لكنه لم يتمكن من حث جيشه على شن هجوم ضخم على معسكر المسيحيين كان قد خطط لتنفيذه في الخامس من يولية. وفي السابع من يولية جاءه مبعوث سابحا من عكا يحمل آخر نداء من المدينة؛ فلم تعد الحامية قادرة على الصمود أكثر من ذلك بدون مساعدة ، وكانت معركة الحادي عشر من يولية هي آخر جهد من المحاصَرين . وفي اليوم التالي عرضت الحامية التسليم ، وقُبلت شروطها . وكان على عكا أن تستسلم بكل ما فيها من سفن ومخزونات عسكرية ، وتدفع مئتي ألف قطعة ذهبية للفرنج وفوقها أربعمائة قطعة لكونراد شخصيا . وتقرر الإفراج عن ألف وخمسمائة سجين مسيحي معهم مائة سجين من الجنود ، بأسمائهم المحددة ، وإعادة الصليب الحقيقي . فإذا نفذت الحامية هذه الشروط فسوف يبقى أفرادها على قيد الحياة.

١١٩١م : الصليبيون يدخلون عكا

وسبح سابح من المرفأ ليطلع صلاح الدين على ما اتفق عليه ، إذ تقرر أن يقوم هو بتنفيذ الشروط. وتملكه شعور بالارتياع ؛ فبينما جلس أمام خيمته يجهّز ردا يمنع الحامية من الخضوع لهذه الشروط ، شاهد الرايات الفرنجية تنشر على أبراج المدينة . لقد سبق السيف العَذَل ، وأبرم ضباطه المعاهدة باسمه ، ولكونه رجلا شريفا التزم بها ، وانتقل بمعسكره إلى شَفَرعَمر الواقعة على الطريق الذاهب إلى صفورية مبتعدا عن المدينة ، إذ ليس بوسعه أن يفعل شيئا لمساعدتها ، وتجلّد استعداداً لاستقبال سفراء الفرنج المنتصرين(١٧).

ما أن تم قبول التسليم حتى خرجت الحامية العربية خارج عكا. وتحركت مشاعر الغزاة وهم يشاهدون المدينة وهى تقع فى الأسر، فقد ملكهم الاعجاب بشجاعتها وتماسكها ، وبكونها خليقة بمصير أفضل . وعندما خرج آخر عربى دخل الفرنج وكونراد على رأسهم وقد رفع حامل الراية رايته الشخصية ورايات الملوك . واتخذ الملك ريتشارد من القصر الملكي السابق محل اقامته بالقرب من السور الشمالى للمدينة، ونزل الملك فيليب في المنشأة السابقة لفرسان المعبد المطلة على البحر بالقرب من طرف شبه

---

(١٧) *Itinerarium,* pp. 227-33; Ambroise, cols. 133-9; Benedict of Peterboroughii, pp. 174-9; Rigord, pp. 115-16; Ernoul, p. 274; *Estoire* d'Eracles, II, pp. 173-4; Abu Shama, II, pp. 19-29; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 258-69; Ibn al-Athir, II, pp.44-6.

الجزيرة . وثارت مشاحنات غير لائقة شوّهت عملية تخصيص الأحياء في المدينة . ذلك أن دوق النمسا ، باعتباره قائدا للجيش الألماني ، طالب بمكان مماثل لملكي انجلترا وفرنسا ورفع رايته بجوار راية ريتشارد ، لا لشئ إلاّ ليراها وقد أنزلها الانجليز وألقوا بها في الخندق أسفل القصر . فكانت إهانة لم يغفرها قط ليوبولد دوق النمسا ؛ وعندما عاد إلى وطنه بعد أيام قليلة كان قلبه مليئا بكراهية ريتشارد . وطالب التجار والنبلاء الفرنج ، الذين كانت لهم أملاك في عكا من قبل ، بإعادة ممتلكاتهم اليهم ، وكانوا كلهم تقريبا من أنصار كونراد ، ولذا لجأ إلى الملك فيليب عندما حاول الصليبيون الزائرون اجلاءهم عن ممتلكهم ، وأصر على تلبية مطالبهم(١٨).

وكانت أولى المهام الواجب انجازها تنظيف كنائس عكا وإعادة ما كان لها من قداسة، وأشرف على تلك المهمة المندوب البابوي أديلار (أوف فيرونا)، ثم اجتمع الأمراء معا لتسوية المسألة الملَكية بصورة نهائية . وبعد أن تشاوروا تقرر أن يظل جوي ملكا إلى أن يلقى حتفه ، فينتقل التاج إلى كونراد وايزابيلا وذريتهما ، وفي ذات الوقت يعين كونراد لوردا لصور وبيروت وصيدا ويقتسم هو وجوي العوائد الملكية . وبضمان المستقبل لكونراد ، بدأ فيليب يتحدث عن العودة إلى الوطن ، ذلك أنه منذ أن جاء إلى الأراضي المقدسة وهو يعاني من مرض يكاد يكون متواصلا ، ولقد أدى واجبه المسيحي في المساعدة على استعادة عكا ، وسوف يخلّف وراءه دوق برجندى والقسم الأكبر من جيشه الفرنسي . ومارس ريتشارد ضغوطه عبثا من أجل إعلان مشترك بأن الملكين سوف يبقيان في الشرق لثلاث سنوات . وكان أقصى ما وعد به فيليب هو عدم الهجوم على أراضي ريتشارد الفرنسية إلى حين عودة ريتشارد إلى الوطن ، وهو وعد لم يراع مراعاة تامة . وفي الحادي والثلاثين من يولية غادر عكا إلى صور يصحبه كونراد الذى صرح بأنه ينبغي أن يتدبر أمر أراضيه هناك ، لكنه في حقيقة الأمر كان عازفا عن الخدمة في جيش يسيطر عليه ريتشارد . وبعد ثلاثة أيام أبحر الملك فيليب من صور قاصدا برنديزى(١٩).

---

(١٨) *Itinerarium*, p. 234; Ernoul, pp. 274-5; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 175-6; *Chronica Regia Coloniensis*, p. 154، ويرد في تاريخ المستعمرات الملكية قصة شجار ريتشارد مع ليوبولد دوق النمسا. ويقول Ansbert,*Expeditio Friderici*, p.102 إن ليوبولد كان مستاء من هجوم ريتشارد على اسحق كومنينوس في قبرص، إذ كان ابن عم أمه.

(١٩) (19)*Itinerarium*, pp.238-9; Ambroise, cols. 142-3; Benedict of Peterborough, II, pp. 183-5, 192-9, 227-32؛ ويقول تاريخ هرقل *Estoire* d'Eracles,ii,pp.179-81 إن فيليب كان مريضا حقيقة Ernoul, pp. 277-8; Rigord, pp.116-17; William the Breton,pp 106-9.

ونظر الإنجليز إلى رحيل فيليب على أنه تصرف الجبان وفرار الخائن . غير أنه يبدو أن صحته كانت سيئة حقيقة ، فضلا عن وجود مشاكل في الوطن كان مسؤولا عن إيجاد حلول لها ، كمسألة ميراث الفلاندرز . هذا إلى جانب ارتياب فى تآمر ريتشارد عليه وأن زوجته كانت في خطر . وقد ذاعت قصة غريبة تقول إن ريتشارد عندما ذهب لزيارة فيليب وهو طريح الفراش في مرضه الشديد قال له كذبا إن ولده الوحيد لويس قد مات ، إما على أنهاشكل من أشكال الهزل الماجن ، أو على أمل شرير في أن تكون الصدمة فوق احتماله . ولقد كان هناك كثيرون في الجيش المسيحي ممن يتعاطفون مع فيليب فيما يعانيه من شدائد . وعلى الرغم من أن ريتشارد استأثر بإخلاص رجاله واعجاب العرب ، إلا أن بارونات الشرق الفرنجي كانوا يرون في ملك فرنسا العاهل الجدير بالاحترام وقد أحسوا بأنه يتفهم احتياجاتهم[٢٠].

وبرحيل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذى وافق على الالتزام بالمعاهدة التي أبرمها ضباطه في عكا . وبينما انهمك الصليبيون في اعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والمال المطلوب منه وفي الثاني من أغسطس استقبل صلاح الدين في معسكره ضباط مسيحيين ينقلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجزئة المدفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يطلق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسُمح للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذى كان صلاح الدين يحتفظ به في حالة من الوقار. وفي الحادى عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال ، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تحددت اسماؤهم لم يصلوا جميعا، ومن ثم فلن يطلقوا سراح جنود السلطان المأسورين في عكا. فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات المفقودين واطلاق سراح رجاله، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراج رجاله ؛ ورفض السفراء العرضين كليهما ، وطلبوا دفعة المال واعطائه بجرد تعهد بشأن الأسرى العرب . لكن صلاح الدين لا يثق في كلمتهم ، ولذا رفض إعطاءهم أي شئ ما لم يفرجوا عن رجاله.

---

(٢٠) *Estoire d'Eracles, loc. cit.* الذي يذكر قصة تآمر ريتشارد. ويقول Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 240 إن الجميع كانوا يعترفون بسلطة ملك فرنسا، ويقول فيما بعد في صفحة ٢٤٢ إن ملك انجلترا كان أقل منه مكانة برغم تبرزه عليه في الثروة والشجاعة والشهرة.

١١٩١م : ريتشارد يقتل الأسرى العرب

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس ، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة تخرجه فسرّه أن يجد ذريعة للتخلص منهم . وفي العشرين من اغسطس، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفرائه اليه ، أعلن أن صلاح الدين قد أخل بتعهده ، وبكل العمد وسبق الإصرار أمر بقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير. وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشاد في سرورهم راح جنوده المتلهفون يعملون السيف ذبحا شاكرين الرب على هذه الفرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة . وقتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم ، وأبقوا على مجرد القليل من الوجهاء وأقوياء البنية لاستخدامهم في أعمال السخرة . وشاهد العرب في المخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإنقاذ اخوانهم ، بيد أنه برغم بسالتهم في القتال حتى هبوط الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف اليهم . وعندما انتهى الذبح غادر الإنجليز مكان المذبحة بما فيه من جثث تمزقت أوصالها وفسدت ، وبات بامكان المسلمين الحضور للتعرف على أصدقائهم الشهداء[٢١].

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من أغسطس خرج ريتشارد من عكا على رأس الجيش الصليبي، وتغيّب كونراد والكثير من البارونات المحليين، وسار الفرنسيون بقيادة دوق برجندى في المؤخرة متذمرين، فلم يكن أحد من الجنود راغبا في مغادرة المدينة، فكم فيها من الراحة والدعة طوال الشهر المنصرم، وما أحلى ما فيها من طعام وفير، وكم فيها من امرأة لعوب ترضى الشهوة ؛ ولم يرضهم ما سمعوه من أن القائمين على خدمة المعسكر من النساء الغسّالات قد سُمح لهن بمرافقة الجيش في مسيرته ، غير أن قوة الشخصية لدى ريتشارد تغلبت . وكان صلاح الدين ما يزال في شَفرعَمر التي تتحكم في الطريقين الرئيسيين الآتيين من الساحل ، أحدهما يذهب إلى طبرية ودمشق ، والآخر إلى القدس مخترقا الناصرة . على أن ريتشارد اتجه جنوبا بطول الطريق الساحلى حيث يوفر البحر وأسطوله الحماية لجناحه . ولذا تبعه السلطان وسار بمحاذاته وعسكر

---

(٢١) (Itinerarium, pp.240-3; Ambroise, cols 144-8) كلاهما يبرر ما فعله ريتشارد بسبب وحشية صلاح الدين ويقولان إن كونراد حاول ان يعهد اليه بالسجناء ليحتفظ بهم . (أمبرواز Ambroise يمجّد الرب للمذبحة ؛ Ernoul, pp.276-7; Estoire d'Eracles, ii, pp.178-9) ويورد بهاء الدين (P.P.T.S. pp.270-4) قصة أكثر إقناعا . واستنادا إلى أبي شامة (Abu Shama, ii, pp.30-3) طلب صلاح الدين من فرسان المعبد ـ وكان يثق في كلمتهم برغم كراهيته لهم ـ أن يضمنوا الشروط لكنهم رفضوا متوجسين من انتهاك ريتشارد للشروط . ولم يعد الصليب المقدس.

في تل القيمون على منحدرات جبل الكرمل ومن هنـاك خرج لتفقـد البـلاد في منطقـة الشاطئ جنوب الكرمل ليختار مكان المعركة.

وحاوز المسيحيون حيفا ، وكان صلاح الدين قد نزع عنها أسـلحتها قبـل سقوط عكا بوقت قصير ، ثم التف المسيحيون حول أنـف جبـل الكرمـل . وكـانت حركتهـم بطيئة كي يظل الأسطول بمحاذاتهم ، وكان ريتشارد يعتقد أنه ينبغي السماح للجنـود بالراحة كل ثاني يوم تقريبا ، إذ كانت الرياح في الغرب وقد وجدت السفن صعوبة في الالتفاف حول الموقع ، فكان فرسان العرب خفيفو الحركة يهبطـون جبـل الكرمـل مـن حـين لآخـر وينقضـون علـى الجيـش في مسـيرته ، ويعزلـون الشـاردين مـن الجيـش ، ويأخذونهم إلى صلاح الدين ، ويُستجوبون ، ثم يقتلون انتقاما لمذبحة عكا ، ولا يبقـى منهم أحد على قيـد الحياة سـوى الغسـالات . وفي تلـك الأثنـاء قـاد ريتشـارد جيشـه الرئيسي فوق حافة جبل الكرمـل وعسـكر في مكـان مـا داخـل البـلاد يبعـد قليـلا عـن قيسارية[٢٢].

١١٩١م : معركة أرسوف

وفي الثلاثين من الشهر ، وباقتراب المسيحيين من قيسارية ، أصبح الجيشـان أقـرب إلى بعضهما ، واستعر القتال في كل يوم منذآنذاك . غير أن ريتشارد قاد جيشه بصورة شكسة ؛ فكان عادة في أحسن أحواله في المقدمة ، لكنه من حين لآخر كان ينطلق على فرسه إلى الوراء بطول الجيش كله يشجع الرجال . على أن الجو كان في حمّارة القيـظ ، والغربيون مثقلون بالدروع ولم يعتادوا على حرارة الشمس ، فهلك الكثير منهم بضربـة الشمس ، وكثيرون فقدوا الوعي وقتلوا حيثمـا رقـدوا ، وكـاد دوق برجنـدى والجنـود الفرنسيون أن يبادوا عن آخرهم أثناء تثاقلهم في المؤخرة خلف عربـات المؤن ، لكنهـم خلصوا بأنفسهم . لقد كان الجند كله يكدح كدحـا ، صارخا في ضراعـة مـن حـين لآخر "Sanctum Sepulchrum adjuva ساعدنا أيها القبر المقدس".

وبعد أيام قليلة اختار صلاح الدين ساحة المعركة التي قرر أن تكون شمال أرسـوف مباشرة حيث يتسع الوادى بما يكفى لإنطلاق الفرسان ، وفي ذات الوقت تحجبـه جيـدا

---

(٢٢) *Itinerarium*, pp.248-56; Ambroise, cols. 152-60; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.275-81; Abu Shama,II, pp.33-6

الغابات التي تمتد جنوبا على مبعدة ميلين من البحر . وفي الخامس من سبتمبر طلب ريتشارد التفاوض وقابل العادل ، أخا صلاح الدين ،تحت علم المدنة . على أنه برغم حالة الانهاك التي يعانيها من الحرب ، طلب تسليم فلسطين كلها ، لا أقل . وعلى الفور أوقف العادل المفاوضات.

وفي صباح السبت السابع من سبتمبر أيقن ريتشارد أن المسلمين سيفرضون عليه معركة ، فراح ينظم رجاله استعدادا لها . وكانت أحمال المؤن ممتدة بطول الساحل يحرسها هنرى (أوف شامباني) وجزء من المشاة . وكان رماة السهام في خط المقدمة وخلفهم الفرسان ، وفرسان المعبد على اليمين في الطرف الأخير من الخط . وبعدهم كان البريتون ورجال أنجو ، ويليهم جنود جين بقيادة جوى وأخيه ، جيوفرى (أوف لوسينان). وفي الوسط كان الملك نفسه مع جنوده من الإنجليز والنورمان ، ثم الفلمنكيون أبناء فلاندرز والبارونات المحليون تحت قيادة جيمس (أوف أفيسن)، والفرنسيون بقيادة هيو (أوف برجندي) وفي أقصى اليسار كان فرسان المستشفى. وبعد إعداد كل شئ انطلق ريتشار ودوق برجندي على جواديهما بطول الخطوط يحثان الجنود ويشجعانهم.

وبدأ العرب هجومهم في الضحى . فكانت الموجة تلو الموجة من مشاة الزنج والبدو خفيفي السلاح تنقض على المسيحيين ، تمطرهم بوابل من السهام والرماح ، وأفلحوا في بعثرة الخط الأول من جنود المشاة الذين شملتهم الفوضى ، بيد انهم لم يؤثروا تأثيرا يذكر فى الفرسان بدروعهم . وفجأة قسّم العرب جنودهم ، واندفع الفرسان الأتراك وقد لمعت سيوفهم وفؤوسهم ، وشنوا أعنف هجماتهم على فرسان المستشفى والفلمنكيين وإلى جانبهم البارونات المحليين ، وفي مأمولهم الإحاطة بجناح المسيحيين الأيسر . وصمد الفرسان وبعد كل موجة كان رماة السهام يعيدون تنظيم صفوفهم . غير أن ريتشار ، وبرغم ما يدعيه من حنكة عسكرية ، لم يكن يسمح لأى جزء من جيشه بالهجوم إلاّ بعدما يكون الجميع على أهبة الاستعداد وبعد أن يُظهر المهاجمون الأتراك علامات على الانهاك وإلى أن يصبح الجيش العربى الرئيسى أقرب . ومرة بعد مرة يرسل السيد الأعظم لفرسان المستشفى إلى ريتشارد متوسلا أن يعطى إشارة الهجوم ، قائلا إن فرسانه سيصيبهم الوهن ما لم يتسلموا زمام الهجوم ، لكن ريتشارد كان لا يزال يأمر بالاصطبار ، فقام فارسان هما مارشال من فرسان المستشفى وبلدوين كاريو بالتصرف وانطلقا إلى الأعداء ، وانطلق خلفهما كل رفاقهما ، وحذا كل الفرسان بطول الجيش حذوهما فنخسوا خيولهم بالمهاميز . وساد الإضطراب اول

الأمر ، إذ لم يكن رماة السهام على استعداد وكانوا في الطريق حجر عثرة امام الفرسان، وانطلق الملك نفسه إلى وسط الهرج في محاولة لإعادة بعض النظام ، وتولى زمام الهجوم . وكان كاتم اسرار صلاح الدين على تل قريب يرقب روعة المشهد ففغر فاه أثناء أن كان الفرسان المسيحيون يرعدون في طريقهم باتجاهه . وكان ذلك فوق احتمال الجنود المسلمين ، فانكسرت صفوفهم وهربوا ، لكن صلاح الدين جمعهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره ، بل قاد هجوما آخر على العدو ، ولكن دون جدوى وبحلول المساء كان الجيش المسيحي مسيطرا على الميدان ويواصل سيره باتجاه الجنوب(٢٣).

١١٩١م : انتصار ريتشارد

لم تكن معركة أرسوف معركة حاسمة ، لكنها كانت نصرا معنويا ضخما للمسيحيين . وكانت خسائرهم قليلة بصورة باعثة على الدهشة برغم مصرع الفارس العظيم جيمس (أوف افيزن) الذى كان راقدا مع خمس عشرة جثة من جثث العرب حوله . على أن خسائر العرب كانت قليلة أيضا بنفس القدر تقريبا ، ولم يسقط أى أمير مرموق ، وفى اليوم التالى جمع صلاح الدين كل رجاله وكان على استعداد لمواجهة أخرى ، تجنبها ريتشارد إذ لم يكن من القوة بما يكفى للدخول فيها . كانت قيمة النصر تكمن فيما منحه من ثقة للمسيحيين . وكانت هذه المعركة أول معركة كبيرة مكشوفة منذ معركة حطين ، وأظهرت إمكان هزيمة صلاح الدين . ولكونها قد وقعت بعد الاستيلاء على عكا مباشرة ، فقد بدا ذلك مؤشرا على أن المد قد تحول وأن بالامكان تحرير القدس ذاتها مرة أخرى . وكانت شهرة ريتشارد فى أوج ارتفاعها . ومن الحق أن هجوم الانتصار قد شُنّ بالمخالفة لأوامره ، لكنه لم يحدث سوى قبل دقائق قليلة من اكتمال استعداده ، إن تمالكه لنفسه من قبل ، وتوجهه للهجوم من بعد أظهر قدره فائقة على القيادة . فكان ذلك بشيرا لمستقبل الحملة الصليبية.

ومن الناحية الأخرى ، أصيب صلاح الدين بمهانة شخصية وعامة . فجيشه لم يكن ذا فعالية في عكا والآن هزم فى معركة مكشوفة . وكشأن سلفه العظيم نور الدين، كان صلاح الدين يفقد شيئا من طاقته وسيطرته على الرجال وهو يخطو نحو

---

(٢٣) *Itinerarium*, pp.256-78; Ambroise, cols. 160-78; Beha ed-Din. *P.P.T.S.* pp.281-95; Abu Shama,II,pp.36-40

الشيخوخة . كانت صحته سيئة وقد عانى من نوبات متكررة من الملاريا . وقد تراجعت قوته عمّا كانت عليه أيام شبابه في فرض قراراته على الأمراء المشاكسين الذين كانوا أتباعه ، وكان كثيرون ينظرون إليه على أنه حديث النعمة ومغتصب ، وإذا ما بدا نجمه ينحدر كانوا سراعا في اظهار تحررهم من تبعيته . لقد كان كثيرا عليه أن يقبل تفوق ريتشارد عليه في القيادة العسكرية . وقبل كل شئ ، لا ينبغي له أن يفقد القدس التي كان استرجاعها أكبر انتصاراته المجيدة . وقد أخذ جيشه في نظام جيد إلى الرملة الواقعة على الطريق إلى القدس ، انتظارا لما سيقدم عليه ريتشارد فى حركته التالية.

واصل الجيش الصليبى سيره إلى يافا وشرع في إعادة بناء تحصيناتها . وحتى آنذاك كان ريتشارد يترجى أن يكون الأسطول إلى جانبه لتزويده بالمؤن ، ولم يكن على استعداد للتوغل داخل البلاد إلى المدينة المقدسة بدون قاعدة قوية على الساحل ، فضلا عن أن جيشه قد أصابه الكلل بعد سيره الطويل جنوب الساحل بحيث كان في شدة الحاجة إلى الراحة . وقد أحدث حذره وتأخيره الكثير من الحيرة للمؤرخين ، إذ لو أنه اتجه بسرعة خاطفة إلى القدس لوجد بها حامية واهية ولوجد أسوارها ضعيفة ، على أن جيش صلاح الدين كان قد هُزم فقط ولم يُدمّر ، وما زال جيشا جبارا ، وحتى لو أفلح ريتشارد في اقتحام طريقه إلى القدس ، لأصبح معزولا عن الساحل ، فكان من الحصافة التأكد من يافا قبل الشروع في مغامرة أكبر . ومع ذلك ، كان التأخير مفرطا ، وأتاح لصلاح الدين تقوية دفاعات المدينة المقدسة . ثم إنه خشى أن يتجه ريتشارد إلى عسقلان ويقيم بها قاعدة ، ومن ثم يقطع عليه الطريق إلى مصر التى هى بمثابة مصدره الرئيسى من الرجال ، ولذا أخذا قسما من جيشه من الرملة إلى عسقلان وراح يحطّمها تحطيما رتيبا برغم ثرائها وازدهارها[٢٤]. وفي تلك الأثناء راح الجيش المسيحى يستمتع فيما تتيحه يافا من أسباب الراحة ؛ فالحياة فيها ناعمة ، والحدائق من حولها بألوان الثمار زاخرة ، والسفن تجلب المؤن الوافرة ، كما تستجلب من عكا عاهرات النساء ليتسلّى بهن الرجال . وبقى العرب على مسافة من المدينة ، ولم تحدث سوى مناوشات قليلة بين الفرسان في سهل اللد في ضواحى المعسكر . ودبّت في الجيش حياة التراخى والنعومة ، واتخذ الكثير من الجند سبيلهم عائدين إلى عكا ، فاضطر ريتشارد إلى إرسال الملك جوى لحثّهم على العودة إلى المعسكر ، لكنهم لم يعيروه التفاتا؛ فكان من

---

(٢٤) *Itinerarium*,pp.280-1; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.295-300; Abu Shama, II,pp.41-4؛ ويُظهر ابن الأثير II,pp.50-1 أن صلاح الدين أذعن لأمرائه على خلاف رغبته فيما يتصل بعسقلان.

الضرورى أن يذهب ريتشارد نفسه إلى عكا كي يجمع شملهم مرة أخرى[٢٥]. وكان لريتشارد شواغله التى تقلقه ، إذ لم يكن راضيا عن سير الأمور في عكا وما يليها شمالا حيث كان حزب كونراد يتمتع بالقوة. كما كانت هناك اضطرابات في قبرص بعد موت ريتشارد (أوف كامفيل)، وبعد الصعوبات التى واجهها روبرت (أوف تورنهام) في اخماد تمرد . وساورته المخاوف مما قد يفعله الملك فيليب في طريق عودته إلى فرنسا . ووجد ريتشارد حلا لمشاكله في قبرص بأن باع الجزيرة لفرسان المعبد[٢٦]. على أنه كان متلهفا على الشروع في التفاوض مع صلاح الدين ، وهذا الأخير على استعداد لسماع مقترحاته ، فأناب أخاه العادل للتفاوض باسمه.

١١٩١م : ريتشارد يتفاوض مع العادل

كان همفرى (أوف تورون) أفضل دارس للغة العربية في الجيش ، وكان ريتشارد يحمل له عاطفة عميقة . فما أن وصل ريتشارد إلى يافا حتى أرسل همفرى إلى اللد حيث يتولى العادل القيادة لمناقشة الشروط الأولية لعقد هدنة ، لكن شيئا لم يتقرر. وكان العادل دبلوماسيا ماهرا ، وكبح جماح أخيه في تلهفه على تسوية . وأتيحت لدبلوماسيته فرصة رائعة عندما جاءه مبعوثون في اكتوبر من صور يسألونه إن كان على استعداد لاستقبال سفارة من كونراد . وكانت أول مطالب ريتشارد التى لا يتنازل عنها استرداد القدس وكل البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن وعودة الصليب المقدس . وأرسل صلاح الدين رده قائلا إن المدينة المقدسة هى مدينة مقدسة للإسلام أيضا ، ولا سبيل لإعادة الصليب بدون بعض التنازلات في المقابل . وبعد أيام قليلة تقدم ريتشارد بمقترحات جديدة . إذ أنه - كشأن الصليبيين جميعا - كان معجبا بالعادل الذين اطلقوا عليه سيف الدين ، واقترح أن يتسلم العادل فلسطين كلها التي يملكها صلاح الدين الآن ، وأن يتزوج العادل من أخت الملك - الملكة جوانّا الصقلية - التي يتعين أن توهب لها المدن الساحلية التي استولى عليها ريتشارد ، بما فيها عسقلان، وأن يعيش العريسان في القدس التي ينبغى أن تتوفر للمسيحين امكانية الوصول اليها ، وأن يُسترّد الصليب ، وأن يفرج عن جميع الأسرى من الجانبين ، وأن

---

(٢٥) *Itinerarium*, pp.283-6; Ambroise, cols. 187-9.

(٢٦) Benedict of Peterborough, II,pp.172-3; Ernoul, p.273; *Estoire d'Eracles*, II, pp.170,189-90.

يسترد فرسان المعبد وفرسان المستشفى ممتلكاتهم الفلسطينية . وذهب كاتم أسرار صلاح الدين في زيارة لصلاح الدين ومعه العرض ، واعتبر صلاح الدين العرض طرفة من الطرائف ووافق عليه في مرح . على أن ريتشارد ربما كان جادا تماما في عرضه . وأما الملكة جوانا، التي انضمت إلى ريتشارد في يافا مع الملكة بيرينجاريا، فقد ارتاعت لدى سماعها الاقتراح ، وقالت إنه ليس ثمة ما يدفعها إلى الزواج من مسلم . وبعد ذلك ، سأل ريتشارد العادل إن كان بمقدوره أن يتفكر في أن يصبح مسيحيا . ورفض العادل في أدب هذا الشرف ، ودعا ريتشارد إلى وليمة فاخرة في اللد في الثامن من نوفمبر ، فكان مهرجانا بهيجا وافترقا بتأكيد مشاعر الود إزاء بعضهما وفي حعبة كل منهما كثير من الهدايا. بيد أنه في نفس تلك اللحظة كان صلاح الدين يتسلّى في معسكره القريب بسفير أرسله كونراد - ريموند الجذاب أمير صيدا - الذي غفر له السلطان أحابيله في بيوفورت.

وفي الصباح التالى استقبل صلاح الدين مبعوث ريتشارد - همفرى (أوف تورون) - الذى جاء بعرض يقضى بالاعتراف بالعادل حاكما لفلسطين كلها طالما سيكون المسيحيين نصيب في القدس . وكان المأمول أن تُجرى ترتيبات الزواج من جوانّا ، رغم اعتراف ريتشارد بأن الرأي العام المسيحي قد أصيب بنوع من الصدمة من هذه الفكرة؛ ويعتقد ريتشارد أن تدخل النظام البابوي قد يجعل جوانا تغير رأيها ، وفي هذه الحالة يستطيع العادل أن يتزوج ابنة اخته - إلينور (أوف بريتانى) - التي يمكنها الزواج دون تدخل بابوى باعتبارها تحت وصاية الملك ، وبعدما تتم تسوية كل ذلك ، سيرجع ريتشارد إلى أوروربا . وكان عرض كونراد أقل إثارة ، ففي مقابل حصوله على صيدا وبيروت سوف يتخاصم مع الصليبيين الآخرين ، بل اقترح عودة عكا إلى المسلمين . على أنه عندما سألوا السفير ما إذا كان كونراد سيحمل السلاح فعلا في وجه ريتشارد، راوغ في رده.

وعقد صلاح الدين مجلسا لتقرير أي الحزبين الفرنجيين الذي تستمر معه المباحثات. وصوت العادل وأمراء آخرون فى جانب حزب ريتشارد ، وربما لم يكن ذلك بدافع استلطافه وانما لأنه سرعان ما سيغادر فلسطين ، بينما كونراد ، وكانوا جميعا يشعرون بشئ من الخشية حياله كان ينوى البقاء في فلسطين على الدوام . وقبلت مقترحات ريتشارد من حيث المبدأ ، غير أن حاشية همفرى شعرت بالحزن يوما ما عندما شاهدت رينالد أمير صيدا يخرج في رحلة صيد مع العادل وقد بدا الاثنان على علاقة

وطيدة ودودة . وواقع الأمر أن العادل تدبر إطالة المفاوضات إلى أن حل الشتاء(٢٧). وفي تلك الآونة كانت الحرب بين الجيشين متقطعة ومتفرقة . وفي احد أيام شهر نوفمبر ، وبينما كان ريتشارد في رحلة صيد بالصقور ، سقط هو نفسه في كمين عربي، وأوشك العرب أن يأخذوه لولا شهامة الفارس وليم (أوف برو) الذي صاح بأنه هو الملك وحل محل الملك في الأسر ، وقد سقط بعض الفرسان الآخرين في ذلك اليوم ، على أنه بخلاف تلك المناوشات الطفيفة لم يكن هناك اشتباك جدير بالذكر(٢٨).

١١٩٢م : ريتشارد في بيت نوبا

عندما بدأت أمطار نوفمبر هطولها سرّح صلاح الدين نصف جيشه وعاد مع الباقين إلى مقره الشتوى في القدس . وكانت التعزيزات في طريقها من مصر . غير أن ريتشارد رفض أن يثبّطه الجو عن عزمه ، ففي منتصف الشهر قاد جيشه ، الذي زاد عدده بفصائل جديدة أتته من عكا ، خارجا من يافا حتى الرملة التى وجدها وقد هجرها العرب وفككوا حصونها ، وبقي فيها ستة أسابيع ينتظر الفرصة للزحف على القدس ، ودأب العرب على الإغارة على مخافره الأمامية ، وكاد هو نفسه أن يقع في الأسر عندما كان يقوم بأعمال استطلاع بالقرب من قلعة بلانشجارد ، وفي اشتباك آخر وقع في الأسر أحد الوجهاء ، هو إيرل ليشيستر لكنه أفرج عنه فيما بعد . وخلال الأيام الأخيرة من العام كان الجو من السوء بحيث سحب صلاح الدين فرق الإغارة التابعة له . وأمضى ريتشارد عيد الميلاد في لاترون الواقعة على حافة تلال يهودا ، وفي الثامن والعشرين من ديسمبر تحرك جيشه شمالا في التلال دون أن يعترضه الأعداء . وهطلت الأمطار بغزارة شديدة واستحالت إلى سيول ، وغرق الطريق في الطين، وهبت رياح عاتية خلعت قوائم الخيام قبل التمكن من نصب أية خيمة . وبحلول الثالث من يناير كان الجيش قد وصل إلى بيت نوبا التى لا تبعد عن المدينة المقدسة سوى اثنى عشر ميلا . وامتلأ الجنود الإنجليز والفرنسيون حماسا ، وباقترابهم على هذا النحو من هدفهم الذي بات وشيكا هانت عليهم المشاق التي عانوها في المعسكر في هذا الارتفاع تحت الرياح المطيرة ، والدمار الذى سببته الأمطار لمخزوناتهم من البسكوت والخنازير ،

---

(٢٧) *Itinerarium*, pp.295-7; ويورد بهاء الدين *P.P.T.S.* pp.302-35 رواية مفصّلة عن المفاوضات Abu Shama, II, pp.45-50.؛

(٢٨) *Itinerarium*, pp. 286-8.

وهما طعامهم الرئيسي، وما فقدوه جياد كثيرة بسبب البرد ونقص التغذية ، وما عانوه من كدح ورهق . على أن الفرسان من ذوى الدراية بالبلاد - فرسان المستشفى والمعبد والبارونات المولودين محليا - كان لهم وجهة نظر أكثر حصافة وبعثا على الأسى ذلك أنهم قالوا للملك ريتشارد إنه حتى إذا تمكن من التوغل فوق التلال الطينية مخترقا العواصف إلى القدس ، وحتى لو تمكن من محاصرة جيش صلاح الدين هناك ، فإن هناك جيشا عربيا آتيا من مصر سوف يعسكر على التلال خارج المدينة ، وبذا سيقع بين شقي الرحى . وأضافوا أنه حتى لو تمكن من الاستيلاء على القدس ، فماذا بعد ذلك؟ فالزائرون الصليبيون سيعودون جميعا إلى اوطانهم في اوروبا بعد حجهم ، وليس الجنود المحليون بما يكفي من العدد للصمود بها في وجه قوات الإسلام المتحد. واقتنع ريتشارد. وبعد تردد دام خمسة أيام اتخذ القرار الصائب بالانسحاب(٢٩).

وعاد الجيش أدراجه غاضبا وقد وهنت عزيمته مخترقا الجليد إلى الرملة ، وتحمل الإنجليز خيبة الأمل بثبات ، لكن الفرنسيين بطبعهم المتقلب سرعان ما شرعوا في التخلي عن الجيش فهرب الكثير منهم إلى يافا وبينهم دوق برجندى ، بل ذهب البعض إلى عكا . وأدرك ريتشارد أنه من الضرورى القيام ببعض النشاط حفاظا على معنويات الجنود ، وفي العشرين من يناير عقد مجلسا آزره في اصدار الأوامر للجيش بالتحرك من الرملة والاتجاه إلى ابلين في الطريق إلى عسقلان . وهناك شرع في اصلاح تلك القلعة العظيمة التي سبق أن دمّر صلاح الدين تحصيناتها قبل أشهر قليلة . وكشأن صلاح الدين ، كان ريتشارد يدرك أهميتها الاستراتيجية . وحث الفرنسيين على الانضمام اليه هناك(٣٠).

وأمضى ريتشارد الأشهر الأربعة التالية في عسقلان ، لم يغادرها إلامرة واحدة زار فيها عكا. وقد جعل من عسقلان أقوى قلعة على الساحل الفلسطيني كله . ولعدم وجود مرفأ بها ، لم يكن من اليسير دائما تفريغ مؤن الطعام الآتية بطريق البحر ، فضلا عن أن الأحوال الجوية في ذلك الشتاء كانت دوما سيئة ولم يفعل صلاح الدين شيئا لمضايقتهم ، وقد ظن البعض من أتباع ريتشارد أن فروسية صلاح الدين منعته من مهاجمتهم وهم على مثل هذه الحالة الضعيفة ، الأمر الذي أثار سخط أمرائه . على أن حقيقة الأمر أن صلاح الدين كان يريد لجيشه أن يستريح ، وكان ينتظر التعزيزات من

---

(٢٩) *Ibid.* pp. 303-8; Ambroise, cols. 203-8.

(٣٠) *Itinerarium,* pp. 309-12; Ambroise, col. 208-11; Abu Shama, II, p. 51.

الجزيرة والموصل . وربما كان بعض أمرائه ساخطين حقا وأن لم يكـن ذلـك لإحجامـه عن مهاجمة الصليبيين بالضرورة ، وهو لا يسعه المجازفة بمعركة وهم علـى مـا هـم عليـه من سوء الطبع[٣١].

هذا فضلا عن أن الأنبـاء الآتيـة مـن عكـا تشـير إلى تشـتت الفرنـج ، ففـي فـبراير استدعى ريتشارد كونراد إلى عسقلان للمسـاعدة في الأعمـال الجاريـة ، لكـن كونـراد أرسل ردا فظا . وبعد أيام قليلة تخلى هيو (أوف برجنـدي) وكثـير مـن الفرنسـيين عـن الجيش وفروا إلى عكا . وكان الملك فيليب قد ترك للدوق قدرا زهيدا للغايـة مـن المـال لرواتب الجند ، ومنذآنذاك ورواتبهم يدفعها ريتشارد على هيئة قروض . علـى أن ثـروة ريتشارد الضخمة بدأت تتناقص ، ولذا كفّ عن تمويلهم . وفي عكا اشتد التنـافس بين أبناء بيزا وأبناء جنوا ، ولكل منهما الآن الكثير مـن الرجـال والسـفن الراسـية ، وشـيئا فشيئا تحول التنافس إلى حرب مفتوحـة . وزعـم أبنـاء بيزا أنهـم يعملـون باسـم الملـك جوى، فاستولوا على المدينة برغم معارضة هيو (أوف برجندى) الذى كان قـد وصلها من فوره ، واحتلوا المدينة لثلاثة أيام معتبرين أنها لا تحق لهيـو ولا لكونـراد ، ولا لأبنـاء جنوا ، وأرسلوا إلى ريتشارد يلتمسون منه الحضور لمساعدتهم . وفي العشرين من فبراير وصل ريتشارد إلى عكا وحاول إحلال السلام ، وأجرى مقابلة مع كونـراد في كاسـال امبرت الواقعة على الطريق إلى صور ، لكن المقابلـة لم تفلـح ، إذ كـان كونـراد لايـزال يرفض الانضمام إلى الجيش فى عسقلان ، حتى عندما هدده ريتشارد بأنه إذا أصر علـى رفضه الانضمام إلى الجيش فسوف تُصادر أراضيه جميعها ، وهو تهديد يستحيل تنفيذه. وفي نهاية الأمر أفلح ريتشارد في ترقيع هدنة هشّة ، ثم عاد إلى عسقلان وقد اقتنع أكثر من اي وقت مضى بضرورة تحقيق السلام مع صلاح الدين[٣٢].

١١٩٢ م : مفاوضات جديدة

وكان ريتشارد ما يزال على اتصال بالعادل . فأرسـل مبعوثـا انجليزيـا هـو ستيفن (أوف تورنهام)، فى زيارة للقدس لمقابلة السلطان وأخيه ، وأصيـب المبعـوث بالصدمـة لدى رؤيته رينالد أمير صيدا وباليان أمير ابلين وهما يخرجان من بوابة المدينة . ولم تكن

---

(٣١) *Itinerarium*, pp.313-17; Ambroise, cols. 212-14

(٣٢) *Itinerarium*, pp. 319-24; Ambroise, cols. 218-21.

مفاوضات صلاح الدين مع كونراد قد انقطعت ، وكان وجود باليان نذيرا سيئا ، إذ كان فارسا يحظى بتقدير كبير من صلاح الدين . على أية حال انطلق العادل على جواده في العشرين من مارس هابطا إلى معسكر ريتشارد وهو يحمل عرضا نهائيا بأن يحتفظ المسيحيون بما استولوا عليه ، ولهم الحق في الحج إلى القدس حيث يمكن للاتينيين الاحتفاظ بقساوسة ، وأن يبقى معهم الصليب المقدس ، ومن حقهم ضم بيروت كذلك في حالة هدم حصونها . واستقبل الملك السفارة استقبالا حسنا حقا ؛ وكعلامة على التشريف الخاص طُوّق أحد أبناء العادل بحزام الفروسية ، ولا شك في أن المظاهر المسيحية المعتادة قد ألغيت من الاحتفال . وعندما رجع العادل إلى أخيه في أوائل ابريل، بدا أنه قد تم التوصل أخيرا إلى تسوية(٣٣).

وتأكدت ضرورة التسوية بعد أيام قليلة ، عندما وصل من انجلترا رئيس أديرة هيرفورد ليخبر ريتشارد بأن الأمور تسير بصورة سيئة في انجلترا . ذلك أن أخا الملك ، جون ، كان يغتصب السلطة أكثر فأكثر، وتقدم كبير القضاة وليم أسقف إيلي متوسلا ريتشارد أن يذهب إلى الوطن على الفور . وكان ريتشارد قد أمضى عيد الفصح ، الخامس من ابريل ، في المعسكر وهو حانق لرحيل الفرنسيين الباقين بعد أن استدعاهم هيو (أوف برجندى) في الشمال . والآن ، واكثر من أى وقت سابق ، يتعين أن تُخمد المشاحنات بين الصليبيين ، ولذا أمر الملك بعقد مجلس من الفرسان جميعا وبارونات فلسطين ، وأخبرهم بأنه سرعان ما سيغادر البلد ، ويجب الإنتهاء إلى قرار فيما يتعلق بتاج القدس عارضا عليهم الإختيار بين الملك جوى و المركيز كونراد . وصدمه الاّ يجد مؤيدا واحدا لجوى ، كانوا جميعا يريدون كونراد.

وكان ريتشارد من الحكمة والأريحية بحيث يرضخ للقرار ، ووافق على الاعتراف بكونراد ملكا، وانطلقت بعثة يرأسها ابن اخيه هنرى (أوف شامباني) إلى صور لنقل الأخبار الحسنة إلى المركيز.

وعندما وصل هنرى إلى صور في العشرين من ابريل تقريبا كانت البهجة بالغة . وتقرر أن يجرى التتويج في غضون أيام قليلة في عكا ، وكان مفهوما أن كونراد سوف يرضى في نهاية الأمر بالانضمام إلى المعسكر في عسقلان . ورحل هنرى من صور على الفور إلى عكا لإعداد المدينة للاحتفال(٣٤).

---

(٣٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 328-9; *Itinerarium*, p.337.

(٣٤) *Itinerarium*, pp.329-38; Ambroise, cols. 225-31.

١١٩٢م : اغتيال كونراد

ركع كونراد على ركبتيه لدى سماعه الأنباء ضارعا إلى الرب قائلا إنه إن لم يكن جديرا لأن يصبح ملكا، فلا يأذن الرب بذلك . وبعد أيام قلائل ، وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ابريل ١١٩٢ ، اضطرته زوجته الأميرة إيزابيلا إلى الانتظار طويلا قبل تناول العشاء ، إذ كانت قد بقيت في حمامها متريثة تريثا طويلا، ولذا قرر الخروج لتناول عشاءه مع صديقه القديم أسقف بوفيه . لكنه وجد الأسقف قد فرغ من تناول وجبته. ورغم الالحاح عليه كي ينتظر ريثما يتم إعداد الطعام له ، انطلق في مرح قاصدا بيته . وبينما كان يجتاز منعطفا حادا برز له رجلان أعطاه أحدهما خطابا يقرؤه ، بينما طعنه الآخر في جسده . وحُمل إلى قصره وهو يحتضر.

فأما أحد الرجلين فصرع على الفور ، واقتيد الثاني واعترف قبل اعدامه بأنه ورفيقه من الحشاشين ، كلفهما سيد الجبل، الشيخ سنان ، بتنفيذ المهمة . وكان الحشاشون قد توخوا حيادا هاما طوال تلك الحملة الصليبية، مما أتاح لهم الفرصة لتقوية حصونهم وتكديس المزيد من الثروة . وكان كونراد قد أساء إلى الشيخ سنان بعمل من اعمال القرصنة أقدم عليه ضد سفينة تجارية محمّلة بنفيس البضائع كان الحشاشون قد اشتروها . وبرغم اعتراضات سنان ، لم يُرجع كونراد البضائع ولا البحارة الذين غرقوا كلهم في الواقع . وربما كان سنان يخشى من أن تتعرض أراضيه للخطر في نهاية الأمر من انشاء دويلة صليبية قوية على الساحل اللبناني . وقيل إن القاتلين كانا قد أمضيا بعض الوقت في صور ينتهزان النهزة المواتية ، وأنهما قبلا حتى التعميد تحت رعاية كونراد وباليان . غير أن الرأي العام كان يبحث عن دوافع أعمق ؛ فقال البعض إن صلاح الدين دفع رشوة لسينان كي يقتل ريتشارد و كونراد كليهما ، لكن خشي سينان من أن يؤدى مقتل ريتشارد إلى أن يصبح صلاح الدين حرا في الزحف على الحشاشين ، ولذا تولى تنفيذ المهمة الأخيرة . وهناك نظرية أخرى أكثر شيوعا وهي أن ريتشارد نفسه قد رتب الإغتيال . وليس تواطؤ صلاح الدين على الاغتيال جديرا بالتصديق ؛ وريتشار – برغم كراهيته الشديدة لكونراد – لم يستخدم قط سلاح الاغتيال هذا . لكن أعداءه ، وعلى رأسهم أسقف بوفيه ، رفضوا تصديق براءته[٣٥].

---

(٣٥) *Itinerarium*, pp. 337-42; Ambroise, cols. 233-8; Ernoul, pp. 288-90; Estoire d'Eracles, II, pp.192-4; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 332-3; Abu Shama, II, pp. 52-4

وكان مقتل كونراد بمثابة صدمة للمملكة الوليدة . ذلك أن كونراد الفظ الطموح عديم الخُلُق والذى مع ذلك حازَ ثقة واعجاب النبلاء المحليين من الفرنج ، كان حريا بأن يكون ملكا قويا ماكرا . ومع ذلك ، كان هناك بعض العِوض لاختفائه ؛ إذ توفرت حرية الإختيار لوريثة المملكة - إيزابيلا - لأن تتزوج وتضع التاج على رأس مرشح آخر أقل إثارة للخلاف . ولقد أسرع هنرى (أوف شامباني)، لدى سماعه بالإغتيال ، عائدا من عكا إلى صور حيث وجد الأميرة الأرملة وقد أغلقت على نفسها القلعة رافضة تسليم مفاتيح مدينتها لأي شخص عدا ممثل ملك فرنسا أو ممثل ملك انجلترا . وما أن وصل هنرى حتى نادى به أبناء صور على أنه الرجل الذي ينبغي أن يتزوج أميرتهم ويرث العرش ، لاسيما وأنه كان شابا ، وذا شهامة ، ويحظي بالشعبية، وابن اخت كل من الملكين . ورضخت ايزابيلا لصخب عامة الناس ، فوهبت نفسها ومفاتيحها لهنرى ، وأعلنت خطبتهما بعد يومين من اغتيال كونراد . وقد رأي البعض أنه كانِ من اللائق التأخير أكثر من ذلك ، وكان من المشكوك فيه ما إذا كان التزوج مرة أخرى في غضون عام أمرا قانونيا من الناحية الكنسية . وكان لدى هنرى نفسه بعض الفتور ، على خلاف ايزابيلا التى كانت امرأة بالغة الفتنة في ربيعها الحادى والعشرين غير أنها سبق أن تزوجت مرتين ، ولديها الآن طفلة رضيعة سوف ترثها . ويبدو أن هنرى قد أصر على أن يصدق ريتشارد على الخطبة ، فأُرسلت الرسل التى جاءت بهنرى إلى عكا حيث قابل ابن اخته . وأشيع أنه أخبر هنرى بما يساوره من شكوك ، وبتلهفه إلى العودة إلى الوطن حيث أراضيه الفسيحة في فرنسا. على أن الحل راق في عيني ريتشارد ونصح هنرى بقبول اعتلاء العرش ووعده بأنه سوف يرجع يوما ما بمساعدة جديدة لمملكته ، ورفض أن يبذل له النصح حول الزواج ؛ ولكن هنرى لا يستطيع أن يغدو ملكا بغير زواجه من ايزابيلا . وفي الخامس من مايو ١١٩٢ - وبعد أسبوع واحد تماما من الترمل - دخلت ايزابيلا عكا وهنرى إلى جانبها . وخرج الشعب كله لتحيتهما ، وأقيمت احتفالات الزواج بين مظاهر الفخامة والبهجة ، ثم أن الأميرة وزوجها اتخذا من قلعة عكا مكان إقامتهما[٣٦].

---

(٣٦) (*Itinerarium*, pp. 342-3; Ambroise, cols. 238-9 كلاهما يقول إن الجماهير أصرت على اختيار هنرى ، وآيده الفرنسيون ، لكن ريتشارد لم يكن ليلزم نفسه) ؛ وأما Ernoul,pp. 290-1; *Estoire d'Eracles*, II, pp.195-6 فيوحيان كلاهما بأن ريتشارد أصر على ذلك ؛ ويقول أبو شامة Abu Shama, loc.cit. إن إيزابيلا كانت حُبْلى عندما تزوجت هنرى . ومع ذلك ربما كانت ابنتها ماريا قد ولدت قبل مصرع كونراد.

١١٩٢م : ريتشارد يستولي على دارون

ولقد كان زواجا سعيدا ، فسرعان ما جاشت أعماق هنري بحب زوجته حتى ما يكاد يحتمل غيابها عن ناظريه . وهي الأخرى وجدت سحره لا يقاوم بعد أن عانت من جهامات ذلك العجوز القادم من اقليم بيدموت الإيطالي والذي أجبرت على الزواج منه قسرا.

وقد تخلى ريتشارد فعلا عن الملك جوي ، بعد أن فهم أخيرا أن لا أحد في فلسطين يرتجى أي نفع من ذلك العاهل السابق الذى لا خير فيه . بيد أن هناك مستقبل قبرص الذي يتعين تدبره ، وكان عازفا عن الإحتفاظ بضباط في الجزيرة عندما يرجع إلى أوروبا ، كما أن فرسان المعبد ، الذين باع لهم حكومة قبرص ، كانوا يفتقرون إلى الحكمة في معاملة المواطنين اليونانيين ، وتمنوا لو يعيدونها اليه ، ولذا سمح لجوى أن يشترى منهم حكومتها بعد أن طلب لنفسه مبلغا إضافيا ، لم يدفعه جوي كاملا في واقع الأمر . وفي وقت مبكر من شهر مايو ، هبط جوي في جزيرة قبرص وله كامل السلطة ليحكمها كما يحلو له[٣٧].

وبعدما استقرت تلك الأمور كلها ، وجّه ريتشارد الدعوة إلى هنرى للإنضمام اليه في عسقلان . وكانت هناك شائعة تفيد بأن أحد أبناء أخي صلاح الدين في الجزيرة شرع في تمرد خطير ضد السلطان ، ولذا قرر ريتشارد شن هجوم مفاجئ على دارون الواقعة جنوب الساحل بعشرين ميلا ، وخاصة وأن معاهدته مع العرب لم يتم التصديق عليها بعد . غير أن هنرى تلكّأ مع الجيش الفرنسي في عكا ، فلم ينتظرهم ريتشارد وانما زحف بحرا وبرا على دارون ، وفي الثالث والعشرين من مايو ، بعد خمسة أيام من القتال المستعر ، قصف أسفل المدينة واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين ، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف ، وألقى بالبعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض في عبودية سرمدية[٣٨].

طربت قلوب الصليبيين باستيلائهم ذاك اليسير على آخر قلاع صلاح الدين الساحلية ، حتى أنهم خططوا مرة اخرى الزحف على القدس . ووصل هنرى والفرنسيون إلى دارون غداة الاستيلاء عليها ، في الوقت المناسب لقضاء عيد العنصرة

---

(٣٧) للإطلاع على بيع قبرص أنظر Hill, *History of Cyprus*, II, pp. 36-8, 67-9.

(٣٨) *Itinerarium*, pp. 352-6; Ambroise, cols. 245-51; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.337; Abu Shama, II, p. 54.

هناك مع الملك . ثم إن الجيش عاد بعد ذلك مباشرة إلى عسقلان ، وراح الفرنسيون والانجليز سواء بسواء يحثّون الملك على شن هجوم عاجل على المدينة المقدسة . وكان ريتشارد قد وصله لتوه المزيد من الأنباء المقلقة من انجلترا ، وساورته الريبة عما إذا كانت الحملة ستكون مجدية من الناحية العسكرية ، وانصرف إلى فراشه في حيرته ، ولم يوقظه إلا خطاب عكّر صفوه سلمه له أحد قساوسته الفرنسيين ، وأقسم على البقاء في فلسطين حتى عيد الفصح التالي(٣٩).

في السابع من يونية انطلق الجيش الصليبي مرة أخرى من عسقلان . وبتجاوزه الرملة في سيره خلال بلانشجارد ، وصل لاترون في العاشر وبيت نوبا في الحادى عشر وهناك توقف ريتشارد وبقي الجيش هناك شهرا . وكان صلاح الدين ينتظر في القدس التي وصلتها التعزيزات من الموصل والجزيرة لتوها . وكان تقدم المسيحيين أكثر من ذلك في التلال بلا مخزون طعام أو دواب أمتعة أمراً يتصف بالحماقة . وانتهى الأمر بالجانبين إلى المناوشات بينهما بدرجات متفاوتة من النجاح . وفي أحد الأيام، وبينما كان الملك ريتشارد على جواده على التلال فوق إماوس ، شاهد على البعد فجأة أسوار وأبراج القدس، فسارع بتغطية وجهه بدرعه حتى لا يشاهد المدينة التي لم يأذن له الرب بتخليصها . بيد أنه كان هناك بعض العِوض؛ ففى أحد الأيام جاء إلى المعسكر أسقف اللد السورى ومعه قطعة من الصليب الحقيقي كان يحتفظ بها ، وجاءه بعد ذلك بقليل رئيس الدير اليوناني مار إلياس ، وهو رجل وقور بلحية بيضاء طويلة، وأفضى إلى الملك بالمكان الذي دفن فيه قطعة أخرى من الصليب لكي ينقذها من الكفرة ، واحتفروا المكان وأخرجوها وأعطوها لريتشارد . وكانت القطعتان عزاءً للجيش عن فشله فى استعادة الجزء الرئيسي لهذا الأثر الهام الذي يبدو أن صلاح الدين قد أعاده الآن إلى كنيسة القبر المقدس في القدس.

وفي العشرين من يونية ، عندما كان قواد الجيش مترددين في التخلى عن محاولة الهجوم على القدس والتوجه بدلا من ذلك إلى مصر ، جاءت أنباء بأن قافلة اسلامية ضخمة آتية من الجنوب في طريقها إلى المدينة المقدسة . وبعد ثلاثة أيام انقض عليها ريتشارد عند الحوض الدائر ، أو آبار كويفا ، في المنطقة الجدباء على بعد عشرين ميلا تقريبا جنوب غرب الخليل . ولم يكن المسلمون على استعداد لمجابهة هذا الهجوم ، وبعد معركة قصيرة وقعت القافلة كلها في أيدى الصليبيين ، بنفيس بضائعها ، وما كانت

---

(٣٩) *Itinerarium*, pp. 356-65; Ambroise, cols. 252-9.

تحمله من مؤن الطعام الوفيرة ، وبضعة آلاف من الجياد والجمال . وعاد الجيش المسيحي منتصرا إلى بيت نوبا.

وارتاع صلاح الدين من الأنباء ، وعلم أن ريتشارد سوف يزحف الآن على القدس لا محالة ، فسارع بارسال الرجال لسد كافة الآبار الواقعة بين بيت نوبا والقدس وقطع جميع أشجار الفاكهة . وفي أول يولية عقد مجلسا في القدس يحيطه جو من القلق ، لمناقشة ما إذا كان عليه أن ينسحب باتجاه الشرق . وقد رغب هو نفسه في البقاء هناك، وأيده امراؤه المجتمعون مؤكدين ولاءهم له . غير أن الأتراك وجنود الأكراد كانوا على خلاف فيما بينهم، ولذا لم يكن واثقا من صمودهم لهجوم كبير.

١١٩٢م : ريتشارد ينسحب إلى يافا

وسرعان ما هدأت مخاوفه . إذ كانت هناك في المعسكر المسيحي مناقشات يشوبها القلق أيضا، فكان الجنود الفرنسيون متلهفين على التقدم في الحال بعدما أصبح الطعام ووسائل الانتقال بتلك الوفرة الوفيرة . غير أن الكشافين التابعين لريتشارد حذروه من عدم توفر الماء . كما كانت هناك مشكلة ما تزال تفرض نفسها ، وهي كيفية الإحتفاظ بالقدس بعد عودة الصليبيين الغربيين إلى أوطانهم . وأمر ريتشارد الجيش مرة اخرى بالانسحاب من بيت نوبا ، مما أثار سخرية الفرنسيين وشعورهم بالإهانة . وفي الرابع من يولية جاءت صلاح الدين الأنباء بأن المسيحيين قد هدموا معسكرهم وأنهم يشرعون في التحرك جنوبا باتجاه الساحل ، فخرج على رأس رجاله إلى تل مجاور ليشاهد الموكب على البعد[٤٠].

وما أن عاد ريتشارد إلى يافا حتى سعى مرة أخرى إلى عقد هدنة تتيح له حرية العودة إلى الوطن. وأرسل هنرى (أوف شامباني) إلى صلاح الدين رسالة متغطرسة يعلنه فيها أنه الآن وريث مملكة القدس وأنها ينبغي أن تسلم اليه كاملة . وبعد ثلاثة أيام وصل القدس سفراء من ريتشارد ، كانوا أكثر رقة ، إذ أن ريتشارد اعلن أنه يترك ابن أخيه كي تشمله أفضال صلاح الدين ، وحث على التوصل إلى تسوية الأمر بصورة ودية. وعقد صلاح الدين مجلسا وافق على معاملة هنرى معاملة رفيقة ، وعلى

---

(٤٠) *Itinerarium*, pp. 365-98; Ambroise, cols. 260-87; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.337-52; Abu Shama, II, pp. 56-62

السماح للقساوسة اللاتينيين بدخول الأماكن المقدسة ، والتنازل عن الساحل الفلسطيني للمسيحيين ، شريطة تفكيك حصون عسقلان . ورفض ريتشارد التفكير في هدم حصون عسقلان ، حتى عندما عرض صلاح الدين اللد في مقابل ذلك . وأثناء أن كانت المجادلات دائرة يحملها الرسل جيئة وذهوبا ، انتقل ريتشارد إلى عكا ، وفي نيته الابحار حتى وإن لم تكن المعاهدة قد وقعت بعد . وكان يخطط للزحف المفاجئ على بيروت والاستيلاء عليها ، ومنها يركب البحر إلى أوروبا(٤١).

وتهيأت لصلاح الدين فرصة بغيابه . ففي باكورة السابع والعشرين من يولية قاد جيشه خارجا من القدس ووصل مساء نفس ذلك اليوم أمام يافا وبدأ مهاجمة المدينة من فوره ، وبعد ثلاثة أيام من قصف المدينة أفلح مهندسو الألغام في إحداث ثغرة اندفع منها الجنود العرب داخل المدينة . وكان الدفاع عن المدينة بطوليا لكنه كان عقيما . وأجبرت الحامية على التسليم وفي مفهومها أن الأعداء سوف يبقون على حياة أفرادها ، ودارت المفاوضات مع البطريق الجديد الذى تصادف وجوده في المدينة . على أن جنود صلاح الدين كانوا آنذاك خارج سيطرته ، واندفع الأكراد والأتراك في الشوارع ينهبون المدينة ويقتلون المواطنين الذين كانوا يحاولون الدفاع عن بيوتهم ، ولذا نصح صلاح الدين جنود الحامية بأن يغلقوا على انفسهم أبواب القلعة إلى أن يتمكن من استعادة النظام.

١١٩٢م : آخر انتصارات ريتشارد

وكانت المدينة، لحظة اقتراب صلاح الدين من الأسوار، قد أرسلت رسالة خاطفة إلى ريتشارد تحمل أنباء الهجوم، فخرج ريتشارد في الحال لإنقاذها، وذهب هو نفسه بحرا تساعده سفن بيزا وجنوا بينما أرسل جيشه برا . وهبت رياح معاكسة أعاقته وقذفت به إلى نقطة جبل كارمل ، ولذا كان جيشه عازفا عن الوصول إلى يافا قبله ، فتأخر في الطريق إلى قيسارية . وفي الحادي والثلاثين، وبعدما تمكن صلاح الدين من تهدئة جنوده بالقدر الذي يسمح له بإجلاء تسعة وأربعين فارسا من فرسان الحامية مع زوجاتهم ومنقولاتهم من القلعة إلى المدينة ، لاح في الأفق أسطول ريتشارد المؤلف من خمسين غليونا . فما كان من الحامية الا أن استأنفت القتال ، وكادت في هجمة واحدة

(٤١) *Itinerarium*, pp. 398-9; Ambroise, cols. 287-8; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 353-60; Abu Shama, II, pp. 63-6

أن ترد المسلمين غير المنظمين خارج المدينة . ولم يكن ريتشارد على علم بما يحدث ، فتردد في النزول إلى البر ، إلى أن سبح قس إليه ليخبره أن القلعة لم تسقط بعد . فدفع بسفنه إلى أسفل القلعة وخاض الماء إلى الشاطئ على رأس جيشه . أما في خيمة صلاح الدين ، فكانت رسل الحامية تحاول التفاوض مع صلاح الدين بائسة في ذات الوقت الذى شن فيه ريتشارد هجومه . وبوغت العرب الذين كان أغلبهم لا يزال مبعثرا في الشوارع . وترتب على الشراسة التى كان يحارب بها ريتشارد ، وقد تقدم هو نفسه في المقدمة ، في ذات الوقت الذي شنت فيه الحامية هجوما آخر ، أن اندفع العرب في فرارهم لا يلوون على شئ . وجاء كاتم أسرار صلاح الدين وهمس في أذنه بنبأ الهزيمة النكراء . وبينما كان يحاول تعطيل زائريه بحديثه الممتع ، جاء سيل الهاربين المسلمين ليكشف الحقيقة . فاضطر صلاح الدين إلى الأمر بالإنسحاب . وكان بمقدوره البقاء هو نفسه في معسكره مع حفنة من الفرسان، لكن جيشه الرئيسى هرب إلى عسير الواقعة على مبعدة خمسة أميال داخل البلاد ، قبل أن يعيد تنظيم صفوفه. وهكذا استعاد ريتشارد يافا بما يقرب من ثمانين فارسا وأربعمائة من رماة السهام ، وربما ألفي بحار إيطالي. ولم يكن مع قواته كلها سوى ثلاثة جياد[٤٢].

وفي الصباح التالي مباشرة أرسل صلاح الدين حاجبه أبا بكر لإستئناف محادثات السلام ، فوجد ريتشارد يتفكّه مع بعض الأمراء الأسرى ، حول استيلاء صلاح الدين الخاطف على يافا وعن استيلائه عليها. وقال إنه كان بلا سلاح ولم يتوفر لديه الوقت حتى لتغيير حذائه . على أنه اتفق على الفور مع أبي بكر على أن الحرب ينبغي أن تتوقف . وكانت رسالة صلاح الدين تقترح - كنقطة مساومة - أنه طالما أن يافا قد دمرت الآن ، فينبغي أن تتوقف الحدود الفرنجية عند قيسارية . وعرض ريتشارد اقتراحا مضادا بأن يحتفظ بيافا وعسقلان كإقطاعيتين تحت سيادة صلاح الدين ، دون أن يفسر كيفية ادارة الاقطاعيتين عندما يكون الملك في أوروبا . وكان رد صلاح الدين هو تقديم يافا ، وأصر على الاحتفاظ بعسقلان . ومرة أخرى أثبتت عسقلان أنهابمثابة حجر عثرة ، وتوقفت المفاوضات[٤٣].

وكان الجيش الفرنجي الذي استدعاه ريتشار لإنقاذ يافا يتقدم بعد أن مر بقيسارية.

---

(٤٢) *Itinerarium,* pp. 400-11; Ambroise, cols. 289-302; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 361-71; Abu Shama, II, pp. 66-71

(٤٣) لم يذكر تلك المفاوضات، سوى المؤرخين المسلمين، بهاء الدين (Beha ed-Din (*P.P.T.S.* pp. 371-4 وأبي شامة (II, pp. 71-3).

والآن أدرك صلاح الدين جيدا مدى ضآلة قوة ريتشارد في يافا ، فقرر أن يضرب ضربته في معسكره خارج الأسوار قبل وصول قوات جديدة . وفي فجر يوم الأربعاء الخامس من أغسطس ، وبينما كان واحد من أبناء جنوا يتجول خارج المعسكر ، سمع صهيل خيول ووقع أقدام جنود ، ورأى على البعد وميض حديد يلمع في ضوء الشمس البازغة ، فأيقظ من في المعسكر ، وعندما ظهر العرب كان ريتشارد مستعدا . ولم يتوفر لرجاله الوقت الكافي ليحملوا أسلحتهم . فوضع ريتشارد رجاله خلف سياج من أوتاد خيام خشبية كانت مغروزة لتفريق خيول العدو، ونظّمهم في أزواج بحيث ثبتوا دروعهم على هيئة سور أمامهم ، وغرسوا رماحهم الطويلة في الأرض بزاوية لتخترق أجساد المهاجمين. وبين كل زوج من الرجال كان هناك رامي سهام . وهجم فرسان المسلمين في سبع موجات كل منها ألف رجل ، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق سور الحديد ، وتواصل الهجوم حتى ما بعد الظهر . وعندما بدا التعب على جياد الأعداء ، جعل ريتشار رماته يمرون إلى الخط الأمامي وصوبوا كل سهامهم على العدو المهاجم . وأوقف وابل السهام الأعداء . وعاد الرماة مرة اخرى وراء حملة الرماح الذين هجموا يتقدمهم ريتشارد على صهوة جواده . وأعجب صلاح الدين بالمشهد في برغم غضبه، وعندما تعثر جواد ريتشارد وسقط به ، أرسل سائسا في خضم الاضطراب ومعه جوادين جديدين كهدية للملك شجاع . وزحف بعض المسلمين ملتفين لمهاجمة المدينة نفسها ، فهرب البحارة الذين كانوا يحرسونها إلى سفنهم ، إلى أن جاءهم ريتشارد على جواده وجمعهم . وبحلول المساء ، أوقف صلاح الدين المعركة وانسحب إلى القدس، وراح يضيف اليها تحصينات على تحصيناتها تحسبا مقدم ريتشارد[٤٤].

١١٩٢م : معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد

ولقد كان نصرا مؤزرا ، يرجع الفضل فيه إلى تكتيكات ريتشارد وشجاعته الشخصية . لكنه لم يتابع انتصاره . ففي غضون يوم أو يومين عاد صلاح الدين إلى الرملة بجيش جديد يتألف من كتائب من مصر وشمال سوريا ، بينما كان ريتشارد ، الذي نال منه الإجهاد ، يرقد في خيمته مريضا بحمة شديدة، وهو الآن متلهف على السلام . وأعاد صلاح الدين عرضه الأول ، ولازال مصرا على تسليم عسقلان ، وهو

---

(٤٤) *Itinerarium,* pp.413-24; Ambroise, cols. 304-11; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.374-6; Abu Shama,II,p.74. المؤرخون المسلمون يجعلون من المعركة معركة صغيرة

أمر يصعب على ريتشارد احتماله ، فكتب إلى صديقه القديم الأفضل ، الذى كان هو الآخر على فراش مرضه بالقرب من القدس ، راجيا تدخله كي يترك له صلاح الدين عسقلان ، لكن صلاح الدين أبى ، وأرسل إلى الملك المريض خوخا وكمثرى وبعض الثلوج من جبل حرمون لتبريد مشروباته ، لكنه لا يتخلى عن عسقلان . ولم يكن ريتشارد في وضع يمكنه من المساومة ؛ ذلك أن حالته الصحية ، فضلا عن سوء تصرفات اخيه في انجلترا ، كانا يفرضان عليه العودة فورا إلى بلده . والصليبيون الآخرون قد نال منهم الضجر ، فكان ابن اخته هنرى والنظامان العسكريان يظهرون عدم ثقتهم في سياسته ، فما فائدة عسقلان عندما يرحل هو وجيشه؟ وقد دأب أغلب الوقت على الجهر بتصميمه على مغادرة فلسطين . وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من أغسطس ، جاءه حامل بريد العادل بالعرض النهائي من صلاح الدين . وبعد خمسة أيام، في الثاني من سبتمبر ١١٩٢، وقّع على معاهدة سلام مدتها خمس سنوات وأثبت سفراء السلطان أسماءهم عليها . ثم تناول السفراء يد ريتشارد وأقسموا نيابة عن سيدهم ، ورفض ريتشارد نفسه القسم باعتباره ملكا ، ولكن هنرى (أوف شامباني) وباليان (امير ابلين) والسيدين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى أقسموا نيابة عنه . وفي اليوم التالى وقّع صلاح الدين نفسه المعاهدة في حضور سفراء ريتشارد . لقد انتهت حرب الحملة الصليبية الثالثة.

وتقضى المعاهدة بأن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية جنوبا حتى يافا ، وبحرية الحجاج في زيارة الأماكن المقدسة ، والسماح للمسلمين والمسيحيين بالمرور في أراضى بعضهم البعض . لكن تقرر هدم حصون عسقلان.

وسرعان ما طلبت مجموعات من الصليبيين زيارة الأماكن المقدسة ، وما أن رتب صلاح الدين لمرافقتهم وايوائهم ، حتى انطلق افراد تلك الجماعات بلا سلاح حاملين جواز مرور من الملك إلى القدس للإعراب عن تبجيلهم لمزاراتها. ولم يشأ ريتشارد نفسه الذهاب ، ورفض منح أي جواز مرور للجنود الفرنسيين ، على أن الكثير من فرسانه التابعين له قاموا بالرحلة . وكانت إحدى الجماعات بقيادة هوبرت والتر أسقف سالزبورى ، الذي استقبل هناك بمظاهر التشريف وسُمح له بمقابلة مع السلطان ، تحدثا خلالها في مواضيع كثيرة ولا سيما شخصية ريتشارد . وأعلن الأسقف أن ريتشارد يتمتع بكافة المزايا الطيبة ، لكن صلاح الدين أعرب عن اعتقاده أن ريتشارد يفتقر إلى الحكمة والاعتدال . وعندما قدم صلاح الدين هدية وداع للأسقف ، طلب الحبر السماح لقسيسين من اللاتين ولاثنين من الشمامسة بالخدمة في كنيسة القبر المقدس

وكذلك في بيت لحم والناصرة ؛ فوافق صلاح الدين وبعد أشهر قليلة وصل القساوسة وسُمح لهم بأداء واجباتهم دون إعاقة.

ووصلت القسطنطينية شائعات بأن ريتشارد يمارس ضغوطه لإضفاء الصبغة اللاتينية على الأماكن المقدسة. فوصلت سفارة من الامبراطور اسحق أنجيلوس إلى صلاح الدين الذي كان ما يزال في القدس ، تطلب استرداد الأرثوذكس للسيطرة الكاملة على الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت لهم أيام الفاطميين ، لكن صلاح الدين رفض الطلب ، فهو لن يسمح لأية طائفة بمفردها بالسيطرة على تلك الأماكن ، لكنه - كشأن السلاطين العثمانيين من بعده - سيكون بمثابة جهة تحكيم بينهم جميعا. كما أنه رفض على الفور ما عرضته ملكة جورجيا من شراء الصليب المقدس بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار(٤٥).

١١٩٩م : موت ريتشارد

بعد توقيع المعاهدة رحل ريتشارد إلى عكا حيث وضع أموره في نصابها ودفع ما عليه من ديون وحاول جمع الديون المستحقة له . وفي التاسع والعشرين من سبتمبر أبحرت الملكة بيرينجاريا والملكة جوانا من عكا فوصلتا فرنسا بسلام قبل عواصف الشتاء . وبعد ذلك بعشرة أيام رحل ريتشارد نفسه عن الأراضي التى حارب فيها ببسالة طوال ستة عشر شهرا مريرة . كان الحظ خصمه ؛ إذ اضطرته الأحوال الجوية إلى الرسو بسفينته في ميناء كورفو الواقع في أراضى الامبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس. وخشية من أن يقع فى الأسر ، تنكر من فوره في زى فارس من فرسان المعبد، واصطحب معه أربعة رجال من أتباعه ، واستقل زورق قراصنة كان قاصدا رأس البحر الأدرياتيكى ، لكن الزورق تحطم بالقرب من أخيليا ، فاستمر ريتشارد واصحابه برا خلال كارينثيا والنمسا متوخيا الإسراع في هدوء ليصل إلى أراضى صهره هنرى (أوف ساكسونى) . غير أن ريتشارد ليس بالرجل الذي يتنكر عن اقتناع بمبدأ التنكر ، فتم التعرف عليه في الحادى عشر من ديسمبر بينما كان متوقفا في حان بالقرب من فيينا، واقتيد في الحال ليمثل بين يدى ليوبولد دوق النمسا ، وهو الرجل الذى نزع ريتشارد رايته في عكا . واتهمه ليوبولد بقتل كونراد (أوف مونتفرات) وألقى به في غيابة

(٤٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 334-5 . كما رفض صلاح الدين طلب الإمبراطور المساعدة في استرجاع قبرص.

السجن . وبعد ثلاثة أشهر سلمه ليوبولد إلى سيده الأعلى الامبراطور هنري الخامس ، الذي كان يحمل له كراهية شديدة لصداقته الطويلة مع هنري الأسد وتحالفه مؤخرا مع تنكريد في صقلية، ولذا أبقاه في السجن عاما كاملا و لم يطلق سراحه إلا في مارس ١١٩٤، لقاء فدية ضخمة وقسم بالتبعية . وأثناء أشهر السجن المضنية ، تعرضت أراضيه لمكائد أخيه جون والهجمات الضارية من الملك فيليب . وعندما عاد إلى أراضيه كانت تنتظره مهام كثيرة للغاية بحيث أبعدت عن خياله التفكير في رحلة اخرى إلى الشرق . وحارب في فرنسا ببسالة طوال خمس سنوات دفاعا عن ميراثه ضد الكابيتيون اللئام[٤٦] إلى أن أصابه سهم طائش في السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م انطلق من قلعة متمردة في ليموزين ، كان فيه نهاية حياته . لقد كان إبنا شريرا ، وزوجا شريرا ، وملكا شريرا ، لكنه كان جنديا باسلا رائعا[٤٧].

---

(٤٦) (المترجم) أسرة حاكمة فرنسية (٩٨٧-١٣٢٨م) أسسها Hugh Capet.

(٤٧) ترد عودة الجيش الى الوطن في *Itinerarium*,pp 439-40; Abroise, cols.327-9. وأما رحلة ريتشارد وما صادفه من نوائب فترد باقتصاب في *Itinerarium*,pp.441-6 كما في ذلك الخطاب المزيف المرسل من شيخ الجبال الى ليوبولد دوق النمسا يعلن براءة ريتشارد من مقتل كونراد، وكذلك في التواريخ الأخرى . أنظر Norgate, *Richard the Lion Heart*,pp.264-76.

الفصل الرابع:

المملكة الثانية

المملكة الثانية

"ويكون الساحل لبقيّة بيت يهوذا عليه يرعَوْن"
(صَفَنيَا ٧:٢)

وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى نهايتها . ولن تعاود قط تلك الكوكبة من الأمراء الرحيل شرقا فى حرب مقدسة . وبعد ، وبرغم الجهد الهائل الذي بذلته أوروبا الغربية مجتمعة ، كانت النتيجة ضئيلة تافهة . فقد أنقذ كونراد صور قبل وصول الصليبيين ، وأنقذ الأسطول الصقلى طرابلس. وكل ما أسهم به الصليبيون في إعادة مولد المملكة الفرنجية هو عكا والخط الساحلى جنوبا حتى يافا ، بخلاف جزيرة قبرص التى نشلها الصليبيون من سيدها المسيحى . ومع ذلك ، كان هناك إنجاز واحد ؛ ألا وهو صد اندفاع صلاح الدين في الغزو . لقد أرهق المسلمون من الحرب المطولة ، ولن يفكروا ولو لهنيهة في محاولة قذف الصليبين إلى البحر . لقد ولدت المملكة من جديد حقا ، وباتت من القوة بما يكفي لإستمرارها طوال قرن آخر . ولقد كانت مملكة صغيرة جدا. وبرغم أن ملوكها كانوا إسما ملوك القدس ، كانت القدس ذاتها خارج قبضتهم .

وكل ما كانوا يملكونه هو شريط من الأرض لا يزيد عرضه مطلقا على عشـرة أميـال ، يمتد تسعين ميلا على البحر من يافا إلى صور . وأبعد إلى الشمال أبقت حيدة بوهمونـد الحصيفة على عاصمته وأراض قليلة حولها جنوبا حتى ميناء السويدية ؛ بينما احتفظ ابنه بطرابلس ذاتها ، واحتل فرسان المستشفى قلعة الكرك، وفرسان المعبد في طرطوس تحت سيادته . ولم يكن ذلك بالشيء الكثير الذى أُنقذ من حطام الشرق الفرنجى ، غير أنـه في تلك اللحظة كان ما أنقذ في أمان.

١١٩٣م : وفاة صلاح الدين

لم يكن صلاح الدين قد جاوز الرابعة والخمسـين مـن عمـره ، لكنـه كـان مرهقـا ومريضـا بعد كل أوزار الحرب تلك . وظل في القدس منشـغلا بـالإدارة المدنيـة لمقاطعـة فلسطين إلى أن سمع أن ريتشارد أبحر من عكا . وكان يعقد الآمـال عندئـذ على زيـارة مصر ، وبعدها يحقق طموحه الورع بالحج إلى مكة ، لكن الواجب استدعاه إلى دمشق. وبعد أن قام بجولة دامت ثلاثة أسابيع في الأراضى التى فتحها، وبعد أن قابل بوهمند في بيروت ووقع معه معاهدة سلام قاطعة ، وصل دمشق في الرابع من نوفمبر ، حيث كـان في انتظاره كثير من الأعمال التى تراكمت أثناء سنوات أربـع مـن حياته أمضاهـا مـع الجيش . ولقد كان شتاء قاسـيا ، ولديـه الكثـير ممـا ينبغـى عملـه في عاصمتـه ، فأرجـأ الرحلة إلى مصر والحج إلى مكة . وكلما أتيحـت لـه فـسحة مـن الوقـت كـان يستمع لمناظرات المتعلمين من رجاله في الفلسفة ، وكان أحيانا يخرج للصيد . علـى أنـه بمـرور أشهر الشتاء ، عرف المقربون إليه أن صحته آخذة في التدهور ، وكان يشكو من التعب الشديد والنسيان ، ونادرا ما كان بمقدوره بذل الجهد لإجراء مقابلة . وفي يـوم الجمعـة التاسع عشر من فبراير ١١٩٣م تحامل على نفسه وخرج على جواده لإستقبال الحجـاج القادمين من مكة . وفي ذلك المساء اشتكى من الحمى ومن الأوجـاع، واحتمـل مرضـه صابرا محتسبا ، وهو على يقـين مـن اقـتراب أجلـه . وفي غـرة مـارس راح في غيبوبـة . وسارع ابنه الأفضل ليضمن ولاء الأمراء ، ولم يبق بجوار فراش السـلطان سـوى قـاضى دمشق وقليل من الخدم المخلصين . وفى يوم الأربعاء الثالث مـن الشـهر ، وبينمـا كـان القاضى يقرأ القرآن بجواره ، تلى الآية : "لا إله الا هو عليه توكلـت" ، ففتـح السـلطان المحتضر عينيه ، وتبسّم ، ثم مضى في سلام إلى بارئه[١].

---

(١) يرد وصف نابض بالحيوية لأيام صلاح الدين الأخيرة أورده بهـاء الدين(*P.P.T.S.* pp.392-402) ،

ومن بين جميع الشخصيات العظيمة في العصر الصليبي ، كان صلاح الدين الأكثر جاذبية . ولقد كانت له أخطاؤه ؛ ففى وصوله إلى السلطة أظهر من المكر والقسوة ما يتعارض مع سمعته فيما بعد . وعندما كان الأمر يتصل بمصالح السياسة ، لم يكن ليحجم قط عن سفك الدماء ، فقد قتل بيديه ريموند (أوف شاتيلون) الذى كان يمقته. لكنه فى لحظات قسوته، لم يكن ذلك إلا ابتغاء لصالح قومه ودينه. لقد كان مسلما مخلصا. ومهما كانت مشاعره الطيبة نحو أصدقائه المسيحيين ، كان يعرف أن مصير أرواحهم إلى هلاك ، ومع ذلك كان يحترم سبلهم ونظر اليهم كرفاق آدميين . وعلى خلاف عواهل الصليبين ، لم يحنث قط بوعد وعده لأى انسان أيا ما تكون ديانته . وعلى الرغم من شدة حميّته كان دائما كيّسا ، كريما ، رحيما باعتباره غازيا وقاضيا، وكسيد على الآخرين كان منصفا متسامحا . ورغم أن بعض الأمراء ربما كان متبرما منه باعتباره كرديا عصاميا ، ورغم أن المبشرين في الغرب يطلقون عليه عدو المسيح ، فإن الذين لم يشعروا حياله بالاحترام والتبجيل كانوا ندرة نادرة ، كما أن قليلا من أعدائه كان باستطاعتهم مقاومة جاذبيته . وكان ضئيل البنية ، وكان وجهه في لحظات الراحة كئيبا يوحي بانقباض الصدر ، لكنه من اليسير أن يتحول وجها مضيئا تزينه ابتسامة فاتنة . وكانت أخلاقه دائما كيّسة ، ويرضيه القيل. وكان يكره الفظاظة والبهرجة ويعشق الهواء الطلق والصيد ، على أنه كان ذا معارف جيدة ويجد المتعة في المناقشات الفكرية رغم أنه أشاع الرعب بين المتشككين. وعلى الرغم من قوته وانتصاراته كان رجلا هادئا متواضعا . وبعد سنوات كثيرة وصلت قصة إلى مسامع الكاتب الفرنجى فينسينت أوف بوفيه تقول إنه بينما كان يحتضر استدعى حامل رايته وأمره بالتجول في أنحاء دمشق بخرقة من كفنه مثبته على رمح وينادى في الناس أن عاهل الشرق كله لا يستطيع أن يأخذ معه إلى القبر سوى خرقة القماش هذه[٢].

ولقد كانت انجازاته عظيمة ؛ فقد أكمل ما بدأه نور الدين في توحيد الاسلام ، وطرد الدخلاء الغربيين من المدينة المقدسة وحصرهم في شريط ضيق على الساحل، لكنه

الذى كان موجودا في بلاطه آنذاك . ويذكر أبو شامة روايات مختلفة.Abu Shama,II, pp.93-7 أنظر أيضا ابن الأثير .Ibn al-Athir, II,pp.72-5 ويخطئ Ernoul (p. 304) وتاريخ هرقل*Estoire d'Eracles* (II,p. 217) في ذكر تاريخ وفاته عام ١١٩٧، وكذلك*Gestes des Chiprois* (p.15) ، ١١٩٦. أما المؤرخ Roger of Hoveden (III,p.213) فيذكر التاريخ الصحيح .

(٢) يورد بهاء الدين تقريظا مقنعا عن شخصيته مع أمثلة وأقاصيص .(P.P.T.S.pp.4-45) ويورد Vincent of Beauvais (Douai edition) قصة الخرقة .p.1204 ويذكره جميع المؤرخين المسيحيين بمشاعر الاحترام. وللاطلاع على الأقاصيص المثيرة بشأنه انظر Lane-Poole, *Saladin*,pp. 370 - 401.

لم يتمكن من طردهم نهائيا، إذ كان الملك ريتشارد وقوات الحملة الصليبية الثالثة فوق احتماله ، ولو أن حاكما آخر له نفس الثّقل جاء بعده ، لأكمل المهمة بغاية السرعة . غير أن مأساة الإسلام في العصور الوسيطة هي غيبة المؤسسات المستديمة للمضي بالسلطة بعد وفاة الحاكم . فكانت الخلافة هي المؤسسة الوحيدة التي يسمو وجودها على وجود أصحابها؛ والآن أصبح الخليفة عاجزا من الناحية السياسية. على أن صلاح الدين لم يكن خليفة ، وانما كان كرديا ليست عائلته بالعائلة الكبيرة ، وكان هو الذي يفرض الطاعة على العالم الإسلامي قوة شخصيته وحسب. وكان أبناؤه في أشخاصهم يفتقرون إلى شخصيته.

١١٩٣م : أبناء صلاح الدين

مات صلاح الدين تاركا سبعة عشر ابنا وبنتا صغيرة . كان أكبرهم الأفضل ، وهو شاب متكبر في الثانية والعشرين من عمره ، استخلفه أبوه في وراثة دمشق وزعامة الأسرة الأيوبية . وبينما كان صلاح الدين يحتضر ، استدعى الأفضل كل أمراء دمشق ليقسموا له قسم الولاء ، وفي حالة الحنث بالقسم تطلق نساؤهم ويحرم أولادهم من المواريث*. وسببت هذه العبارة الأخيرة الصدمة للكثيرين منهم ، ورفض بعضهم القسم ما لم يقسم الأفضل بدوره بالابقاء عليهم في ضياعهم . على أنه بعد وفاة أبيه ودفنه في المسجد الأموى الكبير ، لقيت سلطته القبول في دمشق . وكان ابنه الثاني ، العزيز ، حاكم مصر فعلا وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وأعلن نفسه هناك سلطانا مستقلا . وكان ابنه الثالث ، الظاهر ، يحكم في حلب ولم يظهر استعداده لقبول سيادة أخيه العليا . وأخ آخر ، خضر ، كان يحكم في حوران واعترف بسيادة الأفضل . ولم يبق على قيد الحياة من إخوة صلاح الدين سوى اثنين : طغتكين ، الذي خلف توارنشاه في حكم اليمن ، والعادل الذي لم يكن صلاح الدين يثق في مطامعه، وكان يسيطر على أراضى شرق الأردن التي كانت بحوزة الفرنج من قبل كإقطاعية له ، وأراضى الجزيرة حول الرها . وكان أبناء إخوته وأبناء عمومته يمتلكون ضياعا أصغر في سائر انحاء أراضى السلطان . أما أمراء آل زنكى ، عز الدين وعماد الدين ، فكانوا يحكمون الموصل وسنجار كأتباع ؛ وكان الأراتقة لا يزالون يسيطرون على ماردين وكيفا. وكان أغلب اصحاب الإقطاعيات الآخرين قوادا عسكريين استخدمهم صلاح

الدين ، وكان ابرزهم بكتمر أمير خلاط[٣].

وبموت صلاح الدين بدأت وحدة الإسلام تتفتت . فبينما كان أبناؤه في غيرتهم يرقبون بعضهم البعض ، كانت هناك مؤامرة يجرى تدبيرها في الشمال الشرقى لإعادة حكم آل زنكى في شخص عز الدين ، بمساندة من بكتمر والأراطقة . وأنقذ الأيوبيون لما اتخذه العادل من جوانب الحذر ، وللموت المفاجئ لكل من عز الدين وبكتمر ، وكان الظن أن عملاء العادل ضالعون في ذلك . ولقن الدرس ابن عز الدين ووريثه - نورالدين أرسلان - وخليفة بكتمر آقسنقر، وأظهرا الاحترام للعادل إلى حين . وفى الجنوب سرعان ما دب الخلاف بين الأفضل والعزيز . ذلك أن الأول أتى بحركة تخلو من الحكمة طرد فيها أغلب وزراء والده ، والقى بكل ثقته فى ضياء الدين بن الأثير ، وهو أخو المؤرخ ابن الأثير ، بينما راح هو نفسه يمضى أيامه ولياليه يعاقر الخمر ويطرب للأوتار . وهرب الوزراء السابقون إلى القاهرة حيث العزيز الذى سرّه الترحيب بهم . وبناء على نصيحتهم قام العزيز بغزو سوريا في شهر مايو ١١٩٤م ، ووصل إلى أسوار دمشق ؛ فارتاع الأفضل واستنجد بعمه العادل الذى هبط على رأس جيش من الجزيرة وقابل العزيز في معسكره . وأجريت ترتيبات جديدة للأسرة اضطر بمقتضاها الأفضل إلى التنازل عن يهودا بشمال فلسطين للعزيز ، وعن اللاذقية وجبلة لأخيه الظاهر صاحب حلب ، على أن كلا من العزيز والظاهر اعترفا بسيادته العليا . ولم يحصل العادل على شئ من هذه الصفقة ، سوى المكانة الرفيعة لكونه الحَكَم في العائلة . ولم يستمر السلام طويلا ، ففي أقل من سنة زحف العزيز على دمشق مرة أخرى، واضطر العادل إلى المجئ ثانية لإنقاذ ابن اخيه الأكبر، وبدأ الأمراء من حلفاء العزيز يتخلون عنه، فرده الأفضل عبر اقليم يهودا إلى داخل مصر وخطط للزحف على القاهرة . وكان ذلك أكثر مما كان يريده العادل ، وهدد بمساندة العزيز إن لم يعد الأفضل إلى دمشق . ومرة أخرى كانت كلمته مطاعة.

١١٩٩م : الخلافات الأيوبية

سرعان ما اتضح عجز الأفضل عن الحكم ، إذ باتت حكومة دمشق كلها في قبضة الوزير ضياء الدين الذي كان يحرّض على العصيان بين كل أتباع سيده . وقرر العادل

---

(٣) Abu Shama, II, pp.101-9; Ibn al-Athir, II,pp.75-7; Kemal ad-Din, trns. Blochet, p.305

أن المصالح الأيوبية لا يصلح لها مثل هذا العجز من جانب رأس الأسرة ، فغير سياسته وتحالف مع العزيز الذي تمكن بمساعدته من الاستيلاء على دمشق في يولية ١١٩٦، وضم كل أراضي الأفضل ، الذي عرضوا عليه تقاعدا مشرفا في مدينة صلخد الصغيرة في حوران حيث كف عن المتع الحسيّة واستبدلها بحماية التُقى ، واعترف بالعزيز سلطانا أعلى للأسرة الحاكمة . ولم تكن سلطة العزيز على عمه تزيد قط عن كونها سلطة إسمية.

ودام ذلك الوضع لعامين . ففي نوفمبر ١١٩٨، سقط العزيز من على صهوة جواده أثناء صيد ابن آوى بالقرب من الأهرامات ومات متأثرا بإصاباته في التاسع والعشرين من نوفمبر . وكان ابنه الأكبر ، المنصور، صبيا في الثانية عشرة من عمره . وخشي الوزراء من طموح العادل ، فاستدعوا الأفضل من صلخد ليكون والي مصر ، فوصل الأفضل إلى القاهرة في يناير ١١٩٩ وتولى الحكومة . وكان العادل آنذاك في الشمال يحاصر ماردين التى كان أميرها الأرتقي يولوك - أرسلان ضجرا من السيطرة الأيوبية . ولقد أصبح العادل في وضع يشوبه الحرج مؤقتا ، الأمر الذى جعل ابن اخيه الثالث الظاهر صاحب حلب يخطط لتحالف ضده ، إذ كان يلقى المتاعب طوال حكمه من أتباعه وقد ارتاب في أن عمه كان يشجعهم على ذلك . وفي الوقت الذي أرسل فيه الأفضل جيشا من مصر لمهاجمة دمشق ، كان الظاهر يعد العدة للهبوط من الشمال ، وانضم اليهما أفراد آخرون من العائلة مثل شيركوه صاحب حمص . فترك العادل ابنه ، الكامل، لمواصلة حصار ماردين ، وسارع إلى دمشق التي وصلها في الثامن من يونية . وبعد ستة أيام وصل الجيش المصرى ، وفي أول هجوم له على دمشق توغل داخلها ، لكنه سرعان ما رُدّ خارجا منها . ووصل الظاهر وجيشه بعد ذلك بأسبوع ، وظل الأخوان يحاصران عمهما في عاصمته طوال ستة أشهر ؛ لكن العادل كان دبلوماسيا خبيرا حصيفا ، وشيئا فشيئا استطاع أن يجتذب إلى جانبه الكثير من أتباع ابن أخيه، بمن فيهم شيركوه صاحب حمص ؛ وأخيرا فى يناير عام ١٢٠٠ ظهر ابنه الكامل على رأس جيشه الذى انتصر في الجزيرة ، فانفصل الأخوان اللذان كانا السبب في بدء الشجار وانسحبا . وطارد العادل الأفضل داخل مصر، وهزم جنوده في بلبيس . وفي فبراير ، رضخ الأفضل لعمه بعدما تلبّسه ورع جديد ، وعاد إلى تقاعده في صلخد، واستولى العادل على ولاية مصر . على أن الظاهر لم يهزم . فقام بهجوم مفاجئ على دمشق في الربيع التالي بينما كان العادل ما يزال في مصر ، وحث الأفضل على الانضمام إليه ثانية . ومرة أخرى يسارع العادل إلى عاصمته في الوقت المناسب لكى

يحاصره ابنا اخيه ، غير أ سرعان ما تمكن من اثارة الشجار بينهما . ذلك أنه اشترى الأفضل بأن وعده بمدينتي المصيصة وميافارقين في الشمال بدلا من صلخد ، وبدأ أتباع الظاهر يتخلون عنه الواحد تلو الآخر ، وسره أن يسالم عمه العادل معترفا بسيادته القاطعة . وفي نهاية عام ١٢٠١م كان العادل قد بسط سيادته على كامل امبراطورية صلاح الدين واتخذ لقب سلطان . ولم يُمنح المنصور صاحب مصر سوى مدينة الرها . ولم يُسمح للأفضل مطلقا بالسيطرة على ميافارقين التي مرت مع الأراضي المحيطة بها إلى المظفر وهو الإبن الرابع للكامل . وحصل ابنه الأكبر ، الكامل ، على مصر تحت سيادة أبيه ، وكان ابنه الثاني ، المعظّم ، نائب أبيه في دمشق ، وحكم ابنه الثالث ، الأشرف ، أغلب أراضي الجزيرة من حران . أما الأبناء الأصغر فقد منحوا اقطاعات بلوغهم ما يكفي من العمر ؛ غير انهم جميعا كانوا تحت رقابة أبيهم الوثيقة . وهكذا عادت وحدة الإسلام وعلى رأسها أمير كان يلقى من الاحترام أقل مما كان يلقاه صلاح الدين ، لكنه كان أكثر مكرا ونشاطا[٤].

١١٩٤م : حكومة هنرى

حالت مشاحنات الأيوبيين دون أن يتسلم المسلمون زمام الهجوم على المملكة الفرنجية الوليدة ، وتمكن هنرى (أوف شامباني) شيئا فشيئا من اعادة بعض النظام إليها. ولم يكن ذلك بالعمل اليسير ، كما لم يكن وضع هنرى مأمونا تماما . فلعدة أسباب لا محل لشرحها الآن، لم يُتوّج ملكا قط . وربما كان ينتظر وهو يداعب الأمل الأثير لديه باسترجاع القدس يوما ما ؛ وربما اتضح له أن الرأي العام كان عازفا عن قبول لقبه الملكى ؛ أو ربما كان تأثير الكنيسة عظيما[٥]. وترتب على ذلك أن تقيّدت سلطاته ، ولاسيما سلطته على الكنيسة . وعندما مات البطريق هيراكليوس كانت هناك بعض الصعوبة في العثور على من يخلفه على عرشه الأسقفي ، وفي نهاية الأمر عُين قسيس

(٤) للإطلاع على تاريخ الأيوبيين المضطرب خلال تلك السنوات أنظر Abu Shama, pp. 110-40; Ibn al-Athir, II,pp. 78-89. وللاطلاع على مزيد من المراجع انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 581 n.3..

(٥) أنظر المناقشة المثيرة في Prawer, 'L'Etablissement des Coutumes du Marvhé à Saint Jean d'Acre' in Revue Historique de *Droit* Francais et Etranger, 1951. pp. 341-3 وهو يفترض أن زواج هنرى الذى عُقدبعد ترمل ايزابيلا بأيام قليلة لا تعتبره أعراف البلد زواجا قانونيا ، ولذلك كان هنرى خجولا من ان يتخذ اللقب الملكي.

مغمور يدعى رادولف . ولمّا مات عام ١١٩٤ اجتمع كهان كتدرائية القبر المقدس في عكا التى كانوا فيها آنذاك ، وانتخبوا البطريق آيمار ، الملقب بالراهب، رئيسا لأساقفة قيسارية وأرسلوا إلى روما للتصديق على الانتخاب . لكن هنرى لم يكن راضيا عن هذا الاختيار ، وفى سورة غضبه اشتكى من أنه لم يُستشر واعتقل الكهّان ، الأمر الذى أطلق الإنتقادات حتى من أصدقائه ، فليس هو بالملك المتوّج ومن ثم لا يحق له التدخل. وحثه مستشاره جوسيا رئيس أساقفة صور على التراجع عن موقفه وتهدئة الكنيسة بالافراج عن الكهان مع الإعتذارات اللازمة ومنح ابن اخى البطريق الجديد ضيعة غنية بالقرب من عكا ، وفي ذات الوقت تلقى توبيخا حادا من البابا[٦] وعلى الرغم من إحلال السلام، ربما كان البطريق عازفا تماما عن أن يمن على هنرى الآن بتويجه . فهنرى أكثر حظا بأتباعه العلمانيين ، إذ أنه يتمتع بتأييد زعيمهم ، باليان ، أمير ابلين والنظامين العسكريين . على أن جوى (أوف لوسينان) كان ما يزال في قبرص ينظر باشتياق إلى مملكته السابقة ، يشجعه في ذلك أبناء بيزا الذين وعدهم بامتيازات كبيرة، وكان الغضب يملأهم لما كان هنرى يغدقه على أبناء جنوا من امتيازات . وفي شهر مايو ١١٩٣ اكتشف هنرى أن المستعمرة التى يمتلكها أبناء بيزا في صور تتآمر للاستيلاء على المدينة وتسليمها لجوى ، فاعتقل زعماء المؤامرة على الفور وأمر بأن يخفض عدد المقيمين في المستعمرة إلى ثلاثين شخصا ، وانتقم أبناء بيزا بالإغارة على القرى الساحلية الواقعة بين صور وعكا ، فما كان من هنرى إلا أن طردهم من عكا نفسها ، وكان ياور المملكة (الكونستابل) ما يزال أخا جوى ، أماليك (أوف لوسينان) الذى كان مسؤولا عن وصول جوى إلى فلسطين قبل ذلك بسنوات كثيرة ، لكنه تمكن من إقامة علاقات جيدة مع البارونات المحليين . وكانت زوجته هي إيشيفا (أوف ابلين) ، ابنة اخت باليان (أوف ابلين) ، وابنة بلدوين (كونت الرملة) وهو أكثر المعارضين مرارة لجوى ، ولم يكن زوجا مخلصا فيما مضى ، لكنه تصالح معها الآن ، وتدخل نيابة عن ابناء بيزا ، لا لشئ إلا لكي يعتقله هنرى بسبب تدخله. وسرعان ما تدخل السيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد وأقنعا هنرى بإطلاق سراحه ، ورأى من الحكمة أن ينسحب إلى يافا التى كان الملك ريتشارد قد عيّن أخاه جيوفرى حاكما لها. ولم يكن قد استقال من منصبه كياور (كونستابل) ، لكن هنرى اعتبره مقصّرا وعيّن فى عام ١١٩٤ خليفة له جون (أوف ابلين)، وهو ابن باليان والأخ غير الشقيق لإيزابيلا . وفي ذات الوقت حل السلام مع ابناء بيزا وأعيدت لهم ناحيتهم في عكا ، ومنذ آنذاك

---

(٦) *Estoire d'Eracles*, II, pp.203-5 (manuscript D).

قُدما اعترفوا بحكومة هنرى[٧].

١١٩٧م : مملكة قبرص

مات الملك حوي في قبرص في مايو ١١٩٤، وبهذا أمكن تحقيق مصالحة عامة ؛ وأدى غيابه عن الساحة إلى أن يصبح هنرى آمنا على نفسه ، وحرمان ابناء بيزا ومخالفين آخرين من أن يكون لهم مرشح منافس. وكان حوى قد أوصى بسلطته في قبرص لأخيه الأكبر حيوفرى ؛ لكن حيوفرى هذا كان قد عاد إلى فرنسا ، ولم يتردد الفرنج في قبرص في استدعاء أماليك من يافا ليحل محله . وكان هنرى قد طلب في أول الأمر ، باعتباره ممثلا للملوك القدس ، استشارته في امر الاستخلاف ، لكنه لم يجد سبيلا لتنفيذ مطلبه وسرعان ما أدرك هو وأماليك أن عليهما أن يتعاونا معا. وجاء بلدوين ، كونسطبل قبرص الذي كان من قبل لورد بيسان ، إلى عكا وحث هنرى على الاعتراف بأماليك وزيارته في قبرص أيضا. وكانت مقابلتهما ودودة جدا ووضعا مخططات لتحالف وثيق تربطه خطبة أبناء أماليك الثلاثة ، حوي وحون وهيو ، إلى بنات ايزابيلا الثلاث ، ماريا (أوف مونتفرات) وأليس وفيليبا (أوف شامباني). وهكذا كان المأمول توحيد ممتلكاتهما في الجيل التالي ، لكن أميرين من الأمراء القبارصة ماتا في سن صغيرة جدا ، وكان الزواج الوحيد الذي أثمر في الأسرة الحاكمة الآتية هو زواج هيو من أليس. وكان مثل هذا الترتيب ضروريا للغاية ، ذلك أنه إذا كان المطلوب أن تعود الأملاك الفرنجية في قبرص بالفائدة على فرنج فلسطين وتوفر لهم قاعدة آمنة ، فلا بد للبلدين من التعاون . لقد كان الإغراء مستمرا ، ليس فقط للهجرة من الغرب للاستقرار في الجزيرة الرائعة بدلا من البقايا الضئيلة في المملكة الفلسطينية الخالية الآن من الإقطاعيات، ولكن كان إغراءً أيضا لبارونات فلسطين نفسها المفلسين كي يعبروا البحر الضيق . وإذا كان اللوردات القبارصة على استعداد لعبور البحر والحرب من احل الصليب وقت اقتراب الخطر ، إذن تصبح قبرص بمثابة أصل من الأصول للشرق الفرنجي. أما في حالة وجود سوء تفاهم ، فسوف تصبح قبرص قوة طاردة خطيرة جدا[٨].

---

(٧) *Estoire d'Eracles*, II, pp.202-3.

(٨) أنظر Hill, *History of Cyprus*, II, p. 44 and notes ، حيث ترد مناقشة كاملة حول الاستخلاف على قبرص. وللإطلاع علي مصالحة هنرى مع أماليك أنظر *Estoire d'Eracles*, II, pp. 207-8.

وعلى الرغم مما كان عليه أماليك من الود ، لم يكن على استعداد لأن يصبح تابعا يذعن لهنرى . فلقد سعى بالفعل إلى أن يتخذ لنفسه لقب ملك، كي يحدد بوضوح طبيعة سلطته لرعاياه وللمستعمرين، وكذلك للقوى الأجنبية. لكنه شعر بأنه في حاجة إلى نوع من التصديق من جهة أعلى؛ ولا بد وأن ما سبق من تاريخ ملوك القدس قد جعله عازفا عن التقدم إلى البابا لتتويجه . ويقينا لن يمنحه الامبراطور الشرقي قط ذلك التتويج . ولذا ، أتى بحركة تخلو من الحكمة للمستقبل ، فأرسل إلى الامبراطور الغربي هنرى السادس . الذى كان يخطط للقيام بحملة صليبية ولسوف يناسبه للغاية وجود ملك عميل له في الشرق. وهكذا ، وفي شهر اكتوبر عام ١١٩٥ ، وصل سفير أماليك ، رينيه (أوف جبيل) موفدا من مملكة قبرص نيابة عن سيده ، إلى جيلنهاوزن القريبة من فرانكفورت لتقديم الإحترامات للإمبراطور . وتسلم أماليك صولجانا ملكيا مرسلا من سيده ؛ وأجريت مراسم التتويج في سبتمبر ١١٩٧ عندما جاء المستشار الإمبراطورى كونراد أسقف هيلدشايم إلى نيقوسيا للاشتراك في المراسم، وقدم له أماليك فرض الولاء(٩). ووضعت الخطط لأن تتبع حكومة البلد الممارسات الإقطاعية الصارمة التي كانت سائدة في مملكة القدس، بوجود محكمة عليا على غرار محكمة القدس العليا ، على أن تسرى قوانين القدس، بما فيها من تعديلات أدخلها ملوكها، على الجزيرة. ولجأ أماليك إلى البابا لتنظيم كنيسته ، فعين البابا رئيس شمامسة اللاذقية وألان ، ورئيس شمامسة اللد ، وقاضي قضاة قبرص ، وأوكل اليهم إنشاء كراسي أسقفية على النحو الذي يرونه . فأنشأوا مقرا لرئاسة الأساقفة في نيقوسيا، شغلها ألان ، ومقار للأسقفيات في بافوس وفاماجوستا وليماسول . ولم يُفصل الأساقفة الإغريق فى الحال ، وانما فقدوا عشورهم والكثير من أراضيهم التى استولى عليها أصحاب المناصب الجدد من اللاتين(١٠).

وعلى الرغم من عدم استطاعة هنرى (أوف شامباني) السيطرة على قبرص ، أصبح باروناته في مملكته يخلصون له الولاء الآن . على أن معارضيه سرهم الانسحاب إلى قبرص تاركين الأراضى الفلسطينية لأصدقائه . وأعيد تنصيب اللوردات السابقين لحيفا وقيسارية وأرسوف في إماراتهم السابقة؛ وكان صلاح الدين قبل وفاته قد وهب باليان

212-13 (manuscript D).

(٩) *Estoire d'Eracles* II, pp. 209-12; Ernoul, pp. 302-3; Arnold of Lubeck, p.204; *Annales Marbacenses*, p.167.

(١٠) Mas Latrie, *Documents*, III, pp. 599-605; Makhaeras, pp. 28-9.

صاحب ابلين إقطاعية كايمون - أو تل كايمون - النفيسة الواقعة على منحدرات جبل الكرمل[١١]. وقد كانت الصداقة مع آل إيبلين ، وزوج أم زوجته والإخوة غير الأشقاء، ذات قيمة كبيرة في تحقيق القبول العام لسلطة هنري . وكانت هناك مشكلة اكبر فيما يتصل بإمارة انطاكيـة ذلك أن بوهمند الثالث أمير انطاكية، وكان أيضا حاكما لطرابلس باسم ابنه الصغير، كان قد لعب دورا مريبا نوعا ما أثناء فتوحات صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ؛ فلم يبذل جهدا جادا لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حصونه الواقعة في وداي العاصي عام ١١٨٨ ، ولا لإستعادة اللاذقية وجبلة اللتين استولى عليهما المسلمون بطريق الخيانة من قاضيه المسلم ، القاضي منصور بن نبيل ؛ وقد سره أن يقبل من صلاح الدين هدنة تسمح له بالاحتفاظ بأنطاكية ذاتها وميناءها السويدية . ولم ينقذ طرابلس سوى تدخل الأسطول الصقلي فبقيت لإبنه . وكان بوهمند عندما وصل فريدريك (أوف سوابيا) وبقايا جيش باربروسا إلى أنطاكية - قد اقترح عليهم اقتراحا معتدلا بأن يعاونوه في محاربة المسلمين في الشمال ، ولكنهم عندما اتجهوا جنوبا ، لم يشترك بصورة ايجابية في الحملة الصليبية أكثر من قيامه بزيارة واجبة للملك ريتشارد في قبرص . وقد غير موقفه في ذات الوقت إزاء سياسات الأحزاب الفلسطينية . وما أن مات ابن عمه ريموند (أوف طرابلس)، وضمن الميراث لإبنه ، حتى منح تأييده كله لجوى (أوف لوسينان) وأصدقائه ، ربما من خشيته من أن يكون لكونراد (أوف منتفرات) أطماع في طرابلس . ولم يكن يرغب في وجود ملك عدواني قوى على حدوده الجنوبية إذ كان في غاية الإنشغال باشتباكات مع جاره الشمالي ، أمير أرمينيا الروبيني ليو الثاني، وهو أخو روبين الثالث ووريثه.

١١٨٦م : ليو الثاني الأرميني

بتولي ليو الحكم عام ١١٨٦م سعى إلى التحالف مع بوهمند واعترف به سيدا أعلى له . واشترك الأميران في التصدي لغارة توركمانية عام ١١٨٧م ؛ وبعد ذلك مباشرة تزوج ليو إحدى بنات أخت الأميرة سيبللا، وفي نفس الوقت تقريبا كان قد أقرض بوهمند مبلغا ضخما من المال ؛ انتهت الصداقة عند هذا الحد، فلم يظهر بوهمند اهتماما بسرعة سداد القرض ؛ وعندما غزا صلاح الدين الأراضي الأنطاكية بقي ليو على حياد مشوب بالحذر . وفي عام ١١٩١م دمر صلاح الدين قلعة باجراس العظيمة

(١١) Ernoul, p. 293.

بعد أن استولى عليها من فرسان المعبد . وما أن انصرف رحال صلاح الدين بعد هدم الحصون ، حتى جاء ليو وأعاد احتلال الموقع وأعاد بناء الحصون . وطلب بوهمند إعادتها إلى فرسان المعبد ، ولمّا رفض ليو اشتكى لصلاح الدين الذي حالت مشغولياته الشديدة في اماكن اخرى دون امكان التدخل ، وبقي ليو مستوليا على باجراس ؛ على أنه كان حانقا من لجوء بوهمند إلى صلاح الدين ، وزاد تغيظه عندما علم أن زوجة بوهمند - سيبللا - كانت تأمل في الاستعانة بمساعدته لاسترجاع الميراث الأنطاكي لإبنها وليم على حساب أبناء زوجها . وفي أكتوبر ١١٩٣م دعا ليو بوهمند إلى الحضور إلى بجراس لمناقشة المسألة برمتها ، فوصل بوهمند تصحبه سبيللا وابنها. وما أن دخل حتى اعتقله مضيفه مع كل حاشيته ، وقيل له إنه لن يفرج عنه إلا بتنازله للأمير ليو عن سيادة أنطاكية . ووافق بوهمند على الشروط بأسى ، وربما بتحريض من سبيللا التي كانت تأمل أن يعطي ليو - باعتباره سيدا أعلى لأنطاكية - الخلافة لابنها . وذهب أحد قواد بوهمند ، بارثولوميو تيريل ، وابن أخي زوجة ليو ، هيثوم (أوف ساسون)، ومعهما جنود من الأرمن، إلى أنطاكية لإعداد المدينة للنظام الجديد.

ووصل الوفد إلى أنطاكية التي كان بارونانها لا يحبون بوهمند كثيرا ، والكثير منهم تجرى في عروقه دماء أرمينية ، فكانوا على استعداد لقبول ليو كسيد أعلى، وسمحوا لبارثولوميو بدخول الجنود الأرمن إلى المدينة وأنزلوهم في القصر . غير أن البورجوازيين من المواطنين الإغريق واللاتين على السواء ارتاعوا لما حدث وقد ظنوا أن ليو ينوى أن يحكم المدينة هو نفسه ، وأن الأرمن سوف يتسلطون عليهم. وحدث أن تحدث جندي أرميني باستخفاف عن القديس هيلاري ، وهو قديس فرنسي كُرِّست له أبرشية القصر ، فبادر خازن المون في الكنيسة بقذف الجندى بالحجارة . وطرد الأرمن من المدينة ووجدوا أن من الحكمة الانسحاب إلى بجراس . وعندئذ اجتمع المواطنون في كتدرائية القديس بطرس وعلى رأسهم البطريق وشرعوا في إنشاء مجلس كوميوني ليتولى إدارة المدينة . ولكي يكون وضع المنتخبين قانونيا ، سارعوا بقسم الولاء للإبن الأكبر لبوهمند ريموند إلى حين عودة بوهمند ؛ فقبل ريموند ما أظهروه من مظاهر الولاء ، واعترف بمطالبهم . وفي تلك الأثناء أرسلت الرسل إلى أخيه بوهمند أمير طرابلس وإلى هنرى (أوف شامباني) يتوسلون اليهما أن يخفا لنجدة أنطاكية من الأرمن.

وأظهرت الحادثة أنه بينما كان بارونات أنطاكية على استعداد للمضي حتى أبعد مما فعله أبناء عمومتهم في القدس ليضعوا أنفسهم في مصاف مسيحيي الشرق، جاءت معارضة هذا الاندماج من المجتمع التجاري . غير أن الظروف كانت مختلفة عمّا كانت

عليه المملكة قبل سنوات قليلة . وكان كل من الفرنج واليونانيين في انطاكية يعتبرون الأرمن برابرة الجبال . وأظهرت الكنيسة اللاتينية - في شخص البطريق - تعاطفها مع مجلس الكوميون ، غير أنه من المشكوك فيه ما اذا كانت قد لعبت دورا رئيسيا في ذلك. إذ كان البطريق رادولف الثاني رجلا ضعيفا مسنًا لم يصعد إلى عرش البطريارقية الا حديثا بعد أن كان يشغله البطريق المهيب إيمرى (أوف ليموج). والأكثر ترجيحا أن المحرضين الرئيسيين كانوا التجار الإيطاليين الذين يخشون على تجارتهم تحت السيطرة الأرمنية ؛ وخاصة وأن فكرة مجلس الكوميون كانت آنذاك فكرة تخطر للإيطالي على نحو أيسر للغاية من أن تخطر للفرنسي. وأيا كان أولائك الذين شجعوا الكوميون، فإن يونانيي أنطاكية هم الذين سارعوا بلعب دور قيادى فيه[١٢].

١١٩٤م : هنرى والحشاشون

وهرول بوهمند أمير طرابلس إلى أنطاكية ملبيا نداء أخيه ، وأيقن ليو من أنه قد فقد فرصته . فتقهقر مع سجنائه إلى عاصمته سيس . وفي بداية الربيع التالي قرر هنرى (أوف شامباني) التدخل ، ومن حسن الطالع أن لم يكن العرب على حال تتيح لهم أن يعتدوا بعد وفاة صلاح الدين ، غير أنه لا يمكن السماح باستمرار مثل هذا الوضع الخطير ؛ وأثناء ارتحاله شمالا قابلته سفارة من الحشاشين ؛ فقد مات مؤخرا شيخ الجبل سينان ، وكان خليفته متلهفا على إعادة الصداقة التي كانت قائمة بين طائفته والفرنج؛ فأرسل اعتذاراته لاغتيال كونراد (أوف منتفرات) ، وهى جريمة كان من اليسير على هنرى اغتفارها ، ودعاه إلى زيارة قلعته الكهف . وهناك ، وعلى إحدى القمم الوعرة في جبال النصيرى، لقي هنرى ألوان التسلية الفاخرة ؛ وشهد بناظريه كيف يقتل المتشيعون أنفسهم عن طيب خاطر عندما يأمرهم شيخهم إلى أن توسل ايقاف الاستعراض. ورحل وهو محمّل بنفيس الهدايا ووعد ودود من الحشاشين بقتل أي فرد من أعدائه يطلب قتله[١٣].

---

(١٢) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 582-5 ، وهو بمثابة رواية كاملة المراجع لتلك القصص.

(١٣) Ernoul, pp. 323-4; *Estoire d'Eracles*, pp. 216,231 (manuscript D).

١١٩٨م : تتويج ليو الثاني

ومن الكهف ، انطلق هنرى شمالا بمحاذاة الساحل إلى أنطاكية حيث توقف قليلا قبل مواصلته رحلته في أرمينا . ولم يكن ليو راغبا في الدخول معه في حرب مفتوحة ، فقابله أمام سيس مظهرا استعداده للتفاوض على تسوية . واتفقا على اطلاق سراح بوهمند بلا أية فدية ، وأن يُعترف ببجراس والأراضي المحيطة بها على أنها أراض أرمينية، وأن لا يكون أي من الأميرين سيدا على الآخر . وللتصديق على المعاهدة ، وعلى أمل توحيد الإمارتين، اتفق على أن يتزوج وريث بوهمند - ريموند - من ابنة اخت ليو والوريثه الشرعية، أليس ابنة روبين الثالث . وحقيقة كانت أليس متزوجة فعلا من هيثوم أمير ساسون ، غير أنه كان من اليسير التغلب على هذه العقبة ؛ إذ حدثت وفاة هيثوم المفاجئة وانما في وقتها المناسب. وكانت التسوية بمثابة البشير بالسلام في الشمال ، وبها أظهر هنرى نفسه على أنه مهندسها ومن ثم فهو جدير بخلافة ملوك القدس الأوائل . وعاد جنوبا وقد زادت مكانته رفعة[١٤].

ومع ذلك ، لم يشعر ليو بأنه قد أشبع طموحاته . ولعلمه بأن أماريك حاكم قبرص يسعى إلى تاج ملكي، فقد حذا حذوه . على أن الرأي القانوني آنذاك كان يرى أن التاج لا يمنحه سوى الامبراطور أو البابا - كما يرى الفرنج . أما بيزنطة، التي انقطعت صلتها الآن بكيليكيا وسوريا بسبب الغزوات السلجوقية، فلم يعد لديها ما يكفي من القوة اللائقة باسمها بحيث يكون لها وزنها إزاء الفرنج الذين أراد ليو أن يؤثر فيهم. ومن أجل ذلك أرسل إلى الامبراطور الغربي هنرى السادس الذي راح يراوغ، إذ كان يأمل في الحضور هو نفسه إلى الشرق ، وعندئذ ينظر في المسألة الأرمينية . ولذلك طرق ليو أبواب البابا كليستين الثالث ، إذ كان ليو على اتصال بروما أيام البابا كلمنت الثالث ملوحا بإخضاع كنيسته للبابوية ؛ ذلك أنه كان يدرك أنه لن يكون مقبولا قط كسيد أعلى للفرنج باعتباره رئيسا لدولة هرطيقية . وعارض رجال الدين التابعين له هذا العبث معارضة عنيفة لما كانوا يحملونه من غيرة وحماس لإستقلالهم وعقيدتهم ؛ غير أن ليو ثابر على مساعيه في صبر ، إلى أن أدخل في روع أساقفته المتذمرين أن السيادة البابوية لن تكون سوى سيادة اسمية ولن تغير من الأمر شيئا ، بينما أخبر المندوبين البابويين أن الأساقفة قد رحبوا بالإجماع بهذا التغيير . وكان البابا قد أمر مندوبيه بمراعاة الرفق واللين والكياسة، ولذا لم يسأل المندوبون أية أسئلة . وفي تلك الأثناء كان

---

(١٤) Cahen, *op. cit.* pp. 585-6.

الامبراطور هنرى - الذى سبق أن وعد أماليرك بالتاج - قد وعد ليو بنفس الوعد في مقابل الإعتراف بحقوقه السيادية على أرمينيا ، على أن تجرى مراسم التتويج لدى وصوله . لكنه لم يذهب إلى الشرق البتّة ؛ إذ حالت المنيّة دون ذلك . على أن مستشاره كونراد (أوف هيلدشايم) ، يصحبه المندوب البابوي كونراد رئيس أساقفة مينز، جاء إلى سيس في يناير ١١٩٨م بعد موت الامبراطور مباشرة ، وشهد احتفال التتويج الرائع . وكان الامبراطور الشرقي ألكسيوس أنجيلوس يأمل في الحفاظ على بعض النفوذ في كيليكيا فأرسل الي ليو قبل ذلك بأشهر قليلة تاجا ملكيا تسلمه ليو بغاية العرفان . وقام رأس الكنيسة الأرمينية كاثوليكوس جرجورى أبيراد بوضع التاج على رأس ليو ، بينما أعطاه كونراد صولجانا ملكيا. وحضر المراسم رئيس أساقفة طرسوس الأرثوذوكسي، والبطريق اليعقوبي ، وسفراء الخليفة ، وكذلك الكثير من النبلاء من أنطاكية . وكان بمقدور ليو الإدعاء بأن لقبه الملكي قد اعترف به رعاياه كلهم وجيرانه كلهم[١٥].

وكان يوما مشهودا للأرمن الذين رأوا في ذلك إحياء لمملكة أرمينيا القديمة ؛ وكان في هذا التتويج استكمال لاندماج الإمارة الروبينية في عالم فرنج الشرق ؛ على أن دواعي الشك كانت تدور حول ما اذا كانت سياسة ليو في صالح الأرمن ككل ، إذ أنها فصلت أبناء أرمينيا الكبرى القديمة التى هي بيت ذلك الجنس عن إخوانهم الجنوبيين. وبعد انقضاء فترة من الفترات المجيدة وجد أرمن كيليكيا أن إضفاء الصبغة الغربية لم تعد عليهم بفائدة في نهاية الأمر.

وكان تواجد كونراد رئيس الأساقفة في الشرق يرجع إلى عزم الامبراطور هنرى على إطلاق حملة صليبية جديدة ، إذ أن وفاة والده فريدريك المباغتة جعلت من اشتراك الألمان في الحملة الصليبية الثالثة اشتراكا عقيما يدعو للرثاء . وكان لدى هنرى طموحات في أن تصبح امبراطوريته واقعا دوليا ، فما أن رسخت أقدامه في اوروبا حتي فكر في أن عليه استعادة المكانة الألمانية في الأراضى المقدسة . وبينما كان يضع الخطط لحملة ضخمة كفيلة بأن تجعل البحر المتوسط كله تحت سيطرته ، وضع الترتيبات لإرسال حملة ألمانية مبكرة تبحر مباشرة إلى سوريا، فانطلق من بارى رئيس الأساقفة كونراد (أوف مينز) وأدولف كونت هولشتاين ومعهما جمع غفير من الجنود استُجلبوا أساسا من دوقيات الراينلاند وهوهنشتوفن . ووصلت الفصائل الأولى إلى عكا

---

(١٥) *Ibid.* pp. 587-90.

في أغسطس ، غير أن القادة توقفوا في قبرص من أجل تتويج أمالريك ، وسبقهم هنرى دوق برابانت مع كتيبة من رفاقه(١٦).

ولم يرحب بهم هنرى (أوف شامباني) ترحيب المبتهجين ؛ فقد علمته التجارب مدى حماقة استثارة حرب لا ضرورة لها . وكان مستشاروه الرئيسيون هم آل إبلين ، وهما زوجته وأخوتها ولوردات طبرية وأبناء زوجة ريموند كونت طرابلس ، وبوازع من الإخلاص لتقاليدهم العائلية أشاروا بالتوصل إلى تفاهم مع المسلمين ودبلوماسية حساسة تمارس ضرب أبناء وإخوة صلاح الدين بعضهم ببعض . وكانت السياسة ناجحة ؛ إذ كان السلام حيويا لإستعادة المملكة المسيحية ، وتحقق السلام على الرغم من استفزاز أمير بيروت القرصان أسامة الذي لم يتمكن العادل في دمشق ولا العزيز في القاهرة من السيطرة عليه(١٧). وكانت بيروت وصيدا ما تزالان في قبضة المسلمين تفصلان المملكة عن كونتية طرابلس . في وقت مبكر من عام ١١٩٧م ضاقت هذه الثغرة باستعادة جبيل؛ وكانت سيدتها الأرملة ستيفاني (أوف ميللى) إبنة أخت رينالد أمير صيدا ، وكانت تحصل منه على الهدايا للتعامل مع المسلمين ؛ وبمكيدة مع الأمير الكردي هناك تمكنت من إعادة احتلال المدينة بدون قتال وتسليمها إلى ابنها(١٨).

١١٩٧م : موت هنرى (أوف شامباني)

ولقد جاء الألمان وهم عاقدو العزم على الحرب . ولم يتوقف أوائل القادمين لإستشارة الحكومة في عكا، وإنما ساروا مباشرة في الأراضى الإسلامية في الجليل . فأثار هذا الغزو المسلمين ؛ وكانت الأراضى تابعة للعادل فاستدعى أقاربه حاثا إيّاهم على تناسى خلافاتهم والإنضمام إليه . ولم يكد الألمان يعبرون الحدود حتى انتشرت الأنباء باقتراب العادل ؛ وضخّمت الشائعات من حجم قواته ؛ وتسلط الذعر على الألمان فلم ينتظروا ملاقاته وانما ولوا الأدبار باتجاه عكا، وسارع الفرسان تاركين المشاة . وبدا مرجحا أن يواصل العادل مسيرته دون مقاومة إلى عكا، غير أن هنرى أخذ بنصيحة

(١٦) تاريخ هرقل .*Estoire d'Eracles*, II, pp.214-16 (manuscript D) وقد أجريت استعدادات هنرى للحملة الصليبية على(Diet of Gelnhausen *Annales Marbacenses, p.167*)

(١٧) Ibn al-Athir, II, p.85p Ernoul, pp. 315-16.

(١٨) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 217-18p; Ernoul, p. 305.

هيو كونت طبرية وسارن بارسال فرسانه وما استطاع جمعه من جنود ايطاليين لتعزيز مشاة الألمان الذين أثبتوا شجاعة تفوق شجاعة قادتهم ، فأصبحوا بعد وصول التعزيزات على استعداد للصمود . ولم يكن العادل ليجازف بمعركة قبل أن يعد لها عدتها ، ولم يشأ في الوقت ذاته أن يفقد جيشه ، فانحرف جنوبا وزحف على يافا التي كانت محصّنة تحصينا جيدا ، ولكن حاميتها كانت ضئيلة العدد ، ولم يتمكن هنرى من تعزيزها ، وكان أماليك (أوف لوسينيان) يحكم المدينة قبل ذهابه إلى قبرص ، فعرض عليه هنرى اعادتها إليه شريطة أن يدافع عنها ، فمن الأفضل أن يأتي القبارصة إليها بدلا من أن تؤول إلى المسلمين أو إلى الألمان الذين لا يقيمون للمسؤولية وزنا. وما أن تلقى أماليك هذا العرض حتى أرسل واحدا من باروناته – رينالد بارليه – ليتولى القيادة في يافا ويعد العدة للحصار الوشيك . بيد أن رينالد كان رجلا مستهينا ، وسرعان ما جاءت الأنباء بأنه يقضي أيامه في لهو طائش وليس لديه نيّة إعداد العدة لمقاومة العادل ، ولذا جمع هنرى ما استطاع جمعه من الجنود الزائدين عن الحاجة في عكا وطلب من مستعمرة بيزا هناك تقديم التعزيزات(١٩).

وفي العاشر من سبتمبر جمع هنرى جنوده في فناء القصر ، ووقف يستعرضهم من نافذة مفتوحة في أحد الأروقة العليا . وفي تلك اللحظة دخل الحجرة مبعوثون من مستعمرة بيزا ، فاستدار هنرى لتحيتهم ناسيا المكان الذي يقف فيه وخطا خطوة إلى الخلف من خلال النافذة المفتوحة . وكان القزم الضئيل الذي يرافقه (سكارليت) واقفا بجواره فتعلق بملابسه ؛ غير أن هنرى كان ثقيل الوزن وسكارليت خفيفه ، فهويا معا وارتطما بالرصيف وقُتلا(٢٠).

١١٩٨م : زواج إيزابيلا وأماليك

وأدى ذهاب هنرى المفاجئ إلى أن ألقى بالمملكة كلها في حالة من الذهول ، إذ كانت له شعبية كبيرة. وبرغم افتقاره إلى المواهب الطبيعية البارزة ، فقد استغل مهارته ودأبه واعتماده على مستشاريه المخلصين وأثبت اقتداره لأن يحكم واستعداده لأن يتعلم من التجربة ، وقد لعب دورا هاما في استمرار بقاء المملكة . غير أن البارونات لا

---

(١٩) Abu Shama,؛ Ernoul, pp.305-7؛ D(المخطوطة*Estoire d'Eracle,* II,pp. 216-19)
Ibn al-Athir,II,pp.84-6.؛II,pp.116,152

(٢٠) *Estoire d'Eracles*,II,p.220; Ernoul, p.306; Amadi,pp.90-1; Ibn al-Athir,II,p.86.

يستطيعون إضاعة الوقت في البكاء عليه ، إذ يتعين العثور علـى حـاكم جديد بسرعة ليتولى أمر الحرب مع العرب والحملة الصليبيـة الألمانيـة وكافـة مـا تواجهـه المملكـة مـن المشاكل المعتادة . وكانت وطأة التشكل قد نالت من أرملته الأميرة إيزابيلا فأحالتهـا إلى حالة من التخبط يستحيل معها أن تتولى حكم المملكة ، لكنهـا كـانت الشخصية التي تحرك الأمور باعتبارها وريثة الخط الملكي . وكان لها بنتـان صغيرتـان مـن هـنرى بقيتـا على قيد الحياة هما أليس وفيليبا ، وأما ابنتها مـن كونـراد - ماريا أوف مونتفرات - التي اشتهرت بلقب أبيها باسم (لا ماركيز)، فكـانت في الخامسـة مـن عمرهـا . وكـان واضحا أنه ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة أخرى . وفي الوقت الـذي كـان يعترف فيه البارونـات بوضعهـا كوريثة ، اعتبروا أن اختيـار زوجهـا التـالي هـو أمـر يدخـل في اختصاصهم ، ولسوء الحظ لم يتمكنـوا مـن الإتفـاق علـى اختيـار زوج مناسـب لهـا . فاقترح هيـو أمير طبرية وأصدقاؤه ترشيح أخيـه رالـف الـذي كـانت أسـرته - آل فالكونبرج أوف سانت أومير - إحدى أبرز العائلات في المملكة ؛ لكنها كـانت عائلة فقيرة بعد أن استولى المسلمون على أراضيها في الجليـل ، وكـان رالـف إبنـا أصغـر من المفلسين ، وكان معروفا عنه بصورة واسعة الإنتشار أنه يفتقر إلى ما يكفـي مـن الثروة والمكانة المرموقة ، وكان فرسان النظامين العسكريين بصفة خاصة يعارضونه . وأثناء أن كانت المناقشات جارية جاءت الأنباء بسقوط يافا دون مقاومة ، فانطلق دوق برابـانت لإستعادتها. والآن عاد إلى عكا وتولى زمام الحكم ، وبعد أيام قليلـة ، في العشـرين مـن سبتمبر ، وصل كونراد (أوف مينز) والقادة الألمان من قبرص . وكـان كونـراد يتصـف بقوة سلطته البالغـة باعتبـاره بطريـق الإمبراطوريـة الغربيـة، وموضـع ثقـة الامـبراطور ، وصديقا - كذلك - للبابا الجديد إنوسنت الثالث . وعندما اقـترح منـح التـاج للملـك أماريك القبرصي لم يعارضه أحد عدا البطريق آيمـار الراهـب برغـم عـدم تـأييد رجـال الدين التابعين له لمعارضته . وبـدا الإختيـار اختيـارا رائعـا ، إذ كـانت زوجـة امـاريك الأولى - إيشيفا أوف إيبلين - قد ماتت مؤخرا ، وبذا لم يكن هناك ما يعوقه من زواج إيزابيلا . ورغم أن الكثيرين من البارونات السيريان لم يتناسوا تماما أنه من آل لوسينان، فقد أظهر تخليه عن كل السياسات المتحيزة ، وأظهر أنه أكثر اقتـدار مـن اخيـه الأصغـر جوى. وكان اختياره باعثا على إدخال السرور على البابا الذي بـدا لـه مـن الحكمـة لم شمل الشرق اللاتيني تحت زعامة واحدة. علـى أن نوايـا المستشـار كونـراد كـانت أكـثر خبثا. إذ كـان أمـاريك مدينـا بتاجـه القـبرصي للإمـبراطور هـنرى واصبح تابعـا لـه . وباعتباره الآن ملكا للقدس ، أفلا يُخضع مملكته الجديدة للسطلة الإمبراطورية ؟ وتـردد

أمالريك نفسه قليلا . رثم يصل إلى عكا قبل يناير ١١٩٨م . وفي الصباح التالي لوصوله تزوج من الأميرة إيزابيلا وبعد أيام قليلة توجهما البطريق ملكا وملكة للقدس(٢١).

ولم تكن وحدة التاجين مكتملة على الصورة التي كان يطمح إليها البابا أو المستعمرون ، إذ أوضح أمالريك منذ البداية الفصل بين إدارة كل من المملكتين وعدم انفاق أية أموال قبرصية في الدفاع عن الأراضي المقدسة . وكان هو نفسه بمثابة رابطة شخصية بينهما ، فكانت قبرص مملكة وراثية ، ووريثه هناك هو ابنه هيو ، أما في مملكة القدس فكان الحق الوراثي مرتبطا بالقبول العام واحتفظت المحكمة العليا بمطالبتها بانتخاب من يعتلي العرش، وفي القدس كان أمالريك مدينا بوضعه لزوجته ، فلو مات فسوف تعاود الزواج وسوف يُقبل الزوج الجديد ملكا، وكانت وريثة العرش هي ابنتها ماريا (أوف مونتفرات) ، وحتى لو أنجب منها ولدا ، كان من المشكوك فيه أن تكون لثمرة الزواج الرابع أسبقية على ثمرة الزواج الثاني . على أن ذريتهما الفعلية اقتصرت على بنتين هما سيبلا وميليسند(٢٢).

ورغم أن أمالريك كان يعتبر نفسه أكثر قليلا من نائب للملك، فقد كان حاكما ذا اقتدار ونشاط . وقد حث المحكمة العليا على مشاركته في مراجعة الدستور كي تتحدد الحقوق الملكية بوضوح ، خاصة وأنه أثار مسألة استشارة رالف أمير طبرية ، وهو غريمه في العرش ، والذي يقال إنه كان محل تقديره وإن لم يكن يحبه . وكان رالف متميزا بمعلوماته القانونية ، فكان من الطبيعي أن يُطلب منه اصدار الطبعة الجديدة من القوانين التي كانت تسمى كتاب الملك .Livre au Roi بيد أن أمالريك كان يخشى أن تُستغل معلومات رالف ضده . وفي شهر مارس ١١٩٨م ، وبينما كان الملك على صهوة جواده مع حاشيته يتجولون في البساتين المحيطة بصور، هبط عليه أربعة فرسان ألمان . وأنقذ الملك دون أن تلحق به إصابات جسيمة ، ورفض المهاجمون التصريح

---

(٢١) Roger of Hoveden, iv,p29ريفول *Estoire d'Eracles, ii,* pp.221-3; Emoul, pp. 309-10. الذي يطلق اسم ميليسند خطأ على العروس إن الزوجين قد تزوجا وتوّجا في بيروت بواسطة كونراد اوف ميتز . والأرجح أن ذلك دعاية ألمانية، إذ أن البابا إنوسنت الثالث كتب الى البطريق آيمار يوبخه على أنه رفض أولا السماح بالزواج بسبب روابط الدم، ثم أتمه وأتم التريبج رسالة في M.P.L.vol.ccxiv,col.477.وأصبحت العادة منذ آنذاك قدما أن يتم تتويج ملك القدس في كتدرائية صور.

(٢٢) أنظر .La Monte, *Feudal Monarchy,* p.43 وعن الملكية الوراثية في قبرص أنظر.Hill, op.cit. vol. ii, p.50 n. 4.

بالجهة التى ينوبون عنها في محاولتهم ، لكن أماليريك أعلن أن رالف مذنب وحكم عليه بالنفي . وطالب رالف بحقه في محاكمة يجريها أقرانه من النبلاء . وبناء على نصيحة حون أمير إيبلين – وهو أخو الملكة غير الشقيق – اقتنع الملك بأن رالف لابد وأن يحيل القضية إلى المحكمة العليا ، التي قضت بأن الملك قد أخطأ في نفي رالف دون محاكمته . و لم تحل المسألة إلا عندما أعلن رالف أنه سيذهب طواعية إلى المنفى في طرابلس بعد أن فقد ثقة الملك ، وربما كان ذلك راجعا إلى تدخل حون أمير ابيلين المعروف بمهارته. وأظهرت الحادثة للنبلاء عدم إمكان معارضة الملك دون الإفلات من القصاص ، لكنها أظهرت للملك أن عليه أن يمتثل للدستور(٢٣).

وكانت سياسته الخارجية تتصف بالقوة والمرونة . ففى أكتوبر ١١٩٧م، وقبل أن يعتلي العرش، بذل المساعدة لهنرى (أوف برابانت) مستغلا تمركز المسلمين في يافا وأرسل حملة مفاجئة تتألف من ألمان وجنود من أبناء برابانت بقيادة هنرى لإستعادة صيدا وبيروت . أما صيدا فقد سبق أن دمرها المسلمون الذين ظنوا أن لا سبيل للدفاع عنها ، ولما وصلها المسيحيون وجدوها أثرا بعد عين . وكان أمير بيروت القرصان أسامة قد طلب العون من العادل ، ولما وجد أن هذا الأخير لم يرسل له العون قرر تدمير مدينته ، غير أنه بدأ متأخرا جدا ، إذ وصل هنرى وجنوده فوجدوا أسوارها مفككة بحيث يسهل عليهم دخولها ، غير أن أغلب المدينة كان سليما وسرعان ما أصلحوا ما تلف منها . ومُنحت بيروت كإقطاعية لأخي الملكة غير الشقيق حون (أوف ابيلين). وبعودة جبيل إلى قبضة أمراء المسيحيين بالفعل ، أصبح للمملكة حدود مشتركة مع كونتية طرابلس مرة اخرى ، غير أن الساحل المحيط بصيدا لم يخلُ تماما من الأعداء الذين كانوا يحتفظون بنصف الضواحى(٢٤).

١١٩٧م : الحملة الصليبية الألمانية

تشجع الصليبيون الألمان بنجاحهم في بيروت فخططوا ، وعلى رأسهم رئيس الأساقفة ، للزحف بعد ذلك على القدس . وحاول البارونات السيريان أن يُثنوهم عن

---

(٢٣) pp.228-30; John of Ibelin, pp.327-8; Philip of Novara, pp.522-3,570. *Estoire d'Eracles, ii*

(٢٤) -Ernoul, pp. 311-17; *Estoire d'Eracles, ii*, pp.224-7; Arnold of Lubeck,p.205; Ibn al Athir,ii,p. 86.

عزمهم ، آملين الحفاظ على السلام مع العادل على أساس تخليه عن يافا واحتفاظه ببيروت ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وفي نوفمبر ١١٩٧م دخل الألمان الجليل وحاصروا قلعة تبنين العظيمة . وكان هجومهم الأول من القوة بحيث سارعت الحامية الإسلامية تعرض التخلي عن القلعة ومعها خمسمائة سجين مسيحي محتجزين في غيابة سجونها مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ومرورهم آمنين مع أمتعتهم الشخصية . غير أن رئيس الأساقفة كونراد أصر على التسليم بلا قيد او شرط . وفي لهفة بارونات الفرنج على مصادقة العادل ، وبدافع من خشية حدوث مذبحة تثير جهاد المسلمين ، أرسلوا يحذرون السلطان من أن الألمان ليسوا معتادين على الإبقاء على حياة أسراهم. واستبسلت الحامية في الدفاع ، بينما حث العادل ابن أخيه العزيز على ارسال جيش من مصر لملاقاة الغزاة . وبدأ الألمان يشعرون بالوهن وتراخت عزائمهم . وفي تلك الأثناء وصلت الأنباء بموت الامبراطور هنرى في سبتمبر ، ولذا تلهف الكثير من القادة على العودة إلى المانيا ، ولما جاءت اخبار الحرب الأهلية في المانيا قرر كونراد ورفاقه التخلي عن الحصار . وفي الثاني من فبراير ١١٩٨م اقترب الجيش المصرى القادم من الجنوب . وتهيأ جنود الألمان وضباطهم للحرب ، ولكن انتشرت فجأة شائعة بفرار المستشار رئيس الأساقفة مع عظام اللوردات ، فدب الذعر في الجميع ، وانطلق الجيش كله هاربا ولم يتوقف أبدا الى أن وصل إلى مأمنه في صور . وبعد أيام قليلة شرع الجيش في رحلة العودة إلى المانيا . وهكذا لم تحقق الحملة الصليبية كلها سوى الخيبة ولم تفعل شيئا للحفاظ على المكانة الألمانية . ومع ذلك ، فقد ساعدت في استعادة بيروت للفرنج ، وتركت خلفها مؤسسة دائمة هي منظمة فرسان التيوتون[٢٥].

وكانت الأنظمة العسكرية الدينية الأقدم قد استجلبت أعدادا ضئيلة من الألمان برغم انها كانت أنظمة عالمية من الناحية الرسمية . وفي وقت الحملة الصليبية الثالثة ، كان بعض التجار القادمين من مينائي بريمن ولوبيك الألمانيين قد أنشأوا نُزلا للألمان في عكا على غرار مستشفى القديس يوحنا ، وتقرر تكريسه للعذراء ، وخصص لرعاية الحجاج الألمان . وكان لابد وأن تزداد أهميته بحضور الحملة الألمانية عام ١١٩٧م ، وعندما قرر عدد من فرسان الصليبيين عدم العودة إلى المانيا في الحال ، حذت المنظمة حذو مستشفي القديس جون قبل ذلك بقرن من الزمان وضمت هؤلاء الفرسان ، وفي عام ١١٩٨م تلقت اعترافا من الملك ومن البابا بأنها نظام عسكرى . والأرجح أن

(٢٥) (المترجم) ـ التيوتون : شعوب المانية قديمة وخاصة في في شمال ألمانيا.

المستشار الأسقف كونراد كان مدركا أن وجود نظام ألماني خالص سيكون ذا قيمة في زيادة المخططات الإمبراطورية ، وقد تحمل هو نفسه مسؤولية الشروع فيها بدرجة كبيرة. وسرعان ما حصلت على هبات الضياع الخصبة في ألمانيا ، وبدأت في الحصول على القلاع في سوريا ، فكان أول ممتلكاتها برج فوق بوابة سانت نيكولاس في عكا، وهبه أماليك شريطة أن يعيد الفرسان تسليمه بناء على أمر الملك . ثم سرعان ما اشتروا قلعة مونتفورت الواقعة على التلال المسيطرة على "سلم صور"، وأعادوا تسميتها باسم ستاركنبرج . وكشأن فرسان المعبد والمستشفى قدم النظام العسكرى الألماني الجنود للدفاع عن الشرق الفرنجى ، لكنه لم يعمل على تسهيل حكم المملكة[٢٦].

وما أن رحل الصليبيون الألمان حتى دخل أماليك في مفاوضات مع العادل ؛ وكان العزيز قد أسرع في العودة إلى مصر ، ولم يكن العادل يرغب فى الشجار مع الفرنج لتلهفه على الحصول على الميراث الأيوبى كله . وفي أول يولية ١١٩٨م وقع على معاهدة تقضى بأن يحتفظ العادل بيافا ، ويحتفظ الفرنج بجبيل وبيروت ، وبتقسيم صيدا بينهما ، على أن تستمر المعاهدة خمس سنوات وثمانية أشهر . وكانت تلك التسوية في صالح العادل ، إذ بعد وفاة العزيز في شهر نوفمبر أطلقت يده للتدخل فى مصر وضم أراضي السلطان المتوفي . وبتزايد قوته زاد إصرار أماليك على مسالمته إذ كانت هناك مشاكل في أنطاكية مرة أخرى[٢٧].

١١٩٧م : الإستخلاف على أنطاكية

كان بوهموند الثالث قد شارك في حصار بيروت ، وفي طريق عودته خطط لمهاجمة جبلة واللاذقية ، غير أنه اضطر إلى الإسراع إلى إمارته ، فقد مات إبنه ريموند فجأة في أوائل عام ١١٩٧م ، وبذا انهارت مخططاته الرائعة في توحيد كيليكيا وانطاكية تحت ابنه ريموند وعروسه الأرمينية . ولقد ترك إبنا رضيعا هو ريموند-روبين الذى كان وريثا لأنطاكية بحق الوراثة . لكن بوهموند الثالث الآن قد دلف باب سنته الستين ،

---

(٢٦) أنظر Rohricht, *Geschichte des Konigreichs Jerusalem*, pp. 677-8.

(٢٧) *Estoire d'Eracles*, ii,p.228; Ernoul,pp.316-17؛ ويقول Roger of Hoveden, iv,p.28 إنه كان مقررا أن تستمر الهدنة ست سنوات وستة أشهر وستة أيام؛ أبو شامة :النص العربى.ed. Bairaq، i,pp. 220-1؛ Ibn al-Athir, ii, p. 89.

ومن غير المحتمل أن يعيش ليرى حفيده وقد بلغ سن الرشد . ولو أن الوصى على الطفل كان من اقاربه الأرمن ففي ذلك الخطورة كلها التي تتمثل في سيطرة الأقلية ؛ فأرسل بوهموند الأرملة أليس مع وليدها إلى أرمينيا ، ربما لأنه كان يخطط لأن يستخلف أحد أبناء سبيلا ، وربما لأنه ظن أن في ذلك سلامتهما . وقد حدثت تلك الأحداث في وقت تتويج ليو تقريبا . وكان كونراد (أوف مينز) تواقا للإستيلاء على عرش أنطاكية لأحد أتباع سيده ، وبذا يكون قد استكمل مهمته في عكا ، فما كان منه إلا أن سارع بمغادرة سيس إلى أنطاكية حيث أجبر بوهموند على استدعاء باروناته وجعلهم يقسمون على مساندة استخلاف ريموند-روبين[(٢٨)].

وكان الأفضل لكونراد أن يذهب إلى طرابلس . إذ كان بوهموند كونت طرابلس، وهو الإبن الثاني لبوهموند الثالث ، شابا تتوفر لديه طموحات ضخمة والقليل من الشعور بالضمير ، وهو ضليع في القانون وقادر على أن يجد ما يبرر به أكثر اعماله فحشا، ولم يكن بينه وبين الكنيسة شئ من الود . وفي خلاف بين أبناء بيزا وأسقف طرابلس على بعض الأراضى ، ناصر أهل بيزا - من أجل المال بلا شك . وعندما عُيّن الأسقف بطرس (أوف انجوليم) بطريقا لأنطاكية وقام بتعيين خليفة له في دائرة طرابلس بلا اجراءات كنسية بسبب العجلة ، قبل البابا ما تذرع به من أن وجود حاكم مثل بوهموند لا تستطيع الكنيسة المجازفة بالتأخير . وكان بوهموند عاقدا عزمه على ضمان استخلاف انطاكية ، وعلى الفور رفض الإعتراف بصحة القسم الذى أقسمه النبلاء لصالح ريموند-روبين . وكان في احتياج لحلفاء ، فوجدهم في فرسان المعبد الذين انضموا إليه في سرور بعد غضبهم من ليو الذي احتفظ ببجراس ، وضم إليه فرسان المستشفى بعد أن حصلوا على منح معقولة . وأما أبناء بيزا وجنوا فقد ارتشوا بامتيازات تجارية . والأكثر اهمية أن كميون أنطاكية نفسه كان يخشى الأرمن ، ويحمل العداوة لأي عمل يأتيه البارونات . وفي نهاية ١١٩٨م ظهر بوهموند كونت طرابلس فجأة في أنطاكية ، وعزل أباه وحثّ الكميون على قسم الولاء لنفسه.

بيد أن ليو كان له حليف عظيم ، ألا وهو البابا إينوسينت الثالث . وأيا ما كانت

---

(٢٨) Arnould of Lubeck, p.207; *Chronica Regia Coloniensis*, p. 161; Roger of Hoveden, iv, p. 28، وجميعهم يقول ضمنا إن بوهموند احتل المدن موقتا. كمال الدين ترجمة Blochet,pp.213-15قائلا إنه لم يهاجمها في الواقع. وأما Rohricht, op.cit.p. 675, n.، فيخطئ في ترجمة جبيل ويذكرها Gibelet وهي Jebail في تاريخ هرقل*Eracles, ii,* p.228، ويذكرها جبلة Jabala (Dschebele).

الشكوك التى ربما كانت البابوية تشعر بها حول اخلاص الكنيسة الأرمينية في خضوعها لروما ، كان اينوسنت الثالث عازفا عن إبعاد أتباعه الجدد . وانهمرت على روما وبطريق كنيسته الأرمينية (كاثوليكوس) رسائل من ليو وطلبات تعكس الود والإخلاص، ولم يكن هناك مجال لتجاهلها . وأدت معارضة الكنيسة على الأرجح إلى أن يسمح بوهموند الصغير لوالده بالعودة إلى أنطاكية وعاد هو نفسه إلى طرابلس ؛ لكنه تمكن بشكل او آخر من مصالحة والده الأمير الشيخ الذي تحول ومال إلى جانبه . وفي تلك الأثناء مارس فرسان المعبد كل ما لديهم من نفوذ للتأثير على روما ؛ غير أن ليو تجاهل تلميحات الكنيسة التي تفيد بأنه ينبغي له إعادة بغراس إلى نظام فرسان المعبد، إذ كانت بغراس من الناحية الإستراتيجية موقعا أساسيا له إذا كان له أن يتحكم في أنطاكية . ودعا الأمير الشيخ وبوهموند والبطريق بطرس لمناقشة المسألة برمتها ، غير أن عناده دفع حتى بالبطريق إلى الانحياز إلى جانب بوهموند كونت طرابلس . وانضمت الكنيسة في أنطاكية إلى الكميون والأنظمة العسكرية في معارضتها للإستخلاف الأرميني. وعندما مات بوهموند الثالث في ابريل ١٢٠١م ، لم يجد بوهموند كونت طرابلس صعوبة في تنصيب نفسه في المدينة . بيد أن الكثير من النبلاء المتمسكين بقسمهم ، والذين كانوا يخشون استبداد بوهموند ، هربوا إلى بلاط ليو في سيس[٢٩].

١٢٠١م : الحرب الأهلية في الشمال

وطوال الربع التالي من القرن انشغل مسيحيو شمال سوريا بحرب الإستخلاف الأنطاكية ، وقبل تسوية المسألة بوقت طويل كان الوضع كله في الشرق قد تغير . ومن حسن الحظ أن أمراء الأناضول السلاجقة والأيوبيين لم يكونوا في وضع يمكّنهم من شن حرب للغزو هناك . ذلك أن وفاة السلطان السلجوقى قلج أرسلان الثانى أعقبتها حرب أهلية طويلة فيما بين أولاده . وانقضت عشر سنوات تقريبا تمكن بعدها أحد الأبناء الصغار ، ركن الدين سليمان صاحب توقات، من إعادة توحيد أراضى الأسرة . وحدثت غارة سلجوقية على كيليكيا عام ١١٩٣م ، ومرة أخرى عام ١٢٠١م، الأمر الذى تسبب فى اضطراب ليو في اللحظة الحرجة التي كان فيها بوهموند الثالث راقدا يحتضر . على أنه عندما كان يتوفر لركن الدين بعض الوقت أثناء حروبه مع اخوته ومع

(٢٩) للإطلاع على هذه القصة المعقدة أنظر Cahen, op. cit. pp. 590-5 ، مع مناقشة حول تعارض المصادر.

أمراء الدانشمند الضعفاء ، كان يشغله في مهاجمة جورجيا ، التي كانت مليكتها ثامار تبدو أشد خطورة في تهديدها للإسلام من أي عاهل لاتيني(٣٠).

ولم يكن من السهل الحفاظ على السلام . ففي نهاية عام ١٢٠٢م هبط على عكا أسطول فلمنكي صغير ، كان قد أبحر مجتازا مضيق جبل طارق تحت قيادة آمر قلعة بروج ، جون (أوف نيسل) .وبعد أيام قليلة وصلت حفنة من الفرسان في سفن من مرسيليا برئاسة الأسقف وولتر (أوف أوتون) وكونت فوريه ، ولحقت بهم مجموعة أخرى من الفرسان الفرنسيين القادمين من فينيسيا ، وفيهم ستيفن (أوف بيرش) وروبرت (أوف مونتفورت) ورينالد الثاني كونت دامبير . ولم يبلغ عدد المجموعات الثلاث سوى مئات قليلة من الرجال ، وهم نسبة ضئيلة بمقارنتها بالجيش العرمرم الذي يبحر الآن من دالماتيا ؛ وكان رينالد (أوف مونتميريل) قد غادر زارا أمام الجيش ، وسرعان ما جاء بالأنباء التي تفيد بأنه سيمر بعض الوقت قبل أن يظهر الجيش في سوريا، وربما لن يصل . وكشأن الوافدين الجدد ، عقد الفرسان الفرنسيون العزم على الخروج في الحال للحرب من أجل الصليب ، وقد تملكهم الرعب عندما حثهم الملك أماليريك على الإنتظار متحملين بالصبر ، فما كان من رينالد كونت دامبير إلا أن أهان الملك في وجهه راميا إياه بالجبن ، وباعتباره قائدا بذاته ، حرض الفرسان على الإلتحاق بخدمة بوهموند كونت طرابلس . فانطلقوا للإنضمام إليه في انطاكية بعدما عبروا طرابلس في أمان . لكن جبلة واللاذقية كانتا ما تزالان في أيدى المسلمين ، وكان أمير جبلة رجلا مسالما تربطه بجيرانه المسيحيين أوثق الروابط ، فرحب بهم ضيوفا عليه، وحذرهم من عبور اللاذقية دون أخذ الأمان من سيدها الظاهر صاحب حلب ؛ وعرض أن يكاتب هو نفسه السلطان الذي كان حريا بتلبية طلبهم لإهتمامه بزيادة إشعال الحرب الأهلية في أنطاكية ، غير أنه لم يسع رينالد ورفاقه الإنتظار، فغذوا السير عبر اللاذقية التى أراد أميرها الوفاء بواجبه الإسلامى فنصب لهم كمينا وأسر كثيرين وقتل الباقين(٣١).

---

(٣٠) Ibn Bibi, ed. Houtsma, iv, pp. 5-22; Ibn al-Athir, ii, pp.69-72; *Georgian Chronicle* (ed. Brosset),i,pp.292-7.

(٣١) ؛Ernoul, p. 341; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 247-9; Villehardouin, ed. Faral, pp. 102-4 وكمال الدين ترجمة Blochet, p.39. وذهب جون اوف نيسل وقليلون ممن أفلتوا من اللاذقية الى ليو الثاني ضد أنطاكية . وعن الحملة الصليبية الرابعة أنظر أدناه ص ١٠٧ ff.. وينتقد Villehardouin بمرارة الصليبين الذين أصروا على الذهاب الى الأراضى المقدسة.

١٢٠٥م : موت الملك أماريك

أغار أماريك نفسه من حين لآخر على المسلمين عندما كـان أحـد الأمـراء يقـوى نفسه بالقرب من صيدا ويبدأ في الإغارة على السواحل المسيحية . وحيث أن العـادل لم يعرض أية تعويضات ، انتقم أماريك بإرسـال سفن تعـترض قافلـة بحريـة ثمينـة كـانت مبحرة إلى اللاذقية واستولى عليها، كما قام بغارة على الجليل . ورغم أن العـادل وصـل في مسيره إلى جبل طابور لملاقاته ، فقد رفض الدخول معه في معركة . كما أن رد فعله لم يكن عنيفا عندما أبحر الأسطول المسيحي إلى دلتا النيـل ثـم أعـلا النهـر مـارا برشـيد وخرّب مدينة فوّة. وفي ذات الوقـت تقريبـا قـام فرسـان المستشـفى في الكـرك ومرقـب بالإغارة على حماه ، وهي إمارة المنصور ، حفيد أخي العادل دون نجاح دائم(٣٢).

وفي سبتمبر ١٢٠٤م أبرمت معاهدة سلام بين أماريك والعـادل لسـت سـنوات . ويبدو أن المبادرة بها جاءت من أماريك ، وإن كان العادل مشـتاقا مـن جانبـه لإنهـاء القتال ، ربما لقلقه من تفوق المسيحيين في القوة البحرية ، غير أنه يقينا كان مدركـا أن امبراطوريته سوف تجني الثمار باستئناف التجارة الـتي ركـدت مـع السـاحل السـورى. ولذا كان على استعداد للتخلي لا عن بيروت وصيدا نهائيـا لأمـاريك فحسـب ، وانمـا تخلى له كذلك عن يافا والرملة وسـهّل ترتيبـات الحـج للحجـاج الذاهبـين إلى القـدس والناصرة . أما أماريك ، الذى لا يتوقع الآن تلقى أية مساعدة فعالة من الغـرب ، فقـد بدت له الشروط جيدة بصورة تثير الدهشة(٣٣) غـير أنـه لم يتمكـن مـن التمتـع بمكانتـه المتزايدة لفترة طويلة ، ففـي أول ابريـل ١٢٠٥ ، وبعـد فـترة قصـيرة مـن المـرض نتيجـة الإفراط في أكل السمك، مات في عكا عن عمر يزيد قليلا على الخمسين(٣٤).

ولم يكن أماريك ملكا عظيما ، غير انـه كشـأن سـلفه هـنرى تعلـم مـن التجربـة الحكمة السياسية التي كانت ذات قيمة لهذه المملكة البائسة المحفوفة بالأخطار ؛ وأسهم

---

(٣٢) Ernoul, pp. 355-60; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 258-63; Abu Shama, ii, p. 158; Ibn al-Athir, ii, p. 96.

(٣٣) Ernoul, p. 360; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 263; Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣٤) Ernoul, p. 407; *Estoire d'Eracles*, ii,p.305; Appendix to Robert de Monte, Bouquet, R.H.F.vol.xviii,p.342. ويقتبس روبرت دي مونت في تذيله خطابا من رئيس أساقفة قيسارية يرد فيه التاريخ بدقة . وقد مات ابنه الرضيع من إيزابيلا يوم ٢ فبراير . وكان السمك من صنف البـورى الأبيض .

ذهنه المنسق القانوني لا في إيجاد دستور لقبرص وحسب ، وإنما فعل الكثير من اجل الحفاظ على الملكية في الأراضى الأصلية . وكرجل كان يلقى الإحترام ولكن لم يكن محبوبا كثيرا . وكان في شبابه يتصف باللامسؤولية وكان مشاغبا ، ودائما ما كان ينتهين بالمعارضة . وبرغم أنه أوضح بجلاء تفضيله لأن يظل ملكا لقبرص وحدها، فيرجع إليه الفضل في قبوله للمهام التى ألقاها التاج الثاني على عاتقه ونفذها بكل ما تستدعيه من واجبات . وفي وقت وفاته كانت المملكتان منفصلتين ، فآلت قبرص إلى إبنه هيو الأول ابن إبشيفا (أوف ايلين)، وكان طفلا في السادسة من عمره . وكانت الأخت الكبرى للطفل قد تزوجت حديثا من وولتر (أوف مونتبيليارد) الذى عهدت إليه المحكمة العليا في الجزيرة بالوصاية[٣٥]. وفي مملكة القدس آلت السلطة تلقائيا إلى الملكة إيزابيلا التي لم تشعر بالإرتباك لموت زوجها هذا الأخير على النحو الذي يعوقها عن مباشرة الحكم . بيد أنها هى نفسها لم تعش طويلا ؛ إذ طوت آكفان الغموض تاريخ وفاتها كما طوت أغلب أحداث حياتها . وكانت هي الوحيدة من بين سيدات البيت الملكى في القدس التي كانت شخصيتها شخصية معتمة لم يبق لنا شئ يكشف عن شخصيتها . وكان زواجها ووجودها ذاته ذا أهمية كبيرة. ولو كان لها تطلعات سياسية لكانت بمثابة قوة فى الأراضى المقدسة ، لكنها تركت نفسها تنتقل من زوج إلى زوج دون اعتبار لرغباتها الشخصية . ونحن نعلم أنها كانت جميلة ؛ على أننا ينبغى أن نصل إلى نتيجة أنها كانت هزيلة ضعيفة[٣٦].

وتركت ايزابيلا خمس بنات ، ماريا (أوف مونتفرات) وأليس وفيليبا (أوف شامباني) وسيبيلا وميليسيند (أوف لوسينان). واعتلت ماريا العرش ، وكانت آنذاك في الثالثة عشرة من عمرها ، وعُيّن جون أوف إيبلين ، لورد بيروت ،وصيا على العرش. وليس معروفا ما إذا كان تعيينه جاء عن طريق الملكة الراحلة أو عن طريق البارونات ، غير أنه كان المرشح البارز ، إذ باعتباره الأخ الأكبر غير الشقيق لإيزابيلا ، كان هو أقرب الأقرباء الذكور لماريا . وكان صاحب أغنى إقطاعية في المملكة الصغيرة وكان القائد المقبول للبارونات ، وقد جمع بين شجاعة أبيه وحكمته باليان وبين الدهاء الإغريقي الذى ورثه عن أمه - ماريا كومنينا . وظل يحكم البلد لثلاث سنوات بمهارة وهدوء لا تزعجه فيها الحروب العربية ولا تحرجه فيها الحملات الصليبية . وفي واقع

---

(٣٥) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 305.

(٣٦) Ibid.

الأمر ، وكما توقع أماليك وهو محزون عندما وقع معاهدته مع العادل ، ليس هناك فارس غربي يزعج نفسه طواعية بالحضور إلى فلسطين . لقد وجدت الحملات الصليبية مراتع أخرى أكثر خصوبة تتصيدها(٣٧).

(٣٧) Ibid.; Ernoul, p. 407.

الباب الثانى:

حملات صليبية ضالة

الفصل الأول:

الحملة الصليبية ضد المسيحيين

الحملة الصليبية ضد المسيحيين

"كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم. السيّدة في البلدان صارت تحت الجزية،
كُل أصحابها غدروا بها صاروا لها أعداء"
(مراثي إرميا ٢:١:١)

في نوفمبر ١١٩٩م، دعا الكونت تيبالد (أوف شامباني) أصدقاءه وجيرانه لمشاهدة ألعاب الفروسية في قلعته إكرى الواقعة على نهر إيسن في شمال فرنسا . وبعد انتهاء المقارعة ، تحولت أحاديث اللوردات إلى الحاجة إلى حملة صليبية جديدة ، وهو أمر وقع من الكونت موقعا قويا ، إذ كان هو ابن اخي قلب الأسد وفيليب أوغسطس ، وكان اخوه هو الكونت هنرى الذي حكم في فلسطين . وبناء على اقتراحه دُعِيَ الواعظ الجوّال فولك (أوف نويلى) ليحادث الضيوف . وأشعلت فصاحته المجموعة كلها فأقسموا على أخذ الصليب ؛ وأُرسل مبعوث إلى البابا لإبلاغه بالقرار الورِع[١].

كان إينوسنت الثالث متربعا على العرش البابوي لأكثر من عام في الواقع. وكان

(١) Villehardouin, i, pp. 2-6.

متّقد الحماس في طموحه لإقامة السلطة غير العادية للكرسى البابوى ، لكنه في الوقت ذاته كان حذرا بعيد النظر رائق الذهن، وقانونيا بفضل وجود أساس قانوني لمطالباته، وكان سياسيا لا يتورع عن استخدام أية وسيلة في متناول يده مهما تكن . وكان قد أصابه الاضطراب من جراء الوضع في الشرق ، وكان أحد أعماله الأولى أن أفصح جهرة عن رغبته في حملة صليبية جديدة ؛ وفي عام ١١٩٩م كاتب البطريق آيمار بطريق القدس طالبا تقريرا مفصلا عن المملكة الفرنجية(٢). وكان ملوك القدس أتباعا له ، وزاد من رغبته في مساعدتهم السياسة الدؤوبة للإمبراطور هنرى السادس، الذى كان منحه للتاجين في قبرص وأرمينا بمثابة التحدى للسلطة البابوية فى تلك الأماكن. وقد أظهرت التجربة أن الملوك والأباطرة ليسوا مرغوبين تماما في الحملات الصليبية . والحملة الصليبية الوحيدة التي تعتبر نجاحا كاملا هى الحملة الصليبية الأولى التي لم يشارك فيها ملك على رأسه تاج . ومن شأن حملة صليبية تتألف من بارونات، متجانسين في العنصر بشكل أو بآخر، أن تتجنب مظاهر الندية الملكية والقومية التي دمرت بدرجة كبيرة الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . وستكون نوازع الغيرة التي قد تنشأ تافهة يسهل السيطرة عليها في وجود ممثل بابوي مقتدر. ولذلك، رحب إينوسنت ترحيبا حارا بالأنباء التي وصلته من شامباني ، ذلك أن الحركة التي أطلقها تيبالد لن تساعد الشرق مساعدة فعالة فحسب ، وإنما يمكن استخدامها كذلك في توطيد أواصر وحدة العالم المسيحى تحت سلطة روما(٣).

١١٩٩م : إينوسينت الثالث والحملة الصليبية

وقد اختيرت اللحظة اختيارا حسنا للبابوية . ففي زمن الحملة الصليبية الأولى لم يكن هناك امبراطور في الغرب في وضع يمكّنه من التدخل ؛ ونتج عن موت هنرى السادس في سبتمبر ١١٩٧م أن أراح الكنيسة من تهديد حقيقي . وكان هنرى – باعتباره إبن فريدريك بارباروسا وزوج وريثة صقلية، التي أصبح ميراثها في قبضته القوية بحلول عام ١١٩٤م – أكثر هولا من أي عاهل آخر منذ شارلمان ، وكان شعوره بتلك المكانة قويا وكاد أن ينجح في تعزيز تلك المكانة على أساس وراثى ؛ إذ أن منحه

---

(٢) Rohricht, *Regesta*, pp. 202-3.

(٣) عن موقف إينوسنت الثالث، أنظر Fliche, *La Chrétienté Romaine* vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise)*pp.44-60.

للتيجان في الشرق وطلبه التحالف مع قلب الأسد الأسير ، أوضح أنه ينظر لنفسه على أنه "ملك الملوك" . ولم يخف كراهيته لبيزنطة ، وهي الامبراطورية القديمة التي فاقت تقاليدها تقاليده في ندّيتها، لا ولم يخف ما كان يصبو إليه في المضي في السياسة النورماندية لبناء سلطان له في البحر المتوسط ، والتي كانت تشتمل بذاتها على دمار بيزنطة . وكان أطلاق حملة صليبية جزءا حتميا من هذه السياسة . وطوال عام ١١٩٧م كان يضع خططه بحذر. وكان للبعثة الألمانية التي هبطت عكا في ذلك العام أن تكون بشيرا لجيش عظيم يقوده بنفسه . وأسقط في يد البابا إينوسنت الثالث ، وهو رجل هيّاب متذبذب ، لكنه لم يحاول إثناءه عن عزمه رغم أنه نصحه بعدم شن هجوم عاجل على القسطنطينية إذ أنه يفاوض امبراطورها على وحدة الكنيسة . ولو لم يمت هنرى فجأة في ميسينا، وهو في الثانية والثلاثين، أثناء تجهيزه لإسطول عظيم يقهر به الشرق، فربما نجح نجاحا كبيرا في أن يجعل من نفسه سيد العالم المسيحي كله[٤].

مات البابا سيليستين بعد أشهر قليلة من موت الامبراطور ، ولذا وجد البابا إينوسنت الثالث نفسه مستخلفا دون غريم دنيوي . وعهدت الإمبراطورة الأرملة كونستانس إليه بمملكها الصقلية وابنها الصغير فريدريك . وفي ألمانيا، حيث لم يكن الأمير الصقلي المولد معروفا، استولى عمه - أخو هنرى - فيليب (أوف سوابيا) على أراضي العائلة ونصب نفسه إمبراطورا ووجد أن أعداء الهوهينيشتوفن لم يجبنوا إلا بشكل مؤقت . وعيّن آل ويلف مرشحا ندا هو أوتو (أوف برونسفيك)؛ وكان ريتشارد البريطاني قد قتل في شهر مارس ١١٩٩م، وقد بدأ الخلاف على ميراثه بين أخيه جون وابن أخيه آرثر، بينما كان ملك فرنسا فيليب مشتركا في النزاع اشتراكا نشطا. وهكذا كان ملكا فرنسا وانجلترا في شغل شاغل ، وألمانيا منصرفة إلى الحرب الأهلية، والسلطة البابوية آمنة في جنوب إيطاليا ، فيستطيع إينوسنت الثالث إذا أن يشرع في التبشير بالحملة الصليبية تملأه الثقة . وكخطوة أولى بدأ مفاوضات مع الامبراطور البيزنطى ألكسيوس الثالث حول وحدة الكنائس[٥].

(٤) أنظر Foreville and de Pina, *Du Prentier Concile du Latran à l'avènement d'Innocent III* (vol. ix of Fliche and Martin, *Histoire* de *l'Eglise*) pp. 216-26.

(٥) Fliche, op. cit. pp.46, 50; *Gesta Innocentii III, M.P.L.* vol. ccxiv, cols. 119-23.

١٢٠١م : تعين بونيفاس قائدا للحملة الصليبية

وفي فرنسا، كان الوكيل الرئيسي للبابا هو فولـك (أوف نيويلـي) المبشر المتجـول الذي طالما كـان يسعى إلى الإيحاء بحملة صليبية . وكـان مشهورا بعدم الهيبة أمام الأمراء، كما حدث أن أمر الملك ريتشارد بالتخلي عن كبريائه وشحه وشهوته[٦]. وتنفيذا لطلب البابا راح يتحول في البلاد محرضا القرويين على أن يتبعوا أسيادهم إلى الحرب المقدسة . وفي ألمانيا كادت المواعظ الكنسية التي يلقيها آبوت مارتان (أوف بيريز) أن تكون ملهمة بنفس القدر ، رغم أن النبلاء كانوا متورطين في الحرب بحيث لم يولوه اهتماما كبيرا[٧]. على أنه لا فولك ولا مارتان استطاع إشعال الحماس كمبشرى الحملة الصليبية الأولى . وكان التجنيد أكثر تنظيما ، إذ كـان مقصورا أساسا على التابعين للبارونات الذين أخذوا الصليب ، والكثير من هؤلاء البارونات تحركـوا بوازع الورع بصورة أقل من وازع الرغبة في الحصول على أراض جديدة بعيدة عما كـان يمارسه الملك فيليب أوغسطس من أنشطة تنظيمية . ولقى تيبالد (أوف شامباني) قبـولا عاما لأن يصبح قائد الحركة ؛ وكـان معه بالدوين التاسع (أوف هينولت) وكونت فلاندرز، وأخوه هنرى، ولويس كونت بلوا، وجيوفري الثالث (أوف لي بيرش) وسيمون.الرابع (أوف مونتفورت) وإخوتهم، وإنجوراد (أوف بوف)، ورينالد (أوف دامبير) وجيوفري (أوف فيلهاردوين)، ولوردات آخرون اقل شأنا من شمال فرنسا والبلاد والواطئة . وأعلن أسقف أوتون ملازمته لمجموعة من الفرسان من أوفرنيّ. وفي اقليم الراين الألماني أخذ أسقف هالبرتشتادت الصليب وكذلك كونت كاتزنيلينبوجين ومعهما الكثير من جيرانهما[٨]. وسرعان ما حذا حذوهم بعد ذلك مختلف الوجهاء في شمال ايطاليا ، يتزعمهم بونيفاس مركيز مونتفرات ، الذي تسبب اشتراكه في أن يثير لدى البابا إينوسنت الثالث أول مشاعر الريبة حول المغامرة كلها، إذ كـان أمراء مونتفرات أصدقاء مخلصين وحلفاء لآل هوهينشتوفن[٩].

---

(٦) Villehardouin, loc. cit; Roger of Hoveden, iv, pp.76-7. عرض ريتشارد أن ينسب كبرياءه لفرسان المعبد، وشحه للسيسترسيين)الرهبان البنيدكتيين(، وشهوته لأساقفته.

(٧) Gunther, *Historia Constantinopolitana* in Riant, *Exuviae, i*, pp. 60-5.

(٨) يورد Villehardouin, i, pp. 6-14 and Robert of Clary (ed.lauer), pp. 2-3 قوائم بالصليبيين الفرنسيين. ويذكر Villehardouin, p.74 أسماء الصليبيين الألمان.

(٩) يقول Villehardouin, i, p. 44 ضمنا إن بونيفاس لم يأخذ الصليب إلا بعد أن تم تعيينه قائدا أعلا للحملة؛ *Gesta Innocentii III, loc.cit,*col.132، الذي يوحي بشكوك البابا. وكانت أم بونيفاس أختا غير شقيقة لجد هنرى السادس، وكان أبوه أخا غير شقيق لجدة فيليب ملك فرنسا.

ولم يكن في الإمكان تنظيم الحملة بسرعة . وكانت المشكلة الأولى هي العثور على سفن تحملها إلى الشرق ؛ إذ مع اضمحلال بيزنطة لم يعد الطريق البري عبر البلقان والأناضول وسيلة عملية للوصول إلى الشرق . ولم يكن أحد من الصليبيين يملك أسطولا تحت تصرفه ، باستثناء كونت فلاندرز؛ وكان الأسطول الفلمنكي قد أبحر بمفرده إلى فلسطين بقيادة حون (أوف نيسل[١٠]. وبعد ذلك كانت هناك مسألة الإستراتيجية العامة ؛ وكان ريتشارد قلب الأسد عندما غادر فلسطين قد أدلى برأيه من أن مصر هي النقطة الضعيفة في الإمبراطورية العربية. وتقرر في نهاية الأمر أن تكون مصر هي هدف الصليبيين . وكان عام ١٢٠٠م قد انقضى في مفاوضات مختلفة، حاول فيها إينوسنت الإحتفاظ ببعض السيطرة. وفي شهر مارس ١٢٠١م مات تيبالد (أوف شامباني) فجأة ؛ واختارت الحملة الصليبية بونيفاس (أوف مونتفرات) قائدا للحملة بدلا منه . وكان اختيارا طبيعيا ، إذ كان لآل مونتفرات اتصالات ملحوظة مع الشرق. وكان أبو بونيفاس قد مات وهو بارون فلسطيني ، ومن بين أخوته تزوج وليم من سيبيلا ملكة القدس وأصبح أبا الطفل الملك بلدوين الخامس ؛ وتزوج رينير ابنة الامبراطور مانويل وقتل في القسطنطينية ؛ وكان كونراد هو منقذ صور، وحاكم الأراضى المقدسة وأبا لوريثتها الحالية. غير أن تعيينه لقيادة الصليبيين أبعده عن نفوذ البابا إينوسنت . وكان بونيفاس قد حاء إلى فرنسا في أغسطس عام ١٢٠١م ، وقابل رفاقه الرئيسيين في سواسون ، حيث صدّقوا على زعامته ؛ ومن هناك واصل رحلته إلى ألمانيا لتمضية اشهر الشتاء مع صديقه القديم فيليب (أوف سوابيا)[١١].

وكان فيليب (أوف سوابيا) مهتما هو نفسه بالشؤون الشرقية ، وإنما في الأمور البيزنطية وليس في سوريا . وقد بلغ الغاية في مشاركته لأسرته الحاكمة شعورها بالكراهية الشديدة تجاه الأباطرة البيزنطيين . وتوقع أن يصبح في القريب العاجل إمبراطورا غربيا ، وود لو أنه يواصل تنفيذ برنامج أخيه هنرى كاملا . وفضلا عن ذلك، كانت لديه علاقات مع بيزنطة . وعندما استولى هنرى السادس على صقلية غزوا، كان من بين الذين أسرهم الأرملة الشابة للأمير المتوج روجر الصقلي المحروم من عرشه ، وهي إيرين أنجلينا ، إبنة الامبراطور اسحق أنجيلوس ؛ فمنحها لفيليب عروسا. وكان زواجا يكلله الحب ؛ ومن خلال حبه لفيليب أصبح متورطا في المشاحرات الملكية

---

(١٠) أنظر أعلاه ، ص ١٤٠.

(١١) Villehardouin, i, pp. 40-6; Robert of Clary, pp.4-6 ؛ ويلمّح تاريخ *Gesta Innocentii III*, *loc. cit.* بأن فيليب ملك فرنسا قد تدخل لصالح بونيفاس.

لأنجيلى[١٢].

وبعد أشهر قليلة من زواج فيليب فقد حموه عرشه . إذ أن القوة لم تضف شيئا إلى قدرة إسحق ؛ إذ كان مسؤولوه فاسدين لا سبيل إلى السيطرة عليهم ، وكان هو نفسه على قدر من التبذير أكثر بكثير مما تستطيع تقديمه إمبراطوريته التى افتقرت . ففقد نصف شبه جزيرة البلقان انتزعتها منه مملكة قوية تتهدده هي المملكة الفلاكية البلغارية[١٣]. وكان الأتراك - حتى موت قلج أرسلان الثاني عام ١١٩٢م - يستولون على الأناضول شيئا فشيئا ، وبذا يحجبون بيزنطة عن الساحل الجنوبي وعن سوريا. وبدأت التنازلات التجارية تُباع للإيطاليين أكثر فأكثر من أجل النقد الجاهز . وكان حفل الزفاف الرائع للإمبراطور إلى الأميرة مرجريت الهنجارية من الإسراف وانعدام الفطنة بحيث أشعل غضب رعاياه المثقلين بالضرائب ؛ وبدأت أسرته هو نفسه تهجره ، وفي ١١٩٥م خطط أخوه ألكسيوس مؤامرة وضع هندستها في القصر بنجاح. وفُقئت عينا إسحق وألقى به في غيابة السجن ومعه ابنه ألكسيوس الأصغر. وكان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثالث ، أكثر اقتدارا بقليل من أخيه ؛ فأظهر بعض النشاط الدبلوماسي وتودد ليكسب صداقة البابوية بعرض اجراء محادثات حول الوحدة الكنسية - وهى صداقة ربما جنّبته هجوم هنرى السادس - وأفلح بمكائده في الإبقاء على الفرقة بين أمراءالسلاجقة . على أنه ترك الشؤون الداخلية لزوجته إيوفروسين التى كانت مسرفة متلافة ، وأحاطت نفسها بالخدم والحشم بنفس القدر كما كان أخو زوجها[١٤].

وفي نهاية عام ١٢٠١م ، هرب ألكسيوس الأصغر ، إبن اسحق ، من السجن في القسطنطينية ويمم وجهه شطر بلاط أخته في ألمانيا . واستقبله فيليب استقبالا حسنا وقدمه إلى بونيفاس (أوف منونتفرات) . وتشاور الثلاثة وأعرب ألكسيوس عن رغبته في الحصول على عرش والده ، وكان فيليب على استعداد لمساعدته كي يحوّل الإمبراطورية الشرقية إلى عميل للإمبراطورية الغربية . ولدى بونيفاس جيش صليبي تحت تصرفه . أليس من صالح الحملة الصليبية أن تتوقف في طريقها لكى تعيد حاكما صديقا

(١٢) *Chronica Regia Coloniensis*, p.157.

(١٣) (المترجم) - المملكة الفلاكية البلغارية Vlacho-Bulgarian نسبة إلى الشعوب الفلاكية جنوب شرق أوروبا ، أساسا في رومانيا ، وهي غير سلافية

(١٤) أنظر: Vasiliev, *History of the Byzantine Empore*, pp.440-487.

إلى عرشه في القسطنطينية؟[١٥].

١٢٠٢م : مفاوضات مع البندقية

وفي تلك الأثناء راح الصليبيون يبحثون عن وسيلة نقل لرحلتهم البحرية . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠١، وأثناء حياة كونت شامباني ، دخلوا في مفاوضات مع البنادقة وأرسلوا إلى البندقية جيوفرى (أوف فيلهاردوين) لترتيب الشروط . وفي إبريل وقعت معاهدة بين جيوفرى والبنادقة تقضى بحصولهم على ٨٥,٠٠٠ مارك كولوني فضي لقاء توفير وسائل النقل والأطعمة لمدة عام ، من ٢٨ يونية ١٢٠٢م ، لعدد من الفرسان قدره ٤,٥٠٠ فارس وخيولهم ، و ٩,٠٠٠ فارس بلا لقب ، و ٢٠,٠٠٠ جندى مشاه . وفضلا عن ذلك ، توفر جمهورية البندقية خمسين قادسا لمصاحبة الحملة الصليبية شريطة أن تحصل على نصف ما تحققه الحملة من غزو . وما أن تم الإتفاق حتى استدعي الصليبيون للتجمع في البندقية وهم على أهبة الاستعداد للإبحار قاصدين غزو مصر[١٦].

وكان هناك صليبيون قليلون مرتابون في المعاهدة ؛ ولذا اصطحب أسقف أوتون جماعته مباشرة من مرسيليا إلى سوريا. ونفد صبر آخرين ، برئاسة رينالد (أوف دامبيير)، من التأخير في البندقية فرتبوا ترتيبهم للإبحار إلى عكا كما كان هناك شيئ من عدم الإرتياح من جانب الصليبيين الأقل شأنا لصدور القرار بمهاجمة مصر ؛ فقد انخرطوا في الحملة لإنقاذ الأرض المقدسة ، ولا يفهمون القصد من الذهاب إلى مكان آخر . ونفخ البنادقة بهدوء في نار استيائهم ، إذ لم تتوفر لديهم النيّة للمساعدة في الهجوم على

---

(١٥) Nicetas Choniates, p. 712; Innocent III letters, v, 122, *Gesta Innocentii III, loc.cit.*, cols.123-5; ibid.cols.130-2. دارت مجادلات مريرة حول المسألة كلها وما إذا كان تحول الحملة الصليبية الرابعة كان مرتبا له . أنظر Vasiliev, op.cit. pp.455-8. ويبدو أن الحقيقة هي أنه في الوقت الذي تفوفرت فيه أسباب منفصلة لفيليب أوف سوابيا ، وبونيفاس ، وأهل فينيسيا للرغبة في مهاجمة القسطنطينية ، فإن مصادفة وصول ألكسيوس هي التي جعلت تحو الحملة الى القسطنطينية شيئا عمليا. ولم يكن لدى البابا مثل هذه النوايا ، وكان الصليبي الفرنسي العادي تتوفر لديه النية الأصلية للذهاب الى الأراضي المقدسة ولكنه سمح للظروف بأن تحيد به هنا وهناك . وعن موقف بونيفاس أنظر Gregoire, 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', *Byzantion*, vol.xv.. وعن مخطط فيليب او ف سوابيا المتعمّد أنظر Winkelmann, *Philipp* von Schwaben,i,pp. 296-525.

(١٦) Villehardouin, ii, pp. 18-34. وافق البابا على المعاهدة وإنما بلا حماس ، إذ من الواضح انه يرتاب في البنادقة (*Gesta Innocentii* III, *loc.cit.*col.131)

مصر . وكان العادل مدركا تماما لما تجلبه التجارة مع أوروبا من مميزات لبلاده ، وكان في أعقاب غزوه لمصر قد عرض امتيازات تجارية لها قيمتها على المدن الإيطالية . وفي نفس اللحظة التي كانت فيها حكومة البندقية تساوم الصليبيين حول نقل قواتهم ، كان سفراؤها في القاهرة يرتبون لعقد اتفاق تجاري مع والي السلطان الذي وقع معهم على معاهدة في ربيع ١٢٠٢م ، وذلك بعد أن حصل مبعوثو العادل إلى البندقية على تأكيدات حاكم البندقية (الدوج) أنه لن يوافق على أية حملة على مصر(١٧).

وليس يقينيا ما إذا كان الصليبيون قد فهموا دقائق دبلوماسية البندقية ، على أنه إذا كان أي منهم يرتاب في أنهم قد خدعوا ، فلم يكن هناك ما يمكن عمله ، إذ وضعتهم معاهدتهم مع البندقية في قبضتها تماما ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من جمع المبلغ الذى وعدوا به وهو ٨٥,٠٠٠ مارك . وفي يونية ١٢٠٢م تجمّع الجيش ؛ ولكن جمهورية البندقية امتنعت عن تقديم السفن لما وجدت أن المال ليس في طريقه إلى السداد. وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم قد عسكروا في جزيرة سان نيكولو دي ليدو الصغيرة ، يضايقهم تجار البنادقة الذين يطالبونهم بديون لم يدفعوها ويهددونهم بمنع المؤن عنهم تماما ما لم تظهر نقودهم أولا ، وبحلول سبتمبر لم يكن لديهم حيلة إلا أن يوافقوا على أية شروط قد تفرضها عليهم البندقية . وكان بونيفاس قد لحق بهم ذلك الصيف بعد زيارة للبابا في روما لم يصادفها النجاح ، ولذا كان مهيأ للتعاون مع البنادقة . وكانت قد مرتْ بضع عقود شهدت حروبا متقطعة بين جمهورية البندقية وملك هنجاريا من أجل السيطرة على دالماتيا ، وكانت مدينة زارا الهامة قد سقطت مؤخرا في أيدى الهنجاريين . وأُخطر الصليبيون الآن بإمكان البدء في الحملة وتأجيل دفع الدين إذا شاركوا في حملة مبدئية لإستعادة زارا ، وما أن سمع البابا بذلك العرض حتى أرسل من فوره لمنع قبوله . بيد أنه أيّا ما كانت مشاعرهم حيال ذلك العرض ، لم يكن بوسعهم إلا أن يلتزموا به(١٨).

ودُبّر الأمر بليل بين بونيفاس (أوف مونتفرات) ، الذى لم يرض عنه ضميره

---

(١٧) ينكر المؤرخون وجود معاهدة محددة رغم أن المؤرخ هوبف Hopf *Geschichte Griechenlands,i,p.118* يحدد تاريخها في ١٣ مايو ١٢٠٢م ، ولا يورد المؤرخ أية مصادر في الواقع . غير أن Ernoul, pp.345-6 يقول بكل التأكيد إن المفاوضات بين البندقية والسلطان كانت جارية آنذاك . وليس هناك ما يدعونا إلى افتراض أنه اخترع هذه القصة ، التي يفترض أنه استمدها من البنادقة في سوريا . وعن الحروب من الحملة الصليبية انظر Villehardouin, i. pp.52-4.

(١٨) Villehardouin, i, pp. 58-66; Robert of Clary, pp. 9-11.

المسيحي رضاء كاملا، ربين دوج البندقية إنريكو داندولو . وكان هذا الأخير قد بلغ من العمر أرذله ، لكن الشيخوخة البالغة لم تخمد طاقته أو طموحاته. فقبل نحو ثلاثين سنة كان في سفارة إلى القسطنطينية حيث تورط في شجار صاخب فقد على أثره بصره جزئيا . وزادت مرارته ضد البيزنطيين بعد إرتقائه الدوجية مباشرة في ١١٩٣م عندما صادفته بعض الصعوبات مع الامبراطور الكسيوس الثالث في تجديد شروط تجارية مجزية كان الامبراطور إسحق قد منحها للبندقية ؛ ولـذا كـان مهيأ لأن يتقاش مع بونيفاس مخططات حملة تستهدف القسطنطينية ، على أنه يتعين في الوقت ذاته المحافظة على مظهر الحملة الصليبية ؛ فما أن تمت الموافقة على مهاجمة زارا حتى أقيم حفل وقور في كنيسة القديس مارك حيث تباهى الدوج وكبار مستشاريه بأخذ الصليب(١٩) .

١٢٠٢م : نهب مدينة زارا

أبحر الأسطول من البندقية في الثامن من نوفمبر ١٢٠٢م ووصل أمام زارا بعد ذلك بيومين . وبعد هجوم شرس، استسلمت المدينة في الخامس عشر من الشهر وانتهبت عن آخرها . وبعد ثلاثة أيام بدأ القتال بين البنادقة والصليبيين عند تقسيم الأسلاب ، غير أنه أمكن تدبير السلام بين الفريقين . ثم إن الدوج وبونيفاس قررا أن الوقت متأخر هذا العام للقيام بمغامرة الإتجاه إلى الشرق . فبقيت الحملة في زارا لتمضية الشتاء، بينما خطط زعماؤها لعملياتهم المقبلة(٢٠) .

وعندما وصلت روما أنباء تخريب زارا ، أصيب البابا اينوسنت بالرعب ، فهو لا يحتمل أن تستخدم حملة صليبية في تحد صارخ لأوامره لمهاجمة أراضي أحد أبناء الكنيسة البررة فطرد الحملة الصليبية كلها من الكنيسة ، ثم إنه بعد أن تحقق من أن الصليبيين أنفسهم كانوا ضحية ابتزاز ، عفى عنهم وإنما أبقى على إعلان طرد البنادقة من الكنيسة(٢١) . ولم ينزعج داندولو ، فمن خلال بونيفاس كان فعلا على علاقة بفيليب (أوف سوابيا) وهو زميله في الطرد من الكنيسة . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠٣م

---

(١٩) Villehardouin, i, pp. 66-70; Robert of Clary, pp.10-12. وعن Dandolo أنظر Diehl, *Une République Patricienne, Venise*, pp. 47-8; Vasiliev, *op. cit.* pp. 452-3

(٢٠) Villehardouin, i, pp. 76-90; Robert of Clary, pp. 12-14.

(٢١) Innocent III, letters, v, 161, 162, vi, 99-102 (*M.P.L.*vol. ccxiv, cols.1178,1182; vol ccxv, cols. 103-10); Villehardouin, i,pp.104-8.

جاء رسول من ألمانيا إلى زارا ، من فيليب إلى بونيفاس بعرض محدد من زوج أخته ألكسيوس . إذا زحف الصليبيون على القسطنطينية ونصّبوا ألكسيوس على العرش الإمبراطورى هناك ، فإن ألكسيوس يضمن للصليبيين دفع المال الذى لا يزالون مدينين به للبنادقة ؛ وسوف يزودهم بالمال اللازم والمؤن لغزو مصر ، وسوف يضيف فرقة مؤلفة من ١٠,٠٠٠ رجل من الجيش البيزنطى ؛ وسوف يتكفل بتكاليف إعالة خمسمائة فارس ليبقوا في الأرض المقدسة ، وسوف يضمن خضوع كنيسة القسطنطينية لروما . فأحال بونيفاس الموضوع إلى داندولو الذي ثارت لديه مشاعر البهجة . إذ يعنى ذلك أن البندقية سوف تتسلم أموالها ، وفي ذات الوقت سوف تجعل اليونانيين أذلاء ، وسوف تتمكن من توسيع وتقوية رقعة مميزاتها التجارية في سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية . وأما الهجوم على مصر فيمكن بسهولة تدبره لما بعد(٢٢).

عندما طُرح الإقتراح على الصليبيين كان هناك قليل من المنشقين ، مثل رينالد (أوف مونتميريل) الذى أعرب عن شعوره بأنهم قد أخذوا الصليب لمحاربة المسلمين ، وليس هناك ما يبرر المزيد من التأخير ، فتركوا الجمع وأبحروا ميممين وجوههم شطر سوريا ؛ وبقى آخرون مع الجيش ، يفصحون عن اعتراضاتهم ؛ وكُممت أفواه آخرين مرة أخرى برشاوى البنادقة التى جاءت في وقتها المناسب . على أن الصليبى العادى قد لُقّن الإعتقاد الذي مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الخيانة ضد العالم المسيحي طوال الحروب المقدسة . فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن. وابهج الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا في سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين المنشقين إلى الحظيرة . أما الأكثر ولعاً بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون في ثراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب. وربما تطلع بعض البارونات ، وفيهم بونيفاس نفسه ، إلى نفس التوقعات ، وراحوا يوازنون حساباتهم التي تقول إن الضياع على شواطئ بحر إيجة أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يجدونها في أراضي سوريا القاحلة . وأسهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحى الشرقي ، فجعل من اليسير على داندولو وبونيفاس تطويع الرأي العام وشده لمناصرتهما(٢٣).

---

(٢٢) Villehardouin, i, pp. 90-100. وهو يتحدث عن مفاوضات مسبقة بين ألكسيوس والصليبيين في البندقية ص. ٧٠-٤.

(٢٣) Villehardouin, i. pp. 100-4; Robert of Clary, pp. 14-15. ويقول هيو (اوف سانت بول Hugh of Saint Pol, letter in *Chronica* Regia *Coloniensis*, p. 205)، إن كل الصليبيين تقريبا

لم تخف حدة القلق لدى البابا عندما سمع بالقرار الذي اتخذته الحملة الصليبية . إن المخطط الوليد الذى وحد رعاية البنادقة وأصدقاء فيليب (أوف سوابيا) لم يكن ليضيف رصيدا للكنيسة ، وفضلا عن ذلك قابل ألكسيوس الشاب وأفصح له عن رأيه فيه من أنه شاب تافه . لكن السيف كان قد سبق العذل ، فلا سبيل له لأن يعترض اعتراضا مؤثرا ؛ وإذا كان انحراف الحملة الصليبية سوف يضمن حقيقة معونة بيزنطية إيجابية ضد الكفرة ، ويحقق في ذات الوقت وحدة الكنائس ، فيكون للحملة الصليبية ما يبرر تصرفها . وأرضى نفسه بأن أصدر أمرا بعدم مهاجمة أي مسيحيين بعد ذلك إلا إذا كانوا يعرقلون الحرب المقدسة فعلا . وكان الأكثر حكمة للبابا ، على المدى البعيد ، أن يعرب صراحة وبلا هوادة عن معارضته ، ولو كان ذلك بلا طائل . أما اليونانيون ، المرتابون دوما في النوايا البابوية ، وغير المدركين لتعقدات السياسات الغربية، فقد بدا لهم أن فى فتور همته في إدانته للحملة الصليبية الدليل على أنه كان القوة المحركة وراء المكيدة برمتها(٢٤).

١٢٠٣م : الحملة الصليبية تبحر قاصدة القسطنطينية

وفي الخامس والعشرين من ابريل وصل ألكسيوس إلى زارا قادما من ألمانيا، وبعد أيام قليلة أبحرت الحملة وتوقفت بعض الوقت في دورازو، حيث قُبل ألكسيوس كامبراطور، ثم في كورفو حيث وقّع ألكسيوس بوقار معاهدة مع حلفائه . وتواصلت الرحلة في الخامس والعشرين من مايو . والتف الأسطول حول بيلوبونيس (شبه الجزيرة اليونانية) ثم انحرف شمالا إلى جزيرة أندروس حيث أعاد ملء صهاريج المياه من عيون المياه الوفيرة هناك. ومن أندروس يمم وجهه شطر الدردنيل الذي وجده بلا حماية .

كانوا يرغبون في الإنطلاق إلى فلسطين لكن التحريض كان اقوى منهم.

(٢٤) *Gesta Innocentii III, loc. cit.* cols. 130-2: Innocent III, letters, v, 122 (to the Emperor Alexius, M.P.L. vol. ccxiv, cols. 1123-5)؛ وخطاب الى رئيس أساقفة سالزبورج Ebrard ، الموجود في *Registrum de Negotio Romani Imperii*, lxx (M.P.L. vol.ccxvi, cols. 1075-7)، والذي يتحدث فيه إلى ضرورة التفكير في مثل تلك الأمور . وربما علم فيليب (اوف سوابيا) بمشروع مهاجمة زارا، إذ أرسل الكاردينال Peter of Capua ، يرافقه زعماء صليبيون لضمان موازرة البابا لألكسيوس في الوقت الذي يستحيل فيه وصول رد إذا كانت الحملة الصليبية ذاهبة مباشرة الى الشرق. أنظر .Bréhier, *Les Croisades*, p.155 ويعلن تاريخ نوفجورود The *Novgorod Chronicle* (ed. Lasonov, . 241) أن البابا آيد مخطط الهجوم على القسطنطينية ، بينما يرد ضمنا في *Chronica Regia Coloniensis*, p.200 أنه رفع قرار الطرد من الكنيسة من على الصليبيين لمهاجمتهم زارا عندما قرروا الزحف على القسطنطينية.

وكان حصاد تراقيا (شرق جزيرة البلقان) ناضجا ، ولذا حط الصليبيون رحالهم في مدينة أبيدوس القديمة في آسيا الصغرى ليجمعوا ما يستطيعونه . وفي الرابع والعشرين من يونية وصلوا أمام العاصمة الإمبراطورية(٢٥).

ولم يكن الامبراطور ألكسيوس الثالث قد أعد أية ترتيبات ضد وصولهم ، إذ لم يبرأ الجيش الإمبراطورى قط من كوارث السنوات السابقة على مانويل ، فكاد أن يكون كله من المرتزقة ؛ ومن الواضح أن الفرق الفرنجية لا يعوّل عليها في مثل تلك الظروف ؛ ولم تكن الثقة تتوفر في السلاف والبتشنج إلا بقدر ما تتوفر الأموال الجاهزة لدفع رواتبهم . وأما الحرس الفارنجي، الذي يتألف أساسا من الإنجليز والدانمركيين، فكان لديه إخلاص تقليدي لشخص الامبراطور ، غير أن الكسيوس الثالث لم يكن بالرجل الذي يلهم الولاء الشخصي الكبير ، فهو مغتصب حصل على العرش لا من خلال أية جدارة كجندي أو كرجل دولة، وإنما عن طريق مؤامرة تافهة في القصر ، وظهر بمظهر الحاكم الضعيف . ولم يكن واثقا لا من جيشه فحسب، وإنما من الشعور العام لرعاياه؛ فبدا الأسلم ألا يفعل شيئا إذ سبق للقسطنطينية أن قاومت عواصف كثيرة من قبل طوال تسعة قرون من تاريخها ، ولسوف تقاوم عاصفة أخرى بلا ريب.

وبعدّ أن هاجم الصليبيون بلا جدوى خلقدونية وكريسوبوليس على الشاطئ الآسيوي للبسفور، هبطوا إلى الأرض في غلاطيا ، أمام القرن الذهبي. واحتلوا المدينة وتمكنوا من كسر السلسلة المحيطة بمدخل القرن الذهبي وإحضار سفنهم إلى داخل المرفأ. وكان ألكسيوس الصغير قد أوهم الصليبيين بأن بيزنطة كلها سوف تنهض مرحبة به ، فأدهشهم أن يجدوا بوابات المدينة مغلقة في وجوههم والجنود يعتلون الأسوار . وصُدّت محاولاتهم الأولى في قصف أسوار المدينة من سفنهم بطول القرن الذهبي ، غير انه بعد كفاح شرس تمكن داندولو والبنادقة من إحداث ثغرة في السابع عشر من يولية . أما ألكسيوس الثالث، الذي أدهشه كشأن الصليبيين أن يجد مدينته فى موضع الدفاع، فكان يفكر فعلا في الفرار ؛ وقد قرأ في الكتاب المقدس كيف هرب داود أمام أبشالوم ولذا عاش ليستعيد عرشه . فاصطحب معه إبنته الأثيرة لديه وجوالا مليئا بالأحجار الكريمة ، وتسلل عبر الأسوار الأرضية ولجأ إلى موسينوبوليس في تراقيا . ووجد المسؤولون الحكوميون أنفسهم وقد تخلى عنهم الامبراطور ، فاتخذوا قرارا سريعا وإنما لا

(٢٥) Villehardouin, i, pp. 110-28; Robert of Clary, pp. 30-40; Anonymous of Halberstadt, in Riant, *Exuviae*, i,pp.14-15; *Devastatio Constantinopolitana* (ed. Hopf), pp. 88-9; Nicetas Choniates, p. 717.

يخلو من براعة . فأخرجوا الامبراطور السابق الأعمى إسحق من سجنه وأجلسوه على العرش وأعلنوا لداندولو والصليبين أنه طالما أعيد والد المطالب بالعرش فلا ضرورة هناك لمواصلة القتال . وكان ألكسيوس الصغير حتى آنذاك قد اختار تجاهل وجود أبيه، ولكنه لا يستطيع الآن أن يتنصل منه ، فحرض حلفاءه على وقف الهجوم . وبدلا من ذلك أرسلوا سفارة إلى المدينة تقول إنهم سوف يعترفون باسحق إذا رُفع ابنه ليكون امبراطورا مشاركا، وإذا تعهد الإثنان بإنفاذ المعاهدة التي وقعها الأخير . ووعد اسحق بتلبية مطالبهم وفي أول أغسطس، وفي احتفال وقور في كنيسة القديسة صوفيا ، وبحضور أبرز بارونات الصليبين ، توّج الكسيوس الرابع ليصبح رفيق أبيه[٢٦].

١٢٠٣م : ألكسيوس الصغير إمبراطورا

وسرعان ما وجد ألكسيوس الرابع أن الامبراطور لا يستطيع أن يكون غير مسئول كالمطالب بالعرش ذلك أن محاولته إجبار رجال الدين في المدينة على قبول سيادة روما وإدخال الأعراف اللاتينية، لقيت مقاومة عنيدة ؛ كما لم يكن من اليسير عليه جمع كل الأموال التي وعد بها . وبدأ عهده بداية طائشة بأن أغدق الهدايا الثمينة على الصليبين فتحركت من ثم نوازع جشعهم . بيد أنه عندما حان موعد تسليم البنادقة الأموال المستحقة لهم ، اتضح أن الخزانة لم يكن فيها الكفاية ، ولذا أعلن الكسيوس عن ضرائب جديدة ، وزاد من غضب الكنيسة ما أقدم عليه من مصادرة قدر كبير من المشغولات الذهبية الكنسية لصهرها للبنادقة. وطوال خريف وشتاء عام ١٢٠٣م زاد التوتر في المدينة زيادة مطردة ، وأسخط المواطنين رؤية فرسان الفرنج المتغطرسين وهم يتجولون خلال الشوارع . وقد ركدت التجارة . ودأبت مجموعات من سكارى الجنود الغربيين على نهب القرى في الضواحي ، بحيث لم تعد الحياة آمنة خارج أسوار المدينة . وفي محاولة لإظهار الورع، أحرقت جماعة من الفرنسيين مسجدا كان قد بُنى للزائرين من تجار المسلمين ، فانتقلت النيران وأتت تماما على حي من أحياء المدينة بصورة فاجعة. وكان الصليبيون من جانبهم ساخطين كالبيزنطيين بنفس القدر ؛ وتيقنوا من أن الحكومة البيزنطية غير قادرة مطلقا على تنفيذ الوعود التى وعد بها ألكسيوس الرابع،

---

(٢٦) Nicetas Choniates, pp. 718-26 حيث يرد وصفا كاملا من وجهة النظر اليونانية؛ Villehardouin, i, pp. 154-84 الوصف الصليبي الأكثر اكتمالا؛ Robert of Clary, pp. 41-51; Anonymous of Halberstadt, pp. 15-16; *Devastatio Constantinopolitana*, pp. 89-90, letter of Saint Pol in *Chronica Regia* Coloniensis, pp.203-8.

فلا الرحال ولا الأموال التى عرض دفعها تلوح في الأفق . وسرعان ما كفّ ألكسيوس نفسه عن المهمة اليائسة فى محاولة إرضاء ضيوفه . ودعاهم الي حفل فى احدى المناسبات في القصر ، وبمساعدتهم خرج في حملة عسكرية خفيفة ضد عمه ألكسيوس الثالث في تراقيا ، وما أن انتصر في مناوشة صغيرة حتى عاد إلى القصر ليحتفل بانتصاره؛ وكان يقضى باقى أيامه ولياليه غارقا في متعه الخاصة . أما أبوه اسحق ، الذي فقد بصره بحيث لم يستطع المشاركة في الحكم، فقد أغلق على نفسه كل الأبواب مع منجميه الأثيرين لديه ولم يكن في نبوءاتهم أية تأكيدات حول المستقبل . وكان لابد من أن يحدث صدع واضح؛ وبذل داندولو ما في وسعه ليزيد من حدته بأن تقدم بطلبات غير معقولة(٢٧).

ولم يكن في القسطنطينية سوى رجلين اثنين بدا أنهما قادران على تولي الحكم ، وهما زوجا إبنتى الامبراطور السابق ألكسيوس الثالث . وكان زوج أنّا ، ثيودور لاسكاريس ، جنديا بارزا نظّم الدفاع الأول ضد اللاتينيين ، غير انه تقاعد بعد هرب حميه . أما زوج إيودوشيا ، ألكسيوس مورزوفلوس ، على غير شاكلة الأول ، سعى إلى نيل حظوة ألكسيوس الرابع ومُنح لقب بروتوفستياريوس ؛ والآن جعل من نفسه زعيم الوطنيين . وربما أراد أن يدخل الرهبة في قلب ألكسيوس الرابع ، فدبر بعض أعمال الشغب في يناير ١٢٠٤م، غير أن نتيجتها الوحيدة الملموسة كانت تدمير تمثال أثينا العظيم ، وهو من أعمال فيدياس(٢٨)، وكان قائما في الساحة المواجهة للغرب ؛ فحطمته جماعة من الغوغاء السكارى إلى شظايا ، لأن الإلهة بدت وهى تشير إلى الغزاة(٢٩).

١٢٠٤م : ثورة في القصر

وفي شهر فبراير جاء وفد من الصليبيين إلى قصر بلاشيرنا يطلب من ألكسيوس

---

(٢٧) -Nicetas Choniates, pp. 736-8; Villehardouin, i, pp. 186-206; Robert of Clary, pp. 57-8; *Devastatio Constantinopolitana*, pp. 90-1.

(٢٨) (المترجم) - المثّال الشهير Phidias ، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ويُنسب إليه بناء معبد أثينا الدائرى على الأكروبوليس

(٢٩) Nicetas Choniates, pp. 738-47; Villehardouin, ii, pp. 6-23; Robert of Clary, p. 57; *Devastatio Constantinopolitana*, p. 91 .

الرابع الوفاء بوعوده مورا ، ولم يكن يملك إلا أن يعترف بعجزه ، وكادت الجماهير الغاضبة أن تمزق المندوبين إربا إربا أثناء خروجهم من قاعة المقابلات الإمبراطورية ؛ ثم اندفعت الجماهير إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث أعلنوا خلع ألكسيوس وانتخبوا مكانه نبيلا مغمورا يدعى نيكولاس كانابوس تصادف وجوده وحاول رفض هذا الشرف . وبعد ذلك قام مورزوفليس بغزو القصر ، ولم يحاول أحد الدفاع عن ألكسيوس الرابع الذي ألقى به في زنزانة السجن حيث شُنق دون أن يبكيه أحد قط ، إذ لم يكن يستحق البكاء عليه. وبعد أيام قليلة مات أبوه اسحق من الأسى ومما لقيه من سوء المعاملة. وسُجن كانابوس المغمور؛ واعتلى مورزوفلوس العرش على أنه ألكسيوس الخامس(٣٠).

كانت ثورة القصر تحديا مباشرا للصليبيين . وطالما كان البنادقة يحرضونهم على أن السبيل العملي الوحيد هو الإستيلاء على القسطنطينية بالقوة وتنصيب أحد الغربيين امبراطورا، والآن بدا لنصيحتهم ما يبررها ؛ غير أنه لم يكن من اليسير اختيار امبراطور . وتواصلت المناقشات طوال شهر مارس في معسكر في غلاطيا ، وكان البعض يمارس الضغوط لإنتخاب فيليب (أوف سوابيا) لكي يوحد الإمبراطوريتين ، لكن فيليب كان بعيدا ، وقد حُكم عليه بالحرمان الكنيسي ، ولم يكن البنادقة يفضلون فكرة وجود امبراطورية واحدة قوية . وكان بونيفاس (أوف مونتفرات) المرشح البارز غير أنه على الرغم مما عدده داندولو من آيات الإعجاب به ، فقد رفضه البنادقة ؛ إذ لمسو فيه تطلعات مفرطة، فضلا عن العلاقات التي تربطه بأبناء جنوا. وتقرر في نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لإختيار الامبراطور بعد الإستيلاء على المدينة مباشرة . وإذا كان الامبراطور الذي سيقع عليه الإختيار فرنجيا - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريق . وينبغي أن يكون للإمبراطور القصر الامبراطوري الفخيم وقصر الإقامة بلاشيرنا، وربع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نصفها للبنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبيين يقتسمونها إلى اقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا الدوج . وهكذا يكون كل شيئ قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن تواصل الحملة مسيرتها في وقت

---

(٣٠) Nicetas Choniates, pp.738-47; Villehardouin, ii, pp.6-23; Robert of Clary, pp.58-9; *Devastitio Constantinopolitana*, p.92.

ما لمحاربة الكفرة ، فقد تخلوا عنه صراحة[٣١].

وكان الكسيوس الخامس حاكما ذا بأس ، لكنه لم يكن يحظى بشعبية تذكر . فأقدم على طرد أي وزير يظن أنه غير موال له، ومنهم المؤرخ نيستاس خونياتيس Nicetas Choniates الذي انتقم منه في تأريخه له . وبُذلت بعض المحاولات لترميم الأسوار وتنظيم الناس للدفاع عن المدينة ، على أن معنويات حرس المدينة قد تدنت لكثرة الثورات ، ولم يكن هناك سبيل قط لإستجلاب الجنود من المقاطعات ؛ كما كان هناك خونة داخل المدينة اشتراهم البنادقة. وصُدّ أول هجوم شنه الصليبيون في السادس من ابريل بخسائر جسيمة . وبعد ستة أيام عاود الصليبيون هجومهم ؛ ونشب قتال يائس في القرن الذهبي حاولت فيه السفن اليونانية بلا جدوى منع الأسطول البندقي من إنزال الجنود أسفل الأسوار . وكان الهجوم الرئيسي منصبا على حي بلاشيرنا حيث كانت الأسوار ممتدة حتى القرن الذهبي ، وهناك فتحت ثغرة في السور الخارجي بينما كان المدافعون في السور الداخلي صامدين، وفجأة شبت النيران - إما مصادفة أو خيانة - في المدينة من ورائهم وحاصرتهم ، فانهار دفاعهم وتدفق الفرنج والبنادقة إلى داخل المدينة . وهرب مورزوفلوس مع زوجته بامتداد الأسوار حتى البوابة الذهبية القريبة من بحر مرمرة ، ثم خارجا في تراقيا ، لائذا بحميه في موسينوبوليس . وبعد تسرب أنباء فراره ،اجتمع من بقي من النبلاء في كنيسة القديسة صوفيا لمنح التاج لثيودور لاسكاريس ؛ على أن السيف كان قد سبق العذل لإنقاذ المدينة ، فرفض ثيودور حواء هذا الشرف ، وخرج مع البطريق واتجه إلى العمود الذهبي في الميدان الذي بين الكنيسة والقصر الكبير وخاطب الحرس الفارنجي في حرارة قائلا إنهم لن يكسبوا شيئا الآن باستسلامهم لأسياد جدد. لكن معنوياتهم كانت قد كُسرت، ولن يحاربوا أكثر من ذلك ؛ ولذا تسلل ثيودور مع زوجته والبطريق والكثير من النبلاء إلى مرفأ القصر وهربوا في سفينة إلى آسيا[٣٢].

وشق الغزاة طريقهم إلى داخل المدينة ، وحدث قتال قليل ؛ وبحلول الصباح التالي كان الدوج وأبرز الصليبيين قد استقروا في القصر الكبير، وأمروا جنودهم بتمضية الأيام

---

(٣١) Villehardouin, ii,pp.34-6 [illegible]bert of Clary, p. 68; Andrea Dandolo, *Chronicle* (ed. Pastorello),p.279.

(٣٢) -Nicetas Choniates, pp. 74[illegible]6; Villehardouin, ii, pp. 32-50; Robert of Clary, pp. 60 79; Gunther, pp. 91-4, 100-4; letter of Baldwin, R.H.F. vol.xviii, p. 522; *Devastatio Constantinopolitana,* p.92; Ernoul, pp.369-73; *Novgorod Chronicle*, pp. 242-5.

الثلاثة التالية في نهب المديه.

١٢٠٤م : نهب القسطنطينية

انتهبت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها في التاريخ . ولتسعة قرون خلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التي بقيت من اليونان القديمة، والطُرف المشوقة التى أبدعتها أيدى أبنائها المهرة ؛ وكان البنادقة يعرفون حقا قيمة تلك الأشياء ، إذ أينما وجدوا كنوزا كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزيين ميادين مدينتهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيك كانوا قد أُشربوا في قلوبهم شهوة التخريب فكانوا يندفعون متجمهرين في جماعات تعوى في وحشية في الشوارع وفي البيوت ، ينتزعون أي شيئ يبرق أمامهم ويدمرون كل مالا يستطيعون حمله ، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتحطيم بوابات أقبية النبيذ لينتعشوا ، فلم يخلص من تخريبهم لا دير أو كنيسة أو مكتبة. وفي كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة الفضية العظيمة ويحطمونها قطعا قطعا ، بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات. وبينما كانوا يشربون الخمر في أواني المذبح جلست إحدى العاهرات على عرش البطريق وراحت تغنى أغنية فرنسية بذيئة . وهُتكت أعراض الراهبات في صوامع أديرتهن ، واقتحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها . وكانت النساء الجريحات ملقيات مع الأطفال يحتضرن في الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفزعة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استحالت المدينة الضخمة الجميلة إلى وضم كبير، بحيث صرخ المؤرخ نيستاس قائلا: لو أنهم العرب لكانوا أرحم، وكان على حق[٣٣].

---

(٣٣) Nicetas Choniates, pp. 757-63; Nicolas Mesarites, in Heisenberg, *Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertums*, i, pp.41-8; letter of Greek clergy in Cotererius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, iii, pp. 510-14; Innocent III letters, viii, 126 (M.P.L.vol.ccxv, cols. 699-702)، وقد كتبت للبابا إينوسينت الثالث تقارير تفصيلية لم تترك شيئا عن الفظائع ؛ Villehardouin, ii, pp. 52-8; Robert of Clary, pp. 68-9, 80-1; Gunther, pp. 104-8; letter of Baldwin, loc. cit; Ernoul, pp. 374-6; *Novgorod Chronicle*, pp. 245-6.. وقد أصيب المؤرخون اللاتينيون من ضراوة السلب أكثر من صدمتهم من قسوة الصليبيين. ويعترف Gunther قائلا حتى Martin of Pairis المشهود له بالجدارة كان مصمما على أن يأخذ نصيبه من الأسلاب، رغم أنه انتهب الكنائس فقط بوازع من الورع . ويلقى Ernoul باللائمة على البنادقة لأنهم كانوا الأكثر جشعا في النهب . ويقول أبو شامة Abu Shama

وفي نهاية الأمر تحقق زعماء اللاتينيين أن كثرة التخريب هذه ليست في صالح أحد ، وبعدما استنفد الفحش طاقة الجنود، عاد النظام ؛ وأجبر كل من سرق شيئا ثمينا على تسليمه إلى نبلاء الفرنج ، وعُذب المواطنون التعساء لكي يكشفوا عمّا تحايلوا على اخفائه من أشياء . وحتى بعد اختفاء الكثير من الأسلاب على هذا النحو الشائن ، كانت كميات الأسلاب تثير الذهول. وقد كتب المؤرخ Villehardouin أنه لم يكن بمقدور أحد أن يحصى الذهب والفضة والمشغولات ومجوهراتا ، وضروب النسيج الفاخر وأنواع الحرير وأردية الفراء وفراء السنجاب والأقمشة الرمادية المتلألئة وفراء حيوان القاقوم ؛ وأضاف من مصادره العليمة هو نفسه أنه منذ أن خُلق العالم لم يحدث أن أُخذت هذه المقادير الضخمة من مدينة ما . وقُسّمت كلها طبقا للمعاهدة، فذهب ثلاثة أثمان إلى الصليبيين ، وثلاثة أثمان إلى البنادقة ، واستُبقي الربع الباقى لإمبراطور المستقبل(٣٤).

١٢٠٤ م : تتويج بلدوين كونت فلاندرز إمبراطورا

كانت المهمة التالية هي اختيار امبراطور . وكان الأمل لا يزال يداعب بونيفاس (أوف مونتفرات) في أن يختاروه، ولكي يرفع من مكانته أنقذ الإمبراطورة الأرملة مرجريت الهنجارية أرملة إسحق وتزوجها فجأة ، لكن البنادقة لم يكونوا لينالوا من ورائة شيئا ؛ وبنفوذهم مُنح العرش لأمير أقل إثارة للجدل وهو بلدوين التاسع كونت فلاندرز وهاينولت ، وهو رجل كريم النسب عظيم الثروة ، لكنه أضعف وأسهل انقيادا ، وكان اللقب الذى ينتظره أضخم مما سيكون له من سلطان فعلى. وتقرر أن يكون سيدا أعلا لجميع الأراضى التى غُزيت ، مع الإستثناء الذىيتقرر للأراضى المخصصة لدوج البندقية . وتقرر أن تضم أملاكه الخاصة ترافيا حتى كورلو ، وبيثينيا ومبسنيا حتى جبل الأوليمب وبعض جزر بحر إيجة ، ساموتراتيا و ليسبوس وكيوس وساموس وكوس . غير أنه كان من المقرر ألا يمتلك عاصمه ملكه كلها ؛ إذ طالب البنادقة بحقهم في ثلاثة أثمان القسطنطينية ، وأخذ الجزء الذي يضم كنيسة القديسة صوفيا حيث نصّبوا أحد البنادقة ، توماس موروسيني ، بطريقا. وفضلا عن ذلك ، طالبوا بأجزاء من الأمبراطورية من شأنها أن تساعد تفوقهم البحرى ، وهي السواحل

(ii,p.154)إنهم باعوا الكثير من أسلابهم للمسلمين.

(٣٤) Villehardouin, ii, pp. 59-60; Robert of Clary, pp. 80-1 .

الغربية للجزء القاري من اليونان ، وبيلوبونيز كلها ، وناكسوس وأندروس وإيوبويا وغاليبولي وموانى تراقيا على بحر مرمرة ، وأدريانوبل. وأعطوا بونيفاس ، كتعويض عن العرش ، أملاكا غير محددة في الأناضول وشرق ووسط اليونان القارية وجزيرة كريت ؛ ولكي لا يُقدم على السير لغزو أراض في آسيا طلب بدلا من ذلك ماسيدونيا مع ثيسالونيكا . واعترض بلدوين ، غير أن الرأي العام آزره في طلبه وخاصة عندما طرح حقا وراثيا منبثقا من أخيه رينير الذي كان قد تزوج ماريا المولودة بعد تولي أبيها العرش ؛ وكسب البنادقة إلى صفه بأن باع لهم كريت ، وأصبح ملك ثيسالونيكا تحت سيادة الامبراطور . وخصص للنبلاء الأقل شأنا اقطاعيات تتناسب مع مكانة كل منهم وأهميته(٣٥).

وفي السادس عشر من مايو ١٢٠٤م أقيم حفل تتويج بلدوين في كنيسة القديسة صوفيا ، وفي أول أكتوبر، وبعد أن أفشل محاولة من بونيفاس للإستقلال، عقد مجلسا للبلاط في القسطنطينية حيث خلع على حوالى ستمائة من أتباعه اقطاعياتهم ولورديـاتهم؛ وفي تلك الأثناء صدر دستور يرتكز جزئيا على نظريات القانونيين الإقطاعيين وجزئيا على ما كان يُظن أنه متبع فى مملكة القدس . وكان هناك مجلس يتألف من كبار ملاك الأرض يساعدهم الحاكم البندقي للقسطنطينية المطلق الصلاحية (بودستا) ؛ وكان هذا المجلس يقدم النصح للإمبراطور حول المسائل السياسية ، ويوجّه العمليات العسكرية ، ومن سلطاته نقض الأوامر الإدارية الصادرة عن الامبراطور . وكانت هناك محكمة عليا، مشكلة بصورة مثيلة ، تنظم علاقاته بأتباعه . وأصبح أكثر قليلا من رئيس مجلس الأعيان . وقليلة هي الدساتير غير العملية كتلك الواردة في القوانين الرومانية(٣٦).

١٢٠٤ - ١٢٦١م :الإمبراطورية اللاتينية

لم يكن لرومانيا - وهو الإسم الذي أطلقه اللاتين على امبراطوريتهم - من حقيقة

---

(٣٥) عن مناقشة تتصل بتقسيم الإمبراطورية أنظر Longnon, *L'Empire Latin de Constantinople*, pp.49-64. ترد معاهدة التقسيم في Tafel and Thomas, *Urkunden*, i, pp. 464-8 .

(٣٦) Villehardouin, ii, pp. 66-8; Robert of Clary, p. 93. أنظر *Assises of Romania* (ed. Recoura), *passim*..

واقعية سوى ما يزيد قليلا على سلطة امبراطورها ؛ فالكثير من مقاطعاتها كان لا يزال في أيدى أعدائها ، ولا سبيل لغزوها قط. وأما البنادقة الذين يعيشون الواقع ، فلم يأخذوا سوى ما كانوا يعرفون أنه سوف يصمد ، جزيرة كريت وموانى مودون وكروتون في شبه جزيرة البيلوبونيز وكورفو إلى حين . ونصّبوا في الجزر التابعة لهم في بحر إيجة أتباعا من اللوردات المنحدرين من أصل بندقي ، أما في سيفالونيا وإيوبويا فأعربوا عن ترحيبهم بالولاء الذي أعلنه أمراء اللاتين الذين نصبوا أنفسهم قبلهم . وسرعان ما اكتسح بونيفاس (أوف منتفرات) أغلب اليونان القارية ونصّب أتباعا له هناك ، وأصبح أوتو (أوف لا روش) البرجندي دوقا لأثينا وطيبة . وخضعت بيلوبونيز لاثنين من اللوردات الفرنسيين هما وليم (أوف شامبليت) وجيوفري (أوف فيلهاردوين) ، وهو إبن أخى المؤرخ ، الذي أسس أسرة حاكمة من أمراء أخايا[٣٧].

وهكذا ، أصبحت كل المقاطعات الأوروبية تقريبا في الإمبراطورية في قبضة اللاتين. غير أن اللاتين كانوا مخطئين في اعتقادهم أن الاستيلاء على القسطنطينية سوف يعطيهم الإمبراطورية كلها ؛ ففي أوقات الكوارث كانت الروح اليونانية تُظهر نفسها في أعلا درجات الشجاعة والحيوية . وفي أول الأمر أدى ضياع العاصمة الإمبراطورية إلى الفوضى ، غير أنه في غضون سنتين أعاد العالم اليوناني المستقل تنظيم نفسه في ثلاث دول وراثية؛ فبعيدا في الشرق، احتل حفيدان للإمبراطور أندرونيكوس ، هما الكسيوس وداود كومنينوس ، طرابزون وأقاما سلطانهما بطول شواطئ البحر الأسود المطلة على آسيا الصغرى ، وقد أفلحا في ذلك بمساعدة عمتهما الملكة العظيمة تمارا ملكة جورجيا (الكرج). وفي ١٢٠٦م قتل داود في قتال أراد به توسيع سلطانهما باتجاه البوسفور ، وعاش الكسيوس ليتخذ لقب امبراطور وليؤسس أسرة حاكمة استمرت لمدة قرنين ونصف ، ازدهرت من التجارة الآتية من فارس والشرق لتمر خلال عاصمتها ، ومن مناجم الفضة في التلال الواقعة إلى الخلف ، كما كانت لها شهرة جمال أميراتها . وبعيدا في الغرب تمكن أحد ابناء السّفاح من اسرة انجيلوس من أن يصبح طاغية في إبيروس وأسس أسرة حاكمة كان لها أن تجتث شأفة مملكة مونتفرات في ثيسالونيكا . وأكثر الممالك الثلاث روعة هي الإمبراطورية التي أسستها في نيقية إبنة الكسيوس الثالث ، أنّا وزوجها ثيودور لاسكاريس ؛ إذ التف حولهما أبرز المواطنين الذين هربوا من القسطنطينية ، وتخلى البطريق اليوناني جون كماتيروس ، الذي سبق أن هرب إلى

(٣٧) Longnon, loc. cit.; Hopf, *Geschichte Griechenlands*, ii, p. 10.

ترافيا ، عن منصبه لكي يتمكن رجال الدين المنفيون من العاصمة الإمبراطورية القديمة من انتخاب قسيس موجود فعلا في نيقية ، وهو ميخائيل أوتورينوس ، الذي قام بناء على ذلك بتتويج ثيودور وآنا . وهكذا أصبحت نيقية في أعين اليونانيين العاصمة الشرعية للإمبراطورية . وسرعان ما وسّع ثيودور حكمه ليشمل أغلب الأراضي المتروكة لبيزنطة في آسيا . وخلال أكثر قليلا من خمسين عاما كان خلفاؤه قد عادوا لحكم القسطنطينية[٣٨].

كما نسي اللاتين السلالات العنصرية الأخرى في البلقان ؛ إذ كانت امبراطورية الإخوة آسن الفلاخية-البلغارية[٣٩] لتصبح طواعية حليفا لهم ضد اليونانيين المكروهين ؛ غير أن الامبراطور كان يطالب بالأراضي التي سبق أن احتلها القيصر كالويان ، وكان البطريق اللاتيني يطالب بالسطلة على الكنيسة الأرثوذكسية البلغارية؛ فانساقت بلغاريا إلى تحالف غير طبيعي مع اليونانيين ؛ وفي معركة أدرنة في عام ١٢٠٥م كاد جيش رومانيا أن يهلك ، وأسر الامبراطور بلدوين وأودع السجن في قلعة بلغارية ليقضي فيه نحبه . وبدا للحظة أن الامبراطور التالي حكم فى القسطنطينية سيكون القيصر البلغارى، غير أن الشرق اللاتيني أخرج من جعبته حاكمة العظيم الأوحد، في شخص هنرى أخى بلدوين. ذلك أن ما أبداه خلال عهده الذي دام عشر سنوات من طاقة نشطة وحكمة متسامحة أنقذ الإمبراطورية اللاتينية من هلاك عاجل ، وساعد على بقائها حتى عام ١٢٦١م ما ساد عواهل اليونانيين من خصومه ومشاجرات مع بعضهم البعض ومع البلغار، ووجود الأتراك في الخلفية[٤٠].

ولم يستطع غزاة عام ١٢٠٤م المبتهجون التنبؤ بخواء ما يترتب على مشروعهم، وقد انبهر معاصروهم بذلك الغزو. وفي بادئ الأمر كانت البهجة تعم العالم اللاتيني كله . ومن الحق أن يتساءل شاعر الهجاء الكلوني جيوت (دي بروفانس)[٤١] في

---

(٣٨) Vasiliev, 'Foundation of the Empire of Trebizond', *Speculum*, vol. xi, pp.3-37; Ostrogorsky, *Geschichte des Byzantinischen Staates*, 2nd ed., pp. 337-46.

(٣٩) (المترجم): شعب فلاخ Vlach. أحد الشعوب الأوربية التي تمثل العنصر الرئيسي لشعوب رومانيا وملدوفيا وجماعات أصغر في البلقان جنوب وغرب نهر الدانوب . وقد أطلق عليهم جيرانهم اسم فولوخ Volokh ، الذي صار الى فلاخ ، رغم تسميتهم أنفسهم رومانيين

(٤٠) Longnon, op.cit. *passim*, esp. pp. 77-186; Ostrogorsky, op.cit. pp. 337-59; Zlatarsky, *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), III, pp. 211-47.

(٤١) (المترجم): كلوني Cluniac ، نسبة الى نظام رهبان كلوني المنشق على النظام البنيديكتي في القرن الحادي عشر

أشعاره لماذا سمح البابا بحملة صليبية موجّهة ضد مسيحيين، وأما الشاعر الغنائي البروفانس غيوم فيجويرا فقد اتهم روما اتهاما مريرا بخيانة اليونانيين خيانة غادرة. غير أنه في الوقت الذى كان يكتب فيه كانت روما تبشّر بحملة صليبية ضد رفاقه المواطنين(٤٢). وكانت هذه الحالات من الخلاف في الرأي نادرة . وكان البابا إينوسنت مبتهجا بادئ الأمر برغم كل ما شعر به من هواجس حول انحراف الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، ؛ ففى رد إينوسنت على رسالة تفيض بهجة غامرة من الامبراطور الجديد بلدوين تتباهى بنتائج المعجزة العظيمة القيّمة لصنع الرب ، كتب إينوسنت معربا عن ابتهاجه بالرب ، ومنحه موافقته دون تحفظ(٤٣). وانتشرت في سائر أنحاء الغرب أناشيد الشكر والتمجيد ، وفار الحماس عندما بدأت الآثار الثمينة تفد على كنائس فرنسا وبلجيكا ؛ وانطلقت الترانيم احتفالا بسقوط المدينة العظيمة الدنسة Constantinopolitana Civitas diu profana، التي تتفيّأ الآن كنوزها . ولقي لاتينيو الشرق تشجيعا بهذه الأنباء(٤٤)، فيقينا سوف تصبح استراتيجية الحملات الصليبية كلها فعّالة على نحو أكبر بعدما باتت القسطنطينية في أيدى أبناء جلدتهم . وانتشرت الشائعات بأن المسلمين قد أصيبوا بالرعب ؛ وهنّأ البابا نفسه على ما أعرب عنه سلطان مصر من الشعور بالتوجس كما قيل(٤٥).

١٢٠٤م : إينوسنت يدين الحملة الصليبية

كانت معاودة التفكير أقل تشجيعا ، وعادت إلى البابا هواجسه . ذلك أن اندماج الإمبراطورية الشرقية وكنيستها في دنيا العالم المسيحي الروماني كان انجازا رائعا؛ ولكن، هل تم ذلك على النحو الذي يجلب النفع المستديم؟ لقد تلقى المزيد من المعلومات ، وشعر بالرعب عندما علم بمشاهد التجديف والتعطش للدماء عند نهب

---

(٤٢) Guyot de Provins, *OEuvres* (ed. Orr), p. 34; Guillem Figuera, 'Dun Servientes Far' in de Bartholomaeis, *Poesie Provenziale Storiche*, ii, pp. 98-9. أنظر: ثروب نقد الحملة الصليبية Throop, *Criticism of the Crusade*, pp. 30-1.

(٤٣) Innocent III, letters, vii, 153, 154, 203, 208 (M.P.L.vol. ccxv, col. 454-61, 512-16, 521-3).

(٤٤) ترانيم واردة في Riant, *Exuviae*, ii, pp. 43-50 ؛ وخاصة *Sequientia Andegavensis*.

(٤٥) Innocent III, letters, viii, 125 (M.P.L. vol. ccxv, col. 698). ويعلق ابن الأثير Ibn al-Athir, iii, p. 95 بأن غزو القسطنطينية ساعد الصليبين على الوصول الى سوريا بصورة أيسر

المدينة . لقد أصيب بصدمة عميقة كمسيحي ، وشعر بالقلق كرجل سياسة . إن مثل هذه الوحشية البربرية ليست هي السياسة الفضلى للفوز بتعاطف العالم المسيحي الشرقي ؛ فكتب في حنق مرير إلى القسطنطينية يعدد الفظائع وينكرها ؛ كما علم أن الغزاة قد قسّموا الدولة في خفة وكذلك الكنيسة هناك دون أية إشارة لسلطته ؛ لقد كان هناك تعمّد في تجاهله ، وهو يدرك مدى عجز الترتيبات التي تمت للإمبراطورية الجديدة ، وكيف أن البنادقة فاقوا الصليبيين حيلة ودهاءً. ثم إنه سمع بكل الغثيان أن مندوبه الرسولي بطرس (أوف سانت مارسيل) قد أصدر مرسوما يحل كل من أخذ الصليب من واجب مواصلة الرحلة إلى الأراضي المقدسة . لقد سقط القناع عن الحملة الصليبية لتظهر بمظهر الحملة التي لا تبغي سوى غزو الأراضي المسيحية ، ولم تفعل شيئا لمساعدة الجنود المسيحيين الذين يحاربون الإسلام[٤٦].

وتحقق فرنج سوريا فعلا من تلاشي الأمل في وصول أية حملة في عام ١٢٠٤م . وانقضى الصيف والصليبيون قاعدون في القسطنطينية ؛ وفي سبتمبر عقد الملك أماريك هدنة مع العادل بعدما أدرك عدم وصول تعزيزات[٤٧]. غير أنه سرعان ما اتضح أن المنشآت اللاتينية الواقعة أبعد إلى الشمال سوف تلحق أضرارا جسيمة بالمنشآت في سوريا ؛ إذ أن الامبراطور بلدوين أرسل إلى البابا إينوسنت متباهيا بأن الكثير من فرسان مملكة ما وراء البحار قد حضروا تتويجه ، وأنه قد بذل ما في وسعه لحثهم على البقاء معه . وبعد أن اتضح وجود اقطاعيات غنية تبعث على البهجة على شواطئ البوسفور أو في اليونان ، سارع الفرسان الآخرون الذين استولى المسلمون على أراضيهم في سوريا إلى القسطنطينية للإنضمام الي رفاقهم . وكان من بينهم هيو كونت طبرية ، وهو أكبر أبناء زوجة ريموند كونت طرابلس، وزوج مرجريت (أوف ايبلين)، إبنة ماريا كومنينا . ووجد المغامرون من فرسان الغرب عدم جدوى الذهاب بعيدا إلى مملكة القدس ذات الزحام الشديد للبحث عن لوردية أو عن إحدى الوريثات ؛ فهناك أراض أفضل في اليونان . وكان غزو قبرص قد سبق وأغوى مستوطنين من الأراضي السورية. وبعد غزو رومانيا لم يكن هناك تقريبا من مجندين سوى المجندين من فرسان الأنظمة الدينية العسكرية الذين خرجوا من أوروبا للدفاع عن الأرض المقدسة[٤٨].

---

(٤٦) Innocent III, letters, viii, 126 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 699-0702).

(٤٧) أنظر أعلاه صفحة ١٤٢.

(٤٨) Villehardouin, ii, p. 124.

١٢٠٤م : النتائج المترتبة على الحملة الصليبية

ليست هناك قط جريمة ضد الإنسانية أعظم من الحملة الصليبية الرابعة . فهي لم تقف عند تدمير أو تبديد كل كنوز الماضى التى دأبت بيزنطة على جمعها، و لم تقف عند الجراحات التى قتلت حضارة بقيت نشطة وعظيمة ، وإنما تجاوزت ذلك إلى أن أمست عملا من أعمال الحماقة السياسية الهائلة، و لم تجلب أية مساعدة للمسيحيين في فلسطين ؛ وبدلا من ذلك ، استلبتهم معينين كانوا قادرين على مساعدتهم، وقلبت رأسا على عقب كل سبل الدفاع عن العالم المسيحى . ولو أن اللاتين كانوا قادرين على تولى أمر الإمبراطورية البيزنطية كلها كما كانت عليه في أيام مانويل ، لتمكنوا من توفير عون قوى للحركة الصليبية على الرغم من أن اتجاه بيزنطة لمصلحة سوريا اللاتينية لم يكن ليزدهر طويلا . على أن بيزنطة قد خسرت أراض في الأناضول منذ وفاة مانويل؛ و لم يستطع اللاتين غزو ما تبقى ، بينما كان هجومهم على اليونانيين بمثابة قوة إضافية للأتراك . وأصبح الطريق البري بين أوروبا وسوريا أكثر صعوبة نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، مع ريبة اليونانيين في نيقية ، وعداوة الأتراك للمسافرين . و لم تحاول قط أية جماعة مسلحة من الغرب الترحال عبر الأناضول مرة أخرى ؛ كما لم يصبح الطريق البحرى أيسر ، إذ كانت السفن اللاتينية الآن تفضّل نقل المسافرين إلى الجزر اليونانية والبوسفور وليس إلى عكا والموانى السورية.

وفي الحركة الشاملة لتاريخ العالم ، كانت الآثار مفجعة للغاية؛ فمنذ أن بدأت بيزنطة امبراطوريتها وهي بمثابة الحارس لأوروبا ضد الشرق الكافر والشمال البربرى، وقد واجهتهم بجيوشها وروضتهم بحضارتها . ومرت بالكثير من فترات القلق عندما كان يتراءى لها أن قَدرها قد أزف ، لكنها بقيت حتى الآن . وعند نهاية القرن الثاني عشر كانت تواجه أزمة طويلة ، إذ أن ما دمّرته الغزوات التركية في الأناضول من قوتها البشرية واقتصادها قبل ذلك بقرن بدأت آثاره الكاملة تظهر عليها ، وتفاقمت تلك الآثار بما كانت عليه المدن التجارية الإيطالية من تنافس دائب . على أنها كانت خليقة بأن تُظهر على نحو جيد مرونتها للتكيف مرة أخرى واستعادة البلقان وقدرا كبيرا من الأناضول ، وكانت ثقافتها خليقة بأن تواصل تأثيرها الذي لم ينقطع على البلدان من حولها. حتى الأتراك السلاجقة ربما يخضعون تماما لسيطرتها إلى أن تستوعبهم لإنعاش الإمبراطورية . وتُظهر قصة امبراطورية نيقية أن البيزنطيين لم يفقدوا بأسهم ؛ ولكن

ضياع القسطنطينية كسر وحدة العالم البيزنطي ، ولم يعد هناك سبيل مطلقا لإصلاح ما انكسر حتى بعد استرجاع العاصمة نفسها لقد كان صد السلاجقة جزءا من انجازات أهل نيقية ، ولكن عندما ظهرت قبيلة تركية جديدة أشد بأسا تحت زعامة آل عثمان الرائعين، كان العالم المسيحي الشرقي قد بلغ من الانقسام حدا يحول دون أن يكون له موقف مؤثر؛ إذ تحولت زعامته إلى مكان آخر ينأى عن منطقة البحر المتوسط التي ولدت فيها الثقافة الأوروبية إلى الشمال الشرقي البعيد ، إلى سهول روسيا الشاسعة . لقد كانت روما الثانية تخلي المكان لروما الثالثة الموسكوفية(٤٩).

وفي تلك الأثناء غُرست بذور الكراهية بين العالم المسيحي الشرقي والعالم المسيحي الغربي ؛ ولم تتحقق البتة آمال البابا إينوسنت الطيبة، ولا تبجحات الصليبيين المطمئنة بأنهم قد أنهوا الصدع ووحدوا الكنيسة . وإنما تركت بربريتهم ذكرى لن تُغتفر لهم قط. وفيما بعد ، قد يناصر العواهل المسيحيون الشرقيون الوحدة مع روما في توقع أثير لديهم بأن الوحدة سوف تخلق جبهة متحدة ضد الأتراك ، غير أن شعوبهم لن تتبعهم ، فهم لا يستطيعون نسيان الحملة الصليبية الرابعة . وربما كان حتما أن تنحرف كنيسة روما والكنائس الشرقية الكبيرة بعيدا عن بعضها البعض ؛ على أن الحركة الصليبية برمتها قد نغّصت العلاقات فيما بينها، ومنذآنذاك قُدُما، مهما حاول قليل من الأمراء أن يبلغوا غاية، كان الصدع في قلوب المسيحيين الشرقيين كاملا ومستعصيا ونهائيا.

---

(٤٩) (المترجم):نسبة إلى Muscovy وهي دوقية كبيرة سابقة محيطة بموسكو وتحتويها، اتسعت في الإمبراطورية الروسية في القرن السادس عشر تحت ايفان الرابع

الفصل الثانى:

الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية الخامسة

"هل يسير اثنان معا إن لم يتواعدا ؟"
(عاموس ٣:٣)

لم يكن فشل الحملة الصليبية الرابعة فى مساعدة فلسطين يخلو من عِوض؛ إذ تُركت المملكة الصغيرة في سلام طوال ما يزيد على عشر سنوات ، وصمدت الهدنة التي رتبها الملك أماليك مع السلطان . ولم يكن بمقدور الفرنج المجازفة بخرقها دون مساعدة غربية ، بينما كان لدى العادل ما يكفيه من المشاغل في توطيد دعائم سلطانه بحيث لم يشأ أن يسبب لنفسه ربكة غزو دويلة لا ضرر منها ، ولو أنه هاجمها لاستثار حملة صليبية جديدة. وظل جون (أوف إيبلين) طوال ثلاث سنوات يحكم فى هدوء كوصي على ابنة اخته الملكة ماريا.

وفي ١٢٠٨م بلغت الملكة عامها السابع عشر ، وآن وقت البحث لها عن زوج . فسافرت بعثة مؤلفة من فلورينت أسقف عكا ، وإيمار لورد قيصرية إلى فرنسا تلتمس من الملك فيليب ترشيح زوج لها . وكان المأمول أن يستميل هذا العرض بمنح التاج أحد

الأمراء الأثرياء الأقوياء للحضور لإنقاذ الشرق الفرنجي ، بيد أن العثور على عريس لم يكن بهذا اليسر اليسير. وأخيرا، أعلن فيليب في ربيع ١٢١٠م أن فارسا من شامباني يدعى جون (أوف برين) قبل المنصب[1].

١٢١٠م : جون (أوف برين) ملك القدس

وكان اختيارا باعثا على خيبة الأمل . إذ كان جون إبنا أصغر مفلسا يبلغ من العمر فعلا ستين عاما . وقد سبق أن تزوج أخوه الأكبر ولتر كبرى كريمات الملك تنكريد ملك صقلية ، وبذا أعلن عن مطالبة عقيمة بعرش صقلية ؛ لكن جون أنفق حياته بصورة غامضة نسبيا كواحد من قادة الملك الفرنسي . وأشيع عنه أنه قد اختير الآن بسبب خيانة زوجية مع الكونتيسة بلانش (أوف شامباني) فضحت البلاط . وبغض النظر عن فقره ، لم يكن غير مناسب للمنصب ؛ إذ لديه دراية واسعة بالسياسة الدولية ، وكانت سنه المتقدمة بمثابة ضمان لعدم إقدامه على مغامرات يشوبها الطيش والتهور . ولكي يزداد قبولا منحه كل من الملك فيليب والبابا إينوسنت دوطة (مهرا) أربعين ألف جنيه فضي[2].

وفي تلك الأثناء، تولى جون (أوف ابيلين) الحكم إلى أن يصل . وكان شهر يولية ١٢١٠م هو موعد انتهاء الهدنة مع العادل ، فأرسل السلطان إلى عكا يقترح تجديدها . وكان جون (أوف ابيلين) يترأس مجلسا ، وأوصى لديه بالموافقة على العرض ، وأيده السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، غورين (أوف مونتيجو)، والسيد الأعظم لفرسان التيوتون هرمان بارديت . لكن السيد الأعظم لفرسان المعبد ، فيليب (أوف لو بليسييه)، حرض الأساقفة على الإصرار على رفض هذا الإقتراح ، على أساس قانوني مؤداه أن الملك المقبل لا يستطيع أن يكون مقيدا بأية هدنة جديد . ووقع قتال حقيقي طفيف ؛ فأرسل العادل ابنه المعظّم مع بعض الجنود إلى جبل الطور ، وأسفر وجوده عن توقف الفرنج[3].

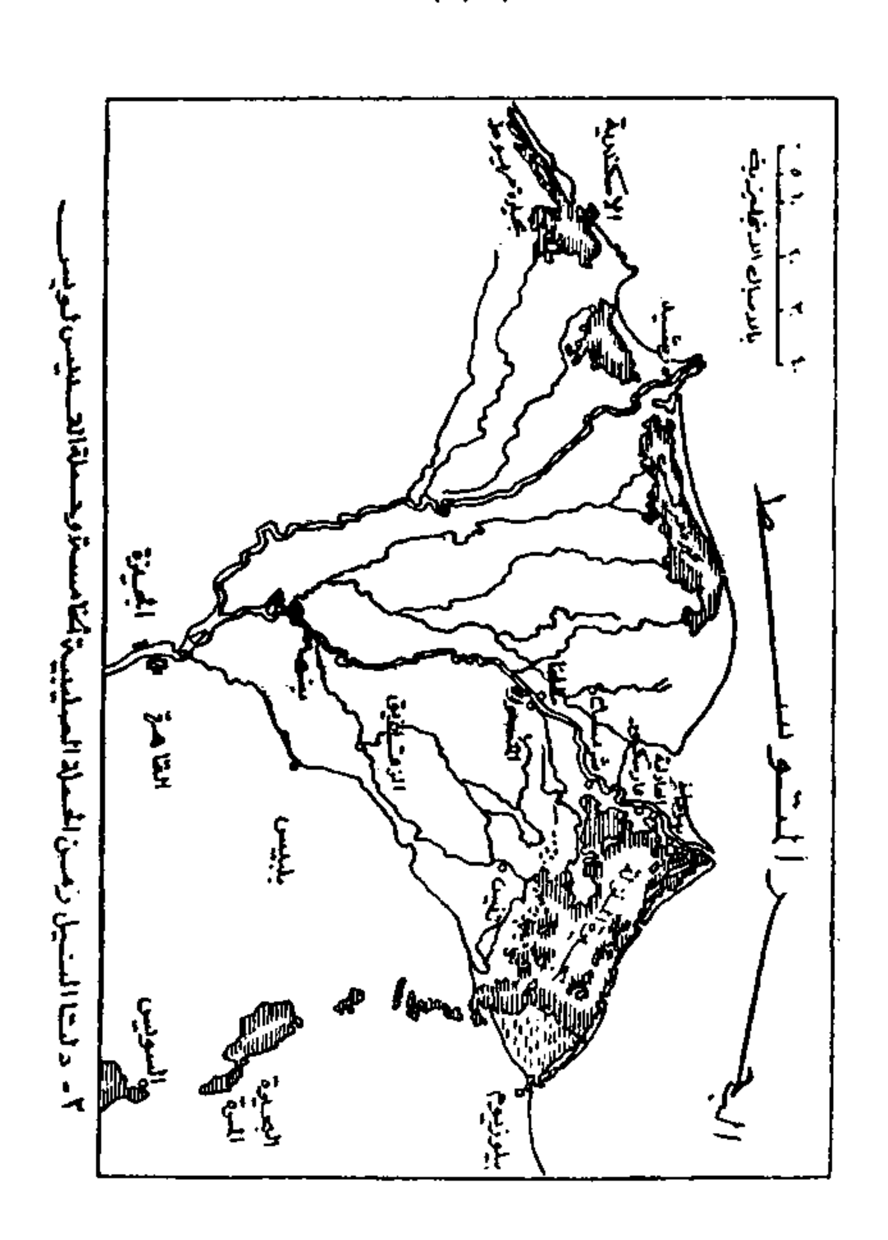
---

(١) Ernoul, pp. 407-8; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 305-8; see La Monte, 'John d'Ibelin', in *Byzantion,* vol.xii

(٢) *Estoire d'Eracles, loc. cit.*.

(٣) pp. 310, 316; Abu Shama, ii, p.158*Ibid.*.

خريطة رقم (٢) دلتا النيل



هبط حون (أوف برين) إلى البر في عكا في الثالث عشر من سبتمبر ١٢١٠م ، وفي اليوم التالى زوجه بطريق القدس ألبرت من الملكة ماريا ؛ وفي الثـالـث مـن اكتوبر تـوج العروسان في صور.

وسرعان ما اكتسب الملك الجديد شعبيته . فقد أظهر مهارة في التعامل مـع أتباعـه ومع الأنظمة الدينية العسكرية وأظهر الحذر في تعامله مع المسلمين . فبينما كان رحـال البلاط في صور للتتويج ، أغار المعظّم على ضواحى عكا لكنه لم يجازف بمهاجمـة المدينـة ذاتها . وفي وقت مبكر من الصيف التالي سمح حون لبعض أتباعه بالإنضمام إلى فرسـان المعبد في حملة بحرية على مصب النيل في دمياط ، لكنها كانت عديمـة الجدوى . وبعد أشهر قليلة قبل عرضا حديدا من العادل للتوقيع على هدنة لخمس سـنوات بـدأ تنفيذهـا في يولية ١٢١٢م . وفي ذات الوقت أرسل الملك رسـائل إلى رومـا طالبـا حملـة صليبيـة حديدة تتهيأ للحضور إلى فلسطين بمجرد انتهاء الهدنة[٤].

وفي نفس ذلك العام ماتت الملكة الشابة بعد ولادتها لطفلة سميـت إيزابيـلا تسـميا بجدتها لأمها ، لكن اسمها المعتـاد هـو يولانـدا . وبموت الملكـة بـات الوضـع القـانوني للملك مثار ريبة ، فقد حكم كزوجٍ للملكة وقد مرت المملكة الآن إلى يولانـدا وليس لأبيها حقٌ قانوني . لكنه أبوهـا، وقبل كوصي طبيعـى للمملكـة ، على الأقـل إلى أن تتزوج ، واستمر يحكم المملكة في سلام حتى وصـول الحملـة الصليبيـة التاليـة . ولكـي يعزي نفسه في ترمله تزوج عام ١٢١٤م من الأميرة ستيفاني الأرمينية إبنـة ليـو الثـاني. وثبت أنها زوجة أب سيئة ، وذاعت شائعة باطلة تعزو موتهـا في ١٢١٩م إلى الضـرب المبرح من حون لمحاولتها دس السم للطفلة يولاندا[٥].

وكانت الدويلات اللاتينية المحاورة أقل حظا من مملكة عكـا . ففـي قـبرص خلـف الملك أمالريك ابنه هيو ذو السنوات العشر، ومنحت الوصاية لولـتر (أوف مونتبيليـارد) وهو فـارس فرنسـي كـان يـاورا (كونستـابلا) لأمـالريك وتـزوج اخـت هيـو الكـبرى بورحونديا . وكان وصيًا فاشلا ورّط الجزيرة في حرب غير موفقة مع الأتـراك، وعندمـا سلّم السلطة لأخى زوجته في ١٢١٠م ، نفي كرها للإرتياب في اختـلاس ضخـم أثنـاء

---

(٤) *Estoire d'Eracles, loc. cit.* Abu Shama,loc. cit. and p. 317.

(٥) Ernoul, p. 411. انظر أدناه (ص. ٢١٠) أنظر *Estoire d'Eracles*, ii, p.320. La Monte, *Feudal Monarchy*,p.55. واسم الملكة الشابة عند جميع مؤرخـي مملكـة أوتريمـه (مـا وراء البحار) هو إيزابيلا ، وإن كانت عادة تسمى يولاندا عند المؤرخين الغربيين . وأنا أستخدم هـذا الاسـم الأخير لتقليل الاضطراب مع الايزابيلات الأخريات.

توليه منصبه . والآن أصبح الملك هيو في الخامسة عشرة من عمره[٦] . وقبل ذلك بعامين تزوج إبنة زوجة أبيه أليس ، من أميرات القدس ، وذلك بناء على الترتيب الذي اتفق عليه أبواهما . وتولت الملكة ماريا كومنينا ، وهي جدة العروس ، المفاوضات لتنفيذ الزواج ، وقدمت دوطة بلانش (أوف نافار)، كونتيسة شامباني ، وأرملة عم العروس، إذ كانت تخشى أنه مالم تتزوج أليس وأختها في سلام في الشرق ، فقد تأتي إحداهما للمطالبة بالإستيلاء على كونتية شامباني من ابنها الطفل . وكان الملك هيو شابا طائشا فباتت علاقاته مع جيرانه وأتباعه وكنيسته والبابوية علاقات عاصفة ، لكنه وفّر لمملكته حكما راسخا[٧] .

١٢٠١م : الإستخلاف في أنطاكية

كانت الأحوال في إمارة أنطاكية تجاوز كثيرا مملكة قبرص في اضطرابها. إذ كان بوهموند كونت طرابلس قد نصّب نفسه هناك في اعقاب وفاة والده بوهمند الثالث عام ١٢٠١م ، متحديا حقوق ابن أخيه ريموند-روبين ؛ على أن ليو الأرميني – وهو والد خال ريموند – استمر في الضغط من أجل قضيته . وتعقّدت الأمور بسبب الشجار الذي نشب بين ليو وفرسان المعبد لرفضه إعادة قلعتهم في بجراس . ولذلك انحاز فرسان المستشفى إلى جانبه ضد بوهمند. ومع ذلك، كان بمقدور بوهمند طلب العون من الأتراك السلاجقة الذين تواترت الحرب بينهم وبين ليو ؛ وكان الظاهر صاحب حلب على استعداد دائما لأن يرسل إليه التعزيزات ، ومن أجل ذلك كان العادل يحمل العداوة لبوهمند ، وكان تعاطف ملكي القدس وقبرص يغلب عليه التقلب . ثم جاءت المشاكل الدينية لتزيد من الفوضى . وكان من الأمور الأساسية لصالح الحركة الصليبية برمتها تسوية مسألة الإستخلاف في انطاكية ؛ وشعر البابا إينوسنت أن من واجبه التدخل ، فحاول كل من مندوبيه البابويين ، سوفريد (أوف سانت براكسيدس) وبطرس (أوف سانت مرسيل) كل على حدة، ثم معا ، سماع القضية . على أنه في الوقت الذي كان يظهر فيه ليو مراعاته لروما بالكلام فقط ، رفض عقد السلام مع

---

(٦) *Estorie d'Eracles,*ii, pp. 15-16; Mas Latrie, *Documents,* ii, p. 13.

(٧) Mas Latrie, *Histoire de l'Ile de Chypre,* i, pp. 175-7; *Documents,*ii, p. 34; Innocent III, letters, ix, 28 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 829-30); Hill, *History of Cyprus,* ii, 72-83

فرسان المعبد بالتخلي لهم عن قلعة بجراس ، كما أمره البابا . ومن الناحية الأخرى ، أنكر بوهمند حق البابا في الاهتمام إلى مسألة إقطاعية خالصة . وبعد موت بوهمند الثالث مباشرة انضم البطريق بطرس الأنطاكي إلى حزب ليو ، ولم يغتفر له ذلك بوهمند الرابع ولا من كميون انطاكية الذي كان شديد العداوة لأرمينيا. غير أنه في عام ١٢٠٣م كتب ليو إلى البابا قائلا إن الكنيسة الأرمينية ينبغي أن تخضع مباشرة لولاية روما ، وفي ١٢٠٥م تشاجر البطريق مع المندوب البابوي بطرس (أوف سانت مرسيل) حول تعيين رئيس شمامسة أنطاكية . ووجد البطريق نفسه بلا صديق وفي وسع بوهمند أن يثأر منه[٨].

وكانت لبوهمند نفسه مشاكله . إذ على الرغم من حيازته لأنطاكية وفوزه بتأييد الكميون ، كانت سلطته في الريف مقيّدة . وحدث الإضطراب في كونتيته الطرابلسية في نهاية عام ١٢٠٤م من جراء تمرد رينورت ، لورد نيفين ، الذي تزوج وريثه عكّار دون إذن بوهمند ، وانضم إليه عدد من اللوردات ، بمن فيهم رالف لورد طبرية الذي كان أخوه أوتو الآن في بلاط ليو ، وفاز المتمردون بتعاطف الملك أماريك . وبينما كان بوهمند يسعى إلى قمع التمرد ، ضرب ليو الحصار حول أنطاكية ولم ينسحب إلا عندما أرسل الظاهر صاحب حلب جيشا لمساعدة بوهمند . وبعد موت أماريك ، سحب جون (أوف ابيلين) كل تأييد للمتمردين الذين هزمهم بوهمند في نهاية العام ، وبعدما فقد عينا أثناء القتال . وفي ذات الوقت ، ولكي يُظهر أنطاكية بمظهر الدويلة العلمانية ومن ثمّ خارج نطاق سلطة البابا ، أعلن أن سيدها الأعلى كان دائما امبراطور القسطنطينية . وعندما قامت ماريا (أوف شامباني) وزوجة الامبراطور اللاتيني الجديد بلدوين بزيارة فلسطين عام ١٢٠٤م في طريقها للإنضمام إلى زوجها ، سافر إلى عكا ليقدم اليها احترامانه[٩].

---

(٨) عن التاريخ الأنطاكي خلال هذه الفترة، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*,pp.600-15 مع المراجع الكاملة.

(٩) Alberic of Trois Fontaines, *Chronicon, R.H.F.*, vol. xviii, p. 884. كان الإفتراض السائد فيما بين الفرنج هو أن امبراطور القسطنطينية اللاتيني قد ورث كافة حقوق البيزنطيين . ومع ذلك ، تفاوض ليو الأرميني على الفور مع امبراطور نيقية ، الذي زعم بنفس القدر أنه وريث البيزنطيين . أنظر Cahen, *loc. cit.* esp. p. 606.

١٢٠٦م : بطريق يوناني في أنطاكية

وبات بوهموند في عام ١٢٠٦م مهتاجا من البابا وبطريقه سواء بسواء ، فأقدم على خلع الأخير واستدعى البطريق اليوناني سيمون الثاني، الذى كان بلا منصب، ليحل محله . ومن الراجح أن سيمون كان يقيم فعلا في أنطاكية ؛ ولابد أن الكوميون آيد حركة بوهمند ، إن لم يكن هو الذي اقترحها . وبرغم انقضاء قرن كامل من الحكم الفرنجي ، كان العنصر اليوناني لا يزال كبيرا ومزدهرا ، وبمرور الوقت تزاوج بلا شك الكثير من العائلات التجارية اللاتينية مع اليونانيين ، وكلهم يكرهون الأرمن ، وتسبب الغزل بين البابا وليو في تخوفهم ضد روما . أما بوهموند من ناحيته ، فلم تعد بيزنطة قادرة على تهديده ، ومن ثمّ توفر لديه الاستعداد لأن يشايع الكنيسة التي كانت تقاليدها توصى بالحذر من الأمراء العلمانيين. ومن سخريات القدر أن يعيد اللاتين البطريارقية اليونانية بعد دمار بيزنطة والتي حارب من أجلها الأباطرة البيزنطيون في القرن الماضي حروبا شرسة . وعلى الفور أنهى البطريق اللاتينى بطرس شجاره مع المندوب البابوى الذي أعاد إليه سلطة الطرد من الكنيسة، وكانت موضع شك . وبكل التأييد من روما طرد الأمير والكميون من الكنيسة ، فردوا بالاحتشاد فى الكنائس اليونانية في المدينة. ثم لجأ البطريق اللاتينى إلى الدسائس . ففى نهاية العام التالي ١٢٠٧م أدخل إلى المدينة ليلا بعض الفرسان الذين يدينون له بالولاء ، وتمكنوا من الإستيلاء على أسفل المدينة ، غير أن بوهمند جمع قواته في القلعة وسرعان ما ردهم إلى خارج المدينة . وحوكم البطريق بطرس ، الذي كان تآمره جليًا واضحا ، بتهمة الخيانة وألقى به في غيابة السجن حيث مُنع عنه الطعام والماء ، فابتلع فى يأسه زيت مصباحه فمات متوجعا[١٠].

وبدأت مشاعر القلق تنتاب البابا اينوسنت من هذا النزاع الذى لا نهاية له، وعهد بمسؤولية تسويته إلى بطريق القدس . وفي عام ١٢٠٨م، خرب ليو البلاد المحيطة بأنطاكية بينما كانت طرابلس تواجه غزوا من قوات العادل التي جاءت ، دون روية، للإنتقام لهجوم شنه بعض القبارصة على تجار مسلمين ولغارة عدوانية شنها فرسان المعبد. وأنقذ بوهمند نفسه بالإستنجاد بالسلاجقة ضد ليو ، بينما أرسل البابا مناشدة

---

(١٠) .Cahen, loc. cit. esp. pp.612-13وتظهر القصة أن العنصر اليوناني في الكميون لا بد وأن كان قويا. والمفترض أن كان هناك قدر كبير من التزاوج فيما بين الدوائر البورجوازيـــة.

إلى الظاهر صاحب حلب لإنقاذ أنطاكية من اليونانيين . وأعقب ذلك ثورة ديلوماسية؛ إذ كان بطريق القدس ألبرت صديقا لفرسان المعبد حلفاء بوهمند ، وأغضب ليو بإصراره على أن تكون الخطوة الأولى المبدئية لأية تسوية هي ضرورة إعادة بجراس إلى النظام . وفي تلك الأثناء وافق بوهمند على قبول بطريق لاتيني جديد في أنطاكية ، بطرس (أوف لوسيديو) ، وبذا تناسى ليو ولاءه لروما ، وتحالف متباهيا مع الامبراطور اليوناني في نيقية ، ورحب ببطريق أنطاكية اليوناني ، سيميون ، في صقلية وأعطى الكثير من أراضي الكنيسة اللاتينية فيها لليونانيين . على أنه في ذات الوقت سعى لنيل صداقة هيو ملك قبرص الذي كانت أخته هيلفيس متزوجة من ريموند-روبين، ومنح نظام فرسان التيوتون حصونا في كيليكيا. وتواصل الصراع(١١).

وفي عام ١٢١٣م ، وبينما كان إبن بوهمند الأكبر ، ريموند ، البالغ من العمر الثامنة عشرة في كتدرائية طرطوس ، اغتالته عصبة من الحشاشين . ويبدو أن فرسان المستشفى قد حرضوا القتلة الذين كانوا يدفعون لهم الإتاوة. وفي العام التالي ، قتل الحشاشون بطريق القدس ، ألبرت ، وهو عدو آخر لفرسان المستشفى . وسعى بوهمند للثأر ، فهاجم بتعزيزات من فرسان المعبد حصن الخوابي الذي يملكه الحشاشون . واستنجد الحشاشون بالظاهر الذي استنجد بدوره بالعادل . ورفع الحصار عن حصن الخوابي ، واعتذر بوهمند للظاهر الذي كان الآن أقل استعدادا لتأييده . وفضلا عن ذلك ، كانت هناك شائعات بحملة صليبية جديدة أسفرت عن لم شمل المسلمين . وبدأ الظاهر يتودد لعمه العادل(١٢).

واستغل ليو الوضع ليسالم روما مرة أخرى . وكان بطريق القدس الجديد رالف، وهو أسقف صيدا السابق، ليّن العريكة ، والبابا على استعداد لأن يمنح ليو مغفرته شريطة أن يساعد في الحملة الصليبية التالية . وكان زواج جون (أوف برين) من ستيفاني إبنة ليو بمثابة تصديق على تحالف أرمينيا وعكا . وفي عام ١٢١٦م تدبر ليو دسيسة ناجحة لا شك وأن ساعد فيها البطريق بطرس ، تمكن بها من تهريب جنود إلى داخل أنطاكية واحتلال المدينة دون ضربة واحدة . وكان بوهمند بعيدا في طرابلس، وسرعان ما استسلم جنود قلعته لليو . ونُصّب ريموند-روبين أميرا على أنطاكية . وفي خضم البهجة الغامرة التي انتابت ليو لهذه النتيجة الناجحة لحرب طويلة، أعاد ليو أخيرا

---

(١١) Cahen, *op. cit.* pp.615-19.

(١٢) *Ibid.* pp. 619-21.

قلعة بجراس إلى فرسان المعبد وأعاد أراضي الكنيسة اللاتينية في كيليكيا. غير أنه فقد في مقابل نصره قلاعا في الغرب وعبر طوروس استولى عليها أمير قونية السلجوقي كيكاوس[١٣].

ولقد سويت مسألة أنطاكية في الوقت المناسب تماما للحملة الصليبية الجديدة. ذلك أن البابا إينوسنت، ومنذ تحرر من أوهام الحملة الصليبية الرابعة، دأب على بذل جهد أوقع لإنقاذ الشرق. ولقد كانت هناك اضطرابات كثيرة أزعجته؛ فكان عليه أن يجد حلا لمشكلة عريصة، ألا وهي مشكلة هراطقة جنوب فرنسا؛ كما أن الحل الشرس المتمثل في الحملة الصليبية الأليبجينسية[١٤]، ورغم أنه هو الذي حرض عليها ومنح الصليبيين فيها غفرانا مماثلا للغفران الممنوح في الحرب ضد الكفرة، هذا الحل الشرس أثار صعوبات بدوره. وفي ١٢١١م بشّر بحملة صليبية في أسبانيا ردا على غزو الوزير الناصر فى دولة الموحدين لإقليم كاستيل الواقع في وسط اسبانيا الشمالي؛ وبسرر جهوده ذلك النصر الرائع الذى أحرزه لاس لافاس دى تولوزوا فى يولية ١٢١٢م عندما قضى على جيش افريقي؛ وبدأت مرحلة جديدة لإعادة الغزو المسيحى.على أنه كان هناك القليل من الفرسان الذين ابدوا استعدادهم للسفر إلى الأراضى المقدسة. لقد جاءت الإستجابة الوحيدة للصلاة التي اقيمت لإنقاذ القدس من طبقة مختلفة تمام الاختلاف[١٥].

١٢١٢م : التبشير بحملة الأطفال الصليبية

في أحد أيام شهر مايو ١٢١٢م وبينما كان الملك فيليب الفرنسي يعقد بلاطه في

---

(١٣) *Ibid.*, pp. 621-3.

(١٤) (المترجم): الأليبجنسيون Albigenses: هراطقة ازدهروا في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كانوا يعتقدون أن المسيح كان ملاكا له جسد وهمي ومن ثم لم يعان الآلام ولم تحدث له قيامة، وأن الخلاص الذى جاء به ليس له وجود إلا فى أقواله. وأنكروا الأسرار المقدسة واعتقدوا أن الشر كامن فى كل شئ ومن ثم اعتنقوا عقيدة أخلاقية ذات صرامة متطرفة، فأدانوا الزواج واستعمال المنتجات الحيوانية كلها. وقد أدانت مجامع متعاقبة هذه الهرطقة من سنة ١١٦٥ قدما، لكن الهرطقة انتشرت إلى أن شن البابا اينوسنت الثالث حملة صليبية عليهم اتصفت بقسوة بالغة، وفى ١٢٣٣ عهد البابا جريجورى التاسع إلى محكمة التفتيش الدومينيكية باستئصال شأفهم بصورة نهائية، وبحلول القرن الرابع عشر لم يبق لهم أثر.

(١٥) للإطلاع على سياسة إينوسنت في جنوب فرنسا لانجويدوك وأسبانيا أنظر Fliche, *La Chrétienté Romaine*, pp. 107-8, 112-37.

سانت دينيس، ظهر صبي من رعاة الغنم في نحو الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن، وهو من مدينة كلوي الصغيرة في أورليانيه. وأحضر معه رسالة للملك، قال إن المسيح شخصيا أعطاها له بعدما تجلى لـه وهـو يرعـى غنمـه، وأمره أن يذهـب ويبشر بحملة صليبية. ولم يتأثر الملك فيليب بالطفل وأمره أن ينصرف إلى منزله. لكن ستيفن، الذي أشعل الزائر الغامض جذوة حماسه، رأى نفسـه الآن زعيمـا ملهمـا يقـدر على النجـاح حيثما فشل فيه الكبار. وطوال الأعوام الخمسـة عشـر الماضيـة كـان المبشـرون يجولـون الريف يحثون على حملة صليبية ضد المسلمين في الشرق أو في أسبانيا أو ضـد هراطقـة لانجويدوك. ومن اليسير على صبي هستيري أن يصاب بعدوى الفكرة الـتي مفادهـا أنـه يستطيع هو أيضا أن يصبح مبشّرا ويستطيع محاكاة بطرس الناسك الـذي بلغـت حرارتـه الفائقة مبلغا أسطوريا خلال القرن الماضي. ولم ييأس من لامبالاة الملك ، وبدأ يبشّـر في نفس مدخل دير سانت دينيس ويعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفـال لإنقـاذ العـالم المسيحي . ولسوف تجف البحـار أمـامهم وسـيمرون ، كمـا مـر موسـى خـلال البحـر الأحمر، آمنين إلى الأراضي المقدسة . وقد وُهـب فصاحـة غير عاديـة ، ومسـت أقوالـه قلوب الكبار ، وجاءه الأطفال زرافات ملبين نداءه . وبعد نجاحـه الأول انطلـق مرتحـلا في أنحاء فرنسـا يستدعي الأطفال ؛ ومضى كثيرون ممن تحولوا إلى عقيدتـه يضربـون فـي الآفاق للتبشير نيابة عنه . وكان على الجميع أن يتجمّعوا في فيندوم في غضون نحو شـهر لينطلقوا منها إلى الشرق.

وفي نهاية يونية احتشد الأطفال في فيندوم . وتحدث المعاصرون الذين ارتاعوا عـن ثلاثين ألف طفل ليس فيهم من يزيد عمره على اثنتي عشـرة سـنة . ويقينـا كـان هنـاك عدة آلاف منهم ، جُمعوا من كافة أنحاء البلد ، البعـض منهـم ريفيـون بسـطاء تركهـم آباؤهـم طواعية يذهبون في حملتهم العظيمة . بيد أنه كان هناك كذلك صبيان من أصل نبيل تسللوا من بيوتهم للإنضمام إلى ستيفن وأتباعه من "الأنبياء القُصَّر" كمـا يسـميهم المؤرخون ؛ وكان الحشد يضـم أيضـا فتيـات وقليـلا مـن القساوسـة الشـبان وثلّـة مـن الحجاج المسنين البعض منهم جذبتـه التقـوى ، والبعـض الآخـر ربمـا جذبتـه الشـفقة ، والبعض يقينا للمشاركة في الهدايـا الـتي كـانت تهبـط عليهـم كلهـم كـالمطر. وجـاءت المجموعات محتشدة إلى المدينة ، مع كـل منهـا قـائد يحمـل رايـة الحـرب[١٦] وهـي الـتي

---

(١٦) (المترجم) : راية الحرب : Oriflamme وهي علم فرنسا الملكي القديم عبارة عن راية حريرية حمراء بأحد طرفيها عدة شقوق لتمثل ألسنة اللهب . ومن معـاني الكلمـة أيضا أي رمز يلهـم الشـجاعة والتفاني في الحرب.

اتخذها ستيفن شعارا الحملة الصليبية . ولم تستوعبهم المدينة ، فعسكروا في الحقول خارجها.

١٢١٢م : الأطفال فى مرسيليا

وبعد أن منح القساوسة الودودون بركاتهم ، وبعد إبعاد آخر الآباء المحزونين ، انطلقت الحملة باتجاه الجنوب . وكانوا جميعا على وجه التقريب يسيرون على الأقدام؛ لكن ستيفن أصر على أن يكون له ما يليق بزعيم الحملة من عربة مزدانة بزينة مرحة تعلوها ظلّة تحجب عنه أشعة الشمس ؛ وسار إلى جانبه خيول يعلوها نبلاء الأطفال، وكان منهم على ما يكفي من الثراء بحيث يمتلك حصانا. ولم يمتعض أحد من النبي الملهَم وهو يرتحل مستريحا ؛ بل على العكس عومل وكأنه قديس ، وكانت خصلات من شعره وقطع من ملابسه تجمع كآثار نفيسة . وسلكوا الطريق الذي يمضي عبر تورز وليون قاصدين مرسيليا . وكانت رحلة كلها آلام ؛ إذ كان الصيف شديد الحرارة بصورة غير عادية ، وكانوا يعتمدون في طعامهم على الصدقات في الوقت الذي لم يترك فيه الجفاف ما يفيض عن الحاجة ، فضلا عن ندرة المياه. ولقي الكثير من الأطفال حتفهم على جانب الطريق ، وعدل آخرون عن مواصلة الرحلة ومضوا يهيمون على وجوههم محاولين العودة إلى أهليهم . على أنه في نهاية الأمر وصلت الحملة الصليبية الصغيرة إلى مرسيليا.

واستقبل مواطنو مرسيليا الأطفال استقبالا طيبا ؛ إذ وجد الكثير بيوتا يبيتون فيها، وأقام آخرون في الشوارع . وفي الصباح التالي اندفعت الحملة كلها إلى المرفأ لمشاهدة البحر وهو ينفلق أمامهم ، ولما امتنعت المعجزة تملكتهم مشاعر خيبة الأمل المريرة . وتحول بعض الأطفال ضد ستيفن صائحين بأنه خذلهم وبدأوا ينقلبون على أعقابهم ؛ لكن أغلبهم بقوا على شاطئ البحر ، آملين في كل صباح أن يلين لهم الرب. وبعد أيام قليلة ، وكما يروى فى المأثور، عرض تاجران من مرسيليا هما هيو الحديدى ووليم الخنزير بعض السفن لتكون تحت تصرفهم وتنقلهم إلى فلسطين بلا مقابل ، تمجيدا للرب. فقبل ستيفن في شغف هذا العرض الشفوق . واستأجر التاجران سبع سفن ركبها الأطفال وأبحرت . وانقضت ثماني عشرة سنة قبل معرفة أي خبر عنهم.

وفي تلك الأثناء وصلت حكايا ما قام به ستيفن من تبشير إلى بلاد الراين في ألمانيا التي لم يشأ أطفالها أن يفوتهم الأمر؛ ذلك أنه بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفن في

حملته، شرع صبي يدعى نيكولاس من قرية في بلاد الراين يبشر بنفس الرسالة أمام ضريح الملوك الثلاثة في كولونيا . وكشأن ستيفن ، أعلن أن الأطفال يستطيعون أن يأتوا بما لم يستطعه الكبار ، وأن البحر سوف ينفلق عن طريق أمامهم . على أنه بينما كان للأطفال الفرنسيين أن يغزوا الأراضي المقدسة بالقوة ، كان لأطفال ألمانيا تحقيق هدفهم بتحويل الكفار عن دينهم . وكان نيكولاس ، شأنه شأن ستيفن ، على قدر من الفصاحة الفطرية واستطاع أن يجد حواريين فصحاء ليحملوا تبشيره إلى اماكن أبعد ، أعلى وأسفل بلاد الراين . وفي غضون أسابيع قليلة تجمّع حيش من الأطفال في كولونيا على أهبة الإستعداد للإنطلاق إلى ايطاليا حيث البحر . ويبدو أن الأطفال الألمان كانوا في متوسط عمري يزيد زيادة طفيفة عن مثيله لدى الأطفال الفرنسيين ، كما يبدو أن كان معهم عدد أكبر من الفتيات ؛ كما كانت هناك فصيلة أكبر من صبيان النبلاء ، وعدد من المتشردين سيّئي السمعة والعاهرات.

وانقسمت الحملة إلى فريقين ؛ يتألف الفريق الأول، استنادا إلى ما رواه المؤرخين، من عشرين ألف طفل يقودهم نيكولاس نفسه . وانطلق هذا الفريق أعلى نهر الراين إلى بازل ثم مخترقا غرب سويسرا ، مرورا بجنيف ليعبر جبال الألب من ممر جبل سيني . وكانت رحلة شاقة على الأطفال فكانت خسائرهم فادحة ؛ إذ أن أقل من ثلث المجموعة.التي غادرت كولونيا ظهروا أمام أسوار جنوا في نهاية أغسطس وطلبوا إيواءهم ليلة واحدة داخل أسوارها . وكانت السلطات في جنوا على استعداد للترحيب بالحجاج أول الأمر ، لكن السلطات عندما عاودت التفكير ارتابت في وجود مؤامرة ألمانية؛ فسمحوا لهم بقضاء ليلة واحدة فقط، ومن شاء منهم في الإستقرار بصورة دائمة في جنوا لقي الترحيب. فشعر الأطفال بالرضا، وهم يتوقعون انفلاق البحر أمامهم في الصباح التالي . على أن البحر في الصباح التالي كان منغلقا أمام صلاتهم بنفس قدر انغلاقه للفرنسيين في مرسيليا . وفي خضم خيبة الأمل التي داهمت الأطفال قبل الكثير منهم على الفور عرض سلطات جنوا وأصبحوا مواطنين جنويين ، ونسوا رحلة الحج . وفيما بعد زعمت عدة عائلات رفيعة المستوى أنها من سلالة هذه الهجرة الأجنبية . بيد أن نيكولاس والعدد الأكبر واصلوا رحلتهم ؛ ولسوف ينفلق البحر أمامهم في مكان آخر . وبعد أيام قليلة وصلوا بيزا حيث وافقت سفينتان قاصدتان فلسطين على اصطحاب عدد من الأطفال ، ركبوا البحر وربما وصلوا إلى فلسطين ولكن لا يعرف شيئ عن مصيرهم. ومع ذلك ، كان نيكولاس ما يزال ينتظر أن تحدث معجزة ، وواصل سيره الجهيد مع أتباعه المخلصين إلى روما ، حيث استقبلهم البابا اينوسنت

الذي تحركت مشاعره لنفواهم وإن كان قد شعر بالحرج من حماقتهم . وفي صرامة تغلب عليها الشفقة قال لهم إنهم ينبغي الآن أن يعودا إلى بلادهم ، وعندما يشبوا عن الطوق عليهم عندئذ الوفاء بعهودهم والذهاب للحرب من أجل الصليب.

١٢١٢م : مصير الأطفال

ولا نعرف سوى القليل عن رحلة العودة . ولم يستطع الكثير من الأطفال ، وخاصة الفتيات ، مواجهة حرارة الطريق الملتهبة وتخلفوا في بعض المدن أو القرى الإيطالية . ولم يكن هناك سوى مجموعة صغيرة من التائهين الهائمين الذين وجدوا طريق العودة إلى بلاد الراين في الربيع التالي . وربما لم يكن نيكولاس من بينهم . غير أن الآباء الغاضبين الذين هلك أطفالهم أصروا على القاء القبض على أبيه الذي يبدو أنه شجّع الصبي على الخروج مدفوعا بالخُيلاء . فأخذوه وشنقوه.

ولم تكن المجموعة الثانية من الحجاج الألمان أكثر حظا من سابقتها . فقد ارتحلت إلى ايطاليا خلال سويسرا الوسطى ثم خلال سانت جوثارد وبعد مشاق ضخمة وصلت إلى البحر في أنكونا . وعندما فشل البحر في الإنفلاق لهم تحركوا ببطء أسفل الساحل حتى برنديزي ، حيث وجد القليل منهم بعض السفن المبحرة إلى فلسطين وقبلت نقلهم؛ لكن الباقين عادوا وبدأوا تجوالهم البطئ في طريق العودة مرة اخرى. ورجعت بجرد حفنة منهم إلى منازلهم أخيرا.

وبرغم حالتهم المفجعة البئيسة ، ربما كانوا أكثر حظا من الفرنسيين . ففي عام ١٢٣٠م وصل أحد القساوسة إلى فرنسا من الشرق ومعه حكاية غريبة، وقال إنه كان أحد صغار القساوسة الذين صحبوا ستيفن إلى مرسيليا ، وركب معهم السفن التي قدمها التاجران . وبعد أيام قليلة من الإبحار واجههم جو سيئ وتحطمت سفينتان على جزيرة سان بييترو الواقعة أمام الركن الجنوبي الغربي لسردينيا، وغرق جميع الركاب . أما السفن الخمس التي نجت من العاصفة فسرعان ما وجدت نفسها وقد حاصرها أسطول للعرب قادم من أفريقيا ؛ وعلم الركاب أنهم قد جيئ بهم هناك بناء على ترتيب مسبق لكي يباعوا في الأسر . وأخذوا جميعا إلى بوجي على الساحل الجزائري حيث تم شراء الكثير منهم فور وصولهم وأمضوا ما بقي من حياتهم في الأسر هناك . وشُحن الباقون ، ومن بينهم القس الصغير ، على سفن ذهبت إلى مصر حيث كانت أسعار عبيد الفرنج أفضل ؛ وعندما وصلوا إلى الإسكندرية اشترى حاكمها الجزء الأكبر

من الشحنة للعمل في ضيعته . واستنادا إلى ما رواه القس ، كان هناك نحوا من سبعمائة منهم لا يزالون على قيد الحياة. وأخذت مجموعة صغيرة إلى أسواق الرقيق في بغداد ، حيث استشهد ثمانية عشر شخصا منهم لرفضهم الدخول في الإسلام . وكان القساوسة وقليلون من المتعلمين هم الأكثر حظا ، إذ كان حاكم الإسكندرية ، وهو الكامل إبن العادل ، مهتما باللغات والآداب الغربية ، فاشتراهم وأبقاهم عنده كمترجمين ومدرسين وأمناء سر ، ولم يحاول أن يحولهم إلى عقيدته . وبقوا في القاهرة في أسر مريح ؛ وفي نهاية المطاف أطلق سراح هذا القس بمفرده وسُمح له بالعودة إلى فرنسا . وأجاب على أسئلة الآباء قائلا لهم كل ما كان يعرفه ، ثم إنه اختفى اختفاءً غامضا . وهناك قصة أخرى لاحقة تطابق قصة التاجرين الشريرين في مرسيليا بتاجرين شُنقا بعد ذلك بسنوات قليلة لمحاولة اختطاف الامبراطور فريدريك نيابة عن العرب ، وبذا عوقبا في النهاية على ما اقترفاه من جرائم(١٧).

لم يكن الأطفال الصغار هم الذين سينقذون القدس . إذ كان لدى البابا إينوسنت آراء أوسع وأكثر واقعية ، فقرر عقد مجلس كبير للكنائس في روما عام ١٢١٥م لتنظيم كافة الشؤون الدينية للعالم المسيحي ، وقبل كل شيئ ينبغي ادماج الكنيسة اليونانية . وكم كان بوده أن تكون قد انطلقت حملة صليبية بحلول ذلك الوقت ؛ فطوال عام١٢١٣م ومندوبه روبرت (أوف كورسون) يجوب فرنسا ومعه الأوامر بالتساهل في قبول من يأخذ الصليب ، إذ كانت الضرورة بالغة. ونفّذ المندوب أوامر سيده بحماس مفرط . وسريعا جدا شرع النبلاء الفرنسيون في الكتابة لملكهم قائلين إن مبشّري المندوب البابوي أعفى أتباعهم من العهود التي قطعوها على أنفسهم ، وأن هناك جمع سخيف من المسنين والأطفال وذوي الجذام وذوى العرج والنساء وذوي السمعة السيئة، قد تجمعوا للحرب المقدسة . وأجبر البابا على كبح جماح روبرت ؛ وعندما افتُتح المجلس اللاتيراني(١٨) لعام ١٢١٥م، لم تكن هناك حملة صليبية جاهزة بعد

---

(١٧) للإطلاع على قصة الحملة الصليبية للأطفال أنظر Rohrich, 'Die Kinderkreuzzug' in *Historiche Zeitschrift*, vol. xxxvi؛ و Alphandéry, 'Les Croisades d'Enfants' in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. lxxiii; Munro, 'The Children's Crusade' in *American Historical Review*, vol. xix; Winkelmann, *Geschichte Kaiser Friedrichs des Zweiten*, i, pp. 221-2. ويرد اشتراك الأطفال الألمان في *Annales Stadenses (M.G.H. Scriptores*, vol. xvi, p. 355).

(١٨) (المترجم) : نسبة الى كنيسة القديس جون لاتيران St. John Lateran ، أو كتدرائية البابا باعتباره أسقف روما . وترجع تسمية هذا المكان الى اسم الأسرة الرومانية (*Plautii Laterani*) التي كان قصرها يشغل نفس الموقع.

للإنطلاق . وفي الجلسة الاولى تحدث البابا نفسه عن ورطة القدس ، ونهض بطريق القدس مناشدا المجلس تقديم العون . وسارع المجلس إلى تأكيد المزايا والمغفرة المقرر منحها للصليبيين وإلى الترتيب لتمويل الحملة التي تقرر أن تتجمع في صقلية أو أبوليا وتبحر إلى الشرق يوم أول يونية ١٢١٧م(١٩).

١٢١٦م : موت البابا إينوسنت الثالث

واستثار المجلس نشاط الكنيسة . فطوال ربيع عام ١٢١٦م انطلق المبشرون في سائر أنحاء العالم المسيحي الغربي ، وإلى أماكن بعيدة كبعد ايرلندا واسكندنافيا . وأعلن علماء اللاهوت البارزون من دكاترة جامعة باريس أن من يأخذ الصليب ثم يحاول التنصل من الوفاء بعهده فإنه إنما يرتكب إثما مميتا . وانتشرت الرؤى الشعبية عن صلبان تسبح في الهواء ورُوِّج لها بدعاية ضخمة. وراودت الآمال إينوسنت . إذ لاحظ أن الأعوام التي مقدارها ٦٦٦ عاما المخصصة في سفر الرؤية للوحش قد انقضت . لقد انقضت في الواقع ستة قرون ونصف على مولد محمد . ولقد كتب إلى السلطان العادل يحذره من العقاب الإلهي الآتي ويحثه على التخلي عن القدس بصورة سلمية وما زال في الوقت متسع . غير أن تفاؤله كان سابقا بعض الشيئ لأوانه ؛ إذ كتب له جيرفاس ، راهب بريمونتري، رسالة سرية يقول فيها إن نبلاء فرنسا يتجاهلون آراء علماء اللاهوت من دكاترة باريس ، وأنه لا بد وأن يكون هناك عمل ما يتصف بالقسوة للمحافظة على ما قطعه دوقات برجاندى واللورين من عهود على انفسهم . كما نصح في حكمة عدم الجمع بين الفرنسيين والألمان في حملة واحدة ؛ إذ أن الأمتين لا تتعاونان معا تعاونا متناغما. بيد أن العوام من فقراء الناس كانوا يأخذون الصليب في حماسهم ولا يجب تثبيط هممهم بالتأخير.

وفي شهر مايو ١٢١٦م ذهب البابا اينوسنت إلى بيروجيا في محاولة لإنهاء العداوة الطويلة بين جنوا وبيزا ؛ وهناك، وبعد مرض قصير ، مات يوم ١٦ يولية . وقليلة هي العهود البابوية التي كانت أكثر روعة وأكثر انتصارا من الناحية الظاهرية . ومع ذلك ، لم تتحقق قط أعز طموحاته ألا وهى استعادة القدس. وبعد يومين من وفاته ، انتخب

---

(١٩) Fliche, op. cit. pp. 156-216. وعن التاريخ الكامل للحملة الصليبية الخامسة أنظر Donovan, *Pelagius and the Fifth Crusade*، حيث يرد مقال يتصف بالعناية وموثق توثيقا جيدا ، وان كان منحازا انحيازا طفيفا لصالح بيلاجيوس .

الكاردينال المسن سافيلي لمنصب البابا باسم هونوريوس الثالث[٢٠].

وتولي هونوريوس في شغف برنامج سلفه . فبعد أيام قليلة من استخلافه ، كتب إلى الملك حون في عكا يخبره بأن الحملة الصليبية آتية[٢١]. وكان حون يزداد قلقا على قلق؛ إذ كان من المقرر أن تنتهي هدنته مع العادل في العام التالى . كما كتب هونوريوس إلى ملوك أوربا فاستجاب له القليل منهم. وفي الشمال البعيد أخذ الملك إنجى الثاني ملك النرويج الصليب ، لا لشئ إلا ليموت في الربيع التالي ؛ وعندما خرجت الحملة الإسكندنافية كانت تافهة الشأن[٢٢]. وكان الملك أندرو الثاني ملك هنجاريا قد أخذ الصليب فعلا ، لكن إينوسنت أعفاه من الوفاء بعهده في وقت سابق بسبب الحرب الأهلية الدائرة في بلده، والآن أظهر الحماس، لكنه كان لديه مأرب آخر؛ فمليكته كانت من ناحية أمها إبنة أخت الامبراطور اللاتيني هنري امبراطور القسطنطينية الذي كان أبترا، ولذا داعبت الآمال هنري في الميراث . على أنه عندما مات هنرى في يونية ١٢١٦م اختير في مكانه أبوها بطرس (أوف كورتناى)؛ وبدأ تحمس أندرو يخمد ، لكنه وافق أخيرا على أن يكون حيشه على أهبة الإستعداد بحلول الصيف التالى[٢٣]. أما في بلاد الراين السفلى فكانت هناك استجابة جيدة للتبشير ؛ وكان البابا يأمل في أسطول كبير محمّل بالفريزيين[٢٤] على أنه كان هنا تأخير مرة اخرى . كما لم تكن الأنباء الآتية من فلسطين مشجّعة كثيرا ؛ إذ أن حيمس (أوف فيتري)، الذي أرسل هناك أسقفا لعكا بتعليمات لإثارة اللاتينيين المحليين، أرسل تقريرا مريرا عما وجده . إذ أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ويفضلون الحكم الإسلامى ، بينما كان اللاتينيون أنفسهم يعيشون حياة كسولة مترفة خليعة ، وكانوا شرقيين كليّة . ورجال الدين فاسدون بخلاء أصحاب مكائد . ولا أحد جدير بالثناء سوى الأنظمة الدينية العسكرية ، على الرغم من أن المستعمرين الإيطاليين ، الذين كانوا على ما يكفي من الحصافة بحيث توخوا الإعتدال في نفقاتهم ، احتفظوا ببعض الأنشطة والأعمال ؛ غير أن مشاعر الغيرة المتبادلة بين المدن الإيطالية الكبيرة البندقية

---

(٢٠) Filche, op. cit. p. 212.

(٢١) *Regesta Honorii Papae III* (ed. Pressutti), nos. i, 673, i, pp. i, 1178-80.

(٢٢) *Regesta Honorii Papae III*, no. 399, i, p. 71.

(٢٣) Innocent III, letters, xv, 224 (M.P.L. vol.ccxvi, col. 757); Theiner, *Vetera Monumenta*, i, pp. 5-6.

(٢٤) *Regesta Honorii Papae III*, no. 885, i, pp. 149-50.

وجنوا وبيزا حالت دون إمكان التعاون مع بعضها البعض . وفي واقع الأمر، وكما اكتشف الأسقف جيمس ، لم يكن فرنج أوتريميه يرغبون في حملة صليبية جديدة ؛ إذ أن انقضاء عقدين من الزمان زاد من رخائهم المادى . ومنذ وفاة صلاح الدين لم يُظهر المسلمون ميلا للعدوان ، إذ كانوا هم أيضا يستفيدون من التجارة الآخذة في التزايد ، فقد كانت البضائع الآتية من داخل البلاد تملأ أرصفة عكا وصور، ويشهد القصر الذي بناه جون (أوف ابيلين) في بيروت على الرخاء المتجدد . وكانت هناك مستعمرات ايطالية أنشئت بمهارة في مصر ؛ ومع تزايد القوة الشرائية لأوروبا الغربية تزايدا مطردا ، كانت التوقعات رائعة لتجارة البحر المتوسط . على أن ذلك كله كان يتوقف بصورة مقلقلة على الحفاظ على السلام[٢٥].

١٢١٧م : تأخر الصليبين

وكان البابا هونوريوس يفكر بطريقة أخرى . إذ كان يعقد الآمال على أن تبحر حملة عظيمة من صقلية في صيف عام ١٢١٧م . غير أنه عندما حل الصيف ، وبرغم وصول شتى مجموعات الفرسان الفرنسيين إلى الموانى الإيطالية ، لم تكن هناك سفن . ووصل جيش ملك هنجاريا إلى سبالاتو في دالماتيا في شهر أغسطس ، وانضم إليه هناك الدوق ليوبولد السادس دوق النمسا وجيشه[٢٦] . ولم يصل الأسطول الفريزى إلى البرتغال إلا في يولية ، وبقى جزء منه في لشبونة . ولم يبحر الباقى إلى جايتا إلا في أكتوبر ، وبذا كان الوقت متأخرا للغاية للإنطلاق إلى فلسطين إلى أن ينقضى الشتاء[٢٧] . وفي نهاية يولية أمر البابا الصليبين بالتجمع في ايطالياوصقلية للإنطلاق إلى قبرص ؛ على أن وسيلة النقل كانت لا تزال غائبة . وأخيرا وفي أوائل سبتمبر وجد الدوق ليوبولد سفينة في سبالاتو تحمل جماعته الصغيرة إلى عكا ، ولم تستغرق رحلته سوى ستة عشر يوما . وتبعه الملك أندرو بعد حوال اسبوعين. غير أن أبناء سبلاتان لم

---

(٢٥) James of Vitry, *History of Jerusalem* trans. Stewart), P.P.T.S. vol. xi, pp. 56-91.

(٢٦) *Scriptores Rerum Hungaricarum*, Thomas Spalatensis, *Historia Salonitana* III, p.573.

(٢٧) *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*,pp.29-34; *De Itinere Frisonum*,pp.59-68 hricht, *Quinti Belli Sacri Scriptores Minores*,both in

يسمحوا له بأن يأخذ أكثر من سفينتين ، ولـذا بقـى سـواد جيشـه هنـاك(٢٨). في ذات الوقت تقريبا هبط الملك هيو القبرصي في عكا مع ما استطاع جمعه من جنود(٢٩).

كان الحصاد سيئا في سوريا ذلك العام ، وبات من الصعب إطعام جيش متعطّـل . وعندما وصل الملوك ، أوصى جون (أوف برين) بحملة على الفور . وفي يـوم الجمعـة ٣ نوفمبر انطلق الصليبيون من عكا وساروا شمال سـهل بزرعيـل . وبرغـم أن اعدادهـم لم تكن كبيرة ، إلا أنها كانت أكبر من أية أعداد شوهدت في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة . وكان العادل قد جـاء ببعـض الجنـود إلى فلسـطين عندمـا سمـع بـأن المسـيحيين يتجمعون ، غير أنه لم يكن يتوقع غزوا مبكـرا هكـذا . كـانـت قواتـه أقـل عـددا، ولـذ انسحب أمام الصليبيين عند تقدمهم باتجاه بيسان ، مرسلا ابنه المعظّم لتغطيـة القـدس ، بينما انتظر هو في عجلون مهيّأ للتصدى لأي هجـوم علـى دمشـق . ولم يكـن لمخاوفـه مايبررها ؛ إذ كان الجيش المسيحي يفتقر إلى النظام ، فـالملك جـون يعتـبر نفسـه القـائد الأعلى، لكن الجنود النمساويين الهنجاريين كانوا يعتبرون قـائدهم الملـك أنـدرو فقـط ، والقبارصة الملك هيو ، بينما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تطيع قوادها لاغير. واحتل المسيحيون بيسان وخربوها ، ثم راحوا يهيمون على وجوههـم بـلا هـدف عـبر الأردن وأعلى الشاطئ الشرقي لبحر الجليـل ، والتفـوا حـول كفرنـاعوم (الكنيّسـة) ثـم عـادوا خلال الجليل إلى عكا . وكان شاغلهم الشاغل هـو الحصـول علـى المخلفـات الدينيـة ؛ فأبهج الملك أندرو أن يحصل على أباريق المياه التي استخدمت في حفل الـزواج في كفـر كانة (في الجليل)(٣٠).

١٢١٨م : الملك أندرو يعود إلى بلاده

ضجر الملك جون وخطط حملة لنفسه لتدمير الحصن الـذى شـيده المسـلمون فـوق جبل الطور . ولم ينضم إليه هيو ولا أندرو ، ولم ينتظر الأنظمة الدينية العسكرية . وفى الثالث من ديسمبر فشل أول هجوم له على الحصن رغم أن الحامية كانت على استعداد

---

(٢٨) *Regesta Honorii Papae III,* no. 672, i,p. 117; Thomas Spalatensis, p.574: *Annales Claustroneoburgenses (M.G.H. Scriptores,*vol.ix,p.622).

(٢٩) ii, p. 322 *Estoire d'Eracles,*.

(٣٠) *Ibid.* pp. 323-4; Oliver, *Historia Damiatana,* p.165; Johannes Thwrocz, *Chronica Hungarorum (Scriptores Rerum Hungaricarum,*vol.i,p.149).

للتسليم في الواقع . وعندما وصلت الأنظمة الدينية العسكرية بعد ذلك بيومين كانت هناك محاولة ثانية للهجوم ، لم تكن أفضل من سابقتها . ومرة أخرى انسحب الجيش إلى عكا(٣١).

وفي مستهل العام الجديد تقريبا أزمعت مجموعة صغيرة من المتحاربين ، على خلاف نصائح المحليين وبلا إذن من مليكها، الخروج للإغارة والسلب في البقاع وكادت أن تهلك عن آخرها في عاصفة ثلجية عند عبورها لبنان(٣٢). بينما سار الملك أندرو مع الملك هيو إلى طرابس حيث كان بوهمند الرابع ، أمير أنطاكية السابق، الذي ترمل حديثا من زوجته الأولى بليسانس (أوف جبيل)، يحتفل بزواجه من ميليسند أخت هيو غير الشقيقة . وهناك مات هيو فجأة في العاشر من يناير ، تاركا عرش قبرص لطفله هنرى الذي لم يجاوز شهره الثامن ، تحت وصاية أرملته أليس ابنة القدس(٣٣). وعاد الملك أندرو إلى عكا وأعلن عن رحيله إلى أوروبا ؛ لقد أوفى بعهده وأضاف مؤخرا إلى مجموعة آثاره التي جمعها رأس القديس ستيفن ، وقد حان الوقت للعودة إلى وطنه . وعبثا حاول بطريق القدس أن يثنيه عن عزمه بالحجة وبالتهديد . وأخذ جنوده باتجاه الشمال مارا بطرابلس وأنطاكية إلى أرمينا ومنها إلى القسطنطينية بعد أن أخذ أمان المرور من السلطان السلجوقي . إن حملته الصليبية لم تحقق شيئا(٣٤).

وتخلّف ليوبولد دوق النمسا ؛ إذ كان يفتقر إلى المال ، واضطر إلى أن يقترض خمسين ألف بيزانت من جوى إمبرياكو (أوف جبيل)، غير أنه كان على استعداد لمزيد من العمل من أجل الصليب . واستعان به الملك جون للمساعدة في تقوية تحصينات قيسارية ، بينما شرع فرسان المعبد وفرسان التيوتون في تشييد قلعة ضخمة في عثليت جنوبي جبل الكرمل ، قلعة الحجاج . وفي ذات الوقت هدم العادل حصنه الواقع فوق

---

(٣١) *Estoire d'Eracles,* ii,pp.324-5; Oliver, *Historia Damiatana,*pp.165-7; Jamse of Vitry, *History of Jerusalem,* p.119; Abu Shama, ii, pp. 163-4.

(٣٢) *Ibid.* pp. 164-5; Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 167-8.

(٣٣) Ernoul, p. 412; *Estoire d'Eracles,*ii, pp.325,360; *Gestes des Chiprois,* p. 98.

(٣٤) Oliver, *Historia Damiatana,* p.168; James of Vitry, *Epistola,* iii (ed. R-hricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte (Z.K.G.),* vol.xv, pp.568-70;Johammes Thwrocz, *loc. cit.*. حصل أندرو أيضا على رأس القديسة مرجريت ، واليد اليمنى للقديس توماس والقديس بارثولوميو وجزء من عصا هرون.

جبل الطور ، فهو عرضة سهلة للهجوم وليس جديرا بالصيانة(٣٥).

وفي السادس والعشرين من ابريل ١٢١٨ وصل إلى عكا النصف الأول من أسطول الفريزيين ، وبعد اسبوعين وصل النصف الذى كان قد أمضى الشتاء في لشبونة . وكانت هناك أنباء بأن الصليبيين الفرنسيين المحتشدين في ايطاليا على وشك اللحاق بهم. وعلى الفور أخذ الملك جون بالنصيحة حول أفضل سبل الإنتفاع بالقادمين الجدد. لم ينس أحد قط أن الملك ريتشارد نصح بالهجوم على مصر ، كما أن المجلس اللاتيراني ذكر مصر باعتبارها الهدف الرئيسي لأية حملة صليبية . فإذا أمكن طرد المسلمين خارج وادى النيل ، فلن يفقدوا أخصب أقاليمهم وحسب ، وإنما لن يتمكنوا من الإحتفاظ بأسطول في شرق البحر المتوسط ؛ لا ولن يستطيعوا الإحتفاظ بالقدس طويلا ضد هجوم كمّاشة يأتى من عكا ومن السويس . وبتوفر السفن الفريزية تحت تصرف الصليبين ، أصبح لديهم الوسيلة الآن لشن هجوم كبير على الدلتا . وبلا تردد، تقرر أن يكون الهدف الأول هو ميناء دمياط ، مفتاح النيل(٣٦).

أصبح السلطان العادل شيخا مسنّا الآن يود أن يقضي سنواته الأخيرة في سلام . ولكن كان لديه ما يقلقه في الشمال ، وقد مات ابن اخيه الظاهر صاحب حلب عام ١٢١٦م تاركا طفلا كخليفة له يدعى العزيز ، والخصي طغرل قائما بالوصاية . وبرز أخو الظاهر - الأفضل - أكبر أبناء صلاح الدين من تقاعده في سميساط مطالبا بالميراث ومستنجدا بسلطان قونية السلجوقى كيكاوس ؛ وكان سلاجقة الأناضول الآن في ذروة بأسهم، ولم تعد كذلك بيزنطة ؛ وكان امبراطور نيقية في بالغ انشغاله بحارب الفرنج لإزعاجهم ؛ وقد تلاشت قوة الدانشمند ، واستقر رعاياهم الآن طائعين، وبدأ الرخاء يعود إلى شبه الجزيرة . وفي باكورة ١٢١٨م زحف كيكاوس والأفضل على أراضى حلب وتقدموا نحو العاصمة . وكان طغرل الوصى يعلم أن العادل مهدد من الصليبيين، فاستنجد بابن العم الشاب لسيده ، الأشرف صاحب العراق ، وهو ثالث أبناء العادل . وهزم الأشرف الجيش السلجوقي هزيمة نكراء بالقرب من بزاعة ، وانسحب الأفضل عائدا إلى سميساط ، واضطر صاحب حلب إلى الإعتراف بالأشرف سيدا أعلا له ؛ غير

---

(٣٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.325-6; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 169; Abu Shama, ii, pp.164-6.

(٣٦) *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, pp. 37-8; *De Itineri Frisonum*, pp.69-70; Ernoul, pp. 414-15; James of Vitry, *loc. cit.;* Oliver, *Historia Damiatana*, p. 175.أنظر Donovan, op. cit. pp. 36 n., 54.

أن السلاحقة ظلوا بمثابة تهديد إلى أن مات كايكاوس في العام التالي عندما كان يخطط للتدخل في نزاع على الإستخلاف في الموصل . ومكّن ذلك الأشرف من تعزيز قوته ، ومن أن يصبح ندا خطيرا لإخوته في الجنوب[٣٧].

وحتى آخر لحظة يبدو أن العادل كان يأمل في ألاّ تبلغ الحماقة بالفرنج حدا يقطعون فيه السلام ، وقد شاركه آماله إبنه الملك الكامل والي مصر . وكان الكامل على علاقة ممتازة مع البنادقة الذين وقّع معهم معاهدة تجارية عام ١٢٠٨م. وفي ١٢١٥م كان في مصر مالا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر أوروبي . وأدى وصول اثنين من اللوردات بصورة مفاجئة إلى الإسكندرية في ذلك العام إلى إثارة مشاعر الخوف لدى السلطات التى اعتقلت مؤقتا الأوروبيون كلهم، غير أن العلاقات الحسنة قد استعيدت ؛ وفي عام ١٢١٧م استقبل الوالى سفارة بندقية جديدة استقبالا ودودا . ولم يتأثر المسلمون من تسكع الحملة الصليبية غير الفعّال في عام ١٢١٧م. وما كانوا يظنون بوجود أي خطر الآن.

١٢١٨م : الصليبيون ينزلون إلى البر في مصر

فى عيد الصعود[٣٨]، الرابع والعشرين من مايو ١٢١٨م، ركب الجيش الصليبي السفن الفريزية في عكا بقيادة الملك جون ، وأبحر هابطا إلى عثليت لجمع المزيد من المؤن؛ وبعد ساعات قليلة رفعت السفن مراسيها ، لكن الرياح هدأت ؛ وتمكن مجرد القليل منها من مغادرة المرسى والإبحار إلى مصر ، فوصلت أمام مصب النيل في دمياط في السابع والعشرين من الشهر ، وألقت المراسى هناك انتظارا لرفاقهم . ولم يغامر الجنود بادئ الأمر بمحاولة الهبوط إلى البر لعدم وجود ضابط كبير معهم ، غير أنه في التاسع والعشرين من الشهر ، ودون أن يظهر أي اسطول في الأفق ، حرض رئيس اساقفة نيقوسيا، إيوستورجيوس، الجنود على قبول الكونت سيمون الثاني (أوف ساربروك) قائدا لهم ، وعلى اقتحام الضفة الغربية لمصب النهر ؛ ولم تكن هناك معارضة حادة ، وكادت العملية أن تكتمل عندما ظهرت في الأفق أشرعة أسطول الصليبيين الرئيسى . وسرعان ما دخلت السفن عبر حاجز الأمواج ، وهبط الملك جون ودوق

---

(٣٧) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 624-8.

(٣٨) (المترجم) : عيد الصعود Ascension Day ذكرى صعود المسيح الى السماء في اليوم الأربعين بعد قيامته (في العقيدة المسيحية).

النمسا والسادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة إلى الشاطئ(٣٩).

تقع دمياط على الضفة الشرقية للنهر وعلى مسافة ميلين منه، تحمي ظهرها بحيرة المنزلة . وكما أظهرت تجربة الفرنج عام ١١٦٩م، ليس في الإمكان مهاجمتها بصورة تتصف بالكفاءة إلا عن طريق الماء والبر معا. وكان المصريون في عام ١١٦٩م قد مدوا سلسلة بعرض النهر أسفل المدينة قليلا من الضفة الشرقية إلى برج على جزيرة ملاصق للضفة الغربية ، فسدّت بذلك الحيز الوحيد الصالح للملاحة ؛ وأقاموا جسرا من القوارب خلف السلسلة . وحدد الصليبيون هذا البرج على أنه أول هدف لهم.

وعندما أيقن المسلمون أن الحملة الصليبية موجّه ضد مصر ، سارع العادل بتجنيد جيش في سوريا ، بينما سيّر الكامل الجيش المصرى الرئيسى من القاهرة باتجاه الشمال وعسكر في العديلية جنوب دمياط بأميال قليلة . بيد أنه لا يملك ما يكفى من الرجال والسفن لمهاجمة مواقع المسيحيين برغم تقوية البرج . وفي نهاية يونية فشل أول هجوم جاد على الحصن، وعندئذ اقترح أوليفر (أوف بادربون)، وهو مؤرخ الحملة بعد ذلك، صنع وسيلة جديدة تحمّل هو وأحد أبناء جلدته تكاليفها . وهي عبارة عن برج مبني على سفينتين مربوطتين معا ، ومغطى بالجلود ومثبت فيه السلالم والآن أصبح في الإمكان مهاجمة الحصن من النهر ومن الشاطئ أيضا(٤٠)

وفي يوم الجمعة السابع عشر من أغسطس، أقام الجيش المسيحي صلاة شفاعة مهيبة، وبعد أسبوع ، في عصر الرابع والعشرين ، بدأ الهجوم . وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة تقريبا ، وبعد قتال شرس، تمكن الصليبيون من تثبيت أنفسهم فوق الإستحكامات واندفعوا إلى داخل الحصن . وقاتلت الحامية بلا توقف إلى أن بقي من رجالها مائة رجل على قيد الحياة ، ثم استسلمت . وكانت الأسلاب الموجودة في الحصن وفيرة ، وأقام المنتصرون جسرا صغيرا من القوارب لنقلها إلى الضفة الغربية . ثم إنهم قطعوا السلسلة وهدموا جسر القوارب الذي يعبر المجرى الرئيسي، وباتت سفنهم قادرة على الإبحار فيها حتى أسوار دمياط(٤١).

---

(٣٩) James of Vitry, *History of Jerusalem*, pp. 118-19; Oliver, *Historia Damiatana*, pp.175-7; *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, pp. 38-9; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 326-7.

(٤٠) Abu Shama, ii, p. 165; *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, trans. Blochet, pp.240-1; Oliver, *Historia Damiatana*, pp.179-82.

(٤١) Oliver *Historia Damiatana*, pp. 182-4; *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, p

كان العادل مريضا في دمشق عندما وصلته أنباء سقوط الحصن بعد أيام قليلة . وكان قد علم لتوه أن إبنه المعظّم قد استولى على قيسارية ودمّرها ، غير أن صدمة الكارثة في دمياط كانت فوق احتماله ، فمات في الحادى والثلاثين من أغسطس وهو يناهز الخامسة والسبعين . وكان صفاء الدين ، كما كان الصليبيون يسمونه ، يفتقر إلى شخصية أخيه صلاح الدين المرموقة ، وقد أظهر تعامله مع أبناء أخيه صلاح الدين نوعا من الخيانة والخبث . بيد أنه حافظ على وحدة الإمبراطورية الأيوبية وكان حاكما ذا اقتدار وتسامح ومحبا للسلام . وكان في أعين الصليبيين دائم الطيبة وشريفا ، ولقد حاز اعجابهم واحترامهم على الدوام. وخلفه في سوريا ابنه الأصغر المعظّم وفي مصر ابنه الأكبر الكامل[٤٢].

لم تكن كارثة دمياط كارثة ضخمة على النحو الذي كان يخشاه العادل . فلو أن المسيحيين واصلوا الحرب وهاجموا دمياط من فورهم ، فربما سقطت المدينة ، لكنهم بعد استيلائهم على الحصن ، ترددوا وقرروا انتظار التعزيزات . وعاد الكثير من الفريزيين إلى وطنهم ، لا لشئ إلا لُيعاقبوا على تنكرهم للقضية بفيضان كاسح اكتسح فريزيا في اليوم التالي لوصولهم هناك . وعُرف آنذاك أن الحملة البابوية التي طال التخطيط لها قد غادرت ايطاليا فعلا . ولقد كان هناك تأخير مستمر ، ولكن البابا هونوريوس تمكن في نهاية الأمر من تجهيز اسطول بتكلفة ثمانية وعشرين الف مارك فضى لنقل الجنود المنتظرين لما يزيد على عام في برنديزى . وأمّر عليهم الكاردينال بيلاجيوس (أوف سانت لوتشيا)[٤٣].

١٢١٨م : وصول الكاردينال بيلاجيوس

وفي ذات الوقت تقريبا كان نبيلان فرنسيان هما هيرفي كونت نِفرس، وهيو (أوف

40; John of Tulbia, *De Domino Johanne*, in Rohrich, loc. cit., p. 120; *Histoire des Patriarches*, p. 243.

(٤٢) Abu Shama, ii, p. 170; Ibn al-Athir, ii, pp. 116, 148; Ibn Khallikan, *Biographical Dictionary*, iii, p. 235. ويقول ابن الأثير إن العادل كان في الخامسة والسبعين ، بينما يقول ابن خلكان إنه كان في الثلاثة والسبعين من عمره . ويرد وصف خيالي لفراش مرضه في *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 229-30.

(٤٣) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 186; Alberic of Trois Fontaines, p. 788; *Regesta Honorii Papae III*, nos. 1350, 1433, i, pp. 224, 237.

لوسينان) كونت دي لا مارش ، يفاوضان أبناء جنوا على سفن لنقل مجموعة الصليبيين الفرنسيين والإنجليز إلى الشرق . ورغم اشتهار كونت نِفرس بأنه ابن الكنيسة الشرير ، سمح له البابا بدفع تكاليف النقل من ضريبة قدرها جزء من عشرين من دخل الكنائس الفرنسية. وانضم إلى الكونتين في جنوا رئيس أساقفة بوردو ، وليم الثاني ، وأساقفة باريس ولاوون وآنجرز وغيرهم من ذوى الرتب الأقل ، وإيرل[٤٤] كل من تشستر، وآروندل ، وديربي ، و وينشستر . وأرسل البابا كاردينال كورسون ، روبرت ، ليكون الموجِّه الروحى للأسطول ، وإنما بلا أية سلطات بابوية[٤٥].

وصل الكاردينال بيلاجيوس وحملته إلى المعسكر المسيحي في منتصف سبتمبر . وكان بيلاجيوس أسبانيا وعلى قدر كبير من المثابرة والخبرة الإدارية وإن كان يفتقر تماما إلى الحذق؛ إذ سبق تعيينه لتسوية مسألة الكنائس اليونانية في امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، ولم يصب نجاحا إلا في إثارة المزيد من العداوة المريرة لروما . وما أن وصل إلى المعسكر حتى ثار الإضطراب ؛ ذلك أن جون (أوف برين) كان مقبولا كقائد للحملة الصليبية ، وكانت قيادته موضع خلاف في السنوات السابقة من ملكي هنجاريا وقبرص، وقد رحل أحدهما ومات الآخر . واعتبر بيلاجيوس نفسه الوحيد المسؤول عن الحملة بصفته المندوب البابوى ، خاصة وأن التنابذ الذى طغى على شتى الأمم المشاركة كان جليًا واضحا بصورة فائقة وليس هناك سوى ممثل البابا الذي يستطيع تطويعهم . وجلب معه انباء بأن الامبراطور الغربي فريدريك الثاني قد وعد باللحاق به مع جيش امبراطورى ، وعندما يصل فلا بد من أن يُمنح القيادة العسكرية العليا . ولكن بيلاجيوس لن يقبل أية أوامر من الملك جون الذي كان ، قبل كل شئ ، مجرد ملك من خلال زوجته الميّتة[٤٦].

وفي اكتوبر أصبح لدى الملك العادل ما يكفي من التعزيزات لشن هجوم على معسكر الصليبيين بأسطول صغير أرسله شمال النهر، فرُد بفضل جهد الملك جون فى المقام الأول، وبعد أيام قلائل بنى المسلمون جسرا عبر النيل إلى الشمال قليلا من المدينة.

---

(٤٤) (المترجم) : إيرل :Earl لقب انجليزى دون المركيز وفوق الفيكونت

(٤٥) *Regesta Honorii Papae III*, nos. 1498, 1543, 1558, i, pp. 248, 256, 260. وللإطلاع على قائمة صحيحة لمؤلاء الصليبيين أنظر Greven, 'Frankreich und der funfte Kreuzzug', *Historische Jahrbuch*, vol. xlii. ويورد Matthew of Westminster أسماء الصليبيين الإنجليز. (*Flores Historiarum*, ii, p. 167).

(٤٦) أنظر Donovan, op. cit. pp. 46-9 والحواشى.

ونظّم بيلاجيوس إغارة على اعمال البناء باءت بالفشل ، لكن الكامل لم يواصل البناء لنقل جيشه عبر النهر ، وبدلا من ذلك شن هجوما آخر شرسا من الماء ، لكنه جاء بعد فوات الأوان ؛ إذ جاءت الكتيبة الأولى من الصليبيين الفرنسيين وقادت الدفاع . ووصل الهجوم الثاني إلى المعسكر نفسه لكنه رُدّ إلى النهر حيث غرق الكثير من جنود المسلمين(٤٧).

وبعد وصول الجيش الفرنسي والإنجليزي كله في وقت متأخر من أكتوبر ، مر القتال بفترة من الهدوء . وتسببت وفاة العادل في تأخير التعزيزات التي كان الكامل ينتظرها من سوريا ، وهو الآن ينتظر الجيش الذي وعد أخوه المعظّم بارساله . وكان للمسيحيين مشاكلهم الخاصة بهم ؛ إذ حفروا قناة تصل البحر بالنهر إلى الشمال من جسر المسلمين ، لكنهم لم يستطيعوا ملأها . وفي ليلة ٢٩ نوفمبر هبت عاصفة هوجاء دفعت بمياه البحر إلى المنطقة المنخفضة حيث يوجد معسكرهم ؛ فامتلأت كل خيمة بالماء وتشرّبت المخازن به إيضا ، وتحطمت قوارب كثيرة ، ودفعت المياه بقوارب أخرى عبر النهر إلى معسكر المسلمين ، وغرقت الخيول ، وعندما انحسر الماء كانت هناك أسماك كثيرة ملقاة في كل مكان ، وهو مشهد لطيف، كما يقول المؤرخ أوليفر (أوف بادربورن)، يبهج أي شخص يراه. ولتجنب تكرار ذلك ، أمر بيلاجيوس ببناء حاجز بسرعة . واستخدمت كل أنواع الحطام ، حتى الأشرعة الممزقة وجثث الخيول ، لزيادة تعلية الحاجز. وكانت النتيجة الوحيدة الحسنة لهذا الفيضان هى أن امتلأت القناة، وأصبح بمقدور القوارب المسيحية أن تتوغل فى النهر(٤٨).

وقبل أن يكتمل اصلاح المعسكر مباشرة ضرب الجيش وباء خطير . فكان الضحايا يعانون من الحمى المرتفعة واستحالت جلودهم إلى اللون الأسود ؛ وحصد الوباء أرواح سُدس الجنود على أقل تقدير ، بمن فيهم الكاردينال روبرت كورسون . وبات الناجون من الوباء في حالة من الضعف والإكتئاب ، ثم جاء في أعقاب ذلك شتاء قارس بصورة غير عادية . وكان من حسن حظ المسيحيين أن عانى المسلمون كذلك من المرض

---

(٤٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 190-2; *Histoire des Patriarches*, p. 394; *Gesta Obsidionis Damiate* (in Rohricht, op. cit. pp. 79-80); John of Tulbia, p. 123

(٤٨) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 131-2, 196-7; *Gesta Obsidionis Damiate* p. 82; John of Tulbia, p. 124; *Libre Duellii Christiani in Obsidione Damiate Exacti* (in Rohricht, op. cit.), pp. 148-9; James of Vitry, *Epistola v (Z.K.G.* vol. xv, pp. 582-3); *Histoire des Patriarches*, pp. 245-6

والبرد(٤٩).

١٢١٩م : احتلال العديلية

وفي أوائل فبراير ١٢١٩م رأى بيلاجيوس تعذر الحفاظ على معنويات الجنود في غيبة النشاط . ولذا حث الجيش في يوم السبت ٢ فبراير على الانطلاق لمهاجمة المسلمين؛ لكن عاصفة ممطرة تعمي الأبصار أجبرتهم على العودة . وفي يوم الثلاثاء التالي جاءت المعسكر أنباء تقول إن السلطان ينسحب بجيشه ، فسارع الصليبيون عابرين النهر إلى العديلية ووجدوا الموقع مهجورا ، وخرجت جماعة من حامية دمياط لملاقاتهم ، لكنهم رُدوا واستولى الصليبيون على العديلية ، وبذا عزلوا المدينة تماما(٥٠).

ويُعزى انسحاب السلطان الكامل المفاجئ إلى اكتشافه مؤامرة في بطانته . ذلك أن أحد الأمراء ، عماد الدين احمد بن المشطوب ، كان يخطط لقتله واستبداله بأخيه الفائز، ولم يعرف السلطان في يأسه عدد المتورطين من بين حاشيته ، ففكر في اللجوء إلى اليمن وكان واليها ابنه المسعود ، لكنه علم أن أخاه المعظّم في طريقه أخيرا لمساعدته . فانتقل مع جنوده باتجاه الجنوب الشرقي إلى أشمون حيث التقى الأخوان السلطانان يوم ٧ فبراير. وكان وجود المعظّم مع جيش ضخم بمثابة رادع للمتآمرين ؛ وألقى القبض على ابن المشطوب وأرسل إلى السجن في الكرك ، ونُفي الأمير الفائز إلى سنجار ومات في ظروف غامضة في الطرق إلى هناك . لقد أنقذ الكامل عرشه ، ولكن على حساب ضياع دمياط(٥١).

وحتى بمساعدة المعظّم ، لم يستطع الكامل طرد المسيحيين . إذ أن النهر والأهوار والقنوات حالت دون استغلال المسلمين لتفوقهم العددى ؛ وفشلت الهجمات التى شنها المسلمون على المعسكرين في الضفة الغربية وفي العديلية أيضا . فضرب السلطان

---

(٤٩) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 192-3; James of Vitry, loc. cit.; John of Tulbia, p. 125; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 83; *Histoire* des Patriarches, p. 249.

(٥٠) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.194-201; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp.83-4; *Estoire d'Eracles*, ii, p.337; John of Tulbia, loc.cit.

(٥١) Ibn al-Athir, ii, pp.116-17; Ibn Khallikan, iii, p. 240; *Histoire des Patriarches*, pp. 246-7.

معسكره في فارسكور جنوب دمياط بستة أميال تقريبا ، على أهبة الإستعداد لمهاجمة مؤخرة الصليبيين إذا حاولو الهجوم على دمياط. واستمر الوضع جمدا طوال الربيع . ونشبت معارك ضارية يوم أحد السّعف[٥٢]، ومرة أخرى يوم أحد العنصرة[٥٣] حاول فيها المسلمون شق طريقهم إلى داخل العديلية دون جدوى . أما في دمياط ذاتها، وعلى الرغم من أن الطعام كان ما يزال وفيرا ، ازداد نقص عدد افراد الحامية بسبب المرض ؛ لكن المسيحيين لم يجرؤا عل شن هجوم عليها[٥٤].

وفي تلك الأثناء قرر السلطان المعظّم هدم القدس . إذ قد يكون من الضرورى عرض القدس على المسيحين لإنهاء الحرب ؛ وفي هذه الحالة سوف يتسلمونها أطلالا ويتعذر الدفاع عنها ، وبدأ تدمير الأسوار يوم ١٩ مارس ، وسبب الذعر في المدينة ، إذ ظن المواطنون المسلمون أن الفرنج قادمون ، فهرب الكثير منهم مذعوريس عبر الأردن. ثم راح الجنود ينهبون المنازل غير الآهلة ، وحاول بعض المتعصبين تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكن السلطان لم يكن ليسمح بذلك . وبعد القدس ، هدمت قلاع الجليل وطورون وصفد وبانياس ، ودمّرت كلها . وفي الوقت نفسه أرسل السلطانان يناشدان العون في سائر أنحاء العالم الإسلامى ، موجّهين دعوتهما بصورة خاصة إلى الخليفة في بغداد الذى وعد بإرسال جيش عرمرم لم يصل قط[٥٥].

وأعقب الشتاء الثلجى صيف حارق ، وهبطت معنويات الصليبيين ثانية . ومرة أخرى أصر بيلاجيوس على العمل ؛ فبعد صد هجوم اسلامى شديد على المعسكر يوم ٢٠ يولية وبخسائر فادحة في كل من الجانبين ، ركّز الصليبيون على قصف أسوار المدينة. و لم يفلح قصفهم هذا لأن النيران الإغريقية التي كان المدافعون يستخدمونها سببت أضرارا جسيمة لآلاتهم ، و لم يخمدها النبيذ ولا الأحماض ، وبينا هم منهمكون في قصف الأسوار ، شن المسلمون هجوما آخر أوشك على تدمير الجيش المسيحي كله

---

(٥٢) (المترجم) : احد السّعف : Palm Sunday يوم الأحد السابق على عيد الفصح ، وفيه احتُفل بدخول المسيح بيت المقدس بمواكب زيّاحية حمل فيها السّعف

(٥٣) (المترجم) : أحد العنصرة Whit-Sunday ، يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح ، إحياء لذكرى هبوط الروح القدس في عيد العنصرة (انظر سفر أعمال الرسل ، الإصحاح الثاني.)

(٥٤) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 202-6; *Liber Duellii,*pp. 151-2; *Gesta Obsidionis Damiate,* pp. 87-90.

(٥٥) Abu Shama, ii, pp. 173-4; Ibn al-Athir, ii, p. 119; *Histoire des Patriarches, p. 52; Estoire d'Eracles,* ii, p.339; Oliver, *Historia Damiatana,* p. 203

الذي لم ينقذه سوى هبوط الظلام فجأة . وشن الصليبيون هجوما ثانيا على الأسوار يوم ٦ أغسطس ، لكنه أخفق بنفس القدر(٥٦).

وأثارت الهزائم الجنود العاديين في الحملة الصليبية ودفعتهم إلى العمل. وألقوا باللائمة على قادتهم لتراخيهم وسوء تصرف قوادهم؛ إذ قُتل الكثير من النبلاء المرموقين، بمن فيهم كونتات لا مارش، وبار-سور-سين ، ووليم (أوف تشارتر) والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، وعاد آخرون إلى أوروبا ؛ وغادر الجيش في شهر مايو ليوبولد دوق النمسا الذي كان أكثر الأمراء طاقة ونشاطا ؛ غير أنه لا يلام على عودته إلى بلده بعد أن قدم خدماته في الشرق طوال عامين ، ومحا بشجاعته سوء السمعة التي لطخت والده من جراء خلافاته الكثيرة مع قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . وقد أخذ معه إلى بلده كِسْرَة من الصليب الحقيقي ، على أن القافلة التي أخذته إلى أوروبا كانت تضم آخرين بدا رحيلهم هروبا من القضية(٥٧). وفي أواخر أغسطس ، وبينما كان الملك جون يتشاحن مع بيلاجيوس حول الإستراتيجية ، فيدافع أحدهما عن تشديد الحصار ، بينما يصر الآخر على شن هجوم على معسكر السلطان ، ثار الجنود وأخذوا في أيديهم زمام الأمور ، وفي ٢٩ أغسطس خرجوا متدفقين في فوضى عارمة لمواجهة خطوط المسلمين . وتظاهر المسلمون بالانسحاب ثم قاموا بهجوم مضاد . وحاول بيلاجيوس تولي القيادة ، وبرغم نصائحه ، استدارت الكتيبة الإيطالية وولت الأدبار ، وسرعان ما تفشى ذعر عام ، ولم ينقذ الباقين على قيد الحياة ومعسكرهم سوى مهارة الملك جون والنبلاء الفرنسيين والإنجليز والأنظمة الدينية العسكرية(٥٨).

---

(٥٦) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 208-10; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp.87,90-7; John of Tulbia, pp.127-8.

(٥٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 188, 207-8; *Gesta Obsidionis Damiate, p. 90; Liber Duellii*, p. 258. وعن آثار المخلفات الدينية التي حصل عليها ليوبولد ، أنظر Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, ii, p.283. وكان كونت بار-سور-سين هو Milo III of Le Puiset.

(٥٨) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 213-19; *Fragmentum Provinciale de Captione Damiatae* (in Rohricht, op. cit.), pp. 185-92; *Gesta* Obsidionis Damiate, pp. 101-4; John of Tulbia, pp. 132-3; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 340-1.

١٢١٩م : القديس فرانسيس (أوف اسيسي)

كان هناك زائر بارز للمعسكر راح يرقب المعركة في أسى بئيس ، وهو الأخ فرانسيس (أوف أسيسي) . لقد جاء إلى الشرق وهو يظن - كظن كثير من الطيبين الحمقى قبله وبعده - أن سفارة سلام يمكنها أن تتوصل إلى السلام . وقد طلب الآن الإذن من بيلاجيوس للذهاب لمقابلة السلطان . وبعد قليل من التردد وافق بيلاجيوس ، وأرسله تحت راية الهدنة إلى فارسكور . وارتاب حراس المسلمين بادئ الأمر لكنهم سرعان ما قرروا أن أي شخص على هذا القدر من البساطة ، وبهذه الرقة ، وبتلك القذارة الطاغية ، لابد وأن يكون مجنونا ، وعاملوه بما يجب من احترام لشخص به مس من الرب . وأخذوه إلى السلطان الكامل الذي انبهر به ، وأنصت إلى مناشدته في صبر، وكان السلطان فائق الطيبة وبالغ التحضر بحيث لم يسمح له بأن يشهد على عقيدته عن طريق اختبار التعذيب بالنار[٥٩]؛ كما لم يجازف بما قد تثيره مناقشة عامة حول الدين من مرارة . وعرضت على فرانسيس هدايا كثيرة لكنه رفضها ، وأعيد إلى المسيحيين يحيط به حرس الشرف[٦٠].

ولم يكن تدخل القديس ضروريا في الواقع ، إذ كان الكامل نفسه يجنح إلى السلم. فقد ارتفع النيل في ذلك الصيف ارتفاعا طفيفا ووجدت مصر نفسها مهددة بالمجاعة ؛ وكانت الحكومة في حاجة إلى كل مواردها لإستجلاب الطعام على عجل من الأراضي المجاورة . وكان المعظّم في شوق للعودة مع جيشه إلى سوريا؛ ولم يكن أيّ من السلطانين سعيدا بأنشطة أخيهما الأشرف في الشمال . وفي بغداد كان الخليفة تحت سيطرة جلال الدين خوارزم شاه الذي دمّر أبوه محمد الأملاك السلجوقية في ايران وأسس امبراطورية ممتدة من نهر الإندوس إلى نهر دجلة[٦١]. ومن الممكن استخدام جلال الدين ضد الأشرف ، بيد أنه نظرا لطموحاته المعروفة كان من الخطورة تشجيعه على أن يبلغ هذا الشأو البعيد . ولذلك كان المعظّم على استعداد لمساندة الكامل في أية

---

(٥٩) (المترجم): اختبار التعذيب أو المحاكمة بالتعذيب :Ordeal طريقة ألمانية قديمة لتقرير ما إذا كان المشتبه فيه مذنبا أو بريئا بإخضاعه لإختبار بدني ، مثل وضع يده في ماء مغلي أو مروره بين أكوام محترقة بالنيران ، فإذا مر بهذا الإختبار بأمان ، يؤخذ ذلك على أنه تبرئة إلهية

(٦٠) *Acta Sanctorum*, October 4, pp. 611 ff. See van Ortroy 'Saint Francois et son Voyage en Orient' in *Analecta Bollandiana*, vol. xxxi. ويبدو أن القصة التى أوردها Ernoul, p. 431 حول رجال الدين الذين لم يسمّهم تشير الى زيارة القديس للسلطان

(٦١) (المترجم) : نهر الإندوس:Indus نهر في جنوب آسيا ينبع من جنوب غرب التبت ويتدفق غربا عبر جامو وكشمير في الهند، ثم الى الجنوب الغربي خلال باكستان ليصب في بحر العرب

مفاتحة وديّة مع الفرنج . وفي وقت مـا مـن شـهر سـبتمبر وصـل إلى الصليبيـين سـجين فرنجي من قبل السلطان يعرض هدنـة قصـيرة ويعـرض استعداد المسـلمين للتخلـي عـن القدس ؛ وقبلت الهدنة ، ولكن المسيحيين رفضوا مناقشة المزيد من شروط السلام[٦٢].

١٢١٩م : الكامل يعرض شروط السلام

وأمضـى الجانبـان كلاهمـا الهدنـة في ترميـم دفاعاتهمـا . كمـا وجـد الكثـير مـن الصليبيين فرصة سانحة للعودة إلى أوطانهم ، وقد سبق أن رحل البعض في بداية الشهر ، وفي ١٤ سبتمبر أبحر عدد آخر منهم بملأ اثني عشرة سفينة . وبعد أسبوع وصل اللورد الفرنسي سوفاري (أوف موليون) مع صحبة كبيرة نقلت على عشرة قوادس شراعية من جنوا[٦٣]. وعندما خرق الكامل الهدنة وهاجم الفرنج يوم ٢٦ من الشهر تولى القادمون الجدد الدفاع بنجاح[٦٤].

وكان الكامل ما يزال يأمل في السـلام ؛ إذ كـان مدركـا أن دمياط لـن تصمـد ، فعدد أفراد حاميتها انكمش للغاية من جراء المرض بحيث لم يتوفر ما يكفي مـن الرجـال على الأسوار ، وقد باءت بالفشل محاولاته ادخال التعزيزات اليها ، كما لم ينجح الخونة في المعسكر ممن اشترى خدماتهم في أيّ من محاولاتهم . وفي نهاية اكتوبر أرسل فارسين من الأسرى لينقلا إلى الفرنج شروطه النهائية ، وهـي أنـه في حالـة جلائهـم عـن مصـر سوف يعيد اليهم الصليب الحقيقـي ، وسـوف يحصلـون علـى القـدس، وكـل فلسـطين الوسـطى والجليـل ، ولـن يحتفـظ المسـلمون إلا بـالحصون الواقعـة في منطقـة الأردن ، وسوف يدفعون لهم إتاوة[٦٥].

ولقد كان عرضا يأخذ بالألباب . إذ يمكن بدون حرب استعادة المدينة المقدسة مع

---

(٦٢) Oliver, *Historia Damiatana, p. 218; Gesta Obsidionis Damiate,* p. 105.

(٦٣) Oliver, *Historia Damiatana, loc. cit; Gesta Obsidionis Damiate,* p. 104; John of Tulbia, p. 133; James of Vitry, loc.cit..

(٦٤) Oliver, *Historia Damiatana, p. 219; Fragmentum Provinciale, pp. 193-4; Gesta Obsidionis Damiate, p. 106; Liber Duellii, p.160.*

(٦٥) Oliver, *Historia Damiatana, p.222; Estoire d'Eracles,* ii, pp. 341-2; Ernoul, p. 435; Maqrisi (trans. Blochet), ix, p. 490; *Histoire des Patriarches, p. 253; Gesta Obsidionis Damiate,* pp. 109-10; Ibn al-Athir, ii, p. 122.

بيت لحم والناصرة والصليب الحقيقي إلى العالم المسيحي . ونصح الملك حنون بقبول العرض ، وأيده باروناته هو نفسه وبارونات انجلترا وفرنسا وألمانيا . بيد أن بيلاجيوس لم يوافق على أي من هذا الشروط ، ولا بطريق القدس . إذ كانا يعتقدان أن الخطأ كله في التوصل إلى تفاهم مع الكفرة؛ ووافقتهما الأنظمة الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية؛ فقد هُدمت القدس وحصون الجليل ، ويستحيل على أية حال الإحتفاظ بالقدس بدون السيطرة على منطقة الأردن . وعارض الإيطاليون الشروط بنفس القدر. وبرغم أن المدن الإيطالية كانت قليلة الرغبة في إحداث صدع في العلاقات مع مصر ، فإن حدوث الصدع الآن بالفعل جعلهم يرغبون في الإحتفاظ بدمياط كمركز تجاري ؛ و لم يكن ضم أراض داخل البلاد يستهوى تلك المدن الإيطالية . وتفاقم الخلاف بين الفريقين بصورة ملؤها المرارة حتى أن أسقف عكا ، جيمس ، اعتقد أن السلطان قدم هذا العرض لا لشئ سوى أن يُحدث الشقاق بينهم . وبإصرار بيلاجيوس رفض العرض(٦٦).

وبعد أيام قلائل عادت مجموعة استكشاف كان بيلاجيوس قد أرسلها لتعلن أن سور دمياط الخارجي ليس عليه رجال ، وفي اليوم التالي، الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٢١٩م تقدم الصليبيون بقواتهم وتسوروه ، والسور الداخلي كذلك، بلا مقاومة تذكر . وفي داخل المدينة وجدوا رجال الحامية كلهم تقريبا يعانون المرض ، و لم يكن هناك على قيد الحياة من المواطنين سوى ثلاثة آلاف شخص ، كلهم في حالة من الضعف البالغ بحيث لا يستطيعون حتى دفن موتاهم . وكان الطعام والمال وفيرا ، غير أن المرض قام بما كان مفروضا أن يقوم به الصليبيون . وما أن استولى الصليبيون على المدينة كلها حتى احتجزوا ثلاثمائة من وجهاء المدينة كرهائن ؛ وسلموا الأطفال الصغار لرجال الدين لتعميدهم واستخدامهم في خدمة الكنيسة ، وباعوا من تبقى من المواطنين رقيقا. وكان من المقرر تقسيم المال فيما بين الصليبيين بحسب رتبة كل منهم ، غير أن كل ما أعلنه المندوب البابوى من لعنات للسارقين، لم يمنع الجنود من سرقة الأشياء الثمينة واخفائها(٦٧).

---

(٦٦) James of Vitry, *Epistola*, vi (Z.K.G. vol. xvi, pp. 74-5); Oliver, *Historia Damiatana*, p. 223, and *Epistola Regi Babilonis*, p. 305; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 342; letter of French lords to Honorius in Rohricht, *Studien zue Geschichte des Funften Kreuzzuges*, p.46; Maqrisi, *loc. cit.*.

(٦٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 236-40; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 111-14; *Fragmentum Provinciale*, pp. 196-200; Ibn Khallikan, iv, p. 143;

وتمثلت الخطوة التالية في ضرورة الاتفاق على حكم دمياط. وعلى الفور طالب الملك حون بأن تكون جزءا من مملكة القدس وأيده في ذلك الأنظمة الدينية العسكرية والنبلاء العلمانيين . وحاجج بيلاجيوس بأن المدينة المهزومة تنتمي إلى العالم المسيحي كله، أي إلى الكنيسة ؛ غير أنه خضع بعدما وجد الرأي العام ضده وبعد أن هدد جون بالإبحار عائدا إلى عكا . وبامكان الملك أن يحكمها إلى أن ينضم فريدريك الألماني إلى الحملة الصليبية[٦٨] . وفي تلك الأثناء أرسل جزءا من الجيش لمهاجمة تانيس الواقعة على المصب التانيسي للنيل على مسافة أميال قليلة إلى الشرق ؛ فوجد الجنود أن حاميتها هجرتها قد خوفا ، فعاد الصليبيون بمزيد من الأسلاب ، لم تؤد إلاّ إلى مزيد من المشاحنات . وقد ظن الإيطاليون خاصة أنهم قد خُدعوا ، ولمّا وجدوا بيلاجيوس رافضا مناصرتهم انقلبوا على أعقابهم في تمرد حقيقي ؛ فكان لزاما على الأنظمة الدينية العسكرية طردهم من المدينة . وبحلول الشتاء كان الجيش المنتصر كله يتأجج سخطا[٦٩] .

١٢٢٠م : بيلاجيوس ينشد حلفاء

تنبأ بيلاجيوس ، في غمرة ابتهاجه الأولى ، بالدمار النهائي للإسلام . فسوف تهزم الحملة الصليبية مصر كلها ؛ ولا شك أن العون سيأتي من ذلك العاهل المسيحي ذي الشهامة ملك جورجيا . كما أن هناك بريستر جون الذي قالت الشائعات إنه ينتظر ليضرب ضربة جديدة من أجل العالم المسيحي، وقد ظن بادئ الأمر أن بريستر جون إن هو إلا نجاشي اثيوبيا الذي لم يرد قط ، مع ذلك ، على رسالة من البابا أرسلها قبل أربعين سنة[٧٠]. على أن هناك الآن مرشّحا جديدا للقيام بهذا الدور وهو عاهل شرقي يدعى جنكيز خان . ولسوء الحظ لم يكن للحلفاء المقصودين من تأثير ؛ إذ أن المغول التابعين لجنكيز خان هزموا جيش الملك جورج ، وهو ملك جورجيا ، هزيمة نكراء عام ١٢٢٠م على حدود أذربيجان ، ودمّرت القوة العسكرية الهائلة التي بنتها الملكة تمار .

Ibn al-Athir, ii, p. 119; Abu Shama, pp. 176-7.

(٦٨) *Gesta Obsidionis Damiate,* p.115; John of Tulbia, p. 139; Ernoul, p. 426.

(٦٩) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 240-1; John of Tulbia, p. 139; *Liber Duellii,* p. 166.

(٧٠) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 231-5. وقد تأثر بيلاجيوس أيضا بنبوءة اسلامية واعدة. وعن بريستر جون انظر أعلاه، الجزء الثاني ، (ص. ٤٧٤) والملحوظة (٣٩).

ولم يعبأ المتصرون بمهاجمة الإمبراطورية الأيوبية[٧١]. أما التعاون الأكثر جدية فكان متوقعا من أعظم عواهل غرب اوروبا، فريدريك، ملك ألمانيا وصقلية.

وقد سبق أن أخذ فريدريك الصليب عام ١٢١٥م ، لكن البابا إينوسنت منحه الإذن بتأجيل الحملة الصليبية حتى يفرغ من ترتيب الأمور في ألمانيا . وما يزال فريدريك يتلكأ؛ إذ وعد البابوية بتسليم عرش صقلية الذي ورثه وهو صبي لإبنه الصغير هنري . لكنه سرعان ما اكتشف أنه بمعاودة تصميمه على الذهاب في حملة صليبية فإنه إنما يرضى بتقسيم مملكته ، وسوف يساوم البابا على تتويجه الإمبراطوري . وكانت رغبته في الذهاب إلى الشرق رغبة أصيلة ، برغم أن دوافع الذهاب ترجع إلى الطموح أكثر مما ترجع إلى التقوى؛ إذ أنه ورث عن أبيه هنري السادس تطلعاته الشرقية ، لكنه لن يحاول تحقيقها إلا كامبراطور ممالكه الاوروبية آمنه في قبضته . وكان ينبغي لنواياه أن تكون واضحة جلية للبابا ؛ على أن هونوريوس ، الذي كان ذات مرة معلما له ، كان رجلا بسيطا اعتبر أن وعوده أصيلة ، ودأب على ارسال الرسائل إلى الصليبين في مصر يزف اليهم نبأ توقع جيش هوهينيشتاوفن[٧٢].

ومن أجل ذلك ركن الصليبيون إلى الدعَّة والراحة ؛ وفي حالة التراخي التي ركنوا اليها تفاقمت الخلافات بين بيلاجيوس والملك جون والإيطاليين والأنظمة الدينية العسكرية . ولو أنهم زحفوا على القاهرة فور سقوط دمياط لكان النجاح حليفهم ؛ إذ كان الكامل في وضع يائس ، وقد وهنت العزيمة لدى جيشه ، ورعاياه يتضورون جوعا ولقد أصر المعظّم على إعادة قواته إلى سوريا لخشيته من حدوث اضطرابات في الشمال ولإعتقاده أن أفضل السبل لمساعدة الإسلام هي شن هجوم الآن على عكا نفسها . وبات الكامل في كل يوم يتوقع تقدم المسيحيين ، فاتخذ من طلخا مقرا لمعسكره ، على مسافة أميال قليلة أعلى فرع دمياط وشيّد على عجل التحصينات على جانبي النهر

---

(٧١) أنظر أدناه ص ٢٩٧. وقد كتب بيلاجيوس الى البابا هونوريوس الثالث معربا عن آماله في مساعدة جورجيا .(Rohricht, *Studien*, p. 52) وكان إينوسنت الثالث قد سبق وطلب تعاون جورجيا (Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 232-3). وأظهر James of Vitry اهتمامه بتدخل المغول بأن ترجم من العربية، بمساعدة بعض الخبراء، كتاب يسمى *Excerpta de Historia* David regis Indiorum qui *Presbyter Johannes a vulgo appellatur* (ed. Rohricht, Z.K.G. vol. xvi, pp. 93 ff.). وما أورده من حقائق خاطئ تماما.

(٧٢) للإطلاع على ملخص بالمراجع حول تعاملات فريدريك مع البابا أنظر Donovan, *op.cit.* pp.75-9.

توقعا لهجوم لم يحدث قط[٧٣].

١٢٢٠م : الملك جون يغادر الجيش

وقد مات ليو الثاني ملك أرمينيا في أوائل الصيف من عام ١٢١٩م تاركا بنتين كانت كبراهما ستيفاني زوجة جون (أوف برين)، وكانت الصغرى ، إيزابيلا ، إبنة الأميرة سبيللا أميرة قبرص والقدس ، وكانت في الرابعة من عمرها . وكان ليو قد وعد باستخلاف ابن اخيه ريموند-روبين أمير انطاكية ، غير أنه وهو على فراش الموت عيّن إيزابيلا وريثة له . وعلى الفور تقدم جون بمطالبة بالعرش نيابة عن زوجته وابنهما الرضيع، وفي فبراير ١٢٢٠م تسلم إذنا من البابا بمغادرة الحملة الصليبية وزيارة أرمينيا. وكانت علاقته ببيلاجيوس من السوء بحيث لم يكن هناك مغزى في بقائه مع الجيش ، ومن ثمّ منح البابا الآن صراحة كامل القيادة لبيلاجيوس، ورحل جون إلى عكا . وبينما هو يتهيأ للإبحار إلى كيليكيا ماتت زوجته الأرمينية وقالت الشائعات إن موتها جاء نتيجة لسوء معاملته لها . وبعد أسابيع قليلة مات ابنهما الصغير ، ومن ثم لم يعد لجون أية مطالبات أخرى في العرش الأرمينى . بيد أنه لم يرجع إلى مصر[٧٤]. وفي شهر مارس أغار المعظّم على المملكة مهاجما قلعة قيسارية التى أعيد بناؤها لتوها، ثم تحول ليضرب الحصار حول معقل فرسان المعبد في عثليت . فهرع فرسان المعبد عائدين من دمياط ، وأبقى جون جيشه في الأفق . ودام الحصار حتى شهر نوفمبر عندما انسحب المعظّم إلى دمشق[٧٥].

وفي تلك الأثناء بقيت الحملة الصليبية ساكنة لا تتقدم ولا تتأخر . وبُذلت محاولات لإعادة بناء المدينة ففي عيد التطهير، في فبراير[٧٦]، كُرّس المسجد الجامع ليصبح كتدرائية العذراء . وفي شهر مارس وصلت مجموعة من الأساقفة الإيطاليين على رأسهم رئيس اساقفة ميلانو ، يصحبهم مبعوثان من فريدريك الثاني، وجلبوا معهم

---

(٧٣) *Histoire des Patriarches*, p. 254; Abu'l Fida, p. 91 .

(٧٤) Ernoul, p. 427; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 340; Oliver, *Historia Damiatana,* p. 248.

(٧٥) Oliver, *Historia Damiatana,* pp. 244-5, 255-6; Ernoul, pp. 421-4.

(٧٦) (المترجم) : عيد التطهير : Feast of the Purification عيد مسيحي تخليدا لتقديم المسيح في المعبد بعد استكمال تطهير مريم (انظر انجيل لوقا ، ٢:٢٢) ، وموعده ٢ فبراير

قوات كبيرة ، واتفقوا من فورهم مع بيلاجيوس على شن هجوم . لكن الفرسان لم يوافقوا قائلين إن الملك جون هو القائد الوحيد الذى ينبغي لجميع الأمم أن تدين له بالطاعة ، وهو غائب الآن(٧٧) . وفي شهر يولية أرسل فريدريك ثمانية قوادس بقيادة ماثيو ، كونت أبوليا، فعاود بيلاجيوس محاولاته لشن هجوم دون جدوى، حتى عندما اقترح حملة منفصلة لم يجد أذنا صاغية ، بل انقلب ضده مرتزقته هو نفسه من الإيطاليين، وكان المشروع الوحيد الذي وافقت عليه الأنظمة الدينية العسكرية هو الإغارة على مدينة البرلس على مسافة عشرين ميلا إلى الغرب من دمياط . ونهبت المدينة ؛ لكن الفرسان وقعوا في كمين في طريق عودتهم وأسر عدد من فرسان المستشفى ، بمن فيهم رئيسهم المارشال(٧٨) .

والآن استعاد الكامل ثقته بنفسه . وبرغم أنه كان ما يزال يفتقر إلى القوات البرية فقد أصلح بحريته ، وفي صيف عام ١٢٢٠م أرسل أسطولا في فرع رشيد أبحر إلى قبرص حيث وجد أسطولا صليبيا راسيا أمام ليماسول، وبهجوم مفاجئ أغرق أو أسر السفن الصليبية كلها ، وأسر ألوفا كثيرة . وقيل إن بيلاجيوس تلقى تحذيرات تقول إن البحارة المصريين دائبون على عمل الترتيبات ، إلا أنه لم يعبأ بتلك التحذيرات . وبعد أن سبق السيف العذل أرسل أسطولا بندقيا لإعتراض الأعداء ولمهاجمة موانى رشيد والإسكندرية ولكن بلا جدوى ، إذ حال افتقاره إلى المال دون أن يتوفر لديه ما يكفيه من السفن الخاصة به ؛ ولم يكن بوسع الخزانة البابوية أن توفر له أية أموال أخرى(٧٩) .

وفي سبتمبر عاد المزيد من الصليبيين إلى بلادهم ؛ غير أنه في نهاية العام أرسل البابا هونوريوس أخبارا طيبة . فقد جاء فريدريك إلى روما في نوفمبر ١٢٢٠م ، توّجه البابا امبراطورا وتوّج زوجته كونستانس امبراطورة ، وفي المقابل وعد فريدريك وعدا قاطعا بالإنطلاق إلى الشرق في الربيع التالى . وكان هونوريوس قد بدأ يرتاب في وعود فريدريك ، حتى أنه نصح بيلاجيوس بعدم رفض أية عروض للسلام مع السلطان قبل أن يحيلها إلى روما . غير أن الامبراطور الجديد بدا الآن جادا في وعده ؛ ونشط في تشجيع رعاياه على أخذ الصليب ، وسيّر كتيبة كبيرة بقيادة لويس ، دوق بافاريا ،

---

(٧٧) Oliver, *Historia Damiatana,* p. 248; Roger of Wendover, ii, pp. 260-1.

(٧٨) Oliver, *Historia Damiatana,* p. 252.

(٧٩) Ernoul, pp. 429-30; Oliver, *Historia Damiatana,* p. 253.

أبحرت من ايطاليا في وقت مبكر من الربيع(٨٠).

جاءت أنباء اقتراب وصول الدوق فأثلجت للغاية صدر بيلاجيوس حتى أنه عندما سبق عرض الكامل شروط السلام في شهر يونية ، نسي تعليمات البابا ورفضها ، ولم يخطر روما إلاّ مع وصول الأخبار السارة . وكان الكامل قد عرض مرة أخرى التخلي عن القدس وفلسطين كلها عدا منطقة الأردن مع هدنة مدتها ثلاثين سنة ودفع أموال تعويضا عن تدمير القدس . وبعد رفض هذه الشروط مباشرة وصل لويس دوق بافاريا(٨١).

١٢٢١م : الصليبيون يتقدمون

كان فريدريك قد أمر لويس بألا يشن هجوما كبيرا إلى أن يصل هو نفسه . لكن لويس كان متلهفا على مهاجمة الكفرة ؛ وبعدما انتظر خمسة أسابيع دون أن تصله أية أنباء عن مغادرة فريدريك لأوروبا تساوت مع رغبات بيلاجيوس . ولم يقتنع زعماء الصليبيين بضرورة الزحف الفوري، للجيش الذي وصلته التعزيزات، داخل مصر إلاّ بعد أن جادل الدوق بأن الوقت قد حان نظرا لإقتراب وقت فيضان النيل، وبعد أن أعلن الممثل البابوي أن الحالة المالية للجيش تستلزم عملا عاجلا. ولكن زعماء الصليبيين أصروا على شيئ واحد وهو استدعاء الملك جون ليلعب دوره ، وكانت المعارضة ضئيلة . وكتبت ملكة قبرص الوصيّة على العرش إلى بيلاجيوس،أن العمل يجرى على قدم وساق لإعداد جيش اسلامي ضخم في سوريا يعده المعظّم وأخوه الأشرف ؛ وتلقى فرسان الأنظمة الدينية العسكرية من إخوانهم في فلسطين ما يؤكد تلك الأنباء. غير أن بيلاجيوس وجد في تلك الأنباء حجة اخرى للتقدم العاجل داخل مصر ؛ وخاصة وأنه سمع نبوءات تفيد بسرعة انتهاء سيادة السلطان(٨٢).

---

(٨٠) Oliver, *historia Damiatana*, p.257. أنظر Hefele-Leclereq, *Histoire des Conciles*, v, ii, pp. 1420-1.

(٨١) Oliver, *loc. cit.;* James of Vitry, *op. cit.* pp. 106-9; Ernoul, p. 442.

(٨٢) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 257-8; Roger of Wendover, ii, p. 264; James of Vitry, *Epistola* vii (Z.K.G. vol. xvi, p. 86); Ernoul, pp. 441-3. وعن النبوءات أنظر: Oliver, *Historia Damiatana*, pp.258-0; James of Vitry, *Excerpta* (Z.D.G.vol. xvi, pp. 106-13); *Annales de Dunstaplia (Annales Monastici*, vol. iii, p. 62); Alberic of Trois Fontaines, p. 790.

وفى ٤ يولية ١٢٢١م أمـر الممثل البابوى بالصوم ثلاثة أيام في المعسكر . وفي السادس من الشهر وصل الملك حون عائدا مع فرسان مملكته وقد ملأه الحماس لكنـه لم يكن على استعداد لأن يُتهم بالجبن. وفي الثاني عشر من الشهر تحركت القـوة الصليبيـة قاصدة فارسكور، وهنـاك رتبهـا بيلاجيـوس في تشـكيلات قتالية . ولقـد كـان حيشـا كبيرا؛ تحدث معاصروه عن ستمائة وثلاثين سفينة من شتى الأحجام وخمسة آلاف فارس وأربعة آلاف رامٍ وأربعين ألف حندي مشاة . وصاحب الجيش حشـد كبير من الحجاج؛ وقد أمروا أنْ يسيروا بالقرب من ضفـة النهـر لتزويد الجنـود بالماء. وتخلفت حامية كبيرة في دمياط.

وتقدم الجيش الإسلامي حتى شرمشاح لملاقاتهم ، ولكنه بعد أن شاهد أعدادهـم الضخمة انسحب خلف البحر الصغير الذي يجرى مـن النهـر إلى بحيرة المنزلـة ، ولبـث منتظرا في مكانين سبق الإعداد لهما ، في طلخا وفي الموقع الذى أصبح المنصورة فيما بعد على جانبى النهر . وبحلول ٢٠ يولية كـان الصليبيـون قـد احتلـوا شرمشـاح . وتوسـل اليهم الملك حون كي يبقوا هناك ، فقد حـان وقـت فيضـان النيـل ، والجيـش السـوري يقترب ؛ لكن بيلاجيوس أصر على المزيد من التقدم ، يؤيده عـوام الجنـود الذيـن سمعـوا شائعة بأن السلطان قد هرب من القاهرة . وفي حنوب شرمشاح مباشرة كـانت هنـاك قناة آتية إلى النهر من فرع آخر ؛ وفي حميّة تقدم الصليبيين لم يتركوا سفنا لحماية مصب القناة ، ربما لظنهم أنها غير صالحة للملاحة . وبحلول يوم السبت ٢٤ يولية كان الجيش المسيحى كله رابضا بطول البحر الصغير مواجها للعدو.

ولقد ارتفع النيل الآن وامتلأت القناة وغدا الدفاع عنها يسيرا . على أنهـا قبـل أن يصبح غورها بالغ العمق عبرتها جيوش أخوي الكامل - المعظّـم والأشرف - بـالقرب من بحيرة المنزلة واتخذت لها مواقع حصينة تفصل بين الصليبيين ودمياط . وما أن توفر ما يكفي من المياه في القناة المارة بشرمشاح حتى ابحرت سفن الكامل فيها وقطعـت طريـق انسحاب الأسطول المسيحى . وفي منتصف أغسطس تحقـق بيلاجيـوس مـن أن حيـوش الأعداء تفوق حيشه عددا ، وأن حيشه محاصر تمامـا وليـس لديـه مـن طعـام سـوى مـا يكفيه لعشرين يوما . وبعد قليل من الجدل ، حث البافاريون القيـادة علـى الإنسـحاب الفورى كوسيلة وحيدة للهرب ؛ وفي ليلة الخميس ٢٦ أغسطس بدأ الإنسـحاب الـذي شابته الفوضى . ذلك أن الكثـير مـن الجنـود لم يتحملـوا تـرك مخزونـاتهم مـن النبيـذ ، فشربوه كله بدلا من تركه . وعندما صدرت الأوامر بـالتحرك كـانوا فـى حالـة سـكر شديد . وفي حركة حمقاء أشعل فرسان التيوتون النيران في المخزونات التى لم يستطيعوا

حملها ، وبذا أبلغوا المسلمين بأنهم تاركو مواقعهم . وكان النيل ما يزال يرتفع ، وأصدر السلطان أو أحد قادته الأوامر بفتح المنافذ الواقعة بطول الضفة اليمنى . فتدفقت المياه على الأراضي المنخفضة التي ينبغي للمسحيين عبورها ؛ فراحوا يكدحون خلال بحيرات الوحل والمصارف الطينية وفي ذيلهم خيّالة السلطان من الأتراك ومشاة الحراسة من أبناء النوبة . وتمكن الملك حنون وفرسانه من دحر خيالة الأتراك ، ورد فرسان الأنظمة الدينية العسكرية النوبيين ، ولكن بعد أن هلك الألوف من المشاة والحجاج . وكان بيلاجيوس على ظهر سفينة جرفتها مياه الفيضان فتجاوزت في سرعة حصار الأسطول المصرى ؛ ولأن سفينته كانت تحمل الإمدادات الطبية للجيش والكثير من طعامه ، فقد كان فراره بمثابة كارثة . وتمكنت سفن أخرى قليلة من الهرب لكن المسلمين استولوا على الكثير من السفن(٨٣).

١٢٢١م : بيلاجيوس يستعطف طالبا السلام

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر تملك اليأس بيلاجيوس ، فأرسل مبعوثا إلى السلطان طالبا السلام ؛ وما يزال لديه رصيد يساوم عليه ؛ فقد أعيد تحصين دمياط وبها حامية جيدة ولديها الأسلحة الوفيرة ؛ وهناك أسطول بحري قوي في الأفق بقيادة هنرى كونت مالطا ، وولتر (أوف باليز)، مستشار صقلية ، الذى أرسله الامبراطور فريدريك . لكن الكامل كان يعلم أن الجيش الصليبى الرئيسى تحت رحمته ؛ فكان صارما وانما كريما . وبعد الأخذ والرد في عطلة نهاية الأسبوع ، قبل بيلاجيوس يوم الإثنين شروطه التى تقضى بأن يتخلى المسيحيون عن دمياط ويحترموا هدنة مدتها ثمانية أعوام يعتمدها الامبراطور . ويتم تبادل جميع الأسرى من الجانبين . وسوف يعيد السلطان من جانبه الصليب الحقيقي . وعلى الحملة الصليبية تسليم زعمائها كرهائن إلى أن تستسلم دمياط ، وحدد السلطان بالإسم بيلاجيوس والملك حنون ودوق بافاريا والسادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية وثمانية عشر شخصا آخرين من الكونتات والأساقفة . وفي المقابل أرسل أحد أبنائه ، وأحد إخوته وعددا من صغار الأمراء(٨٤).

---

(٨٣) يرد الوصف الأكثر اكتمالا لشاهد عيان في Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 257-73 ؛ Roger of Wendover, ii, pp. 263-4; Ernoul, pp. 439-44; *Histoire des Patriarches*, pp. 257-8; Abu Shama, ii, pp. 180, 182-3; Ibn al-Athir, ii, pp. 122-4, 158; Ibn Khallikan, iii, p. 241.

(٨٤) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des*

وعندما أرسل السيدان العظيمان لفرسان المعبد وفرسان التيوتون إلى دمياط لإعلان استسلامها ، تمردت الحامية أول الأمر ضد هذا الأمر وهاجمت منزل الملك حون ومنازل الأنظمة الدينية العسكرية . ذلك أن هنرى ، كونت مالطا كان قد وصل لتوه مع أربعين سفينة ؛ وشعرت الحامية بما يكفى من القوة لتحدى الأعداء . غير أن الشتاء قادم والطعام ينفد وقادتهم رهائن والمسلمين يهددون بالزحف على عكا . وسرعان ما رضخ المتمردون . وبعد أن أولم الكامل للملك حون وليمة رائعة ، وبعد أن أعاد تموين الجيش المسيحى بلا مقابل ، تم تبادل الأسرى ؛ وفي يوم الأربعاء ٨ سبتمبر اعتلت الحملة الصليبية كلها ظهور سفنها ودخل السلطان دمياط(٨٥).

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة ، التى كانت قاب قوسين أو أدنى من النجاح . ولو كان في الجيش المسيحى قائد حكيم يلقى الإحترام ، لتحقق احتلال القاهرة والقضاء على الحكم الأيوبي في مصر . وبتنصيب حكومة أكثر ودا هناك - إذ لم يكن الصليبيون يأملون قط في حكم مصر كلها بأنفسهم - لكان استرجاع فلسطين كلها أمرا غير مستحيل . لكن الامبراطور الذي كان خليقا وحده بأن يشغل هذا الدور لم يأت البتّة برغم كل وعوده . لقد كان بيلاجيوس رجلا متعجرفا فاقد الحيلة ممجوجا تكشفت أخطاؤه كقائد في كارثة الهجوم الأخير ، بينما لم يكن لدى الملك حون ، برغم كل شجاعته ، الشخصية أو الهيبة لقيادة جيش دولي . وتكاد كل مرحلة من الحملة أن تكون قد تحطمت على صخرة الغيرة الشخصية أو القومية . وكان الأكثر حكمة قبول الشروط التي عرضها السلطان مرتين واسترداد القدس . غير أنه ربما كان خبراء الإستراتيجية على حق عندما قالوا إنه من المحال الإحتفاظ بالقدس بدون حصون منطقة الأردن ، على الأقل طالما كان المسلمون في مصر وسوريا متحالفين . وهكذا لم تكسب الحملة شيئا، وفقدت الكثير من الرجال والموارد والسمعة ، وكان أكثر الضحايا تعاسة هم أكثرهم طهارة ذيل . ونتيجة الخوف من مسيحيي الغرب ، ثارت موجة جديدة من التعصب في الإسلام . ففي مصر ، وبرغم التسامح الشخصى الذي كان الكامل يتحلى به ، مورست تصرفات معينة ضد المسيحيين المحليين ، الملكيين والأقباط سواء بسواء ؛ ففرضت ضرائب باهظة ، وأغلقت كنائس ، ونهب الجنود

Patriarches, pp. 257-8; Abu Shama, ii,p. 183-5

(٨٥) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des Patriarches*, p. 258.

المسلمون الغاضبون الكثير منها. كما لم يكن في الإمكان أن يستعيد التجار الإيطاليون سابق وضعهم في الإسكندرية ؛ فقد شجّع أبناء جلدتهم الحملة الصليبية ، وبرغم عودتهم إلى موائد صرافتهم لم تعد الثقة فيهم كسابق عهدها. ولقد أبحر جنود الصليب عائدين إلى بلادهم يكللهم العار وتنهشهم المرارة . ولم يعيدوا معهم حتى الصليب الحقيقي نفسه . وعندما حان الوقت لتسليمه لم يُعثر له على أثر(٨٦).

---

(٨٦) عن التفسيرات المعاصرة لفشل الحملة الصليبية أنظر Donovan, *op.cit.* pp.94-7 والحواشي ، وانظر أيضا Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 31-4.

الفصل الثالث:

الامبراطور فريدريك

الامبراطور فريدريك

"والآن أرسلت رجلا حكيما صاحب فهم"
(اخبار الأيام الثاني ١٣:٢)

عندما أبحرت الحملة الصليبية في كآبتها من دمياط ، عاد الملك حون إلى عكا مباشرة، بينما اتجه الكاردينال بيلاجيوس شمالا لتنفيذ تعليمات البابا في أنطاكية وفي مملكة كيليكيا الأرمينية. ذلك أنه بوفاة الملك ليو الثاني، اعترف البابا هونوريوس بمطالبة حون (أوف برين) باستخلاف زوجته أو ابنها ؛ وبموتهما حوّل تأييد الكنيسة إلى ريموند-روبين أمير انطاكية الذي جاء بنفسه إلى دمياط في صيف عام ١٢٢٠م للتشاور مع بيلاجيوس . وقبل ذلك بأشهر قليلة كان بوهمند أمير طرابلس قد أعاد الإستيلاء على أنطاكية رغم احتفاظ فرسان المستشفى بالقلعة . ثم أغار ريموند-روبين على كيليكيا مع أمه الأرمينية أليس ، ووطد دعائمه في طرسوس انتظارا للعون من فرسان المستشفي الذين تربطه بهم علاقات حسنة ، إذ عهد اليهم برعاية قلعة أنطاكية. على أن النبلاء الأرمن نفذوا رغبة مليكهم الراحل وقبلوا إبنته الصغيرة إيزابيلا مليكة

تحت وصاية آدم أمير بغراس . وقد اغتال الحشاشون آدم بعد أشهر قليلة من السلطة ، بتحريض من فرسان المستشفى بلا شك ؛ وخلفه في الوصاية قسطنطين زعيم الأسرة الهيثومية ، وكان الهيثوميون فيما سبق يمثلون الحزب المناصر لبيزنطة في أرمينيا. والآن برزوا كأبطال الوطنية ضد ما كانت تميل اليه الأسرة الحاكمة من اضفاء الصبغة اللاتينية. وفي وقت مبكر من عام ١٢٢١م زحف قسطنطين على طرسوس واستولى عليها ومعه الأمير وأمه ؛ وبعد ذلك مباشرة مات ريموند-روبين في السجن ، وبرحيله باتت ايزابيلا آمنة على العرش الأرميني ، وكذلك الحال مع بوهمند أمير طرابلس في أنطاكية[1].

وكان البابا قد حذر بيلاجيوس كي يتصرف بعناية ، فلا فائدة في طرح مطالبات بنات ريموند-روبين الرضّع اللاتي تقاعدن مع أمهن اللوسينانية في قبرص . لكن بوهمند هو ابن الكنيسة العاق ، وقد تدبر انتزاع قلعة انطاكية من فرسان المستشفى ، كما حرمهم من الوعد بمنحهم جبلة التي عرضها عليهم ريموند-روبين إذا نجحوا في الإستيلاء عليها، وترك الحق في هذا الوعد لفرسان المعبد ، ومن ثمّ برز خطر اندلاع حرب مفتوحة فيما بين الأنظمة الدينية العسكرية . وتدبر بيلاجيوس اقناع كل منهما بقبول نصف المدينة ؛ غير أن بوهمند لم يرفض فقط إعادة الإعتراف بحق فرسان المستشفى في انطاكية ، وانما ضم ممتلكاتها هناك حتى برغم تهديد بيلاجيوس بطرده من الكنيسة وتنفيذه حكم الطرد . وظل فرسان المعبد على صلة حميمة به ، وسعى الوصي على أرمينيا إلى التحالف معه . وكان السلطان السلجوقي كايكوباد أعظم عاهل الآن في آسيا الصغرى ؛ إذ احتل جبال طوروس الغربية ، واتخذ من ساحل ألايا عاصمته الشتوية ، وكان يمثل تهديدا للحدود الأرمينية كلها.وكان الأرمن في احتياج لحسن نوايا أنطاكية ؛ ولذا اقترح الوصي أن يرسل بوهمند ابنه الرابع فيليب ليتزوج من الملكة الأرمينية الشابة ، مصرا على شرط واحد فقط وهو أن ينضم العريس إلى الكنيسة الأرمينية المنشقة. ولّما كانت الضغينة ملتهبة في صدر بوهمند من قرار المندوب البابوي بطرده من الكنيسة ، فقد سمح لإبنه عن طيب خاطر بالسقوط في الهرطقة . وساعد التحالف بين ارمينيا وانطاكية على تحقيق هدفه العاجل ؛ إذ حوّل كايكوباد انتباهه بعيدا عنهما إلى جيرانه المسلمين في الشرق.

(١) عن التفاصيل والمصادر، أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 628-32

١٢٢٦م : الإستخلاف الأرمني

كان الأرمن يعلقون الآمال على أن يصبح فيليب نفسه أرمينيا صالحا ، خاصة وأنه لم تكن لديه توقعات قط في أن يرث أنطاكية ؛ غير أن مزاجه كان لاتينيا عنيدا ، وقد أمضى أغلب الوقت في انطاكية . وثارت حفيظة الهيثوميين وأصدقائهم، فاعتقلوه بليل في أواخر عام ١٢٢٤م أثناء ترحاله إلى أنطاكية وسجنوه في سيس حيث دسّوا له السم بعد ذلك بأشهر قليلة . وثارت ثائرة بوهمند لكنه كان فاقد الحيلة؛ إذ أن البابا كان قد أيّد طرده من الكنيسة وحذر فرسان المعبد كي يبتعدوا عنه . وانحاز فرسان المستشفى صراحة إلى جانب الأرمن المراطقة ، فعندما هربت الملكة الشابة أرملة فيليب كسيرة القلب إلى سيليوشيا لائذة بحمايتهم ، سلّموا المدينة كلها إلى الوصي قسطنطين ليتجنبوا عار تسليمها بأنفسهم. واستنجد بوهمند بكايكوباد فغزا السلاجقة كيليكيا ؛ فما كان من قسطنطين إلا أن حث بوهمند على إيقافهم بأن دعاه للحضور إلى كيليكيا ليستعيد ابنه ، وفي ذات الوقت رتّب لطغرل - الوصي على حلب - لأن يزحف على أنطاكية. وعندما وصل بوهمند فعلا إلى كيليكيا قيل له إن ابنه قد مات وعليه أن يسرع عائدا إلى عاصمته انطاكية للدفاع عنها ضد طغرل . وفي تلك الأثناء أُجبرت الملكة الشابة التعيسة إيزابيلا على الزواج من هيثوم ابن قسطنطين. وظلت لسنوات كثيرة على رفضها العيش معه ، لكنها لانت في نهاية الأمر ، وفي عام ١٢٢٦م احتفل بتتويجهما معا . والآن رأى قسطنطين ، برغم وطنيته الشديدة ، أن من الحكمة مصالحة أرمينيا مع البابوية ؛ فأُرسلت الرسائل باسم الزوجين الشابين إلى البابا وإلى الامبراطور فريدريك(٢).

رضى مسيحيو الشمال كل الرضا لإستدامة الحرب بين جاريهم الرئيسيين المسلمين وهما السلاجقة من ناحية والأيوبيون في حلب والموصل من ناحية اخرى ؛ إذ لا تنطبق عليهم هدنة الثماني سنوات التي ضمنها الكامل . وفي الجنوب ، استغل جون (أوف برين) هذه المعارك الإسلامية استغلالا شغوفا لكي تستريح مملكته المرهقة ، وبخاصة لكي ينعش التجارة مع بلاد الداخل الإسلامية التي كانت مصدر إيراداته الرئيسي . وفي خريف ١٢٢٢م قرر زيارة الغرب ؛ إذ كان يرغب في استشارة البابا حول مساعدة مملكته في المستقبل ، وعليه أن يجد زوجا لإبنته الملكة الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية

(٢) Cahen, *op. cit.* pp. 632-5 . ويكتب المؤرخون الأرمن من وجهة نظر الهيثوميين . وأفضل سرد موضوعي هو سرد ابن الأثير. ii, pp. 168-70

عشرة ، لكنه الآن في السبعينات من عمره ، ولا بد من ضمان استخلافه. وبعد أن عيّن نائبا له هو أودو (أوف مونتبليارد)، ركب السفينة من عكا مع بيلاجيوس الذي أنهى لتوه جولة رسولية بابوية في قبرص مع بطريق القدس ، رالف (أوف ميرينكورت) ومع السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا) موجودا بالفعل في روما . وهبطت الصحبة الى اليابسة في برنديزي بجنوب ايطاليا في نهاية أكتوبر[٣].

ومضى جون مباشرة إلى روما حيث طالب بمنح مملكة القدس أية أراض تستولى عليها أية حملة صليبية في المستقبل، وربما اعترض بيلاجيوس على ذلك، لكن البابا وافق على طلب جون وأرسل الامبراطور بموافقته كذلك . ثم ذهب جون إلى فرنسا لزيارة صديقه القديم الملك فيليب أوغسطس مرة اخرى . وفي ذات الوقت طرح هيرمان (أوف سالزا) اقتراحا يقضي بزواج الملكة يولاندا من الامبراطور فريدريك نفسه الذي ماتت زوجته الإمبراطورة قبل أربعة أشهر . ولسوف يكون زواجا رائعا . وراقت الفكرة لجون، ولكنه تردد إلى أن وعده هيرمان بالإحتفاظ بالوصاية حتى مماته . وتحمّس البابا ، فإذا كان لفريدريك أن يحكم القدس باسم زوجته أي يصبح زوجا للملكة، فيقينا لن يعاود مراوغاته وتأجيله للحملة الصليبية ؛ وبوصول جون إلى باريس كانت المفاوضات قد اكتملت تقريبا . ولم ترق الأنباء للملك فيليب وعنّف جون ؛ إذ أن ملك فرنسا هو الذي كان مطلوبا منه حتى الآن أن يعثر على زوج لوريثة مملكة الشرق الفرنجي . وكان فيليب قد سبق ورشّح جون ؛ ولكن تقديرا لما كان بينهما رحّب فيليب بجون ترحيبا طيبا ، وكان جون حاضرا عندما مات فيليب في مانتيس يوم ١٤ يولية ١٢٢٣م . وترك فيليب في وصيّته لجون خمسين ألف مارك كي تنتفع بها مملكة القدس ، مع ميراث مماثل لنظام فرسان المستشفى ونظام فرسان المعبد . وحضر جون جنازة الملك وتتويج ابنه لويس الثامن ، ثم ذهب في رحلة الحج إلى سانتياجو دي كومبوستيلا في أسبانيا . ومكث بضعة أشهر في كاستيل حيث تزوج برنجاريا أخت الملك فرديناند الثالث، وعاد إلى ايطاليا في وقت ما من عام ١٢٢٤م[٤].

---

(٣) Oliver, *Historia Damiatana*,p.280; *Estoire d'Eracles*,ii,p.355; Ernoul,pp.448-9; *Annales de Terre Sainte*,p.437

(٤) Ernoul, pp. 449-50; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 355-6; Richard of San Germano, -M.G.H. vol. xix, pp.342-3; *Historia* Diplomatica Friderici Secundi (ed. Huillard Bréholles), ii, p. 375. وحيث أن يولاندا هي حفيدة بنت أخت فريدريك ، أصدر البابا تحلة للزواج Raynaldus, Anno 1223, no. 7, i, pp. 465-6

١٢٢٥م : زواج فريدريك ويولاندا

وفي شهر أغسطس من العام التالي ، وصل إلى عكا هنري كونت مالطة ومعه أربعة عشر قادسا امبراطوريا لكي يصطحب الملكة الصغيرة ، التي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ، إلى ايطاليا لزفافها. وكان على ظهر السفينة جيمس ، رئيس أساقفة كابوا المختار ، الذي ما أن هبط إلى البر حتى تزوج يولاندا كوكيل لفريدريك في كنيسة الصليب المقدس . ثم أخذت إلى صور ، ولكونها تعتبر الآن راشدة ، وتوّجها البطريق رالف ملكة للقدس في حضور جميع نبلاء مملكة الشرق الفرنجي ؛ واستمرت الحفول لأسبوعين ، ثم أبحرت الملكة بصحبة رئيس أساقفة صور ، سيمون (أوف موحاستيل) وابن عمها باليان أمير صيدا . وتوقفت لأيام قليلة في قبرص لرؤية خالتها، الملكة أليس . وعندما حانت ساعة الرحيل انهمرت الدموع من مآقي الملكتين والسيدات كلهن ؛ وسمعن يولاندا تتمتم تمتمة وداع حزينة لأرض سوريا الحلوة التي لن تراها مرة أخرى[٥].

وفي برنديزي كان الامبراطور ، ومعه الملك حون ، منتظرا عروسه . واستُقبلت بالأبهة الإمبراطورية وحرى احتفال ثان بالزواج يوم ٩ نوفمبر ١٢٢٥م في كتدرائية برنديزي[٦].

كان فريدريك في عامه الحادى والثلاثين ؛ شابا وسيما ربعا قوي البنية برغم ميله إلى السمنة، وكان شعره الأحمر كآل هوهينشتوفن، يتراجع إلى الوراء قليلا . وكانت ملامحه متّسقة بفم ممتلئ يوحي بالشهوة، وتبدو طيبة إلى أن تلاحظ عينيه الباردتين الخضراوين ، اللتين تخفي نظرتهما النافذة قِصَر نظره . وكانت ألمعيته جليّة ؛ إذ كان يتحدث ست لغات بطلاقة، الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وكان ضليعا في الفلسفة والعلوم والطب والتاريخ الطبيعي ، وعلى دراية جيدة بالبلدان الأخرى ؛ وكان حديثه - إذا أراد - آسرا . غير أنه برغم كل هذا الذكاء لم يكن محبوبا ؛ إذ كان قاسيا أنانيا ، خبيثا لا يعتمد عليه كصديق ولا يغفر كعدو. وسبّب انغماسه في المتع الشهوانية من كل لون صدمة حتى للمعايير البسيطة في مملكة الشرق الفرنجي . وكان يحب أن يثير ثائرة المعاصرين بتعليقاته الفاضحة عن الدين والأخلاق . ولم يكن في الواقع بلا تدين ؛ بيد أن مسيحيته كانت على شاكلة بعض الأباطرة

---

(٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 357-8; *Gesta des Chiprois*, pp. 22-3 .

(٦) *Estoire d'Eracles*, *loc. cit.* .

البيزنطيين نوعا ما ؛ فكان يعتبر نفسه نائب الرب الممسوح على الأرض ، وكان يدرك أنه دارس لاهوت مقتدر ؛ ولذا لن يرضخ لما يمليه عليه أي أسقف حتى وإن كان أسقف روما ؛ ولم يجد ضررا في الإهتمام بالأديان الأخرى ، خاصة الإسلام الذي كان على اتصال به طوال حياته . وهو لا يعتبر أن اليونانيين منشقون لأنهم ينكرون سلطة البابا . ومع ذلك ، لم يكن هناك حاكم اضطهد بوحشية زائدة هراطقة المسيحيين من أمثال الكاثاريين وأبناء جلدتهم كما فعل هو . وكان الرجل الغربي العادي يرى فيه شخصا غير مفهوم . ورغم أن دماءه كانت نصف ألمانية ونصف نورماندية، فقد كان أساسا صقليًا بالتنشئة ، طفل الجزيرة التي كان نصفها يونانيا ونصفها الآخر عربيا . ولو أنه كان يحكم في القسطنطينية أو في القاهرة ، لكان حاكما بارزا ولكن ليس غريب الأطوار . وكملك لألمانيا وكامبراطور غربي ، كان أعجوبة مرعبة . ومع ذلك، وبرغم كل فهمه للشرق عموما ، لم يفهم مملكة الشرق الفرنجي قط(٧).

ولقد اتضحت أبعاده في الصباح التالي لزفافه . إذ رحل مع الإمبراطورة من برنديزى دون أن يخطر حماه ، وعندما أسرع الملك الشيخ وراءه ، استقبله استقبالا باردا. وأعقب ذلك شجار مفتوح عندما علم حون من ابنته الباكية أن زوجها أغوى واحدة من بنات عمومتها . ثم إن فريدريك أعلن في برود أنه لم يعد قط بأن يستمر حون كوصي . ولم يكن هناك اتفاق مكتوب ، وليس للملك أي مطلب قانوني بعد أن تزوجت ابنته ، ووجد حون أن وضعه قد انتزع منه ، بل أخذ منه جنود فريدريك مبلغ المال الذي أورثه إيّاه الملك فيليب للقدس(٨). فهرب يائسا إلى البلاط البابوي . وغالب البابا هونوريوس في عناد أن يسئ التفكير في تلميذه السابق ، ولكنه جاوز الوهم وصُدم؛ غير أنه لم يستطع أن يضع شيئا لجون سوى أن يعهد اليه بإدارة الأوقاف الكنسية في توسكانيا. لكن سيرة حياة المحارب القديم لم تنته ؛ إذ كان قد اقترح أن يعتلي عرش انجلترا ، وفي عام ١٢٢٨م احتاجت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية إلى وصي على الامبراطور الطفل بلدوين الثاني ، ورحب حون بالوظيفة مسرورا ، برغم

---

(٧) عن مظهر فريدريك أنظر Kantorowicz, *Fredrick II*, pp. 366-8 ويضفي عليه هذا الكتاب نوعا من المثالية والرومانسية . أنظر أيضا أدناه ص ٢٣٨.

(٨) Ernoul, pp. 451-2; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 358-60) وأيضا في صفحة ٣٥٦ من تاريخ هرقل المذكور حيث قيل إن حون كان يعتمد على احتفاظه بالوصاية حتى عام ١٢٢٧م وهو العمر الذى تبلغ فيه يولاندا السادسة عشرة؛ Richard of San Germano, p. 345; *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, ii, p. 392 . وقد أطلق فريدريك علي نفسه فعلا ملك القدس في ديسمبر ١٢٢٥م .(*ibid.* ii, p. 526) وابنة العم التي أغويت هي إبنة وولتر (اوف برين)

اقترابه من الثمانين من العمر . وتزوج بلدوين من ابنته ماريا التى لم تجاوز الرابعة من عمرها؛ وتدبر جون بعناية أمر منحه لقب امبراطور حتى وفاته عام ١٢٣٧م[٩].

١٢٢٥م : مصير جون (أوف برين)

كانت الملكة الإمبراطورة يولاندا أقل حظا من أبيها؛ إذ أن فريدريك أرسلها إلى الحريم الذي يحتفظ به في باليرمو حيث عاشت في عزلة يأخذ منها السقم والضنى تلهفا على حياة أوتريميه البراقه. وفي ٢٥ ابريل ١٢٢٨م أنجبت ولدا ، كونراد ، وبعد أن أدّت واجبها ماتت بعد ستة أيام قبل أن تبلغ السابعة عشرة[١٠].

كان فريدريك قد وعد البابا أول الأمر بأن يتزوج عروسه في سوريا ، لكنه أرسل مع الملك جون والسيد الأعظم لفرسان التيوتون إلى البابا طالبا التأجيل ، فمنحه البابا تأجيلا لمدة سنتين .وفي٢٥ يولية ١٢٢٥م قابل مندوبين بابويين في سان جيرمانو ، وأقسم بأنه سيبدأ رحلته إلى الشرق في أغسطس عام ١٢٢٧م ، وأنه سيرسل ألف فارس في الحال ، واذا حنث بقسمه فسوف يودع مائة ألف أوقية من الذهب في روما ، ولو أن الإمبراطور أخذ بنصح أوتريميه لأجل رحيله حتى عام ١٢٢٩م ، وهو العام الذي تنتهي فيه الهدنة مع الكامل[١١].

وقد أرسل الفرسان الذين وعد بإرسالهم ضمن القافلة التي ذهبت لاصطحاب امبراطورة المستقبل . واستغل فريدريك العامين المسموح له بهما في توطيد دعائم حكمه في شمال ايطاليا ، وبذا ربط أراضيه الألمانية بأراضيه في جنوب ايطاليا. وأحبطته العداوة العنيدة لعصبة لومباردى[١٢]؛ ولم يقدر إلاّ على ضمان مصالحة وقتت فى عذده

---

(٩) عن سيرة حياة جون بعد ذلك انظر . Longnon, *L'Empire Latin*,pp.169-74

(١٠) Ernoul, p. 454; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 366; Richard of San Germano, p. 447; *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, i, p. 858 .

(١١) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp. 36-48; *Regesta Honorii Papae III*, no.5566, ii,p.352.

(١٢) (المترجم): عصبة لومباردى Lombard League: مجموعة من المدن فى شمال إيطاليا بدأت فى الاتحاد معا فى أول ديسمبر سنة ١١٦٧م لتقاوم محاولات أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة لتقليص حرية الكوميونات شمال إيطاليا وولايتها القانونية وتشكلت بادئ الأمر من ١٦ مدينة ثم زادت إلى ٢٠ مدينة، وقد أيد هذه العصبة - منذ البداية - البابا ألكسندر الثالث كحليف ضد عدوه فريدريك الأول بارباروسا. ولم ينقض أمر هذه العصبة إلا بعد وفاة الامبراطور فريدريك الثانى سنة ١٢٥٠م

عداوة عصبة لومباردى التى لا تلين، ولم يكن بوسعه سوى أن يصل إلى حل وسط مع اللومبارديين بمغازلة البابوية بإظهار حماس جديد للحملة الصليبية . غير أن معلمه القديم، البابا هونوريوس ، مات في شهر مارس ١٢٢٧م ، وكان البابا الجديد جريجوري التاسع مطبوعا على كثير من حماسه. وكان من أبناء عمومة اينوسنت الثالث، وعلى غرار اينوسنت كان رجلا ذا عقلية تشريعية رائعة وإيمان متشامخ عنيد بما للبابوية من سلطة إلهية . ولأنه كان صارما زاهدا، كان ينفر من فريدريك كرجل ، ولم ير استحالة المهادنة بين ما يريده الامبراطور من "قيصرية بابوية"[١٣] ومفهومه الخاص عن سلطته . وهكذا أملى كل من السياسة والورع أن يرحل فريدريك إلى الشرق[١٤].

١٢٢٨م : فريدريك يشرع في الرحيل إلى الشرق

بدا فريدريك مهيّأ للذهاب . وقد سبق أن أبحرت إلى الشرق مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفرنسيين تحت رئاسة أسقفي إكستر وونشستر. وراح الامبراطور طوال صيف ١٢٢٧م يحشد جيشا ضخما في أبوليا[١٥] وتفشى وباء الملاريا فأضعف الجيش ، لكن عدة آلاف من الجنود أبحروا من برنديزي في شهر أغسطس بقيادة هنري الرابع دوق ليمبورغ. وانضم فريدريك إلى الجيش بعد أيام قليلة ، وركب البحر يوم ٨ سبتمبر ؛ وما كادت المرساة ترفع حتى أصيب أحد رفاقه مريضا بمرض ميئوس من شفائه، وهو لويس حاكم تورينغيا ؛ فرست سفينتهم في أوترانو حيث مات وانتقلت عدوى المرض إلى فريدريك نفسه فغادر الأسطول الذي أرسله إلى عكا تحت رئاسة بطريق القدس ، جيرولد (أوف لوزان)، وذهب إلى منتجع المياه المعدنية في بوزولي للاستجمام وأرسل

---

(١٣) (المترجم) : القيصرية البابوية Caesaropapism: نظام سياسي فيه رئيس الدولة هو نفسه رئيس الكنيسة وقاضي القضاة في المسائل الدينية

(١٤) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* v, ii, pp. 1467-8 .

(١٥) (المترجم):أبوليا:Apulia منطقة على ساحل إيطاليالجنوبي الشرقي للبحر الأدرياتيكي عاصمتها برنديزي

مبعوثا إلى البابا جريجوري في (أناني) ليشرح سبب هذا التأخير الذي لم يمكن تجنبه[١٦]. لكن جريجوري لم يقتنع بالرواية وظن أن الامبراطور يعاود مراوغته ، فسارع بطرده من الكنيسة ، ولكنه عاود إصدار الحكم بروبة بوفار في كنيسة القديس بطرس في شهر نوفمبر[١٧] فما كان من فريدريك إلا أن أصدر بيانا مهيبا أرسله إلى أمراء اوروبا ينكر فيه مزاعم البابا ، ثم واصل استعداداته للحملة الصليبية. وعلى الرغم من تحذير البابا له بعدم إمكانه قانونا الإنطلاق إلى الحرب المقدسة وهو تحت الحظر الكنسي، فقد جمع صحبة صغيرة وركب البحر من برنديزي يوم ٢٨ يونية ١٢٢٨م[١٨] وعلى أية حال تسبب التأخير في تغير وضعه ؛ إذ ماتت الامبراطورة يولاندا ، وبهذا لم يعد فريدريك ملكا وزوج الملكة ، وإنما وصيا على إبنه الملك الرضيع كونراد . ومن حق بارونات المملكة، إذا شاءوا ، أن يرفضوا وصايته[١٩].

لم يكن حكام الشرق الفرنجي ينتظرون وصول الامبراطور بمشاعر السرور الخالص؛ وكان بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس أقلهم قلقا لعدم اعترافه بأي سيد أعلى سوى امبراطور القسطنطينية اللاتيني فيما يحتمل. على أنه بامكان فريدريك المطالبة بحقوق السيادة على قبرص ؛ إذ أن الملك أماريك قد حصل على التاج من خلال الامبراطور هنرى السادس ؛ فضلا عن أن فريدريك، وحتى موت الإمبراطورة الذي لم يكن معروفا في الشرق حتى وقت وصوله ، كان يقينا ملك القدس[٢٠] ولقد تدخل فعلا في شؤون مملكة القدس؛ إذ سبق وأن أرسل عام ١٢٢٦م توماس (أوف أكوينو)، كونت أكيرا، ليحل محل أودو (أوف مونتبيليارد) في الوصاية ؛ وأظهر توماس قوة وحزما في تعامله مع المحكمة العليا، لم يلقيا استلطافا من جانب البارونات[٢١].

---

(١٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p.44, v, p. 329; *Annales Marbacenses*, p.175; Alberic of Trois Fontaines, p. 920; Richard of San Germano, p.348 . وكان لويس (اوف ثورينجيا) زوج القديسة إليزابث المنحاربة. أنظر Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1469-70 . ويذكر Ernoul, pp. 458-9 وصول أول مجموعة صليبية ولاحظ عدد الإنجليز الكبير

(١٧) Hefele-Leclercq, *op. cit.* pp. 1471-2

(١٨) *Historia Diplomatica Friderici*, iii, pp.37-48 ، الذي يرد فيه نص اعلان فريدريك

(١٩) *Ibid.*, i, p.898; Richard of San Germano, p.350; *Estoire d'Eracles*, ii, pp.366-7; Hefele-Leclercq, op.cit. p.1477.

(٢٠) عن الوضع القانوني لفريدريك ، انظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 59.

(٢١) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 304 .

وفي قبرص كان الوصي الرسمي على الملك الطفل هنرى الأول هو أمه أليس القدسية . وكانت قد عهدت بالحكم إلى عمها فيليب (أوف ابيلين) وهو الإبن الثاني للملكة ماريا كومنينا . ولم تكن العلاقات بين الملكة ووكيلها[٢٢] طيبة؛ فكانت دائما ما تشكو من تجاهل رغباتها، وحدثت مواجهة مفتوحة عام ١٢٢٣م عندما رفض فيليب السماح باستلاب عشور رجال الدين الأرثوذكس لصالح رجال الدين اللاتين كما أوصى الكاردينال بيلاجيوس في مجلس عقد في ليماسول، وكانت الملكة متفقة مع الكاردينال ، لكنها عندما فشلت في إنفاذ طريقتها تقاعدت في غضب في طرابلس حيث تزوجت أكبر ابناء الأمير بوهمند ، من الباقين على قيد الحياة ، وهو الذي سيصبح بوهمند الخامس[٢٣]. وفي عام ١٢٢٥م، عندما أصبح من المؤكد أن الامبراطور ينوى نيّة جادة في الحضور إلى الشرق ، أمر فيليب بتتويج الملك هنرى الذي لم يجاوز الثامنة من عمره ، حتى اذا بلغ هنرى الخامسة عشرة فعلى الأقل لا تُمدد الوصاية على أساس أنه لم يُتوج بعد ؛ وكانت الملكة أليس ما تزال تعتبر نفسها وصية برغم وجودها في النفي الإختيارى، وباءت بالفشل محاولتها تعيين زوجها الجديد وكيلا ، إذ لم يقبله أحد من البارونات ، فعرضت المنصب على واحد من البارونات البارزين ، أماليك بارليه ، الذي - برغم معارضته ترشيح بوهمند - قبل المنصب لنفسه ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى كراهته لآل إيبلين . غير أن البارونات ، باستثناء منشق واحد ، أعلنوا عدم إمكان تعيين الوكيل إلاّ بموافقة المحكمة العليا ، التى طلبت أن يستمر فيليب في منصبه . وبعد أن تشاجر بارليه علنا مع مشايعي إيبلين انسحب إلى طرابلس انتظارا لمجئ فريدريك، بينما ذهب أحد أصدقائه ، جافين (أوف شينشى) إلى ايطاليا ليكون في معيّة الامبراطور[٢٤]. وفي عام ١٢٢٧م مات فيليب (أوف ابيلين)؛ ودعت المحكمة العليا أخاه الأكبر جون ، لورد بيروت ، ليحل محله وكيلا. ويبدو أن أليس وافقت على تعيينه[٢٥].

وغدا جون (أوف ابيلين) أعظم شخصية في أوتريميه . فهو أدنى الأقارب الذكور

---

(٢٢) المترجم : المعنى الحرفي للكلمة الإنجليزية *bailli* هو : مسؤول في العصور الوسيطة يمثل الملك أو السنيور وله سلطات واسعة قضائية ومالية وعسكرية . ووجدنا أفضل ترجمة لها "الوكيل."

(٢٣) Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 87-8 ، وترد في هذا التاريخ مراجع ومناقشة التواريخ

(٢٤) *Gestes des Chiprios, pp. 30-3; Estoire d'Eracles, ii, pp. 361-2.*

(٢٥) *Gestes des Chiprois, p. 37; Annales de Terre Sainte, p. 438; Estoire d'Eracles*, ii, p. 365. ويورد تاريخ هرقل تاريخ موت فيليب بالخطأ عام ١٢٢٨م . وليس هناك في أي مرجع نص صريح على تعيين جون وكيلا ، لكنه كان قائما بأعمال الوكيل عند وصول فريدريك

في الشرق لكل من ملك قبرص والإمبراطورة الملكة يولاندا . ولقد كان ثريًا إذ يملك مدينة بيروت وزوجته وريثة أرسوف ، وساعدته خصاله الشخصية على أن يكسب احتراما عاما . واجتمع مولده النبيل وثروته واستقامته وجعلت منه فعلا زعيما مقبولا لبارونات أوتريميه لعدة عقود. ولأن نصفه شرقي-فرنسي والنصف الآخر يوناني ، فقد فهم الشرق وأهاليه ، وكان ضليعا في تاريخ وقوانين المملكة الفرنجية[٢٦]. وعلى الفور اشتمّ الامبراطور فريدريك أنه بمثابة الخطر الجسيم الذي يهدد سياسته ، وقد فهم فريدريك هو الآخر الشرق وأهاليه من تدريباته في صقلية . وكانت معاملاته مع المسلمين من النوع الذي كان البارونات يتعاطفون معه . بيد أن مفهوم فريدريك على الحكم الملكي لم يكن هو مفهومهم . ذلك أن ملك القدس تقيده التقاليد بالدستور، ويجاوز قليلا رئيس المحكمة العليا ، كما أنه القائد العام . أمّا فريدريك فكان يعتبر نفسه حاكما مطلقا على النحو الروماني-البيزنطي ، مستودع القوة والقانون ، نائبا علويا للرب على الأرض ، فضلا عما تستطيع حقوق الوراثة أن تعطيه من كل المزايا . إن امبرطور الرومان لن يتحكم فيه حفنة من صغار بارونات الفرنج.

١٢٢٨م : فريدريك يهبط في قبرص

كان بارليه وحزبه على اتصال بفريدريك فعلا قبل أن يصل أمام ليماسول يوم ٢١ يولية ١٢٢٨م. وبناء على نصيحتهم استدعى على الفور جون (أوف ابيلين) ومعه ابنيه الاثنين وملك قبرص الصغير لمقابلته. وحاول أصدقاء جون تحذيره مما يشتهر به فريدريك من غدر ، لكن جون كان شجاعا طاهر الذيل ، ولم يكن ليرفض دعوة من عاهل قبرص . وبوصوله مع ولديه والملك ، استقبله فريدريك استقبالا مشرفا ملقّبا إيّاه بالعم وأغدق عليه الهدايا الثمينة . وقيل له بأن ينضو عن نفسه ملابس الحداد على أخيه فيليب وأن يحضر حفلا يقام على شرفه . وفي الحفل تسلل جنود فريدريك ووقفوا خلف كل ضيف من الضيوف، وقد استلوا سيوفهم . ثم إن فريدريك طالب جون بتسليم إقطاعيته في بيروت وكافة إيرادات قبرص المحصّلة منذ وفاة الملك هيو . ورد جون بأن بيروت قد منحتها له اخته الملكة إيزابيلا وأنه سيدافع عن حقه فيها أمام المحكمة العليا لمملكة القدس ، وأما عن الإيرادات فقد أعطاها هو وأخوه للملكة الوصية أليس ، وهو تصرف سليم . فانفجر فريدريك يهدر مهددا ، لكن جون ظل رابط

---

(٢٦) أنظر La Monte, 'John of Ibelin', in *Byzantion*, vol. xii

الجاش، معلنا أنه لم يرفض مساعدة الامبراطور في حملته الصليبية ، ولو أدى الأمر إلى أن يُقتل فإنه لن يخرق قوانين البلاد . ولم يكن مع فريدريك سوى ثلاثة أو أربعة آلاف جندي ، فلم يجرؤ على المجازفة بصدع علني وطالب ببقاء عشرين نبيلا بمن فيهم ولدي ابيلين معه كرهائن ، وأن يبقى الملك معه ، وأن يصحبه جون إلى فلسطين؛ وفي المقابل اعترف جون والنبلاء القبارصة ، وهذا هو الحق ، بفريدريك سيدا أعلى لقبرص ، وليس وصيا - إذ أن الملكة أليس هي الوصية الشرعية - وكوصي على القدس وليس كملك للقدس ؛ إذ عرفوا الآن بموت يولاندا وأن الملك هو ابنها الرضيع كونراد(٢٧).

١٢٢٨م : فريدريك في عكا

وكان الامبراطور قد استدعى في ذات الوقت أبرز عواهل أوتريميه للحضور إلى قبرص ؛ فوصل باليان لورد صيدا في أغسطس مع فريق من الجنود ، وبعد ذلك مباشرة وصل جوى أمبرياكو أمير جبيل الذي يكن الكراهية لآل ابيلين ، والذي اقترض منه الامبراطور قدرا كبيرا من المال ، كما سبق أن فعل ليوبولد السابع دوق النمسا قبل ذلك بسنوات قليلة . وبهذه التعزيزات زحف الامبراطور على نيقوسيا ، وفي الطريق انضم اليه بوهمند الرابع أمير انطاكية . واتخذ جون (أوف ابيلين) جانب الحذر وانسحب إلى قلعة ديديمى - التي يسميها اليونانيون "القمتين التوأمتين" ، ويسميها الفرنج "رب المحبة" ونسميها اليوم "سانت هيلاريون" . وكان قد سبق أن أرسل سيدات وأطفال أسوته إليها مع مخزونات وفيرة من المون . وكان القانون الإقطاعي يقضي بأنه خلال الوصاية ليس من الممكن طرد البارونات من القلاع التي عهد اليهم بها العاهل الراحل . ولم يحاول فريدريك الآن الاستهزاء بالقانون ، إذ كان متلهفا على الانتقال إلى فلسطين ، ويبدو أن باليان أمير صيدا - وهو ابن أخي جون - قد قام بالوساطة . وأعدت الترتيبات أن يقسم الملك قسم الطاعة للإمبراطور وأن يقسم جميع القبارصة قسم الولاء له كسيد أعلا . ورغم الاعتراف بأليس وحدها وصيّة ، فسوف يعيّن فريدريك وكيلا ليحكم البلاد ، ويحضر جون إلى فلسطين للدفاع عن حقوقه في بيروت أمام المحكمة العليا ؛ وسوف يطلق سراح جميع الرهائن. وبعد أن أقسم الجميع على الحفاظ على السلام بهذه الشروط ، أبحر الامبراطور من فاماجوستا في ٣ سبتمبر

(٢٧) *Gestes des Chipris*, pp.37-45 ، حيث يورد فيليب (اوف نوفارا) مقالا ينبض بالحيوية ، وربما كان هو نفسه حاضرا؛ *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 367-8.

يصحبه الملك وامراء ابلين وأغلب بارونات قبرص . وتخلف بارليه باعتباره وكيلا ، يساعده جافين (أوف شينشى) وأصدقاؤه الآخرون[٢٨].

عندما وصل الامبراطور وصحبه إلى عكا، هرع جون (أوف ابيلين) من فوره إلى بيروت ليتأكد من قدرتها على مقاومة هجوم من الامبراطور ، ثم عاد إلى عكا للدفاع عن حقه امام المحكمة العليا ، غير أن فريدريك لم يكن فى عجلة من أمره ليتخذ إجراءً. وجاءت الأنباء إلى فلسطين تقول إن البابا قد طرده من الكنيسة مرة أخرى لذهابه في الحملة الصليبية قبل حصوله على إبراء كنسي من طرده الأول من الكنيسة . ولذا ثارت الريب في صحة ما أقسم عليه الآخرون، ورفض الكثير من الورعين التعاون معه ، بمن فيهم البطريق جيرولد ، وكذلك فرسان المعبد وفرسان المستشفى فلا شأن لهم بالمطرود من الكنيسة ؛ فليس هناك إذن من يمكنه الإعتماد عليه سوى فرسان التيوتون ، فسيدهم الأعظم هيرمان (أوف سالزا) صديقه ، خاصة وان جيشه ليس كبيرا ؛ إذ أن الكثير من الجنود الذين رحلوا في عام ١٢٢٧م مع دوق ليمبورج قد عادوا إلى بلادهم فعلا إما بدافع نفاد الصبر أو بوازع الخشية من الإساءة إلى الكنيسة . وبعد شهر ، أبحر عدد إضافى ضئيل إلى الشرق مع البطريق ؛ وكان فريدريك قد سيّر فى ربيع ١٢٢٨م خمسمائة فارس بقيادة تابعه المخلص المارشال ريتشارد فيلانجيري . وحتى بجيش أوتريميه كله ، لم يكن بمقدوره حشد القوة العسكرية المؤثرة القادرة على توجيه ضربة حاسمة إلى المسلمين . ولكى تزداد جوانب قلقه ، جاءت كلمة من إيطاليا بأن ضابطه الدوق رينالد (أوف سبوليتو) فشل في هجوم شنّه على تخوم أنكونا ، وأن البابا يحشد القوات لغزو مملكته هو نفسه ؛ وإذن لا يستطيع فريدريك الشروع في حملة ضخمة فى الشرق. لابد إذن لحملته الصليبية أن تكون حملة صليبية دبلوماسية[٢٩].

ومن حسن طالع الامبراطور أن السلطان الكامل كانت لديه وجهة نظر مماثلة ؛ إذ أن تحالف الإخوة الأيوبيين الثلاثة ، الكامل والمعظم في سوريا والأشرف في الجزيرة ، لم يقدر له البقاء طويلا بعد انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة . ذلك أن المعظّم كان

---

(٢٨) *Gestes des Chiprois, pp.45-8; Estoire d'Eracles,* ii, pp. 368-9. وطبقا للقانون الألماني ، يبلغ الملك سن الرشد في الخامسة والعشرين وأما في القدس وقبرص ففى الخامسة عشرة . وربما كان فريدريك ينوى اعتبار هنرى قاصرا الى أن يبلغ الخامسة والعشرين . أنظر Hill, op. cit., ii, p. 98, n.4 .

(٢٩) R hricht, *Geschichte des K nigreichs Jerusalem,* pp. 776-7، وهو المرجع الذي يناقش القوة العددية لجيش فريدريك . ولم يكن عدد الجيش يتجاوز مطلقا ١١٠٠٠ رجل ، وعاد الكثير من الجنود الى بلادهم بسرعة

دائم الغيرة من الكـامل ؛ والآن ارتـاب بحـق فـي أن الكـامل والأشـرف يخططـان لغزو أراضيه . وإلى الشرق مـن الأيوبيـين ، كـانت الامبراطوريـة الخوارزميـة العظيمـة تحـت جلال الدين قد بلغت أوج مجدها؛ وكان جلال الدين قد صد غزوا مغوليا، وهـو يحكـم الآن من أزربيجان إلى نهر الإندوس ، مسيطرا على الخليفة في بغداد . وعلى الرغم مـن أن وجود المغول في مؤخرته عرقله من أن يذهب شأوا بعيدا في مغامراته في الغرب ، إلا أنه كان بمثابة خطر كامن يتهدد الأيوبيين ؛ وعندما استنجد به المعظـم عـام ١٢٢٦م ، إغاظة منه لأخويه ، واعترف بسيادته العليا ، شعر الكامل بـالخوف في أعماقـه . وكـان الأشرف في جـانب الدفـاع ، محتمـلا حصـار عاصمتـه خـلاط . وكـان المغـول آنـذاك مشغولين في الصين ، ولو أرسلت لهم مناشدة - وإن كـانت بحـق فكـرة حكيمـة - لما صادفت اكتراثا . وهكذا ، أرسل الكـامل في خريـف ١٢٢٦م إلى صقليـة واحـدا مـن أكثر أمرائه موضعا للثقة، فخر الدين بن الشيخ ، طالبا العون من الامـبراطور فريدريـك الذي أظهر تعاطفه لكنه لم يبذل أية وعود ، إذ كان قتئذ يفكر في حملة صليبية جـادة . لكنه لم يغلق باب المفاوضات وأرسل توماس (أوف اكيرا) الذى كان فعلا في فلسطين، مع أسقف باليرمو إلى القاهرة محمّلين بالهدايا والرسائل الودودة للسـلطان . وكمـا فعـل الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، اقترح استعداده لإعـادة القـدس إلى المسـيحيين ، لكنها لسوء الحظ تنتمي لأخيه المعظّم ، وعندما ذهب أسقف باليرمو إلى دمشق لتـأكيد هذا الإقتراح ، أجابه المعظّم في غضب بأنه ليس مسـالما ، وأنـه لا يـزال شـارعا سـيفه . وفي تلك الأثناء زار فخر الدين صقلية مرة أخرى وبات صديقا أليفـا للإمـبراطور الـذي منحه رتبة الفروسية . كان رحيـل فريدريـك إلى الشـرق ، الـذي كـان البابـا يلـح فيـه بشغف ، يلقى نفس القدر من تشجيع السلطان[٣٠].

١٢٢٨م : المنازعات العائلية الأيوبية

على أنه قبل أن يشرع فريدريك في الرحيل أصبح الوضع متأزما ؛ إذ مات المعظّم يوم ١١ نوفمبر ١٢٢٧م تاركا أملاكـه لشـاب في الحادية والعشـرين هـو ابنـه النـاصر داود. ولّما كان هذا الحاكم الجديد ضعيفا عديم الخبرة ، فقـد أعـد الكـامل العـدة على

(٣٠) عن سياسة الكامل عموما أنظر ابن الأثير(ii, pp. 162-8) ؛وأبو الفدا(pp.99-102) ؛ والعينى pp. 183-6؛ والمقريزي Maqrisi, trans. Blochet, ix, pp. 470-511؛ و *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, p. 518 .

الفور لضم أراضيه ، وزحف على فلسطين واستولى على القدس ونابلس . فاستنجد الناصر بعمه الأشرف الذي سارع إلى نجدته معلنا أنه جاء ليضمن عدم انتهاز الفرنج للوضع ليضموا فلسطين ؛ وكان الكامل يجهر بنفس الإدعاء الذي بدا مستصوبا ، خاصة وأن فريدريك في طريقه الآن إلى الشرق . وأخيرا تقابل الأخوان في تل العجول بالقرب من غزة وقررا تقسيم أراضي ابن اخيهما فيما بينهما ، ولا يزالان يتحاجان بأنهما يعملان بإيثار لصالح الإسلام . وكان الناصر معسكرا في بيسان حيث خطط الأشرف لإعتقاله ، غير أن الصبي سمع بالمكيدة وفر هاربا إلى دمشق ، وطارده جيشا عميه وضربا حصارا حول المدينة في وقت ما من نهاية عام ١٢٢٨م(٣١).

وفي هذه الملابسات شعر الكامل بالأسى لمجئ فريدريك؛ كان يأمل في أن تخلص له فلسطين بصفة دائمة؛ فالخوارزميون لم تبدر عنهم بادرة تنبى بمقدمهم لمساعدة الناصر. على أن وجود جيش صليبي في عكا كان يعني عدم قدرته على تركيز قواته كلها في حصار دمشق، وليس فردريك بالموثوق به كليّة ، إذ ربما يقرر التدخل في جانب الناصر . وعندما أرسل فريدريك مبعوثيه توماس (أوف اكيرا) وباليان أمير صيدا إلى الكامل للإعلان عن وصوله ، طلب الكامل من فخر الدين زيارة الامبراطور مرة أخرى ، وبدء مفاوضات معه وإطالتها بقدر الإمكان حتى تسقط دمشق أو يرحل فريدريك إلى بلده . وأعقب ذلك عدة أشهر من المساومات في جو يشوبه شيئ من الخديعة المتبادلة وشيئ من الإعجاب المتبادل ، فلم يكن الامبراطور أو السلطان شديد الإخلاص لدينه، وإنما كان كل منهما مهتما بأسلوب حياة الآخر ، ولم يكن أي منهما على استعداد للذهاب إلى الحرب اذا أمكن تجنبها ؛ غير أنه كان لزاما على كل منهما أن يتشدد بقدر امكانه في المساومة حرصا على مكانته عند شعبه . فأما فريدريك فكان يريد أن يكسب الوقت ولم يكن جيشه من الضخامة بما يكفي لحملة كبيرة ؛ وأما الكامل ، فكان يشعر بالخطر من أي مظهر للقوة ولمّا يستولي على دمشق ، وكان على استعداد لمنح المسيحيين تنازلات إذا ساعده ذلك على المضي في سياسته الأكبر ألا وهي إعادة توحيد العالم الأيوبي والسيطرة عليه . غير أن هذه التنازلات لايجب أن تمضي أبعد مما ينبغي ؛ إذ عندما طلب فريدريك النزول عن فلسطين كلها قال له فخر الدين ، بناء على تعليمات الكامل ، إنه ليس بوسع سيده الإساءة إلى الرأي العام الإسلامي بهذه الدرجة.

---

(٣١) Ibn Khallikan, ii, p.429; Maqrisi, ix, pp.516-18; Abu Shama, ii, pp. 187-91; Ibn al Athir, ii, pp. 173-4; *Histoire des Patriarches,* p.519.

وفي آخر نوفمبر ١٢٢٨م حاول فريدريك الإسراع بالأمور بأن قام باستعراض عسكرى حشد فيه جميع الجنود التابعين له وسار جنوب الساحل إلى يافا وشرع في إعادة تحصينها . وفي ذات الوقت لم يكن الناصر بعد محاصرا تماما في دمشق ، فقاد جيشا إلى نابلس لإعتراض خطوط إمدادات عمه ؛ لكن الكامل رفض أن يُخدع ، وقطع المفاوضات قائلا إن رجال فريدريك قد نهبوا القرى الإسلامية ، ولم يستأنف المفاوضات إلا بعد أن دفع فريدريك تعويضات للضحايا(٣٢).

١٢٢٩م استعادة القدس

وفي نهاية الأمر أثبت فريدريك أنه المساوم الأفضل . فعندما حل شهر فبراير كان الناصر ما يزال آمنا في دمشق ، وكان جلال الدين الخوارزمى يلتفت ناحية الغرب مرة أخرى، واستكمل فريدريك تحصينات يافا. وبناء على نصيحة فخرالدين أرسل توماس (أوف أكيرا) وباليان أمير صيدا مرة اخرى إلى العادل . وفي ١١ فبراير عادا بشروط السلطان النهائية ، ووافق عليها فريدريك ، وبعد أسبوع، أي في ١٨ من الشهر ، وقّع معاهدة سلام مع ممثلى الكامل ، فخر الدين وصلاح الدين أمير اربيل ، وشهد عليها السيد الأعظم لنظام التيوتون وأسقفا إكستر وونشستر . وبمقتضى هذه المعاهدة تسترد مملكة القدس مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع ممر يمضى خلال اللّد إلى البحر في يافا والناصرة وغربي الجليل بما في ذلك مونتفرات وتبنين ، وباقى المقاطعات الإسلامية المحيطة بصيدا . على أنه في القدس نفسها تقرر أن تبقى قبّة الصخرة والمسجد الأقصى في أيدى المسلمين ، ويُسمح للمسلمين بحق الدخول وحرية العبادة . وعلى فريدريك إعادة بناء أسوار القدس ، وكان ذلك تنازلا له شخصيا. على أن يطلق سراح جميع السجناء من الجانبين، ويستمر السلام عشر سنوات بالتقويم المسيحى أى عشر سنوات وخمسة أشهر بالتقويم الإسلامى . ولم تنطبق المعاهدة على إمارة بوهمند أنطاكية – طرابلس(٣٣).

---

(٣٢) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.369-72; Ernoul, pp. 460-3; al-Aïni, pp. 186'8.

(٣٣) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp.90-1, 93-5, 102 رسالة هيرمان (اوف سالزا) الى البابا ، وإعلان فريدريك ، ورسالة البطريق جيرلد، بإعلان شروط السلام؛ *Ibid.* pp. 86-7 (حيث يرد نص جزئي للمعاهدة مع تعليقات البطريق)؛ Ernoul,p. 465; *Histoire d'Eracles*, ii, p. 374; al-Aïni, pp. 188-90; Maqrisi, ix, p. 525

وهكذا ، ودون توجيه ضربة واحدة ، فاز الامبراطور المطرود من الكنيسة بعودة أماكن العالم المسيحى المقدسة . بيد أنه يندر أن تُقابَل معاهدة ما بمثل هذا الإنكار العاجل والشامل . إذ ارتاع العالم الإسلامى، وأتاح ذلك للناصر فى دمشق أن يعلن الحداد العام على ما لحق بالإسلام من غدر، وحتى أئمّة الكامل سبّوه فى مواجهته؛ ولم يكن هناك عزاء يُذكر في إجابته العرجاء من أنه لم يفعل سوى التخلى عن بيوت وكنائس مهدمة بينما المقدسات الإسلامية سالمة باقية للإسلام ؛ كما لم يكفه التذرع في تعليقه بأن المسلمين لا يزالون يسيطرون استراتيجيا على الإقليم(٣٤). وكان المسيحيون من ناحيتهم مدركين ادراكا جيدا للوضع الاستراتيجي . وراح الأكثر عنادا من بينهم يولولون باكين على أن القدس لم تسترجع بالسيف ، وأعربوا عن تقززهم من أن الكفرة سوف يحتفظون بمقدساتهم ، واسترجعوا جميعهم ما جاء فى مفاوضات الحملة الصليبية الخامسة عندما رفض المسيحيون عرض الكامل بالتنازل عن فلسطين كلها لأن خبراء الإستراتيجية أكّدوا عدم إمكان صمود القدس بدون منطقة الأردن ؛ فكيف السبيل إذن للاحتفاظ بها وليس يربطها بالساحل سوى ممر واحد ضيق من الأرض؟ لقد غاب ما كان فريدريك يتوقعه من بهجة . ولم يقترح أحد رفع قرار الطرد من الكنيسة عن الرجل الذى أدى مثل هذه الخدمة العظيمة للعالم المسيحى ؛ فقد أعلن البطريق جيرولد عن غمه ورمى المدينة المقدسة بحرمان كنسى إذا استقبلت الامبراطور ؛ وتملك فرسان المعبد الحنق من بقاء المعبد في أيدى المسلمين فأعلنوا عن اعتراضهم ؛ فلا هم ولا فرسان المستشفى سيتعاملون مع أعداء البابا . وكذلك بالنسبة للبارونات المحليين ، المستائين من استبداد فريدريك ، إذ شعروا بالخطر من الحدود الجديدة غير العملية ؛ وتفاقم استياؤهم من الامبراطور عندما أعلن أنه ذاهب إلى القدس ليُتوج ملكا، فهو في حقيقة الأمر ليس مليكهم ، وإنما فقط الوصي ووالد الملك(٣٥).

١٢٢٩م : فريدريك في القدس

وفي يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩م دخل موكب فريدريك القدس ، يحوطه جنود حرسه من الألمان والإيطاليين والقليل جدا من البارونات المحليين ؛ ولم يكن معه ممثلون

---

(٣٤) Al-Aîni, pp. 190-1; Abu'l Feda, p. 104; Maqrisi, x, pp. 248-9 .

(٣٥) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp.101,138-9 ،(رسائل هيرمان وجيرولد)؛ Mattew Paris, iii,p.177 .

عن الأنظمة الدينية العسكرية فيما عدا فرسان التيوتون، و لم يصحبه من رجال الدين سوى أساقفة فريدريك الصقليين وأصدقائه الإنجليز، بطرس (أوف وينشستر) ووليم (أوف إكستر) . واستقبل الامبراطور عند بوابة المدينة القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي سلّمه مفاتيح المدينة باسم السلطان . ثم مر الموكب الزباحي القصير خلال الشوارع الخالية إلى مبنى المستشفى القديم حيث اتخذ فريدريك مقر إقامته . وغابت كل علامات الحماس، وقد هجر المسلمون المدينة فيما عدا مزاراتهم المقدسة ؛ وتنحى المسيحيون الوطنيون عن الأبصار لخشيتهم التي لها ما يبررها من أن ينالهم الضرر لعودة الحكم اللاتيني . ولقد شعر رفاق فريدريك نفسه بالحرج من قرار طرده من الكنيسة ، وعندما عُرف أن رئيس أساقفة قيسارية في طريقه إلى المدينة يحمل أوامر البطريق بوضع المدينة تحت الحرمان الكنسي ارتبكت الحاشية وترددت . وفي الصباح التالي ، الأحد ١٨ مارس ، ذهب فريدريك لحضور قداس في كنيسة القبر المقدس. ولم يكن هناك قسيس واحد ، وإنما فقط عساكره وفرسان التيوتون . ولم يرتدع ، وانما أمر بوضع تاج ملكي على مذبح الجمجمة(٣٦) ثم تناوله بنفسه ووضعه على رأسه . وعلى الأثر انطلق السيد الأعظم لفرسان التيوتون في قراءة تقريظ للإمبراطور-الملك ، أولا بالألمانية ثم بالفرنسية ، يعدد فيه منجزاته ويبرر سياسته . ثم تحركت الحاشية عائدة إلى المستشفى حيث عقد فريدريك مجلسا لمناقشة الدفاع عن القدس . وارتضى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ومرشد فرسان المعبد حضور المجلس ، وكذلك الأساقفة الإنجليز وهيرمان (أوف سالزا). وأمر فريدريك بإصلاح برج داود وبوابة القديس ستيفن في الحال ، وسلّم مقر الإقامة الملكي الملحق ببرج داود لنظام التيوتون العسكرى. وفيما عدا فرسان التيوتون ، لم يلق تعاونا من أحد سوى القدر اليسير(٣٧).

وهدأت حدة التوتر بتحول فريدريك عما كان فيه وذهابه لزيارة المزارات الإسلامية. وكان السلطان قد تصرف بفطنة عندما أمر مؤذن المسجد الأقصى بعدم الأذان للصلاة أثناء تواجد العاهل المسيحي في المدينة . لكن فريدريك احتج، فلا ينبغي للمسلمين تغيير عاداتهم بسببه ؛ فضلا عن أنه قد جاء إلى القدس - كما قال - ليسمع

---

(٣٦) المترجم :الجمجمة أو الجُلْجثة أو الجلجلةCalvary ،اسم المكان الذي صُلب فيه المسيح . وأيضا تمثال للمسيح المصلوب

(٣٧) *Historia Diplomatica Friderici Secundi, loc. cit.* . نبّط هيرمان عزم فريدريك على إقامة صلاة دينية في كنيسة القبر المقدس. وألقى فريدريك كلمته الخاصة به باللغة اللاتينية*Estoire d'Eracles*,ii, pp.375,385; Ernoul, p. 465

أذان المؤذن أثناء الليل . وبينا هو داخل فى المنطقة المقدسة للحرم الشريف، لاحظ قسيسا مسيحيا يتبعه ، فطرد بفظاظة من فوره ، وأصدر أوامره بقتل أي قسيس مسيحى يعبر عتبة منطقة الحرم الشريف بدون إذن من المسلمين . وأثناء طوافه حول قبة الصخرة لاحظ النقش الذى أبرزه صلاح الدين بالفسيفساء حول القبة مسجّلا تطهير المبنى من المشركين ؛ فسأل الامبراطور وعلى ثغره ابتسامة : "من هم المشركون؟" وعلّق على شبائك المثبته في النوافذ وقيل له إنها قد وضعت للحيلولة دون دخول العصافير ، فقال : "والآن أرسل الله لكم الخنازير" مستخدما المصطلح الإسلامى المسيئ للمسيحيين . ولوحظ أنه كان معه بعض المسلمين في حاشيته ، من بينهم عربي من صقلية كان معلما له في الفلسفة.

ولقد اهتم المسلمون برؤية الامبراطور ، لكنه لم يترك لديهم عميق انطباع وخاب أملهم من مظهره ، وقالوا إنه لا يساوى مئتى درهم في سوق الرقيق بوجهه الأملس الأحمر وبصر عينيه الحسيرتين . وأقلقتهم ملاحظاته المضادة لعقيدته هو نفسه ، فبمقدورهم أن يحترموا مسيحيا مخلصا، أما هذا الفرنجى الذى يستخف بالمسيحية ، ويثنى ثناء حافا على الإسلام ، فقد أثار ارتيابهم . وربما سمعوا ما يعزى إليه على نحو شائع من أن موسى والمسيح ومحمد ما هم إلا ثلاثة أدعياء . وعلى أية حال ، بدا رجلا بلا دين . ولقد وقع فخر الدين ، الذى دائما ما ناقش معه الفلسفة في قصر عكا، ضحية لسحره ، وأما السلطان الكامل ، الذى كانت نظرته التأملية تقاربه، فقد نظر اليه بإعجاب ودود ، وخاصة عندما أبلغه فخر الدين بثقة أن فريدريك ما كان ليصر قط على أخذ القدس لو لم أن تكن مكانته كلها معرضة للخطر . غير أن الورعين من المسلمين والمسيحيين على السواء نظروا شزرا إلى القصة برمتها. إن الإستخفاف البيّن لا يكسب قلوب الناس قط[٣٨].

١٢٢٩م : نهاية حملة فريدريك الصليبية

في يوم الإثنين التاسع عشر وصل بطرس أمير قيصرية ليلقى على القدس قرار البطريق بحرمانها الكنسى. واهتاج فريدريك لهذه الإهانة ، فتخلى من فوره عن كل أعمال الدفاع عن المدينة، وجمع كل عساكره وأسرع هابطا إلى يافا حيث توقف ليوم

---

(٣٨) Al-Aïni, pp. 192-3; Maqrisi, ix, pp. 525-6 .

ثم سار أعلا الساحل إلى عكا التى وصلها في الثالث والعشربن من الشهر ، فوجدها تغلي تذمرا . إذ لم يغفر له البارونات استخفافه بالدستور ؛ ورغم كونه وصيًا لا غير ، فقد أبرم معاهدة بدون رضاهم وتوج نفسه ملكا . وحدثت أعمال شغب اشتبك فيها مسلحون محليون مع حامية الامبراطور . وشعر المستعمرون الجنوبيون والبنادقة بالاستياء من الحظوة التى نالها أهل بيزاوخاصة وأن هذه المدينة كانت من حلفاء فريدريك القلائل في ايطاليا . إن عودة الامبراطور لم يكن لها من أثر سوى تفاقم المرارة التى شملت الأحواء[٣٩].

وفي الصباح التالى استدعى فريدريك ممثلين من سائر أنحاء المملكة لمقابلته وألقى عليهم بيانا بأعماله ؛ فقوبلت كلماته باستهجان غاضب ، فما كان منه إلا أن لجأ إلى القوة ؛ فضرب نطاقا من الشرطة حول قصر البطريق وحول مقار فرسان المعبد ، ووضع الحراس على بوابات المدينة حتى لا يدخلها أو يغادرها أحد إلا بإذن . وأشيع أنه ينوى مصادرة قلعة فرسان المعبد العظيمة في عثليت ، لكنه علم بأن حاميتها حصينة للغاية . وفكر فى اختطاف حون (أوف ابيلين) والسيد الأعظم لفرسان المعبد وإرسالهما إلى أبوليا ؛ غير أنهما احتاطا بحراسة شديدة ، فلم يحاول المجازفة بذلك . لكنه في ذات الوقت تلقى أنباءً خطيرة من ايطاليا تقول إن حماه ، حون (أوف بريـن) قام على رأس حيش بابوى بغزو ولاياته ؛ فلم يكن بوسعه تأحيل رحيلة من الشرق أكثر من ذلك ، وليس بوسعه سحق معارضيه إلا بمزيد مما لديه من حنود في سوريا . فأعلن عن رحيله الوشيك وعيّن باليان أمير صيدا وحارنييه الألماني وكيلين عن المملكة . وكان باليان مشهورا بآرائه المعتدلة وأمه من آل إيبلين ؛ وكان حارنييه ، برغم أصله الإلماني ، ضابطا لدى الملك حون (أوف بريـن). وعُيّن أودو (أوف مونتبليارد) ياورا للمملكة (كونستابل) مسؤولا عن الجيش.

كانت تلك التعيينات تمثل في حقيقتها هزيمة للإمبراطور . وكان مدركا أنه قد خسر ، وليتجنب مشاهد مهينة خطط لركوب البحر يوم أول مايو عند شروق الشمس، وهو وقت ليس فيه أحد ؛ غير أن السر انفضح . وأثناء مروره مع حاشيته أسفل شارع الجزارين إلى المرفأ ، احتشد الناس خارج الأبواب وراحوا يقذفونه بالأحشاء والرّوث . وسمع الشغب حون (أوف ابيلين) وأودو (أوف منتبليارد) فانطلقا على حواديهما لحفظ النظام ؛ لكنهما عندما ودعا الامبراطور على قادسه وداعا رقيقا ،

---

(٣٩) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p.101; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 374 .

رد عليهما متمتما باللعنات(٤٠).

ومن عكا أبحر فريدريك إلى ليماسول . وبقى نحوا من عشرة أيام في قبرص حيث قضى بأن يكون الوكلاء هم أماليك بارليه وأصدقاءه الأربعة ، جافين (أوف تشينشى)، وأماليك (أوف بايزان)، وهيو (أوف جبيل)، ووليم (أوف ريفت)؛ وعهد إليهم برعاية الملك . وفى الوقت نفسه رتّب زواج الملك الصغير وأليس (أوف مونتفرات) التى كان والدها واحدا من مناصريه المخلصين في إيطاليا .وفي ١٠ يونية ١٢٢٩م هبط في برنديزى(٤١).

من بين عظماء الصليبيين قاطبة كان فريدريك الثانى أكثرهم تخييبا للآمال . فكان ذا ذكاء حاد وعلى دراية بعقلية المسلمين وبمقدوره تقدير غوامض دبلوماسيتهم ؛ وأدرك ضرورة وجود بعض التفاهم بينهم وبين المسيحيين إذا كان لمملكة الشرق الفرنجى الفرنجية أن تبقى . بيد أنه فشل فى إدراك طبيعة فرنج أوتريميه . لقد اجتمعت تجربة أسلافه النورمانديين وإنجازاتهم مع طبعه ومفهومه عن الإمبراطورية لتؤدى به إلى السعى نحو بناء حكم استبدادى مركزى . ولقد وجد أن العمل في أوربا خارج أراضيه الإيطالية بالغ المشقّة ؛ ولو أنه أحسن اختيار وسائله لأنجزه في قبرص، على أنه في مملكة القدس المتقلصة ، كان مصير التجربة الفشل لا محالة ؛ إذ أن المملكة لا تكاد تجاوز مجموعة من المدن والقلاع يربطها بعضها البعض رباط مزعزع وليست لها حدود يمكن الدفاع عنها ، و لم تعد الحكومة المركزية ممكنة ، وكان لزاما أن يُعهد إلى السلطات المحلية ، مهما سببته نزاعاتها المتبادلة ونوازع الغيرة من مشقة ، بحكومة يتزعمها زعيم ماهر ومحترم . و لم تكن تلك السلطات سوى البارونات العلمانيين والأنظمة الدينية العسكرية . ولقد أبعد فريدريك البارونات العلمانيين بأن داس بقدميه على ما كانوا يفخرون به من حقوق وتقاليد . إذ كانت الأنظمة الدينية العسكرية أهم ، إذ بإمكانها دون غيرها، الآن وبعد أن آثر الفرسان العلمانيون البحث عن الثروة في اليونان الفرنجية، توفير مصادر التجنيد للحرب والإستقرار في الشرق . وعلى الرغم من أن رؤساءهم العظام لهم مقاعد في مجلس الملك ، وبرغم طاعتهم له باعتباره قائدا أعلى في ميدان القتال، إلاّ أنهم يدينون بالولاء للبابا لا سواه . ولا يُنتظر منهم مساعدة حاكم طرده البابا من الكنيسة وصنّفه على أنه عدو للعالم المسيحى . وليس هناك سوى نظام فرسان

---

(٤٠) *Estoire d'Eracles,* ii, p. 375; Ernoul, p. 466; *Gestes des Chiprois,* p. 50 .

(٤١) *Gestes des Chiprois,* pp. 50-1

التيوتون الأقل أهمية بين الأنظمة الثلاثة الذي كان على استعداد لتحدى الخطر البابوى بسبب علاقة الصداقة التى تربط سيدهم بالإمبراطور . واللافت للنظر أن فريدريك، بهذه الإمكانيات الضئيلة وبما أثير ضده من كراهية ، تمكن من الفوز بنجاح دبلوماسى مذهل يتمثل فى استعادة القدس(٤٢).

١٢٢٩م : وضع القدس المقلق

كان استرجاع القدس ضئيل النفع للملكة في واقع الأمر . إذ أنه برحيل فريدريك المتعجّل بقيت القدس مدينة مفتوحة. ومن المحال حراسة الطريق الصاعد اليها من الساحل ؛ فبدأ قطاع الطرق من المسلمين على سرقة الحجاج وقتلهم أحيانا. وبعد أسابيع قليلة من رحيل فريدريك من البلد قام أئمة المسلمين من المتعصبين في الخليل ونابلس بتنظيم غارة على القدس ذاتها ، مما دفع المسحيين من كافة الطوائف إلى الهرب حيث الأمان في برج داود بينما استنجد حاكمها، رينالد أمير حيفا بعكا ؛ فخف الوكيلان باليان أمير صيدا وحارنييه مع جيش من عكا ، مما أجبر المغيرين على الإنسحاب ، وتبرأ حكام المسلمين من أية صلة بالمغيرين ، وبعد تحصين المدينة بحامية أكبر وترميم بعض التحصينات البسيطة توفر شيئ من الأمن ؛ وألغى البطريق قرار الحرمان الكنسى وجاء للإقامة في المدينة جزءا من السنة . بيد أن الوضع ظل مقلقا؛ فبإمكان السلطان إعادة الإستيلاء على القدس في أي وقت يختاره . أما في الجليل ، حيث أعيد بناء حصني مونتفرات وتبنين ، فكان صمود المسيحيين أقوى. غير أنه بوجود المسلمين فى صفد وبانياس ، لم يكن استمرار الصمود مضمون(٤٣).

وكانت الحرب الأهلية المريرة هي أهم ما أورثه فريدريك في كل من قبرص ومملكة القدس. وبدأت الحرب الأهلية في قبرص على الفور ؛ إذ تلقى الوكلاء الخمسة هناك تعليمات بطرد جميع اصدقاء آل ابيلين من الجزيرة ، وتحصيل ما وافقوا على أن يدفعوه لفريدريك وهو مبلغ عشرة آلاف مارك ، وعدم تسليم الحصون التى كانت حامياتها ما تزال تتألف من جنود الإمبراطورية إلاّ بعد دفع القسط الأول . فجمعوا المال عن طريق فرض ضرائب باهظة ومصادرة ممتلكات آل ابيلين ومناصريهم . وتصادف أن واحدا

---

(٤٢) عن تعارض الآراء فيما يتصل بانجازات فريدريك في فلسطين ، أنظر Kantorowicz, op. cit. pp. 193 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 322-3

(٤٣) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 303-5 .

من أخلص المناصرين لجون أمير بيروت ، وهو المؤرخ الشاعر فيليب (أوف نوفارا)، كان موجودا في الجزيرة ، وسمح له الوكلاء بمرور آمن للحضور إلى نيقوسيا ومناقشة نوع من المدنة بينهم وبين آل ايلين ؛ غير أنهم عندما وصلهم فيليب غيّروا موقفهم واعتقلوه . وأعقب ذلك مشهد غاضب أمام الملك الصبى الذي كان يعرف فيليب معرفة جيدة لكنه كان فاقد الحيلة لا يستطيع التدخل ؛ وانتهى الأمر بأن وافق الوكلاء على اطلاق سراح فيليب بكفالة ؛ لكنه اتخذ جانب الحكمة والحذر وهرب إلى مقر فرسان المستشفى، إذ اقتحم رجال مسلحون منزله تلك الليلة ، وكتب بلغة ركيكة يناشد جون (أوف ايلين) في عكا أن يخف لنجدته وانقاذ ممتلكات أصدقائه كلهم ، فجهّز جون من فوره حملة على حسابه الخاص وتمكن من الهبوط عنوة شمال فاماجوستا في جاستريا ؛ ثم زحف بحذر على نيقوسيا حيث قابل جيش الوكلاء الذي كان أكبر بكثير من جيشه ، وإنما أقل حماسا. ودارت بعض المفاوضات نشبت بعدها معركة شنها آل ايلين يوم ١٤ يولية ؛ وشن فرسان جون هجوما جريئا قاده ابنه باليان ، رافقه خروج فرسان من المستشفى نظّمه فيليب (أوف نوفارا)، فحُسمت المعركة ، وهرب الوكلاء مع جنودهم إلى الحصون الثلاثة: رب المحبة ، وكانترا ، وكيرينيا . ومضى جون يتعقبهم وضرب حصارا حول الحصون الثلاثة، وسرعان ما استولى على كيرينيا ، لكن حصن رب المحبة ، الذى لجأ إليه بارليه ومعه الملك الصغير وأخواته ، وكذلك حصن كانترا ، كانا من العسير اقتحامهما ، ولم يستسلما إلاّ في صيف عام ١٢٣٠م من التضور جوعا . وكانت شروط جون للسلام شروطا سخية . ذلك أنه من بين الوكلاء الخمسة ، قُتل جافين (أوف شينيشي) في حصن كانترا ، ووليم (أوف ريفت) وهو أخوه غير الشقيق ، الذى هرب من كيرينيا بحثا عن مساعدة في كيليكيا حيث مات فيها، ولم يعاقب جون الثلاثة الباقين مما أثار استياء كثيرين من أصدقاء جون . بل إن جون لم يسمح لفيليب المؤرخ الشاعر أن يكتب فيهم قصيدة هجاء . وأرسل رسولا باسم الملك إلى عواهل أوروبا لتبرير الخطوات التى اتخذت ضد الامبراطور ، وتولى جون نفسه الحكم إلى أن يبلغ الملك هنرى سن الرشد في عام ١٢٣٢م[٤٤].

---

(٤٤) *Gestes des Chiprois*, pp.50-76) حيث يرد وصف المؤرخ فيليب أوف نوفارا نفسه؛ *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 375-7 . انظر Hill, op. cit., ii, pp. 100-7.

١٢٢٩م : الملكة أليس تطالب بعرش القدس

وفي تلك الأثناء كان باليان أمير صيدا وجارنييه الألماني يحكمان مملكة القدس بصورة سلمية . وفي خريف عام ١٢٢٩م جاءت الملكة أليس القبرصية إلى عكا مطالبة بالعرش ؛ إذ أن وصايتها على قبرص - التي كانت ما تزال تقوم بها من الناحية الإسمية - لم تعد عليها إلا بالمتاعب . وكانت قد طلّقت زوجها بوهمند الصغير أمير انطاكية على أساس قرابة الدم ؛ إذ كانا أبناء عمومة من الدرجة الثالثة . والآن أعلنت أنه على الرغم من أن كونراد ابن الامبراطور هو ملك القدس قانونا ، إلاّ أنه قد فرّط في حقه بفشله في المجئ إلى مملكته ، ومن ثمّ ينبغى للمحكمة العليا تسليم التاج إلى الوريث الشرعى التالى ، أي إليها هي نفسها . ورفضت المحكمة مطالبتها تأسيسا على أن كونراد لا يزال دون سن الرشد وبذا لا يكون وجوده ضروريا . على أن المحكمة وافقت على ارسال سفارة إلى أيطاليا تطلب إرسال كونراد في غضون عام إلى الشرق للتمكين من تقديم فروض الولاء له شخصيا . ورد فريدريك بأنه سيفعل ما يراه مناسبا[٤٥].

وفي ٢٣ يولية ١٢٣٠م عقد فريدريك سلاما مع البابا بمعاهدة سان جيرمانو . فقد كان على الجملة منتصرا في ايطاليا ، وهو الآن على استعداد لتقديم بعض التنازلات حول سيطرة الكنيسة في صقلية حتى يمكن تبرئته من قرار طرده من الكنيسة . وأسفرت مصالحته مع البابوية عن تشديد قبضته في الشرق ، فقد وصلت التعليمات إلى البطريق جيرولد برفع قرار الحرمان الكنسى الذى فرض على القدس ، كما تلقى تعنيفا لإصداره هذا القرار دون الرجوع إلى روما . وشعرت الأنظمة الدينية العسكرية بأنها لم تعد مضطرة لأن تتنحى جانبا ؛ كما لم يعد في وسع البارونات الإعتماد على المساندة الكنسية[٤٦]. وانتظر الامبراطور الوقت الذي يناسبه . وفي خريف ١٢٣١م، وبعدما أخبر البابا بضرورة ارسال جيش للدفاع عن القدس ، جمع نحوا من ستمائة فارس و مائة مساعد فارس و سبعمائة من المشاة المسلحين و ثلاثة آلاف من رجال البحرية ، وأرسلهم بقيادة مارشاله - ريتشارد فيلانجيري النابوليتاني - في اثنين وثلاثين قادسا . ومُنح فيلانجيرى هذا لقب المندوب الإمبراطورى[٤٧].

---

(٤٥) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 380. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 64 n 1

(٤٦) Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1489-90.

(٤٧) كتب البابا جريجورى الى فريدريك قائلا إنه لا ينبغى لفيلانجيرى أن يلقّب نفسه بلقب المندوب الإمبراطورى ، وإنما فقط مندوب الإمبراطور في القدس . وأوصى بفيلانجيرى لدى الأساقفة السوريين

وكان حون (أوف ايلين) في عكا عندما جاء أحد عملائه من ايطاليا في باخرة لفرسان التيوتون، وحذّره من الأسطول القادم . وظن أن هدفه الأول هو قبرص ، فسارع بجمع رجاله من بيروت تاركا مجرد حامية ضئيلة العدد في القلعة وأبحر قاصدا قبرص . وعندما وصل الأسطول الإمبراطورى أمام الساحل القبرصى علم فيلانجيرى أن حون مع الملك هنرى في كيتى ، وأن باليان (أوف ايلين) يحتل ليماسول . فأرسل سفيرا لمقابلة الملك ومعه رسالة من فريدريك يطلب منه فيها نفى آل ايلين ومصادرة أراضيهم . ورد الملك هنرى بأن حون هو عمه وأنه على أية حال لن يجرد أتباعه من ممتلكاتهم . وكاد الحشد الحاضر أن يقتص من بارليه الذى كان حاضرا وتكلم باسم فريدريك لولا أن أنقذه حون.

١٢٣١م : إنشاء مجلس إداري (كوميون) في عكا

وبعودة السفير ، أبحر فيلانجيرى مباشرة إلى بيروت التي لم تكن بها حامية والتى سلمها له أسقفها الهَلوع ؛ وبدأ حصاره حول قلعتها، وبعدما أوشكت على السقوط اتجه إلى صيدا وصور واحتلهما ثم ظهر في عكا ؛ حيث طلب عقد اجتماع للمحكمة العليا وأظهر لها رسائل من فريدريك بتعيينه وكيلا ؛ وصدق البارونات على التعيين ، وبمقتضى ذلك أعلن فيلانجيرى مصادرة أراضى آل ايلين ، وهنا احتج البارونات جميعا؛ إذ ليس في الإمكان مصادرة الضياع إلاّ بقرار من المحكمة العليا وبعد إتاحة الفرصة للمالك للدفاع عن قضيته ، ورد فيلانجيرى متعاليا أنه وكيل الامبراطور ولسوف ينفّذ تعليمات الامبراطور. وكان ذلك خرقا جسيما للدستور سبب الصدمة حتى للمعتدلين مثل باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتفرات) الذي كان على استعداد حتى آنذاك لتأييد الامبراطور . وعلى الأثر انحاز البارونات جميعا إلى حزب حون (أوف ايلين)؛ وكذلك فعل تجار عكا ، لما لجون من شعبية بينهم فضلا عن استيائهم من أسلوب فيلانجيرى المتغطرس. وكان أغلبهم ، فضلا عن نبلاء قليلين ، ينتمون إلى أخوة دينية كرست نفسها للقديس أندرو ؛ وعلى أساس تلك الأخوة الدينية أنشأوا مجلسا إداريا (كوميونا) ليمثّل كافة الطبقة البرجوازية المحلية ، برئاسة اثني عشر قنصلا ودعوا حون (أوف ايلين) ليكون أول عمدة لهم . بيد أن فيلانجيرى كان رهيبا ؛ إذ كان لديه جيش

بهذه الصفة (رسالة جريجورى التاسع ، المؤرخة في ١٢ أغسطس ١٢٣١، والواردة في M.G.H. *Epistolae Saeculares*, xiii, i, p. 363).

جيد أحضره معه يتألف أساسا من اللومبارديين ، وكان فرسان التيوتون وأبناء بيزا أصدقاءه المخلصين . أما البطريق وفرسان المستشفى والمعبد فقد انزووا جانبا ، فلا أحد منهم يعبأ بفريدريك ، لكنهم منذ أن تمت مصالحته مع البابا، ساورهم الشك في واجبهم اين يكون.

عندما وصلت إلى قبرص أنباء مهاجمة بيروت ، توسل جون (أوف ابيلين) إلى الملك هنرى لكي يخف لنجدتها مع قوات الجزيرة ، ووافق الملك الصغير وأمر بإبحار جيش المملكة كله . ورغم خطورة بقاء قبرص بلا حراسة فقد كان جون يؤمن بضرورة انقاذ الأرض الأصلية أولا ؛ ومن باب الإحتياط اضطر بارليه وأصدقاؤه إلى مصاحبة الحملة . وكان في مأمول جون مغادرة قبرص في عيد الميلاد من عام ١٢٣١م ، لكن الأجواء العاصفة حالت دون تحقيق أمله حتى ٢٥ فبراير عندما استطاع الجيش الإبحار من فاماجوستا . وأبحرت السفن بسرعة وسط عاصفة مطيرة هائلة وألقت مراسيها جنوب طرابلس مباشرة في الميناء الصغير (بوى القائد العام). وهناك هبط سرا إلى اليابسة بارليه وأصدقاؤه وعددهم ثمانون فارسا ، وذهبوا إلى طرابلس تاركين معداتهم وراءهم ، وأرسل لهم فيلانجيرى سفينة تقلهم إلى بيروت ، وتبعهم جون برا مع أغلب رجاله ، بينما أبحر الاسطول القبرصى باتجاه الجنوب لكنه صادف أجواء سيئة أمام البطرون ، حيث تحطمت سفن قليلة ودمّرت سفن اخرى وفقدت مواد كثيرة. وعندما كان جون مارا خلال جبيل هرب بعض جنود المشاة ، وأخيرا وصل بيروت وشق طريقه إلى القلعة ، ومن هناك استنجد بالبارونات لإنقاذه ؛ فجاء كثيرون يقودهم ابن أخيه جون أمير قيسارية . على أن باليان أمير صيدا كان لا يزال يأمل في المصالحة ، فأسرع إلى بيروت مع شريكه السابق فى الوكالة، جارنيه ، والبطريق والسيدين الأعظمين لفرسان المستشفى والمعبد . غير أن فيلانجيري رفض النظر في شروط المصالحة التى تترك لآل إيبلين ملكية أراضيهم ، ولم يوافق المتفاوضون على أقل من ذلك.

وبعد أن أعاد جون تعزيز حامية بيروت ، انتقل إلى صور حيث استُقبل استقبالا حسنا ، وفاز بالكثير من المجندين وخاصة من أبناء جنوا . كما أرسل سفارة برئاسة ابنه باليان إلى طرابلس للترتيب لزواج أخت الملك هنرى الصغرى ، إيزابيلا ، من ثانى أبناء بوهمند ، هنرى . لكن بوهمند لا يثق كثيرا فى قضية آل ابيلين فعامل السفارة ببرود قليل. ومع ذلك ، بات فيلانجيرى عصبيا . ذلك أنه كان قد اتخذ مقر رئاسته في صور تاركا القيادة في بيروت لأخيه لوثر . والآن أمر أخاه لوثر برفع الحصار والإنضمام اليه في صور.

وفي تلك الأثناء عاد بارليه إلى قبرص بعد أن تعززت قواته بجنود من اللومبارديين ، وشرع في الإغارة على الجزيرة ، وسقطت أمامه الحصون الواحدة تلو الأخرى فيما عدا قلعة رب المحبة التي لاذت بها أخوات الملك ، وقلعة بوفافينتو التي كانت أشدهم منعة، والتي هربت اليها متنكرة في هيئة راهب الليدى إيشّفا (أوف مونتبيليارد) ، وهي ابنة عم الملك هنري وابنة اخت أودو ، مصطحبة معها المؤن الوفيرة وبهذا تمكنت من الاحتفاظ بهذا الحصن للملك . وكان زوجها الأول ، والتر (أوف مونتيجو) ، قد قتله رجال بارليه في معركة نيقوسيا ، وقد تزوجت مؤخرا من باليان (أوف ابيلين) ؛ غير أن الزواج ظل في طي الكتمان لأنهما كانا أبناء عمومة . وعلم باليان بالغزو عندما كان في طرابلس من قبطانين بحريين من ابناء جنوا قدما مساعدتهما لكن بوهمند أسر سفينتيهما.

١٢٣٢م : معركة كاسال إمبرت

وفي نهاية ابريل وافق أبناء جنوا على مساعدة آل ابيلين في هجوم على فيلانجيري في صور ، في مقابل الحصول على امتيازات في قبرص ؛ فاتجه الجيش شمالا إلى (كاسال إمبرت) على مبعدة اثني عشر ميلا تقريبا . غير أن جون قابل هناك بطريق انطاكية ، ألبرت (أوف ريزاتو) ، الذى عُين مؤخرا مندوبا بابويا في الشرق وقد جاء جنوبا للوساطة ؛ وكان قد زار صور لتوه وسمع شروط فيلانجيرى الجديدة ؛ فقال جون أنه ينبغي - بحق - احالة تلك الشروط إلى المحكمة العليا ، وعاد إلى عكا مع البطريق ومعهما قوة من الحرس أضعف غيابها جيشه بصورة حسيمة . وفي وقت متأخر من ليل ٢ مايو ، خرج فيلانجيرى ، الذي علم برحيل جون، وربما رتب ذلك مع البطريق ، بكل قواته من صور وانقض على معسكر إيبلين الذي لم يكن يتوقع أي هجوم وكانت حراسته سيئة . وحارب أنسيلم ، الذي كان في القيادة مع لوردات إيبلين الصغار ، بشجاعة فائقة ، لكن فيلانجيرى استولى على المعسكر . وأسرع ملك قبرص الصغير في نصف ملابسه إلى حيث الأمان في عكا ، ولاذ الباقون على قيد الحياة بقمة تل.

و لم يحاول فيلانجيري متابعة انتصاره ، وإنما انسحب بكل ما غنمه إلى صور تاركا مجموعة لحراسة ممر سلم صور . أما جون (أوف ابيلين) فما أن سمع بالكارثة حتى سارع شمالا من عكا وأنقذ أبناءه ، غير انه عندما حاول اللحاق بالأعداء المثقلين بالغنائم صده حراس الممر ، فعاد إلى عكا. وفي ذات الوقت عبر فيلانجيرى إلى قبرص

بتعزيزات لبارليه . وعلىالأثر صادر حون جميع السفن الراسية في ميناء عكا ، بينما عرض الملك حون اقطاعيات في قبرص للفرسان المحليين وحتى للتجار السوريين إذا انضموا إليه ، ورتّب أن يسهم أبناء حنوا بالمساعدة في مقابل اعفائهم من المكوس ومنحهم الحق في أن يكون لهم أحيازهم الخاصة بهم ومحاكمهم في نيقوسيا وفاماجوستا وبافوس . وكانت الأموال في تناقص ، لكن حون أمير قيسارية وحون الأصغر (أوف ابيلين) ، وهو ابن فيليب ، باعوا ممتلكات في قيسارية وعكا لفرسان المعبد والمستشفى وجمعوا قرضا يبلغ واحد وثلاثين ألف بيزانت وأعطوه للملك.

وبهذه التعزيزات والتجهيزات ، أبحر حون والملك من عكا يوم ٣٠ مايو ، وتوقفا في صيدا لالتقاط باليان (أوف ابيلين) الذى كان في طريقه من سفارته في طرابلس ، وعبروا البحر إلى فاماجوستا. وكان اللومبارديون التابعون لفيلانجيرى في المدينة ومعهم ما يربو على ألفين من الخيالة بينما كان مع انصار ابيلين مائتان وثلاثة وثلاثون فقط . وبرغم ذلك حازف حون بإنزال حنوده الرئيسيين بعد حلول الظلام على جُزيرة صخرية تقع إلى الجنوب مباشرة من الميناء . وكانت بلا حراسة إذ لم يدر بذهن احد إمكان انزال خيول هناك . ثم تمكنت فصيلة صغيرة في قواربها من شق طريقها إلى داخل الميناء مطلقة صرخات عالية بحيث ظن اللومبارديون أن جيشا عظيما يطبق عليهم، فاحرقوا سفنهم وسارعوا بمغادرة المدينة . وفي الصباح التالي عبر جيش ابيلين الصخور إلى اليابسة الرئيسة فوجد فاماجوستا مهجورة.

وبقي حون هناك ما يكفي من الوقت لكي يوفي الملك بوعده لأبناء جنوا بالتوقيع على معاهدة معهم تقضي بتخصيص حي لهم ، ثم انطلق الجيش إلى نيقوسيا . ونتيجة لتصرفات اللومبارديين الوحشية، انعدمت شعبيتهم على الجزيرة ، وباتوا يخشون ثورة الفلاحين عليهم . واثناء انسحابهم أمام جيش ابيلين أحرقوا مخازن الحبوب كلها التى خُزن فيها الحصاد لتوه . وقرروا عدم الإحتفاظ بنيقوسيا ، وانما مضوا بطول الطريق الذاهب أعلى التلال إلى كيرينيا التي استولوا عليها لتحمي مؤخرتهم وليصبحوا على اتصال بفيلانجيري نفسه ، الذي كان يحاصر حصن رب المحبة . وكان معروفا أن حامية حصن رب المحبة تتضور جوعا وعلى وشك الإستسلام ، فاذا استطاع فيلانجيري صد أعدائه إلى أن يستولى على الحصن وعلى أختي الملك الموجودتين بداخله ، فسيكون في وضع قوى لمساومة الملك.

وسار الإبليون ببطء إلى نيقوسيا وهم يعانون من نقص الطعام ، غير أنهم وجدوا

في نيقوسيا ذاتها مخازن ضخمة غفل عنها اللومبارديون . واستراب حون من ذلك بحيث لم يضرب معسكره داخل المدينة ، وانما قاد جيشه في الحال يوم ١٥ يونية باتجاه كيرينيا منتويا أن يعسكر في أجريدي الواقعة أسفل الممر مباشرة . ولخشية الجيش من هجوم في أية لحظة فقد سار في تشكيل قتالي ؛ وكان يتعين أن يقود الطليعة باليان ، ابن حون ، لكنه كان قد طُرد من الكنيسة لزواجه من ابنة عمه إيشيفا ، تلك السيدة الشجاعة التى كانت تراقب الحملة كلها من مكمنها المرتفع في بوفافينتو ، فضلا عن أن والده لم يكن ليسمح له بقيادة عليا . ولذلك قاد الفرقة الأولى أخوه هيو ، مع أنسيلم (أوف براي) . وقاد ابن حون الثالث ، بلدوين ، الفرقة الثانية ؛ وقاد حون أمير قيسارية الفرقة الثالثة ؛ وقاد حون الإبليني نفسه المؤخرة مع أبنائه الآخرين والملك . وكان جيشا ضئيل العدد تنقصه الخيول بحيث يضطر تابع الفارس إلى أن يحارب راجلا . وبدا الجيش حقيرا في أعين اللومبارديين الذين كانوا ينظرون اليه من قمة الممر ، حيث يلتقي الدرب القادم من حصن رب المحبة بالطريق . وصدر الأمر بمهاجمتهم دون تأخير.

١٢٣٢م : معركة أجريدى

هبط جنود الخيالة من اللومبارديين التل وهم يرعدون بقيادة والتر كونت مانوبيلو، ومروا بطول جناح جيش ابيلين ، لكنهم لم يتمكنوا من كسر صفوفه ، وساقتهم قوة دفع الهجوم إلى السهل بأسفل . ومنع حون رجاله من تعقبهم ؛ ولم يجرؤ اللومبارديون على العودة والكدح لصعود المنحدر الشديد ، وانما نهبوا الأرض ركضا باتجاه الشرق دون توقف إلى أن وصلوا جاستريا . واندفعت ثاني قوة لومباردية ، بقيادة بيرارد أخي والتر ، وهجمت مباشرة في قلب الصفوف التي يقودها هيو الإبيليني وأنسيلم (أوف براي) ؛ غير أن الخيول وجدت صعوبة في هبوط جانب التل الصخرى الوعر ، فكان لكثير من الخيول كبواتها ملقية راكبيها الذين حال ثقل أسلحتهم دون الوقوف على الأقدام . وحارب أغلب الإبيليين على الأقدام ، وبرغم التفوق العددى لأعدائهم، وسرعان ما كانت لهم اليد العليا على اعدائهم . وقتل قائد اللومبارديين بيرارد بيد أنسيلم نفسه ؛ وكان فيلانجيري منتظرا على رأس الممر منتويا الهبوط لإنقاذ بيرارد ؛ غير أن باليان الإبيليني ظهر فجأة مع حفنة من الفرسان ، كانوا قد تسلقوا التل من مؤخرة جيش ابيلين في درب جبلي يقع غرب الطريق وهجموا مباشرة على معسكر فيلانجيري. ومرة أخرى كان التفوق العددى في جانب اللومبارديين الذين راحوا يشددون على

باليان وحفنة فرسانه ، ورفض أبو باليان أن يفصل فصيلة من جنوده وأن يرسلها لمساعدته ؛ غير أنه سرعان ما فقد فيلانجيرى أعصابه ، إذ لم ترجح فصائل مانوبيلو ، فقاد رجاله في حالة من الفوضى هابطا إلى كيرينيا.

وأنقذت قلعة رب المحبة وهرب محاصروها باتجاه الجنوب الغربي إلى السهل . ولما هبط الظلام فاجأهم فيليب (أوف نوفارا) وأسرهم . ووصل والتر (أوف مانوبيلو) إلى قلعة جاستريا ، لكن فرسان المعبد بداخلها رفضوا السماح له بالدخول ، وعثر عليه جون ، ابن فيليب الإبيليني ، مختبئا في حفرة واعتقله . وفي ذات الوقت سار جون أمير بيروت لمحاصرة فيلانجيرى في كيرينيا.

ودام حصار كيرينيا عشرة أشهر . إذ كان الإبيليون يفتقدون السفن بادئ الأمر ، بينما كان لدى فيلانجيرى أسطول أبقى على اتصاله بصور . ولم يتمكن الإبيليون من إحكام الحصار حول القلعة بحرا إلا بعد استمالة أبناء جنوا للمساعدة بسفنهم مرة أخرى . وقبل أن يكتمل الحصار هرب فيلانجيرى مع أماlريك بارليه ، وأمالريك أمير بيسان ، وهيو أمير جبيل ، وذهبوا أول الأمر إلى أرمينيا في محاولة فاشلة للحصول على مساعدة الملك هيثوم ، ثم إلى صور ، وفي نهاية الأمر إلى ايطاليا لإطلاع الامبراطور . أما اللومبارديون في كيرينيا ، بقيادة فيليب شينارت ، فقد شيدوا دفاعات قوية . وكان صغار لوردات إبيليين قد جرحوا جميعا أثناء القتال ؛ وكان أنسيلم (أوف براي) المحارب الصنديد ، والذي كان جون أمير بيروت يلقبه بلقب "الأسد الأحمر"، قد أصيب بسهم حديدى ومات بعد ستة أشهر من أوجاعه . ومن بين اللاجئين داخل كيرينيا الأميرة أليس (أوف مونتفرات) الإيطالية التى اختارها فريدريك لتكون عروس الملك هنرى ؛ وكانت قد تزوجت بالتوكيل ، ومن المشكوك فيه ما إذا كانت قد رأت زوجها قط ، إذ وصلت إلى قبرص يرافقها الحرس الإمبراطورى بعد أن انضم الملك إلى الإبيليين . وأثناء الحصار سقطت مريضة وماتت ؛ وقد توقف القتال لمراسم تسليم جثتها وعليها رداء الملكة ، وحُملت إلى نيقوسيا حيث أجريت لها جنازة ملكية ودفنها زوجها الذي لم يرها قط وهي على قيد الحياة.

واستسلمت كيرينيا في ابريل ١٢٣٣م ، وسُمح للمدافعين عنها بالإنسحاب إلى صور مع أمتعتهم الشخصية ، وتم تبادل الأسرى الذين أسرهم الإبيليون بالأسرى الذين كان يحتجزهم فيلانجيرى في صور. والآن عادت قبرص كلها إلى حكم الملك هنرى وأبناء عمومته الإبيليين. وكوفئ أتباع الملك المخلصون وسُدد ما أقترضوه من

قروض[٤٨]. ودخلت الجزيرة عهدا من السلام لا يشوبه إلا محاولات هرمية الكنيسة اللاتينية قمع أي رجل دين يوناني لا يقبل سلطتها أو لا يعترف بأعرافها، وذلك على الرغم من معارضة البارونات العلمانيين . أما الرهبان اليونانيون المعاندون في عصيانهم فقد عوقبوا حتى بالحرق[٤٩].

١٢٣٣م : تعيين موجاستيل وكيلا

على الرغم من حلول السلام في قبرص ، كان فيلانجيرى ما يزال يحتل صور في الأراضي الرئيسية ، وكان فريدريك ما يزال حاكم القدس القانوني وصيا على ابنه الصغير . وعندما علم فريدريك بفشل سياسته ، وربما من فيلانجيرى نفسه ، أرسل رسائل إلى عكا ، سلمها أسقف صيدا بيده كان يزور روما، بالغاء تعيين فيلانجيرى كوكيل ، وتعيين أحد النبلاء السوريين مكانه وهو فيليب (أوف موجاستيل) . وإذا كان أمله تهدئة البارونات بتعيين لورد محلي ، فقد خاب أمله ؛ إذ كان موجاستيل شابا مخنثا أثارت علاقته الحميمة مع فيلانجيرى فضيحة كبيرة ، بينما بقيت صور في حوزة فيلانجرى . وعندما وصلت أنباء التعيين الجديد جون أمير بيروت ، لم تكن كيرينيا قد سقطت بعد ، فأسرع من فوره مبحرا إلى عكا ، حيث كان باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتبيليارد) يتهيّآن لقبول موجاستيل ، ورتّبا بأن يتم قسم الولاء له في كنيسة الصليب المقدس ، لكن جون أمير قيسارية نهض عندما افتتح الحفل وأعلن عدم قانونية الإجراءات ؛ إذ لا يستطيع الامبراطور أن يلغي بنزوة من خياله الترتيبات التي تمت أمام المحكمة العليا. وثار خلاف غاضب ، وقرع جون جرس الإنذار لكوميون عكا مستدعيا أعضائه لمساعدته ، واندفع حشد مهتاج إلى داخل الكنيسة ، أوشك على قتل باليان وأودو لولا تدخل جون شخصيا ، بينما هرب موجاستيل مذعورا إلى صور . وأعيد انتخاب جون عمدة للكوميون وأصبح الحاكم الفعلي للمملكة ، فيما عدا صور التي كان فيلانجيرى يحكمها باسم الامبراطور ، والقدس ذاتها التي يبدو أنها كانت خاضعة

---

(٤٨) أورد Philip of Novara قصة الحرب اللومباردية الطويلة من وجهة نظر ابلينية عاطفية(*Gestes des Chiprois*,pp. 77-117) وترد ببعض الإطالة في*Estoire d'Eracles*,pp. 386-402 ، ومرة أخرى من وجهة نظر معادية للإمبراطور . وأما تاريخي (Amadi (pp. 147-82 وBustron (pp. 80 - 104يختلفان في مجرد تفصيلات بسيطة .أما مؤرخو فريدريك فلا يعبؤن بالقصة.

(٤٩) عن تاريخ قبرص الكنسي في هذه الفترة أنظر .Hill, op.cit. iii,pp 1043-5 وهناك رواية عن استشهاد ثلاثة عشر يونانيا على يد اللاتينيين عام ١٢٣١م منشورة في . Sathas, vol.ii, pp 20-20 .

لممثل مباشر من الامبراطور . ومن المرجح أن باليان أمير صيدا ظل وكيلا إسميا، غير أن المحكمة العليا قبلت زعامة حون إلى حين اتخاذ بعض الترتيبات القانونية الجديدة. وأرسل المبعوثان فيليب (أوف تروي) وهنرى أمير الناصرة إلى روما لشرح أعمال البارونات والكوميون ؛ غير أن السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا)، الذى كان موحودا هناك ، كان يرى أنهما لم تتح لهما فرصة عادلة لسماع وحهات نظرهما ؛ إذ كان البابا لا يزال على علاقة حسنة بفريدريك وكان تواقا لإعادة سلطته في الشرق . وفي ١٢٣٥م أرسل البابا رئيس أساقفة رافينّا إلى عكا مندوبا بابويا عنه، لكن رئيس الأساقفة لم يفعل سوى أن أوصى بالطاعة لسلطة فيلانجيرى ، الأمر الذى لم يلق قبولا . وأرسل البارونات بدورهم قاضيا إلى روما ، هو حيوفرى لو تور . وكان البابا حريجورى قد بدأ شجاره مع الامبراطور مرة اخرى ، لكنه كان عاقد العزم على أن يكون تصرفه سليما . وفي شهر فبراير ١٢٣٦م كتب إلى فريدريك والى البارونات قائلا بوحوب قبول فيلانجيرى وكيلا ، على أن يساعده أودو (أوف مونتبليارد) حتى شهر ستمبر الذى يعيّن فيه بوهمند أمير انطاكية وكيلا . ولأن فريدريك وكونراد حاكمان شرعيان ، فقد أخطأ البارونات فيما قاموا به من تصرف ، على أنه يتعين منح المغفرة للجميع فيما عدا آل إبيلين الذين يجب محاكمتهم امام المحكمة العليا . وينبغى حل كوميون عكا[٥٠].

ولم يقبل البارونات والكوميون تلك الشروط وتجاهلوها . وفي هذا المنعطف مات حون الإبيليني نتيجة لحادثة حدثت له أثناء ركضه على حواده . ولقد كان لورد بيروت العجوز هذا ، كما كان يسميه معاصروه ، الشخصية المهيمنة فى الشرق الفرنجى . ولا يخامر أحد أية شكوك حول صفاته الشخصية العالية . كان شجاعا وشريفا وسليما في تصرفاته ، وكان لشخصيته التى لا تشوبها شائبة أثر كبير في تعزيز قضية البارونات[٥١]. ولولاه لأفلح فريدريك بجدارة في انشاء حكم مطلق في كل من قبرص والمملكة السورية ؛ وبرغم أن حكم البارونات يميل إلى الإعتباطية والسير كيفما اتفق ، يصعب علينا أن نعى كيف يعتبر الحكم المطلق تحسينا للأحوال . ولقد كان فريدريك نفسه بعيدا حدا بحيث لا يستطيع السيطرة عليه ؛ وكان حكمه على الرجال سيّئا ؛ إذ أن وضع الحكم المطلق في قبضة رحل مثل رتشارد فيلانجيرى لا بد وأنه كان

(٥٠) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 406-7; *Gesta des Chiptois*, pp. 112-13

(٥١) أنظر اعلاه صفحة ٢٢٩، الحاشية ٢٦.

سيؤدى إلى كارثة سريعة ؛ وكان الحل الأفضل هو ما أوصى به البابا نفسه ، وهو اتحاد حكومة الأراضى الرئيسية مع قبرص[٥٢]. غير أن تقيد البارونات بالقانون ، الذى جعلهم يعارضون استبداد فريدريك ، لم يكن ليسمح لهم بوجود أي ملك آخر بخلاف سيدهم الشرعى ، ابنه كونراد . وأما الإتحاد مع قبرص ، فيتعين أن ينتظر إلى أن تأذن به يد الرب . لقد كان موقف البارونات متماسكا وسليما . لكنه في ذات الوقت قنن الفوضى.

(٥٢) اقترح البابا على جيوفرى لو تور أن تقبل الأراضى الرئيسة سلطة الملك القبرصى(*Estoire d'Eracles*, ii, p.407)

الفصل الرابع:

فوضى مقننة

فوضى مقننة

"إذ النَّاموسُ لم يُكمّل شيئـاً"
(الرسالة إلى العبرانيين ٧:١٩)

ترتب على موت لورد بيروت العجوز أن حرد اوتريكيه من زعيمها الطبيعى ؛ ولم يتمتع قط أى بارون فرنجى آخر بهذه المكانة العالية مرة أخرى . ولقد أدى دوره، إذ أسس تحالفا بين البارونات وكوميون عكا ، ودلهم على سياسة مشتركة ترتكز على حقوقهم القانونية . ومن بين أبنائه الأربعة ، بقي اثنان في الأراضى الرئيسية السورية هما باليان الذي استخلف على إمارة بيروت ، وجون الذي ورث إقطاعية أمه في أرسوف ، وتسلم اثنان ضياع الأسرة في قبرص وتزوج كلاهما زواجا سياسيا أعاد الوحدة إلى نبلاء المملكة ؛ فتزوج بلدوين ، الذي أصبح (قهرمانا) ، من أخت أماريك (أوف بيسان) ، وتزوج جوي ، الذي أصبح ياورا ، من إبنة ووريثة زعيم المتمردين أماريك بارليه . أما ابن أخى اللورد العجوز ، وهو جون آخر ، والذي أصبح كونت يافا ، وواضع قوانين القدس، فكان أبرز القانونيين في المملكة . وكان ابن عمومتهم

باليان أمير صيدا لا يزال قائما بأعمال الوكيل مع أودو (أوف مونتبيلارد) ، غير أن فشل سياسته التوفيقية أضعف من سلطته . وكان أقوى النبلاء ابن عم آخر هو فيليب (أوف مونتفورت) ، وهو أخو سيمون ذاك الذي قاد الحملة الصليبية الألبيجينسيّة. وكان فيليب قد تزوج مؤخرا الأميرة الأرمينية ماريا ، إبنة ريموند-روبين، وهي وريثة طورون عن طريق أم جدتها، أخت آخر لوردات طورون. وفوق ذلك، أكمل جون أمير قيسارية، وهو ابن عم آخر، الفرع العائلي الذى يسيطر الآن على أوتريميه . وأضاف إلى شهرة اللورد العجوز بعد وفاته أن أصبح أبناؤه وأبناء إخوته على استعداد للعمل معا بروح من التفاهم ؛ وتوثقت عرى وحدتهم بمقتهم لفيلانجيرى الذي كان لا يزال يحتل صور للإمبراطور[1].

وحتى مع ذلك، كان وضع مملكة ما وراء البحار مقلقا . إذ مات بوهمند الرابع أمير أنطاكية وكونت طرابلس في شهر مارس ١٢٣٣م بعد أن تصالح أخيرا مع الكنيسة . وقد أظهر لينا ملحوظا إبّان الحروب التى دارت بين الإمبراطوريين وبارونات اوتريميه . إذ أنه رحب بادئ الأمر بفريدريك بوازع من كراهيته للإيبليين الذين عارضوا تعيين ابنه بوهمند ، زوج الملكة أليس ، في الوصاية على قبرص . وبعد ذلك ، ولخشيته من طموحات فريدريك غيّر من سياسته . فبعد تطليق أليس من بوهمند الصغير بسبب قرابة الدم وافق طواعية على اقتراح جون الإيبليني بزواج أصغر أبنائه ، هنرى ، من إيزابيلا القبرصية ، كبرى أخوات الملك هنرى ، وهو زواج يستهدف في النهاية وضع أمير أنطاكية على العرش القبرصى . غير أنه في ذلك الوقت كان فيلانجيرى قد انتصر في معركة كاسال إمبرت ؛ ولذا راوغ بوهمند ، مدفوعا برغبته في أن يكون في جانب المنتصر . ولم يتم الزواج إلا بعد هزيمة الإمبراطوريين في قبرص[2]. وفي ذات الوقت على وجه التقريب تصالح بوهمند مع فرسان المستشفى . وكانت الكراهية المشتركة للإمبراطور فريدريك من جانب كل من نظامي فرسان المعبد والمستشفى قد دفعتهما إلى التعاون معا إلى حين ، ولم يكن بوسعه أن يضرب أحدهما بالآخر . ولذلك أعلن عن خضوعه للكنيسة والتمس من جيرولد رئيس أساقفة القدس أن يتفاوض مع فرسان المستشفى من أجله . ووافق النظام على إسقاط مطالبته بما وعده

---

(١) عن أسرة إيبلين وأبناء عمومتها،أنظر شجرة الأنساب،المرفق الثالث أدناه، المرتكزة على *Lignage d'Outremer*.

(٢) Amadi, pp. 123-4 بالنسبة لطلاق أليس و *Gestes des Chiprois*, pp. 86-7; *Estoire d'Eracles*, ii, p.360) بالنسبة لزواج إيزابيلا)

ريموند-روبين من مزايا والإعتراف بحقوق بوهمند الإقطاعية ، وذلك في مقابل إيجارات ضخمة لممتلكات في مرافئ في أنطاكية وطرابلس. وفي الوقت ذاته رفع جيرود حكم الطرد من الكنيسة الصادر ضده ، وأرسل إلى روما للتصديق على تلك التسوية . وجاء تصديق البابا بعد أسابيع قليلة من موت بوهمند[٣].

١٢٣٣م : بوهمند الخامس أمير أنطاكية

وبرغم كل أخطاء بوهمند الرابع فقد كان حاكما قويا ، أعجب حتى أعداؤه بثقافته وبتعليمه كقانوني . أما إبنه بوهمند الخامس فكان رجلا ضعيفا، وكان ابن الكنيسة البار ، وسمح للبابا جريجوري التاسع بأن يختار له زوجه الثانية ، لوشين (أوف سيني) التى كانت من أسرة البابا[٤]. وبعد سنوات قليلة ، في عام ١٢٤٤م ، وباستغلاله لتجربة أبيه ، حصل من روما على ضمان بعدم امكان الحكم عليه بالطرد من الكنيسة إلا عن طريق البابا شخصيا[٥] غير أنه لم يكن السيد في إمارته هو نفسه ؛ إذ كان الذى يحكم أنطاكية مجلسها الإدارى (الكوميون) ، ولم يكن يحظى معه بشعبية أبيه ، ربما لأن صداقته بروما أغضبت العنصر اليوناني القوي هناك ، ومن ثمّ فضل الإقامة في عاصمته الثانية طرابلس . ولم تكن له من سيطرة على الأنظمة الدينية العسكرية ، وكانت علاقته بأرمينيا في ظل الهيثوميين تفتقر إلى الود ، وكان قطاع اللاذقية الإسلامي يشطر أراضيه إلى قسمين ، وكان عهده بمثابة علامة على اضمحلال سريع[٦].

وكان فريدريك قد استبعد أنطاكية وطرابلس من معاهدة السلام التي عقدها مع الكامل لضيقه من بوهمند الرابع آنذاك . ومع ذلك تمكن بوهمند من الحفاظ على السلام مع جيرانه المسلمين ، بخلاف بعض هجماته على الحشاشين الذين يبغضهم باعتبارهم حلفاء فرسان المستشفى . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية على جانب كبير

---

(٣) انظر Rohricht, *Regesta Regni Hierosolymitani*, pp. 269-70 . Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 642-3.

(٤) .Estoire d'Eracles, ii, p.408 كانت لوسين حفيدة إبنة أخت إينوسنت الثالث ولذا فهي من بنات خؤولة جريجوري التاسع

(٥) Innocent IV, *Registres, 418* (ed. Berger), i, p. 75

(٦) أنظر Cahen, *op. cit.* pp. 650-2, 664-6; Rey, *Histoire des Princes d'Antioche*, p. 400 .

من قلة الحذر ، وهذا ما كان مثار معارضته الشديدة . إذ أن فرسان المستشفى استثاروا الكامل حتى أغار على قلعة الكرك عندما كان يهاجم دمشق عام ١٢٢٨م . وفي ١٢٢٩م شنوا غارة مضادة على بارين ، وفي ١٢٣٠م شاركوا فرسان المعبد في طرطوس في شن هجوم على حماة حيث وقعوا في كمين وهزموا هزيمة منكرة . وفي العام التالى انقضّت الأنظمة الدينية العسكرية فجأة على جبلة ، و لم يحتفظوا بها إلا لأسابيع قليلة . وفي نهاية الأمر عقدت هدنة في ربيع ١٢٣١م دامت لعامين(٧).

وبعد استخلاف بوهمند الخامس مباشرة أرسل أخاه هنرى مع فرق من عكا وقبرص لمساعدة الأنظمة الدينية العسكرية في هجوم آخر على بارين التي افتدت نفسها بالوعد بدفع إتاوة يتسلمها نظام فرسان المستشفى من حماه . واستمرت الهدنة المجددة حتى عام ١٢٣٧م ، عندما انقض فرسان معبد بغراس فجأة على قبائل التركمان المستقرة في شرق بحيرة انطاكية . وزحف جيش حلب في كامل قوته للانتقام بمحاصرة بغراس التي لم ينقذها سوى وصول بوهمند نفسه الذي تدبر تجديد الهدنة . واستاء مرشد فرسان المعبد في انطاكية وهو وليم (أوف مونتفرات) من هذه الإهانة وضرب برغبات بوهمند الصريحة عرض الحائط معلنا أنه سوف يخرق الهدنة بعد إبرامها مباشرة. وفي شهر يونية من ذلك العام حرض فرسانه ولورد جبيل ولوردات علمانيين قليلين على مهاجمة قلعة درب الساق الواقعة شمالى بغراس . وأخذت حاميتها على حين غرة لكنها قاومت مقاومة شديدة ، بينما أسرع الرسل إلى حلب التى أرسل واليها على الفور جيشا قويا . وسمع بعض الأسرى المسيحيين بنبأ ارسال هذه القوة ، فتدبروا إرسال رسالة إلى وليم يحثونه على الإنسحاب ، فتجاهل ذلك التحذير في كبرياء ، ففوجئ بفرسان المسلمين ينقضون عليه، وهُزمت قوته الصغيرة هزيمة منكرة ، وقتل هو نفسه ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وبذيوع انباء الكارثة كتب كل من نظامي المعبد والمستشفي رسائل متلهفة إلى الغرب للنجدة ؛ على أن المسلمين لم يتابعوا انتصارهم ، إذ أنهم تلقوا وعدا بمبالغ وفيرة من المال لافتداء أسراهم، فوافقوا على تجديد الهدنة . وفقدت الأنظمة الدينية العسكرية ثقتها بنفسها وحافظت على السلام لعشر سنوات بموافقة البابا الذي اضطر إلى تقديم أكبر قدر من أموال الفدية(٨).

---

(٧) Ibn al-Athir, ii, p. 180 . وعن مصادر المخطوطات انظر Cahen, *op. cit.*, p.642 nn. 6,7

(٨) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 403-5; *Annales de Terre Sainte,* p.436; Kemal ad-Din, trans. Blochet, pp. 85, 95-6; Abu'l Feda, pp. 110-12.

ويعزى إلى السلطان الكامل العظيم، ولحسن حظ الفرنج، ما أبداه المسلمون من غيبة الروح العدوانية، ذلك أن الكامل كان رجل سلام وشرف . ومع ذلك كان على استعداد لأن يحارب وأن يحيك المكائد في سبيل توحيد الأراضي الأيوبية تحت زعامته ، فليست المنازعات العائلية والمشاحنات من مصلحة أحد. وكان مهيّأ لدفع هجمات السلاجقة أو أتراك خوارزم ، وطالما لا توجد اضطرابات بسببها المسيحيون ، فهو تاركهم في حالهم . وكان أمراء المسلمين جميعا مدركين للمزايا التجارية للموانى البحرية الفرنجية القريبة من حدودهم ؛ وكانوا كارهين للمجازفة بتغيير مسار التجارة الضخمة بين الشرق والغرب بعداوات حمقاء ، وكان الكامل خاصة حريصا على تهيئة الإزدهار المادى لرعاياه ؛ وفضلا عن ذلك ، كان كصديقه فريدريك الثاني ، رجلا ذا فضول ذهني واهتمامات فكرية واسعة ، وكان ذا تسامح أصيل وضيبة على نحو يفوق للغاية آل هوهنشترفن . وعلى الرغم من افتقاره إلى ما كان عمه صلاح الدين يزدان به من جلال البطولة ، وحدة الذهن المتوقد وما كان أبوه العادل يتحلى به، فقد كان يفيض عاطفة إنسانية أكثر من أبيهما. وكان ملكا ذا اقتدار . وربما استهجن معاصروه المسلمون ما كان يظهره من استلطاف "للرجل الأشقر" ، لكنهم كانوا يحترمون ما كانت عليه حكومته من عدالة ونظام جيد(٩).

١٢٢٩م : الكامل يعيد وحدة الإمبراطورية الأيوبية

أفلح طموح الكامل في إعادة توحيد العالم الأيوبي . ففي شهر يونية ١٢٢٩م تمكن أخوه الأشرف أخيرا من إبعاد ابن اخيه الناصر عن دمشق بعد أن مُنح على سبيل التعويض مملكة في وادى الأردن وشرقي النهر ، عاصمتها الكرك ، تحت سيادة الكامل الفعّالة . واحتفظ الأشرف بدمشق مع اعترافه بسيطرة الكامل وتخلّيه له عن أراض في الجزيرة وبطول الفرات الأوسط . وتلك كانت مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية الأكثر تعرضا للهجوم ولذا رغب الكامل في السيطرة عليها مباشرة نظرا لما كان يمثله جلال الدين الخوارزمي من تهديد حد خطير ، ووراءه إلى الشرق ما لا يعلمه إلا الله من قوة المغول ، هذا في ذات الوقت الذى كان فيه السلطان السلجوقي كايكوباد يشدد ضغوطه باتجاه الشرق من الأناضول . وفى ١٢٣٠م، وعندما كان الأشرف في دمشق ،

---

(٩) عن الكامل، أنظر ثناء أبى الفدا عليه Abu'l Feda's eulogy, p. 114 ، وابن خلكان Ibn Khallikan,iii, pp. 241-2.

استولى جلال الدين على قلعته العظيمة الأخلاط بالقرب من بحيرة فان ، وسار لمهاجمة السلاجقة، فسارع الأشرف شمالا وتحالف مع كايكوباد ، وهزم التحالف جلال الدين هزيمة حاسمة بالقرب من إرزينجان . وفي ذات الوقت كان المغول يهاجمون مؤخرة الإمبراطورية الخوارزمية ، ومن ثمّ بدأ تفكك تلك الإمبراطورية . وفي العام التالي هزم المسلمون جلال الدين نفسه الذي قتل أثناء فراره يوم ١٥ أغسطس بيد فلاح كردي كان جلال الدين قد قتل أخاه منذ زمن طويل(١٠).

وبغياب صلاح الدين اختل توازن القوى؛ إذ أصبح السلاجقة في شرقي الأناضول بلا غريم ، وبات المغول قادرين على التقدم غربا في حرية ، وتمتعت الخلافة العباسية في بغداد بأشهر قليلة من الاستقلال نادرة ومقلقة. ولم يمض وقت طويل قبل أن يلتفت كايكوباد إلى أراضي الكامل الواقعة في الفرات الأوسط . ومضت الفترة من ١٢٣٣م إلى ١٢٣٥م في حروب متصلة ، وانتقلت الرها وسروق ومدن أخرى في الإقليم من سيد إلى آخر إلى أن تمكن الكامل في نهاية المطاف من ترسيخ قواعده . وأثار نجاح الكامل غيرة أقاربه ؛ وكره الأشرف وضعه كتابع ؛ وفي حلب مات فجأة عام ١٢٣٦م الملك العزيز الصغير إبن الظاهر ، وتولت أم الظاهر ضيفة الوصاية على حفيدها الظاهر الثاني، وهي أخت الكامل، لكنها كانت تخشى طموحات أخيها، وشاركها مخاوفها عدد من صغار الأمراء الأيوبيين . وأثناء الأشهر الأولى من عام ١٢٣٧م جمع الأشرف حلفاءه ، وضمن العون الفعال من كايكوباد ؛ وبدا أن لا مفر من الحرب الأهلية ، لكن كايكوباد مات في بداية الصيف وأصيب الأشرف بمرض خطير، وبموته يوم ٢٧ أغسطس تبددت المؤامرة ؛ إذ استولي أحد اخوته الصغار ، الصالح اسماعيل ، على دمشق وحاول بلا جدوى إعادة توحيد المتآمرين . وبمساعدة الناصر والي الكرك ، زحف الكامل على دمشق في يناير ١٢٣٨م وضمها وعوّض الصالح اسماعيل بإقطاعية في بعلبك. على أن العمر لم يطل بالكامل وانتصاراته ؛ فبعد شهرين مات في دمشق يوم ٨ مارس وهو في الستين من عمره(١١).

---

(١٠) Ibn Khallikan, iii, pp. 242, 488-9; Ibn al-Athir, ii, pp. 176-8; Maqrisi, x, pp. 250-2. وانظر Cahen, *op. cit.* pp.644-6 والحواشي لمراجع المخطوطات

(١١) Ibn Khallikan, iii, pp. 242-4; Kemal ad-din, trans. Blochet, pp. 88-99. See Cahen, *op. cit.* pp. 645-6

١٢٣٩م : الحرب الأهلية فيما بين الأيوبيين

وأطلقت وفاته الحرب الأهلية من عقالها . إذ كان أكبر أبنائه الصالح أيوب ، ووالدته أمَة سودانية، في الشمال فسار في الحال إلى دمشق التي سبق أن استولى على السلطة فيها أحد أبناء إخوة الكامل وهو الجواد، وتمكن الصالح أيوب من خلع ابن عمه بمساعدة بعض قطاع الطرق الخوارزميين . وفي ذات الوقت تم تنصيب أخيه الأصغر ، العادل الثاني ، سلطانا على مصر . وكان الصالح أيوب قد عزم على أن يأخذ لنفسه أغنى مقاطعات أبيه ، لكنه عندما شرع في غزو مصر ، قام عمه الصالح اسماعيل بانقلاب مفاجئ خلعه من عرشه في دمشق ؛ وأثناء فرار الصالح أيوب باتجاه الجنوب وقع في قبضة الناصر صاحب الكرك الذي، برغم ذلك، تبنى قضيته وأعاره جنوده لغزو مصر . وكان غزوا يسيرا . إذ أساء العادل الثاني إلى وزرائه بأن عهد بالحكومة إلى زنجي شاب كان به ولوعا ، وحيكت مكيدة ناجحة خلعته في يونية ١٢٤٠م، ودُعي الصالح أيوب ليعتلي العرش المصرى ؛ وكوفئ الناصر بمنصب الحاكم العسكري لفلسطين . على أن الصالح اسماعيل بقي سيد دمشق ؛ وبات العالم الأيوبى طوال العقد التالى تمزقه الخصومة بين العم وابن اخيه . وسرعان ما استحال الشمال إلى فوضى ؛ إذ راح أفراد عصابات الخوارزميين يعيثون فسادا في أنحاء شمالي سوريا ، بأوامر من الصالح أيوب فيما يبدو. وفي الجزيرة احتفظ أمير ميافارقين الأيوبي ، المظفر ، بسلطة ضئيلة . وحاول ابن الصالح أيوب ، توران شاه ، جمع شتات أراضي جده ، لكن مدنا كثيرة سقطت في قبضة السلطان السلجوقى . وفي حلب بقي الناصر يوسف - الذى خلف أخاه عام ١٢٣٦م - في جانب الدفاع ، في نفس ذات الوقت الذي كان فيه أميرا حماه وحمص مشغولين للغاية بصد الخوارزميين[١٢].

وفي خضم هذا الإضطراب العنيف انتهت المعاهدة المعقودة بين فريدريك الثاني والسلطان الكامل. وكان البابا جريجوري التاسع قد أعد لذلك عدته بأن أرسل في صيف عام ١٢٣٩م عملاء للتبشير بحملة صليبية في فرنسا وانجلترا ؛ ولم يتوفر عند الملك الفرنسي ولا الملك الإنجليزي الاستعداد للاستجابة شخصيا لمناشدته ، غير أنهما أعربا للمبشرين عن كامل تشجيعهما . وفي أوائل الصيف كانت هناك صحبة متميزة من النبلاء الفرنسيين على استعداد للإبحار إلى الشرق . وكان على رأسهم تيبالد (أوف

---

(١٢) عن هذا التاريخ المضطرب أنظر Ibn Khallikan, ii, pp. 445-6, iii, pp. 245-6; Maqrisi, x, pp. 297-330; Kemal ad-Din (trans. Blochet), *loc. cit.*. انظر Cahen, *op. cit.* pp. 646-9.

شامباني)، وهو ملك نافار[١٣]، وابن اخي هنري (أوف شامباني) ، ولذا فهو من أبناء عمومة ملوك فرنسا وانجلترا وقبرص . وكان معه دوق برجندى هيو الرابع ، وبطرس نوكلير كونت بريتاني ، وكونتات بار ونفرس ومونتفورت وجوني وسانسير والكثير من اللوردات الأقل . وكان عدد جنود المشاة أقل من المتوقع بالنظر إلى ارتفاع مستويات القادة ؛ غير أن الحملة كلها كانت هائلة[١٤].

وكان في مأمول تيبالد أن يركب البحر مع رفاقه من برنديزي ، غير أن الحروب التي دارت بين البابا والإمبراطور جعلت الترحال خلال إيطاليا صعبا ؛ فضلا عن أن الامبراطور ، الذي تقع برنديزي في أراضيه، لم يكن سعيدا بالحملة الصليبية ، إذ كان يعتبر نفسه حاكم فلسطين لإبنه الصغير ومن ثم كان ينبغي لحملة ذاهبة لمساعدة مملكته أن يتم تنظيمها تحت سلطته هو . ولم يكن بوسعه موافقة النبلاء الفرنسيين الذين كانوا يتجهون بفطرتهم - دون شك - إلى تأييد بارونات أوتريمه ضده . وفضلا عن ذلك ، ولإدراكه لوضع العالم الإسلامى ، كانت الآمال تداعبه في انتزاع مساومة طيبة للمملكة بالطرق الدبلوماسية ، ولا شك في أن مجيء هؤلاء الفرسان الطائشين نافذى الصبر سوف يقضى على تلك المفاوضات، بيد أنه نظرا لمشاكله في إيطاليا لم يكن بوسعه أن يرسل هو نفسه رجالا للسيطرة على هؤلاء الفرسان ، وانما حصل على وعد بعدم الإقدام على أي شئ إلى أن تنتهى الهدنة في أغسطس ، ثم أحل نفسه من الأمر برمّته . ولذا اضطر الصليبيون إلى ركوب البحر من آجيوس-مورت ومرسيليا[١٥].

١٢٣٩م : تيبالد (أوف شامباني) وحملته الصليبية

كانت رحلة الحملة الصليبية رحلة عاصفة خلال البحر المتوسط ، انجرفت فيها بعض سفنها إلى قبرص ، واندفع بعضها عائدا حتى بلغ صقلية . غير أن تيبالد نفسه وصل عكا في أول سبتمبر ؛ وخلال الأيام القليلة التالية تجمع هناك جيش قوامه ألف فارس على وجه التقريب . وانعقد مجلس في الحال لتقرير أفضل سبل الإستفادة من هذا

---

(١٣) المترجم : Navarre : اقليم تاريخي ومملكة سابقة في شمال شرق أسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

(١٤) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.413-14; *Gestes des Chiprois*, p.118; Gregory IX,letter, in Potthast,*Regesta*, i, p. 906.

(١٥) *Estoire d'Eracles, ii, loc. cit.; MS of Rothelin*, p. 528; Gregory IX, letter, in Potthast, *op. cit.*, i, p.910.

الجيش ، وحضر المجلس بالإضافة إلى الأمراء الزائرين أهم البارونات المحليين ، بممثلين عن الأنظمة الدينية العسكرية ، بينما حضر رئيس أساقفة صور ، بطرس (أوف سارجين) نيابة عن بطريق القدس . وكانت لحظة مناسبة لمشروع دبلوماسي ؛ إذ أتاحت المشاحنات بين ورثة الكامل الفرصة للمسيحيين لإستخدام قوتهم الجديدة كنقطة مساومة وللحصول على تنازلات سخيّة من واحد أو آخر من الفرق المتصارعة. لكن الصليبيين جاءوا ليحاربوا ، ولن يحذوا الحذو المشين الذي سلكه فريدريك . ولذلك أوصى البارونات المحليون بتسيير حملة ضد مصر . ولن تتسبب تلك الحملة في الإساءة إلى جيرانهم المسلمين القريبين في سوريا ، ليس هذا وحسب وإنما أيضا ستكون واعدة بفرص نجاح طيبة نظرا لما يفتقر إليه السلطان العادل من شعبية . وأكّد آخرون أن دمشق هي العدو ؛ وعلى الجيش تقوية حصون الجليل ثم الزحف على العاصمة السورية . على أن تيبالد كان يشتهي انتصارات متعددة ، فقرر أن يهاجم الجيش أولا القاعدتين الأماميتين المصريتين عسقلان وغزة ، وربما كان ذلك بناء على اقتراح كونت يافا، والتر (أوف برين) الذي لم يكن ينتمي إلى جماعة العائلة الإيبلية ؛ ثم يهاجم دمشق بعد ضمان الحدود الجنوبية. وبسماع تلك الأنباء، هرعت الرسل تجوب كل بلاط أيوبي للترتيب لهدنة مؤقتة بين الأمراء المسلمين(١٦).

وانطلقت الحملة من عكا إلى الحدود المصرية يوم ٢ نوفمبر ، وصحب الصليبيين فصائل من الأنظمة الدينية العسكرية وعدد من البارونات المحليين . وأثناء سيرهم باتجاه يافا ، جاء أحد الجواسيس وأخبر بطرس (أوف بريتاني) بأن هناك قافلة اسلامية نفيسة تتحرك أعلى وادى الأردن قاصدة دمشق ، فما كان من بطرس إلا أن خرج على جواده في الحال مع رالف (أوف سواسون) ومئتي فارس ونصبوا كمينا للقافلة . وكانت القافلة مسلحة تسليحا جيدا ، وفي المعركة التي نشبت كاد بطرس أن يُقتل ؛ لكن جنود المسلمين هربوا في نهاية الأمر تاركين قطيعا ضخما من الماشية والأغنام استولى عليها المسيحيون ، وقاد بطرس المنتصر أسلابه عائدا إلى يافا التي وصلها رفاقه الآن . ونظرا لتناقص الطعام لدى الجيش فقد قوبل انتصاره بالترحيب الشديد . على أن انتصاره هذا خلق عدوا من الناصر صاحب الكرك(١٧).

وسُيّر على وجه السرعة جيش مصرى من الدلتا إلى غزة بقيادة المملوك ركن

---

(١٦) *MS. of Rothelin, pp. 531-2; Estoire d'Eracles*, ii, pp. 413-14.

(١٧) *MS. of Rothelin*, pp. 533-6 .

الدين . وكانت أول أنباء عن وصوله تلقاها المسيحيون تفيد بأن عدده مجرد ألف رجل. ونظرا لما كان يكنه هنرى (أوف بار) من مشاعر الغيرة لنجاح كونت بريتاني ، فقد عزم في الحال على مهاجمته واكتساب ما يترتب على ذلك من حدارة وأسلاب ؛ وأبقى خطته طي الكتمان عن الجميع عدا القليل من الأصدقاء مثل دوق برجاندى وغيره من اللوردات القادمين من شرق فرنسا ؛ ثم أدخل في الصحبة الوكيلين عن المملكة ، باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتبليارد) اللذين ملأهما الإستياء من قيادة تيبالد ، وكان معهما والتر أمير يافا وأحد الإبيليين ، وجون أمير أرسوف . وعند حل ليل ١٢ نوفمبر، تهيأت الصحبة كلها للزحف على غزة ، وكان قوامها خمسمائة من الخيالة وأكثر من ألف من المشاة . غير أن الأنباء تسربت ؛ إذ بينما كانوا يمتطون صهوات خيولهم فاجأهم الملك تيبالد وسادة الأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة وكونت بريتاني، وبدأوا بالرجاء ، ثم بتوجيه الأوامر اليهم للعودة إلى المعسكر ، لكن هنرى كونت بار رفض التحول عن موقفه واتهم الملك وأصدقاءه بالجبن وتحدى أوامره ؛ وانطلق الفرسان فى أشعة القمر التي تبدد ظلام الليل. أما تيبالد ، الذي كان متشككا في مدى قوة الأعداء الحقيقية ، لم يكن بوسعه منعهم. وفي الصباح التالى نقل معسكره إلى أسوار عسقلان لتقديم العون إذا قضت الحاجة.

وكان كونت بار شديد الثقة من النجاح بحيث أنه عندما اقترب من غزة فى الفجر تقريبا أوقف رجاله في فجوة بين التلال الرملية على شاطئ البحر وأمرهم بأخذ قسط من الراحة . غير أن الجيش المصرى كان أكبر بكثير مما كان يظن وقد انتشر جواسيسه في الأنحاء . ولم يصدق الأمير ركن الدين أن أعداءه على هذا القدر من الحماقة ؛ فأرسل الرماة زاحفين حول الكثبان الرملية إلى أن أحاطوا تقريبا بالفرنج . وكان والتر سيد يافا أول من تحقق مما يحدث ، فنصح بانسحاب سريع نظرا لعدم إمكان الجياد من المناورة في الرمال العميقة ؛ وركب هو نفسه جواده وابتعد ناحية الشمال ومعه دوق برجندى ؛ وتبعه فرسان أوتريميه الآخرون بأسرع ما أمكنهم . بيد أن هنرى كونت بار ما كان ليترك المشاة الذين قادهم إلى الكمين ؛ وبقى معه أقرب أصدقائه . وسرعان ما انتهت المعركة على مشهد خيولهم وجنود المشاة وهم يكدحون في الكثبان الرملية بمن فيهم الكونت هنرى نفسه . وأسر المصريون ستمائة آخرين وحملوهم إلى مصر ، كان من بينهم كونت مونتفورت الشاعر - فيليب (أوف نانتيل) - الذى أمضى أيامه في السجن يصب اللعنات المسجوعة على الأنظمة الدينية العسكرية التى ألقى عليها باللائمة ، بدافع العاطفة أكثر منه بوازع المنطق ، لفشل تلك الحملة الحمقاء.

١٢٣٩م : هزيمة الفرنج في غزة

عندما وصل الهاربون عسقلان ، نسى تيبالد الحذر وأراد الزحف على غزة في الحال لإنقاذ رفاقه ؛ لكن فرسان أوتريميه لم يوافقوا ، إذ من الحمق المخاطرة بالجيش ، ويقينا سيقتل المسلمون أسراهم بدلا من أن يفقدوهم مرة أخرى . فتملك الغضب تيبالد و لم يغفر ذلك لجنوده قط . على أنه لم يكن هناك لبقايا الجيش شيئ سوى العودة البطيئة إلى عكا[١٨].

وفي ذات الوقت رد الناصر صاحب الكرك على الهجوم البريتوني على القافلة الإسلامية بأن زحف على القدس . وكانت القدس كلها بلا حماية فيما عدا الجزء من السور المجاور لبوابة القديس ستيفن ، الذي بدأ فريدريك تشييده ، وقلعة تضم برج داود، جرى تقويتها مؤخرا . وكانت تلك القلعة تدين بالولاء لا للحكومة في عكا وإنما لفيلنجيري في صور ؛ وكان قد أهمل إمدادها بحامية ملائمة . واحتل الناصر المدينة بلا صعوبة ، لكن جنود الحامية صمدوا إلى أن نفدت المؤن بعد سبعة وعشرين يوما ، فاستسلموا يوم ٧ ديسمبر مقابل عبور آمن إلى الساحل . ودمّر الناصر التحصينات ، بما فيها برج داود ، ثم انسحب إلى الكرك[١٩].

بعد كارثة غزة انتقل تيبالد بقواته شمالا إلى طرابلس . إذ جاء مبعوث المظفّر الثاني أمير حماه الذي كان على خلاف مع جميع أقاربه الأيوبيين ، والذي كان يتهدده التحالف بين الوصي على حلب وأمير حمص . وعرض على الفرنج أن يساعدوه لقاء التخلي لهم عن قلعة أو قلعتين ، وأعرب عن أمله في التحول إلى المسيحية ؛ فقبل تيبالد العرض في وقد استخفه الحبور . غير أن تقدمه إلى طرابلس ردع أعداء المظفّر الذي أرسل إلى تيبالد قائلا في أدب إن خدماته لم تعد مطلوبة برغم ما حدث[٢٠].

---

(١٨) يرد وصف نابض بالحياة في *MS. of Rothelin*, pp. 537-50؛ *Gestes des Chprois. pp. 118-20*; *Estoire d'Eracles*, ii, pp.414-15; Abu Shama, ii, p. 193؛ ويرد خطأ في النص بشأن التاريخ في Maqrisi, x, p.324. وأشعار فيليب مقتبسة في Rothelin, pp. 548-9.

(١٩) *MS. of Rothelin*, pp. 529-31، حيث يرد ذلك قبل معركة غزة ، ولا يرد سوى تاريخ السنة؛ ويذكر Maqrisi, x, pp. 323-4 7 ديسمبر تاريخ الإستسلام ، أي بعد معركة غزة ؛ ويورد أبو الفدا نفس التاريخ ؛ ويورد al-Aini, pp.196-7 مجرد تاريخ السنة. ولنا أن نقبل التاريخ الذي أورده المقريزي

(٢٠) Abu'l Feda, pp. 115-19 (المؤرخ أبو الفدا هو حفيد المظفّر الثاني)؛ Kemal ad-Din, trans. Blochet, pp. 98, 100, 104؛ *Estoire d'Eracles,* ii, p. 416; *Gestes des Chiprois*, pp. 120-1.

وأثناء تريث الحملة الصليبية في طرابلس نصّب الصالح أيوب نفسه سيدا لمصر ، واندلعت الحرب بينه وبين الصالح اسماعيل في دمشق . وغدا واضحا أن بإمكان الفرنج إجراء مساومة طيّبة . وسارع تيبالد بالعودة جنوبا وعسكر بجيشه في الجليل بجوار عيون سفورية . ولم يطل انتظاره . ففي وقت مبكر من صيف عام ١٢٤٠م ، تملك الرعب الصالح اسماعيل من غزو قام به الصالح أيوب والناصر مجتمعين ، فاقترح على الفرنج إقامة تحالف دفاعي . فإذا ضمنوا حراسة الحدود المصرية من الساحل وإمداده بالأسلحة فإنه يتخلى لهم عن القلعتين العظيمتين شقيف أرنون وصفد والتلال الواقعة بينهما . وقام بالمفاوضات فرسان المعبد الذين كانت لهم الآن علاقات مالية مع دمشق ، وكوفئوا بامتلاك صفد . غير أن رعايا الصالح اسماعيل أصيبوا بالصدمة ، ورفضت حامية شقيف أرنون تسليم وديعتهم العظيمة لباليان أمير صيدا ، وابن آخر لورداتها المسيحيين ، واضطر الصالح اسماعيل إلى الذهاب بنفسه لمحاصرة القلعة كي تستسلم . وغادر دمشق اثنان من أئمة الدين ، أحدهما الواعظ الأكبر للجامع الكبير ، تعبيرا عن تقززهما مما يحدث ولاذا بالقاهرة[٢١].

١٢٤٠م : نهاية حملة تيبالد الصليبية

أدى انعدام الثقة في الامبراطور فريدريك إلى تحالف صعب بين فرسان المعبد والمستشفى للسنوات الإثنتي عشرة الأخيرة ؛ غير أن حصول فرسان المعبد على صفد جاوز احتمال فرسان المستشفى ، فبينما قاد تيبالد جيشه لينضم إلى قوات الصالح اسماعيل ، بين يافا وعسقلان ، شرع فرسان المستشفى في مفاوضات مع الصالح أيوب، وقوي مركزهم عندما هرب نصف رجال الصالح اسماعيل إلى المعسكر المصرى لكراهتهم العمل مع المسيحيين ، واضطر الحلفاء إلى الانسحاب . ولمّا كان الهدف الرئيسى للصالح أيوب هو هزيمة الصالح اسماعيل ، فقد ابتهج عندما اتيحت له الفرصة للخروج من التحالف ؛ فعرض على الفرنج اطلاق سراح أسراهم في غزة ومنحهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها ، في مقابل التزامهم بالحياد . ووقع السيد الأعظم لفرسان المستشفى الإتفاق في عسقلان مع ممثل السلطان . وكان ذلك نصرا دبلوماسيا للصالح أيوب الذي تمكن بتكلفة زهيدة من جانبه من كسر التحالف الذي أهان الصالح

(٢١) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 417-18; *MS. of Rothelin,* pp. 551-3; *Gestes des Chiprois,* p. 12; Abu'l Feda, loc. cit.; Maqrisi, x, p. 340; Abu Shama, ii, p. 193.

اسماعيل نفسه بإنشائه. واغتبط تيبالد لإطلاق سراح أمالريك (أوف مونتفورت) وأصدقائه الآخرين ، فمنح مساندته لفرسان المستشفى . غير أن الرأي العام في أوتريميه أصيب بالصدمة لذلك التخلي الفاضح عن التحالف مع دمشق التى ظلت حتى يوم صلاح الدين الحليف التقليدي للمسيحين . وانحدرت شعبية تيبالد انحدارا شديدا حتى أنه قرر العودة إلى أوروبا . وبعد حجّ سريع في القدس أبحر من عكا في نهاية سبتمبر ١٢٤٠م، وتبعه أغلب رفاقه فيما عدا دوق برجندى الذي أقسم على الإنتظار لحين الإنتهاء من تحصين عسقلان، وكونت نفرس الذى انضم إلى جماعة المعبد والبارونات المحليين الذين عسكر معهم بالقرب من يافا ، وقد أخذ على نفسه العهد بالإحتفاظ بالمعاهدة مع دمشق ومقاومة أي غزو مصرى.

لم تكن حملة تيبالد الصليبية عقيمة تماما . إذ استعاد المسيحيون شقيف أرنون (بيفورت) وصفد وعسقلان جميعا . غير أنه أتيح للمسلمين أن يقضوا على مثال آخر من غدر الفرنج[٢٢].

١٢٤١م : ريتشارد إيرل كورنويل

وفي الحادى عشر من أكتوبر ، وبعد أيام قليلة من رحيل تيبالد ، وصل إلى عكا حاج أكثر تميزا ، هو ريتشارد (إيرل كورنويل) ، وهو أخو هنري الثالث الإنجليزى ، وأخته هي زوجة الامبراطور فريدريك. كان في عامه الحادى والثلاثين ، ويعتبر واحدا من أقدر أمراء زمانه. وقد حازت رحلة حجه كامل موافقة الامبراطور الذي خوّله سلطات التصرف فيما يراه الأفضل للمملكة من ترتيبات[٢٣]. وأصيب بالرعب لدى وصله لما وجده من فوضى عارمة ؛ إذ يكاد فرسان المعبد وفرسان المستشفى أن يكونوا في حرب مفتوحة فيما بينهم، ويناصر البارونات المحليون فرسان المعبد، فيما عدا والتر أمير يافا ، ولذا شرع فرسان المستشفى في السعى نحو كسب ود فيلانجيرى والإمبراطوريين ، وأما فرسان التيوتون فقد انتحوا جانبا ، وقد زودوا حصونهم السورية

---

(٢٢) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 419-20; *MS. of Rothelin,* pp. 553-5; *Gestes des Chiprois,* pp. 121-2; Maqrisi,x, p.342.

(٢٣) عن ريتشارد وحملته الصليبية أنظر Powicke,*King Henry III and the Lord Edward,*i, pp. 197-200.وكان البابا قد حث ريتشارد على التخلي عن الحملة الصليبية ، وأن يهب الأموال لحماية الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (انظر المرجع السابق ص١٩٧،الحاشية ٢.)

بالحاميات ، ولكنهم أولوا جُلّ اهتمامهم لصقلية حيث كـان الملـك الأرميني قـد عهـد اليهم بحصون ضخمة . وكان فيلانجيري نفسه ما يزال يحتفظ بصور وكان هو المسؤول عن إدارة القدس(٢٤).

ولدى وصول ريتشارد ، سارع إلى عسقلان حيث قابله سفراء من قبـل السـلطان المصري الذين طلبوا منه تأكيد المعاهدة المعقـودة مع نظـام فرسـان المستشـفى . روافـق ريتشارد ، لكنه لكي يهدئ بارونات أوتريميه أصر على أن يؤكد المصريون التنازل عـن الأراضي التي سبق أن تنازل عنها الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وأن يضيفوا إليها مـا تيقى من الجليل ، بما في ذلك (بلفوار) وجبل الطور وطبريـة . ولم يكـن بوسـع الصـالح اسماعيل منع هذا التنازل الجديد بعد أن فقد السيطرة علـى شـرقي الجليـل للنـاصر . وفي تلك الأثناء أطلق سراح أسرى الحرب الفرنج المأسورين في غزة ، مقابل أسرى المسلمين القليلين لدى المسيحيين . وهكذا استردت المملكة كافة أراضيهـا السـابقة غربي الأردن حتى ضواحي غزة جنوبا، باستثناء مشؤوم لنابلس ومقاطعة السـامرة . وبقيـت القـدس بلا تحصينات ؛ لكن أودو (أوف مونتبيلارد)، الذي كانت زوجته وريثة أمـراء الجليـل، بدأ في إعادة بناء قلعة طبرية ، واستكملت الأعمال في عسقلان. وقـام ريتشـارد بتعيـن والـتر بينيـي حاكمـا لعسـقلان ، وقـد كـان ممثـلا لفيلانجـيري في القــدس . وأرســل الامبراطور فريدريك ، ربما باقتراح مــن ريتشــارد ، سـفارة تهنئـة إلى السـلطان الصـالح أيوب الذي استقبل سفيرية بأسمى آيات التشريف والأبهة في القاهرة وبقيـا هنـاك حتـى أوائل الربيع.

ومكث ريتشارد نفسه في فلسطين حتى شهر مايو ١٢٤١م . ولقد تصرف بحكمة ومهارة عظيمتين واستطاع أن يجعل من نفسه نائبا للملك في المملكة يحظى بقبول عام ، وقد رضي عنه الامبراطور كثيرا وتأسـى كـل فـرد في اوتريميـه علـى رحيلـه . وعـاد إلى أوروبا ، حيث كان ينتظره مستقبل عريض الآمال ضئيل الإنجاز(٢٥).

---

(٢٤) Richard's letter in Matthew Paris, *Chronica Majora*, iv, p. 139. وكـان ريتشـارد نفسـه مقيما في مبنى المستشفى في عكا .(*Gestes des Chiprois*, p. 123) وعن النظام التيوتوني في صقلية أنظر .Strehlke, *Tabulae Ordinis Theutonici*, pp. 37-40, 65-6, 126-7 وعن سـيطرة فريدريك على القدس من خلال وكيله Pennenpié الذي عيّنه ، أنظر *Gestes des Chiprois*, loc. cit..

(٢٥) Richard's letter in Matthew Paris, iv, pp. 139-45; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 421-2; *MS. of Rothelin*, pp. 555-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 123-4. وليس واضحا ما إذا كـان تيبالد قد أبرم فعلا معاهدة مع مصر، التي أيدها ريتشارد (وذلك كما يـرد ضمنـا في *Gestes* ، وربما

وبعد رحيل ريتشارد إيرل كورنوول ، لم يطل بقاء النظام الذي أقامه . ذلك أن الآمال داعبت البارونات المحليين في أن يستمر عن طريق التوسل إلى الامبراطور لتعيين أحد رفاقه وكيلا للمملكة ، هو سيمون (أوف مونتفورت)؛ وزوجة سيمون هي اخت ريتشارد ، وهونفسه من أبناء عمومة لورد طورون ، وولّد سيمون انطباعا ممتازا عن نفسه . بيد أن فريدريك تجاهل طلبهم ، وعاد سيمون إلى مستقبل عظيم عاصف في انجلترا[٢٦] . وسرعان ما عادت النزاعات في الأرض المقدسة مرة أخرى ، إذ رفض نظام فرسان المعبد الإلتزام بمعاهدته مع الصالح أيوب ، وفي ربيع عام ١٢٤٢م أغاروا على مدينة الخليل الإسلامية . فرد الناصر صاحب الكرك بإرسال جنود لقطع الطريق إلى القدس ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار العابرين ؛ مما أثار فرسان المعبد فانطلقوا من يافا وانقضوا على نابلس يوم ٣٠ أكتوبر وانتهبوها وحرقوا الجامع الكبير وقتلوا الكثير من السكان ، بمن فيهم عدد كبير من المسيحيين الوطنيين . ولم يكن الصالح أيوب مستعدا بعد للحرب ، وإنما اكتفى بإرسال جيش قوي لمحاصرة يافا لفترة من الوقت كتحذير للمستقبل[٢٧] . وفي داخل المملكة غابت السلطة المهيمنة ، وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تتصرف كما لوكانت جمهوريات مستقلة . وكانت السلطة الحاكمة في عكا هي المجلس الإداري (الكوميون) الذي لم يستطع مع ذلك منع فرسان المعبد والمستشفى من الإقتتال فيما بينهم في الشوارع . وانزوى البارونات في إقطاعياتهم يحكمونها كما يحلو لهم.

أما فيلانجيرى في صور ، فقد بدا له أن تلك الفوضى تبشر بالخير الوفير . إذ كان على صلة سرية بنظام فرسان المستشفى في عكا ، وفاز باثنين من أبرز البورجوازيين إلى جانبه ، هما جون فيلان ووليم (أوف كونش). وفي إحدى ليالى ربيع ١٢٤٣م ، جاء من صور واستقبل سرا في عكا وهو مستعد لتنظيم انقلاب ، لكن وجوده لم يمر دون أن يُلحظ ، وأخطر به فيليب (أوف منتفورت) لورد طورون الذي تصادف وجوده في عكا . وعلى الفور حذّر فيليب الكوميون ومستعمرتي جنوا والبندقية ، وقام المسؤولون

كانت النص محرّفا) أم أن ريتشارد استكمل المفاوضات التى بدأها تيبالد . أنظر أيضا *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, pp. 342-6 .

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 286. وتاريخ الرسالة ٧ مايو ١٢٤١م. وكان أخو سيمون، أمالريك، أحد الأسرى المطلق سراحهم حديثا من مصر.

(٢٧) *Histoire des Patriarches*, pp. 350-1; Matthew Paris, iv, p. 197 . كما وقعت معارك كثيرة بالقرب من غزة عام ١٢٤٢م أشار اليها المقريزي مرتين. (Maqrisi, x, pp. 342, 348) أنظر Stevenson, *Crusaders in the East*, p. 321 n.1.

التابعون لهم باعتقال حون فيلان ووليم (أوف كونش) ، وأطلقوا رجال الشرطة في الشوارع ، وأرسلت رسالة تستدعي باليان الإبليني من بيروت وأودو (أوف مونتبليارد) من قيسارية . وتحقق فيلانجيري من أن فرصته قد ضاعت ، فتسلل في هدوء عائدا إلى صور . وكان تواطؤ فرسان المستشفى واضحا ، ولذا حاصر باليان فور وصوله مقرهم في عكا ، واستمر الحصار ستة أشهر . وكان السيد الأعظم ، بطرس (أوف فياي برايد) في المرقب في حملات متقطعة على جيرانه المسلمين ، ولذا لم يكن بوسعه تقديم الرجال لإنقاذ فرسانه المحاصَرين في عكا . وفي نهاية المطاف توصل إلى السلام مع باليان بأن اعتذر له وأقسم بأنه ليس له دخل في المؤامرة[٢٨].

١٢٤٣م : قبول وصاية الملكة اليس

في ٥ إبريل ١٢٤٣م كان كونراد (أوف هوهنشتوفن) ، إبن الامبراطور فريدريك من الملكة يولاندا، في الخامسة عشرة من عمره وبلغ بذلك سن الرشد رسميا ، ومن ثم يتوّجب عليه الحضور إلى عكا وتسلم زمام المملكة ، ولم يعد لأبيه الحق في الوصاية . ورغم أن الملك الصغير أرسل في الحال توماس (أوف أكيرا) كنائب له ، ولم تظهر أية بادرة للحضور شخصيا إلى الشرق . ولذا اعتبر البارونات أنهم ملزمون قانونا بتعيين الوريث التالي المتاح كوصي عليه ، وكان ذلك الوريث التالي هو الملكة أليس ملكة قبرص الأرملة المسنة ، جدة خالته . وكانت أليس ، بعد طلاقها من بوهمند الخامس ، قد تصالحت مع أبناء عمومتها الإيبليين ، وفي عام ١٢٤٠م ، وبموافقتهم ، تزوجت من رالف كونت سواسون ، وهو شاب يبلغ من العمر نصف عمرها ، وسبق أن جاء إلى الشرق مع الملك تيبالد . وطلب باليان الإبليني وفيليب (أوف مونتفورت) عقد جلسة للبرلمان في عكا في قصر البطريق يوم ٥ يونية ١٢٤٣م ، حضرها البارونات كلهم ، ومثّل الكنيسة بطرس (أوف سارجين) رئيس أساقفة صور ، وأساقفة المملكة ، وأرسل الكوميون مسؤوليه وأرسلت مستعمرتا جنوا والبندقية رئيس كل منهما. وتولى فيليب (أوف نوفارا) شرح الوضع القانوني وأوصى بعدم القسم بالولاء للملك كونراد إلى أن يأتي بنفسه لتلقيه ، وأن يُعهد إلى أليس وزوجها بالوصاية إلى حين حضور كونراد .

---

(٢٨) Gestes des Chiprois, pp. 124-7; Estoire d'Eracles, ii, p. 422 ؛ ويرد تاريخ خاطئ (١٢٤٣م) للقصة في Annals de Terre Sainte, p. 441؛ Richard of San Germano, p. 382 ، الذي يتحدث عن "تمرد" في عكا ضد الإمبراطور في اكتوبر ١٢٤١م

واقترح أودو (أوف مونت بليارد) أن يُطلب من كونراد رسميا زيارة مملكته وإلاّ يتم شئ حتى يصل رده ، لكن الإبيليين لم يجدوا مغزى لتلك الخطوة ، وسادت وجهة نظرهم ، وأقسم المجتمعون قسم الولاء لأليس ورالف ، مع المحافظة على حقوق الملك كونراد(٢٩).

وأزال القرار البقية الضئيلة من سلطة فيلانجيرى التي كانت السبب في تردد البارونات في مهاجمته في صور ، وكان الامبراطور قد استدعاه للعودة إلى إيطاليا قبل تعيين توماس (أوف آكيرا) مباشرة ، فترك مدينته تحت إمرة أخيه لوثير . وفي ٩ يونية أصدر البرلمان في عكا أمرا إلى لوثير بتسليم صور إلى الوصيَّين . وبرفضه الانصياع لأمر البرلمان ، زحف باليان الإبيليني وفيليب (أوف مونتفورت) مع كتائب من البنادقة والجنويين على المدينة . ووضع لوثير ثقته في أسوارها العظيمة التي أفلحت في تحدى صلاح الدين نفسه . غير أن المواطنين المحليين كانوا قد ضجروا من فيلانجيرى ، فعرضوا فتح ممر الجزارين الخلفي الملاصق للبحر . وفي ليل ١٢ يونية زحف باليان ورجاله حول الصخور المؤدية إلى الممر وسُمح لهم بالدخول . ثم إنهم فتحوا البوابات الرئيسية لحلفائهم ؛ وما أن احتلوا منازل فرسان المستشفى وفرسان التيوتون حتى باتت المدينة في أيديهم فيما عدا القلعة في الجنوب التي انسحب إليها لوثير . وكانت قلعة هائلة صمد فيها الإمبراطوريون لأربعة أسابيع . بيد أن المصادفة سيئة الحظ أجبرت السفينة التي تحمل ريتشارد فيلانجيرى إلى إيطاليا على العودة لسوء الأحوال الجوية . وهبط ريتشارد فيلانجيرى في ميناء صور دون أن يرتاب في شئ فوقع من توه في أيدى أعدائه. وحملوه مكتوفا إلى بوابة القلعة وهددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية . ورفض لوثير إلى أن شاهد حبل المشنقة يضيق حول رقبة أخيه ، فقبل الشروط الهيّنة التي عرضها المنتصرون ، وهي السماح للأخوين بالرحيل بحريتهما مع عائلتيهما ومتعلقاتهما . وتقاعد لوثير في طرابلس حيث استقبله بوهمند الخامس استقبالا حسنا ، ولحق به هناك توماس (أوف آكيرا) . أما ريتشارد ، فقد دفعه ضميره إلى العودة إلى سيده الإمبراطوري الذي ألقى به على الفور في غيابة السجن . وبرحيل فيلانجيرى باتت القدس وعسقلان وصور رسميا في أيدى الوصيين.

---

(٢٩) (Gestes des Chiprois, pp. 128-30 رواية فيليب اوف نوفارا الذي يزعم أنه نظّم الأمر)؛ *Estoire d'Eracles*, ii, p. 240; Amadi, pp. 190-1; *Assises*, ii, p. 399؛ ويرد في Tafel - Thomas, *Urkunden*, ii, pp. 351-89 مقال كتبه شاهد عيان بندقي هو Marsiglio Giorgio. ويقول فيليب إن أبناء بيزا كانوا محايدين، وهو أمر غير مرجح نظرا لصداقتهم مع الإمبراطور ، فضلا عن عدم ذكر ذلك في أي مكان آخر . أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.71-3.

وكان رالف (أوف سواسون) يتوقع في ثقة من أن إدارة المدينة المهزومة ستمنح للوصيين ؛ لكن فيليب (أوف مونتفورت) كان يشتهي صور لنفسه ليتوج بها اقطاعيته شقيف أرنون ؛ ومد له الإيبليون يد المؤازرة . وعندما طالب رالف بالمدينة مغاضبا رد البارونات في سخرية بأنهم سوف يحتفظون بها هم أنفسهم على سبيل الأمانة إلى أن يتضح يقينا إلى من تؤول . وتحقق رالف فجأة من أن النيّة تتجه إلى جعله مجرد رئيس صوري ؛ وفي خضم مشاعر الخذلان والتقزز غادر من فوره الأراضي المقدسة عائدا إلى فرنسا . أما الملكة أليس ، التي علمتها سنوات حياتها الخمسون أن تتمسك بالصبر ، فقد بقيت وصيّة إسمية إلى أن ماتت عام ١٢٤٦م(٣٠).

١٢٤٣م : معاهدة مع الصالح اسماعيل صاحب دمشق

كان انتصار البارونات يعني انتصار نظام فرسان المعبد على السياسة الخارجية لنظام فرسان المستشفى . وأعيدت المفاوضات مع بلاط دمشق . وكان الصالح أيوب صاحب مصر قد تشاجر مؤخرا مع الناصر صاحب الكرك واستشعر الخطر من تخلي الفرنج . وكان الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وبموافقة الناصر، قد عرض على الفرنج أن ينسحب من منطقة المعبد في القدس ، والتي كان وجود رجال الدين المسلمين فيها قد ضمنه فريدريك الثاني ، وعلى الفور عرض الصالح أيوب نفس العرض . واتضحت مهارة نظام فرسان المعبد الذي كان يدبر ضرب أمراء المسلمين بعضهم ببعض ، فتمكن من ضمان موافقتهم جميعا على إعادة المنطقة إلى العبادة المسيحية . وفي حماس كتب السيد الأعظم ، أرماند (أوف بيريجورد) إلى أوروبا في نهاية عام ١٢٤٣م يزف إليها تلك النتيجة السارة وليعلن أن النظام الآن منهمك في إعادة تحصين المدينة المقدسة . وكان ذلك آخر نصر دبلوماسي في مملكة ما وراء البحار(٣١).

وكتب الامبراطور فريدريك في مرارة إلى ريتشارد (أوف كورنوول) معلقا على استعداد النظام للسعي نحو تحالف إسلامي في الوقت الذي أنكر عليه النظام فيه أن يفعل

---

(٣٠) Tafel-Thomas, رن ؛ *Gestes des Chiprois*, pp. 130-6; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 420; *loc.cit.*؛(أن البنادقة لم يُعطوا شيئا خاصا بهم)؛ *Assises*, ii, p. 401. ليس للوصي حقوق قانونية على القلاع.

(٣١) Abu'l Feda, p. 122; Maqrisi, x, pp. 355-7; al-Aini, p. 197; Matthew Paris, iv, pp. 289-98.

ذلك[٣٢].

وتشجع فرسان المعبد بنجاحهم ؛ فعندما اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل في ربيع عام ١٢٤٤م ، حرضوا البارونات على التدخل بفعالية إلى جانب الصالح اسماعيل . وكان الناصر صاحب الكرك وأمير حمص الصغير ، المنصور ابراهيم ، قد انضما كلاهما إلى الصالح اسماعيل ؛ وجاء المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لإعتماد التحالف وليعرض نيابة عن الحلفاء جزءا من مصر على الفرنج حال هزيمة الصالح أيوب . واستقبل الأمير المسلم بآيات التشريف العظمى . وتولى فرسان المعبد تقديم أغلب جوانب التسلية والضيافة[٣٣].

بيد أن الصالح أيوب لم يكن بالذي يُهزم بهذه السهولة . ذلك أنه وجد حلفاء أشد بأسا من الفرنج . فقد دأب الأتراك الخوارزميون ، منذ أن مات مليكهم جلال الدين ، على التجول في أنحاء الجزيرة وشمال سوريا ، يغيرون وينهبون . وفي عام ١٢٤١م حاول تحالف لأمراء سوريا الأيوبيين قمعهم ، وهزمهم هزيمة بشعة في معركة لا تبعد عن الرها. لكن الخوارزميين وطدوا مقرهم في ريف البلاد بين الرها وحران ، وكانوا لا يزالون على استعداد لبيع خدماتهم[٣٤]. وكان الصالح أيوب على اتصال بهم من حين لآخر ، والآن دعاهم لغزو أراضي دمشق وفلسطين[٣٥].

١٢٤٤م : ضياع القدس نهائيا

في شهر يونية ١٢٤٤م اجتاح عشرة آلاف خيال خوارزمي الأراضي الدمشقية ، يخربون البلاد ويحرقون القرى . وكانت دمشق ذاتها شديدة القوة بحيث لم يحاولوا مهاجمتها ، ولذا واصلوا زحفهم داخل الجليل واستولوا في طريقهم على طبرية وجنوبا خلال نابلس باتجاه القدس . وتنبه الفرنج إلى الخطر ، فهرع البطريق روبرت المنتخب حديثا إلى المدينة مع السيدين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وراحوا يعززون

---

(٣٢) Matthew Paris, iv, p. 419 .

(٣٣) Joinville (ed. de Wailly), p. 290 .

(٣٤) أنظر Abu'l Feda, p. 119; Kemal ad-Din (trans. Blochet), vi, pp. 3-6, 13. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 648-9; Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 410-11 .

(٣٥) Maqrisi, x, p. 358 . رسالة فريدريك الثاني في Matthew Paris, iv, p. 301 ، يوجه فيه اللوم الى بارونات أوترميه على استفزازاتهم التي أسفرت عن ذلك التحالف

الحاميات في التحصينات التي أعاد فرسان المعبد بناءها لتوهم ، لكنهم لم تواتهم الجرأة هم أنفسهم على البقاء في المدينة . وفي ١١ يولية اقتحم الخوارزميون المدينة ، ودار القتال في الشوارع ، وتمكنوا من شق طريقهم إلى دير القديس جيمس الأرميني وقتلوا الرهبان والراهبات . وخرج الحاكم الفرنجي في قوة مسلحة من القلعة لكي يلقى حتفه مع مرشد نظام فرسان المستشفى . غير أن الحامية صمدت ، ولم تأت المساعدة من الفرنج ، ولذا ناشدوا أقرب حلفائهم المسلمين ، الناصر صاحب الكرك ، لكنه لم يكن يحب المسيحيين ، ويستاء ضرورة التحالف معهم ، ومع ذلك أرسل بعض جنوده الذين هددوا الخوارزميين إلى أن عرضوا على الحامية مرورا آمنا إلى الساحل في حالة استسلام القلعة ، ثم إن الناصر نفض يديه من مصيرها . وفي ٢٣ أغسطس خرجت مسيرة من نحو ستة آلاف مسيحي من الرجال والنساء والأطفال ، تاركة المدينة للخوارزميين . وأثناء سيرهم بطول الطريق باتّجاه يافا ، نظر البعض منهم وراءه وشاهد رايات فرنجية ترفرف فوق الأبراج ، فظنوا أن النجدة قد وصلت بطريقة ما ، وأصر كثيرون على العودة إلى المدينة لا لشئ إلا ليقعوا في كمين أسفل الأسوار وهلك ألفان تقريبا . وبينما كان الباقون مرتحلين باتّجاه البحر ، هاجمتهم عصابات من العرب ، ولم يصل إلى يافا سوى ثلاثمائة.

وهكذا، خرجت القدس نهائيا من أيدى الفرنج ، وانقضى من الزمن قرابة سبعة قرون قبل أن يعبر بوابتها جيش مسيحي مرة أخرى . ولم يُظهر الخوارزميون للمدينة أي نوع من الشفقة ؛ إذ اقتحموا كنيسة القبر المقدس حيث كان قليل من القساوسة اللاتين المسنين يقيمون قداسا بعد أن رفضوا مغادرة المدينة ، فقتلوا عن آخرهم إلى جانب قساوسة الطوائف الوطنية الذين كانوا بداخلها آنذاك . واستُخرجت عظام ملوك القدس من مقابرها وهُشّمت ، وأشعلت النيران في الكنيسة ذاتها . وانتُهبت المنازل والحوانيت في سائر أنحاء المدينة ، وأحرقت الكنائس . وبعد أن خُرّبت المدينة كلها ، اتخذ الخوارزميون طريقهم إلى غزة للإنضمام إلى الجيش المصرى[٣٦].

وفي الوقت الذى كان فيه الخوارزميون ينهبون القدس ، كان فرسان مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) يتجمعون خارج عكا ، حيث انضمت اليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص ؛ وأحضر الناصر جيش الكرك. وفي ٤

---

(٣٦) *Chronicle of Mailros* (Melrose), pp. 159-60; Matthew Paris, iv, pp. 308, 338-40; *MS. of Tothelin*, pp. 563-5; Maqrisi, x, pp. 358-9; al-Aini, p. 198 .

أكتوبر ١٢٤٤م، بدأ تحرك قوات التحالف باتجاه الجنوب على طول الطريق الساحلى . وعلى الرغم من أن الناصر والبدو التابعين له قد انتحوا بأنفسهم جانبا ، كان التعاون على مستوى مثالى بين الفرنج والمنصور إبراهيم ورجاله . وكان الجيش المسيحى أضخم جيش جمعته مملكة أوتريمه منذ يوم حطين المشؤوم . إذ كان هناك ستمائة فارس علماني بقيادة فيليب (أوف مونتفورت) لورد طورون وصور ، ووالتر (أوف برين) كونت يافا. وأرسل نظاما المعبد والمستشفى كلاهما ما يزيد على ثلاثمائة فارس من فرسان نظاميهما بقيادة السيدين الأعظمين أرماند (أوف بيريجورد) ووليم (أوف شاتونيف) ، وكانت هناك كتيبة من النظام التيوتونى . وأرسل بوهمند أمير أنطاكية أبناء عمومته جون ووليم (أوف بوترون) وجون (أوف هام) كونستابل طرابلس . وصاحب الجيش البطريق روبرت نفسه مع رئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة رالف . وكان هناك عدد متناسب من مساعدى الفرسان وجنود المشاة . وربما كان الجنود التابعون لإمرة الناصر إبراهيم أكثر عددا ، وإنما أخف تسليحا . ويبدو أن الناصر أحضر فرسانا من البدو.

وكان الجيش المصرى رابضا أمام غزة بقيادة المملوك الشاب الأمير ركن الدين بيبرس . وكان يتألف من خمسة آلاف من الجنود المصريين المنتقين وحشود الخوارزميين. والتقت الجيوش المتعادية يوم ١٧ أكتوبر في قرية حربيا، أو لا فوربى ، في السهل الرملى الواقع على مبعدة أميال قليلة شمال شرق غزة . وسارع الحلفاء بعقد مجلس حرب أوصى فيه الناصر ابراهيم بالبقاء حيث كانوا ، وتحصين معسكرهم تحسبا لأي هجوم خوارزمى، وبنى حساباته على أن الخوارزميين سرعان ما يفقدون صبرهم لكراهتهم مهاجمة المواقع القوية ، وليس بوسع الجيش المصرى شن هجوم بدونهم . وبحسن الطالع، ربما يسرع الجيش المصرى في التقهقر إلى مصر . ووافقه على رأيه الكثير من المسيحيين ؛ غير أن والتر أمير يافا حثهم حثا متلهفا على شن هجوم فوري ، فقواتهم تفوق الأعداء عددا، وهذه فرصة مجيدة للقضاء على التهديد الخوارزمي ولإلحاق المهانة بالصالح أيوب . وكان له ما أراد ، وتحرك الجيش كله مهاجما . وكان الفرنجة في الميمنة، والدمشقيون وأبناء حمص في القلب ، والناصر في الميسرة.

١٢٤٤م : كارثة في لافوربى

وبينما كان الجنود المصريون يصدون هجوم ميمنة الفرنج ، كان الخوارزميون

ينقضون على حلفائهم المسلمين . وثبت المنصور إبراهيم ورجاله من أبناء حمص ، لكن الجنود الدمشقيين لم يتحملوا الصدمة فانقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار ومعهم الناصر وجيشه . وبينما كان المنصور ابراهيم يقاتل لشق طريق يخرج منه ، استدار الخوارزميون وانقضوا على جناح المسيحيين يدفعونهم باتجاه الكتائب المصرية . وحارب الفرنج ببسالة ولكن بلا طائل . وفي غضون ساعات قليلة تم القضاء على جيشهم كله. وكان من بين القتلى السيد الأعظم لنظام فرسان المعبد ، ومرشده المارشال ، ورئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة ، واثنان من صغار لوردات بوترون . ووقع في الأسر كونت يافا، والسيد الأعظم لنظام فرسان المستشفى ، وكونستابل طرابلس . وتمكن فيليب (أوف مونتفورت) من الهرب مع البطريق عائدين إلى عسقلان حيث انضم اليهما الباقون على قيد الحياة من الأنظمة الدينية العسكرية ، ثلاثة وثلاثون فارسا من نظام المعبد ، وست وعشرون فارسا من نظام المستشفى ، وثلاثة فرسان من النظام التيوتوني. وواصلوا رحيلهم بحرا إلى يافا . وقدر عدد القتلى بما لا يقل عن خمسة آلاف رجل ، وربما أكثر بكثير . واقتيد ثمانمائة أسير إلى مصر(٣٧).

وسار الجيش المنتصر من فوره إلى عسقلان التى كانت حاميتها الآن من فرسان المستشفى. وأثبتت تحصيناتها منعتها ، إذ فشل المصريون في هجماتهم عليها ، فضربوا حولها الحصار وقد جلبوا السفن من مصر لمراقبة الساحل . وفي تلك الأثناء أسرع الخوارزميون إلى يافا ومعهم كونتها الذي هددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية ، لكنه صاح في رجاله أن يصمدوا . وكانت تحصيناتها فوق طاقة الخوارزميين الذين انسحبوا ومعهم أسيرهم وقد أبقوا على حياته ؛ لكنه مات فى الأسر لاحقا بعد شجار مع أمير مصرى كان يلاعبه الشطرنج(٣٨).

ترتب على كارثة غزة أن سُلب الفرنج من كافة المكاسب الثمينة التى كسبتها لهم الدبلوماسية خلال العقود السابقة . ولم يكن محتملا أن تصمد القدس ومنطقة الجليل أمام أى هجوم إسلامي جاد ؛ غير أن ضياع القوة البشرية ترك مملكة الشرق الفرنجى عاجزة تماما عن الدفاع عن أى شئ فيما عدا المقاطعات الساحلية والقليل من أقوى القلاع داخل البلاد . ولم يسبق أن كانت الخسارة أفدح إلا في حطين ؛ ومع ذلك

---

(٣٧) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 427-31; *MS. of Tothelin,* pp. 562-6; *Gestes des Chiprois,* pp. 145-6; *Chronicle of Mailros,* pp. 159-60; Joinville, pp. 293-5; Matthew Paris, iv, pp. 301, 307-11; Maqrisi, x, p. 360; Abu Shama, ii, p. 193 .

(٣٨) Joinville, *loc. cit.;* Amadi, pp. 201-2 .

هناك فرق بين حطين وغزة . إذ كان صلاح الدين المنتصر في حطين سيدا بالفعل لكل من سوريا ومصر ؛ أما الصالح أيوب صاحب مصر فكان عليه التغلب على غريمه صاحب دمشق قبل أن يغامر بالقضاء على المسيحيين . وأنقذ هذا التأخير مملكة الشرق الفرنجي.

وكان الخوارزميون يعقدون الآمال على أن يكافئهم الصالح أيوب على مساعدتهم بتوطينهم في أراضي خصبة في مصر ، لكنه رفض السماح لهم بعبور الحدود التى زودها بالجنود كي يستوثق من بقائهم في سوريا . فعادوا للإغارة على فلسطين حتى ضواحي عكا ، ثم تحولوا إلى داخل البلاد لينضموا إلى المصريين في حصارهم لدمشق . وزحف الجيش المصرى بقيادة معين الدين شمالا مخترقا أواسط فلسطين ، منتزعا من الناصر صاحب الكرك كل أراضيه الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن ، ووصل في نهاية الأمر أمام دمشق في شهر ابريل ١٢٤٥م . ودام الحصار ستة أشهر . وقد أزال الصالح اسماعيل صاحب دمشق السدود المقامة على نهر بردا ، فاستحالت الأراضي خارج الأسوار إلى مستنقع لا يُخترق . على أن تضييق الحصار الذي نظمه المصريون سرعان ما أثار القلق بين التجار وأصحاب الحوانيت ؛ فاضطر الصالح اسماعيل أن يقبل في اكتوبر الشروط التى تقضى بتخليه عن دمشق في مقابل إمارة تابعة تتألف من بعلبك وحوران . لكن الخوارزميين ظلوا بلا مكافأة ، ولذا قرروا في أوائل عام ١٢٤٦م التخلي عن مناصرة الصالح أيوب وعرضوا خدماتهم على الصالح اسماعيل الذي انتهز فرصة مساعدتهم وعاد إلى دمشق وضرب حولها الحصار ، وفي مأموله أن ينضم إليه أمراء أيوبيون آخرون ضد الصالح أيوب ؛ لكنهم كانوا أشد كراهة للخوارزميين . وأرسل الوصى على حلب وكذلك أمير حمص ، وكان الصالح أيوب يعينهما بالمال ، جيشا لنجدة دمشق ، فاضطر الصالح اسماعيل وحلفاؤه إلى رفع الحصار واتجهوا شمالا ، ليقابلوا القوة المخلّصة في أوائل شهر مايو في مكان ما على الطريق بين بعلبك وحمص ، وهُزم الصالح اسماعيل هزيمة نكراء وهلك الخوارزميون أو كادوا ؛ ومن بقى على قيد الحياة منهم اتخذ طريقه شرقا للإنضمام إلى المغول ، بينما كان الحلبيون المنتصرون يجوبون شوارع حلب حاملين رأس زعيمهم المقتول . وابتهج العالم العربي كله باختفائهم . وتأكد امتلاك الصالح أيوب لدمشق ، ومرة أخرى فرض على الصالح اسماعيل أن ينغلق على نفسه في بعلبك ، واعترف الأمراء الأيوبيون في الشمال بسيادة

الصالح أيوب . الذى يستطيع أن يتحول إلى الفرنج مرة أخرى[٣٩].

١٢٤٧م : ضياع عسقلان

في السابع عشر من يونية استولى جيش مصرى على طبرية وقلعتها التى بناها مؤخرا أودو (أوف مونتبيلارد) ، وسرعان ما احتل الجيش جبل الطور (فلسطين) وقلعة الكوكب (بل فوار) ، ثم سار الجيش إلى عسقلان وحاصرها . وكانت التحصينات التي شيدها هيو (أوف برحاندى) في حالة جيدة ، وكانت فيها حامية قوية من فرسان المستشفى ، واستدعيت التعزيزات من عكا ومن قبرص . وعلى الفور أرسل هنرى ملك قبرص اسطولا من ثمانية قوادس تحمل مائة فارس بقيادة قهرمانه بالدوين الإبيلينى إلى عكا حيث كان الكوميون ، بمساعدة من المستعمرات الإيطالية ، قد أعد سبعة قوادس أخرى وخمسين سفينة أصغر . وكان المصريون قد أحضروا أسطولا من واحد وعشرين قادسا كان يحاصر المدينة ، وقد أبحر الآن للتصدى للمسيحيين . غير أنه قبل أن يبدأ الصدام هبت فجأة عاصفة في البحر المتوسط جرفت الكثير من السفن حطاكما إلى الشاطئ ، وعاد الناجون إلى مصر ، وتمكن الأسطول المسيحي من مواصلة الإبحار إلى عسقلان دون أن يتعرض له أحد وأعاد تموين الحامية والهبوط بالفرسان إلى اليابسة. لكن الأحوال الجوية السيئة استمرت ولم تستطع السفن البقاء في المرسى الذي لا تتوفر له الحماية خارج المدينة ، فعادت إلى عكا تاركة عسقلان لمصيرها . وواجهت الجيش المحاصر عقبة افتقاره إلى الأخشاب الضرورية لآلات الحصار ؛ غير أن حطام سفنه المبعثرة بطول الشاطئ أمده بكافة المواد التي يحتاجها ، واستطاعت آلة المنجنيق الضخمة أن تشق ممرا أسفل الأسوار يفضى مباشرة إلى القلعة ؛ وفي ١٥ اكتوبر تدفق الجيش المصرى في هذا الممر ، وبوغت المدافعون الذين قتل الكثير منهم على الفور ووقع الباقون في الأسر . وبناء على أوامر السلطان هُدمت القلعة واستحالت خرابا[٤٠]. ولم يتابع الصالح أيوب انتصاره ، وإنما قام بزيارة القدس وأمر بإعادة بناء أسوارها ، ثم سار إلى دمشق ليترأس الجمع هناك . ومكث فيها طوال شتاء عام ١٢٤٨م وربيع عام ١٢٤٩م

---

(٣٩) Ibn Khallikan, iii, p. 246; Maqrisi, x, pp. 361-5; Abu Shama, ii, p. 432; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 432.

(٤٠) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 432-5; *Gestes des Chiprois,* p. 146; *Annales de Terre Sainte,* p. 442; al-Aini, p. 200; Maqrisi, x, p. 315 .

وجاءه أمراء سوريا المسلمون كلهم لتقديم فروض الولاء[٤١].

أمّا في مملكة أوتريميه المتقلّصة ، فقد ساد فيها الهدوء الداخلي برغم خسائرها وافتقارها إلى السطلة المركزية. وكانت الملكة أليس قد ماتت عام ١٢٤٦م ، وانتقلت الوصاية إلى الوريث التالي ابنها هنرى ملك قبرص بعد إحتجاج من أختها غير الشقيقة، الأميرة المسنّة مليسيند الأنطاكية . أما الملك هنرى ، الذي كانت سمته المفرطة أهم ما يميّزه، فلم يكن بالرجل الذي يفرض سلطانه على الآخرين[٤٢]. فعيّن باليان الإيلينى وكيلا له عن المملكة وأيّد فيليب (أوف مونتفورت) في امتلاكه لصور. وعندما مات باليان في سبتمبر ١٢٤٧م، خلفه كوكيل للمملكة أخوه جون أمير أرصوف، وكلورد لبيروت ابنه ، جون[٤٣].

وفي الشمال، حاول بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس أن ينأى بنفسه بقدر الإمكان عن اهتمامات جيرانه ؛ وبنفوذ زوجته الإيطالية لوسين (أوف سيني) بقي على علاقة طيبة بالبابوية؛ غير أن كثرة عدد أقاربها وأصدقائها ممن دعتهم إلى الشرق أسخط باروناته وسبب له المشاكل فيما بعد. وربما أرسل كتيبة إلى معركة غزة المشؤومة بناء على طلب البابا. غير أنه احتفظ في ذات الوقت بعلاقات ودودة مع فريدريك الثانى ، ومنح لوثير فيلانجيري وتوماس (أوف أكيرا) اللجوء في طرابلس، مما ضايق البابا، رغم أنه رفض منحهما مساعدة إيجابية . واستمر خلافه مع المملكة الأرمينية لبضع سنوات . وقد حاول عبثا حث البابا على ترتيب طلاق الوريثة الروبينية الشابة من الملك الجديد هيثوم، لكي يحرم هيثوم من الحق في العرش ؛ لكن روما منعته هو وهنرى ملك قبرص من مهاجمة الأرمن تحديدا، بينما كان هيثوم من ناحيته مشغولا للغاية في صد هجمات السلطان السلجوقي الكبير كايكوسراو . ونتج عن زواج أخت هيثوم ستيفاني من هنرى ملك قبرص في عام ١٢٣٧م أن مهّد الطريق تدريجيا لمصالحة عامة[٤٤].

---

(٤١) Ibn Khallikan, *loc. cit.* .

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, , p. 146- حيث يرد بالأحرى موجز مشوش عن الحل؛ Rohricht, *Regesta*, , pp. 315-16; Innocent IV, *Registres* (ed. Berger), no. 4427, ii, p. 60. أعطى البابا مطالبة مليسيند لـ Odo of Châteauroux للتحقيق، ورفض لاحقا. أنظر Rohricht, *Geschichte des Konigreichs Jerusalem*, p. 873 n.3 .

(٤٣) *Annales de Terre Sainte*, p. 442; Amadi, p. 198 .

(٤٤) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 650-2 .

١٢٤٥م : بطريارقية لاتينية في أنطاكية(٤٥)

لم يكن لبوهمند سوى القليل من السلطة على الأنظمة الدينية العسكرية المستقرة في أراضيه ؛ التى تزايد حذرها . وفي محاولة من البابوية لمصالحة كميون أنطاكية مع ما لديه من عناصر يونانية قوية غيرت البابوية ، بموافقة بوهمند فيما يبدو ، من سياستها إزاء الكنيسة الأرثوذكسية هناك . وقد اتضح الآن بجلاء استحالة تكامل اليونانيين واللاتين في كنيسة واحدة . ولذا عرض هونوريوس الثالث على اليونانيين كنيسة خاصة بهرميتها وطقوسها الخاصة بها طالما يعترف البطريق اليوناني بسيادة سلطة روما . وقد رفض رجال الدين اليونانيون العرض ، والأرجح بتشجيع خفي من بوهمند الذي اعتبر أن الهرمية اليونانية المستقلة أيسر فى التعامل معها ؛ وسارع البطريق سيمون إلى حضور المجلس المناهض للاتينية الذي استدعاه للإنعقاد في نيمفايوم امبراطور نيقية، حيث أعلن فى ثبات طرد البابا من الكنيسة المسيحية . على أنه عندما مات سيمون في نحو عام ١٢٤٠م ، كان خليفته داود – الذي ربما تدخلت في تعيينه الأميرة لوسين – على استعداد للتفاوض . وفي عام ١٢٤٥م ، أرسل البابا إينوسنت الرابع لورينزو (أوف أورتا) الفرنشيسكاني إلى الشرق بتعليمات بالمساواة التامة في كل مكان بين اليونانيين المعترفين بالسيادة الكنسية البابوية وبين اللاتين . ولم يكن مطلوبا منهم سوى طاعة الرؤساء اللاتين حيثما كانت هناك سابقة تاريخية طيبة لذلك . وتلقى البطريق الدعوة لإرسال بعثة إلى روما على حساب البابا لمناقشة نقاط الخلاف . وقبل البطريق داود هذه الشروط . وفي نفس الوقت تقريبا كان البطريق اللاتيني ألبرت ، الذي لم يكن سعيدا تماما بتلك الترتيبات ، قد رحل إلى فرنسا لحضور مجلس في ليون حيث مات هناك . ولم يُعيّن البطريق اللاتيني التالي أوبيزون فيشي ، وهو ابن أخي البابا ، حتى عام ١٢٤٧م ، وجاء إلى أنطاكية في العام التالي . وفي ذات الوقت كان داود هو البطريق الوحيد المقيم في أنطاكية ؛ على أنه بوفاة داود في تاريخ غير معروف ، نبذ خليفته إيوثيميوس السلطة البابوية ، ولذا حكم عليه البطريق اللاتيني أوبيزون بالطرد من الكنيسة ونفاه من المدينة(٤٦).

---

(٤٥) المترجم : العنوان بالإنجليزية هو *A Uniate Patriarchate at Antioch* ، وتعني لفظة Uniate ، أية طائفة مسيحية في شرق أوروبا والشرق الأدنى تعترف بالسيادة البابوية لكنها تحتفظ بطقوسها وأعرافها. ولذلك اخترنا لفظة (لاتينية) للدلالة على الصبغة التي تصطبغ بها البطريارقية الشرقية في أنطاكية.

(٤٦) *Ibid. pp. 684-5; Regesta Honorii Papae III*, nos. 5567,5570, ii, p. 352. والأدلة كلها مشتقة من مصادر بابوية على الرغم من أن Bar Hebraeus (trans. Budge, p. 445) يذكر رحلة

وكانت مجموعة كبيرة تابعة للكنيسة اليعقوبية قد أعلنت بالفعل خضوعها لروما. وفي عام ١٢٣٧م كان البطريق اليعقوبي إجناتيوس الأنطاكي في زيارة للقدس واشترك في موكب زيّاحي لاتيني ، وأعلن إعلانا أورثوذوكسيا بالإيمان ، فمُنح رداء راهب دومينيكي. ولدى عودته استحوذ على مشاعر الكثير من رجال الدين التابعين له ، وطلب رسميا من اللاتين أن عليهم ممارسة سر الإعتراف لدى قسيس يعقوبي في حالة عدم وجود كاهن اعتراف لاتيني. وفي عام ١٢٤٥م ، جاء المبعوث البابوي أندرو (أوف لونجومو) في زيارة لماردين حيث يقيم إجناتيوس ؛ وتفاوضا على شروط الإتحاد . وكان إجناتيوس على استعداد لقبول صيغة لفظية حول عقيدة وإدارة ذاتية تخضع مباشرة لسيادة روما . على أنه كانت هناك ضغائن بين اليعقوبيين في شمال سوريا وأقرانهم في المقاطعات الشرقية والجنوبية ؛ وقد أنكر الأخيرون الإتحاد ؛ ولسوء الحظ لم يتحدث إجناتيوس إلا لطرف واحد من الكنيسة اليعقوبية . وطالما بقي إجناتيوس على قيد الحياة ، ظل أتباعه على إخلاصهم للاتين ، أمّا بعد وفاته عام١٢٥٢م فقد نشأ خلاف حول استخلافه ، انتصر فيه إلى حين المرشح المناصر للاتين جون الحلبي ، لكنه اعتبر أن أصدقاءه اللاتين لم يمنحوه ما يكفي من التأييد ، بينما دأب غريمه دينيس ، الذي حل محله في النهاية ، على معارضتهم . ولم يكن هناك من يحافظ على الاتحاد سوى شريحة ضئيلة من الكنيسة في طرابلس[٤٧].

١٢٥٢م : فضائح في كنيسة أنطاكية

تولى الجهود الرامية إلى تحقيق الاتحاد بدرجة كبيرة الرهبان المبشرون من طائفتي الدومينيكان والفرنشيسكان الذين بدأوا أعمالهم في الشرق بعد إنشاء أنظمتهم الدينية مباشرة ، ولم يجدوا كبير مجال في مملكة القدس المقيّدة ، لكنهم كانوا على جانب من النشاط بصورة خاصة في بطريارقية انطاكية حيث كان البطريق ألبريت ناصرهم المخلص . واتجهت نيتهم أكثر فأكثر إلى تغيير رجال الدين الدنيويين في شتى الأسقفيات المبعثرة للبطريارقية . ولم تكن علاقات البطارقة بأتباع نظام الرهبنة البندكتي الجديد على كامل وفاقها ؛ إذ أن البطريق بطرس الثاني ، الذي كان هو نفسه رئيسا

إيرثيميوس الى البلاط المغولي . أنظر أيضاً "Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou" في *Revue de l'Orient Latin*, ii, p. 213

(٤٧) Cahen, *op. cit.* pp. 681-4 ، مع المراجع.

سابقا للرهبان البندكتيين ، قد ساعدهم على الإستقرار في ديرين اثنين هما دير القديس جورج (أوف جوبان) بالقرب من أنطاكية، ودير بلمونت بالقرب من طرابلس . بيد أن شتى الفضائح ثارت أثناء تولى ألبرت البطريارقية؛ وتعين إرسال سلسلة من المناشدات إلى روما قبل إعادة النظام إلى الأديرة وقبل تصحيح سلطة البطريق[٤٨].

ولم يبد بوهمند الخامس نفسه سوى قليل اهتمام بهذه الإجراءات ، فنادرا ما زار أنطاكية ، وإنما كان يعقد بلاطه في طرابلس . وكما هو الحال في المملكة ، تفرقت شتى العناصر في أراضيه شيعا، وقد أنقذهم من الإنقراض مشاحرات الأيوبيين والقوة الجديدة الأكثر هولا التى بدأت ترج العالم الإسلامي ، ألا وهي أمبراطورية المغول.

---

(٤٨) *Ibid.* pp. 668-71, 680-1 .

الباب الثالث:

المغول والمماليك

الفصل الأول:

مجــئ المغــول

مجىء المغــول

"هُو ذا كـحاب يَصْعد وكزوبعةٍ مَرْكباته. أسْرعُ من النّسور خيْلُهُ. ويْلٌ لنا لأننا قد أُخْرِبْنا"

(إرميا ٤:١٣)

في سنة ١١٦٧م ، وقبل عشـرين سـنة مـن اسـتعادة صـلاح الديـن للقـدس ، وفي مكان قصيّ على ضفاف نهـر أونـون شمـال شـرقي آسـيا ، رزق زعيـم مغـولي يدعـى ييزوغاي وزوجته هويلون بمولود ذكـر أطلقـا عليـه إسـم تيموجـين ، غـير أنـه مشـهور تاريخيا باسمه الآخر جنكيز خان[1]. وكان المغول عبارة عن مجموعة مـن القبـائل تعيـش

---

(١) للإطلاع على كامل سيرة حياة جنكيز خان أنظر:

Howorth, *History of the Mongols*, i, pp. 27-115; Grousset, *L'Empire Mongol, 1ère phase*, pp. 35-242 and *L'Empire des Steppes*, pp. 243-315; Martin, *Chingis Khan and his Conquest of Northern China, passim.*

وأهم المصادر الأصلية هي(*Yuan Ch'ao Pi Shih* وهـو التـاريخ الرسمـي للمغـول) و *Yuan Shing* Wu Ch'in Cheng Lu، وكلاهما كتب أصلا بالمغولية وترجم الى الصينيـة . وأعيـدت كتابـة أولهمـا ونشر (بالأحرف اللاتينية)، وترجم جزئيا الى الفرنسـية بواسطة Pelliot (*L'Histoire* Secrète des Mongols) - و*Rashid ad-Din, Jami at-Tawarikh*، الذي كتب بالفارسية)ونشر جزء بالفارسية

على ضفاف نهر آمور الأعلى ، وفي حالة حرب دائمة مع جيرانهم الشرقيين التتار. وكان جد يزوغاي ، قابول-خان ، قد ربطهم في كونفدرالية ليست وثيقة العرى؛ بيد أنه بعد وفاته تفككت مملكته، وتمكن الامبراطور الصيني في شمال الصين من ترسيخ سيادته على المنطقة بكاملها. ولم يرث يزوغاي سوى جزء صغير من الكونفدرالية القديمة، لكنه راح يزيد من قوته وشهرته بما أنزله من هزائم بالقبائل التترية وضم أراضيها ، وبالتدخل في شؤون أكثر جيرانه القريبين حضارة ، خان الكيرات.

وكانت جماعات الكيرات ، وهم شعب شبه بدوى من أصل تركى ، قد سكنت البلاد المحيطة بنهر أورخون خارج منغوليا الحديثة . وفي وقت مبكر من القرن الحادى عشر تحول زعيمهم إلى المسيحية النسطورية ومعه أغلب رعاياه . وتسبب هذا التحول في اتصال الكيرات بالأتراك الأوغور إذ كان من بينهم الكثير من النساطرة . وكان الأوغور قد طوروا ثقافة مستقرة في وطنهم في وادى تاريم ومنخفض تورفان ، وطوروا أبجدية للغة التركية تقوم على أساس حروف سريانية . وكانت ديانتهم السائدة في الأزمنة الأبكر هي المانوية(٢) . والآن ، اتجهت المانوية فى ظل النفوذ الصينى إلى أن تصبح بوذية . وكانت قوة الأوغور في انحسار ، لكن حضارتهم انتشرت لتشمل الكيرات والأتراك النايمان الذين تقع بلادهم بين الأوغور والكيرات(٣).

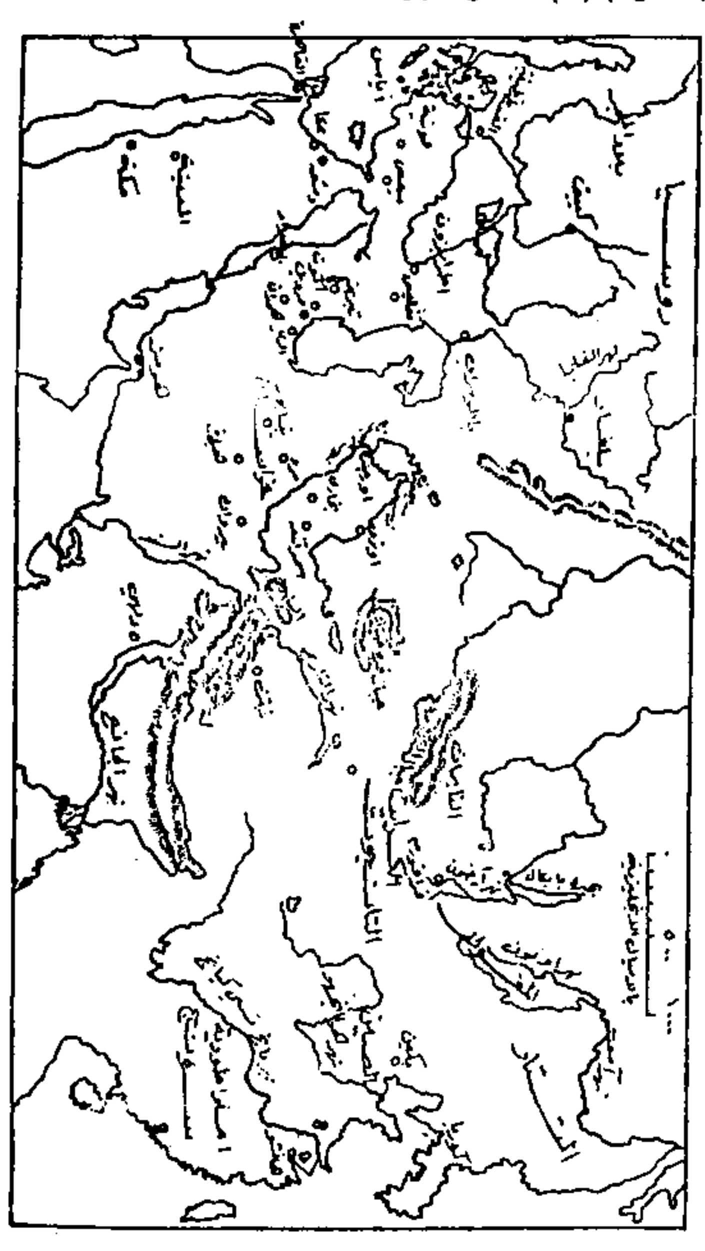
وفي نحو عام ١١٧٠م مات الخان الكيراتى قورياكوز ، وهو ابن ميرغوز خان ، ووجد إبنه طغرل بعض الصعوبة في ضمان ميراثه نظرا لمعارضة إخوته وأعمامه . وأثناء حروبه مع إخوته ضمن مساعدة يزوغاي الذى أصبح صديقه الحميم . وتسببت هذه الصداقة في ارتفاع مكانة يزوغاي بين زعماء قبائل المغول ، على أنه قبل أن يجعل من نفسه خان المغول الأكبر، دسَّ له السم بعض التتريين الرُحّل أثناء تناوله وجبة عشاء

مع الترجمة بواسطة Quatremère ؛ ونُشر النص كله بترجمة روسية بواسطة . (Berezin وتوجد نصوص مختلفة بالمغولية والصينية تتاوله، نشرت وترجمت الى الألمانية بواسطة Haenisch ('Die Letzten Feldzuge Cingis Hans und Sein Tod' in *Asia Major,* vol. ix) . وعن تاريخ ميلاد جنكيز خان أنظر Grousset, *L'Empire Mongol,* p. 53 n. 3.

(٢) (المترجم): المانوية Manichaeism : عقيدة دينية تقول بالثنوية، أى وجود النور والظلمة أو الخير والشر. (النور أو الخير = الإله، الظلمة أو الشر = الشيطان).

(٣) عن شتى قبائل الأتراك المغول أنظر Howorth, *op. cit.* i, pp. 19-26; Crousset, *L'Empire Mongo,* pp. 1-32; Martin, op. cit. pp. 48-58; Pelliot, 'Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient', in *T'oung Pao,* vol. xi. For the Uighurs, Bretschneider, *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources,* i, pp. 236-63.

خريطة رقم (٣) الامبراطورية المغولية



معهم. وكان أكبر أبنائه تيموجين (جنكيز خان) في التاسعة من عمره آنذاك.

جنكيــز خــان

وتمكنت أرملة ييزوغاي النشطة - هويلون - من ضمان بعض السلطة للزعيم الصغير على قبائل أبيه . غير أن طفولة تيموجين كانت عاصفة ؛ إذ بدا زعيما وهو ما يزال صبيًا ، وكان متحجّر القلب إزاء أنداده ، وحتى فيما بين أفراد أسرته . وأثناء الحروب التي انتزع بها سيطرته على المغول ، أسرته لفترة قبيلة تايشيوت ، كما أن الأتراك المركيت على بحيرة بايكال أسروا لفترة زوجته بورك التى تزوجها وهو في السابعة عشرة ؛ ولذلك فإن شرعية ابنها الأكبر جوجى ، الذي ولد أثناء أسرها ، كانت موضع ريبة دائما. ويعزى نجاح تيموجين المتزايد، إلى حد كبير لتحالفه مع طغرل الكيرات خان ، الذي كان يعتبره في مكانة أبيه ، والذي ساعده في حروبه ضد الميركاتيين . وفي نحو عام ١١٩٤م انتخب تيموجين ملكا أو خانا للمغول جميعا، واتخذ اسم جنكيز - أى القوي . وبعد ذلك مباشرة اعترف الامبراطور الصينى بجنكيز أميرا أعظم للمغول وضمن تحالفه ضد التتار الذين كانوا يهددون الصين. ودارت حرب خاطفة أسفرت عن خضوع التتار لحكم جنكيز . وعندما خُلع طغرل خان من عرش كيرات عام ١١٩٧م كان جنكيز هو الذي أعاده . وفي ١١٩٩م ضم جنكيز قواته إلى قوات طغرل خان لهزيمة اتراك النايمان ، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى تزايدت غيرته من قوة الكيرات. والآن غدا طغرل أعظم عواهل السهوب الشرقية الفسيحة ، وكان لقبه وانج-خان أو أونج-خان، وقد تسرب هذا اللقب إلى غربي آسيا متحولا إلى "يوهانس" Johannes وهو شكل أكثر ألفة ورخامة ، وبذا جعله مرشحا للقيام بدور القسيس جون[٤]، لكنه كان رجلا خؤونا متعطشا للدماء يفتقر كل الافتقار إلى الفضائل المسيحية ؛ ولم يستطع قط مساعدة رفاقه المسيحيين . وفي ١٢٠٣م تشاجر مع جنكيز ولم تكن أول معركة بينهما في خالاخاليت معركة حاسمة ؛ على أنه بعد أسابيع قليلة هُزم الجيش الكيراتى هزيمة نكراء في جيجير أوندور ، في قلب أراضى كيرات . وقُتل طغرل أثناء فراره باحثا عن ملجأ ، واستسلم أفراد أسرته الباقين على قيد الحياة

---

(٤) المترجم : جون القسيس . Prester John . ملك وقسيس مسيحي نسطوري يقال إنه حكم في الشرق الأقصى أو أثيوبيا.

لجنكيز خان الذي ضم البلاد كلها[٥].

وفي عام ١٢٠٤م ، كانت نايمان هي الأمة الثانية التى أُخضعت في معركة ضخمة حرت رحاها في شاكيرموت ، حيث كان سلطان جنكيز كله في خطر. وأدت الحروب التي دارت في العامين التاليين إلى ترسيخ مكانة جنكيز كسيد أعلى على جميع القبائل في المناطق الممتدة بين حوض تاريم ونهر أمور وسور الصين العظيم . وفي ١٢٠٦م انعقد (كوريلتاي) أو مؤتمر من جميع القبائل الخاضعة له على ضفاف نهر أونون أكّد لقبه الملكي ؛ وأعلن أن شعبه ينبغي أن يُعرف بصورة جماعية باسم المغول.

١٢٠٦م : تنظيم امبراطورية جنكيز خان

كانت امبراطورية جنكيز خان أساسا عبارة عن خليط من العشائر . ولم يحاول التدخل في التنظيم القديم للقبائل باعتبارها عشائر يحكمها رؤساء بالوراثة، واقتصر على فرض سيادة عائلته، ألتين أوروك أو العشيرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية تسيطر عليها عائلته الكبيرة ورفاقه ، ووضع تحت تصرف العشائر الحرة أعدادا كبيرة من العبيد الذين استرقهم من القبائل التي قاومته وهزمها . ومنح أقاربه وأصدقاءه آلاف العبيد. وفي المؤتمر (كوريلتاي) المنعقد عام ١٢٠٦م مُنحت أمه هريلون ، وأخوه تيموغ أوتيشين ، عشرة آلاف أسرة من الأرقاء لكل منهما ، و خمسة أو ستة آلاف أسرة لكلٍ من أبنائه الصغار . أما القبائل ، وحتى المدن ، التي استسلمت له طواعية فقد تُركت دون تدخل طالما احترمت قوانينه المهيمنة ودفعت لجامعي ضرائبه ما يطلبه من إتاوة باهظة . ولكي يضم بلاده في كيان واحد ، أصدر مجموعة من القوانين (ياسا) تقرر أن تسيد على القوانين المألوفة في السهوب . وقد بسطت مجموعة قوانين (ياسا) ، والتي صدرت على مراحل طوال حكمه ، بصورة محددة ما يتمتع به رؤساء القبائل من حقوق ومزايا ، وشروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات المستحقة للخان ، ومبادئ فرض الضرائب ، وكذلك مبادئ القوانين الجنائية والمدنية والتجارية . وبرغم كونه حاكما مطلقا أعلى ، فقد كان جنكيز ينوى التقيد هو وخلفاؤه بالقانون[٦].

---

(٥) ترد أفضل رواية عصرية حول بروز جنكيز وتسيده في Martin, *op. cit.*pp 60-84 . وعن شهرة طغرل على أنه جون القس المشيخى أنظر Yule, *Cathay and the Way Thisther*, iii, pp. 15-22

(٦) *Ibid.* pp. 85-101 . ويخصص تاريخ *Yuan Ch'ao* ثلاثة فصول (١٩٤-٢٦٦), pp. 68-72 ، في النص المغولي) لمعركة شاكيرموت، وهو أكثر مما تخصصه لأية معارك أخرى لجنكيز خان .

وما أن أكمل جنكيز ترتيب إدارة امبراطوريته حتى شرع في توسيعها ، فلديه الآن جيش ضخم اهتم بتنظيمه كل الاهتمام . ذلك أن جميع أفراد القبائل الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين كانوا مجبرين على أداء الخدمة العسكرية طبقا للتقاليد المغولية والتركية ؛ وكانت حملات الصيد الشتوية الضخمة كل عام، والتي تعتبر ضرورية لتزويد الجيش والبلاط باللحوم، بمثابة مناورات كي يظل الجنود في حالة تدريب . وقد جُبِل رحال القبائل على الطاعة العمياء لزعمائهم ؛ وكان الزعماء يعرفون من تجاربهم المريرة أن عليهم أن يطيعوا الخان . كما كان لرعاياه ، كشأن القبائل الرحل جميعا ، اشتياق إلى أن يجتازوا الآفاق، وخوف من أن تُستهلك مراعيهم وغاباتهم ؛ وقد أعطاهم الخان بلادا جديدة وأسلابا ضخمة وقطعانا من العبيد . لقد كان جيشا من الخيالة والرماة وحملة الرماح على ظهور جياد سريعة ورحال ودواب اعتادوا منذ مولدهم على خشن العيش وعلى الرحلات الطويلة عبر الصحاري بمقادير قليلة جدا من الطعام والشراب . وهذا التركيب من سرعة الحركة والنظام والأعداد الغفيرة لم يكن معروفا قط من قبل(٧).

وكانت الدول الثلاث الكبرى التي تتاخم المغول الآن هي الإمبراطورية الصينية في الشرق بعاصمتها بكين ؛ ومملكة هسياهسي التانجوتية بطول المناطق العليا على نهر الأصفر، حيث كانت هناك أسرة حاكمة من أصل تيبتي تحكم شعبا مغوليا مقيما يتألف من خليط من المغول والأتراك والصينيين ؛ وفي الجنوب الغربي ، مملكة كارا خايتاي، وهي عبارة عن جماعات رحل بوذيين من منشوريا شردهم الأباطرة الصينيون في وقت مبكر من القرن الثاني عشر وشقوا طريقهم باتجاه الشرق لينشئوا امبراطورية على حساب الأوجوريين في حوض تاريم والأتراك المسلمين في باركاند وختان . وكان عاهلهم جور-خان عاملا مهولا في السياسات الإسلامية الشرقية ؛ وكان لأوغور في تورفان عملاء له . وكانت هسيا هسي أضعف الممالك الثلاث ، ولذا بدأ جنكيز خان بمهاجمتها ، وفي ١٢١٢م قبل ملكها سيادته ، وتلا ذلك غزو الإمبراطورية الصينية ، وأسفرت سلسلة من المعارك الطاحنة عن ضم الريف كله حتى البحر الأصفر وشانتونج إلى سلطته . بيد أن المغول لم يعتادوا على مهاجمة الأماكن الحصينة ، وصمدت أمامهم المدن ذات الأسوار الضخمة ؛ ولم تبدأ جيوشه في تعلم فن حرب الحصار إلا بعد أن التحق مهندس صيني يدعى ليو بو-لين بخدمة جنكيز خان . وبحلول عام ١٢٢٦م بات

---

(٧) *Ibid.* pp. 11-47، حيث ترد مناقشة كاملة حول الجيش المغولي

الامبراطور الصيني من أتباعه، وكان قد استولى قبل ذلك في ١٢٢١م على مقاطعة منشوريا الصينية ، واعترفت كوريا بالسيادة المغولية . وعندما مات آخر الأباطرة الصينيين عام ١٢٢٣م ، أدمجت مقاطعاته المتبقية في الإمبراطورية المغولية[٨].

١٢١٨م : محمد شاه الخوارزمي

وفي تلك الأثناء كان جنكيز خان قد وسّع غزواته باتجاه الجنوب الغربي . وآنذاك كانت الإمبراطورية الخوارزمية تحت محمد شاه في أوج عظمتها ؛ إذ كان محمد سيدا لكل آسيا من كردستان والخليج الفارسي إلى بحر الآرال ، والبامير ، والإندوس . وقد وجد فيه جور-خان في كارا خيتاي جارا مقلقا وسعى إلى إحراجه بتحريض أتباعه في أرض ما وراء النهر[٩] . وأدت الحروب التي تلت إلى إلحاق الضعف الشديد بكارا خيتاي؛ وبينما كان محمد شاه بضم أراضيهم الجنوبية ، اغتصب أمير نايماني يدعى كوشلوك عرش جور-خان . وكان كوشلوك مسيحيا نسطوريا بالميلاد ، لكنه أصبح بوذيا بزواجه من أميرة من كارا خيتاي ؛ غير أنه على خلاف عواهل جور-خان ، كان متعصبا ضد رعاياه المسيحيين والمسلمين . وانتهز جنكيز خان افتقاره إلى الشعبية للتدخل . وعندما اكتسح جيش مغولي حوض تورفان جنوبا ، استُقبل كقوة مخلّصة ، وخضع الأوجور طواعية لحكم المغول ؛ وبات كوشلوك مقيّدا داخل إمارة صغيرة في وادي تاريم[١٠].

وأدى هذا التوسع بجنكيز خان إلى أن يصبح على اتصال مباشر بأراضي الخوارزميين . ولم يكن محمد شاه بالرجل الذي يتحمل غريما طموحا بنفس قدر طموحه ؛ واستقبل كل من العاهلين سفارات من نظيره ؛ على أن محمد الخوارزمي شعر بالإهانة عندما طلب جنكيز خان من هذا الأمير الخوارزمي الإعتراف به سيدا أعلا

---

(٨) عن غزو الصين ، أنظر نفس المرجع ، الفصول ٥-٨ و ٩-١٠ ، في أماكن مختلفة.

(٩) (المترجم): أرض ما وراء النهر Transoxiana: اقليم تاريخي في التركستان بوسط آسيا يقع شرقي نهر جيحون (الأموداريا) Oxus River وغرب نهر سيحون (السرداريا) Jaxartes River وهو حاليا في أوزبكستان وجزء من تركمانستان وقازاخستان. كان مركزا اسلاميا عظيما، ومركزا لامبراطورية تيمور الأعرج في القرن الخامس عشر وازدهرت فيه مدينتي بخارى وسمرقند المشهورتان في العالم كله آنذاك.

(١٠) عن محمد شاه ، انظر Barthol ، مقال "Khwaresm" ، في *Encyclopaedia of Islam* ؛ وعن Kuchluk أنظر Martin, *op. cit.* pp. 103-4, 109-11, 220, 224

باعتباره خان الأمم التركية المغولية . وفى ١٢١٨م ارتحلت من منغوليا قافلة ضخمة من التجار المسلمين ومعها مائة مغولي مرسلين في بعثة خاصة إلى البلاط الخوارزمي . وعندما وصلت القافلة إلى أوترور ، على نهر ياكسارتيس في أراضي محمد ، قتل الحاكم المحلي المسافرين وسرق بضائعهم ، وأرسل نصفها إلى الشاه . وكان ذلك العمل استفزازا لجنكيز خان ليس بوسعه تجاهله . وقدّر كوشلوك أن الحرب على وشك الإندلاع فأقدم على محاولة لإحياء مملكة كارا خيتاي . وفي خطة حربية شديدة الذكاء، حرّض القائد المغولي جيبي كوشلوك وجيشه على المضي بطول أراضيه إلى أن قتله في وادٍ مرتفع في بامير[١١].

١٢٢١م : هزيمة الخوارزميين

وبذهاب كوشلوك، أصبح جنكيز خان على استعداد للخروج لملاقاة الخوارزميين. ولقد كان عملا مهولا ؛ إذ قيل إن محمد شاه كان قادرا على أن يلقى في الميدان نصف مليون رجل ؛ وكان على جنكيز خان أن يقاتل على مبعدة ألف ميل من دياره . وفي وقت متأخر من صيف ١٢١٩م ، غادر الجيش المغولي ، المؤلف من مائتي ألف رجل ، معسكره على ضفاف نهر إرتيش ، وانضم اليه في طريقه باتجاه الغرب ملوك من أتباع الخان ، مثل أمير الأوغور . ولم يكن محمد شاه واثقا من المكان الذي سوف يضرب فيه المغول ضربتهم ، ولذا قسّم جنوده بين خط سيحون (السرداريا) وممرات فرغانه ، وربض ماكثا بجيشه الرئيسي في مدينتي ما وراء النهر العظيمتين بخارى وسمرقند . ومضى الجيش المغولي مباشرة إلى أواسط جاسارتيس ، وعبر النهر عند أوترور . وبقي جزء من الجيش لمحاصرة المدينة ، وهي مهمة بطيئة إذ لم يكن المغول متمرسين بعد على أعمال الحصار الحربي ؛ وتحرك جزء من الجيش جنوب النهر لمهاجمة الجيش الخوارزمي الرابض على ضفافه ؛ وتحرك جزء آخر أعلى النهر لقطع الطريق على الجيش الرابض في فرغانه ؛ وزحف جنكيز خان نفسه مع جيشه الرئيسي مباشرة إلى بخارى التي وصلها في فبراير ١٢٢٠م . وعلى الفور تقريبا فتح المدنيون له بوابات المدينة ؛ وقاوم الأتراك في القلعة لأيام قليلة ، ثم ذبحوا عن آخرهم ومعهم أئمتهم المسلمين الذين كانوا يشجعونهم على مواصلة القتال . ومن بخارى واصل جنكيز خان زحفه على سمرقند ، بينما انسحب محمد شاه ، الذي فقد الثقة في جنوده ، إلى عاصمته أورغنج على ضفاف نهر

(١١) Barthold, *op. cit.* pp. 397-9, Martin, *op. cit* pp.230-3 .

جيحون (الأموداريا)، بالغرب من كيفا . وفي سمرقند ، حيث انضم أبناء جنكيز خان اليه بعد استيلائهم على أوترور ، استسلمت الحامية التركية من فورها ، راجية الإنضمام إلى جيش الغازي . غير أن جنكيز خان رأى أن هؤلاء الجنود الذين لا يعتمد عليهم غير جديرين بالثقة فقتلهم جميعا . وعبثا حاول مدنيون قليلون تنظيم مقاومة ، وذبحوا كذلك . ثم إن جنكيز خان أرسل أبناءه لمحاصرة أورغينج ، وهناك تسببت دفاعاتها الأقوى ، والمشاحنات بين أبناء جنكيز خان ، في تأخير الإستيلاء عليها لأشهر قليلة . وفي تلك الأثناء هرب محمد شاه إلى خراسان يطارده جيش تحت قيادة أكثر قادة جنكيز ثقة ، سوبوتاي وجيبي ؛ وتمكن من الفرار من مطارديه لا لشيء سوى أن يموت في ديسمبر ١٢٢٠م في جزيرة صغيرة في بحر قزوين كسير القلب وحيدا.

وتمكن ابن محمد شاه ، جلال الدين ، من خوض قتال أفضل ، إذ انضم إلى الجيش الخوارزمي في فرغانة ، وانسحب إلى أفغانستان . وفي بارفان ، الواقعة إلى الشمال مباشرة من هندوكوش ، أوقع هزيمة منكرة بالجيش المغولي المرسل لإخضاعه . وانتقل جنكيز نفسه عبر الأوكسوس عابرا بلخ التي استسلمت له ومن ثم أنقذت ، ثم باميان في أواسط كوش الهندية ، وصمدت القلعة أمام هجماته ، وأثناء الحصار قُتل حفيده الأثير لديه ، موتوجين . ولذلك ، وعندما تم الإستيلاء على المدينة لم يُترك فيها مخلوق على قيد الحياة . وفي ذات الوقت زحف ابنه تولوي وزوج ابنته توجوتشار أبعد من ذلك إلى الغرب ، واستوليا على ميرف التي لم يبق من سكانها الذكور سوى أربعمائة من أصحاب الحرف الماهرين ، ثم على نيسابور حيث قُتل توجوتشار فلقيت المدينة نفس المصير تماما، وترأست أرملته شخصيا عملية المذبحة . وأُرسل أصحاب المهن من المدينتين إلى منغوليا . وفي عام ١٢٢١م ، تقدم جنكيز خان خلال أفغانستان لمهاجمة جلال الدين ، ولحق به على ضفاف نهر الإندوس . وفي معركة يائسة دارت رحاها يوم ٢٤ نوفمبر تم تدمير الجيش الخوارزمي ، وهرب جلال الدين نفسه عبر النهر ولاذ بملك دلهي ، ووقع أبناؤه في قبضة المنتصر وقُتلوا.

وأمضى جنكيز خان نحوا من عام في أفغانستان . وكانت مدينة هيرات الضخمة التي استسلمت بادئ الأمر للمغول بهدوء قد ثارت بعد انتصار جلال الدين في بارفان . وحاصرها جيش مغولي بضعة أشهر ، وبعد الإستيلاء عليها في يونية ١٢٢٢م ، قُتل سكانها الذين بلغوا مئات الآلاف ؛ واستمرت المجزرة لمدة أسبوع . وجاء إلى المدينة التي استحالت مبانيها إلى أطلال وأراضيها إلى خرائب إداريون مغول يساندهم ما يكفي من الجنود للمحافظة على نظام المدينة المرعوبة . ثم إن جنكيز خان عاد إلى أرض

ما وراء النهر التى كانت أقل في وحشة من غيرها ، حيث نصّب حاكما خوارزميا ، هو مسعود يالاواش ، ومستشارين مغول لمراقبته والسيطرة عليه . وأرسل والد مسعود، محمد يالاواش ، شرقا ليحكم بكين ، وهي وسيلة تشريفية للمزيد من ضمان ولاء مسعود. وفي ربيع ١٢٢٣م عاد جنكيز وعبر نهر سيحون (السرداريا) وارتحل متمهلا عبر السهوب، ووصل إلى إرتيش في صيف عام ١٢٢٤م ، ثم إلى وطنه على نهر تولا في الربيع التالى[١٢].

لم تمر غزوات جنكيز خان الرائعة دون أن يلحظها المسيحيون في سوريا . إذ كان معروفا أنه يهاجم أضخم قوة إسلامية في وسط آسيا ؛ ويستطيع النساطرة بكنائسهم المنتشرة عبر آسيا كلها أن يشهدوا بأنه لم يتخذ موقفا عدائيا من المسيحيين . وكان الخان نفسه شامانيًا[١٣] لكنه كان يود استشارة رجال الدين المسيحيين والمسلمين مع تفضيله للمذكورين أولا . وقد تزوج أبناؤه من أميرات مسيحيات ، من الكيرات ، كان لهن نفوذ كبير في البلاط . والأرجح أن يكون حليفا للعالم المسيحى[١٤].

وقد اهتزت هذه الآمال بعض الشئ خلال عام ١٢٢١م . ذلك أن الجيش الذي أرسله جنكيز خان بقيادة سوبوتاي وجيي للقبض على محمد شاه قد فشل في تحقيق هدفه المباشر ، إذ راوغهم الشاه واتخذ اتجاها معاكسا لإتجاهه الأول ووصل بحر قزوين . غير أن القائدين المغوليين واصلا مسيرتهما غربا ؛ وفي صيف ١٢٢٠م احتلا الري القريبة من طهران الحالية ونهباها ، لكنهما أبقيا على حياة أغلب سكانها . وتلتها مدينة قم التى قُتل سكانها كلهم . ولقيت مدينتا كاسفين وزينجان مصيرا مماثلا ، لكن همدان استسلمت في الوقت المناسب وانقذت نفسها بعد دفع إتاوة باهظة . ودفع أمير أذربيجان ثمنا لتجنب هجوم على تبريز ؛ وواصل المغول زحفهم في فبراير ١٢٢١م لمهاجمة جورجيا.

---

(١٢) Browne, *Literary History of Persia*, ii, pp. 426-40; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 31-46; Brestchneider, *op. cit.* i, pp. 276-94; *Yüan Ch'ao*, pp. 105-8 (a brief account); Rashid ad-Din (trans. Berezin), ii, pp. 42-85.

(١٣) المترجم : الشامانية : Shamanism ديانة شعوب معينة شمال شرق آسيا تقوم على أساس الاعتقاد في الأرواح الطيبة والشريرة التي لا يستطيع التأثير فيها سوى رجل الدين الشاماني.

(١٤) *Regesta Honorii Papae III*, no. 1478, i, p.565. تتحدث خطابه المؤرخ في ٢٠ يونية ١٢٢١م عن قوات آتية من الشرق الأقصى لإنقاذ الأراضي المقدسة . وعن دين جنكيز خان نفسه أنظر Martin, *op. cit.* pp.310-11, 316-17.

١٢٢٢م : المغول يصلون القوقاز

خرج الملك جورج الرابع إبن الملكة تمارا على رأس فرسان جورجيين لصد تقدم المغول وهزم هزيمة شنعاء في خوناني جنوب تفليس مباشرة ، وكانت بمثابة كارثة لم يبرأ منها الجيش الجورجي قط . لكن الغزاة استداروا جنوبا ؛ إذ ثارت همدان وتعيّن معاقبتها ، وفي طريقهم لتخريب المدينة وتدميرها لم يتوقفوا إلا لينهبوا ماراغا في أذربيجان . وأمضوا ما بقي من العام في شمال غرب فارس . وفي أوائل ١٢٢٢م تحولوا شمالا مرة أخرى . وبعد أن خربوا المقاطعات الجورجية الشرقية ، وهزموا جنودا أرسلوا لقمعهم ، ساروا بطول ساحل بحر قزوين مارين بالبوابات القزوينية باتجاه أراضي الكيبشاك[١٥] بين نهرى الفولجا والدون . وسارع الكيبشاك بالتحالف مع قبائل شمال القوقاز ، آلان وليسغيان ؛ غير أنه عندما عرض عليهم سوبوتاي وجيي نصيبا من الغنائم أحجموا عن التدخل أثناء أن كان المغول يسحقون القوقازيين. وكان لابد أن ينقلب عليهم المغول بعد ذلك . فعلقوا الآمال على أن يأتي الروس لإنقاذهم مقابل الرشوة ؛ على أنه في ٣١ مايو ١٢٢٢م ، دُمّر جيش روسي ضخم على ضفاف نهر كالكا بالقرب من بحر آزوف ، كان يقوده أمراء كييف وجاليش وتشيرنيجوف وسمولينسكي . ولم يتابع جنرالات المغول انتصارهم ، وإنما دخلوا منطقة القرم ونهبوا مركزا تجاريا لأبناء جنوا في سولدايا، ثم انساحوا شرقا ولم يتوقفوا إلا لكي يهزموا جيشا من بلغار الكاما ويخربوا بلدهم، وفي باكورة عام ١٢٢٣م ، انضموا إلى جنكيز خان عند نهر سيحون (السرداريا).

تعلق الضحايا الغربيون لهذه الغزوة الشاسعة بأمل أن تكون ظاهرة معزولة ، جائحة مفزعة لا تتكرر . غير أن جنكيزخان امتلأ سرورا بجنرالاته ؛ إذ علاوة على ما قاموا به من استطلاع قيم واكتشافهم عدم وجود جيش يتصدى لهم في غرب آسيا ، فقد أرهبوا الأمم هناك بقسوة تحول دون أن يجرؤ أيّ من تلك الأمم على معارضتهم عندما يحين الوقت للغزو الجاد[١٦].

---

(١٥) المترجم : كيبشاك : Kipchak اتحاد قبائلى احتل في القرن الحادي عشر مناطق شاسعة من السهول الأوروبية الآسيوية تمتد شمالا من بحر الآرال (شرقي بحر قزوين) وغربا شمال البحر الأسود. يُنطق اللفظ بالروسية (بولوفستى)، ويُعرف لدى البيزنطيين باسم كومان.

(١٦) Bretshneider, *op. cit.*, i,pp. 294-9 . وتصف الروايات الروسية عن الحملة بنوع من الاضطراب . أنظر Karamzin, *History of the Russian Empire* (in Russian), iii, p. 345; Vernadsky,

وعندما مات جنكيزخان عام ١٢٢٧م ، كانت أملاكه ممتدة من كوريا إلى فارس ومن المحيط الهندى إلى سهول سيبيريا المتجمدة . ليس هناك رجل آخر ولم يتأت لرجل آخر عبر التاريخ أن يقيم امبراطورية شاسعة كهذه. ومن المحال أن يفسّر نجاحه بنظرية ما تقول أن الحافز الإقتصادي هو الذي دفع المغول إلى التوسع ؛ ولا يسعنا سوى أنهم كانوا وسيلة مواتية لزعيمهم التوسعي . لقد كان جنكيزخان مهندس مصيره . ولكنه يبقى لغزا . فمن حيث المظهر ، قيل لنا إنه كان طويلا قويا بعينين كعيني القط . ويقينا كانت طاقة احتماله البدنية هائلة ، ويقينا كذلك أن كان لشخصيته أعمق الأثر لدى كل من تعامل معه . كانت مهارته في التنظيم فائقة ؛ وكان يعرف كيف ينتقى الرجال وكيف يعاملهم . وكان لديه احترام أصيل للعلم ، وكان على استعداد دائما للإبقاء على حياة أي دارس للعلم ؛ غير أنه لسوء الحظ لم يتح إلا لقليلين لبيان علمهم . وتبنى للمغول الأبجدية الأوغورية وأرسى قواعد الأدب المغولي . وكان من النواحي الدينية يتصف بالتسامح ، وعلى استعداد لمد يد العون لأية طائفة لا تعارضه سياسيا. وقد أصر على أن تكون الحكومة عادلة ومنظّمة . وطُهّرت الطرق من قُطّاعها ، وأنشئت خدمة بريدية ؛ وازدهرت التجارة تحت رعايته وغدا بإمكان القوافل الضخمة أن ترتحل سنويا بعرض آسيا وهي آمنة . على أنه كان بالغ القسوة ؛ فهو لا يولى أي اعتبار للحياة البشرية، أو تعاطف مع المعاناة الإنسانية ، فهلك الملايين من أبناء المدن في حروبه ؛ وشاهد ملايين القرويين حقولهم وبساتينهم وقد استحالت خرابا . لقد كانت امبراطوريته ترتكز على دعامات البؤس الإنساني[١٧] .

١٢٢٧م : استخلاف أوغوداي

أتاحت وفاة الغازى الكبير فرصة من الراحة للعالم الخارجي ، إذ انقضت سنتان تقريبا قبل تسوية الإستخلاف على الإمبراطورية . وتقضى الأعراف المغولية بحق أكبر الأبناء وذريته في الاستخلاف على الامبراطورية ، وبحق أصغر الأبناء في الإحتفاظ بأراضى الوطن فى دعوة المؤتمر (كوريلتاي) الذي يصدق على الإستخلاف . وخالف جنكيزخان تلك الأعراف وسمّى ابنه الثالث أوغوداي وريثا للسلطة العليا، متخطيا

The Novgorod Chronicles ويعلق تاريخ نوفجورود *Kievan Russia,* pp. 236-9.
(ed.Nasonov), p. 63 بأن الله وحده يعلم من أين أتى التتار وإلى أين ذهبوا

(١٧) يرد موجز جيد عن شخصية جنكيزخان في. Martin, *op. cit.* pp. 1-10

بذلك أكبر أبنائه يوحي الذي حامت الشكوك حول شرعيته ، فضلا عن أن سجله العسكري والإداري لم يكن مرضيا . وكان ابنه الثاني باحاتاي جنديا يتقد ذكاء ، لكن طباعه كانت من الحميّة والإندفاع بحيث تحول دون أن يكون حاكما مقتدرا . أما أوغوداي ، وبرغم كونه أقل في مواهبه البادية ، فقد ظن جنكيزخان أن لديه من الصبر والمهارة ما يساعده على التعامل مع أخويه وأتباعه . وربما كان أصغر الأبناء تولوي أقدر الإخوة لولا أن أعاقه ما اعتاد عليه من الإنغماس في ملذاته . وباعتباره الأمير المسؤول عن استدعاء المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد ، فقد كان الشخصية المحورية في حسم الاستخلاف ، وحث زعماء القبائل على تنفيذ رغبات جنكيزخان . وأصبح أوغوداي الخان الأعلى ، وخصصت لأقاربه أملاك ضخمة ، وحصل إخوة جنكيز خان على المقاطعات الشرقية المحيطة بنهر أمور وغيرها في منشوريا، واحتفظ تولوي "بأراضي الوطن" الواقعة على نهر أونون . وكان الميراث الشخصي لأوغوداي أراضي كيرات ونايمان السابقة ، وورث باحاتاي مملكتي أوغور وكارا خيتان . ومُنح أبناء يوحي المتوفى ، باتو وأوردا وشيبان ، المقاطعات الشرقية الممتدة حتى الفولجا . على أنه في الوقت الذي سُمح للأمراء بممارسة الحقوق المطلقة على رعاياهم ، كان عليهم أن يطيعوا قانون المغول الإمبراطوري ، وأن يقبلوا القرارات الصادرة من حكومة الخان الأعلى التي أقامها أوغوداي في كاراكورام . إن وحدة الإمبراطورية المغولية لم تُصب بأذى[١٨].

عندما عاد جنكيز خان وجيوشه إلى منغوليا غادر جلال الدين الخوارزمي ملجأه في الهند وجمع حوله البقايا الكبيرة المتبقية من جيوش أبيه . واستُقبل في فارس بالترحيب على أنه المحرر من المغول ، وبحلول عام ١٢٢٥م غدا سيد الهضبة الفارسية وأذربيجان ، وبحلول عام ١٢٢٦م أصبح السيد الأعلى في بغداد . وبتهديد مملكته للأيوبيين ، كان بمثابة عامل مفيد من عوامل السياسة الفرنجية في سوريا ؛ بيد أن المسيحيين الأبعد في الشمال وجدوا فيه جارا أسوأ حتى من المغول . إذ غزا جورجيا عام ١٢٢٥م ، فأرسلت العاهلة الجورجية روسودان أخت جورج الرابع -وهي ملكة غير متزوجة وإن لم تكن عذراء- جيشا لملاقاته . غير أن زهرة الفرسان الجورجيين كانت قد سقطت قبل ذلك بأربع سنوات في خونانبي ، فكانت هزيمة جنودها مهمة يسيرة في جارني على حدودها الجنوبية . وأثناء فرار الملكة نفسها إلى كوتايس ، احتل جلال الدين عاصمتها

---

(١٨) أنظر Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 284-91.

تفليس وخربها وضم وادى نهر كور كله . وحاول الجورجيون عام ١٢٢٨م استعادة مقاطعاتهم المفقودة ، لكن المحاولة انتهت بكارثة ، إذ انكمشت المملكة الجورجية واقتصرت على أراضيها المطلة على البحر الأسود ؛ و لم تعد ذات قيمة كمخفر شمالي شرقي للعالم المسيحي ، ولا كقوة تستطيع تحدى قبضة المسلمين على آسيا الصغرى[١٩].

و لم يمض وقت طويل حتى عاد المغول إلى الغرب . وكان عليهم أولا قمع ثورة صينية في شمال الصين . على أنه في أوائل عام ١٢٣١م ، ظهر جيش مغولي ضخم في فارس بقيادة جورماكان ، وساعدته ذكرى الغزو المغولي السابق مساعدة جيدة ؛ فلم يجد مقاومة في مسيرته من خراسان إلى أذربيجان ، إذ هرب جلال الدين أمامه ، لكي يموت ميتة غامضة في كردستان . وتبعه جنوده الخوارزميون في فراره ، وأعادوا تجميع أنفسهم في الجزيرة حيث ابتعدوا مؤقتا عن حشود المغول ؛ ومن هناك عرضوا على الأيوبين المتشاحنين أن يستأجروهم ، إلى أن تم القضاء عليهم في نهاية الأمر بالقرب من حمص عام ١٢٤٦م . وضم جورماكان شمال فارس كله وأذربيجان إلى الإمبراطورية المغولية ، وظل من عام ١٢٣١م إلى ١٢٤١م يحكم المقاطعة من معسكري موغان بالقرب من بحر قزوين . وفي ١٢٣٦م غزا جورجيا ؛ وكانت الملكة روسودان قد أعادت احتلال تفليس بعد سقوط جلال الدين ، لكنها هربت ثانيةالى كوتيس ، واستولى المغول على شرقي جورجيا . وبعد انتهاء فظائع الغزو ، كان الجورجيون يفضلون المغول كثيرا على الخوارزميين نظرا لكفاءة إدارتهم . وفي ١٢٤٣م ، أصبحت الملكة نفسها تابعة لهم على فهم أن المملكة الجورجية كلها من المقرر منحها لإبنها ليحكمها تحت السيادة المغولية[٢٠].

الغزو المغولي لأوروبا

كان المسيحيون في المناطق الشمالية الأبعد أقل ارتياحا . وفي ربيع ١٢٣٦م تجمع

---

(١٩) أنظر ترجمة حياة جلال الدين التي كتبها أمين سره الناصر(an-Nasair (ed. Houdas ، في أماكن مختلفة؛ .Browne,*op.cit.* ii, pp.447-50 وانظر d'Ohsson, *Histoire des Mongols*, i, pp. 255 - 9,306.وعن انهيار جورجيا أنظر .*Georgian Chronicle* (ed. Brosser), i, pp. 324-31

(٢٠) Browne, *op. cit.*, ii, pp. 449-50; d'Ohsson, iii, pp. 65-6; *Georgian Chronicle*, i, p. 343

حيش مغولي ضخم شمال بحر الآرال بقوده باتو ، إبن يوحي ، الذي كانت أملاكه تتضمن تلك السهول. وكان مع باتو إخوته وأربعة من ابناء عمومته هم حويوك وقادان، إبنا أوغوداي ، وبايدار بن باحاتاي ، ومونغكا بن تولوي . أما القائد المسِن سوبوتاي فكان رئيسا للأركان. وبعد أن أخضع الجيش المغولي القبائل التركية على الفولجا ، زحف على الأراضي الروسية في خريف ١٢٣٧م، وفي ٢١ ديسمبر شن هجوما على ريازان واستولى عليها ، وقتل أميرها وسكانها جميعا ؛ وبعد أيام قلائل سقطت كولومنا ، وفي وقت مبكر من العام الجديد هاجم المغول مدينة فلاديمير العظيمة التي لم تصمد سوى ستة أيام ، ولدى سقوطها يوم ٨ فبراير ١٢٣٨م حدثت مذبحة أخرى بالجملة . ونهبت سوزدال في نفس الوقت تقريبا ، وأعقب ذلك احتلال وتدمير المدن الثانوية في وسط روسيا ، موسكو و يوريف و حاليش و بيريسلاف و روستوف و ياروسلافل . وفي ٤ مارس هُزم وقتل امير فلاديمير ، يوري العظيم ، على ضفاف نهر سيتي ، وبعد المعركة مباشرة سقطت تفير و تورزهوك ، وتقدم الغزاة على تلال فالداي باتجاه نوفغورود ، ولحسن حظ تلك المدينة هطلت أمطار الربيع وأغرقت الآجام والأدغال المحيطة بها من كافة نواحيها ، فانسحب باتو لتمضية ما تبقى من العام في سحق المقاومة الأخيرة للكيبشاك ، بينما هزم ابن عمه مرنفكا قبائل ألان والقبائل القوقازية الشمالية ، ثم قام بغارة استكشافية وصل فيها حتى كييف.

وفي خريف ١٢٤٠م قاد باتو الجيش المغولي الرئيسي داخل أكرانيا . وخُربت مدينتا شيرنيجوف وبيريسالفل ، وتم الإستيلاء على كييف يوم ٦ ديسمبر بعد أن دافعت عن نفسها دفاعا باسلا . ودُمّر الكثير من أعظم كنوزها ، وقتل أغلب سكانها على الرغم من الإبقاء على حياة قائد حاميتها ، دميتري ، لما أبداه من شجاعة أعجب بها باتو ومن كييف ، زحف جزء من الجيش بقيادة بايدار بن باحاتاي شمالا إلى داخل بولندا مخربا ساندومير وكراكاو . واستنجد الملك البولندى فرسان التيوتون الذين كانوا مستقرين على الساحل البلطيقي . وفى ٩ ابريل ١٢٤١م دارت معركة شرسة في والستاد بالقرب من ليغنيتز ، احتشت فيها شأفة الجيوش المشتركة لفرسان التيوتون والملك البولندي . غير أن بايدار لم يغامر بالتوغل أكثر من ذلك غربا ، فخرب سيليسيا، ثم اتجه جنوبا خلال مورافيا إلى داخل هنجاريا.

وفي تلك الأثناء عبر باتو و سوبوتاي إلى جاليكيا ، يدفعان أمامهما قطعان الفارين

المرعوبين من كل الأقوام فى السهوب. وفي فبراير ١٢٤١م عبرا جبال الكاربات[٢١] إلى داخل وادى هنجاريا . وخرج الملك بيلا على رأس جيشه لملاقاتهم وهُزم هزيمة مأساوية يوم ١١ ابريل بجوار جسر موهي على نهر سايو . وتدفق المغول على هنجاريا إلى داخل كرواتيا ومضوا حتى شواطئ البحر الأدرياتيكى . ومكث باتو نفسه بضعة أشهر في هنجاريا التى يبدو أنه كان يرغب في ضمها إلى الإمبراطورية المغولية . بيد أن الرسل جاءت في ١٢٤٢م بنبأ وفاة الخان الكبير أوغوداي في كاراكورام يوم ١١ ديسمبر ١٢٤١م[٢٢].

ولم يكن بوسع باتو أن يظل بعيدا عن منغوليا في الوقت الذي يتقرر فيه الإستخلاف ؛ إذ أنه أثناء الحملة الروسية تشاجر شجارا مريرا مع اثنين من أبناء عمومته هما جويوك بن أوغوداي وبوري حفيد باغاتاي ، وقد انسحب كلاهما في غضب إلى الوطن . وأظهر أوغوداي مناصرته لباتو ضد إبنه الذي أرسله مخزيًا إلى المنفي. على أن جويوك ، باعتباره أكبر أبناء الخان ، كان ما يزال قويا . وعين أوغوداي كخليفة له حفيده شيريمون الذي قُتل أبوه كوشو في الحرب مع الصينيين . ومع ذلك ، كان شيريمون صغيرا غير ذي تجربة ، ولذا تولت الوصاية أرملة أوغوداي ، توراجينا خاتون ، الأميرة النايمانية بالميلاد ، وعقدت العزم على أن يعتلى جويوك العرش . واستدعت المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد ، على أنه برغم الإعتراف بسلطتها إلى حين تعيين خان عظيم جديد ، فقد مرت خمس سنوات دون أن تتمكن من إقناع الأمراء الأقارب وزعماء القبائل بقبول جويوك ، وتولت إدارة الحكومة خلال تلك السنوات الخمس . ولقد كانت ذات طاقة ونشاط لكنها كانت بخيلة . وبرغم أنها كانت مسيحية بالميلاد ، إلا أنها قربت إليها مسلما هو عبد الرحمن الذي اتهمته الشائعات بالتعجيل بموت أوغوداي . وتسبب فساده وجشعه في أن أصبح مكروها من الجميع ؛ غير أنه لم تتوفر لأحد السلطة الكافية للنيل من الوصاية[٢٣].

---

(٢١) المترجم: Carpathian Mountains ، سلسلة جبال في وسط أوربا تمتد الى الجنوب الشرقي من جنوب بولندا خلال الجمهورية التشيكية وأكرانيا الى شمال شرق رومانيا.

(٢٢) Bretscheider, op. cit. i, pp.308، من المصادر الشرقية، *Novgorod Chronicle,* pp.74-6 . 285-8. وللإطلاع على رواية كاملة أنظر Strakosch-Grossman, *Der Einfall den Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242,* also Sacerdoteanu, *Marea Invazie Tatara si Sud-estul European*

(٢٣) عن وصاية توراجينا، Grousset, *op. cit.* pp.303-6 . أنظر Bar-Hebraeus (trans. Budge), pp. 410-11.

١٢٤٢م : المغول في آسيا الصغرى

لم يشأ باتو التورط في مغامرات في الغرب إلى أن تأكد الإستخلاف . واحتفظ بحاميات في روسيا ، لكن وسط أوروبا كان في حالة من الهدوء . ولم يستمر تقدم المغول إلا في غربي آسيا حيث أرسلت الوصيّة قائدا يتصف بالنشاط والإقتدار يدعى بايشو ليكون حاكما لغرب آسيا.

وفي أواخر عام ١٢٤٢م غزا بايشو أراضي السلطان السلجوقي كيخسرو ، الذي كان آنذاك في الجزيرة يسعى إلى ضم أراض لا سيد لها بعد انهيار جلال الدين . وفي بداية الربيع سقطت إرزن الروم للمغول . وفي ٢٦ يونية ١٢٤٣م هُزم جيش السلطان في صدغ بالقرب من إرزنجان، وتقدم بايشو إلى قيصرية-مازاكا ؛ فاستسلم كيخسرو وقبل السيادة المغولية ، وسارع جاره هيثوم ملك أرمينيا في أن حذو حذوه[٢٤].

وربما كان متوقعا أن يخطط أمراء العالم المسيحي الغربي للترتيب لعمل متناسق ضد هذا الخطر المرعب . وقد سبق في عام ١٢٣٢م ، عندما دمّر خورماكان القوة الخوارزمية في فارس، أن أرسل الحشاشون مبعوثين إلى أوروبا لتحذير المسيحيين وطلب المساعدة بعد أن بات مقرهم الرئيسي في ألموت في الجبال الفارسية مهددا[٢٥]. وفي ١٢٤١م ، عندما بدا مصير أوروبا الوسطى محتوما ، حث البابا جريجوري التاسع على إنشاء تحالف كبير لإنقاذها . غير أن الامبراطور فريدريك، الذي كان الآن منهمكا في إخضاع الدويلات البابوية في إيطاليا ، رفض التحول عن موقفه . وأمر ابنه كونراد ، باعتباره حاكما لألمانيا ، بتعبئة الجيش الألماني ، وناشد ملكي فرنسا وانجلترا لتقديم المساعدة[٢٦]. وعندما انسحب المغول إلى روسيا في العام التالي عاد العالم المسيحي الغربي إلى أوهامه . إذ ساعدت أسطورة القس جون على انتشار عقيدة تكاد تكون رؤيويّة تركت أثرا فائقا بأن الخلاص قادم من الشرق . ذلك أن أحدا لم يتأن ليتدبر أنه

(٢٤) Ibn Bibi (ed. Houtsma), iv, pp. 234-47; Bar-Hebraeus (trans. Budge), pp. 406-9; Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale* (Douai edition), xxx, pp. 147, 150. See Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 694-6

(٢٥) See Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxiii, pp. 238 ff..

(٢٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, v, pp. 360-841, 921-85) سلسلة من الخطابات حول الخطر التتري.)

إذا كان وانج-كان الكيراتي هو القس حون، فمن غير المحتمل أن يقوم الذى قضى عليه بنفس دوره. فكان كل فرد يفضّل تذكر أن المغول حاربوا المسلمين وأن أميرة مسيحية تزوجت أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية . وإن لم يكن خان المغول الأعظم مسيحيا؛ إنهم كانوا يأملون أن يتلهف إلى أن يكون نصيرا للأيديولوجية المسحية ضد قوى الإسلام . إن وجود مثل هذا الحليف المحتمل شديد البأس في الخلفية الشرقية جعل اللحظة تبدو مؤاتية لحملة صليبية جديدة ؛ وكان هناك صليبيا مهيّأ في المتناول[٢٧].

(٢٧) Pelliot, *loc. cit.*; Marinescu, 'La Prêtre Jean' in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine, vol. x passimé* Langlois, *La Vie en France au Moyen Age,* vol. iii, pp. 44'56.

الفصل الثانى:

القديس لويس

القديس لويس

"لا ينتفع الإنسان بكونه مَرضيًا عِند الله"
(أيوب ٩:٣٤)

في ديسمبر ١٢٤٤م أصيب ملك فرنسا لويس التاسع بمرض مؤنس بعدوى الملاريا. وبينا كان راقدا والموت منه قريب أقسم لإن شُفي لينطلقن في حملة صليبية . وأنقذت حياته ؛ وما أن استرد صحته حتى بدأ في ترتيباته . والملك الآن في الثلاثين من عمره ، طويلا واهن البنية أشقر الشعر والبشرة، يعاني دائما من مرض الحمرة والأنيميا، لكن شخصيته لم تفتقر إلى القوة قط . وقليل من الجنس البشرى كله كان على مثل هذا الورع المخلص الواعي . وكملك شعر بأنه مسؤول أمام الرب عن رفاهية شعبه ؛ ولم يسمح لأي أسقف ، ولا حتى للبابا نفسه ، بأن يقف بينه وبين هذا الواجب . وكانت مهمته أن يوفر حكومة عادلة . وبرغم احترامه المرتاب لحقوق أتباعه الاقطاعية كان ينتظر منهم أن يقوموا بدورهم ، وإذا ما فشلوا في ذلك قلّص سلطاتهم ولم يكن فى ذلك مبتدعا. وبفضل هذا الالتزام الصارم فاز بالإعجاب حتى من أعدائه ؛ وزاد من إعجابهم ما كان له من ورع شخصى وتواضع وتقشف مشهود . وكانت نظرته إلى الوفاء بالعهد نظرة سامية، فلم يُخلف وعدا قط. ولم تكن لديه رحمة إزاء الآثمين؛ وكان صارما، بل قاسيا، في معاملاته مع الهراطقة والكفرة . وكان أصدقاؤه يجدون في حديثه

سحرا وسخرية رفيقة ، لكنه كان يتناءى عن وزرائه وأتباعه ؛ وكان إزاء أطفاله سيدا مستبدا . وكانت مليكته مرجريت البروفانسية فتاة تتصف بالمرح وبروح الإستعلاء ، لكنه روضها وأحال سيرتها إلى ما يناسب زوجة قديس[١].

وفي ذلك العصر ، عندما كانت الفضيلة تحظى بالإعجاب الكبير لكنها نادرا ما تتحقق، حاوز الملك لويس فى رفعته رفاقه العواهل . وكان طبيعيا أن تساوره الرغبة في الذهاب في حملة صليبية ؛ ولقي امتثاله الواقعى للحركة تقديرا تشوبه البهجة . وكانت الأحوال في مسيس الحاجة إلى حملة صليبية . وفي ٢٧ نوفمبر ١٢٤٤م ، وبعد كارثة غزة مباشرة ، أبحر حاليران أسقف بيروت من عكا ليخبر أمراء الغرب ، نيابة عن بطريق القدس روبرت ، بحتمية إرسال التعزيزات وإلا فسوف تهلك المملكة كلها . وفي يونية ١٢٤٥م ، عقد البابا إينوسنت الرابع ، بعد أن أخرجته قوات الامبراطور من إيطاليا، مجلسا في مدينة ليون الإمبراطورية لمناقشة كيفية كبح جماح فريدريك ؛ انضم اليه هناك الأسقف حاليران وكذلك ألبرت بطريق أنطاكية . وكان إينوسنت قد شعر بعض الإساءة عندما طلب من لويس التغاضي عن كل أعماله المضادة للإمبراطور ، ورفض لويس طلبه هذا بوازع من ضمير؛ غير أن البابا عندما علم بما أبلغه به أسقف بيروت حاليران من أحوال الشرق الباعثة على القنوط ، أعلن في سرور تأييده لتعهدات الملك الصليبية ، وأرسل أودو ، الكاردينال-الأسقف في فراشاتي للتبشير بحملة صليبية في سائر أنحاء فرنسا[٢].

استمرت ترتيبات الملك ثلاث سنوات . وفُرضت ضرائب غير عادية لتمويل الحملة، ولم يُستثن رجالُ الدين من دفعها مما أثار حنقهم . وكان لابد من تدبير أمر الحكم في البلاد ، فعهد بالوصاية مرة أخرى إلى الملكة الأم بلانش ، التي ثُبت اقتدارها كحاكم أثناء الفترة العاصفة السابقة على بلوغ ابنها سن الرشد . وكانت هناك مشاكل خارجية يتعين تسويتها ، إذ ينبغى حث ملك انجلترا على الحفاظ على السلام[٣]. وكانت العلاقات مع الامبراطور فريدريك حساسة بوجه خاص ؛ إذ فاز

---

(١) تتضح شخصية لويس بجلاء بيّن في التراجم التي كتبها عنه Joinville وWilliam of Nangis وWilliam of Saint-Pathus وهذا الأخير هو كاهن اعتراف الملكة مرجريت الذى . وكتب آخر ترجمة له ليبرر الحاقه بالقديسين.

(٢) Hefele-Leclercq, *Histoire des Concile,* v, 2, pp. 1635, 1651-3, 1655-61; *MS. of Rothelin,* pp. 566-7; Joinville, ed. Wailly, p. 37; William of Saint-Pathus, pp. 21-3; William of Nangis, R.H.F. vol. xx, p. 352.

(٣) Joinville, pp. 41-2; William of Nangis, *loc. cit.*; Powicke, *King Henry III and the*

لويس بعرفان فريدريك لالتزامه الحياد الصارم في الشجار بين البابوية والامبراطور ؛ لكنه هدد بالتدخل عام ١٢٤٧م عندما اقترح فريدريك على حلفائه مهاجمة شخص البابا في ليون. وفضلا عن ذلك ، فإن فريدريك هو والد ملك القدس الشرعى ، ولذا ليس من حق لويس دخول بلاده مالم يأذن له الملك كونراد ، ويبدو أن المبعوثين الفرنسيين دأبوا على إطلاع فريدريك اطلاعا كاملا بالحملة الصليبية المنتواة ، وأن فريدريك - الذى أعرب عن تعاطفه مع الحملة - نقل المعلومات إلى بلاط مصر . وكان لزاما العثور على السفن التي سوف تنقل الحملة إلى الشرق ، وبعد مفاوضات قليلة وافقت جنوا ومرسيليا على تقديم العون الضرورى . أما البنادقة ، الذين ساءهم بالفعل هذا المخطط الذي قد يعوق ترتيباتهم التجارية الطيبة مع مصر ، فقد زاد ذلك من عدائهم الدفين[٤].

١٢٤٨م : الملك لويس يبحر من إيجو-مورت

وأخيرا غادر الملك لويس باريس يوم ١٢ أغسطس ١٢٤٨م ، وفي اليوم الخامس والعشرين أبحر من إيجو-مورت قاصدا قبرص وبصحبته الملكة وأخوين من إخوته هما روبرت كونت أرتوا ، وتشارلز كونت أنجو . وتبعه اثنان من أبناء عمومته ، هيو دوق برجندى ، وبطرس كونت بريتاني ، وكان كل منهما قد اشترك فى حملة صليبية عام ١٢٣٩م ؛ وهيو العاشر (أوف لوسينان) ، كونت لا مارش ، وزوج أم الملك هنرى الثالث ، الذي كان شابا في الحملة الصليبية الخامسة ؛ ووليم (أوف ديامبير) ، كونت فلاندرز ؛ وجوى الثالث كونت سانت بول ، الذى شارك أبوه في الحملتين الثالثة والرابعة ؛ وجون كونت ساربروك ؛ وابن عمه المؤرخ جون (أوف جوانفيل John of Joinville)، وقهرمان شامباني ، والكثير من ذوى الشأن الأقل . وأبحر البعض منهم من إيجو-مورت ، والبعض الآخر من مرسيليا . واستأجر المؤرخ جوانفيل وابن عمه - ومع كل منهما تسعة فرسان - قاربا من الميناء الأخير[٥].

وانطلقت في أثرهم مباشرة كتيبة انجليزية بقيادة وليم ، إيرل سالزبرى ، وهو حفيد

Lord Edward, i, p. 239.

(٤) Hefele-Leclercq, *op. cit.* v, 2, pp. 1681-3. Al-Aïni, p. 201, يقول إن فريدريك حذّر السلطان

(٥) Joinville, pp. 39-40, 43-6; Matthew Paris, v, pp. 23-5.

هنرى الثاني و(فير روزاموند) . وخطط لوردات انجليز آخرون للإنضمام إلى الحملة الصليبية ، لكن هنرى الثالث لم يشأ أن يفقد خدماتهم ، ولذا رتّب أن يحول البابا دون مرورهم . وجاء من اسكتلندا باتريك ، إيرل دونبار ، الذي مات في رحلته إلى مرسيليا(٦).

وصل الأسطول الملكي ميناء ليماسول يوم ١٧ سبتمبر ؛ وهبط الملك والملكة إلى البر في الصباح التالي . وخلال الأيام القليلة التالية تجمّع جنود الحملة الصليبية في قبرص. وبالإضافة إلى نبلاء فرنسا جاء من عكا السيد الأعظم القائم بالأعمال لنظام فرسان المعبد ، وبارونات سوريون كثيرون ، واستقبلهم هنرى ملك قبرص جميعا بحفاوة ودودة(٧).

عندما نوقشت خطة الحملة وافق الجميع على أن تكون مصر هي المستهدفة . فهي أغنى مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية وأيسرها اقتحاما ؛ وتذكروا كيف أن السلطان أثناء الحملة الصليبية الخامسة كان على استعداد لمبادلة القدس نفسها بدمياط . وعندما اتّخذ القرار أبدى لويس رغبته في أن تبدأ العمليات على الفور ، لكن سادة الأنظمة الدينية العسكرية والبارونات السوريين أثنوه عن عزمه ، إذ سرعان ما سوف تبدأ العواصف الشتوية ، ومن الخطورة الإقتراب من ساحل الدلتا بضفافه الرملية الخؤونة وندرة موانيه. وفضلا عن ذلك، كانوا يأملون في اقناع الملك بالتدخل في نزاعات الأيوبيين العائلية ؛ ذلك أنه في صيف ١٢٤٨م طرد صاحب حلب الناصر يوسف ابن عمه الأشرف موسى من حمص ، فاستنجد الأمير المخلوع بالسلطان أيوب الذي جاء من مصر وأرسل جيشا لإستعادة حمص ، وكان فرسان المعبد قد بدأوا فعلا في التفاوض مع السلطان ، مقترحين عليه أن يتخلى عن بعض الأراضي لقاء مساعدات اضافية من الفرنج . على أن الملك لويس لا شأن له بهذه المخططات . إذ أنه قد جاء ، كشأن الصليبيين الزائرين في القرن الماضي ، لمحاربة الكفرة لا للخوض في الدبلوماسية . وأمر فرسان المعبد بقطع مفاوضاتهم(٨).

---

(٦) Matthew Paris, iv, pp. 628-9, v, pp. 41, 76.

(٧) Joinville, pp. 46-7; *Gestes des Chiprois*, p.147.

(٨) Joinville, pp. 47, 51, 52; William of Nangis, pp. 367-9; Abu'l Feda, p. 125; Maqrisi, x, pp. 198-9.

١٢٤٥-١٢٤٧م : بعثة (بيان دل كاربين) إلى منغوليا

إن الهواجس التى منعت الملك من أن يتفق مع أى مسلم لم تنطبق على المغول الوثنيين. وكانت لديه سابقة يحذوها . ففى عام ١٢٤٥م استكمل البابا إينوسنت الرابع جهوده الرامية إلى انقاذ العالم المسيحي في الشرق الأدنى بأن أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الأعظم في منغوليا . وغادرت ليون في ابريل من ذلك العام إحدى البعثتين برئاسة الفرنشيسكاني حون (أوف بيان دل كاربين) ، وأمضت خمسة عشر شهرا في رحلتها عبر روسيا وسهوب أواسط آسيا إلى أن وصلت في أغسطس ١٢٤٦م إلى المعسكر الإمبراطورى في سيرا أوردو القريب من كاراكورام في الوقت المناسب لتشهد المؤتمر (كوريلتاي) الذي انتخب جويوك ووضعه على قمة السلطة . وكان لدى جويوك الكثير من النساطرة ضمن مستشاريه ، فاستقبل البعثة البابوية استقبالا طيبا . بيد أنه عندما قرأ رسالة البابا التي تطالبه بقبول المسيحية ، كتب ردا يأمر فيه البابا بالإعتراف بسيادته والحضور مع جميع أمراء الغرب لتقديم فروض الولاء والطاعة . ولدى عودة حون (أوف بيان دل كاربين) إلى البلاط البابوى في نهاية عام ١٢٤٧م ، سلّم البابا ذلك الخطاب المثبّط وتقريرا مفصّلا أوضح فيه أن المغول لا هم لهم سوى الغزو[٩]. على أن إينوسنت لم يكن ليترك أوهامه تذهب كلية أدراج الرياح ؛ فانطلقت سفارته الثانية برئاسة آسلين اللومباردي الدومينيكاني بعد ذلك بقليل وارتحلت عبر سوريا ، حيث قابل القائد المغولي بايشو في مايو ١٢٤٧م في تبريز . ووجد آسلين في شخص بايشو رجلا عدوانيا مقيتا ، لكنه كان على استعداد لمناقشة إمكانية التحالف ضد الأيوبيين . فخطط للهجوم على بغداد ، وسوف يناسبه أن تتولى حملة صليبية تشتيت انتباه مسلمى سوريا . وأسل مبعوثين مع آسلين في عودته إلى روما هما آيبج وسركيس، ويقينا كان ثانيهما نسطوريا، ورغم افتقارهما إلى سلطات التفويض المطلقة، فقد انتعشت آمال الغرب مرة أخرى . ومكثا مع البابا نحوا من عام . وفي نوفمبر ١٢٤٨م طُلب منهما العودة إلى بايشو يحملان الشكوى من أنه ليس هناك شئ يتخذ حول التحالف[١٠].

وأثناء أن كان الملك لويس في قبرص جاءه في نيقوسيا اثنان من النساطرة في ديسمبر ١٢٤٨م هما مارك وداود ، وقالا إنهما مرسلان من القائد المغولي أليغيداي ،

---

(٩) للرواية كاملة عن هذه السفارة، See Pian del Carpine, *Historia Mongolorum* (ed. Pulle), esp. pp. 115 ff. Guyuk's letter is given *ibid.* pp. 125-6.

(١٠) See Pelliot, "les Mongols et la Papauté", *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxviii, pp. 112,131.

وهو المفوض على الموصل من قبل الخان الأعظم . وأبرزا رسالة تتحدث بإسهاب مفرط عن تعاطف المغول مع المسيحية ، مما أدخل البهجة على لويس فأرسل على الفور بعثة من الدومينيكانيين يرأسها أندرو (أوف لونيمو) وأخوه ، وكلاهما يتحدث العربية . وكان أندرو في الواقع هو وكيل البابا الرئيسي في المفاوضات التي جرت مؤخرا مع القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح . وحملت البعثة معها نموذجا لكنيسة، كهدية تلائم رحّال بدوى متحول إلى المسيحية ، وبعض الآثار الدينية لمذهبها ، وهدايا أخرى دنيوية. وغادر أفراد البعثة قبرص في يناير ١٢٤٩م قاصدين معسكر أليغيداي الذي أرسلهم إلى منغوليا . وبوصولهم إلى كاراكورام وجدا أن جويوك قد مات وأرملته أوغول كايميش تقوم بأعمال الوصاية . وكانت كريمة مع البعثة ، لكنها اعتبرت هدايا الملك مجرد إتاوة من تابع لسيد ، بينما حالت مشاكل الأسرة الحاكمة في الوطن دون أن ترسل حملة كبيرة إلى الغرب ، وإن توفرت النيّة لديها . وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بلاشئ سوى خطاب من سيد أعلى شكرت فيه الوصية تابعها لما أبداه من انتباه وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل سنة . وذهل لويس من هذا الرد ، غير أنه كان لا يزال يعلق الآمال على التوصل إلى تحالف مغولي يوما ما(١١).

وهكذا ، فإن إقامة الحملة الصليبية في قبرص لم يكن لها أثر سياسى . وكان الملك لويس قبل ذلك بنحو عام قد أرسل الوكلاء لجمع الطعام والأسلحة للجيش ؛ وقد تحققت المهمة الأخيرة على نحو مفيد ، غير أن هيئة المهمات الحربية (الكوميسارية) لم تكن تتوقع أن تُطعِم تلك الأفواه الكثيرة لأكثر من شهر أو شهرين . ومع ذلك ، لم تستطع الحملة عمليا الإبحار لغزو مصر قبل شهر مايو ١٢٤٩م . وعندما حل الربيع ، طلب لويس من المستعمرات التجارية الإيطالية المحلية تزويده بالسفن ، وعارض البنادقة الحملة الصليبية برمتها ولم يقدموا المساعدة المطلوبة . وفي شهر مارس بدأت حرب صريحة بين أبناء جنوا وأبناء بيزا بطول الساحل السورى ، ووقعت أسوأ نتائجها على أبناء جنوا الذين يعلق عليهم لويس جُل اعتماده . وتدبر جون الإبلينى ، لورد أرصوف، بعد حوالى ثلاثة أسابيع إقناع المستعمرتين بالتوقيع على هدنة تستمر ثلاث سنوات . وبنهاية شهر مايو أمكن توفير السفن التي تحتاجها الحملة الصليبية(١٢) . وفي

---

(١١) Pian del Carpine, *op. cit.* pp.174-95. ومن المشكوك فيه ما إذا كان أليجيداي مخولا لإرسال سفارة . ويرد ذكر وصولهما وكذلك سفارة لويس في Joinville, pp. 47-8, and *MS. of Rothelin*, p. 469 . ويصف Matthew Paris (v, pp. 80-87) شائعات عن ملك التتار عن دينه بتهلل بالغ ('jocundissimi').

(١٢) Joinville, pp. 46-7; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 436-7, Matthew Paris, v, p. 70;

ذات الوقت كان لويس يستقبل الزائرين والسفارات في نيقوسيا ؛ إذ أرسل له هيثوم الأرميني هدايا نفيسة ؛ والتمس بوهمند أمير أنطاكية الحصول على كتيبة من ستمائة من الرماة لحماية إمارته من قطاع الطرق التركمان وحصل عليها . وارتحلت إليه امبراطورة القسطنطينية، ماريا (أوف برين) اللاتينية ملتمسة العون ضد امبراطور نيقية اليوناني ، وأعرب لها لويس عن تعاطفه لكنه أخبرها أن الحملة الصليبية ضد الكفرة ينبغي أن تكون لها الأسبقية . وأخيرا ، وصل في شهر مايو وليم (أوف فيلهاردوين) أمير أخايا[١٣] مع أربع وعشرين سفينة وفصيلة من الفرنج من موريا (برلوبونيس). وكان دوق برجندى قد أمضى معه الشتاء في اسبرطة وحثه على الإنضمام إلى الملك . وكان الجيش الذي تجمّع في قبرص يتزايد حجمه على نحو مهول . غير أن جوانب المتع التى تزخر بها الجزيرة اللطيفة قد أوهنت من معنوياته ؛ وكادت أن تنفد مخزونات الطعام التى كان مقررا أن تكفي الحملة على مصر[١٤].

١٢٤٩م : الحملة الصليبية تصل أمام دمياط

في ١٣ مايو ١٢٤٩م كان هناك أمام ميناء ليماسول أسطول من مئة وعشرين ناقلة كبيرة والكثير من السفن الأصغر ، وبدأ الجيش يصعد على ظهرها . ولسوء الحظ ، هبت عاصفة بعد أيام قلائل بعثرت السفن ؛ وعندما أبحر الملك نفسه يوم ٣٠ مايو لم يبحر معه سوى ربع جيشه ، وأبحر باقي الجيش بصورة مستقلة قاصدا الساحل المصرى. ووصل الأسطول الملكي أمام دمياط يوم ٤ يونية[١٥].

وكان السلطان أيوب قد أمضى الشتاء في دمشق راجيا أن يفرغ جنوده من الإستيلاء على حمص قبل أن يبدأ الغزو الفرنجى . وتوقع أول الأمر أن يهبط لويس في سوريا ، لكنه بعد أن تحقق من أن الهجوم يستهدف مصر ، رفع الحصار عن حمص وأسرع بنفسه إلى القاهرة وأصدر أوامره لجيوشه السورية أن تتبعه . وكان رحلا

William of Nangis, p. 368.

(١٣) المترجم : أخايا Achaea ، اقليم قديم شمال برلوبونيس أو شبه الجزيرة اليونانية

(١٤) Joinville, pp. 48-51; Vincent of Beauvais, pp. 1315 ff.

(١٥) Joinville, pp. 52-3; William of Nangis, pp. 370-1; *MS. of Rothelin*, p. 589; ويقدر أبو الفدا Abu'l Feda, p. 126 قوام جيش الملك بأنه ٥٩٠٠٠ رجل؛ letter of Guy of Melun in Matthew Paris, v, pp. 155-6

مريضا ، في مرحلة متأخرة من مرض السل ، ولم يعد قادرا على قيادة جنوده بنفسه؛ فأمر وزيره المسن فخر الدين – صديق فريدريك الثاني – أن يقود الجيش الذي تقرر أن يقاوم الهجوم الفرنجي على أرض مصر ، وأرسل مخزونات المؤن إلى دمياط ووضع فيها حامية من رجال قبائل بني كنانة ورجال من البدو اشتهروا بشجاعتهم . واتخذ قاعدته في أشمون طنّاح الواقعة إلى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل(١٦).

وعلى ظهر السفينة الملكية -مونتجوا- راح مستشارو الملك يتوسلون اليه انتظار وصول باقي ناقلاته قبل محاولة الهبوط إلى البر ، لكنه رفض التأخير . وفي فجر الخامس من يونية بدأ الهبوط بين أنياب العدو على الرمال الواقعة إلى الغرب من مصب النهر. ودارت معركة شرسة على نفس شاطئ البحر ؛ غير أن استبسال الجنود الفرنسيين والملك على رأسهم ، وشجاعة فرسان أوتريميه بقيادة جون الإيبليني كونت يافا، أجبر المسلمين على التقهقر بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة ؛ وبهبوط الظلام سحب فخر الدين رجاله وعبر جسر القوارب إلى دمياط التي وجد سكانها في حالة من الذعر والحامية تتخاذل ، فقرر إخلاء المدينة . وهرب معه كل السكان المسلمين ، وتبعهم بنو كنانة بعد أن أشعلوا النيران في الأسواق ، لكنهم أهملوا أوامره بتدمير جسر القوارب . وفي الصباح التالي علم الصليبيون من المسيحيين الذين بقوا في منازلهم أن دمياط بلا دفاع . فعبروا في انتصارهم الجسر ودخلوا المدينة(١٧).

١٢٤٩م : لويس في دمياط

ذهل الفرنج وابتهجوا من سهولة الإستيلاء على دمياط . لكنهم لا يستطيعون الآن متابعة انتصارهم ، إذ سرعان ما سيبدأ فيضان النيل . وكانت التجربة المريرة التي مرت بها الحملة الصليبية الخامسة ما تزال ماثلة في الأذهان ، ولذا رفض لويس التقدم إلى أن تهبط مياه النهر . وفضلا عن ذلك، كان ينتظر وصل التعزيزات من فرنسا بقيادة أخيه ألفونسو كونت براتو . وفي ذات الوقت تحولت دمياط إلى مدينة فرنجية . ومرة أخرى،

---

(١٦) Maqrisi, x, pp. 200-1; Abu'l Feda, p. 126; Al-Aïni, p. 201.

(١٧) Joinville, pp. 53-8; William of Nangis, p. 371; *MS. of Rothelin* (letter of John Sarrasin), pp. 589-91; *Gestes des Chiprois*, pp. 147-8; Matthew Paris, v, (letter of Guy of Melum); Maqrisi, xiii, p. 203-4; Abu'l Feda, p. 126; al-Aïni, pp. 20123é Abu Shama, ii, p. 195.

وكما حدث عام ١٢١٩م ، تحول الجامع الكبير إلى كتدرائية ونُصّب فيها أسقف . وخصصت المباني للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، والأملاك لأبرز لوردات مملكة ما وراء البحار (اوتريميه) ؛ وكوفئ أبناء جنوا وبيزا على خدماتهم بسوق وشارع لكل منهما ، أما البنادقة النادمين على اتخاذهم موقف عدائي فقد توسلوا للحصول على مكافأة مماثلة ، وأجيب سؤالهم . وعامل الملك لويس المسيحيين الوطنيين والقبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بعدالة حذرة ورحبوا بحكمه . وعندما كان الجيش في قبرص ، كانت الملكة قد أُرسلت مع سيدات الحملة الصليبية الأخريات إلى عكا ، والآن استُدعيت للإنضمام إلى الملك . كما رحّب لويس بصديق آخر بارز ، وإن كان قد بات معدما ، هو بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية ، الذي سبق أن زار لويس في باريس لجمع المال ، وباع للملك آثار "الآلام" التي بقيت من سلب الصليبيين للعاصمة الإمبراطورية . وطوال أشهر الصيف كانت دمياط عاصمة مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) . بيد أن الجنود قد وهنت عزائمهم بهذا الإسترخاء في رطوبة الدلتا الحارة ؛ وبدأ الغذاء يتناقص ، وأطلت الأمراض في المعسكر(١٨) .

صُدم العالم الإسلامي لضياع دمياط . غير أنه بينما تردد الفرنج ، أقدم السلطان المحتضر على خطوة . وكما فعل أبوه قبل ثلاثين سنة ، عرض على الفرنج أن يعطيهم القدس ثمنا لدمياط . ورفض العرض . ذلك أن الملك لويس كان لا يزال يرفض التعامل مع واحد من الكفرة ، وفى ذات الوقت عاقب أيوب القادة المسؤولين عن ضياع دمياط، فأعدم أمراء بنى كنانة ، وأُخزي فخر الدين وكبار قادة المماليك . وأراد المماليك القيام بتمرد في القصر ، لكن فخر الدين أثناهم عن عزمهم ؛ وحفظ له السلطان إخلاصه له . وهُرع الجنود إلى المنصورة التى سبق أن بناها السلطان الكامل في موقع انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة ، ومن هنا جاء إسمها . وحُمل أيوب نفسه إلى هناك على محفته ليشرف على تنظيم الجيش . وانطلق رجال حرب العصابات البدو في المناطق المحيطة ، وكانوا يتسللون حتى أسوار دمياط ، يقتلون الفرنج الشاردين خارجها . واضطر لويس إلى إنشاء السدود وحفر الخنادق لحماية معسكره(١٩) .

---

(١٨) *MS. of Rothelin*, pp. 592-4; Matthew Paris,vi,pp.160-1; *ibid*.iv, p.626 (Empror Baldwin's visit).

ويرد إبلاغ لويس بشأن كنيسة دمياط مطبوعا في Baluze, *Collectio Veterum Scriptorum*, iv, pp. 491-5.

(١٩) Al-Aini,pp. 202-6.(Matthew Paris, v, p.89) وقُتل هير لا مارش أثناء هذه الإشتباكات

وفى أكتوبر هبطت مياه النيل . وفى نفس الوقت تقريبـا، في ٢٤ أكتوبر ، وصـل الأخ الثاني للملك، ألفونسو (أوف بواتو) ومعه التعزيزات من فرنسا . لقد حان الوقت للتقدم نحو القاهرة . واقترح بطـرس الـبريتونى بتـأييد مـن بارونـات أوتريميه أن الأكـثر حكمة مهاجمة الإسكندرية ، إذ سيفاجأ المصريون بهذه الحركـة ، ولـدى الصليبيـين مـا يكفى من السفن لعبور فروع النيل ، وباستيلائهم على الإسكندرية فإنهم يتحكمون في ساحل مصر المتوسطي كله ، وسوف يكون لزاما على السلطان أن يرضخ لما يملونه مـن شروط . بيد أن أخا الملك ، روبرت (أوف ارتوا) ، عارض هذا المشروع بحماس وأيـده الملك . وفي ٢٠ نوفمبر انطلق الجيش الفرنجى من دمياط بطول الطريق الجنوبى الذاهـب إلى المنصورة ، وبقيت حامية قوية في دمياط مع الملكة وبطريق القدس[٢٠].

وبدا الحظ مبتسما للملك لويس ؛ إذ أن السلطان أيوب الآن على فـراش المـوت ، ومات في المنصورة بعد ثلاثة أيام في الثالث والعشرين . لقد كان رجـلا عبوسـا منعزلا تعوزه البشاشة وسعة الأفق و حب العلم مما كان يتصـف بـه أغلـب أقربائـه . وكـانت صحته ضعيفة بصورة دائمة ؛ وربما تناءت به دماؤه السودانية على وعى منه، عـن بقيـة أسرته، التي لم تتخلط سلالتها الكردية . غير أنه كان حاكمـا مقتـدرا ، وآخـر الحكـام العظام في الأسرة الحاكمة الأيوبية العظيمة . وكان موته بمثابة كارثـة تهـدد المسـلمين ؛ إذ كان ابنه الوحيد تورانشاه بعيدا في الجزيرة واليا عليها . وجـاء إنقـاذ مصـر علـى يـد السلطانة الأرملة شجرة الدر الأرمينية المولد ، التى استأمنت الخصيّ جمال الدين ، الذي سيطر على القصر ، وكذلك فخرالدين ، وأخفت نبأ موت زوجها وزيّفت توقيعه علـى وثيقة بتعيين تورانشاه وريثا وفخرالدين قائدا عاما للجيش وواليا أثناء مرض السـلطان . وعندما تسرب نبأ موت أيوب في نهاية الأمر ، كانت السلطانة وفخرالدين قـد أحكمـا قبضتهما على السلطة ، وكان تورانشاه في طريقه إلى مصر . علـى أن الفرنـج تشـجّعوا لسماعهم النبأ ، وبدا لهم أن تلك الحكومة التى تسيطر عليها امرأة وقائد مسِن سـرعان ما ستنهار . فغذوا السير باتجاه القاهرة[٢١].

---

(٢٠) Joinville, pp. 64-5; Matthew Paris, vi, p. 161 (letter of Guy of Melun); ويـرد في المرجع السابق أخطاء في تواريخ أحداث الشتاء في فبراير (*ibid.* v, pp. 105-7, and p. 130); Maqrisi, xiii, p. 215.

(٢١) Maqrisi, xiii, pp. 208-15; Abu'l Feda, p. 127; al-Aïni, p. 207; *MS. of Rothelin*, p. 599; Matthew Paris, v, pp. 107-8.

١٢٤٩م : الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة

كان الطريق من دمياط تقطعه أعداد لا حصر لها من قنوات النيل وفروعه ، أكبرها البحر الصغير الذي يتفرع من النيل الرئيسي جنوب المنصورة مباشرة ويجرى مارا بأشمون-طنّاح إلى بحيرة المنزلة ، وبذا يعزل ما يسمى جزيرة دمياط . وأبقى فخرالدين أغلب قواته خلف البحر الصغير ، وأرسل الفرسان لإنهاك الفرنج أثناء عبورهم كل قناة، ولم تنجح أيّ من تلك المناوشات في صد تقدم الفرنج . وكان الملك لويس يتقدم تقدما بطيئا حذرا . وفي ٧ ديسمبر حدثت معركة بالقرب من فارسكور صُد فيها الفرسان المصريون ، وأصرّ فرسان المعبد على مطاردة الفارين تحديا لأوامر الملك إلى مسافة بعيدة للغاية ، وصادفتهم بعض المصاعب في الإنضمام إلى رفاقهم . وفي ١٤ ديسمبر وصل الملك بارامون ، وفي الحادي والعشرين ضرب جيشه معسكره على ضفة البحر الصغير التي تواجه المنصورة[٢٢].

مكث الجيشان يواجهان بعضهما عبر القناة الواسعة لستّة أسابيع . وحاول الفرسان المصريون العبور إلى الجزء الأسفل الجنوبي من جزيرة دمياط ، وهاجموا مؤخرة الفرنج ، لكن تشارلز (أوف أنجو) ردهم بالقرب من المعسكر. وفي تلك الأثناء أمر لويس ببناء سد يعبرون القناة من فوقه ، غير أنه على الرغم من بنائه سقائف لحماية العمال ، كان القصف المصرى من الضفّة المقابلة ، وخاصة باستخدام النيران الإغريقية، هائلا بحيث تم التخلّي عن بناء السد . وفي باكورة شهر فبراير ١٢٥٠م ، جاء إلى معسكر الملك قبطي من سلمون ، وعرض أن يكشف لهم عن مخاضة لعبور البحر الصغير لقاء حصوله على ٥٠٠ بيزنت . وفي فجر ٨ فبراير انطلق الصليبيون عبر المخاضة ؛ وبقي دوق برجندى مع قوات قوية للحفاظ على المعسكر ، بينما سار الملك لويس مع الجيش المتقدم وقاد أخوه روبرت (كونت أرتوا) المقدمة مع فرسان المعبد والكتيبة الإنجليزية ، وصدرت إليه أوامر صارمة بعدم مهاجمة المصريين إلى أن يأذن الملك . وتحقق العبور الصعب بنجاح ، لكنه كان بطيئا . وعندما وجد روبرت كونت أرتوا نفسه على الضفة الأخرى من البحر الصغير مع رجاله ، خشي أن يضيع عنصر المفاجأة ما لم يهاجم الأعداء في الحال . وحاول فرسان المعبد عبثا تذكيره بالتعليمات الصادرة إليه ، لكنه أصر على التقدم ووافقوا على المشاركة في الهجوم . وكان لإندفاعه

(٢٢) Joinville, pp. 69-70; *MS. of Rothelin*, pp. 597-8; Maqrisi, xiii, pp. 215-16; al-Aini, p. 207.

ما يبرره . ذلك أن المصريين في معسكرهم ، خارج المنصورة بنحو عشرين ميلا ، كانوا يبدأون حياتهم اليومية عندما بوغتوا بخيالة الفرنج تزمجر في وسطهم فجأة ؛ وقتل الكثير من المصريين عندما هرعوا لأخذ أسلحتهم ، وهرب آخرون في نصف ملابسهم إلى حيث الأمان في المنصورة . وكان القائد العام فخرالدين قد خرج لتوه من الحمّام ، وكان خادمه الخاص يصبغ له لحيته بالحناء ، عندما سمع الهرج والمرج . ولم ينتظر حتى يشتمل بدروعه ، وإنما قفز على جواده وانطلق إلى قلب المعركة ، ووجد نفسه في وسط بعض فرسان المعبد الذين قطعوه إربا.

١٢٥٠م : معركة المنصورة

أصبح روبرت كونت أرتوا الآن سيد معسكر المصريين . ومرة أخرى ترجّاه السيد الأعظم لنظام المعبد الانتظار إلى أن يأتي الملك والجيش الرئيسي إلى المخاضة وينضما اليه ، وكذلك نصحه وليم (أوف سالزبوري) باتخاذ جانب الحيطة ؛ غير أن روبرت أصر على الإستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصرى ، ورمى فرسان المعبد والإنجليز بالجبن ، ثم نظّم صفوف رجاله وشن هجوما جديدا على المصريين الفارين ؛ ومرة أخرى شعر سيد فرسان المعبد ووليم بأن عليهما اللحاق به . على أنه بالرغم من موت فخرالدين ، تمكن القادة المماليك من إعادة النظام إلى جنودهم ؛ وتولى القيادة أقدرهم ركن الدين بيبرس وكنيته البندقدار أي "صاحب القوس"[٢٣] . ووضع رجاله في مواضع حساسة داخل المدينة ذاتها ، وترك فرسان الفرنج يتدفقون داخل البوابة المفتوحة. وعندما اندفع فرسان الفرنج إلى أسوار القلعة ذاتها وفرسان المعبد في ذيلهم ، خرج المماليك من الشوارع الجانبة وانقضوا عليهم كالصواعق . ولم تتمكن جياد الفرنج من الإستدارة بسهولة في الحيّز الضيّق وعلى الفور تبعثروا في فوضى عارمة . وتمكن فرسان قليلون من الهرب على الأقدام إلى ضفاف النيل ، لا لشئ إلا ليغرقوا في مياهه . وتمكن قليلون آخرون من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، بينما اشتبك فرسان المعبد في قتال الشوارع ؛ ولم يبق على قيد الحياة من قوامهم البالغ مائتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . واحتمى روبرت كونت أرتوا مع حرسه الخاص في أحد المنازل ، لكن المصريين سرعان ما اقتحموا المنزل وقتلوهم جميعا ومن بين الفرسان الذين سقطوا في

---

(٢٣) (المترجم): Arbalest or Arbalist: القوس القذوف: آلة في العصور الوسطى لقذف السهام والحجارة وما إليها.

المعركة إيرل سالزبورى وأتباعه الأنجليز كلهم تقريبا ، ولورد كوسي ، وكونت بربن. وكان بطرس البريتونى معهم في المقدمة ، وأصيب بجرح في رأسه ، لكنه أفلح في الرهب من المدينة على ظهر جواد عائدا وأسرع ينذر الملك.

عبر الجيش الصليبي كله تقريبا البحر الصغير . وما أن علم الملك لويس بالكارثة حتى نظم صف دفاعه الأول على الفور لصد أي هجوم ، بينما أرسل مهندسيه لتشييد جسر من الزوارق على الممر المائي. وترك كتائب الرماة على الجانب الأبعد من القناة كي يغطوا إعادة العبور إذا اقتضت الضرورة، رغم أنه كان شديد التلهف على أن ينضموا إليه . وكما توقع ، سرعان ما خرج المماليك المنتصرون من المدينة وشنوا هجومهم على صفوفه ، وثبت لويس رجاله يصدون الهجوم ، بينما أمطرهم الأعداء بسيول السهام المتساقطة على جنوده ؛ وما أن بدأت سهام المماليك في النفاد ، حتى أمر بهجوم مضاد. ورد فرسانه العرب ، لكنهم سرعان ما أعادوا تشكيل صفوفهم وأعادوا الهجوم بينما حاولت فصائل منهم تعطيل بناء جسر الزوارق، وكاد الملك نفسه أن يسقط في القناة من ضغط هجوم الأعداء لولا أن أنقذه هجوم مضاد آخر . وأخيرا اكتمل بناء جسر الزوارق باقتراب مغيب الشمس وعبر عليه الرماة من الجانب الآخر ، وجلب مجيؤهم النصر للملك . وانسحب المصريون مرة أخرى إلى داخل المنصورة؛ وضرب لويس معسكره في الموقع الذي كانوا يعسكرون فيه البارحة . وعندئذ فقط علم من القائم بأعمال السيد الأعظم لفرسان المستشفى بمقتل أخيه ، فانفجرت العبرات من مآقيه[٢٤].

لقد انتصر الصليبيون ، لكنه انتصار باهظ الثمن . ولو أن روبرت كونت أرتوا أحجم عن غارته تلك الطائشة ، لشعروا بأنهم من القوة بحيث يحاولون مهاجمة المدينة فيما بعد برغم أن آلات الحرب التى سوف تتصدى لهم أفضل حالا من آلاتهم . وهكذا لم يكن هناك ما يفعله الصليبيون ؛ وكان الوضع ينذر بالخطر ويذكّرهم بالحملة الصليبية الخامسة ، عندما توقف الجيش المسيحي الذى احتل دمياط في مكان قريب من نفس هذه البقعة وأُجبر على التقهقر في نهاية الأمر . ولم يكن لويس يمنّى النفس الآن بمصير أفضل من ذلك ، ما لم تحدث اضطرابات في البلاط المصرى قد تدفع الحكومة في القاهرة إلى أن تعرض عليه شروطا مقبولة . وفي ذات الوقت حصّن معسكره وعزز

---

(٢٤) Joinville, pp. 71-93; *MS. of Rothelin*, pp. 599-608; Matthew Paris, v, pp. 147-54m ' vi, pp. 191-3; al-Aini, p.208.

جسر القوارب . وكان ذلك تصرفا حكيما؛ إذ بعد ثلاثة أيام هاجم المصريون مرة أخرى يوم ١١ فبراير بعد أن وصلتهم التعزيزات من الجنوب فغدوا أقوى مما كانوا عليه . ودارت رحى معركة من أشرس المعارك التي يذكرها رحال مملكة ما وراء البحار (اوتريميه) ؛ ذلك أن المماليك راحوا يشنون الهجوم تلو الآخر ، يطلقون سحبا من السهام في كل مرة يهجمون فيها ، ومرة أخرى يكبح لويس رحالـه إلى أن تحين لحظة الهجوم المضاد . وصمد بثبات تشارلز (أوف أنجو) في الميسرة ، كما صمد بارونات سوريا وقبرص في يسار الوسط ، لكن بقايا فرسان المعبد والنبلاء الفرنسيين كانوا يتأرجحون في يمين الوسط ، واضطر الملك نفسه إلى إنقاذهم كي لا يفقد اتصاله بالميسرة . وكان السيد الأعظم وليم قد فقد عينا في المنصورة ، والآن فقد الأخرى ومات متأثرا بفقدها . وكان ألفونسو (أوف بواتو) يحرس المعسكر ناحية جناحه الأيمن، وحدث أن أحاط به المصريون ولم ينقذه سوى الطبّاخين والنساء من تابعات المعسكر . وأخيرا أُنهك المسلمون وانسحبوا فى نظام تام عائدين إلى المدينة(٢٥).

١٢٥٠م : تورانشاه يتولى قيادة المسلمين

وظل الملك لويس ينتظر في المعسكر أمام المنصورة لثمانية أسابيع ؛ ولم يحدث التمرد المصرى المأمول قط. وبدلا من ذلك وصل تورانشاه ، ابن السلطان الراحل ، إلى معسكر المصريين يوم ٢٨ فبراير . ذلك أنه ما أن سمع من زوجة أبيه بوفاة والده حتى غادر عاصمته دياربكر وسابق الريح إلى الجنوب . وأمضى ثلاثة أسابيع في دمشق حيث نودى به سلطانا ، ووصل القاهرة في أواخر فبراير . وكان وصوله إلى المنصورة بمثابة علامة على نشاط جديد للمصريين . وأمر بصنع أسطول من القوارب الخفيفة نُقلت على ظهور الإبل إلى منافذ النيل السفلى في المنطقة ، حيث انطلقت لتبدأ اعتراض السفن التي تجلب الطعام إلى معسكر الصليبيين من دمياط ، واستولى المصريون على أكثر من ثمانين سفينة فرنجية الواحدة تلو الأخرى ، وفي ١٦ مارس ضاعت قافلة من اثنتين وثلاثين سفينة في ضربة واحدة. وسرعان ما شعر الفرنج بتهديد المجاعة ، وفي أعقاب المجاعة أمراض الدوسنتاريا والتيفود(٢٦).

---

(٢٥) Joinville, pp. 93-5; *MS. of Rothelin,* pp.608-9.

(٢٦) Abu Shama, ii, p. 195; al-Aini, p. 209; Maqrisi, xiii, pp. 220-4; Matthew Paris, vi, pp. 193-4; Joinville, pp. 102-4; *MS. of Rothelin,* pp. 609-12.

وفي بداية ابريل فهم الملك لويس أنّ عليه أن يبذل قصارى جهده لانتشال الجيش من عفن المعسكر والإنسحاب إلى دمياط . وأخيرا ، أخضع نفسه للتفاوض مع الكفرة، وأرسل إلى تورانشاه يعرض استبدال دمياط بالقدس[٢٧] لكن السيف كان قد سبق العذل . إذ عرف المصريون الآن مدى خطورة الوضع الذي يعانيه ؛ وعندما رفض المصريون العرض جمع الملك لويس ضباطه لمناقشة الإنسحاب ؛ فتوسلوا إليه أن يتسلل هو نفسه مع حرسه الشخصي إلى دمياط ، لكنه رفض في كبرياء أن يترك رجاله . وتقرر إرسال المرضى بالقوارب في النيل ، وأن يمشي القادرون بطول الطريق الذي جاءوا من خلاله . وهُدم المعسكر صباح ٥ ابريل ١٢٥٠م وبدأت رحلة العذاب والملك في المؤخرة يشجّع المتفرقين . وشاهد المسلمون في المنصورة هذه الحركة فانطلقوا يتعقبونهم . ووجدوا الفرنج جميعا قد عبروا البحر الصغير ، لكن المهندسين فاتهم تدمير جسر القوارب ، فهرعوا يعبرونه وسرعان ما راحو يناوشون الفرنج من جميع الجوانب ؛ وطوال ذلك اليوم صد الصليبيون الهجمات أثناء تحركهم البطئ . وكانت شجاعة الملك نفسه تفوق كل ثناء . لكنه سقط مريضا تلك الليلة ، وفى الصباح التالى استطاع بجهد جهيد أن يثبت على حواده . وأثناء الحركة المتثاقلة في ذلك اليوم أغلق المسلمون الدائرة حول الجيش وهاجموا بكامل قواتهم ؛ ولم يحاول الجنود المرضى والمرهقون مقاومتهم إلاّ فيما ندر . لقد كان واضحا أن النهاية قد حلّت . وكان جيوفرى (أوف ساجين) يقود الحرس الشخصي الملكى ، وفى خضم القتال أخذ الملك إلى كوخ في قرية منية الخولى عبدالله الواقعة إلى الشمال مباشرة من شرمساح . وكان قبول الهزيمة فوق احتمال فرسان الفرنج ؛ فتولى بارونات أوتريميه القيادة وأرسلوا فيليب (أوف مونتفورت) للتفاوض مع الأعداء . وكاد فيليب أن ينجح في اقناع القادة المصرين بالسماح للجيش بالمضى في أمان مقابل تسليم دمياط ، لولا أن انطلق على حواده واحد من مساعدى الفرسان يدعى مارسيل بين صفوف المسيحيين – وقد رشاه المصريون على ما يُظن – صائحا في القادة باسم الملك أن يستسلموا دون شرط . وأطاعوا الأوامر التي لم يكن لويس نفسه يعرف عنها شيئا ، وألقوا أسلحتهم ، وأحيط بالجيش كله واقتيد في الأسر. وفي ذات الوقت تقريبا حوصرت السفن التى تحمل المرضى إلى دمياط وتم الإستيلاء

---

(٢٧) Matthew Paris: يتحدث ماثيو باريس عن عروض مبكرة للسلام عرضها السلطان ورفضها الملك بناء على نصيحة روبرت (اوف أرتوا)v, pp. 87-8, 105 أو بناء على نصيحة المندوب البابوى.v, p. 143ويرد عرض الملك لويس في . Joinville, pp. 106-7 ووصلت الى أوروبا شائعة بأن لويس قد استولى على القاهرة.(*ibid.* p. 118, vi, p.117)

عليها[٢٨].

١٢٥٠م : لويس في السجن

وتحير المصريون بادئ الأمر في أمر أعداد أسراهم الغفيرة . ونظرا لإستحالة حراستهم جميعا، اعدموا على الفور من لم يقو على المشي من الضعف ، وظل المصريون على مدى أسبوع يأخذون كل مساء ثلاثمائة لتضرب أعناقهم بأوامر السلطان نفسه . ونقل الملك لويس من فراش مرضه وأودع مكبلا بالسلاسل في منزل خاص في المنصورة . واحتفظ المصريون بزعماء البارونات معا في سجن كبير . ودأب آسروهم على تهديدهم بالقتل ، لكنهم في الواقع لم تتوفر لديهم النيّة لقتل أى فرد قد يفتدى نفسه بفدية كبيرة . وكان جوانفيل على ظهر إحدى السفن الأسيرة ، وأنقذ حياته وحياة رفاقه بأن جعل من المفهوم أنه ابن عم الملك ؛ وعندما استجوبه أمير البحر المصرى عن ذلك ، وعلم منه أن ذلك غير صحيح وانما هو في الواقع ابن عم الامبراطور فريدريك ، ارتفعت شهرته ارتفاعا كبيرا.

وواقع الأمر أن مهابة الامبراطور فريدريك، ذلك الكافر، فعلت الكثير للتيسير على الصليبيين . ذلك أنه عندما أمر السلطان لويس في سجنه التخلى لا عن دمياط فحسب وإنما عن كافة الأراضي الفرنجية في سوريا ، رد لويس بأنها ليست تابعة له وانما للملك كونراد ابن الامبراطور ، وأن الامبراطور وحده هو الذي يستطيع التخلي عنها . ولذا سحب المصريون الإقتراح على الفور . على أن الشروط التي انتزعوها من الملك كانت قاسية للغاية ؛ إذ كان عليه أن يفتدى نفسه بالتخلى عن دمياط وأن تكون فدية جيشه دفع خمسمائة ألف جنيه تورى[٢٩]، أي مليون بيزنت . لقد كان مبلغا باهظا ، لكن أعداد الأسرى كانت هي الأخرى غفيرة . وما أن تم الإتفاق علىالشروط حتى أُخذ الملك والبارونات البارزين على ظهر قوادس أبحرت بهم في النهر إلى فارسكور حيث كان السلطان قد اتخذ مكان اقامته . وكانت الترتيبات تقضى بأن يواصلوا رحلتهم إلى

(٢٨) Joinville, pp. 107-10; *MS. of Rothelin*, pp. 612-16; William of Nangis, p. 376; William of Saint-Pathus, pp. 74-5; Matthew Paris, v, pp. 157-9, 165-8, vi, pp. 193-7; al-Aini, pp. 209-13; Maqrisi, xiii, p. 227; Abu'l Feda, p. 128.

(٢٩) (المترجم) Pound Tournoi :جنيه تورى :عملة نقدية فرنسية قديمة سُكّت في مدينة تور

دمياط لتسليمها بعد يومين ، يوم ٣٠ ابريل[٣٠].

لم تكن تلك المساومة لتتم قط لولا تجلّد الملكة مرجريت . ذلك أنه عندما تركها الملك للزحف على المنصورة كانت على وشك أن تضع مولودها ؛ وولد المولود على يد فارس شَخطي الثمانين من عمره كقابلة ، وذلك بعد ثلاثة أيام من مجيئ أنباء استسلام الجيش . فسمّت ابنها الصغير جون تريستان ، أي طفل الأسى . وفي نفس ذلك اليوم علمت أن أبناء بيزا وجنوا يعدون العدة للجلاء عن دمياط لعدم كفاية ما تبقى من طعام لأفواه السكان ، وهي تدرك أنها لا تستطيع الصمود في دمياط دون مساعدة الإيطاليين ، فاستدعت زعماءهم إلى جانب فراشها لمحاجاتهم ؛ فلو هُجرت دمياط ، فلن يبق شئ يمكن تقديمه لإطلاق سراح الملك ، وعندما اقترحت عليهم أن تشتري هي نفسها كل الطعام في المدينة والإشراف على توزيعه وافقوا على البقاء . وكلّفها الشراء ما يزيد على ثلاثمائة وستين ألف جنيه ، لكنها أنقذت معنويات المدينة . وما أن أصبحت في حالة تسمح لها بالسفر حتى أصر تابعوها على نقلها بحرا إلى عكا ، بينما ذهب البطريق روبرت بمرور آمن إلى السلطان في فارسكور لإستكمال الترتيبات المتعلقة بالفدية[٣١].

١٢٥٠م : مقتل تورانشاه

وتأخرت المفاوضات النهائية شيئا ما ، إذ وصل البطريق فوجد السلطان ميتا . ذلك أنه في يوم الإثنين ٢ مايو كان السلطان وأسراه لا يزالون في فارسكور . وفي ذلك اليوم أقام السلطان مأدبة لأمرائه، على أنه خسر تأييد المماليك . إذ أن أهميّة وقوة هذا الجيش الضخم من الأتراك والجراكسة قد تعاظمت أثناء حكم أيوب الذي كان يشملهم برعايته فكافؤه بإخلاصهم له ، ونتيجة لتأييدهم للسلطانة شجرة الدر بقي التاج على رأس تورانشاه . لكنه الآن سلطان انتصر على الفرنج ، فشعر هو نفسه أنه من القوة بحيث يملأ الحكومة بذوى الحظوة لديه من الجزيرة ؛ وعندما اعترض المماليك،

---

(٣٠) Joinville, pp. 110-22; *MS. of Rothelin*, pp. 616-18; Matthew Paris, v, pp.1604, vi, pp. 196-7 و(يقول كاتب هذه الرسالة، وهو من فرسان المستشفى)، "إن أملنا الوحيد يكمن في فريدريك al-Aïni, pp. 213-14;)"

(٣١) Joinville, pp. 142-4.

رد عليهم بتهديدات لفظها وهو في حالة من السكر . وفي ذات الوقت أساء إلى زوجة أبيه بأن طالبها بممتلكات كانت لأبيه. فكتبت من فورها إلى قادة المماليك لحمايتها.

وعندما نهض تورانشاه لمغادرة المأدبة يوم ٢ مايو ، انقض عليه جنود من المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقداري ونزلوا عليه ضربا بسيوفهم ؛ فهرب جريحا إلى برج خشبي على ضفة النهر ، وعندما تبعه الجنود وأشعلوا النيران فى البرج الخشبى ، قفز في النيل ووقف في الماء متوسلا الرحمة عارضا التخلى عن السلطنة والعودة إلى الجزيرة ؛ و لم يلتفت أحد إلى توسلاته ، وإنما أطلقوا عليه سربا من السهام فشلت في قتله ، فقفز بيبرس اليه في الماء وقضى عليه بخنجره . وظل جثمانه الممزق الأوصال ثلاثة أيام دون أن يُدفن ، وأخيرا حصل سفير الخليفة البغدادى على إذن من المماليك بدفنه في قبر بسيط . وعيّن المتآمرون المنتصرون زعيم قادة المماليك عزالدين أيبك قائدا عاما ووصيًا ، وتزوج الأرملة المسنّة السلطانة شجرة الدر التي تمثّل الشرعية . وفيما بعد نودي بالطفل الأشرف موسى ، وهو من أبناء عمومة السلطان الراحل ، سلطانا مشاركا لا لشئ سوى أن يُخلع بعد أربع سنوات ، ولم يُعرف مصيره النهائى(٣٢).

عندما وصل البطريق العجوز من دمياط بمرور آمن موقّع من تورانشاه ، زعمت الحكومة الجديدة أن التوقيع لا قيمة له وعاملته كأسير . وذهب بعض المماليك إلى الملك لويس وسيوفهم ما تزال ملطّخة بالدماء طالبين منه الأموال مكافأة لهم على قتل عدوه ؛ وتفكّه آخرون تفكّها مقيتا بأن راحوا يشهرون سيوفهم في وجوه النبلاء الأسرى ، وأصيب المؤرخ جوانفيل بالروع الشديد . على أنه لم يكن في نيّة المماليك التخلّى عن الفدية الكبيرة ، فأكّدوا الشروط السابقة التي تقضى بالإفراج عن الملك بعد استسلام دمياط ، غير انه ينبغى للجنود العاديين من الأسرى ، وبعضهم نُقل إلى القاهرة ، الإنتظار في الأسر إلى أن يتم دفع المال الذى خفّض مبلغه إلى أربعمائة ألف جنية تورى، يدفع نصفه في دمياط والنصف الآخر لدى وصول الملك إلى عكا . وعندما طلبوا من الملك أن يقسم على أنه لم ينفذ الشروط فسوف يرتد عن ديانة المسيح رفض رفضا حازما ، وطوال فترة بقائه في الأسر كان لما أظهره من اعتزاز بالنفس وثبات أثره العميق على آسريه ، حتى أن بعضهم اقترح متمازحا أن يكون هو سلطانهم التالى(٣٣).

(٣٢) Maqrisi, xiii, pp. 230-2; Abu'l Feda, p. 129; Abu Shama, pp. 198-209; Ibn Khallikan, iii, p. 248. وعن الأشرف موسى ، أنظر أدناه ص ٣٦٣.

(٣٣) Joinville, pp. 123-32; William of Nangis, p. 381; William of Saint-Pathus, pp. 23, 58, 75-6; *MS. of Rothelin*, pp. 618-19; al-Aini, p. 213.

وفي يوم الجمعة ٦ مايو ١٢٥٠م ذهب جيوفري (أوف سارجين) إلى دمياط وسلّم القلعة لطلائع المسلمين ، وأحضر الملك بعد ظهر ذلك اليوم ، وشرع الملك في البحث عن الأموال لدفع القسط الأول من الفدية . غير أن ما كان لديه من أموال في خزانته الخاصة لم يجاوز مائة وسبعين ألف جنيه، فتقرر أن يستبقي المصريون معهم أخا الملك ، ألفونسو كونت بواتو ، إلى أن يتم العثور على الباقي . وكان معروفا أن لدى فرسان المعبد مقادير هائلة من الأموال في قادسهم ، وكان التهديد بالعنف هو الوسيلة الوحيدة التي انتزعت موافقتهم على دفع المطلوب على مضض . وبعد تسليم المبلغ كله إلى المصريين أطلق سراح كونت بواتو. وفي المساء أبحر الملك والبارونات إلى عكا التي وصلوها بعد رحلة عاصفة استمرت ستة أيام . ولم تكن على سفينة الملك ملابس مهيأة ولا فراش ، واضطر إلى وضع ردائه والنوم على الحشيّة التي كان ينام عليها في السجن[٣٤].

وتخلف الكثير من الجرحى في دمياط ، فتلهم المسلمون عن آخرهم على خلاف ما وعدوا به[٣٥].

١٢٥٠م : لويس يبقى في الشرق

بعد وصول لويس إلى عكا مباشرة استشار أتباعه حول خططه للمستقبل . قد كاتبته أمه من فرنسا تحثه على الإسراع في العودة ؛ إذ قيل إن هنرى ملك انجلترا سائر على درب الحرب ، فضلا عن الكثير من المشاكل الأخرى العاجلة . غير أنه كان لديه شعور بأن وجوده مطلوب في مملكة ما وراء البحار ، ذلك أن كارثة الحملة المصرية لم تدمّر جيشا فرنسيا فحسب ، وإنما سلبت اوتريميه جنودها جميعا أو كادت فضلا عن أن واجبه يفرض عليه البقاء حتى إطلاق سراح آخر السجناء في مصر . ونصحه إخوته وكونت فلاندرز بالعودة إلى فرنسا ، غير أنه كان قد عقد العزم على البقاء . وفي ٣ يولية أعلن عن قراره؛ وبإمكان إخوته ومن يرغب في الرحيل العودة إلى الوطن ، لكنه ماكث وسوف يُلحِق بخدمته الشخصية كل من يتوفر لديه الإستعداد للبقاء معه ، مثل جوانفيل . وأرسل رسالة إلى بارونات فرنسا يشرح فيها قراره ويرجوهم إرسال

---

(٣٤) Joinville, pp. 135-8; *MS. of Rothelin*, pp. 619-20.

(٣٥) *MS. of Rothelin*, p. 620.

التعزيزات للحملة الصليبية ؛ إذ قد شعر شعورا مريرا بفشل جهوده الضخمة . وراقه أن يعلن أن الكارثة بمثابة علامة على فضل الرب أرسلها كي يعلمه التواضع ، وكان عليه أن يفكّر في أنه قد دفع ثمنا لفضل هذا الدرس آلافا مؤلّفة من الأرواح البريئة(٣٦).

وأبحر إخوة الملك مع أبرز نبلاء الحملة الصليبية من عكا في نحو منتصف يولية تاركين وراءهم كل ما يستطيعون الإستغناء عنه من أموال ، لكنهم تركوا نحوا من ألف وأربعمائة رحل لا غير(٣٧). وبقيت الملكة مع الملك ، الذي قُبل على الفور حاكما فعليا للمملكة . وكان تاج المملكة من الناحية الشرعية ما يزال يخص كونراد الألماني ؛ لكن الواضح بجلاء أن كونراد لن يأتي البتّة إلى الشرق الآن . وبموت أليس القبرصية انتقلت الوصاية إلى ابنها الملك هنرى الذي عيّن ابن عمه ، جون كونت أرصوف ، وكيلا للمملكة ؛ وقد أسعده تسليم الحكومة إلى لويس(٣٨).

أسفر رحيل أتباع لويس الفرنسيين عن مزيد من استداده للإصغاء للنصح. فقد وسّعت التجربة من مداركه ، وعلّمه افتقاره إلى القوات المسلحة الحاجة إلى وجود علاقات دبلوماسية مع الكفرة ، ووجده بعض أصدقائه أنه ينزع إلى اتباع سياسة حمقاء، لكنه لم يكن ليفعل ذلك والدبلوماسية مواتية في هذه اللحظة. ولم تلق ثورة المماليك في مصر قبولا حسنا من مسلمي سوريا حيث تواصل الولاء للأيوبيين ؛ فعندما وصلت أنباء موت تورانشاه ، انطلق الناصر يوسف صاحب حلب من حمص جنوبا، وفي ٩ يولية احتل دمشق حيث استُقبل استقبالا حماسيا على أنه ابن حفيد صلاح الدين. ومرة أخرى تعود الخصومة المريرة بين القاهرة ودمشق ، وتلهفت كلتاهما على شراء المساعدة من الفرنج ؛ فلم يكد لويس يصل إلى عكا حتى جاءته سفارة من الناصر يوسف . بيد أن لويس لم يكن ليلزم نفسه على الرغم من أن التحالف مع دمشق قد يكون مستصوبا من الناحية الاستراتيجية ، فعليه أن يفكر في الأسرى الفرنج المحتجزين في مصر(٣٩).

وفي شتاء عام ١٢٥٠م بدأ جيش دمشق يغزو مصر ، وفى ٢ فبراير ١٢٥١م لقي

---

(٣٦) Joinville, pp. 145-57; William of Nangis, p. 383; William of Saint-Pathus, pp. 91-2; Matthew Paris, v, pp. 173-4.

(٣٧) Joinville, p. 157.

(٣٨) لم يتحدد وضع لويس القانوني مطلقا ، غير أنه كان مقبولا بوضوح كسلطة عليا في غيبة كونراد

(٣٩) Abu Shama, ii, p. 200; Abu'l Feda, p. 131; Ibn Khallikan, ii, p. 446; Joinville, p. 158.

الجيش المصري بقيادة أيبك عند العباسية في الدلتا، التي تبعد عن الزقازيق الحالية اثني عشر ميلا إلى الشرق . وفي بداية الأمر حقق السوريون بعض النجاح رغم أن كتيبة أيبك نفسه كانت صامدة ؛ لكن كتيبة من المماليك في جيش الناصر يوسف تخلت عن قضيته في أتون المعركة ، وعلى الأثر استدار الناصر يوسف ، الذي لم يُظهر شجاعة تُذكر ، موليا الأدبار . وهكذا انقذت سلطة المماليك في مصر . غير أن فلسطين وسوريا ما زالتا في قبضة الأيوبيين . وعندما أرسل الناصر يوسف بعد ذلك إلى عكا يلمّح بأنه قد يتنازل عن القدس لقاء مساعدة الفرنج ، أرسل لويس سفارة إلى القاهرة يحذر أيبك من أنه ما لم تتم تسوية مسألة الأسرى الفرنج على وجه السرعة فسوف يتحالف مع دمشق . وأفلح سفيره جون (أوف فالينسين) خلال زيارتين في ضمان الإفراج عن الفرسان أولا، بمن فيهم السيد الأعظم لفرسان المستشفى الذى أسر في غزة عام ١٢٤٤م ، ثم الإفراج ثانيا عن حوالي ثلاثة آلاف ممن أُسروا حديثا ، في مقابل الإفراج عن ثلاثمائة أسير مسلم لدى الفرنج . وأظهر أيبك تلهفا متزايدا على مصادقة الملك بأن أرسل اليه مع الدفعة الثانية فيلا و حمارا وحشيا كهدية ، فتجرأ لويس وطلب الإفراج عن جميع الأسرى المتبقين في أيدى المماليك دون أية مدفوعات أخرى . وعندما تحقق أيبك من أن لويس أرسل إلى بلاط دمشق مبعوثه يبف البريتوني الذي يتحدث العربية ، وافق على طلب الملك في مقابل تحالف عسكرى ضد الناصر يوسف . وتجاوز ذلك إلى الوعد بأنه ما أن يحتل المماليك فلسطين ودمشق فسوف يعيدون إلى المسيحيين كامل مملكة القدس القديمة حتى الأردن شرقا . ووافق لويس ؛ وأطلق سراح جميع الأسرى في نهاية شهر مارس ١٢٥٢م . وكاد فرسان المعبد أن ينسفوا المعاهدة برفضهم قطع علاقاتهم مع دمشق ؛ فاضطر الملك إلى زجرهم علنا وطلب اعتذارا متّضعا(٤٠).

١٢٥٣م : الخليفة يحقق السلام بين أمراء المسلمين

ولم يسفر التحالف الفرنجي المملوكى عن شيء. ذلك أنه ما أن سمع به الناصر يوسف حتى أرسل الجنود إلى غزة لقطع الإتصال بين الحلفاء ؛ فسار لويس جنوبا إلى يافا ، لكن المماليك لم يتقدموا خارج مصر . وظل السوريون والفرنج بلا حركة نحوا من عام ، وكل منهما عازف عن إشعال معركة . وفي ذات الوقت أصلح لويس

(٤٠) Abu Shama, *loc. cit.*; Abu'l Feda, *loc. cit.*; Joinville, pp. 158-60; *MS. of Rothelin*, pp. 624-7; Matthew Paris, v, p. 342.

تحصينات يافا بعد أن سبق أن أصلح تحصينــات عكـا وحيفـا وقيســارية(٤١). وفي وقـت مبكر من عام ١٢٥٣م ناشد الناصر يوسف بغداد للتوسط بينه وبـين المماليك . وكـان الخليفة المستعصم متلهفا على توحيد العالم الإسلامي أمام المغـول ؛ فحـث أيبـك الـذي كان يعترف بسطانه الإسمي على قبـول شـروط النـاصر يوسـف . وتقـرر قبـول أيبـك حاكما لمصر والسماح له بضم فلسطين حتى الجليل شمـالا والأردن شـرقا . وتم التوقيـع على معـاهدة السـلام في إبريـل ١٢٥٣م وأمسـت ترتيبـات أيبـك مـع الفرنـج في طـي النسيان(٤٢).

واتخذ الجيش الدمشقي طريقه مـن غـزة عـائدا إلى وطنـه مخترقـا الأراضـي الفرنجيـة ومغيرا عليها . وكانت المدن من القوة بحيث تتعذر مهاجمتها فيما عدا صيدا حيـث كـان يجرى إعادة تشييد أسوارها . ورغـم أن الدمشقيين لم يحاولوا مهاجمة قلعتها الواقعة علـى جزيرتها الصغيرة ، إلا أنهم خربوا المدينة وانسحبوا محمّلين بالأسلاب والأسرى . وثـأر الملك لويس بتسيير حملة للإغارة على بانياس لم يصادفها النجاح . ولحسن طـالع مملكـة ما وراء البحار لم يُظهر أيبك ولا الناصر يوسف أية رغبة جدية في الحرب(٤٣).

ويُعزى إحجامهما بدرجة كبيرة إلى وجود ملك فرنسا في الشـرق . فعلـى الرغـم من سجله العسكرى المفجع فقد كان لشخصيته أثر واضح. وليس في ذلك مـا يؤسـف عليه ؛ إذ أن الامبراطور فريدريك ، الذي كان لا يزال لإسمه وزن في الدوائر الإسـلامية، مات في ديسمبر ١٢٥٠م في إيطاليا . ولم يرث إبنه كونراد شيئا من هيبته(٤٤).

وفضلا عن ذلك، كان لويس أكثر نجاحا بكثير في التعامل مع قـاطني أوتريميـه مـن فريدريك ، إذ كان ماهرا غير مغرض. واتضحت قيمته بتدخلـه في إمـارة أنطاكيـة ، إذ مات بوهمند الخامس في يناير ١٢٥٢م تاركا ابنتـه بليزانس التـى تزوجـت قبـل وفاتـه بأشهر قليلة من هنرى ملك قبرص الأبتر، وكانت زوجة ثالثة له؛ كما ترك ابنه بوهمنـد البالغ من العمر خمس عشرة سنة الذي استُخلف تحـت وصايـة الأمـيرة المسِنّة لوسـيين الإيطالية . وكانت لوسيين امرأة بـلا فعاليـة ، لم تغـادر طرابلس أبـدا وعهـدت بحكـم

(٤١) Joinville, pp. 167-8, 184-5; *MS. of Rothelin*, pp. 627-8; Matthew Paris, vi, p. 206; al-Aïni, p. 215.

(٤٢) Maqrisi, *Sultans*, i, i, pp. 39,54; Abu'l Feda, p. 132.

(٤٣) Joinville, pp. 197-8; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 440-1.

(٤٤) مات فريدريك يوم ١٣ ديسمبر في فيورنتينو. See Hefele-Leclercq, v, i, p. 1693.

الإمارة إلى أقاربها الرومانيين . وسرعان ما أدرك بوهمند السادس أن أمه لا تتمتع بشعبية ، وتمكن بموافقة لويس من الحصول على إذن من البابا بأنه قد بلغ سن الرشد قبل الموعد القانوني بأشهر قليلة . وبعدما وافق البابا إينوسنت الرابع جاء بوهمند إلى عكا حيث منحه الملك لقب فارس وأُبعدت لوسيين عن السلطة ومُنحت دخلا طيبا عوضا لها . وفي ذات الوقت أكمل لويس المصالحة بين بلاط أنطاكية وبلاط أرمينيا . وكان بوهمند الخامس قد أقام في سنواته الأخيرة علاقات مع الملك هيثوم ؛ على أنه اعتبر الماضي مليئا بالذكريات المريرة، لكن بوهمند السادس لم يكن يحمل مثل هذه الضغينة ؛ وفي ١٢٥٤م ، وبناء على اقتراح لويس ، تزوج إبنة هيثوم ، سبيلا ، وأصبح بدرجة ما تابعا لحميه . ووافق الأرمن على أن يتحملوا نصيبا من مسؤولية حماية أنطاكية(٤٥).

ومات هنرى ملك قبرص يوم ١٨ يناير ١٢٤٣م . ولأن ابنه هيو الثاني كان رضيعا لم يجاوز أشهره الأولى ، فقد طالبت الملكة بليزانس بالوصاية على قبرص والوصاية الإسمية على القدس . وأيدت المحاكم العليا في قبرص في وضعها هناك ، لكن بارونات اوتريميه اشترطوا وجودها شخصيا قبل الإعتراف بها ؛ بينما ظل جون الإيبليني، وهو سيد أرصوف ، وكيلا عن المملكة ؛ وراحت بليزانس تفكر الزواج من ابنه الشاب باليان . وقد واصل الملك لويس في الواقع تسيير شؤون الحكم(٤٦).

١٢٥٢م : التحالف الفرنجي مع الحشاشين

لم يكن هناك من أمل في أن ترسل أوروبا حملة صليبية جديدة . ذلك أن هنرى الثالث ملك انجلترا، الذي سبق أن أخذ الصليب مع كثير من رعاياه في ربيع ١٢٥٠م ، أقنع البابا بالسماح له بتأجيل حملته ورفض إخوة لويس إرسال المساعدة من فرنسا ، إذ كان الرأي العام هناك ساخطا خائب الأمل . فعندما وصلت الأنباء في أول الأمر

(٤٥) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 439, 441-2; *MS. of Rothelin,* p. 624; Joinville, pp. 186-7; Vincent of Beauvais, p.96.

(٤٦) -*Estoire d'Eracles,loc.cit.*; *Assises,*ii,p.420. See La Monte,*Feudal Monarchy,* pp.74 5; Hill, *History of Cyprus,*ii,p.149

ومن غير المحتمل أن كانت بليزانس أكثر من خطيبة لباليان ، إذ عرضت نفسها بعد سنوات قليلة لتكون عروسا لإيدموند (ارل لانكاستر) .(Rymer, *Foedera,* i, p. 341) ولم يُعترف بها رسميا وصية على القدس إلى أن زارت عكا في عام ١٢٥٨

بكارثة المنصورة ، ظهرت حركة جماهيرية هستيرية من الفلاحين والعمال أطلقت على نفسها اسم رعاة الكنيسة الصغار ، وتزعمها شخص غامض أطلق عليه "سيد هنجاريا"، واكتسحت هذه الحركة البلاد تعقد الإجتماعات منكرة البابا ورجال دينه وأخذت على نفسها العهد لإنقاذ الملك المسيحي . ومنحتهم الملكة الوصية بلانش تأييدها أول الأمر ؛ لكن الفوضى تملكتهم بحيث كان لا بد من قمعهم . وقنع النبلاء الفرنسيون بتعليقاتهم المريرة ضد البابا الذي فضّل التبشير بحملة صليبية ضد الامبراطوريين المسيحيين بدلا من إرسال المساعدة لمن يكافحون الكفرة. وبلغت الملكة الوصية بلانش شأوا بعيدا بحيث أعلنت عن مصادرة أملاك أي تابع ملكي يستجيب لمناشدة البابا إينوسنت الرابع من أجل حملة صليبية ضد الملك كونراد في عام ١٢٥١م . لكنها لم تجازف لا هى ولا مستشاروها بإرسال التعزيزات إلى الشرق(٤٧).

وفي سعي الملك لويس فى البحث عن حلفاء ، أقام أكثر العلاقات ودا مع الحشاشين . إذ بعد كارثة دمياط مباشرة أرسل زعيمُهم السوري إلى عكا يطالب بدفع مكافأة له لإتخاذه موقف الحياد ، لكن الملك ردعه قائلا بصرامة أنه دفع لمبعوثيه فى حضور سادة الأنظمة الدينية العسكرية . وقد طلب الحشاشون بصورة خاصة إعفاءهم من الإلتزام بدفع إتاوة لنظام فرسان المستشفى ، ولذا كانت سفارتهم التالية أكثر تواضعا بكثير ، إذ أحضرت معها هدايا نفيسة للملك والتماس تحالف أوثق . وكان لويس على علم بالعداء الذى يكنه الحشاشون الإسماعيليون للمسلمين السنيين، فشجّع لويس توددهم وأرسل اليهم ييف البريتون لترتيب المعاهدة . وافتتن ييف بمكتبة الطائفة التى كانت تحتفظ بها في مسياد ، إذ وجد موعظة مشكوك في صحتها موجّهة من المسيح إلى القديس بطرس الذي يعتبر ، كما أخبرته الطائفة، تجسيدا جديدا لهابيل ونوح وابراهيم . وتم التوقيع على حلف للدفاع المشترك(٤٨).

ومع ذلك ، كان المطمح الدبلوماسي الرئيس للملك لويس هو الفوز بصداقة أكثر أعداء الحشاشين شراسة ـــ المغول . ففى بداية عام ١٢٥٣م ، وصل إلى عكا تقرير بأن أحد أمراء المغول ، وهو سرتق بن باتو، قد تحول إلى المسيحية ، فسارع لويس بإرسال اثنين من الرهبان الدومينيكيين ، وليم (أوف روبروك) وبارثولوميو (أوف كريمونا)

---

(٤٧) Matthew Paris, *Chronica Majora*, v, pp. 172-3, 259-61; Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 57-9.

(٤٨) Joinville, pp. 160-5.

ليحثّا الأمير على الحضور لمساعدة رفاقه المسيحيين في سوريا . بيد أنه لم يكن من سلطة أمير مغولي صغير أن يعقد مثل هذا التحالف الهام[٤٩] وفي الوقت الذي كان الراهبان الدومينيكيان ويرغلان في عمق آسيا قاصدين بلاط الخان الأعظم نفسه ، اضطر لويس إلى مغادرة أوتريميه . إذ ماتت أمه الملكة الوصية بلانش في نوفمبر ١٢٥٢م ؛ وسرعان ما عمّت الفوضى بعد موتها مباشرة . وبدأ ملك انجلترا في إثارة المصاعب على الرغم من قسمه بالذهاب في الحملة الصليبية، ولم يساند أساقفته الذين عهد البابا إليهم بالتبشير بالحملة الصليبية . واندلعت الحرب الأهلية بسبب ميراث كونتية فلاندرز ، وازداد تململ عظماء الأتباع الفرنسيين كلهم . وكان أول واجبات لويس مكرسا لمملكته ، فرتّب وهو كاره للعودة إلى الوطن ، فأبحر من عكا يوم ٢٤ ابريل ١٢٥٤م . وكاد قاربه الملكي أن يتحطم أمام ساحل قبرص ؛ لكن العاصفة هدأت عندما نذرت الملكة سفينة فضية لضريح القديس نيكولاس في فارانجفيل . وبعد أيام قلائل أُنقذ القارب الملكي من دمار النيران بفضل سرعة الملكة . وفي يولية هبطت الصحبة الملكية في هييريس في أراضي أخي الملك ، شارلز (أوف انجو)[٥٠].

تسببت حملة القديس لويس الصليبية في توريط مسيحيي الشرق في كارثة عسكرية مروعة ، وعلى الرغم من أن بقاءه في الشرق لأربع سنوات قد أفاد كثيرا في إصلاح الأضرار ، إلاّ أن خسارة القوة البشرية لم تستعوض تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام الصليبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألا يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لفشله عميق الأثر. ذلك أنه كان رجلا طيبا يخشى الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفي سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُبتلى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبوه من جرائم وشرور ، بيد أنه لم يعد في الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية الهشة. فهل يا ترى قد عبس الرب من الحركة الصليبية برمتها[٥١]؟

---

(٤٩) Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', *loc. cit.* p. 220. Rubruck's *Itinerarium* is translated and edited by Rockhill.

وقد خالطته الشكوك في تحول سرتق الى المسيحية عندما قابله . (*ibid.* pp. 107,116) لكن الأرمن كانوا يعتقدون أن تحوله أصيلا.(Kirakos, trans. Brosset, p. 173)

(٥٠) Joinville, pp. 218-34; William of Saint-Pathus, pp. 29-30; *MS. of Rothelin*, pp. 629-30; Matthew Paris, v, pp. 434-452-4. For Blance's death, on 1 December 1252, see Matthew Paris, v, p. 354.

(٥١) Salimbene, *Chronica*, pp. 235-7, الذي يقول بأنه قد أُعرب عن مثل هذه الشكوك ، وقد

١٢٥٤م : الآثار التي ترتبت على رحيل لويس

على الرغم من أن مجئ الملك الفرنسى إلى الشرق كان مشؤوما ، فقد أسفر رحيله عن ضررمائل. إذ تـرك وراءه جيوفرى (أوف سارجين) كممثل له ومنحه المنصب الرسمى قهرمان المملكة. والآن كان جون الإيبلينى كونت يافا وكيلا للمملكة بعد أن خلف ابن عمه جون أمير أرصوف في المنصب عام ١٢٥٤م ، لكنه أعاده اليه عام ١٢٥٦م . والراجح أن كان جون أمير أرصوف غائبا في قبرص أثناء تلك السنوات مستشارا للملكة بليزانس التي استمرت كوصية شرعية للمملكتين معا[٥٢] وبعد وفاة كونراد الألماني في إيطاليا عام ١٢٥٤م ، انتقل لقب ملك القدس إلى ابنه كونرادين الذي لم يجاوز السنتين ، وقد تذكر قانونيو اوتريميه بكثير من الشك حقوقه الإسمية[٥٣]. وكان الملك لويس قد رتّب قبل رحيله مباشرة عقد هدنة مع دمشق تنتهي في ٢١ فبراير ١٢٥٤م ، لمدة سنتين وستة أشهر وأربعين يوما . والآن غدا الناصر يوسف صاحب دمشق مدركا تماما للخطر المغولى ولم تكن لديه أية رغبة في محاربة الفرنج . وبالمثل رغب أيبك صاحب مصر في تجنب حرب كبيرة ، وعقد في ١٢٥٥م هدنة لعشر سنوات مع الفرنج ، لكنه استبعد يافا صراحة من المدنة إذ كان يعقد الآمال على الحصول عليها كميناء لمقاطعته الفلسطينية[٥٤]. وكانت هناك غارات تعقبها غارات مضادة عبر الحدود . ففي يناير ١٢٥٦م استولى جيوفرى (أوف سارجين) وجون أمير يافا على قافلة ضخمة من الماشية ، وعندما قاد المملوك والى القدس حملة في مارس لمعاقبة المغيرين منى بالهزيمة وقُتل . أما أيبك ، الذى كانت له مشاكله مع قواده ومنهم بيبرس ، فقد عقد معاهدة جديدة مع دمشق ، ثم معاهدة أخرى بوساطة من الخليفة البغدادى ومُنح فلسطين ثانية؛ غير أن القوتين الإسلاميتين جددتا معاهدتيهما مع الفرنج لعشر سنوات وشملتا أراضى يافا[٥٥].

وجّهت الإهانات علانية إلى الإخوة المبنديكانيين الذين كانوا يبشرون بالحملة الصليبية بعد فشلها.

(٥٢) La Monte, *loc. cit.* n. 1.

(٥٣) Matthew Paris, v, pp. 459-60. For Contadin's rights, see below pp. 284-5.

(٥٤) Matthew Paris, v, p. 522; *MS. of Rothelin, p. 630; Annales de Terre Sainte, p. 446*

(٥٥) *MS. of Rothelin*, pp. 631-3; *Annales de Terre Sainte, loc. cit.;* Abu'l Feda, pp. 133-4.

١٢٥٦م : حرب القديس ساباس

إن ما أظهرته القاهرة ودمشق من أناة أملتها عليهما خشيتهما المتعاظمة من المغول، قد أنقذت الفرنج مما كانوا يستحقونه من نتائج حرب أهلية سرعان ما نشبت بعد رحيل الملك لويس مباشرة . ذلك أن شتى التجار الإيطاليين يمثلون الآن أنشط العناصر في مدن مملكة أوتريميه . وباتت تجارة البحر المتوسط تحت سيطرة الجمهوريات الثلاث الكبرى جنوا والبندقية وبيزا بما لها من مستعمرات في كل ميناء شرقي . وإلى جانب الشركات المصرفية التابعة لنظام فرسان المعبد ، كانت التجارة الإيطالية تزود أوتريميه بأغلب إيراداتها ، كما كانت تعود بالنفع بنفس القدر تقريبا على الأمراء المسلمين، الذين يُعزى استعدادهم بدرجة كبيرة للتوقيع على الهدنة من حين لآخر إلى خشيتهم من انقطاع مصدر الربح هذا . غير أن الجمهوريات الثلاث كانت في حالة من الخصومة المريرة. إذ تسببت الإضطرابات بين بيزا وجنوا في تأخير إبحار لويس من قبرص عام ١٢٤٩م ، وفي ١٢٥٠م قتل أحد البنادقة تاجرا من أبناء جنوا ونشب قتال في شوارع عكا[٥٦] . وعندما رحل لويس إلى أوروبا اندلعت الإضطرابات مرة أخرى إذ كان تل مونتجوا في عكا يفصل بين حي البنادقة وحي أبناء جنوا ، وكان ذلك التل ينتمي إلى أبناء جنوا فيما عدا أعلى نتوء له الذي يتوّجه دير القديس ساباس القديم . وادعت كل من المستعمرتين ملكيتها للدير. وفي صباح أحد الأيام أوائل عام ١٢٥٦م ، وبينما كان القانونيون لا يزالون مختلفين حول المسألة ، استولى أبناء جنوا على الدير ، ولمّا احتج البنادقة هرع إلى حيّهم رجال مسلحون من أبناء جنوا هابطين التل ، وسارع إلى الانضمام إليهم أبناء بيزا الذين سبق أن رتّبوا معهم الأمر ؛ وبوغت البنادقة الذين شاهدوا منازلهم تستلب وكذلك سفنهم الراسية على رصيف الميناء . وبجهد جهيد طردوا الغزاة خارج حيّهم مرة أخرى ، بعدما استولى الغزاة على الكثير من سفنهم[٥٧].

وفي تلك اللحظة كان فيليب (أوف مونتفورت)، سيد طورون وصور - الذى اعترض طويلا على حق البنادقة فى امتلاك قرى معينة على مقربة من صور - يظن أن الفرصة سانحة لإخراجهم من ثلث صور الذى كانوا يملكونه بموجب معاهدة عقدت عند الاستيلاء على صور سنة ١١٢٤م، وإخراجهم كذلك من ممتلكاتهم فى الضواحى.

---

(٥٦) *Annales Januenses*, p. 238. See above, p. 260.

(٥٧) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 443; *Annales Januenses*, p. 239; Dandolo, p. 365. See Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, i, pp. 344-54, وذلك للإطلاع على كامل تاريخ "حرب القديس ساباس"

و لم يستطيعوا منعه لانشغالهم في نزاعهم مع أبناء جنوا. وعندما عرضت حكومة جنوا - التي كانت عازفة عن أن تبدأ حربا مع البندقية - التوسط، كان البنادقة على غضب يحول دون قبولهم العرض. وكان القنصل البندقي في عكا، ماركو جوستنياني، دبلوماسيا متمرسا. غير أن تصرف فيليب المتغطرس صدم أبناء عمومته الإبيليين الذين كانوا يتمسكون جميعا بالالتزام بالقانون. وارتاب وكيل المملكة جون أمير أرصوف في أن المونتفورتيين ينتوون في أن يعلنوا استقلال صور عن حكومة عكا. وبرغم أنه لم يكن على ود مع البنادقة، لبرود موقفهم من حملة لويس الصليبية في المقام الأول، فقد نجح جستنياني في اكتسابه إلى جانبهم.. وكان جون أمير يافا على علاقة سيئة فعلا بأبناء جنوا الذين حاول أحدهم اغتياله . وشعرت الجماعات الدينية في عكا بالخطر من أن يُفلح فيليب في تحويل صور إلى منافس تجارى ناجح لمدينتهم عكا ، فأولوا تعاطفهم ومساعدتهم للقنصل جيستينياني الذي كانت خطوته التالية إقناع أبناء بيزا بأن الجنويين ليسوا سوى حلفاء يتصفون بالأنانية وليست الثقة فيهم بمأمونة ، وبذا ضمن تأييدهم . كما انضم إليه التجار من مرسيليا الذين ما فتئوا يشعرون بالغيرة من الجنويين ، وعندئذ انضم إلى الجانب الآخر التجار الكتاليون الغيورون من أبناء مرسيليا . وناصر نظام المعبد والنظام التيوتوني البنادقة ، وانضم نظام المستشفى إلى الجنويين . وفى الشمال ، تذكرت أسرة إمبرياكو ، التي كانت تحكم جبيل ، أصلها الجنوي ؛ وكان زعيمها هنرى قد تشاجر مع سيده بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس ، فتحدى نهى سيده المحدد وأرسل الجنود لمساعدة الجنويين في عكا . وقد حاول بوهمند نفسه التزام الحياد، غير أن عواطفه كانت مع البنادقة ، ودفعته عداوة لإمبارياكو إلى الدخول في الصراح . ولم تستطع أخته الملكة الوصية بليزانس أن تفعل شيئا ، وكان الرجل الوحيد الذي تضع فيه ثقتها في اوتريميه هو جيوفرى (أوف سارجين) ، لكن نفوذه كان ضئيلا لكونه غريبا ولا تتوفر له القوة الفعلية . وبدأت الحرب الأهلية تجتذب مجتمع اوتريميه كله . ولم تعد المسألة مجرد اتحاد البارونات الوطنيين ضد سيد غريب كما كانت الحال أيام فريدريك الثانى ، وإنما ألهبت الخلافات العائلية التافهة أتون الصراع. وكانت أم فيليب أمير مونتفرات ، وزوجة هنرى أمير جبيل تنتميان إلى آل إيبيلين ؛ وكانت جدة بوهمند السادس من آل إمبرياكو . بيد أن عُرى القرابة لم تكن تعني شيئا الآن(٥٨).

وكانت حكومة البندقية سريعة في اتخاذ اجراء . فما أن علم الجنويون بأن أبناء بيزا

---

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 445; Dandolo, pp. 366-7; *Annales Januenses, loc. cit*

قد تخلوا عنهم حتى احتاجوا حي بيزا في عكا فسيطروا على الميناء الداخلي . غير أنهم لم يتوفر لهم الوقت لمد سلسلة لسد المدخل قبل دخول أسطول كبير بقيادة الأدميرال البندقي لورنزو تيبولو ، الذي اقتحمت سفنه السلسلة وهبط الرجال على الرصيف . واندلعت في الشوارع معركة متعطّشة للدماء انتهت بطرد الجنويين مرة أخرى إلى حيّهم الذي يحميه وجود حي فرسان المستشفى شمالهم مباشرة . واحتل البنادقة دير القديس ساباس ، لكنهم لم يستطيعوا طرد الجنويين أو فرسان المستشفى من المباني الخاصة بهم(٥٩) .

١٢٥٨م : الملكة بليزانس في عكا

وفي شهر فبراير ١٢٥٨م أقدمت الملكة الوصية بليزانس على محاولة تأكيد سلطتها؛ فأبحرت من قبرص مع ابنها الملك هنرى الذي لم يجاوز الخامسة من عمره ووصلت إلى أخيها بوهمند في طرابلس حيث صاحبها إلى عكا . وطلب بوهيموند من المحكمة العليا للمملكة أن تقر مطالب ملك قبرص الذي يعتبر الوريث التالى بعد كونرادين المتغيّب ، بالإعتراف به موضع للسلطة الملكية وبأمه حارسة ووصيّة . على أن ما كان يعلقه بوهمند من آمالا فى وقف الحرب بتأكيد سلطة أخته ووجودها استحال سرابا . وما أن أقر الأيبليون بمطالب هيو وبليزانس ، اللذين كانا يتطلعان دائما إلى حقوق الملك كونرادين ، وأذعن فرسان المعبد وفرسان التيوتون ، حتة أعلن فرسان المستشفى على الفور أن لاشئ يمكن تقريره في غيبة كونرادين، متذرعين بالحجج التي دُحِضت عام ١٢٤٣م . وبذا تورطت العائلة الملكية في الحرب الأهلية ؛ فناصر الطرف البندقي بليزانس وابنها، وبسخرية التاريخ اتخذ جانب أبناء جنوا فرسان المستشفى وفيليب أمير مونتفورت ، وهذه الأطراف كلها التي سبق أن عارضت فريدريك الثاني معارضة مريرة، باتت الآن من أنصار آل هوهنشتوفن . واعترفت أغلب الأصوات بالملكة بليزانس وصيّة . وتنازل لها جون أمير أرصوف رسميا عن منصبه كوكيل للمملكة وأعادت تعيينه ثم عادت مع أخيها إلى طرابلس ومنها إلى قبرص بعد أن أصدرت تعليمات لوكيل المملكة الذي عيّنته بمعاملة المتمردين معاملة لا هوادة فيها(٦٠) .

---

(٥٩) Dandolo, *loc. cit.; Annales Januenses, p. 240; Estoire d'Eracles,* ii, p. 447.

(٦٠) *Assises, ii, p. 401; Estoire d'Eracles,* ii, p. 443; *MS. of Rothelin,* p. 643; *Gestes des Chiprois,* pp. 149, 152.

كان بطريق القدس هو جيمس بانتاليون ، ابن إسكافي من تروي . وكان قد عُيّن في ديسمبر ١٢٥٥م ، لكنه لم يصل عكا إلا في صيف ١٢٦٠م عندما نشبت الحرب الأهلية . وأعلن مناصرته - بحق - للملكة بليزانس وناشد البابا في إيطاليا اتخاذ إجراء ؛ فاستدعى البابا ألكسندر الرابع وفودا من الجمهوريات الثلاث للحضور إلى بلاطه في فيربو وأمر بهدنة فورية . وتقرر أن يذهب سفيران مفوضان من البنادقة ومثلهما من أهل بيزا إلى سوريا على متن سفينة جنوية ، واثنان من الجنويين على سفينة بندقية ، وأن تسوى المسألة برمتها. وأبحر المبعوثون في شهر يولية ١٢٥٨م ، لا لشيء إلاّ ليعلما أثناء الرحلة أن السيف قد سبق العذل . ذلك أن جمهورية جنوا أرسلت فعلا أسطولا بقيادة أمير البحر روسّو ديللا توركا وصل أمام صور في يونية حيث انضم إلى أسطول جنوي صغير كان في الشرق . وفي ٢٣ يونية أبحر من صور الأسطول المشترك المؤلف من نحو ثمانية وأربعين قادسا ، وفي ذات الوقت سارت كتيبة جنود جنوب الساحل تابعة لفيليب (أوف مونتفورت) . وكان لدى البنادقة وحلفائهم البيزيين نحوا من ثمانية وثلاثين قادسا بقيادة تيبولو . ونشبت المعركة الفاصلة أمام عكا يوم ٢٤ يونية ، وأثبت تيبولو أنه صاحب التكتيكات الأقوى ؛ وبعد صراع شرس خسر الجنويون أربعا وعشرين سفينة وألفا وسبعمائة رجل وانسحبوا في فوضى عارمة . ولم يتمكن الباقون على قيد الحياة من الوصول بأمان إلى عكا إلا عندما هبت فجأة نسمة جنوبية . وفي الوقت ذاته صدت ميليشيا عكا تقدم فيليب وخرَّب الحي الجنوي داخل المدينة . وقرر الجنويون بعد هزيمتهم أن يهجروا عكا كلية وأن ينشئوا مقرا لهم في صور(٦١).

وفي ابريل ١٢٥٩م أرسل البابا مندوبا له إلى الشرق ، توماي آني (أوف لينتينو) ، وهو الأسقف الشرفي للقدس ، يحمل أوامر بتسوية النزاع . وفي نفس الوقت على وجه التقريب مات وكيل المملكة جون أمير أرصوف ؛ وجاءت الملكة بليزانس إلى عكا مرة أخرى ، وفي أول مايو عيّنت وكيلا للمملكة جيوفري (أوف سارجين) الذي كان ذا شخصية تحظى بالإحترام وكان أقل إثارة للجدل ، وتعاون مع المندوب البابوي لضمان الهدنة . وفي يناير ١٢٦١م اجتمعت المحكمة العليا بحضور مندوبين عن المستعمرات الإيطالية وتوصلت إلى اتفاق يقضي بأن يكون للجنويين مقرهم في صور ، وللجنويين والبنادقة مقرهم في عكا ؛ وأجريت مصالحة رسمية بين المتحاربين من النبلاء والبنادقة والبيزيين . على أن الإيطاليين لم يعتبروا الإتفاق نهائيا قط . وسرعان ما نشبت الحرب

---

(٦١) Dandolo, p. 367; *Annales Januenses*, p. 240; *Gestes des Chiprois*, pp. 153-6; Raynald, xxii, pp. 30 ff.; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 445.

بينهم وتواصلت ، مما ألحق الضرر بالتجارة كلها وبالنقل البحرى بطول الساحل السورى[٦٢].

١٢٦١م : البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية

كما لحق الضرر بالفرنج البعيدين إلى الشرق عبر الحدود السورية . إذ أن امبراطورية القسطنطينية اللاتينية المتأرجحة لم تكن لتبقى إلاّ بمساعدة الإيطاليين الذين كانوا يخشون ضياع امتيازاتهم التجارية . وكانت البندقية حريصة بصورة خاصة على بقائها ، لما لها من ممتلكات في القسطنطينية نفسها وفي جزر بحر إيجة . ولذا ساندت جنوا امبراطور نيقية اليوناني القوي ميخائيل بالايولوجوس مساندة فعالة . وكان ميخائيل قد أحرز نصرا مؤزرا عام ١٢٥٩م في بيلاجونيا بمقدونيا حيث أسر أمير أخيًا وليم (أوف ويلهاردوين) وجميع باروناته وأجبره على التنازل عن قلاع ماينا وميسترا و مونيمفاسيا ، وهي القلاع التي تسيطر على النصف الشرقي من شبه الجزيرة ؛ وبذلك أرسى ميخائيل فعلا دعائم استعادة بيزنطة لشبه الجزيرة اليونانية . وفي مارس ١٢٦١م وقّع ميخائيل معاهدة تقضي بمعاملة أبناء جنوا معاملة تفضيلية في سائر أراضيه حاليا ومستقبلا . وفي ٢٥ يولية، وبمساعدة الجنويين ، دخل جنوده القسطنطينية . لقد وصلت الامبراطورية اللاتينية، وليدة الحملة الصليبية الرابعة، إلى نهايتها ، ولم تفعل للشرق الفرنجي شيئا سوى الضرر[٦٣].

وهكذا كان استعادة البيزنطيين للقسطنطينية وانهيار الإمبراطورية اللاتينية نتيجة لحرب بدأت حول دير قديم في عكا. لقد كانت ضربة موجعة للمهابة اللاتينية والبابوية، وانتصارا لليونانيين . على أنه حتى باستعادة بيزنطة لعاصمتها ، فإنها لم تعد الامبراطورية العالمية كعهدها في القرن الثاني عشر ؛ فما هي الآن إلا دولة بين دول كثيرة . فإلى جانب الإمارات اللاتينية المتبقية ، هناك الآن مملكتان قويتان بلغارية وصربية في البلقان ؛ وفي الأناضول ، وعلى الرغم من تعجيز المغول للسلطنة

---

(٦٢) Tafel-Thomas, *Urkunden*, iii, pp. 39-44; *Gestes des Chiprois*, p. 156; *Annales des Terre Sainte*, pp. 448-9.

(٦٣) For the recapture of Constantinople, see Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 538-9. The chief Byzantine sourses are Pachymer, pp. 140 ff., and George Acropolita, i, pp. 182 ff.

السلجوقية، فلا أمل هناك البتّة في زحزحة الأتراك ، وقد أدى امتلاكهم لوطنهم القديم في واقع الأمر إلى إضافة المزيد من المشاكل للأباطرة بدلا من تقريبتهم . وكان أبناء جنوا، أهم المستفيدين، قد هُزموا في سوريا ؛ لكن تحالفهم مع بيزنطة مكّنهم من السيطرة على تجارة البحر الأسود التي كانت تتزايد في حجمها وأهميتها في الوقت الذى طورت فيه الغزوات المغولية طرق القوافل عبر آسيا الوسطى(٦٤).

وفي مملكة الشرق الفرنجي تمكن جيوفرى (أوف سارجين) ، تسانده ما كان لذكرى القديس لويس من مهابة ، من استعادة بعض النظام بين بارونات المملكة . وماتت الأعمال العدوانية النشيطة على البر ، رغم أن الملاحين الإيطاليين قد يواصلون القتال ؛ بيد أنه لم تكن هناك عودة للصداقة القديمة بين آل مونتفرت وآل إبلين . ولم يخفف نظاما المعبد والستشفى من عدائهما التقليدي ؛ بينما يئس النظام التيوتوني من مستقبل سوريا ، فبدأ يركز جل اهتمامه في شواطئ البلطيق البعيدة ، حيث مُنح فيها الأراضي والقلاع منذ عام ١٢٢٦ قدُما لقاء مساعدته في ترويض وتحويل الوثنيين من البروسيين والليفونيين(٦٥).

ولم تتسع سلطة جيوفري لتمتد إلى داخل كونتيّة طرابلس . إذ أن ما كان يحمله بوهمند من مقت لتابعه هنرى أمير جبيل اتّقد وتحول إلى حرب ؛ فلم ينكر هنرى سيادة بوهمند ويوطد نفسه بمساعدة الجنويين في استقلال كامل ، وإنما قام ابن عمه برتراند ، زعيم الفرع الأصغر من عائلة إمبرياكو ، بمهاجمة بوهمند في طرابلس نفسها . وكانت الأميرة المسنة لوسين ، عندما خُلعت من الوصاية ، قد تمكنت من إبقاء الكثير من المقربين اليها من الرومان في مناصب هامة في الكونتية ، مما أثار حفيظة البارونات الوطنيين الذين وحدوا متمثلين في برتراند إمبرياكو – الذي يمتلك ضياعا كبيرة في جبيل وحولها – وزوج ابنته جون أمير أنطاكية وهو لورد البطرون ومن أبناء العمومة الثانية لبوهمند . وفي ١٢٥٨م زحف البارونات على طرابلس حيث يقيم بوهمند

---

(٦٤) See Heyd, i, pp. 427 ff.

(٦٥) (Translation): Prussians and Livonians:

(المترجم): البروسيون Prussians ، نسبة الى بروسيا وهي منطقة تاريخية شمالي ألمانيا ، تحولت الى مملكة شمالي أوروبا (١٧٠١-١٨٧١) والمركز المهيمن للإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٩)، وانتهت رسميا عام ١٩٤٧م . والليفونيون Livonians نسبة الى ليفونيا Livonia ، وهي مقاطعة سابقة تابعة لبروسيا (١٧٨٣-١٩١٨) تقع على خليج ريجا ، وقسّمت عام ١٩١٨م بين لاتفيا واستونيا.

(Author's note): For the Teutonic Order, see Strehlke, *Tabulae Ordinis Teutonici*

وحاصروا المدينة ، وخرج اليهم برهمند في رجاله لكنه هُزم وجُرح في كتفه بواسطة برتراند نفسه ، وأجبر على البقاء محاصرًا في عاصمته الثانية إلى أن خف فرسان المعبد لنجدته . وتحرق شوقا إلى الثأر . وفي يوم ما ، وأثناء أن كان برتراند على جواده مخترقا إحدى قراه ، انقض عليه فجأة بعض القرويين المسلحين وقتلوه . وقُطعت رأسه وأرسلت هدية إلى بوهمند الذي لم يتشكك أحد في تحريضه على القتل ، ولقد كان ذلك الإغتيال بمثابة عامل مساعد مؤقت لتحقيق غرضه ؛ إذ ارتعب المتمردون وانسحبوا إلى جبيل . بيد أنه قد أصبحت هناك الآن ثارات دماء بين بيتي أنطاكية وإمبرياكو[٦٦].

وفي ١٢٦٣م انتهت حكومة جيوفري (أوف سارجين) . إذ ماتت الملكة القبرصية بليزانس في سبتمبر ١٢٦١م ، ولقيت وفاتها أعمق الأسى، فقد كانت سيدة غاية في الإستقامة . وكان ابنها هيو الثاني في الثامنة من عمره ، فكان ضروريا وجود وصي جديد لقبرص والقدس . وكان لأبي هيو الثاني - هنرى الأول - شقيقتان تزوجت كبراهما ماريا من والتر (أوف برين) وماتت في شبابها تاركة ابنها هيو . وتزوجت صغراهما إيزابيلا من هنرى الأنطاكي أخي بوهمند الخامس ، وهي ما تزال على قيد الحياة . وكان ابنها المسمّى هيو أكبر من ابن خالته هيو (أوف برين) الذي نشّأته ايزابيلا ربيبا مع ابنها. وعلى الرغم من أن هيو (أوف برين) كان الوريث التالى للعرش، فقد كان عازفا عن منافسة خالته وابنها من أجل الوصاية ؛ وبعد مداولات جرت في المحكمة العليا القبرصية ، اعتبرت المحكمة أن وصاية الرجل أفضل من وصاية المرأة ، ولذا أغفلت مطالبة إيزابيلا لصالح ابنها الذي عُيّن باعتباره أكبر أمير تجرى في عروقه الدماء الملكية ؛ وأتيح لمحكمة القدس العليا المزيد من الوقت للتفكير . وظلت الأمور على ماهي عليه حتى ربيع ١٢٦٣م عندما جاءت إيزابيلا إلى عكا مع زوجها هنرى الأنطاكي . واستقبلها النبلاء هناك كوصية فعلية ، لكنهم بعدما لمسوا من جوانب الريبة ما تجاهلوه حتى آنذاك رفضوا أن يقسموا لها قسم الولاء ؛ فلم يكن ذلك ليحدث إلا إذا كان الملك كونرادين حاضرا. واستقال جيوفري (أوف سارجين) من منصب وكيل المملكة، فخلعت الملكة المنصب على زوجها ، وعادت هي نفسها بدونه سعيدة إلى قبرص.

---

(٦٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 157-60. See Rey, "Les Seigneurs de Giblet", in *Revue de l'Orient Latin*, iii, pp. 399-404.

وكان لورد البطرون هو جون وليس وليم كما جاء في index to Mas Latrie's edition of the *Gestes.* وقد قتل أبوه وليم في لافوربي عام ١٢٤٤م.

وماتت في العام التالي في قبرص ، وأصبح منصب الوصاية على القدس شاغرا مرة أخرى. وطالب هيو الأنطاكي ، الوصي على قبرص ، بالوصاية باعتباره ابنها ووريثها ؛ لكن هيو (أوف برين) تقدم بمطالبة مضادة الآن وأعلن أن العرف الفرنسي المتبع في أوتريميه يقضي بأن إبن الأخت الكبرى له الأسبقية على إبن الأخت الصغرى بغض النظر عن الأكبر سنا من ابني الخالتين. واعتبر قضاة أوتريميه أن العامل الحاسم هو القرابة لآخر من شغل المنصب ، وحيث أن إيزابيلا قد قُبلت كآخر وصيّة ، يكون لإبنها هيو الأسبقية على ابن اختها . وأجمع النبلاء وكبار رجال الدولة على قبوله وأعربوا له عن الولاء الذي أنكروه على أمه . وأعلنت الكوميونات والمستعمرات الأجنبية الولاء له ، واعترف به السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى . وعلى الرغم من أن الإيطاليين كانوا لا يزالون يحاربون بعضهم البعض في البحار ، فقد ساد جو عام ، وإن كان مصطنعا ، من المصالحة في المملكة نظرا لنشاط هيو في المقام الأول. إذ لم يعيّن وكيلا للملكة يعمل باسمه في الأراضي الرئيسية ، وإنما كان دائم السفر بين قبرص وعكا. وبينا هو في قبرص عُهد بحكومة الأراضي الرئيسية إلى جيوفري (أوف سارجين) الذي أصبح قهرمانا مرة أخرى ، كما غدت الإدراة في أيدي أناس محترمين ؛ إذ كانت الأخطار تتجمع وتتزايد[٦٧].

١٢٧٠م : آخر حملة صليبية للملك لويس

لم ينس لويس ملك فرنسا الأراضي المقدسة قط . إذ كان يرسل كل عام مبلغا من المال لإعالة مجموعة الجنود الصغيرة التي تركها هناك وراءه في عكا برئاسة جيوفري (أوف سارجين) ؛ ودامت هذه الممارسة حتى بعد موت جيوفري ولويس نفسه . وكان الأمل يراوده دائما في الخروج مرة أخرى في حملة صليبية ، غير أن احتياجات بلده لم تتح له ذلك . ولم يحدث إلا في عام ١٢٦٧م ، عندما كان مرهقا ومريضا، أن شعر بقدرته على الإعداد لحملته الصليبية الثانية ، وبدأ شيئا فشيئا في إعداد الترتيبات الضرورية وجمع الأموال . وفي ١٢٧٠م أصبح على استعداد للإبحار إلى فلسطين[٦٨].

على أن أخا الملك ، تشارلز ، شوّه المشروع الورِع ودمّره . ذلك أنه في عام

(٦٧) See La Monte, *op. cit.* pp.75-7, and Hill, *op. cit.*, ii, pp.151-4 لمناقشة النقاط القانونية والمراجع

(٦٨) Joinville, pp. 210-12.

١٢٥٨م ، عندما كان الـطفل كونرادين ملكا إسميا لصقلية والقدس ، خلعه ابن عمه من السفاح ، مانفريد بن فريدريك الثاني . وكان منفريد قد ورث الكثير مما كان لأبيه من ذهن متقد متغطرس ؛ ولقي نفس القدر من كراهية البابوية . وبدأ البـابوات في البحـث عن أمير بديل يعتلي العرش الصقلي الذي كان تحت سلطتهم بصورة تقليدية . وبعد أن تفكـروا في إدمونـد (أوف لانكاسـتر) ، إبـن هـنري الإنجليزي ، وحـددوا مرشـحهم في شخص تشارلز (أوف أنجو) ، الذي كان على قدر ضئيل مما كان عليه أخوه القديس ؛ إذ كان باردا وقاسيا ومتطرفا في طموحاته ، وكانت زوجته الكونتيسة بياتريس ، وهـي وريثة بروفانس وأخت لثلاث ملكات ، متلهفة على أن تضع تاجا علـى رأسـها . وفي ١٢٦١م ، أصبح بطريق القدس جيمس بانتاليون هو بابا باسم إيربان الرابـع. وسـرعان ما أقنع الملك لويس بأن إزالة آل هوهينشتوفن من صقلية أمر أساسي مطلـوب لنجـاح أية حملة صليبية مقبلة.

ووافق لويس على ترشيح أخيـه ، وفـرض ضرائـب في فرنسـا نيابـة عنـه . ومـات إيربان عام ١٢٦٤م لكن خليفته ، كلمنت الرابع ، وهو فرنسي آخر ، أكمل الترتيبات مع تشارلز الـذي زحـف عـام ١٢٦٥م داخـل ايطاليـا وهـزم منفريـد وقتلـه في معركـة بنيفينتو . ومكّنه النصر من السيطرة على جنوب إيطاليا وصقلية ، وتلقت زوجته التاج الذي كانت تهفو إليه . وبعد ثلاث سنوات بذل كونراديـن جهـودا شـجاعة لإسـتعادة ميراثه الإيطالي ، لكن جهوده لم تلق سوى كارثة بالقرب من تالياكوزو ، ووقع الصبي كونرادين الذي لم يجاوز السادسة عشرة من عمره في الأسر وقُطعت رأسه ، وكان آخر آل هوهينشتوفن . وتصاعدت الآن طموحات تشارلز وزيّنت له السيطرة على ايطاليا ، واستعادة القسطنطينية من اليونانيين المنشقين، وإنشاء امبراطورية في البحر المتوسط علـى نحو ما كان يحلم به أسلافه النورمـانديون عبثـا . وبـدأ البابـا كليمنـت يخشـى الوحـش المخيف الذي رفعه ؛ لكنه مات عام ١٢٦٨م . وطوال ثلاث سنوات راح تشارلز يكيد المكائد مع الكرادلة للحيولة دون انتخاب بابا جديد ؛ ولم يكن هناك من يكبح جماحه. على أنه شعر بالقلق من الحملة الصليبية التي ينتويهـا أخـوه ، إذ ينبغـي اسـتغلال رجـال فرنسا وأموال فرنسا لصالحه ، وليس لدعم مملكة نائية لم يكن مهيّأ بعد للإهتمام بهـا . وكان يطمح في المساعدة لمهاجمة بيزنطة ، فإن لم تكن المساعدة وشـيكة ، فينبغـي علـى الأقل تحويل مسارالحملة الصليبية إلى مسار ما آخر يعود عليه بالنفع(٦٩).

---

(٦٩) See Jordan, *Les Origines de la Domination Angevine en Italie, passim*; Hefele-Leclercq, *op. cit.* vi, i, pp. 47-60, 63-6; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 598-9 حيث توجد

وكان معروفا أن المستنصر أمير تونس الذي يسيطر على الساحل الأفريقي المقابل لصقلية يتخذ موقفا وديًا من المسيحيين ، لكنه أساء إلى تشارلز عندما قبل لجوء المتمردين من صقلية . فأقنع تشارلز الملك لويس ، الذي لم تحجب التجربة تفاؤله الإيماني ، بأن الأمير على استعداد للتحول إلى المسيحية ، وأن استعراضا خفيفا للقوة خليق بأن يجره إلى حظيرة الإيمان ، وبذا تكون هناك مقاطعة جديدة تضاف إلى المسيحية في بقعة ذات أهمية استراتيجية واسعة لأية حملة صليبية جديدة . ويبدو أن القرار الذي اتخذه لويس كان متأثرا بمرضه ؛ إذ لم يخفِ أصدقاؤه من الحكماء ، مثل جوانفيل ، استياءهم من هذا المشروع ، لكن لويس كان واثقا من أخيه . وفي أول يولية أبحر من ميناء آجو-مورت على رأس حملة مهولة ، وكان معه أبناؤه الثلاثة الباقين على قيد الحياة ، وزوج ابنته تيبالد ملك نافار ، وابن أخيه روبرت أوف أرتوا ، وكونتات بريتاني ولامارش ، ووريث فلاندرز ، وجميع أبناء رفاقه في حملته الصليبية السابقة ، وكونت سانت بول وهو من الباقين على قيد الحياة من تلك الحملة الصليبية السابقة ، وكونت سواسون . وفي ١٨ يولية وصل الأسطول أمام قرطاجة في حمّارة قيظ الصيف الأفريقي. ولم يبدِ أمير تونس أية رغبة في التحول إلى المسيحية ، وبدلا من ذلك حصّن عاصمته ونظّم حاميتها . لكنه لم يكن بحاجة إلى القتال ، إذ تولت الأحوال المناخية هذه المهمة بدلا منه ؛ فقد تفشّى المرض بسرعة في المعسكر الفرنسي ، وسقط الأمراء والفرسان والجنود فريسة المرض بالألوف ، وكان الملك من بين الأوائل الذين صرعهم المرض . وعندما وصل تشارلز (أوف أنجو) يوم ٢٥ أغسطس مع جيشه علم أن أخاه توفى قبل ساعات قليلة . وكان وريث فرنسا ، فيليب ، مريضا في حالة خطرة؛ وكان جون الحزين (تريستان) الذي ولد في دمياط يحتضر . واستطاع تشارلز بما له من بأس أن يحفظ الحملة من كارثة حتى الخريف عندما دفع له الأمير تعويضا كبيرا كي يعود إلى ايطاليا؛ غير أن أمر الحملة الصليبية بأسرها كان قد انقضى من قبل[٧٠] .

عندما وصلت أنباء مأساة تونس إلى الشرق، تنفس المسلمون الصعداء من أعماقهم، وغرق المسيحيون في نواحهم . وكان للأسى ما يبرره . إذ لن يحدث البتّة مرة أخرى أن يخرج جيش ملكي من أرضه الأم لإنقاذ فرنج مملكة ما وراء البحار

مناقشة سياسة تشارلز اوف آنجو

(٧٠) Joinville, pp. 262-3. See Sternfeld, *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis, passim*

(اوتريميه). ولقد كان الملك لويس ملكا لفرنسا عظيما وطيبا ، أما فلسطين التي أحبها بمزيد من الإعزاز ، فلم يجلب لها سوى خيبة الأمل والأسى . وراح وهو على فراش الموت يفكر فى المدينة المقدسة التي لم يرها قط ، ولم تكن مساعيه لتخليصها سوى مساع عقيمة . وكانت آخر كلماته "القدس ، القدس[٧١]."

(٧١) William of Saint-Pathus, pp. 153-5.

الفصل الثالث:

المغـول فى سـوريـا

المغول في سوريا

"أتثِق به لأن قوته عظيمة؟ أو تترك له تعبك؟"
(أيوب ١١:٣٩)

عندما وصل وليم (أوف روبروك) إلى بلاط الخان الأعظم في الأيام الأخيرة من عام ١٢٥٣م ، وجد حكومة مختلفة اختلافا كبيرا عن تلك التي رحبت بأندرو (أوف لونجومو) الذي سبق أن بعثه الملك لويس . وعندما مات غويوق ، إبن أوغوداي ، عام ١٢٤٨م ، تولت أرملته أوغول قيميش أعمال الوصاية على ابنائها قوشا وناقو وقوغو . بيد أنها كانت حاكمة تغلب عليها البلادة وقد تملكها الشح والسّحر ، ولم يبدُ على أي من أبنائها ما يبشّر باقتدار كبير . ودأب ابن عمهم شيريمون، الذي قضى له جده أوغوداي بالخلافة، على دس الدسائس ضدهم. بيد أن المعارضة الأكثر هولا جاءت من تحالف النائب على الغرب (باتو) مع الأميرة سورغقتاني أرملة تولوي الإبن الأصغر لجنكيز خان. وكانت الأميرة سورغقتاني الكيراتية المولد، كشأن أبناء جنسها جميعا، مسيحية نسطورية يغلب عليها الورع ، ولذا كانت تلقى الاحترام لحكمتها وطهارة

ذيلها . وبعد ترملها رغب أوغوداي في تزويجها من ابنه غويوق ؛ لكنها رفضت بلباقة مفضّلة تكريس نفسها لتعليم أبنائها الأربعة النابهين مونغكا وقوبلاي وهولاكو وأرقبوغا . وعندما أجرى غويوق تفتيشا على مالية العائلة الإمبراطورية كانت هي وأبناؤها فحسب الذين كانوا يتصرفون بوازع من الضمير المثالي . وكان (باتو)، الذي لم تلتئم عداوته لغويوق قط ، معجبا بها غاية الإعجاب ، لكن مطالبته بالعرش أخذت تتزايد ضعفا على ضعف نظرا لما كان يحيط بشرعية أبيه جوجي من شكوك ، فما كان منه إلا أن انضم اليها لمناصرة مونغكا في مطالباته . وجاء باتو إلى منغوليا ، وبصفته من كبار أمراء العائلة طلب انعقاد المؤتمر (كوريلتاي)، الذي انتخب في أول يولية ١٢٥١م مونغكا لمنصب الخان الأعظم . ورفض أحفاد أوغوداي حضور المؤتمر (كوريلتاي) ، برغم ما بذلته سورغقتاني من محاولات مخلصة لتهدئتهم ، وإنما تآمروا لمهاجمة أعضائه وهم سكارى في الاحتفالات التي تعقب مراسيم التولية . وأجهضت المؤامرة ؛ وبعد عام من الحرب الأهلية المتقطّعة انتصر مونغكا على أنداده جميعا ونُصّب خانا أعظم في قراقورام . وأدين الوصي أوغول قايميش وكذلك أم شيريمون بتهمة السحر ونُفّذ فيهما الإعدام غرقا ، وأمّا أمراء آل أوغوداي فقد أرسلوا إلى المنفى[١].

وبتولي مونغكا ، أحيا المغول مرة أخرى سياستهم التوسعية . وعاد كبار الأمراء إلى مناصبهم الحكومية ، وعُهد بالمقاطعات الشرقية إلى الأخ الثاني لمونغكا ، قوبلاي ، الذي شرع يغزو كل الصين غزوا نشيطا منسّقا . وتحول إلى البوذية، وغلبت على حروبه ومعاملته للمقهورين روح الإنسانية والرفق . ومكث مونغكا وأخوه الأصغر أريقبوغا في منغوليا يراقبان في يقظة الإمبراطورية الشاسعة كلها . وبدأ ورثة ياغاتاي في التركستان محاولات تجريبية لتوسيع سلطانهم عبر بامير إلى داخل الهند . ونقل باتو مقره إلى ضفاف الفولجا السفلى كي يسيطر على أمرائه التابعين له في روسيا ، وأسس هناك مقر الخان التي أطلق عليها الكتاب المسلمون (كيبشاك) ، وأطلق عليها المغول والروس (القبيلة الذهبية) . وانتقلت حكومة فارس إلى الأخ الثالث لمونغكا ، هولاكو . وأصبحت حدوده وحدود قوبلاي في الشرق هي المنطقة التي توجهت إليها الآن جهود المغول[٢].

---

(١) William of Rubruck (ed. Rockhill), pp. 163-4; Howorth, *History of the Mongols*, i, pp. 170-86; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 306-11.

(٢) Grousset, *op. cit.* pp. 312-13, 364-6; Iakoubovski and Grekov, *La Horde d'Or*, pp. 98-120.

١٢٥٤م : التحالف الأرمني مع المغول

من بين الدول المتاخمة للبحر المتوسط كانت المملكة الأرمينية أول من تحقق من أهمية التقدم المغولي . وكان الأرمن قد شهدوا مشدوهين انهيار الجيش السلجوقي أمام الحملة المغولية التي قادها أحد حكام الأقاليم عام ١٢٤٣م ، وكان بمقدورهم أن يقدروا استحالة مقاومة الجيش الإمبراطوري . وأرسل الملك هيثوم في حركة حكيمة رسالة يغلب عليها الإحترام إلى بايشو عام ١٢٤٣م . غير أن المغول انسحبوا آنذاك واستعاد قايخوسرو أراضيه التي فقدها في الأناضول وبدأ في الضغط مرة أخرى على أرمينيا يساعده الأمير الأرميني المتمرد قسطنطين (أوف لاميرون)(٣).

وكان في تقدير هيثوم أن المغول سوف يعودون وأن لهم أهميتهم لكل العالم المسيحي الآسيوي ، وخاصة له هو نفسه . فأرسل في عام ١٢٤٧م أخاه الكونستابل سيمباد على رأس سفارة إلى بلاط الخان الأعظم . ووصل سيمباد إلى قراقورم عام ١٢٤٨م قبل وفاة غويوق بوقت قصير ؛ واستقبله غويوق استقبالا ودودا ، وما أن علم أن هيثوم على استعداد لأن يكون تابعا له حتى وعد بإرسال العون إلى الأرمن ليستعيدوا المدن التي أخذها منهم السلاجقة . وعاد سيمباد إلى وطنه ومعه وثيقة من الخان الأعظم تضمن وحدة أراضي هيثوم(٤). غير أن موت غويوق أوقف أي عمل عاجل . وفي ١٢٥٤م ، وما أن سمع هيثوم بخلافة خان جديد ذي بأس حتى شرع هو نفسه في الرحلة إلى قراقورم(٥).

صارت قراقورم الآن المركز الدبلوماسي للعالم . ذلك أنه عندما وصلها سفير لويس التاسع ، وليم (أوف روبروك) عام ١٢٥٤م ، وجد سفارات من الامبراطور اليوناني ومن الخليفة ومن ملك دلهي ومن السلطان السلجوقي ، كما وجد أمراء من الجزيرة ومن كردستان وأمراء من روسيا ، وجميعهم يترقب مقابلة الخان . وكان هناك عدد من الأوروبيين الذين استقروا هناك ، وفيهم الجوهري من فارس مع زوجته الهنجارية ،

---

(٣) Ibn Bibi (ed. Houtsma), pp. 243, 249-50; Sempad, pp. 649-51; Kirakos, trans. Brosset, p. 142; Vincent of Beauvais, pp. 1295-6.

(٤) Sempad, letter to Henry of Cyprus, in William of Nangis, pp.361-3.

(٥) Ibn Sheddad, *Geography* (ed.Cahen),in *Revue des Etudes Islamiques*(1936),p. 121;Bar-Hebraeus (trans.Budge),pp.418-19

وامرأة من الألزاس متزوجة من مهندس روسي[٦] . وليس هناك تمييز عنصري ولا ديني في البلاط ؛ وكانت المناصب العليا في الجيش والحكومة قاصرة على أعضاء العائلة الإمبراطورية ، غير أنه كان هناك وزراء ومحافظو أقاليم من كل أمة آسيوية على وجه التقريب . وكان مونغكا نفسه يدين بالشامانية ديانة آبائه ، لكنه كان يحضر الإحتفالات المسيحية والبوذية والإسلامية دون تمييز بينها . وكان يؤمن بوجود إله واحد يعبده المرء كما يحلو له . وكان المسيحيون النساطرة يمثلون أهم نفوذ ديني ، وكان مونغكا يحابيهم بصفة خاصة تخليدا لذكرى أمه سورغقتاني التي ظلت دائما على ولائها لعقيدتها ، رغم أنها كانت من سعة الأفق بما يكفي لأن تهب المسلمين كلية دينية إسلامية في بخارى . كما كانت زوجته الإمبراطورة الرئيسية كوتوكتاي ، والكثيرات من زوجاته الأخريات ، يعتنقن المسيحية النسطورية[٧] . وأعلن وليم (أوف روبروك) على الملأ أنه قد صُدم بجهل رجال الدين النساطرة وفسوقهم ، واعتبر أن طقوسهم الدينية أزيد قليلا من خلاعات عربدة السكارى ، وفي يوم من أيام الأحد شاهد الإمبراطورة عائدة تترنّح من قداس صاخب ؛ وعندما لم يوفق في أموره كان يميل إلى أن يلقي باللائمة على ما كان يسود هذه الهرمية الهرطيقية من ندّية[٨] .

١٢٥٤م : وليم (أوف روبروك) في قراقورم

ولم تكن سفارته ناجحة تماما في الواقع . ذلك أنه ارتحل عن طريق عاصمة باتو على نهر الفولجا حيث وجد ابن باتو ، سرتق ، ميّالا إلى معاملة المسيحيين معاملة حسنة ، رغم احتمال عدم كونه مسيحيا حقيقيا . ولقد أرسله باتوا إلى منغوليا ، وسافر على حساب الحكومة بطول الطريق التجاري الكبير ، في راحة وأمان ، برغم مرور أيام بكاملها دون رؤية منزل واحد . وفي نهاية ديسمبر ١٢٥٣م وصل إلى

---

(٦) William of Rubruck (trans. Rockhill), pp. 165 ff., 176-7. كما كان هناك رجل انجليزي مولود في هنجاريا يدعى بازيل كان يعيش في قرقورم (*ibid.* p. 211). ويصف Bar-Hebraeus, p. 411 هيثوم وكذلك ملكي جورجيا الذين كانوا في قرقورم ، إلى جانب سفارات من حلب ومن الفرنج ومن الحشاشين في البرلمان (كوريلتاي) في أعقاب موت أوغوداي

(٧) Howorth, *op. cit.*, i, pp. 188-91. وماتت سورغقتاني في فبراير ١٢٥٢م . ويطلق عليها Bar-Hebraeus (p. 417) "الملكة كاملة الحكمة والإيمان"؛ William of Rubruck (trans. Rockhill), pp.184-6؛ Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', *loc. cit.* p.198. وقد أخبر هولاكو المؤرخ الأرميني فارتان أن أمه كانت مسيحية مخلصة (Vartan, Armenian text, ed. Emin, p.205).

(٨) William of Rubruck, *loc. cit.*

معسكر الخان الأعظم على مبعدة أميال قليلة من قراقورم . واستقبله مونغكا استقبالا رسميا يوم ٤ يناير ، وسرعان ما رحل بعد ذلك مع البلاط إلى قراقورم نفسها . ووجد الحكومة المغولية وقد عقدت عزمها فعلا على مهاجمة مسلمي غرب آسيا ، وعلى استعداد لمناقشة الإقدام على عمل مشترك . بيد أنه كانت هناك عقبة لا سبيل إلى تخطيها ؛ إذ لا يستطيع الخان الأعظم أن يقبل وجود أي أمير ذا سيادة غيره في العالم . وكانت سياسته الخارجية بسيطة في أساسها؛ فأمّا أصدقاؤه فكانوا أتباعا له فعلا ؛ وأما أعداؤه فكان يتعين إزالتهم أو إخضاعهم إلى حالة التبعيّة . وكان كل ما استطاع وليم الحصول عليه هو الوعد المخلص تماما بأن يتلقى المسيحيون المساعدة الوفيرة طالما جاء حكامهم لتقديم فروض الولاء لسيد العالم . ولم يكن باستطاعة ملك فرنسا التعامل بتلك الشروط . وفي أغسطس ١٢٥٤م ، غادر وليم قراقورم وقد تعلّم ، كشأن سفراء كثيرين بعده ذهبوا إلى بُلطٍ أبعد في آسيا ، أن عواهل الشرق لا يفهمون أعراف الدبلوماسية الغربيّة ولا مبادئها . وعاد بطريق آسيا الوسطى إلى بلاط باتو ومنه خلال القوقاز وهضبة الأناضول إلى أرمينيا ثم إلى عكا . وكان يُعامل في كل مكان يذهب اليه بالإحترام اللائق بمبعوث مفوض إلى الخان الأعظم(٩) .

وكان الملك هيثوم قد وصل إلى قراقورم بعد رحيل وليم عنها بفترة وجيزة . ولقد جاء وقد اختار طواعية أن يكون تابعا ؛ وكان الزائرون الأجانب الآخرون إمّا من الأتباع الذين استدعوا رغما عنهم ، أو أنهم كانوا ممثلين لملوك يدعون الإستقلال في تكبّر ؛ ولذا عومل هيثوم برعاية خاصة ؛ فعندما استقبله مونغكا استقبالا رسميا في ١٣ سبتمبر ١٢٥٤م، منحه وثيقة تؤكد سلامته شخصيا وسلامة مملكته من أي انتهاك ، وعومل باعتباره المستشار المسيحي الرئيسي للخان في الشؤون المتصلة بغرب آسيا. ووعده مونغكا بإعفاء كافة الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب . وأعلن أنه أصدر أوامره لأخيه هولاكو ، الذي رسّخ فعلا أركانه في فارس ، بالإستيلاء على بغداد والقضاء على قوة الخلافة ، وتعهد باستعادة القدس ذاتها للمسيحيين اذا تعاونت معه كافة القوى المسيحية. ورحل هيثوم عن قراقورم في أول نوفمبر محمّلا بالهدايا وقد اغتبط لنجاح جهوده التي بذلها . وارتحل إلى الوطن عن طريق التركستان وفارس حيث أعرب عن ولائه لهولاكو ثم عاد إلى أرمينيا في شهر يولية التالى(١٠) .

---

(٩) *Ibid.* pp. 165 ff.

(١٠) Kirakos, pp. 279 ff.; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 519; Bar-Hebraeus, pp. 418-19; Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 164-6; Bretshneider, *Mediaeval Researches*, i, pp.

وكان تفاؤل هيثوم طبيعيا لكنه كان مفرطا . ذلك أن المغول كانوا يقينا تواقين إلى السيطرة على الخلافة أو القضاء عليها . وكان لديهم فعلا الكثير من الرعايا المسلمين بحيث بات من الأمور الأساسية لهم السيطرة على المؤسسة الدينية الرئيسية في العالم الإسلامي ، ولم تكن لديهم عداوة خاصة بكنونها للإسلام كدين ؛ وبالمثل ، وبرغم محاباتهم للمسيحية محاباة تفوق أي عقيدة أخرى ، فلم تتوفر لديهم نيّة السماح بوجود أية دولة مسيحية مستقلة ؛ وفي حالة استعادة القدس للمسيحيين ، فإنها سوف تستعاد تحت الإمبراطورية المغولية . ومن دواعي الإثارة أن نتأمّل فيما كان يمكن أن يحدث لو تحققت طموحات المغول في غرب آسيا . كان من الممكن إنشاء خانيّة مسيحية عظمى وربما تنميها بمرور الزمن من القوة المركزية في منغوليا . بيد أن حلم القديس لويس في أن يصبح المغول الأبناء المطيعين للكنيسة الرومانية لم يكن ليرد في الأذهان ؛ ولم تكن المنشآت المسيحية في غرب آسيا لتحتفظ بأي استقلال لها . لو حدث انتصار مغولي في غرب آسيا لكان في صالح العالم المسيحي ككل ؛ غير أنه ليس من الممكن توجيه اللائمة إلى فرنج أوتريميه، المدركين لموقف الخان الأعظم إزاء الأمراء المسيحيين ، لتفضيلهم المسلمين الذين عرفوهم على هؤلاء القوم الغرباء ذوي الشراسة والغطرسة الآتين من الصحارى القصيّة ، وسجلهم في أوروبا الشرقية لا يبعث على التشجيع[١١]. أما محاولة هيثوم بناء تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول فقد استقبلها المسيحيون الوطنيون استقبالا حسنا ؛ وانصاع بوهمند أمير أنطاكية الذي كان واقعا تحت نفوذ حميه . لكن فرنج آسيا نأوا بجانبهم[١٢].

١٢٥٦م : الجيش المغولي يتحرك باتجاه الغرب

في يناير ١٢٥٦م عبر جيش مغولي ضخم نهر أكسس Oxus بقيادة هولاكو أخي الخان الأعظم . وكان هولاكو – كأخيه قبلاي – أفضل تعليما من أغلب أمراء المغول؛

164-72 .

(١١) للإطلاع على الدفاع عن موقف الفرنج، انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 708-9. وفي تاريخ الحملات الصليبية لجروسيت Grousset in his *Histoire des Croisades* ، دأب على الإشارة بحق الى الفرص التي أضاعها الفرنج برفضهم التحالف مع المغول ، لكنه على الرغم من معرفته تاريخ المغول يبدو أنه قد تغاضى عن استحالة معاملة الخان الأعظم للفرنج على أنهم مستقلين لا تابعين . لم يكن المغول يعترفون بإمكان وجود دول أجنبية مستقلة

(١٢) أنظر أدناه الصفحات (٣٦٠-٣٦٢) و(٣٦٤-٣٦٥).

فكان يميل إلى تقريب المتعلمين وقد داوم هو نفسه إرضاء ميوله في إطلالاته على الفلسفة والكيمياء . ولقد احتذبته البوذية كما سبق أن احتذبت أخاه قبلاي ؛ غير أنه لم يكف قط عن شامانية أسلافه، وكان يفتقر إلى ما كان يتصف به أخوه من حب الخير . وكان يعاني من نوبات من الصرع التي ربما كان لها أثرها على طباعه التي لا يعتمد عليها ؛ فكان متوحشا إزاء المقهورين كشأن أي من أسلافه . على أنه لم يكن للمسيحيين ذريعة للشكوى منه ؛ إذ كان أقوى نفوذ في بلاطه هو نفوذ زوجته الرئيسية دوكوز خاتون . وكانت هذه السيدة المرموقة أميرة كيراتية ، حفيدة طغرل خان ، ومن ثمّ من أبناء خوولة أم هولاكو . وكانت نسطورية غيورة ، ولم تخف كراهيتها للإسلام وتلهفها على مساعدة المسيحيين من أية ملّة[١٣].

وكان هدف هولاكو الأول هو مقر الحشاشين في فارس ؛ فليس في الإمكان وجود حكومة منظمّة حتى يتم القضاء على هذه الطائفة ، خاصة وقد أساء أتباع الطائفة إلى المغول بقتلهم باغاتاي ، الإبن الثاني لجنكيز خان . وكان هدفه التالي بغداد التي يستطيع الجيش المغول التقدم منها إلى سوريا . وقد وضعت الخطط بعناية لكل شيء؛ فأُصلحت الطرق عبر تركستان وفارس وشُيّدت الجسور ، وأرسلت الطلبات لجلب عربات آلات الحصار من الصين ، ونزعت القطعان من الرعاة كي يصبح الكلأ وفيرا لخيول المغول . وكانت مع هولاكو دوكوز خاتون واثنتان من زوجاته الأخريات وابناه الأكبران . وكان حفيده نيغودار يمثل آل ياغاتاي . وأرسل باتو من (القبيلة الذهبية) ثلاثة من أبناء اخوته ارتحلوا أسفل الشاطئ الغربي لبحر قزوين وانضموا إلى الجيش في فارس . وقدمت كل قبيلة في الكونفدرالية المغولية خمس رجالها المقاتلين ، وكان هناك آلاف من الرماة الصينيين المهرة في إطلاق السهام المشتعلة من قِسِيّهم . وكان جيش قد أرسل قبل ثلاث سنوات لإعداد العدة وعلى رأسه أكثر جنرالات هولاكو ثقة وهو قيتبوغا النسطوري ذي العرق النايماني Naiman ، والذي قيل أنه من نسل الحكماء الثلاثة من الشرق[١٤]. وكان قيتبوغا قد أعاد توطيد السلطة المغولية في أهم مدن الهضبة الإيرانية

---

(١٣) Rashid ad-Din (trans. Quatremére), pp. 94-5, 145، الذي يذكر تأثير دوكوز خاتون . وقد أعجب بها كونغكا وكان دائما ما ينصح هولاكو بالأخذ برأيها . وقد ولدت أميرة كيراتية كشأن سورغقتاني . وعن هولاكو أنظر:

Howorth, *op. cit.* iii, pp. 90 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 563-6.

(١٤) حكماء المشرق الثلاثة، أو مجوس المشرق الذين جاءوا ليعبدوا عيسى الطفل فى بيت لحم، طبقا لإنجيل متى، الإصحاح الثاني.

واستولى على بعض معاقل الحشاشين الأقل أهمية قبل وصول هولاكو[١٥].

١٢٥٧م : إبادة الحشاشين في فارس

عبثا حاول زعيم الحشاشين ركن الدين خورشاه تجنب الخطر بالدسائس والألاعيب الدبلوماسية . ودخل هولاكو أرض فارس وزحف زحفا بطيئا وبلا هوادة خلال دماوند وعباس أباد إلى سهول الحشاشين . وبظهور الجيش العرمرم أمام قلعة ألموت وشروعه في تشديد حصاره للقلعة ، خضع ركن الدين ، وجاء بنفسه في ديسمبر إلى خيمة هولاكو لإعلان خضوعه.ورفض حاكم القلعة إطاعة أوامره باستسلامها ، فاستولى عليها المغول عنوة بعد أيام قليلة . ووعد هولاكو الإبقاء على حياة ركن الدين، غير أن هذا الأخير التمس إرساله إلى قراقورم آملا الحصول على شروط أفضل من الخان الأعظم مونغكا . وبوصوله هناك رفض مونغكا مقابلته قائلا إنه من الخطأ إنهاك الخيول الكريمة في مثل تلك البعثة العقيمة . وكانت هناك قلعتان للحشاشين لا تزالان صامدتين أمام المغول ، جيردكوه ووليمبيسر . وقيل لركن الدين أن يعود إلى بلاده للترتيب لإستسلام القلعتين ؛ وفي الطريق قُتل مع حاشيته ، وفي ذات الوقت أرسلت الأوامر إلى هولاكو بضرورة إبادة الطائفة عن آخرها . وأرسل عدد من أقارب زعيم الحشاشين الأكبر إلى إبنة ياغاتاي ، سالغان خاتون ، كي تنتقم بنفسها لمقتل والدها . وجُمع آخرون بذريعة إجراء احصاء وقتلوا بالألوف . وفي نهاية ١٢٥٧م لم يكن هناك في الجبال الفارسية سوى القليل من اللاجئين . أما الحشاشون في سوريا فكانوا حتى آنذاك بعيدين عن قبضة المغول ؛ لكنهم استشرفوا مصيرهم[١٦].

وكان الحشاشون يحتفظون في قلعة آلموت بمكتبة ضخمة مليئة بكتب الفلسفة وعلوم السحر ، وأرسل هولاكو حاجبه المسلم ، عطاء الملك يوفيني ، لفحصها . فنحّى عطاء الملك جانبا نسخ القرآن التي وجدها ، وكذا الكتب ذات القيمة العلمية والتاريخية، وأحرق أعمال الزندقة . وبمصادفة غريبة ، شب في ذات الوقت حريق كبير بفعل البرق في المدينة المنورة ، ودمّرت تماما مكتبتها التي كانت تحوى أعظم المختارات

(١٥) Bretschneider, *op. cit.* pp. 114-15، من المصادر الأصلية. وعن أسلاف قيتبوغا، أنظر Hayton, *Flor des Estoires*, p. 173.

(١٦) *Ibid.* pp. 116-18; Browne, *Literary History of Persia,* ii, pp. 458-60.

عن الفلسفة الإسلامية القويمة(١٧).

واجتث هولاكو شأفة الحشاشين في فارس ، ثم زحف بجيشه الجرار على عاصمة الخلافة الإسلامية ، بغداد . وكان الخليفة المستعصم في السابعة والثلاثين من عمره ، ومن الأسرة الحاكمة العباسية ، وابن الخليفة المستنصر من أمَة أثيوبية ، وكانت الآمال تداعبه في استرجاع قوة عرشه وهيبته . ومنذ انهيار الخوارزميين صارت الخلافة سيدة نفسها ، وما كان من خصومة بين القاهرة ودمشق ساعد الخليفة على أن يتصرف تصرف الحَكَم للإسلام . بيد أنه على الرغم من اصطناعه الأبهة ومظاهر التشريفات من حوله ، فقد كان المستعظم رجلا ضعيفا أحمق ، كل همّه إشباع ملذاته الشخصية ، وقد تمزق بلاطه من جرّاء العداوة بين وزيره الشيعي مؤيد الدين ، وأمين سره السنّى أيبك الذى كان يحظى بتأييد ولى العهد . وكانت حصون بغداد شديدة البأس ، وباستطاعة الخليفة بناء جيش كبير ، إذ كان عدد فرسانه مائة وعشرين ألفا؛ غير أن ذلك كان متوقفا على مصادر الإمدادات العسكرية ، والمستعصم لا يثق في أتباعه ، ومن ثم أخذ الخليفة بنصيحة وزيره بتقليص حجم الجيش ودفع إتاوة اختيارية من المال الناتج عن ذلك للمغول لإبعادهم عن بغداد . ولم يكن لسياسة التهدئة هذه أن تصيب نجاحا ، حتى في حالة تنفيذها على وجه الإتساق الأكمل ؛ ذلك أنه عندما رد هولاكو بطلب الإعتراف بسيادته على الخلافة ، كان نفوذ أيبك آخذا في الصعود ، وانتهى الأمر برفض طلب هولاكو رفضا متعاليا(١٨).

وبات العرّافون من حول هولاكو لا يتفقون جميعا على تشجيع حملته ، وراودته هواجس الخوف من خيانة أتباعه ممن يدينون بالإسلام وتدخُّل حكام سوريا ومصر، فشرع في حملته متوجسا شيئا ما . على أنه اتخذ احتياطات ذات فعالية إزاء احتمالات الخيانة، ولم يخف أحد لإنقاذ بغداد ، وفي ذات الوقت زاد جيشه قوة على قوة إذ جاءته فرقة من القبيلة الذهبية المغولية وكذلك الجيش الذي أبقاه بايكو على تخوم الأناضول طوال العقد الأخير ، فضلا عن فرقة من الفرسان الجورجيين المتحمسين لضرب عاصمة الكفرة.

وفي نهاية ١٢٥٧م انطلق الجيش المغولى هابطامن قاعدته في همذان ، وعبر بايكو

(١٧) Browne, *loc. cit*

(١٨) D'Ohsson, *Histoire des Mongols*, iii, pp. 215-25.

بجنوده نهر دجلة عند الموصل وسار جنوبا على الضفة الغربية ، ودخل كيتبوغا وجناح الميسرة سهل العراق الواقع شرقي العاصمة ، بينما تقدم هولاكو والقلب خلال كرمنشاه . وما أن سمع الخليفة باقتراب بايكو من الشمال الغربي حتى انطلق جيشه بقواته الرئيسية لملاقاته. وأعاد أيبك عبور نهر دجلة على مبعدة ثلاثين ميلا من بغداد ، فتظاهر بايكو بالإنسحاب وبذا تربص بالعرب في مكان منخفض معشوشب تملأه المستنقعات ، وبعث بمهندسين لهدم الجسور المقامة على نهر الفرات من خلفهم ، واستؤنفت المعركة في اليوم التالي . وأجبر جيش أيبك على التقهقر إلى المنخفضات الطينية ، ولم يتمكن من الفرار سوى أيبك نفسه وحرسه الشخصي خلال المياه إلى بغداد وهلك سواد جيشه في ميدان المعركة ، وفر الباقون على قيد الحياة إلى داخل الصحراء وتفرقوا(١٩).

١٢٥٨م : المغول يخربون بغداد

وفي ١٨ يناير ظهر هولاكو أمام أسوار بغداد الشرقية وبحلول الثاني والعشرين من الشهر باتت المدينة محاصرة تماما مع جسور من القوارب على نهر دجلة أقيمت شمال وجنوب أسوار المدينة التي يتوسطها النهر وتطل على ضفتيه كلتيهما. وكانت المدينة الغربية التي تحوي قصر الخلفاء الغابرين أقل أهمية الآن من المدينة الشرقية حيث تتركز مباني الحكومة ، وشن المغول أعنف هجماتهم على الأسوار الشرقية .وبدأ اليأس يدب في نفس المستعصم . وبنهاية يناير أرسل الوزير ، الذي كان ينادي دائما بالسلام مع المغول ، ومعه البطريق النسطوري ، آملا في أن يتوسط لدى دوكوز خاتون في محاولة التعامل مع هولاكو فأعيدا دون أن يسمعهما أحد . وبعد أن قصف المغول الأسوار الشرقية قصفا مرعباخلال الأسبوع الأول من فبراير بدأت الأسوار في الإنهيار ، وفي العاشر من فبراير ، اقتحم المغول المدينة بأعدادهم الغفيرة ، وهنا برز الخليفة وسلّم نفسه لهولاكو ومعه قادة الجيش جميعا ورجالات دولته . فأُمروا بإلقاء أسلحتهم ثم ذبحوا ، ولم يُبق المغول على أحد سوى الخليفة إلى أن دخل هولاكو المدينة والقصر يوم ١٥ فبراير . وبعد أن كشف الخليفة عن مخبأ كنوزه كلها ، قتل هو الآخر . وفي تلك الأثناء دارت المذابح في كافة أنحاء المدينة لم يسلم منها من استسلم على الفور ومن واصل القتال ، وهلك النساء والأطفال مع رجالهم ؛ ووجد مغولي في شارع جانبي أربعين

(١٩) Brown, *op. cit. ii*, pp. 461-2.

رضيعاحديثي الولادة ماتت أمهاتهم ، فأخذته الرحمة بهم فقتلهم إذ كان يدرك عدم إمكان بقائهم على قيد الحياة وليس هناك من يرضعهم. وكان الجنود الجورجيون وهم أول من اقتحم الأسوار على جانب خاص من الشراسة في تخريبهم . وفي مدى أربعين يوما قُتل ثمانون ألف مواطن تقريبا في بغداد . وكان الباقون على قيد الحياة عددا قليلا من المحظوظين الذين لم تُكتشف أماكن اختبائهم في بعض الأقباء وعددا من البنات والأولاد من ذوى الجاذبية نجوا ليصبحوا عبيدا ، وأفراد المجتمع المسيحى الذين لجأوا إلى الكنائس وتُركوا دونما إزعاج بأوامر خاصة من دوكوز خاتون[٢٠].

وفي أواخر مارس كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث من الشدة بحيث سحب هولاكو جنوده من المدينة خشية الأوبئة ؛ وأعرب الكثير منهم عن الأسى وهم خارجون لإعتقادهم أنه لا تزال هناك أشياء نفيسة يمكن العثور عليها. على أن هولاكو يمتلك الآن الكنوز الضخمة التي اكتنزها الخلفاء العباسيون طوال خمسة قرون . وبعد أن أرسل قسما كبيرا منها إلى أخيه مونغكا ، عاد متمهلا إلى همذان ومنها إلى أذربيجان حيث بنى قلعة حصينة فى شاها على شاطىء بحيرة أورميا، وجعلها بمثابة مخزن لكافة ما بحوزته من ذهب ومعادن نفيسة ومجوهرات . وترك بغداد يحكمها الوزير السابق مؤيد الدين يراقبه مسؤولون مغوليون عن كثب. ومُنح البطريق النسطورى ماكيكا اقطاعات خصيبة وقصرا ملكيا سابقا يكون له سكنا وكنيسة. وجرى تنظيف المدينة وإصلاح شأنها تدريجيا ، وبعد ذلك بأربعين سنة أصبحت مدينة اقليمية مزدهرة، وقد تضاءل حجمها إلى عشر ما كانت علية[٢١].

وكان لأنباء تدمير بغداد عميق الأثر فى آسيا كلها . فطُرب لذلك المسيحيون الآسيويون فى كل ماكان ؛ وفى نشوة المنتصرين كتبوا عن سقوط بابل الثانية ، وهتفوا لهولاكو ودوكوز خاتون على أنهما قسطنطين وهيلينا[٢٢]، بُعثا من جديد وقد اتخذهما

---

(٢٠) *Ibid.* pp. 462-6; Bretchneider, *op. cit.* i,pp. 119-20; Abu'l Feda, pp. 136-7; Bar Hebraeus, pp. 429-31; Kirakos, pp. 184-6; Vatran (Armenian text, ed. Emin), p. 197; Hayton, *Flor des Estoires,* pp. 169-70.

(٢١) Bretschneider, op. cit. pp. 120-1; D'Ohsson, op. cit. iii, p. 257; Levy *A Baghdad Chronicle,* pp. 259-60.

(٢٢) (المترجم :)قسطنطين .(مات سنة ٣٣٧م) أول امبراطور بيزنطى يعتنق المسيحية. ناصر الكنيسة ورعيها المبانى ، خاصة فى فلسطين . اتخذ من بيزنطة عاصمة له بعد أن أعاد بناءها وأطلق عليها "القسطنطينية" عام٣٣٠م . فى٣٢١م أمر بأن يكون يوم الأحد عطلة رسمية . وفى الشرق يعتبر قديسا.

الرب وسيلة للإنتقام من أعداء المسيح[٢٣].

أما المسلمون ، فقد رأوا في سقوط بغداد صدمة مروعة وتحديا ؛ فعلى مدى قرون اقتطعت من الخلافة العباسية جوانب كثيرة من القوة المادية ، لكن كيانها المعنوى كان لا يزال عظيما . والآن وقد أزيلت الأسرة الحاكمة وكذلك العاصمة ، باتت زعامة الإسلام خاوية وغدا بمقدور أي قائد إسلامي طموح أن يشغلها . ولم يطُل التشفّى المسيحى ؛ فسرعان ما غلب الإسلام غالبيه ؛ غير أن وحدة العالم الإسلامى كانت قد تلقت ضربة لم تستطع قط أن تبرأ منها . وكان سقوط بغداد - بعد سقوط القسطنطينية بنصف قرن فى ١٢٠٤م - وقد وضع نهاية دائمة لثنائية الحكم القديمة المتوازنة بين بيزنطة والخلافة ، وهى الثنائية التى فى ظلها ازدهرت الإنسانية طويلا فى الشرق الأدنى ؛ لكن لم يقدر للشرق الأدنى مطلقا أن يعيد هيمنته على الحضارة.

١٢٥٩م المغول يدخلون سوريا

عد أن خرّب هولاكو بغداد حوّل انتباهه إلى سوريا . وكانت خطوته الأولى هى إحكام قبضة المغول على الجزيرة ، وخاصة لإخضاع الكامل أمير ميافرقين الأيوبى الذى رفض قبول السيادة المغولية ، ومضى شأواً بعيداً بحيث صلب قسا يعقوبيا قام بزيارته كمبعوث من هولاكو[٢٤]. واستقبل هولاكو مبعوثين من دول كثيرة قبل مغادرته معسكره . وجاءه بدرالدين لؤلؤ ، أتابج الموصل المسن ، كى يعتذر عن مساوئه السابقة؛ وسرعان ما أتى على أثره السلطانان السلجوقيان إبنا كيخوسرو ، كايكاوس الثانى وقلج أرسلان الرابع ؛ وحاول الأول بلا جدوى تهدئة هولاكو ، وكان قد قاوم بايكو عام ١٢٥٦م ، مستخدما فى هذه التهدئة رياءً مفرطا مصطنعا أذهل المغول . وأخيرا، أرسل الناصر يوسف ، صاحب حلب ودمشق ، إبنه العزيز لتقديم واجب احتراماته فى اتضاع للغازى. وحوصرت ميافرقين وتم الإستيلاء عليها في وقت مبكر

هيلينا: (قديسة) أم الإمبراطور قسطنطين . هجرها زوجها ، لكنها نالت مركزا مشرّفا بعد اعتلاء ابنها العرش الإمبراطورى . تحمست فى تأييدها للقضية المسيحية. وفي سنة ٣٢٦م زارت الأراضى المقدسة . ويقول التراث الكنسى المتأخر إنها اكتشفت الصليب الذى صُلب عليه المسيح

(٢٣) Stephen Orbelian, *History of Siunia* (Armenian text), pp. 234-5, calls Hulagu and Dokuz Khatun "the new Constantine and Helena"

(٢٤) D'Ohsson, iii, p. 307.

من سنة ١٢٦٠م ، وذلك بفضل مساعدة حلفاء هولاكو الجورجيين والأرمن . فذبحوا المسلمين وأبقوا على المسيحيين . وعُذب الكامل بأن أجبر على أن يأكل لحم بدنه هو نفسه إلى أن مات[٢٥].

وفي سبتمبر ١٢٥٩م قاد هولاكو الجيش المغولي قاصدا غزو شمال غرب سوريا ؛ وكان كيتبوغا يقود الطليعة ، وبايكو الميمنة ، وقائد آخر مقرب - سونجاك - الميسرة، بينما كان هولاكو نفسه يقود القلب . وتقدم خلال نصيبين وحران والرها إلى البيرة حيث عبر نهرالفرات . وحاولت سروج مقاومته ، فنهبت . وفي باكورة العام الجديد أطبق الجيش المغولي على حلب ؛ ولمّا رفضت حاميتها الإستسلام ، حوصرت المدينة يوم ١٨ يناير ؛ وكان السلطان الناصر يوسف في دمشق عندما هبت العاصفة المغولية ؛ وكان في مأموله أن يؤدي وجود ابنه في معسكر هولاكو إلى تجنب الخطر ، وعندما وجد أنه على خطأ ، خطا الخطوة الأكثر إهانة بأن عرض قبول سيادة مماليك مصر ، فوعدوه بالمساعدة لكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم لتقديمها . وفي ذات الوقت جمع جيشا خارج دمشق ، واستدعى ابني عمه صاحب حماة وصاحب الكرك لتقديم العون . على أنه بينما كان ماكثا ينتظر ، بدأ بعض ضباطه الأتراك يتآمرون ضده ، واكتشف مخططاتهم في الوقت المناسب ؛ فهربوا إلى مصر آخذين معهم واحدا من إخوته . وتسبب هربهم في إضعاف جيشه بصورة كبيرة بحيث كف عن الأمل في الخروج لإنقاذ حلب.

وكان دفاع حلب دفاعا شجاعا بقيادة تورانشاه ، عم الناصر يوسف ؛ غير أنه بعد ستة أيام من القصف تداعت الأسوار وتدفق المغول إلى داخل المدينة . وكما حدث في الأماكن الأخرى ، ذُبح المسلمون من المواطنين ، وتم الإبقاء على المسيحيين ، بخلاف بعض الأرثوذوكس الذين لم تتضح كنيستهم في جحيم التقتيل ، وصمدت القلعة لأربعة أسابيع أخرى بقيادة تورانشاه . وعندما سقطت في نهاية الأمر ، أظهر هولاكو نفسه على أنه رحيم بصورة غير متوقعة ؛ فأبقى على حياة تورانشاه لكبر سنه ولشجاعته ، ولم تمس حاشيته . ووقع في يد الغازي قدر ضخم من الكنوز . وضم هولاكو حلب إلى أمير حمص السابق الأشرف الذي كان له من البصيرة ما جعله يأتي إلى معسكر المغول كعميل قبل ذلك بشهور قليلة ؛ وتوفر له مستشارون مغول وحامية

---

(٢٥) Kirakos, pp. 177-9; Vartan, p. 199; Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 330-1; D'Osson, iii, p. 356.

مغولية دعما لسلطانه(٢٦).

وبعد ذلك ، كان يتعين معاقبة قلعة هرنس الواقعة على الطريق الذاهب من حلب إلى أنطاكية ، لأن حاميتها رفضت الإستسلام ما لم يضمن أحد المسلمين كلمة هولاكو. وعندما تم الإستيلاء عليها مع المذبحة المعتادة ، أصبح هولاكو على حدود أنطاكية ، حيث ذهب أميرها وحموه ملك أرمينيا إلى معسكره لتقديم احترامانهما . وكان الملك هيثوم قد سبق وأن زوده بقوات للتعزيزات وكوفىء ببعض الأسلاب من حلب ، بينما صدرت الأوامر للأمراء السلاجقة بأن يعيدوا اليه الأراضى التى استولى عليها أبوهم فى كيليكيا . كما كوفىء بوهمند لما أبداه من طاعة ؛ فأُعيدت إلى إمارة أنطاكية عدة مدن وقلاع كانت تابعة للمسلمين منذ يوم انتصار صلاح الدين ، من بينها اللاذقية ؛ وفى المقابل كان مطلوبا من بوهموند تنصيب بطريق يونانى هو إيوثيميوس فى عاصمته مكان البطريق اللاتينى . وعلى الرغم من أن الملك هيثوم لم يكن يميل إلى اليونانيين ، إلا أن هولاكو كان يعى أهمية وجود عنصرهم فى أنطاكية ؛ وربما كان حافزه فى ذلك علاقة الصداقة التى تربطه بالإمبراطور فى نيقية(٢٧).

١٢٦٠م سقوط دمشق

بدا للاتينيين فى عكا أن خضوع بوهمند مجلبة للعار ، خاصة وأنه ينطوى على إهانة الكنيسة اللاتينية فى أنطاكية . وكان النفوذ البندقى ما يزال فى أعلى مستواه فى المملكة، ومرة أخرى بات البنادقة على علاقة تجارية جيدة مع مصر ؛ وقد انصب اهتمامهم على التجارة الآتية من الشرق الأقصى خلال الطريق الجنوبى وعن طريق الخليج الفارسى أو البحر الأحمر؛ وتزايدت لديهم مشاعر القلق وهم يشاهدون طرق القوافل المغولية العابرة أواسط آسيا إلى البحر الأسود حيث كان أبناء جنوا يعززون سيطرتهم بتحالفاتهم مع اليونانيين . وتلفتت الحكومة فى عكا حولها باحثة عن بلد

(٢٦) Maqrisi, *Sultans,* I, i, pp. 90,97; Abu'l Feda, pp. 140-1; Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 327-41; Bar-Hebraeus, pp. 435-6

(٢٧) *Gestes des Chiprois,* p. 161; letter to Charles of Anjou, *Revue de l'Orient Latin,* vol. ii, p. 213; Bar-Hebraeus, p. 436; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 171..

وقد قام البابا بطرد بوهموند من الكنيسة بسبب هذا التحالف Urban IV, *Registres,*26 May 1263, و لم يُذكر قط تسليم اللاذقية ، لكنها كانت فى أيدى الفرنج عندما ذُكرت بعد ذلك . أنظر أدناه الصفحتين ٣٩٥-٣٩٦.

آخر لحمايتها ؛ وكان معروفا أن تشارلز (أوف أنجو)، أخا ملك فرنسا، لديه طموحات في البحر المتوسط وكان يتآمر بالفعل من أجل عرش صقلية ؛ فأرسلت حكومة عكا إليه رسالة عاجلة في مايو ١٢٦٠م تصف أخطار تقدم المغول وترجوه التدخل(٢٨).

وفي وقت كتابة الرسالة كان المغول أسياد دمشق . فلم يحاول السلطان الناصر يوسف الدفاع عن عاصمته ؛ إذ أنه ما أن علم بسقوط حلب واقتراب الجيش المغولى حتى هرب إلى مصر لاجئا إلى المماليك ، ثم غيّر رأيه وكر عائدا باتجاه الشمال فأسره المغول . وأرسلت حماه وفدا إلى هولاكو في فبراير ١٢٦٠م ، قدّم اليه مفاتيح المدينة ، وبعد أيام قلائل حذا وجهاء دمشق حذوهم ، وفي غرة مارس دخل كيتبوغا دمشق على رأس جيش مغولى ، وبصحبته ملك أرمينيا وأمير أنطاكية . ولأول مرة منذ ستة قرون يشهد مواطنو عاصمة الخلافة القديمة ثلاثة زعماء مسيحيين راكبين في شوارع المدينة في حولة المنتصر . وكانت القلعة قد صمدت للغزاة لأسابيع قليلة ، لكنها هُزمت وتم الإستيلاء عليها يوم ٦ إبريل.

وبسقوط المدن الثلاث العظام ، بغداد وحلب ودمشق ، بدا أن الإسلام في آسيا قد جاءت نهايته . ففي دمشق ، كما في سائر أنحاء غربي آسيا ، كان الغزو المغولى يعني نهضة المسيحيين المحليين ؛ ولم يُخفِ كيتبوغا تعاطفه مع المسيحيين ، إذ كان هو نفسه مسيحيا. وللمرة الأولى منذ القرن السابع ، يجد مسلمو وسط سوريا أنفسهم أقلية مضطهدة. فكانوا يتحرقون شوقا للإنتقام(٢٩).

وفي ربيع ١٢٦٠م أرسل كيتبوغا فصائل لإحتلال نابلس وغزة ، ومع ذلك لم يصلوا إلى القدس نفسها ؛ وبذا أصبح الفرنج محاطين تماما بالمغول . ولم يكن لدى السلطات المغولية أية نوايا لمهاجمة المملكة الفرنجية شريطة أن تبدى ما يكفي من الخضوع ؛ وكان الفرنج الأكثر تعقلا على استعداد لتجنب الاستفزاز ، لكنهم لا يستطيعون التحكم في مزاجهم المتهور ؛ وكان أكثر البارونات رعونة جوليان ، لورد صيدا وبيوفورت ، وهو رجل ضخم البنية وبه وسامة ، غير أن رغباته كانت تسيّره في حمقه ، وقد خلا مما كان يتمتع به جده رينالد من ذكاء حاد . إذ سبق أن أجبره تبذيره

---

(٢٨) 'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin,* vol. ii, pp. 213-14

(٢٩) Abu'l Feda, pp. 141-3; *Gestes des Chiprois, loc. cit.;* Hayton, *Flor des Estoires,* pp. 171-2.

وللإطلاع على مراجع المخطوطات أنظر Cahen, op. cit. p. 707 nn. 19, 20.

المفرط على أن يرهن صيدا لفرسان المعبد بعد أن اقترض منهم مبالغ طائلة ؛ وتسبب مزاجه الأخرق في نشوب خلاف بينه وبين فيليب أمير صور الذى كان خاله غير الشقيق؛ وكان قد تزوج بواحدة من بنات الملك هيثوم ؛ ولم يكن لحميه من نفوذ عليه. وبدا له أن الحروب بين المغول والمسلمين بمثابة فرصة سانحة للتوغل فى غارة من بيوفورت إلى سهل البقاع الخصيب ؛ غير أن كيتبوغا لم يكن ليسمح للمغيرين بأن يفسدوا النظام المغولى حديث الولادة ، فأرسل فصيلة صغيرة من الجنود تحت إمرة أحد أبناء إخوته لمعاقبة الفرنج ؛ فما كان من جوليان إلا أن استنجد بجيرانه لمساعدته ، فتربصوا بابن أخى كيتبوغا وقتلوه ، فأرسل كيتبوغا في حمأة غضبه جيشا أكبر توغل داخل صيدا ونهبها برغم إنقاذ قلعة البحر بواسطة السفن الجنوية الآتية من صور . وتسبب ذلك فى هياج الملك هيثوم وألقى باللائمة على فرسان المعبد الذين انتهزوا فرصة خسائر جوليان لمصادرة رهنية صيدا وبيوفورت . وبعد ذلك بوقت قصير أغار جون الثاني أمير بيروت وفرسان المعبد على الجليل وواجهتها قوات الإحتياط المغولية بنفس القدر من الشراسة المغولية الشديدة[٣٠].

١٢٥٩م : موت الخان الأعظم مونغكا

ومع ذلك ، لم يكن بوسع كيربوقا الشروع فى معارك كبيرة . وفى الحادى عشر من أغسطس ١٢٥٩م مات الخان الأعظم مونغكا أثناء حملته مع أخيه قوبلاى فى الصين ؛ وكان أولاده صغارا غرارا ، ولذا مارس الجيش فى الصين ضغوطا لإستخلاف قوبلاى ، غير أن الأخ الأصغر لمونغكا ، أريكبوغا ، كان يسيطر على الوطن بما فيه قراقورام والخزائن المركزية لكنوز الإمبراطورية ، واشتهى العرش لنفسه . وبعد عدة شهور من المناورات واستكشاف الصديق من غير الصديق ، عقد كل من الأخوين مؤتمرا (كوريلتاى) فى ربع ١٢٦٠م ، انتخب كل مؤتمر أحد الأخوين خانا أعظم. وكان يؤيد أريكبوغا أغلب أقاربه الإمبراطوريين الذين كانوا فى منغوليا ، بينما كان لدى قوبلاي الدعم الأقوى فيما بين القادة. ولم يكن أيّ من المؤتمرين أو (الكوريلتايين) قانونيا تماما ؛ إذ لم تكن كافة فروع العائلة ممثّلة ، ولم يكن أيّ من الجانبين على استعداد لإنتظار حضور هولاكو وأمراء القبيلة الذهبية ، ولم يُخطر حتى آل باغاتاى

---

(٣٠) *Gestes des Chirois*, pp.162-4p Hayton, *Flor des Estoires, p.174p Annales de Terre Sainte*, p. p. 449، وربما أخطأ فى ذكر تاريخ هذه الأحداث بعد معركة عين جالوت

ولم يرسلوا وفودا تمثلهم . وكان هولاكو نفسه يؤيد قوبلاى ، رغم أن ابنه شوموغار كان من حزب أريقبوغا ، بينما كان بيرك - خان القبيلة الذهبية - متعاطفا مع أريقبوغا . ولم تحسم المسألة إلا في نهاية سنة ١٢٦١م عندما سحق قوبلاى أريقبوغا أخيرا ، وفي ذات الوقت ظل هولاكو ماكثا في حذر بالقرب من حدوده الشرقية، على أهبة الإستعداد للتحرك إلى داخل منغوليا إذا دعته الضرورة . وكان له ما يبرر شعوره بالقلق ؛ ذلك أن أريقبوغا تدخل بصورة استبدادية في شؤون الخانية التركستانية واستبدل الوصيّة أوراغانا بابن عم زوجها (آلغو) الذى هرب لاحقا وتزوج أورغانا ، الأمر الذى كان له أكبر الأثر في انتصار قوبلاى ؛ ولذا كان هولاكو يخشى تدخلا مماثلا في أراضيه ؛ وفضلا عن ذلك ، كانت علاقاته مع أبناء عمومته في القبلة الذهبية آخذة في التدهور . وفي الوقت الذى أظهر بلاطه أوجه التعاطف الشديد المسيحية، كان الخان بيرك ينحاز إلى الجانب الإسلامي معترضا على سياسة هولاكو المعادية للإسلام . وحدثت مناوشات في القوقاز وهي التخوم التي تفصل بين مناطق نفوذ كل من هولاكو وبيرك ؛ وقد دأب الأخير وقواد جيشه على اضطهاد القبائل المسيحية . على أن محالة هولاكو توطيد سلطانة على الجانب الشمالى من الجبال باءت بالفشل عندما انتصر على جيش من جيوشه حفيد ابن أخي بيرك (نوغاى) بالقرب من نهر تيرك عام ١٢٦٩م[٣١].

كان هولاكو في خضم هذه المشاغل مما اضطره إلى سحب الكثير من جنوده من سوريا بعد استيلائه على دمشق مباشرة ، وترك قيتبوغا يحكم البلد بقيادة متقلّصة تقلصا شديدا . ولسوء حظ المغول ، استفز تقدمهم في فلسطين القوة الإسلامية العظيمة الوحيدة التي لم تهزم ، ألا وهي مماليك مصر ؛ والآن غدا المماليك في حالة مناسبة لقبول التحدى.

كان أول سلاطين المماليك ، أيبك ، مزعزعا في سلطانه . ولكى يضفى الشرعية على نفسه تزوج الأرملة المسِنّة السلطانة شجرة الدر ، ليس هذا فحسب وإنما عيّن كسلطان مشارك طفلا من أمراء الأيوبيين . غير أن ذلك الطفل - الأشرف موسى - كان عديم الجدوى وسرعان ما اتضح أنه عبء بلا طائل ؛ وفي سنة ١٢٥٧م نشأ

---

(٣١) Rashid ad-Din, pp. 341 ff., 391 ff.; Bar-Hebraeus, p. 439; Kirakos, pp. 192-4; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 173. See Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 317-24; Howorth, op. cit. iii, p. 151; D'Ohsson, op. cit., iii, p. 377. ويبدو أن نوغيا كان من أفراد العائلة الإمبراطورية في خط القرابة الأنثوى

خلاف بين أيبك والسلطانة التي لم تكن على استعداد لأن بهين سلطانها من يعتبر مبتدئا حديث النعمة ؛ وفي ١٥ ابريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له في حمّامه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية ، إذ نادى بعض المماليك بالإنتقام من الأرملة ، وأيدها آخرون كرمز للشرعية . وفي نهاية الأمر انتصر أعداؤها ؛ وفي ٢ مايو ١٢٥٧م ضُربت شجرة الدر حتى الموت بينما نُصّب ابن أيبك سلطانا وكان ابن خمسة عشر ربيعا ، على أن الشاب لم يكن يمثل أسرة حاكمة لها احترامها ولا يتمتع هو نفسه بشخصية القائد ، فخلعه في شهر ديسمبر ١٢٥٩م أحد رفاق أبيه القدامى ، سيف الدين قطز ، وأصبح سلطانا بدلا منه . وبتوليه السلطنة عاد إلى مصر شتى المماليك - مثل بيبرس - ممن هربوا إلى دمشق لإستيائهم من أيبك(٣٢).

١٢٦٠م : المماليك يطلبون مساعدة الفرنج

في وقت مبكر من سنة ١٢٦٠م أرسل هولاكو سفارة إلى مصر بطلب خضوع السلطان ، فقتل قطز السفير وتأهب لملاقاة المغول في سوريا . وقد حدث في تلك الآونة أن اضطر هولاكو إلى نقل الجزء الأكبر من جيشه باتجاه الشرق بعد وصول الأنباء بموت مونغكا واندلاع الحرب الأهلية في منغوليا . وكانت أعداد الجنود الذين تُركوا مع كيتبوغا أقل كثيرا من الجيش الذى جمعه قطز الآن ، فإلى جانب المصريين أنفسهم كانت هناك بقايا القوات الخوارزمية وجنود أمير الكرك الأيوبي . وفي ٢٦ يولية عبر الجيش المصرى الحدود وسار إلى غزة ، وبيبرس يقود الطليعة . وكانت هناك قوة مغولية صغيرة في غزة بقيادة القائد بيدار الذى أرسل إلى كيتبوغا يحذره من الغزو؛ على أنه قبل أن يتمكن المدد من الوصول احتث المصريون شأفة جنوده(٣٣).

وكان كيتبوغا في بعلبك ، فأعد العدة من فوره للسير جنوبا مرورا ببحر الجليل إلى وادى الأردن ، لكن انتفاضة للمسلمين في دمشق أوقفته ؛ فقد دُمّرت بيوت المسيحيين وكنائسهم ونشأت الحاجة إلى جنود المغول لإستعادة النظام(٣٤). وفي ذات الوقت قرر قطز المسير أعلا الساحل الفلسطيني وأن يتقدم داخل البلد نحو الشمال

---

(٣٢) Abu'l Feda, p. 135.

(٣٣) Rashid ad-Din (trans. Quatremère), p. 347; D'Ohsson, op. cit. iii, pp. 333-5.

(٣٤) Abu'l Feda, p. 143.

لتهديد خطوط مواصلات كيتبوغا في حالة تقدم الأخير داخل فلسطين . ولذا أُرسلت سفارة مصرية إلى عكا طالبة الإذن بالمرور خلال الأراضي الفرنجية والحصول على المؤن أثناء المسير إن لم يكن الحصول على العون العسكرى الفعّال.

واجتمع البارونات فى عكا لمناقشة الطلب . وكانت مشاعر المرارة ضد المغول تخيّم عليهم نظرا لنهب صيدا مؤخرا ، كما راودتهم الريب حيال تلك القوة الشرقية بما لها من سجل فى المذابح بالجملة . وكانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم ؛ وكان أغلبهم يفضّل المسلمين كثيرا علـى المسيحيين المحليين المتمتعين بمحاباة المغول . وفى بادىء الأمر كانوا ميالين إلى تقديم بعض القوات المسلحة الإحتياطية للسطان ؛ غير أن السيد الأعظم للنظام التيوتونى[٣٥]، وهو آنّو (أوف سانجرهاوزن)، حذرهم من الثقة الكبيرة فى المسلمين ، خاصة إذا ارتفعت معنوياتهم بانتصار على المغول . وكان النظام التيوتونى يمتلك الكثير من الممتلكات فى المملكة الأرمينية ؛ وربما كان آنّو يشجّع سياسة الملك هيثوم . وقد كان لكلماته التى اتصفت بالحصافة بعض الأثر على بارونات الصليبيين ؛ فرُفض التحالف العسكرى ، وإنما وعدوا السلطان بمرور آمن لجيشه وإمداده بتسهيلات المؤن[٣٦].

وخلال شهر أغسطس قاد السلطان جيشه أعلا الطريق الساحلى وعسكر لعدة أيام فى حدائق الفاكهة خارج عكا . ووجّهت الدعوة لعدد من الأمراء لزيارة المدينة كضيوف شرف ومن بينهم بيبرس الذى ألفت قطز بعد عودته إلى المعسكر إلى سهولة الإستيلاء على المدينة بغته ؛ لكن قطز لم يكن على استعداد لأن يكون خؤونا على هذا النحو ولا أن يخاطر بانتقام مسيحي بينما المغول لم يُهزموا بعد . وتزايد شعور الحرج لدى الفرنج كثرة من أعداد زائريهم ، لكن عزاءهم كان فى الوعد بالسماح لهم بشراء ما يحصلون عليه من خيول المغول بأسعار مخفّضة[٣٧].

---

(٣٥) (المترجم): النظام التيوتونى Teutonic Order: نظام عسكرى دينى يتألف جُلّه من الفرسان الألمان وبعض الإسكندنافيين والهولنديين والإنجليز

(٣٦) *MS. of Rothelin*, p. 637

(٣٧) William of Tripoli, *De Statu Saracenorum*, in Du Chesne, v, p. 443; *Gestes des Chiprois*, pp. 164-5.

١٢٦٠م : معركة عين جالوت

فما إلى علم قطز وهو فـي عكـا أن كيتبوغـا قـد عـبر الأردن ودخـل سـهل الجليـل الشرقي؛ فقاد جيشه على الفور باتجاه الجنوب الشرقي ، خلال النـاصرة ، وفـي يـوم ٢ سـبتمبر وصـل عـين جـالوت ، أي عيـون جوليـات ، حيـث سـبق وأن تحـدى الجيـش المسيحي صـلاح الدين فـي عـام ١١٨٣م . وجاء الجيش المغولي فـي الصبـاح التـالي وبصحبة فرسانه كتائب جورجية وأرمينية ؛ لكن كيتبوغا كان يفتقر إلى الكشافين ، إذ كان السكان المحليون غير ودودين حياله ؛ ولذا لم يكن يعرف أن الجيش المملوكي كلـه على مقربة . وكان قطز على دراية تامة بتفوقه العددي ، ولذا أخفى قواته الرئيسية فـي التلال القريبة و لم يُظهر سوى الطليعة التي يقودها بيبرس . ووقع كيتبوغا في الفـخ . إذ قاد رجاله كلهم في هجوم على العدو الذي رآه أمامه ؛ فتقهقر بيـبرس فـي لمـح البصـر داخل التلال والأعداء يتعقبونه في حماس متقد ، وفجأة وجد الجيش المغولي نفسـه وقـد حوصر كله . وقاتل كيتبوغا قتـالا رائعـا ، وبدأ المصريـون يتـأرجحون ، ودخـل قطـز نفسه المعركة لتنظيمهم ؛ على أنـه بعـد سـاعات قليلـة اتضحـت آثـار تفـوق المسـلمين العددي . وتمكن بعض رجال كيتبوغا من شق طريقهم هربا من المعركة ، لكن كيتبوغا نفسه رفض أن يشهد هزيمته ؛ فكان وحيدا أو يكاد عندما قُتـل حصانـه ووقـع أسـيرا ، وأنهى أسره المعركة . واقتيد في القيود إلى السلطان الذي راح يسخر من سقوطه ؛ فرد في تحدٍ متنبئا بانتقام مخيف من المنتصرين ، ومتفاخرا بأنه - على خلاف أمراء المـماليك - دائم الإخلاص لسيده . فضربوا عنقه[٣٨].

كانت معركة عين جالوت إحدى المعـارك الحاسمة فـي التـاريخ . ومـن الحـق أن الأحداث التي حدثت على بعد أربعة آلاف ميل تسببت في أن يصبح الجيش المغولي في سوريا من الضآلة بحيث لم يقدر - في غيبة الكثير من الحظ الحسن - علـى الاضطـلاع بإخضاع المماليك، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة ، لأمكـن اسـتعواض الهزيمة ؛ غير أن تصاريف التاريخ قد حالت دون تحويل حكـم التـاريخ المتخـذ فـي عـين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكي إنقاذا للإسـلام مـن أخطـر تهديـد كان عليه مواجهته . ولو قُدّر للمغول أن يتوغلوا داخل مصـر ، لما بقيـت هنـاك دولـة إسلامية عظيمة في العالم شرقي مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين في آسيا غفـيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أم يكونوا الجنـس الحـاكم. ولـو

---

(٣٨) Rashid ad-Din, pp. 349-52; Maqrisi, I, i, *Sultans*, pp. 104-6; Abu'l Feda, pp. 143-4.

قُدّر لكيربوقا المسيحي الإنتصار ، لكان في ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون الآسيويون في مركز القوة للمرة الأولى منذ المرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العبث أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك، ولا يستطيع المؤرخ إلا أن يقص ما قد حدث فعلا . لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية في الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى بروز الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين في آسيا ؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحي فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين في غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام. كما أسرعت بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تنبأ السيد الأعظم للنظام التيوتوني ، باتوا توافين للإنتهاء من أعداء العقيدة.

وبعد خمسة أيام من الإنتصار في عين جالوت ، دخل السلطان دمشق . فأما الأشرف الأيوبي الذي نبذ القضية المغولية فقد أعيد تنصيبه في حمص ؛ وأما أمير حماة الأيوبي الذي هرب إلى مصر فقد عاد إلى إمارته ؛ واستعيدت حلب في غضون شهر . وأما هولاكو ، الذي تملكه الغضب لفقدانه سوريا ، فكان فاقد الحيلة إلى أن يعود النظام في قلب الإمبراطورية المغولية . ولقد أرسل الجنود لإستعادة حلب في شهر ديسمبر ، لكنهم أجبروا بعد أسبوعين على الإنسحاب بعد أن ذبحوا عددا كبيرا من المسلمين انتقاما لموت كيتبوغا . وكان ذلك هو كل ما استطاعه هولاكو للإنتقام لصديقه المخلص(٣٩).

وانطلق السلطان قطز في رحلة العودة إلى مصر تظلله أكاليل المجد . على أنه بالرغم من أن نبوءة كيتبوغا عن الثأر لم تتحقق تماما قط ، فإن ملاحظته المريرة عن عدم إخلاص المماليك سرعان ما كان لها ما يبررها . إذ أن ريبة قطز في أكثر قواده نشاطا وهو بيبرس ، كانت آخذة في التزايد ؛ وعندما طلب بيبرس أن يُنصّب حاكما لحلب رُفض طلبه بصورة جافية . ولم ينتظر بيبرس طويلا كي يتصرف ؛ ففي يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م ، وبينما كان الجيش المنصور يقترب من حافة الدلتا ، ذهب قطز للتريض في صيد الأرانب البرية ، وانطلق مع قليل من أمرائه ممن فيهم بيبرس وبعض أصدقائه . وما أن ابتعدوا عن المعسكر حتى اقترب أحدهم كما لو كان سيطلب شيئا من السلطان ، وبينما كان ممسكا يده متهيّئا لتقبيلها، اندفع بيبرس من الخلف وطعن

(٣٩) Abu'l Feda, p. 144; Bar-Hebraeus, pp. 439-40. See Cahen, op. cit. pp. 710-11

سيده بالسيف في ظهره . ثم إن المتـآمرين انطلقـوا علـى جيـادهم إلى المعسـكر ليعلنـوا القتل . وكان أقطاى ، ياور السلطان ، فى الخيمة الملكية عندما وصلوا وسأل من فـوره أيهم ارتكب القتل ؛ وعندما اعترف بيبرس على نفسه ، دعاه أقطـاى إلى الجلـوس علـى عرش السلطان ، وكان أول من أعرب له عن طاعته ؛ وحذا قادة الجيش كلهم حـذوه. وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطانا[٤٠].

---

(٤٠) Abu'l Feda, loc. cit.; Maqrisi, *Sultans*, I, 1, pp. 110-13; Bar-Hebraeus, loc. cit.; *Gestes des Chiprois*, pp. 165-6.

الفصل الرابع:

السلطـان بيـبرس

السلطان بيبرس

"وأُغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيَتَسَلّط عليهم
ملك عزيز يقول السّيد ربّ الجنود"

(إشعياء ١٩:٤)

كان ركن الدين بيبرس البندقدارى يقارب الآن عامه الخمسين ، وهو تركى من الكيبشاك بالميلاد ضخم داكن البشرة ، أزرق العينين ذو صوت عال رنّان . وعندما جاء إلى سوريا بادىء الأمر كعبد عُرض للبيع على أمير حماه الذى تفحصه وظنه حلفا بالغ الخشونة . غير أن أميرا مملوكيا ، البندقدار حارس السلطان ، لاحظه فى السوق وآنس فيه الذكاء ، فابتاعه . ومنذ ذلك الوقت سرعان برز نجمه ، ومنذ انتصاره على الفرنج فى سنة ١٢٤٤م عرف عنه أنه أقدر المماليك العسكز . وأظهر الآن أنه رجل دولة من أرفع مستوي ، لا تعوقه مقتضيات الشرف أو الإمتنان أو الرحمة[1].

كان أول ما يشغله توطيد وضعه الجديد كسلطان ؛ ولم يعترض سبيله أحد فى مصر، أما فى دمشق فكان هناك مملوك آخر استولى على السلطة هو سنقر الحلبى الذى

(١) Abu'l Feda, p. 156. See Sobernheim, article 'Baibars' in *Encyclopaedia of Islam*.

كانت له شعبيه فى دمشق ، لكن هجوم المغول على حلب فى نفس الوقت هدد قبضة بيبرس على سوريا؛ غير أن أميري حمص وحماه الأيوبيّن هزم المغول بينما زحف بيبرس على دمشق وهزم سنقر خارج المدينة يوم ١٧ يناير ١٢٦١م ، وحارب مواطنو دمشق تأييدا لسنقر لكن مقاومتهم سُحقت . ومضى بيبرس ليتعامل مع الأيوبيين ؛ فأغرى أمير الكرك بوعود براقة كي يضع نفسه تحت إمرة السلطان ثم أزيل بهدوء ؛ وسُمح للأشرف صاحب حمص بالإحتفاظ بمدينته حتى وفاته سنة ١٢٦٣م. وفى أوائل سنة ١٢٦٤م اتفق نظاما المعبد والمستشفى على توحيد قواتهما للإستيلاء على حصن ليزون الصغير ، وهى مِجيدّو القديمة[٢]، وبعد أشهر قليلة قاما بغارة مشتركة حتى عسقلان ، بينما توغل فى الخريف الجنود الفرنسيون الذين يُدفع نفقاتهم من أموال القديس لويس، توغلا فعالا حتى ضواحي بيسان . ولذلك اجتاح المسلمون الريف الفرنجى جنوب الكرمل فأمست الحياة غير آمنة هناك[٣].

وفى بداية سنة ١٢٦٥م انطلق بيبرس من مصر على رأس جيش رهيب . ذلك أن المغول بدأوا يعتدون على شمال سوريا فى ذلك الشتاء ؛ وانتوى بيبرس بادىء الأمر القيام بهجوم مضاد؛ لكنه علم أن جنوده فى الشمال أوقفوهم ، ولذا أصبح فى مقدوره استخدام جيشه فى مهاجمة الفرنج فى الجنوب . وتظاهر بأنه يتسلي بحملة صيد ضخمة فى التلال الواقعة خلف أرصوف ، ثم ظهر بغتة أمام قيسارية ، وسقطت المدينة فى الحال يوم ٢٧ فبراير، وصمدت القلعة لأسبوع ، واستسلمت الحامية يوم ٥ مارس وسُمح لها بحرية الرحيل، غير أن المدينة والقلعة على السواء سُوّيتا بالأرض . وبعد أيام قلائل ظهر جنوده عند حيفا. فأما المواطنون الذين أُنذروا فى الوقت المناسب فقد هربوا فى قوارب كانت راسية تاركين كلا من المدينة والقلعة اللتين دمّرتا ؛ وأما من بقى هناك فقد قُتل . وفى تلك الأثناء هاجم بيبرس قلعة فرسان المعبد العظيمة فى عثليت ، وحُرقت القرية الواقعة خارج الأسوار لكن القلعة نفسها أفلحت فى مقاومته ؛ وفى ٢١ مارس كفّ عن محاصرتها وسار إلى أرصوف التى حصنها فرسان المستشفى بالحامية والمؤن تحصينا جيدا ؛ فكان بها ٢٧٠ فارسا داخل القلعة حاربوا بشجاعة رائعة ، لكن جنوب المدينة سقط يوم ٢٦ ابريل بعد أن دمّرت آلات حصار السلطان أسوارها ، وبعد ثلاثة أيام استسلم قائد القلعة ، الذى فقد ثلث فرسانه، بعد الوعد بمرور الأحياء

(٢) (المترجم) مِجيدّو : Megiddo مدينة قديمة شمال فلسطين على سهل ازدراليون يرجع تاريخها الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . يعتقد أنها هرماجيدون Armageddon المذكورة فى الإنجيل

(٣) *Estoire d'Eracles*, ii, pp 444, 449; *Annales de Terre Sainte*, p. 451.

مرورا آمنا ، وتراجع بيبرس عن وعده واقتادهم جميعا أسرى. وارتاع الفرنج لضياع هاتين القلعتين العظيمتين ، وألهمت هذه الخسارة المنشد المتجول ، ريكوت بونوميل ، قصيدةً مريرة شاكيا من أن المسيح يبدو الآن مسرورا بما لحق المسيحيين من ذِلّة[٤].

وهنا جاء دور عكا . لكن الوصى ، هيو أمير أنطاكية ، الذى كان فى قبرص ، كان قد سارع فعلا وعبر البحر مع ما استطاع جمعه من الرجال ؛ وعندما اتجه بيبرس شمالا من أرصوف مرة أخرى ، وجد هيو قد نزل إلى البر فى عكا يوم ٢٥ ابريل ؛ فعاد الجيش المصرى إلى وطنه بعد أن ترك جنودا للسيطرة على الأراضى المستعادة مؤخرا . والآن باتت الحدود على مرمى البصر من عكا ذاتها[٥]. وسارع بيبرس بكتابة أنباء انتصاراته إلى مانفريد ملك صقلية الذى تظاهر البلاط المصرى بالصداقة مع والده فريدريك الثانى[٦].

١٢٦٥م : موت هولاكو

كانت تلك السنة سنة طيبة لبيبرس ؛ ففى ٨ فبراير ١٢٦٥م مات هولاكو فى أذربيجان. وكان أخوه قوبلاى قد منحه لقب الخان وتوارث إدارة الممتلكات المغولية فى جنوب غربى آسيا . وعلى الرغم من أن مشاكله مع القبيلة الذهبية ومع مغول التركستان ، الذين اعتنقوا الإسلام كذلك ، قد حالت دون استئناف هجوم حاد على المماليك ، فقد كان مع ذلك مرهوب الجانب بما يكفى لردع المماليك عن مهاجمة حلفائه . وفى شهر يوليه ١٢٦٤م عقد آخر مؤتمر له (كوريلتاى) فى معسكره بالقرب من تبريز حضره أتباعه جميعا بمن فيهم الملك داود ملك جورجيا ، والملك هيثوم ملك أرمينيا ، وبوهمند أمير أنطاكية . وكان هيثوم وبوهمند فى حالة من الخزى أمام هولاكو لقيامهما فى العام السابق باختطاف البطريق الذى أصرّ هولاكو عام ١٢٦٠م على تنصيبه ، وهو إيوثيميوس بطريق أنطاكية ، وحمله إلى أرمينيا ، واستبدلا به البطريق

(٤) *Gestes des Chiprois*, p. 171; *Estoire d'Eracles*, II, p. 450; *Annales di Terre Sainte*, pp.451-2; al-Aïni, pp.219-21; Abu'l Feda, p. 150; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp. 7-8. Bonomel's poem is given in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale*, II, pp. 222-4.

(٥) *Gestes des Chiprois, loc. cit.; Estoire d'Eracles, loc. cit.*.

(٦) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p. 16. ويورد Al-Aïni سفارة إلى بيبرس فى ١٢٦٤م من تشارلز (أوف أنجو) الذى كان يخطط لمهاجمة مانفريد.(p.219)

أويزون اللاتينى فى أنطاكية . وكـان هولاكـو يـدرك أهمية التحالف مع البيزنطيين كوسيلة لكبح أتراك الأناضول ؛ فكان يتفاوض على سيدة من العائلة الإمبراطوريـة فـى القسطنطينية ليضيفها إلى زوجاته ، وعندما اختار الامبراطور ميخائيل لهذا الشرف ابنته من السـفاح ، ماريا ، رافقها إلى تبريز البطريق إيوثيميوس الـذى كـان لاجئا فـى القسطنطينية والذى عاد إلى الشرق بدعوة صريحة لا شـك فيها مـن هولاكـو . وكـان المغول من سعة الأفق بحيث لم يسمحوا للخلافـات العقائدية فيمـا بـين المسيحيين بـأن تتدخل فى سياستهم العامة. ويبدو أن بوهمند تمكن من العثور علـى عـذر لنفسـه ، ولم يستقبل إيوثيميوس مرة أخرى فى أنطاكية[٧].

بيد أن موت هولاكو جعل ضعف المغول أمرا حتميا فى لحظة حرجة . وأفلحت أرملته دوكوز خاتون بما لها من نفوذ فى تأمين استخلاف ابنه المفضل أباغا الـذى كـان حاكما للتركستان ، على أن أباغا لم يُنصَّب رسميا بلقب خان إلا فى شهر يونية بعد أربعة أشهر من موت والده ؛ ومضت عدة أشهر أخـرى قبـل استكمال إعـادة توزيع الإقطاعيات ومناصب الحكم . وماتت دوكوز خاتون فى الصيف ، ونعاهـا المسيحيون بأعمق المشاعر . وفى الوقت نفسه استمر تهديـد أباغـا مـن أبنـاء عمومتـه فـى القبيلـة الذهبية الذين غزوا فعلا أراضيـه فـى الربيـع التـالى . وهكـذا كـان مـن المستحيل على الحكومة المغولية التدخل آنذاك فى غربى سوريا . أما بيبرس ، الذى تسببت دبلوماسيته فيما كان يلقاه الخان من اضطرابات مع جيرانـه الشـماليين ، فقـد تمكـن مـن استئناف حملاته ضد المسيحيين دون خشية تدخل[٨].

١٢٦٦م : بيبرس يفتح الجليل

فى باكورة صيف ١٢٦٦م ، وبينما كانت جيوش أباغا منشغلة فـى صـد غـزوات الخان بيرك عن فارس ، انطلق جيشان مملوكيان مـن مصـر ؛ أحدهمـا بقيـادة السـلطان نفسه الذى ظهر أمام عكا يوم أول يونية ؛ غير أن كتيبتها التـى أبقاهـا القديـس لويـس

---

(٧) Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 417-23; see Howorth, op. cit. iii, pp. 206-10. Vatran (ed. Emin), pp.205-6, 211; Bar-Hebraeus, pp. 444-5. 'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin,* vol. ii, p. 213. واستشارت دوكوز خاتون فاتراد حول إمكانية إقامة قداس على روح هولاكو لكنه ثبط من همتها.(Vatran, ed. Emin, p. 211)

(٨) Howorth, op. cit., iii, pp. 218-25.

هناك جاءتها التعزيزات مؤخرا من فرنسا فزادتها قوة ، ولذا تحول عنها بيبرس وسار في استعراض أمام قلعة النظام التيوتونى فى مونتفورت ، ثم زحف فجأة على صفد التى كان فرسان المعبد يسيطرون من قلعتها الضخمة على باقى الجليل المرتفع . وكانت التحصينات قد أعيد إنشاؤها كلها منذ حوالى خمس وعشرين سنة ، وكانت الحامية بأعداد غفيرة رغم أن الكثير من الجنود كانوا من المسيحيين الوطنيين أو أنصاف الوطنيين . وقد صُد الهجوم الأول للسلطان يوم ٧ يولية، وكذلك فشل فى محاولتيه التاليتين يومى ١٣ و١٩ يولية . فأعلن بواسطة المنادين أنه يمنح العفو التام عن كل الجنود الوطنيين الذين يستسلمون له . ومن المشكوك فيه معرفة عدد المسيحيين الوطنيين الذين وثقوا فى كلمته ؛ على أن فرسان المعبد ساورتهم الريبة فى الحال، فتبادلوا الإتهامات وتطور الأمر بينهم إلى اقتتال ؛ وبدأ السوريون فى الفرار . وسرعان ما اكتشف فرسان المعبد استحالة صمود القلعة ، وفى آخر الشهر أرسلوا أحد أتباعهم السوريين توسموا فيه الولاء إلى معسكر بيبرس يعرضون الإستسلام . وعاد السورى - واسمه ليو - بوعد بانسحاب الحامية إلى عكا دون أذى ؛ وبعد أن سلم فرسان المعبد القلعة لبيبرس بهذه الشروط قطع رؤوسهم جميعا. وليس يقينا ما إذا كان ليو على وعى بخيانته أم لا ؛ لكن تحوله الفورى إلى الإسلام كان دليلا علية[٩].

وبالإستيلاء على صفد ، تمكن بيبرس من السيطرة على الجليل . وكانت خطوته التالية مهاجمة طورون التى سقطت له بلا قتال تقريبا . ومن طورون أرسل كتيبة لتدمير القرية المسيحية قرة الواقعة بين حمص ودمشق لإرتيابه فى اتصالها بالفرنج ؛ فقتلت البالغين وأخذت الأطفال عبيدا ، وعندما أرسل مسيحيو عكا وفدا يطلب السماح بدفن الأموات رفض بغلظة قائلا إنهم إذا كانوا يريدون جثث الشهداء فسوف يجدون مثلها عندهم . ولكى ينفذ وعيده سار أسفل الساحل وراح يقتل كل مسيحى يقع فى يده . لكنه ، مرة أخرى ، لم يغامر بمهاجمة عكا نفسها التى وصلها لتوه الوصى هيو من قبرص . وعندما انسحب المماليك فى الخريف، جمع هيو فرسان الأنظمة الدينية العسكرية وكتيبة فرنسية بقيادة جيوفرى (أوف سارجين) وقام بحملة مضادة فى الجليل. غير أنه فى ٢٨ أكتوبر وقعت الطليعة فى كمين نصبته لها حامية صفد ، بينما هاجم العرب المحليون المعسكر الفرنجى ، فاضطر هيو إلى الإنسحاب بخسائر فادحة[١٠].

---

(٩) *Gestes des Chiprois,* pp. 179-81; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 484-5; Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp. 28-30; Abu'l Feda, p. 151; al-Aïni, pp. 222'3

(١٠) *Gestes des Chiprois,* pp. 180-1; *Estoire d'Eracles, loc. cit*

١٢٦٦م : المماليك يخربون كيليكيا

وبينا بيبرس يجول بحملاته في الجليل ، تجمع في حمص الجيش المملوكي الثاني بقيادة أقدر أمرائه ، قلاوون ، الذي قام بغارة خاطفة باتجاه طرابلس استولى خلالها على حصني قوليا وحلبا ومدينة أرقا التي تتحكم في مدخل طرابلس من البقاع ، ثم أسرع شمالا كي يلحق بجيش المنصور صاحب حماه ؛ ثم سارت قواتهما المتحدة إلى حلب وانحرفت باتجاه الغرب إلى داخل كيليكيا[١١]. وكان الملك هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا. ولقد حاول هيثوم في ١٢٦٣م، على أثر أنباء موت هولاكو ، أن يتصالح مع بيبرس ؛ وكانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على أخشاب غابات جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته بوهمند يسيطران على تلك الغابات ، وفي مأمولهما استغلال سيطرتهما هذه كورقة تفاوض ؛ غير أن محاولة الحصار زادت من عزم بيبرس على الحرب[١٢]. وفي ربيع ١٢٦٦م ، علم هيثوم أن هناك هجوما مملوكيا وشيكا ، فانطلق قاصدا بلاط الخان في تبريز ؛ وأثناء تواجده هناك يستجدي مساعدة المغول، تفجرت العاصفة على كيليكيا . وكان الجيش الأرميني بقيادة إبني هيثوم ، ليو وثوروس، ينتظر عند البوابات السورية بينما فرسان المعبد في بجراس يحرسون جناحيه ، لكن المماليك انحرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس بالقرب من سارفنتيكار ، فهرع الأرمن لإعتراض طريقهم أثناء هبوطهم في السهل الكيليكي . ووقعت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس هلك فيها الجيش الأرميني لعجزه أمام الأعداد الغفيرة ؛ وقتل ثوروس ، أحد الأميرين ، وأُسِر الآخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكيا ؛ وبينما كان قلاوون ومماليكه ينهبون أياس وأضنا وطرسوس ، قاد المنصور جيشه مارا بالمصيصة إلى العاصمة الأرمينية سيس حيث نهب القصر وحرق الكتدرائية وذبح بضعة آلاف من السكان. وفي نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون إلى حلب ومعهم أربعون ألف أسير تقريبا وقوافل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحبة قليلة العدد من المغول ، لا لشيء سوى ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبرأ المملكة الكيليكية قط من الكارثة ، ولم تعد قادرة على أن

---

(١١) Abu'l Feda, *loc. cit.;* al-Aïni, p. 222

(١٢) Mas Latrie, *Histoire de Chypre,* i, p. 412

تلعب أكثر من دور سلبي في سياسات آسيا[١٣].

وبعد أن احتث بيبرس شأفة الأرمن أرسل جنودا في خريف ١٢٦٦م لمهاجمة أنطاكية ؛ غير أن قواده انتشوا بالأسلاب وكان يعوزهم الحماس ، وقبلوا من بوهمند ومن كميون أنطاكية الرشوة التي أغرتهم بالتخلي عن المحاولة[١٤].

واهتاج بيبرس من ضعف مندوبيه ، ولم يسمح هو نفسه بتأجيل القضاء على الفرنج ؛ فظهر في شهر مايو ١٢٦٧م مرة اخرى أمام عكا ، ورفع الرايات التي استولى عليها من فرسان المعبد والمستشفى ، وتمكن بذلك من الإقتراب حتى الأسوار مباشرة قبل اكتشاف الخدعة . غير أن هجومه على الأسوار تم صده ، ورضى بنهب الريف ، وترك الجثث الخالية من الرؤوس في الحدائق المحيطة بعكا إلى أن خاطر المواطنون بالخروج لدفنها . وعندما أرسل الفرنج سفراءهم طلبا للهدنة استقبلهم في صفد حيث كانت القلعة كلها محاطة بجماجم الأسرى المسيحيين الذين قُتلوا[١٥].

ولم تتيسر أسباب الحياة في عكا بتجدد القتال بين البنادقة وأبناء جنوا للسيطرة على الميناء ؛ ففي ١٦ أغسطس ١٢٦٧م قام الأدميرال الجنوي لوشيتو جريمالدى بشق طريقه عنوة إلى داخل الميناء بثمانية وعشرين غليونا بعد استيلائه على برج الذباب الذى كان يرتفع في نهاية حاجز الأمواج . غير أنه بعد اثنى عشر يوما أخذ خمس عشرة سفينة من سفنه إلى صيدا للإصلاح ؛ وأثناء غيابه ظهر أسطول بندقي من ستة وعشرين غليونا وهاجم سفن جنوا الباقية ، وضاعت في المعركة خمس سفن جنوية ، وحاربت السفن الأخرى لشق طريق خلال الميناء وأبحرت إلى صيدا[١٦].

وفي وقت مبكر من سنة ١٢٦٨م انطلق بيبرس مرة أخرى من مصر . وكانت الأملاك المسيحية جنوب عكا هي مجرد قلعة فرسان المعبد في عثليت ومدينة يافا التى

---

(١٣) Vatran (ed. Emin), pp. 213-15; Hethoum, p. 407; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 522-3; King Hethoum, poem, *R.H.C. Arm.* i, pp. 551-2; Ballad on Prince Leo's Captivity, *ibid.* pp. 539-40; Hayton, *Flor des Estoire*, pp. 177-8; Bar-Hebraeus, pp. 445-6; Maqrisi, *Sultans* I, ii, p. 34; Abu'l Feda, p. 151; *Gestes des Chiprois*, p. 181; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 455.

(١٤) Cahen, op. cit. p. 716, citing MS. of Ibn Abdarrahîm (Muhi ad-Din).

(١٥) *Gestes des Chiprois, pp. 181-3; Estoire d'Eracles*, ii, p.455; al-Aïni, p. 225.

(١٦) *Gestes des Chiprois*, p. 186; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 455-6; Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, i, p. 354 .

يملكها القانوني جون (الايليني). وفي ربيع ١٢٦٦م مات جون الذى كان المسلمون يعاملونه دائما باحترام ؛ ولم يكن ابنه جوى يتمتع بنفس المكانة ؛ وكان فى مأموله أن يحترم السلطان الهدنة المعقودة مع والده ، ونتيجة لذلك ، وعندما ظهر الجيش المصرى أمام المدينة يوم ٧ مارس ، لم تكن فى حالة تسمح لها بالدفاع عن نفسها ؛ ولذا سقطت في قبضة السلطان بعد اثنتى عشرة ساعة من القتال ، وقتل الكثير من سكانها ، وسُمح للحامية بالرحيل دون أذى إلى عكا ؛ ودمّرت القلعة وأرسلت أخشابها ورخامها إلى القاهرة من أجل الجامع الكبير الجديد الذى كان بيبرس يبنيه هناك[١٧].

وكان الهدف التالى للسلطان هو قلعة بيوفورت التى تسلمها نظام المعبد مؤخرا من جوليان أمير صيدا . وبعد عشرة أيام من القصف الشديد استسلمت الحامية يوم ١٥ إبريل ؛ وأطلق النساء والأطفال ليذهبوا إلى صور ، لكن جميع الرجال اقتيدوا عبيدا . وأصلح بيبرس القلعة وزودها بحامية قوية[١٨]. وفى أول مايو ظهر الجيش المملوكى فجأة خارج طرابلس، غير أنه وجد حاميتها قوية ، فتحول بنفس القدر من الفجاءة باتجاه الشمال . وأرسل فرسان المعبد من طرطوس وصفيطا على عجل يتوسلون إلى السلطان أن يحتفظوا بأراضيهم[١٩]. واحترم بيبرس رغبتهم وزحف زحفا سريعا جنوب وادى العاصى (الأرنْد)؛ وفى ١٤ مايو كان أمام أنطاكية حيث قسّم قواته إلى ثلاثة أقسام ؛ فذهب جيش للإستيلاء على ميناء السويدية ، وبذا عزل أنطاكية عن البحر ؛ وتحرك الجيش الثانى شمالا إلى البوابات السورية ، وبذا منع أية مساعدة قد تصل المدينة من كيليكيا ؛ وأحاطت القوة الرئيسية بقيادة بيبرس نفسه بالمدينة عن قرب.

١٢٦٨م : سقوط أنطاكية

كان الأمير بوهمند فى طرابلس ، وكانت أنطاكية تحت إمرة ياورها (الكونستابل) سيمون مانسل الذى كانت زوجته أرمينية ، وإحدى قريبات زوجة بوهمند . وكانت أسوار المدينة قد أصلحت بصورة جيدة ، لكن الحامية لم تكن من الكبر بحيث تحرس امتدادها الطويل . وقد تهور الكونستابل وقاد بعض الجنود إلى

(١٧) *Gestes des Chiprois,* p. 190; *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 456; Abu'l Feda, p. 152; Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp. 50-1; al-Aïni, pp.2267.

(١٨) *Gestes des Chiprois, loc. cit.; Estoire d'Eracles, loc. cit.;* al-Aïni, pp. 227-8.

(١٩) Al-Aïni, p. 228.

الخارج فى محاولة للتفاوض تلى الإستفادة بالمدينة، لكن المماليك أسروه . وأمره آسروه بالعمل على ترتيب استسلام الحامية ؛ غير أن قواده داخل المدينة رفضوا الإستماع اليه ، ووقع الهجوم الأول على المدينة فى اليوم التالى وُردّ ، وافتتحت المفاوضات مرة أخرى بلا نجاح يذكر . وفى ١٨ مايو قام الجيش المملوكى بهجوم عام على الأسوار بكافة أجزائها ؛ وبعد قتال شرس فتحت ثغرة فى الدفاعات الممتدة أعلا جبل سليوس ، وتدفق المسلمون داخل المدينة.

وأصيب المؤرخون ، والمسلمون من بينهم ، بصدمة من المجزرة التى تلت ؛ ذلك أن أمراء السلطان أصدروا أوامرهم بإغلاق بوابات المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وقُتل من كان فى الشوارع فى الحال ، أما الجبناء الذين بقوا فى بيوتهم فقد ظلوا على قيد الحياة لا لشىء سوى لإنهاء أيامهم فى الأسر . وهرب بضعة آلاف من المواطنين مع عائلاتهم لاجئين إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل ، لقد نجوا بحياتهم ، لكن الأمراء اقتسموهم ، وفى ١٩ مايو أمر السلطان بجمع الأسلاب وتقسيمها . وعلى الرغم من أن ازدهار أنطاكية اضمحل لعدة عقود ، إلا أنها كانت أغنى المدن الفرنجية ، وكانت كنوزها المتراكمة مذهلة ؛ فكانت هناك أكوام من حلى الذهب والفضة ، وكانت العملات من الوفرة بحيث كانت تعطى فى أوعية ، وكان عدد الأسرى غفيرا . ولم يكن هناك جندى فى جيش السلطان لم يحصل على عبد ، أما فائض العبيد فقد انخفض ثمن الصبى إلى اثنى عشر درهما والبنت إلى خمسة دراهم فقط؛ وسُمح لقليلين من المواطنين الأكثر ثراءً بأن يفتدوا أنفسهم . وأطلق سراح سيمون مانسيل وتقاعد فى أرمينيا ، غير أن الكثير من كبار المسؤولين فى الحكومة وفى الكنيسة قُتلوا أو لم يُسمع عنهم مرة أخرى قط[٢٠].

ولقد استمرت إمارة أنطاكية ١٧١ سنة ، وهى أول دويلة أسسها الفرنج فى الشرق الفرنجى . وجاء دمارها بمثابة ضربة مرعبة للهيبة المسيحية ، وجرّ وراءه الإنهيار السريع للمسيحية فى شمال سوريا . وقد انتهى الفرنج ، ولم تتحسن أحوال المسيحيين الوطنيين إلا بقدر ضئيل ، وكان ذلك عقابا لهم لما قدموه من مساعدة ، لا للفرنج وإنما للأعداء الأكثر خطورة على الإسلام ، ألا وهم المغول . ولم تبرأ المدينة نفسها قط؛ إذ فقدت فعلا أهميتها التجارية ، حيث أن الحدود بين الإمبراطوريتين المغولية

---

(٢٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 190-1; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 456-7; Bar Hebraeus, p. 448; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp. 52-3; al-Aïni, pp. 229-34; Abu'l Feda, p. 152.

والمملوكية كانت تجرى بطول نهر الفرات . ولذا لم تعد التجارة من العراق والشرق الأقصى تمر خلال حلب ، وإنما ظلت فى الأراضى المغولية وراحت تتدفق على البحر من أياس فى كيليكيا ؛ ولذا لم يكن للغزاة المسلمين اهتمام باعادة توطين الناس فى أنطاكية ، وباتت أهميتها الآن بمجرد كونها قلعة حدودية. ولم يُعَد بناء الكثير من منازلها داخل الأسوار العظيمة ، وانتقل رؤساء الكنائس المحلية إلى مراكز تتصف بحيوية أكبر ولم يمض طويل وقت قبل أن يتأسس فى دمشق المقرين الرئيسيين للكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية[٢١].

تلفت فرسان المعبد فوجدوا أن أرمينيا قد أضعفت وأنطاكيا دُمّرت ، فأدركوا استحالة الإحتفاظ بحصونهم فى جبال الأمانوس ؛ فهجروا حصن بجراس والحصن الأصغر فى صخرة روسل دون قتال ، وكان كل ما تبقى من الإمارة هو مدينة اللاذقية التى كان المغول قد أبقوا عليها ومنحوها لبوهمند ، وقد باتت الآن بقعة معزولة ، وحصن قُصير الذى أنشأ أميره اللورد علاقة صداقة مع مسلمى الجوار وسُمح له بالإقامة هناك لسبع سنوات أخرى كتابع للسلطان[٢٢].

١٢٦٨م : هيو ، ملك قبرص والقدس

استراح بيبرس لفترة بعد انتصاره فى أنطاكية . وكان هناك ما يدل أن المغول على يستعدون للقيام بدور أكثر إيجابية ، وكانت هناك شائعات تقول إن القديس لويس آخذ فى الإعداد لحملة صليبية ضخمة . وعندما أرسل الوصى هيو طالبا الهدنة أجاب السلطان بارسال سفارة إلى عكا تعرض هدنة مؤقتة ؛ وكان هيو يأمل فى الحصول على بعض التنازلات وحاول تهديد السفير محى الدين ، بإظهار جنوده فى استعراض حربى ؛ لكن محى الدين لم يجب سوى بأن الجيش كله لا يبلغ عدده ما يبلغه عدد الأسرى المسيحين الضخم فى القاهرة. وطلب الأمير بوهمند أن يدخل فى الهدنة ؛ وعندما

---

(٢١) عندما زار الرحالة ابن بطوطة أنطاكية فى سنة ١٣٥٥م كان هناك عدد كبير من السكان لا يزالون يسكنونها (Ibn Battutah, *Voyages*, ed. Defrémery, i, p. 162) ، لكن بيبرس دمّر تحصيناتها. ويقول Bertrandon de la Broquière الذى زارها سنة ١٤٣٢م أن الأسوار كانت ما تزال كاملة ، وإنما لم يكن هناك سوى ٣٠٠ منزل من المنازل المسكونة داخل تلك الأسوار وكان أغلب السكان من التركمان.(*Voyage d'Outremer*, ed. Schefer, pp. 84-5)

(٢٢) *Gestes des Chiprois*, p. 191. *Estoire d'Eracles*, ii, p. 457; Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 717 n.17.

أجابه السلطان بمجرد لقب كونت لفقده الإماره شعر بالمهانة ، لكنه قبل بسرور المدنة التى مُنحت له . وكانت هناك غارات مملوكية قليلة الشأن فى الأراضى المسيحية فى ربيع سنة ١٢٦٩م ، وإن كانت المدنة قد احترمت على العموم طوال سنة كاملة[٢٣].

وفى ذات الوقت حاول الفرنج تنظيم بيتهم . وفى ديسمبر ١٢٦٧م مات الملك هيو الثانى ملك قبرص وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وخلفه على العرش الوصى هيو أمير أنطاكية - لوسينان باسم هيو الثالث ، وتوّج يوم عيد الميلاد . وقد أتاح له استخلافه سلطة أوثق على أتباعه ، إذ لم يكن هناك خطر الآن من انتهاء حكمه فجأة عندما يبلغ ولى العهد السن القانونية . غير أنه كان عاجزا عن التغلب على ما يدعونه من أنهم غير مجبرين على الخدمة فى جيشه خارج حدود المملكة ، وكلما رغب فى أن يفعل ذلك كان يعتمد على رجال من الضياع الملكية وعلى المتطوعين . وفى ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م قُطعت رأس كونرادين (أوف هوهينشتوفن) فى نابولى بأوامر من تشارلز (أوف آنجو) ، الذى حاول عبثا أن يسترد منه بالقوة ميراثه الإيطالى.

١٢٦٩م : تتويج هيو

وكان موت كونرادين يعنى انقطاع الخط الأكبر للبيت الملكى فى القدس الذى ينحدر من الملكة ماريا، المركيزة . وكان التالى فى خط الإستخلاف أبناء بيت قبرص ، المنحدرين من الأخت غير الشقيقة لماريا ، أليس (أوف شامباني) . أما مطالبة هيو الثالث بأن يكون وريثا فقد اعتُرف بها ضمنا بتعيينه وصيا ، بينما تم تخطّى ابن عمه هيو (أوف بريان) الذى كان أحق منه فى الوراثة من الناحية القانونية . ومضى هيو (أوف بريان) يبحث عن حظه فى دوقية أثينا الفرنجية ، حيث تزوج وريثتها ، وأثناه ذلك عن تحدى ابن عمه. على أنه قبل أن يتلقى الملك هيو تاجه الثانى ، كان هناك منافس آخر يتعين وضعه موضع الإعتبار . ذلك أن الأخت الثانية غير الشقيقة للملكة ماريا - مليسيند أوف لوسينان - كانت قد تزوجت الأمير بوهمند الربع أمير أنطاكية كزوجة ثانية ، وكانت ابنتهما ماريا ما تزال على قيد الحياة . وبينما يستطيع هيو الإدعاء بأنه من نسل زواج للملكة إيزابيلا ، يسبق ماريا ، فإن ماريا كانت أقرب إلى الملكة إيزابيلا بجيل واحد . ومثلت أمام المحكمة العليا ، مدعية أن الإستخلاف ينبغى أن

(٢٣) Muhi ad-Din, in Reinaud, *Bibliothèque des Croisades*, pp. 513-15.

يتقرر بدرجة القرابة بالملكة إيزابيلا التى هى السلف المشترك لكل من كونرادين ، وهيو، وهى نفسها . ودفعت بأن للحفيدة أسبقية على إبن الحفيد . ورد هيو بأن حدثه الملكة أليس قد تم قبولها وصيّة لأنها كانت الوريث التالى ولأن ابنها الملك هنرى ملك قبرص قد تم قبوله وصيا بموتها، وبعد هنرى تجيء أرملته ، ثم هيو نفسه ، كأوصياء على هيو الثانى. وهو الآن يمثل خط أليس. وردت ماريا كان هناك خطأ ، فكان ينبغى لأمها مليسيند أن تخلف أليس كوصية . واستمر الجدل بعض الوقت آيد فيه فرسان المعبد ماريا ، بينما آيد قانونيّو الشرق الفرنجى مطالبة هيو . ولو أنهم رفضوا ، لأجبروا على الإعتراف بأنهم كانوا على خطأ فيما سبق ، وكان الرأى العام في جانبهم ؛ إذ من الواضح أن ملك قبرص الشاب الفتي كان مرشحا مرغوبا بصورة أكبر من عانس فى أواسط عمرها . ولم تقبل ماريا الحكم؛ وأصدرت اعتراضا رسميا يوم تتويج هيو، ثم رحلت والخيبة تحيطها إلى ايطاليا لتعرض قضيتها أمام الإدارة البابوية ، ووصلت روما فى فترة تسبق تولى بابا جديد ؛ لكن جريجورى العاشر، الذى انتخب سنة ١٢٧١م ، تعاطف معها وسمح لها بإثارة القضية فى مجلس ليون سنة ١٢٧٤م . وظهر ممثلون من عكا، ودفعوا بأن المحكمة العليا فى القدس هى السلطة القضائية الوحيدة التى تقرر الإستخلاف على المملكة ، وحُفظت المسألة . وكان جريجورى - قبل أن يموت سنة ١٢٧٦م - قد أعد الترتيبات لماريا لكى تبيع قضيتها لتشارلز (أوف آنجو) ، واستكملت الصفقة فى مارس ١٢٧٧م، واستلمت الأميرة ألف جنيه ذهبا ودخلا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه تورى[٢٤] . واعتمد تشارلز الثانى عاهل نابولى ذلك الدخل السنوى ؛ غير أنه من المشكوك فيه كم من المال كانت تتسلمه ماريا التى كانت ما تزال على قيد الحياة فى سنة ١٣٠٧م[٢٥] .

ونيابة عن البطريق ، قام أسقف اللد بتتويج هيو فى ٢٤ سبتمبر ١٢٦٩م . وكان هيو قبل تتويجه قد تمكن فعلا من تسوية الخلاف بين فيليب أمير مونتفورت والحكومة فى عكا . وكان كبرياء فيليب قد لحقته المهانة بضياع طورون ، ولم يعد يتوق إلى القيام بأى عمل بمفرده ؛ وعندما اقترح هيو تزويج أخته - مرجريت أميرة أنطاكية ولوسينان ، أجمل بنات جيلها - من إبن فيليب الأكبر - جون - قبل فيليب العرض

(٢٤) (المترجم) : تورىTournois ، صفة لعملة نقدية فرنسية قديمة مسكوكة فى مدينة تور على الطراز الملكى

(٢٥) *Gestes des Chiprois*, pp 190-3; *Assises*, ii, pp.415-19. See La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.77-9, and Hill, *History of Cyprus, ii, pp. 161-5*

بسرور . وهكذا أصبح بمقدور هيو الذهاب إلى صور لكي يتَوّج فى كتدرائيتها ، وهى التى باتت منذ سقوط القدس مكان التتويج التقليدى للملوك . وسرعان ما تزوج بعد ذلك إبن فيليب الأصغر ، همفرى ، من إيشيفا (أوف إبيلين)، وهى الإبنة الصغرى لجون الثانى أمير بيروت .وكانت هذه المصالحة بين آل مونتفورت وآل إبيلين أكثر يسرا ، إذ انتهى الجيل الأكبر لآل إبيلين . وقد مات جون أمير بيروت سنة ١٢٦٤م، وجون أمير يافا سنة ١٢٦٦م ، وجون أمير أرصوف سنة ١٢٦٨م . وبعد حملات بيبرس الأخيرة كانت الإقطاعية المدنية الوحيدة فى المملكة بخلاف صور هى بيروت ، التى آلت إلى إبنة جون الكبرى ، إيزابيلا . وكانت قد زُوّجت وهى طفلة من الملك الطفل هيو الثانى ملك قبرص الذى مات قبل إنفاذ الزواج . وكان هيو الثالث يأمل فى استخدامها كوريثة قانونية مناسبة لكى تجتذب أحد الفرسان المتميزين إلى الشرق . وفى قبرص كان آل إبيلين لا يزالون يمثلون أقوى عائلة ؛ وسرعان ما فاز الملك بولائهم بزواج إيزابيلا أخرى من آل إبيلين ، وهى إبنة الكونستابل جوى(٢٦).

وعلى الرغم من أنه رتب أمر الصلح فيما بين أتباعه القليلين الباقين من غير رجال الدين، فإن ضمان تعاون الأنظمة الدينية العسكرية ، وكميون عكا ، والإيطاليين كان أكثر صعوبة. أما جنوا والبندقية فلن تكف أي منهما عن الشجار تلبية لنداء أى عاهل ؛ وأما فرسان المعبد وفرسان التيوتون فقد إزدروا مصالحة هيو مع فيليب أمير مونتفورت ؛ وأما أعضاء كميون عكا فكانوا غيورين بنفس القدر مما كانت تحظى به صور من محاباة ، وقد كرهوا أن يروا نهاية المَلَكية الغائبة التى فى ظلها زادت قوتهم . كما لم يكن بامكان هيو استدعاء أتباعه القبرصيين لتعزيز سلطته . لقد كانت محاولته فى جعل حكمه فعّالا محكوما عليها بالفشل(٢٧).

ولم تكن الشؤون الخارجية مشجّعة . إذ أن ظل تشارلز (أوف آنجو) كان يغيم على عالم البحر المتوسط . وكانت هناك آمال عراض فى الشرق معلقة على حملة القديس لويس الصليبية الوشيكة ؛ بيد أن تشارلز حولها فى ١٢٧٠م لكى تخدم اهتماماته ؛ وبموت لويس فى تونس فى ذلك العام ، تحرر تشارلز من احترامه للإيثار

---

(٢٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 192-3.. وفيما بعد ظلت الأميرة مارجريت تزداد سمنة وبدانة وفقدت هيئتها. وكانت عند زواجها قد بلغت من العمر الرابعة والعشرين . أنظر أيضا *Lignages*, p. 462 ، وشجرة الأنساب أدناه ، والمرفق الثالث

(٢٧) See Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 645-6، وهو يبالغ من قدرات هيو فى ضوء ما تلى ذلك من أحداث . وانظر أيضا Hill, *op. cit.* p. 178.

الذى كان يتميز به لويس؛ وكان على علاقة ودودة مع السلطان بيبرس ، وإن كان فى أعماق نفسه يحمل العداوة للملك هيو ، وسبق أن انحاز ضده عندما أيد مطالبة هيو (أوف براين) فى عرش قبرص ، ومطالبة ماريا بعرش القدس . لقد كان من حسن حظ الشرق الفرنجى حقا أن كانت مطامح تشارلز الأساسية موجّهة ضد بيزنطة ؛ إذ كان من الواضح أن أية حملة صليبية يسهم فى مساعدتها سوف تتحول لتتناسب مع أهدافه الأنانية(٢٨).

١٢٦٩م : الحملة الصليبية لأطفال أراجون

ومع ذلك ، لم تكن الروح الصليبية قد ماتت تماما فى أوروبا . ففى أول سبتمبر ١٢٦٩م أبحر الملك جيمس الأول ملك أراجون(٢٩) من برشلونة بأسطول قوى لإنقاذ الشرق . ولم يكد ذلك الأسطول يقلع حتى هبّت ، لسوء حظه ، عاصفة مخرّبة اضطرت الملك والجزء الأكبر من أسطوله إلى العودة . ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير تحت إمرة ابني الملك من السفاح ، الطفلين فرناندو سانشيز وبيدرو فرنانديز ، ووصلوا عكا فى نهاية ديسمبر وكلهم تواق إلى محاربة الكفرة . وفى وقت مبكر من ديسمبر قطع بيبرس الهدنة مع هيو وظهر مع ثلاثة آلاف رجل فى الحقول أمام عكا، وترك جنودا آخرين مختبئين فى التلال. ورغب الأطفال فى الإسراع فى الحال لمهاجمة الأعداء ؛ ومارس فرسان العسكر ما فى وسعهم من مهارة لتهدئتهم ، وقد ارتابوا فى وجود كمين . وفضلا عن ذلك ، تقلصت أعداد المسيحيين بعد أن خرجت الكتيبة الفرنسية للقيام بغارة عبر مونتفورت، كان القهرمان جيوفرى (أوف سارجين) يقودها حتى وفاته فى ربيع ذلك العام ، مع قائدها الجديد أوليفر (أوف تيرم) ، والقهرمان الجديد روبرت (أوف كريسيك) بانصرافها إلى غارة عبر مونتفورت . ولمح هؤلاء المغيرون لدى عودتهم القوات الإسلامية . ورغب أوليفر (أوف تيرم) فى التسلل دون أن يلحظه أحد خلال حدائق الفاكهة عائدا إلى عكا ، لكن القهرمان روبرت أصر على مهاجمة الأعداء . وسقط الفرنسيون مباشرة فى الكمين الذى نصبه بيبرس لهم ، ولم ينج منهم سوى قلّة ضئيلة ، وعندما تنادى الجنود داخل عكا للذهاب لإنقاذهم ، قام أطفال

---

(٢٨) أنظر أعلاه ص ٣٤١.

(٢٩) (المترجم)، أراجون : Aragon اقليم فى شمال شرق اسبانيا . ومن القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كان مملكة تضم فى أوقات مختلفة سردينيا وصقلية ومناطق اخرى من البحر المتوسط.

أراجون - وقد لقنوا الدرس - بكبح جماحهم . ثم سرعان ما عادوا فيما بعد إلى أراجون دون أن يحققوا شيئا[٣٠].

وبرغم عدم كفاية مساعدة الغرب ، كان لا يزال هناك أمل في الشرق ؛ ذلك أن الخان أباغا في فارس كان يدين ، كشأن والده هولاكو ، بالشامانية الممزوجة بتعاطف مسيحي شديد[٣١]. وكان موت زوجة أبيه المسيحية - دوكوز خاتون - بمثابة انتزاع صديقة هام من إخوانها في الدين من كل المذاهب ؛ لكنهم وجدوا حاميا جديدا في شخص الأميرة ماريا البيزنطية ، التي كانت قد وصلت إلى بلاط الخان لتجد هولاكو ميتا ، وتزوجها أباغا على الفور، وسرعان ما أحاطها باحترام عميق ؛ وبجّلها رعاياه جميعا لطيبتها وحصافتها ، وكانت معروفة لديهم على أنها ديسبينا خاتون . وحثت أنباء حسن نوايا الخان ، ملك أراجون مع البابا كلمنت الرابع ، على إرسال جيمس الاريك (أوف بيربينيان) في بعثة إلى الخان في ١٢٦٧م للإعلان عن الحملة الصليبية المزمعة الأراجونية وحملة الملك لويس الصليبية، واقتراح تحالف عسكري . غير أن أباغا كان مشغولا للغاية بحربه مع القبيلة الذهبية ، ولذا كان رده مجرد وعود غامضة[٣٢]. ويتضح عجزه عما وراء ذلك في فشله في انقاذ أنطاكية من المماليك في العام التالي . وسرعان ما واجهته حرب جديدة مع أبناء عمومته من آل جاغاتاي الذين غزوا أراضيه الشرقية سنة ١٢٧٠م ورُدوا بعد معركة عنيفة بالقرب من حيرات . وفي السنتين التاليتين كانت المهمة الرئيسية هي إعادة فتح خطوط المواصلات مع عمه وسيده الأعلى الخان الأعظم قوبلاي في الصين[٣٣]. غير أنه في سنة ١٢٧٠م ، وبعد انتصاره في حيرات ، كتب للملك لويس يتعهد بتقديم مساعدة عسكرية فور ظهور الحملة الصليبية في فلسطين[٣٤]. ولكن الملك لويس ذهب إلى تونس حيث لا يستطيع المغول مساعدته. وكانت المساعدة العملية الوحيدة التي استطاع الخان تقديمها إلى المسيحيين هي تزويد

---

(٣٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 183-5 يخطىء في ذكر التاريخ في سنة ١٢٦٧م؛ *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 457-8; *Annales de Terre Sainte*, p. 454

(٣١) (المترجم) ، الشامانية Shamanism ، ديانة شعوب معينة في شمال شرقي آسيا تقوم على أساس الاعتقاد في أرواح الخير والشر التي لا تتأثر إلا بالشامان ، أي رجل الدين الشاماني

(٣٢) D'Ohsson, *Histoire des Mongols*, iii, pp. 539-42; Howorth, *op. cit.* iii, pp. 278-80. وعن شهرة ماريا أنظر Bar-Hebraeus, p. 505.

(٣٣) D'Ohsson, *op. cit.* pp. 442 ff..

(٣٤) *Ibid.* pp. 458-9.

هيثوم الأرمينى بأسير مملوكى بارز ، هو شمس الدين سنقر الأشقر ، الصقر الأحمر ، الذى أسره المغول فى حلب . ولإطلاق سراح ذلك المملوك ، وافق بيبرس على إطلاق سراح ليو ، وريث هيثوم ، وعقد هدنة مع هيثوم شريطة أن يتنازل الأرمن عن حصون الأمانوس في درباسك ، وبهسنا ، ورعبان ، ووُقعت الهدنة فى شهر أغسطس ١٢٦٨م وفى العام التالى عاد ليو إلى أرمينيا ، بعد أن سُمح له بالحج فى القدس . وعلى الفور تنازل أبوه عن العرش لصالحه وتقاعد فى أحد الأديرة حيث مات فى العام التالى . واعترف الخان أباغا بلقب ليو الجديد كملك ، وذهب ليو شخصيا اليه لتقديم احتراماته(٣٥).

١٢٧٠م : قتل فيليب أمير مونتفورت

ظل بيبرس هادئا طوال صيف سنة ١٢٧٠م ، لاحتمال الدفاع عن مصر ضد ملك فرنسا. غير أنه لكى يُضعف الفرنج ، أعد ترتيبات اغتيال البارون البارز الوحيد لديهم، فيليب أمير مونتفورت . وكان الحشاشون في سوريا يشعرون بالإمتنان للسلطان الذى حررهم بغزواته من ضرورة دفع إتاوة لفرسان المستشفى ، كما أنهم ازدروا بشدة المفاوضات الفرنجية مع المغول الذين دمروا مقرهم الرئيسى فى فارس . وبناء على طلب بيبرس أرسلوا أحد متعصبيهم إلى صور ، وهناك ادعى أنه متحول إلى المسيحية وتوغل يوم الأحد ١٧ أغسطس إلى داخل الكنيسة الصغيرة حيث كان فيليب وابنه جون يصليان ، وفجأة انقض عليهما ، وقبل أن تصل المساعدة كان فيليب قد أصيب بجرح مميت ، وامتد به الأجل إلى أن عرف أن قاتله قد اعتُقل وأن وريثه سليم بلا أذى . وكان موته بمثابة ضربة موجعة للشرق الفرنجى ؛ إذ أن جون ، برغم تكريس نفسه للملك هيو ، زوج أخته ، كان يفتقر إلى خبرة أبيه وهيبته(٣٦).

وكان موت الملك لويس أمام تونس من بواعث الإرتياح الكبير للسلطان الذى كان على استعداد للسير لمساعدة الأمير التونسى . وعلم أن ليس هناك ما يخيفه من

(٣٥) *Gestes des Chiprois*, p. 191; *Estoire d'Eracles*, pp.457, 463; Bar-Hebraeus, pp. 446-9; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 523-4; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 178. See Cahen, *op. cit.* p.718.

(٣٦) *Gestes des Chprois*, pp. 194-8; *Annales de Terre Sainte*, p. 454; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp80-3.

تشارلز (أوف أنجو) . وفى ١٢٧١م توغل مرة أخرى فى الأراضى الفرنجية ؛ وفى فبراير ظهر أمام صافيتا، الحصن الأبيض لفرسان المعبد . وبعد أن دافعت الحامية الصغيرة دفاعا حماسيا ، نصحها السيد الأعظم للنظام بالإستسلام ؛ وسُمح للباقين على قيد الحياة بالانسحاب إلى طرطوس، ثم واصل السلطان تقدمه إلى القلعة الضخمة لفرسان المستشفى Krak des Chevaliers أو قلعة الحصن ، التى وصل اليها يوم ٣ مارس . وفى اليوم التالى انضمت اليه فصائل من الحشاشين وكذلك المنصور صاحب حماه وجيشه ؛ وهطلت أمطار غزيرة لعدة أيام منعته من تثبيت آلات الحصار ؛ غير أنه فى ١٥ مارس، وبعد قصف قصير مركّز تمكن المسلمون من شق مدخل إلى برج البوابة فى الحاجز الخارجى . وبعد أسبوعين شقوا طريقهم إلى الحاجز الداخلى ، وراحوا يقتلون الفرسان الموجودين هناك ويأسرون الجنود الوطنيين ، وصمد الكثير من المدافعين لعشرة أيام أُخر فى البرج الكبير جنوب الحاجز ؛ وفى ٨ إبريل استسلموا وأُرسلوا بسلام إلى طرابلس . إن الإستيلاء على حصن الكرك ، الذى تحدى صلاح الدين نفسه ، مكّن بيبرس من السيطرة على المداخل المؤدية إلى طرابلس . ولقد تابع زحفه عليها واستولى على حصن عكار ، وهو حصن فرسان المستشفى جنوب البقاع الذى سقط فى أول مايو بعد حصار أسبوعين(٣٧).

وكان بوهمند فى طرابلس . ولخشيته من أن تشارك طرابلس مصير عاصمته الأخرى أنطاكية ، أرسل إلى بيبرس يتوسل اليه عقد هدنة . وسخر السلطان من افتقاره إلى الشجاعة وطلب أن يدفع كافة نفقات هذه الحملة المملوكية ، وكانت هناك بقية باقية فى معنويات بوهمند تعينه على رفض هذا الشرط المهين . وفى ذلك الوقت لم ينجح هجوم بيبرس على قلعة مراغة المبنية على صخرة قبالة الشاطىء بين بولونياس وطرطوس ، وكان سيدها ، بارثولوميو ، قد ذهب إلى البلاط المغولى ساعيا إلى طلب المساعدة . وتملك الغضب بيبرس لفشله حتى أنه حاول اغراء الحشاشين لقتل بارثولوميو أثناء رحلته(٣٨).

وفى نهاية مايو عرض بيبرس فجأة على بوهمند هدنة لعشر سنوات ، بلا شروط سوى الإحتفاظ بما استولى عليه مؤخرا . وبعد أن قبلها شرع فى رحلة العودة إلى مصر

---

(٣٧) Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp. 84-5; al-Aïni, pp. 237-9; Abu'l Feda, p. 154; *Gestes des Chiprois,* p.199; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 460.

(٣٨) hricht, Maqrisi, *Sultans,* I, ii, pp.86, 100; *Annales de Terre Sainte,* p. 455; R 'Derniers Temps' in *Archives d'Orient Latin,* ii, pp. 400-3.

ولم يتوقف إلا لكى يحاصر قلعة نظام التيوتون فى منتفورت التى استسلمت يوم ١٢ يونية بعد حصار أسبوع واحد[٣٩]. والآن لم يبق للفرنج أية حصون داخل البلاد ، وفى نفس الوقت تقريبا أرسل أسطولا من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص بعد أن سمع أن الملك هيو غادر الجزيرة إلى عكا . وظهر أسطوله فجأة أمام ليماسول ، غير أنه نظرا لسوء المهارة الملاحية شحطت إحدى عشرة سفينة ووقع بحارتها أسرى لدى القبارصة[٤٠].

١٢٧١م : وصول إدوارد الإنجليزى

ويعزى تسامح السلطان مع بوهمند إلى وصول حملة صليبية جديدة . وكان هنرى الثالث ملك انجلترا قد أخذ الصليب منذ أمد بعيد ، ولكنه الآن شيخ عجوز أنهكته الحروب الأهلية فشجع ابنه ووريثه الأمير إدوارد على أن يحل محله وينطلق إلى الشرق . وكان إدوارد فى بداية الثلاثينات من عمره ، ذا قوة واقتدار وبرود ، سبق له أن أظهر مواهبه كرجل دولة فى تعامله مع المتمردين على والده . واتخذ قراره بالخروج بحملته الصليبية بعد أن سمع بسقوط أنطاكية ، لكنه خطط لها بعناية وبصورة منظّمة . ورغم أن النبلاء الإنجليز وافقوا على مصاحبته ، إلا أنهم بدأوا يعتذرون الواحد تلو الآخر لسوء حظه ؛ وفى نهاية الأمر غادر الأمير انجلترا فى صيف ١٢٧١م ومعه مجرد ألف رجل وزوجته إلينور (أوف كاستيل) . وبعد أشهر قليلة تبعه أخوه إدموند (أوف لانكاستر) بالتعزيزات ، وكان أحد المرشحين فيما سبق للعرش الصقلى . كما صحبته فصيلة صغيرة من البريتون[٤١] بقيادة الكونت الذى يتبعونه ، وفصيلة أخرى من هولاندة بقيادة تيدالدو فيسكونتى ، رئيس أساقفة ليج . وكان إدوارد ينوى الإنضمام إلى الملك لويس فى تونس ومواصلة الإبحار معه إلى الأراضى المقدسة ، لكنه وصل افريقيا ليجد الملك ميتا، والجنود الفرنسيون على وشك العودة إلى بلادهم ؛ فأمضى الشتاء فى صقلية مع الملك تشارلز الذى كانت زوجته الأولى خالته ، وواصل الإبحار

(٣٩) *Gestes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles, loc. cit.*.

(٤٠) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p. 88; Abu'l Feda, p. 154; al-Aīni, pp. 239-40; *Gestes des Chiprois*, p. 199; *Estoire d'Eracles, loc. cit.*; *Annales de Terre Sainte, loc. cit.*.

(٤١) (المترجم) ، البريتون : Bretons أهل بريتانى Brittany ، إقليم شمال غرب فرنسا يشغل شبه جزيرة تقع بين القنال الإنجليزى وخليج بسكاى

فى الربيع التالى إلى قبرص ثم إلى عكا حيث هبط إلى البر يوم ٩ مايو ١٢٧١م . وسرعان ما انضم اليه الملك هيو والأمير بوهمند[٤٢].

وارتاع إدوارد من الحالة التي وجد عليها الشرق الفرنجى . وكان يعلم مدى صغر جيشه ، لكن الأمل كان يراوده فى توحيد مسيحيى الشرق ليصبحوا قوة مرعبة ثم يستخدم مساعدة المغول فى القيام بهجوم فعّال على بيبرس . وكانت صدمته الأولى أن للبنادقة تجارة مزدهرة مع السلطان ، يزودونه بكل ما يحتاجه من أخشاب ومعادن للأسلحة، بينما يبذل الجنويون ما فى وسعهم لإيجاد طريق لهم فى هذه التجارة المربحة وقد سيطروا فعلا على تجارة الرقيق فى مصر . وعندما وبّخ التجار على مسلكهم الذى يعرّض مستقبل مسيحيى الشرق للخطر ، أظهروا له التصاريح التى حصلوا عليها من المحكمة العليا فى عكا لهذه الأغراض . ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئا لمنعهم[٤٣]. ثم راودته الآمال فى أن يأتى جميع فرسان قبرص إلى مليكهم فى فلسطين ؛ غير أنه برغم مجيء بعض الإقطاعيين إلا أنهم أصروا على أنهم متطوعون ، وعندما طلب منهم الملك هيو البقاء فى سوريا طوال فترة وجوده هناك ، أعلن المتحدث بإسمهم فى صرامة، وهو ابن عم زوجته، جيمس (أوف إيبلين) ، أنهم لا يلتزمون بالخدمة إلا للدفاع عن الجزيرة، وأضاف متكبرا أنه لا ينبغى للملك أن يحتسب ذهاب النبلاء القبارصة للحرب فى ذلك البلد سابقة ، لأنهم كانوا كثيرا ما يفعلون ذلك بناء على طلب آل إيبلين بصورة أكبر مما كانوا يفعلونه بناء على طلب أى ملك ، وألمح إلى أن طلبه كان خليقا بأن يُلبّى لو أن هيو طلبه بطريقة أكثر مهارة . وطال الجدل حتى عام ١٢٧٣م ، عندما وافق القبارصة - بروح مصالحة نادرة - على أن يمضوا أربعة أشهر فى البلد الرئيسى إذا تواجد الملك أو وريثه مع الجيش . وفى ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ولم يحقق إدوارد هدفه[٤٤].

ولم يكن الأمير الإنجليزى أكثر نجاحا مع المغول . ذلك أنه ما أن وصل عكا حتى أرسل سفارة إلى الخان ، تتألف من ثلاثة من الإنجليز هم رينالد روسيل ، وجودفرى ويليس ، وجون باركر . وكانت جيوش أباغا الرئيسية تحارب فى التركستان ، ومع

---

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles*, pp. 460-1.. وعن حملة ادوارد الصليبية أنظر.. Powicke, *King Henry III and the Lord Edward*, ii, pp. 597 ff.

(٤٣) hricht, 'Derniers Temps', p. 622; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 604-5. Dandolo, p. 380; R

(٤٤) *Assises*, i, pp. 347, 626, ii, pp. 427-34; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 462-4. See Hill *History of Cyprus*, ii, pp. 168-70.

ذلك وافق على أن يرسل ما يستطيعه من مساعدة. وفي ذات الوقت أرضي إدوارد نفسه ببضع غارات صغيرة عبر الحدود مباشرة .وفي منتصف اكتوبر ١٢٧١م وفي أباغا بوعده بأن اقتطع عشرة آلاف خيّال من حامياته فى الأناضول ، انساحوا جنوبا مرورا بعينتاب داخل سوريا وهزموا التركمان الذين كانوا يحرسون حلب ، وهربت حامية حلب المملوكية أمامهم إلى حماة ؛ وواصلوا زحفهم مرورا بحلب إلى معرة النعمان وأفاميا . ودب الذعر بين المسلمين المحليين ، لكن بيبرس الذى كان في دمشق لم يفاجأه الشعور بالخطر ؛ إذ كان معه جيش ضخم واستدعى التعزيزات من القاهرة . وعندما بدأ فى الزحف شمالا يوم ١٢ نوفمبر تقهقر المغول عائدين ، إذ أنهم لم يكونوا من القوة بما يكفى لمواجهة الجيش المملوكى كله بينما ظل أتباعهم الأتراك فى الأناضول ماكثين حيث كانوا . وانسحبوا إلى ما وراء الفرات محملين بالأسلاب(٤٥).

وبينما كان بيبرس منشغلا بالمغول ، قاد إدوارد الفرنج عبر جبل الكرمل للإغارة على سهل شارون ، لكن جنوده كانوا من القِلّة بحيث عجز عن قصف قلعة قاقون المملوكية الصغيرة التى تحرس الطريق العابر للتلال . وإذن ، فالمطلوب غزو مغولى أكثر فعالية وحملة صليبية أكبر إذا أراد أدوارد استعادة أى أرض(٤٦).

١٢٧٢م : هدنة بين إدوارد وبيبرس

وفى ربيع ١٢٧٢م تحقق الأمير إدوارد من أنه ينفق الوقت بلا طائل ، وكل ما كان يستطيعه فى غيبة قوة بشرية أكبر وفى غيبة الحلفاء هو أن يرتب هدنة تحفظ الشرق الفرنجى للوقت الراهن ، وكان بيبرس من ناحيته على استعداد للهدنة ، إذ أن بقايا المملكة الفرنجية البائسة واقعة تحت رحمته طالما لا تعوقه تعقيدات خارجية . وكانت أولى مهام جيشه هى التصدى للمغول الذين ينبغى كبح جماحهم بالطرق الدبلوماسية فى الأناضول وفى السهوب . وإلى أن يشعر بالأمان فى تلك الجبهة ، فإن الإستيلاء على آخر القلاع الفرنجية لا يتطلب منه جهدا كبيرا ، وفى الوقت ذاته ينبغى له منع التدخل من الغرب ، ولذا يتعين المحافظة على حسن العلاقة مع تشارلز (أوف أنجو) وهو الوحيد الذى جلب مساعدة فعالة إلى عكا . غير أن طموح تشارلز الرئيسى

(٤٥) *Estoire d'Eracles,* ii, p. 461; Abu'l Feda, p. 154; D'Ohsson, *op. cit.* iii, pp. 459-60; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 601-2.

(٤٦) *Gestes des Chiprois,* pp. 200-1; *Estoire d'Eracles,* ii, p. 461.

هو غزو القسطنطينية ، ولا تمثل سوريا سوى مجال اهتمام ثانوي بالنسبة له ، وكان ضم سوريا إلى امبراطوريته مجرد أفكار غامضة في رأسه ، ولذا كان يرغب فى الحفاظ على وجودها ولا يفعل ما من شأنه زيادة قوة الملك هيو الذى كان يأمل فى أن يحل محله يوما ما؛ وكان مهيأً للوساطة بين بيبرس وإدوارد ، وفعلا تم توقيع معاهدة سلام يوم ٢٢ مايو ١٢٧٢م فى قيصرية بين السلطان وحكومة عكا ، تضمن للمملكة الاحتفاظ لعشر سنوات وعشرة أشهر بممتلكاتها الراهنة التى تتألف أساسا من سهل ساحلي ضيّق يمتد من عكا حتى صيدا ، إلى جانب الحق فى استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون عائق . أما كونتية طرابلس فكانت معاهدة ١٢٧١م تضمن سلامتها[٤٧].

وكان المعروف عن الأمير ادوارد رغبته فى العودة إلى الشرق على رأس حملة صليبية أكبر ؛ ومن ثم ، وبرغم المعاهدة، قرر بيبرس القضاء عليه . وفى ١٦ يونية ١٢٧٢م ، تنكّر أحد الحشاشين فى هيئة مسيحي وطنى وتوغل إلى غرفة نوم الأمير وطعنه بخنجر مسموم ، ولم يكن الجرح مميتا ، وإن ظل إدوارد مريضا بمرض خطير لعدة أشهر . وسارع السلطان بانكار ضلوعه فى هذا العمل بأن أرسل تهانيه بنجاة الأمير الذى ما أن تماثل للشفاء حتى أعد العدة للإبحار إلى وطنه ، وقد اعتلت صحته، ولم يعد هناك ما يفعله ، فأبحر من عكا يوم ٢٢ سبتمبر ١٢٧٢م[٤٨] عائدا إلى انجلترا ليجد نفسه ملكها.

١٢٧٢-١٢٧٤م : البابا جورج العاشر يجمع تقارير عن الحملات الصليبية

وكان رئيس أساقفة ليج ، الذى صحب إدوارد إلى فلسطين ، قد رحل فى الشتاء الفائت لدى سماعه بأنباء غير متوقعة بأنه قد انتخب بابا . ومنذ أن تولى البابوية باسم جورج العاشر لم يفقد اهتمامه بفلسطين قط ؛ وجعل مهمته الرئيسية العمل على إحياء الروح الصليبية ، فعُمّمت فى سائر أنحاء أوروبا مناشدته الرجال بأن يأخذوا الصليب ويحاربوا ، ووصلت بعيدا حتى فنلندا وأيسلندا ، وربما وصلت جرينلاند وساحل أمريكا

(٤٧) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 461-2; *Annales de Terre Sainte*, p. 455; Maqrisi, *Sultans*, i, ii, p. 102; al-Aïni, p. 247. See Delaville le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte*, p. 225.

(٤٨) *Gestes des Chiprois*, p. 201; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 462; Sanuto, p. 225. وقد ذكر Ptolemy of Lucca بعد مرور قرن من الزمان ، ولأول مرة ، أسطورة أن زوجة إدوارد ، إلينورا ، مصت السم من جرحه . أنظر Powicke, *op. cit.* p. 603.

الشمالية(٤٩) لكن لم تكن هناك استجابة وفي ذلك الوقت جمع تقارير توضح عداوة الرأى العام ؛ وقد أعدت هذه التقارير بمهارة ، فلم يمس أحدها المشكلة الأساسية وهي أن فكرة الحملة الصليبية نفسها قد هانت ذلك أن الثواب الروحانى موعود لمن يحارب اليونانيين ، الألبيجينسيين Albigenisians والهوهينشتوفن ، فباتت الحرب المقدسة مجرد وسيلة للسياسة البابوية العدوانية الضيقة ؛ بل إن مناصرى البابوية المخلصين لم يجدوا ما يبرر القيام برحلة شاقة إلى الشرق فى الوقت الذى تتاح فيه الفرص السانحة للفوز بمكاسب مقدسة فى حملات ذات متطلبات أقل فى شدتها.

وعلى الرغم من أن التقارير المرسلة إلى البابا توخت جانب الحرص فى انتقادها للسياسة البابوية، إلا أنها كانت صريحة بما فيه الكفاية فى تأكيد أخطاء الكنيسة . وهناك أربعة تقارير جديرة بالنظر: أولا (مجمل الفضائح الكنسية) Collectio de Scandalis Ecclesiae، وربما كان كاتب التقرير هو جيلبرت (أوف تورناى) وهو أحد الرهبان الفرنشيسكان الذى يذكر ما لحق بالحملات الصليبية من ضرر بسبب مشاحنات الملوك والنبلاء ، ركز على فساد رجال الدين وإساءة استخدام منح الغفران الذى تمنحه الكنيسة. وبينما كان كبار رجال الدين ينفقون أموالهم على اقتناء الجياد الأصيلة والقرود المستأنسة، كان عملاؤهم يجمعون الأموال فى مقابل الإعفاء من التعهد بأخذ الصليب. ولم يسهم أحد من رجال الدين فى دفع الضرائب المفروضة من أجل الحملات الصليبية ، رغم أن القديس لويس سبق أن أثار غضبهم برفض استثناءهم. هذا فى الوقت الذى فرضت فيه الضرائب على عوام الناس المرة تلو الأخرى من أجل حملات صليبية لم تحدث أبدا(٥٠).

أما التقرير الذى أرسله برونو أسقف أولموتز فقد اتخذ مسارا مختلفا ؛ إذ تحدث برونو كسابقه عن فضائح الكنيسة ، لكنه كان سياسيا . وقال إنه ينبغى أن يكون هناك سلام وإصلاح شامل فى أوروبا، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق امبراطور قوى ، وجاء فى تقريره ضمنا أن سيده الملك أوتوكار ملك بوهيميا هو المرشح الملائم لهذا المنصب . وأكد أن الحملات الصليبية فى الشرق لا معنى لها الآن وقد فات أوانها، ويتعين توجيه الحملات الصليبية لمحاربة الملحدين على الحدود الشرقية لأوروبا. وكان فرسان التيوتون

---

(٤٩) A. Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, pp. 361-4 .

(٥٠) قام Stroick بنشر وتحرير the *Collectio* فى تاريخ مخطوطات الفرنشيسكان *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. xxiv. See Throop, *op. cit.* pp. 69-104.

يسيؤون التصرف لما هم عليه من جشع وشهوة إلى السلطة ، أما إذا كانت موجّهة توجيها سليما عن طريق عاهل مناسب ، فهي خليقة بأن تأتي بمميزات مادية ودينة كذلك[٥١].

وقدّم وليم الطرابلسي ، وهو راهب دومينيكاني يعيش في عكا ، تقريرا بنّاءً نزيها، تضاءلت فيه آماله في حرب مقدسة في الشرق تُدار من أوروبا ، غير أنه كان متأثرا بنبوءات تقول إن نهاية الإسلام قد اقتربت بل في متناول اليد ، وكان اعتقاده أن المغول سيكونون هم محطمو الإسلام ؛ وقد حان وقت النشاط التبشيري ، وهو كعضو في نظام تبشيري فإنه يؤمن بقوة المواعظ ، وهو مقتنع بإمكان الفوز بالشرق عن طريق البعثات التبشيرية وليس السيف . وكان يؤيده في رأيه هذا مفكر عظيم للغاية ، وهو روجر بيكون[٥٢].

أما أكثر التقارير اكتمالا فقد كتبها راهب دومينيكي آخر ، هومبرت أوف رومانز، وهو الرئيس العام السابق للنظام . وقد كتب تقريره (العمل الثلاثي) Opus Tripartitum تمهيدا لإنعقاد مجلس عام لمناقشة الحملة الصليبية ، وانفصال الكنيسة اليونانية ، وإصلاح الكنيسة . وهو لا يعتقد في امكانية تحويل المسلمين إلى المسيحية ، رغم الوعد الإلهي بتحول اليهود وإمكان تحول ملحدى أوروبا الشرقية . وارتأى أن ذهاب حملة صليبية أخرى إلى الشرق أمر أساسي ؛ وأورد شرور الكسل والبخل والجبن التي تُثبّط همم الرحال عن الإبحار شرقا . وتأسّى لحب الوطن الذى يمنعهم من الرحيل إلى الشرق والتأثير الأنثوى الذى يحاول ربطهم بمرسى الوطن . والأسوأ من كل ذلك أن لا أحد بات يؤمن الآن في المزايا الروحانية الموعودة لمن يصبح صليبيا ، اللهم سوى القليل . ويقينا فإن هذا الإنكار الذى يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرا انتشارا واسعا ؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من المنشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد في حاجة إلى الحملات الصليبية . وأخفقت مقترحات هومبرت في مناهضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة ؛ فلا جدوى في مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن الهزائم والإهانات

---

(٥١) نشر Hofler مذكرات برونو في *Proceeding of the Bavarian Academy of Science,* 1846. وانظر Throop, *op. cit.* pp. 105-14.

(٥٢) See William of Tripoli, *De Statu Saracenorum, passim;* also Roger Bacon, *Opus Majus,* iii, pp. 120-2. ويوجه اللوم الى الغربيين لعدم إقبالهم على تعلم اللغات الأجنبية ليستعينوا بها في أعمالهم التبشيرية

تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرحال بأن الحملة الصليبية هي أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أمست محاولة متأخرة للغاية . وأما إصلاح رحال الدين ، الذى أيده هومبرت بشدة ، فربما كانت فيه بعض الفائدة . على أن نصيحة هومبرت ، كخطة عملية لاستمالة عواطف العوام ، كانت ضئيلة القيمة ، ومن ثمّ جاءت توصياته بالإعداد لحملة صليبية كانت سابقة لأوانها، وهى توصيات تشمل ضرورة وجود برنامج للصلوات والصوم واقامة الطقوس ؛ وضرورة دراسة التاريخ ؛ ويتعين وجود هيئة من المستشارين الدينيين والمتمرسين ؛ وينبغى أن يكون هناك حيشا مرابطا من الصليبيين. أما عن التمويل ، فقد ألمع هومبرت إلى أن الوسائل البابوية لجباية الأموال لم تكن دائما تحظى بالشعبية ، وأعرب عن اعتقاده أنه فى حالة قيام الكنيسة ببيع جزء من كنوزها الضخمة ووسائل تزينها المفرطة فلسوف تتحقق نتائج سيكولوجية طيبة فضلا عن النتائج المادية . غير أنه ينبغى للأمراء وكذلك القائمين على الكنيسة القيام بدورهم(٥٣).

١٢٧٤م : مجمع ليون

بعد أن تسلّح البابا جريجورى العاشر بكل هذه النصائح ، التى لم تطمئنه كثيرا ، أعلن عن عقد مجمع يعقد فى ليون ، وافتتحت دوراته فى شهر مايو ١٢٧٤م . وكثر الحاضرون من الشرق يقودهم بول (أوف سينى) أسقف طرابلس ، كما حضر وليم (أوف بيجو) المنتخب حديثا سيدا أعظم لنظام فرسان المعبد . غير أن ملوك العالم المسيحى تجاهلوا الدعوات الملحّة المرسلة اليهم ؛ إذ اعتذر فيليب الثالث ملك فرنسا عن الحضور ، وحتى إدوارد الأول الذى كان البابا جريجورى يعتمد عليه بصورة خاصة احتج بشواغل فى الوطن ؛ ولم يظهر سوى جيمس الأول ملك أراجون ، وهو عجوز ثرثار ، لم يحقق شيئا فى محاولته الأولى مع حملة صليبية شرقية ، لكنه كان صادق التلهف على وسيلة مدوية للإنطلاق فى مغامرة أخرى ، لكنه سرعان ما أصابه الضجر من المناقشات وسارع عائدا إلى أحضان عشيقته اللادى برينجاريا . ووعدت وفود من الامبراطور البيزنطى ميخائيل بالعمل على إخضاع كنيسة القسطنطينية ؛ إذ كان ميخائيل مرعوبا من طموحات تشارلز (أوف آنجو) ، بيد أنه كان وعدا لا سبيل

---

(٥٣) فيما يتصل بمسألة الضرائب الواردة فى *Opus Tripartitum* أنظر Throop, *op. cit.* p.147 n.1. ويورد Throop ملخصا مكتملا جدا للمحتويات ، *ibid.* pp. 147-213.

لتحقيقه ، فليس لرعايا الامبراطور ضلع فيه . وكان النجاح الوحيد للمجمع هو اتحاد الكنائس الذى ولد ميتا . ولم يتحقق شيء له حدواه من إصلاح الكنيسة ؛ وبينما كان الجميع على استعداد للحديث عن الحملة الصليبية ، لم يتقدم أحد بعروض ذات فائدة بصورة خاصة تعتبر ضرورية لإطلاق تلك الحملة الصليبية.

ومع ذلك ، تشبث جريجورى وسعى إلى جعل حكام أوروبا ينفذون القرارات المصطبغة بالورع التى أصدرها المجمع . وفى ١٢٧٥م أخذ فيليب الثالث الصليب ؛ وفى وقت لاحق من تلك السنة حذا حذوه رودولف الهابسبورجى[٥٤]، لقاء وعد بتويجه بمعرفة البابا فى روما . وفى ذات الوقت حاول جريجورى تهيئة الأراضى المقدسة لمجيء الحملة الصليبية ؛ فأمر بترميم القلاع وإرسال المزيد والأفضل من المرتزقة . ومن تجربته الشخصية فى الشرق بدا أنه انتهى إلى أن حكومة الملك هيو لا أمل يرتجى منها؛ ولذلك كان متعاطفا مع مطالب ماريا الأنطاكية وشجعها على بيع مطالبها لتشرلز (أوف آنجو) الذى أراده أن يهتم بالشرق الفرنجى بصورة أكثر فعالية ، ليس فقط من أجل رفاهية هذا الشرق الفرنجى وإنما أيضا ليحول انتباهه عن طموحاته فى بيزنطية[٥٥]. بيد أن خطط البابا جريجورى كلها قد باءت بالفشل . وعندما مات فى ١٠ يناير ١٢٧٦م لم تكن هناك حملة صليبية فى طريقها إلى الشرق ، ولا أحد يرغب فى الرحيل.

أما الملك هيو فى قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها، وإنما يريد مجرد الحفاظ على الهدنة مع بيبرس ، ومع ذلك لم تفعل الهدنة سوى القليل لتحسين وضعه . وفى سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فبوفاة جون الثانى الإبلينى انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التى تُركت أرملة عذراء فى ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلا ؛ ذلك أن افتقارها إلى العفّة وخاصة علاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا فى إصدار مرسوم بابوى حثّها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفى ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها لإنجليزي - هامو الأجنبى - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرتاب فى الملك هيو فعندما حضرته الوفاة فى العام التالى وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيبرس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة

---

(٥٤) (المترجم) رودلف الهابسبورجى Rudolph of Hpsburg ، أسرة هابسبورج أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا-وهنجاريا (١٢٧٨-١٩١٨) ، وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠)، والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٣٨-١٨٠٦).

(٥٥) See Hefele-Leclercq, *op. cit.* VI, i,pp. 67-8,153 ff.; Throop,*op. cit.*pp.262-82.

وإعادتها إلى قبرص ليزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالعهد الذى أوصى به هامو وطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عُين حارس مملوكي لحمايتها(٥٦) ولم يتمكن هيو من إستئناف سيطرته على اقطاعية بيروت إلا بعد وفاة بيبرس بوقت طويل . وتزوجت إيزابيلا من زوجين آخرين قبل وفاتها فى سنة ١٢٨٢م تقريبا عندما انتهت بيروت إلى أختها إيشيفا، زوجة همفرى (أوف مونتفورت) الذى كان صديقا وفيا للملك(٥٧).

١٢٧٥م : الوصاية فى طرابلس

كانت انتكاسة هيو الثانية في طرابلس . فقد مات بوهمند السادس – آخر أمراء أنطاكية – في ١٢٧٥م تاركا ابنه بوهمند عن حوالى أربعة عشر عاما وابنته الأصغر لوسيا . وطالب الملك هيو بالوصاية على طرابلس باعتباره الوريث الذكر التالى لبيت أنطاكية ؛ غير أن الأميرة المسنّة سيبيلا الأرمينية باشرت المنصب على الفور إذ أن تقاليد العائلة تخول لها ذلك ، وعندما وصل الملك هيو إلى طرابلس لتحقيق مطالبته وجد أن بوهمند السابع الصغير قد أُرسل إلى بلاط خاله الملك ليو الثالث الأرمينى ، ووجد أسقف طرطوس ، بارثولوميو ، يباشر إدارة المدينة باسم سبيلا ، ويبدو أن بارثولوميو هذا ينتمى إلى عائلة مانسل الأنطاكية العظيمة ، ولم يساند أحد فى طرابلس الملك هيو إذ أن بارثولوميو كان يحظى بشعبية كبيرة آنذاك ، وكان عدوا لدودا لأسقف طرابلس بول (أوف سينى) وهو خال بوهمند السادس ، وعدوا كذلك لجميع الرومان الذين عيّنهم فى الكونتية بالإشتراك مع لوسين . وبتأييد من النبلاء المحليين قامت سبيلا وبارثولوميو بقتل بعض الرومان ونفى البعض الآخر . ولسوء الحظ كان أسقف طرابلس ، بول ، يحظى بتأييد نظام فرسان المعبد وقد قابل السيد الأعظم للنظام فى

---

(٥٦) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 462; Ibn al-Furat, in Reinaud, *Chroniqueurs Arabes*, p. 532.
ويُظهر بويك Powicke, *op. cit.* p.6006 n.1 أن إسم زوج إيزابيلا كان هرمر وليس إدموند . ويقبل هيل Hill, *op. cit.* p. 137 n.2 الرأى القائل أن علاقتها كانت بجون أمير يافا . غير أن ذلك يثير صعوبات فيما يتعلق بتأريخ الأحداث ؛ فقد مات جون أمير يافا سنة ١٢٦٦م . وفضلا عن ذلك، كان جون يتمتع باحترام كبير ، بينما كان المشهور عن جوليان أن حياته كانت حياة انحلال . وكانت زوجة جون هي أخت الملك هيثوم الذى مات فى ١٢٦٩م ، بينما كانت زوجة جوليان هى أخت خليفة هيثوم . والأرجح كثيرا أن المرسوم البابوى أخطأ حيل الأميرة

(٥٧) *Lignages*, p. 462; Ducange-Rey, *Familles d'Outremer*, pp. 235-6.

بجمع ليون. وعندما جاء برهمند السابع من أرمينيا سنة ١٢٧٧م لإستلام الحكم واجهته عداوة النظام التي لا هوادة فيها(٥٨).

وفقط في اللاذقية الأبعد إلى الشمال فاز هيو بنصر ضئيل . إذ كانت اللاذقية هي كل ما تبقى من إمارة أنطاكية ، واعتبر بيبرس أنها لا تندرج تحت أي من معاهدتيه مع طرابلس أو عكا ، وكانت جيوشه تحيط بها عندما استنجد مواطنوها مباشرة بالملك هيو الذي استطاع التفاوض على هدنة مع السلطان الذي سحب بدوره جنوده نظير إتاوة سنوية قدرها عشرين ألف دينار وإطلاق عشرين أسيرا من المسلمين(٥٩).

ولم يمض وقت طويل حتى امتدت مشكلات هيو إلى عكا نفسها . فقد كان كوميون عكا مستاءً من حكمه المباشر ، بينما أخذت العداوة تتزايد ضده من جانب نظام المعبد الذي شعر بالإمتعاض من مصالحته مع آل مونتفورت ، وعارض توليه العرش؛ أما نظام المستشفى ، الذي لا بد وأنه كان يعتمد على حسن نواياه ، فقد تضاءلت أهميته بعد ضياع مقره الرئيسي في الكرك؛ وكانت القلعة العظيمة الوحيدة الباقية لفرسان المستشفى هي قلعة المرقب التي تشرف من قمة تلها العالي على بولونياس. وقد سبق أن كتب السيد الأعظم لنظام المستشفى ، هيو (أوف ريفيل) في ١٢٦٨م قائلا إن النظام يحتفظ الآن بثلاثمائة فارس وحسب في الشرق الفرنجي بعد أن كانوا عشرة آلاف في الأيام الخوالي ، غير أن النظام كان لا يزال يملك مقره الرئيسي في طرطوس وكذلك في صيدا وقلعة عثليت العظيمة ، بينما زاد من قوته علاقاته المصرفية مع العالم الشرقي كله(٦٠). وكان توماس بيرار ، السيد الأعظم للنظام من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٣م، مخلصا في أيامه الأولى للأوصياء القبارصة ، ورغم أن كراهيته للملك هيو كانت آخذة في التزايد إلا أنه لم يتحداه صراحة قط ؛ لكن خليفته وليم (أوف بوجو) كان من معدن آخر ؛ إذ كان من أقرباء البيت الملكي الفرنسي ، وكان عزيز النفس طموحا نشيطا . وعندما انتخب كان في أبوليا في أراضي ابن عمه تشارلز (أوف آنجو) وجاء إلى الشرق بعد ذلك بسنتين وقد عقد العزم على دفع مشاريع

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 466-7,481; *Gestes des Chiprois*, p. 202.

(٥٩) Maqrisi, *Sultans*, I, ii, p. 125; Muhi ad-Din in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, ii, p.685.

(٦٠) (المترجم) العالم الشرقي : Levant اللفظ مشتق من الأصل اللاتيني levare بمعنى ينهض أو يشرق، والتسمية تنطبق على منطقة شرق البحر المتوسط بما في ذلك جميع البلاد المطلة على البحر وهي اليونان وتركيا والشام ومصر

تشارلز ولذا عارض الملك هيو من البداية.

١٢٧٦م : الملك هيو يتقاعد في قبرص

وفى أكتوبر ١٢٧٦م اشترى نظام المعبد قرية تسمى لافوكونارى - تقع على بعد أميال قليلة جنوب عكا - من مالكها توماس (أوف سانت برتين) ، وتعمد ألا يطلب موافقة الملك على الصفقة ، وتجاهل شكاواه . ومع هذه المضايقات من الأنظمة الدينية العسكرية ، ومن كوميون عكا ، ومن المستعمرات التجارية ، عقد هيو العزم على مغادرة تلك المملكة الجاحدة . وفجأة جمع مقتنياته وانسحب إلى صور متوريا الإبحار منها إلى قبرص ، وغادر عكا دون أن يعيّن وكيلا. وابتهج فرسان المعبد وكذلك البنادقة حلفاؤهم الموثوقين ؛ بيد أن البطريق توماس (أوف لينتينو) وفرسان المستشفى وفرسان التيوتون وكذلك الكميون وأبناء جنوا أصيبوا بصدمة وأرسلوا الوفود إلى صور يتوسلون اليه على الأقل أن يعيّن نائبا ؛ لكنه كان من الغضب أول الأمر بحيث لم يستمع اليهم ؛ وربما أقنعته حجج جون (أوف مونتفورت) فعيّن باليان الإبليني - ابن جون أمير أرصوف - وكيلا كما عيّن قضاة لمحاكم المملكة. وبعد ذلك مباشرة أبحر إلى قبرص ليلا دون أن يخطر أحدا . ومن قبرص كتب إلى البابا ليبرر تصرفه[٦١].

وكانت مهمة باليان عسيرة .إذ كانت هناك أعمال شغب فى شوارع صور بين تجار مسلمين من بيت لحم تحت حماية فرسان المعبد وتجار نساطرة من الموصل كان رؤساؤهم فرسان المستشفى . واشتعلت العداوات مرة أخرى بين البنادقة والجنويين ؛ ولم يستقم أمر أى حكومة إلا بمساعدة البطريق وفرسان المستشفى[٦٢].

وفى سنة ١٢٧٧م استكملت ماريا الأنطاكية بيع حقوقها لتشارلز (أوف آنجو) الذى اتخذ على الفور لقب ملك القدس. وأرسل روجر (أوف سان سيفيرينو) كونت مارسيكو مع قوة مسلحة إلى عكا ليصبح وكيلا له، وبفضل مساعدة نظام المعبد والبنادقة ، تمكن روجر من الهبوط إلى البر فى عكا حيث قدم أوراق اعتماده الموقعة من تشارلز ومن ماريا ومن البابا جون الحادى والعشرين . وأحرج باليان الإبلينى حرجا

---

(٦١) *Estoire d'Eracles,* ii, pp. 474-5; *Gestes des Chiprois,* p. 206 (post-dating the episode). See Delaville le Roulx, *op. cit.* pp. 210-29.

(٦٢) *Estoire d'Eracles, loc. cit.; Gestes des Chiprois, loc. cit.*.

شديدا ؛ فليس لديه تعليمات من الملك هيو ، وكان يعلم أن فرسان المعبد والبنادقة على استعداد لحمل السلاح نيابة عن روجر ، بينما لم يكن هناك وعد من البطريق ولا من فرسان المستشفى بالتدخل ؛ ولكي يتجنب إراقة الدماء سلّم القلعة للأنجيفيين[٦٣]. ورفع روجر علم تشارلز وأعلن أنه ملك القدس وصقلية ثم أمر بارونات المملكة أن يقدموا الولاء له هو نفسه باعتباره وكيل الملك . وتردد البارونات بوازع من حبهم لهيو أقل من كراهيتهم لقبول انتقال التاج بلا قرار من المحكمة العليا . ولكي يحافظوا على بعض الشرعية أرسلوا الوفود إلى قبرص ليسألوا ما إذا كان هيو يحررهم من الولاء له ؛ ورفض هيو أن يرسل ردا . وأخيرا هدد روجر الذى كان بيده الأمر والنهي بمصادرة ضياع الذين يرفضون تقديم ولائهم له ، لكنه أتاح فرصة أخرى للرجوع إلى هيو ، وكانت عقيمة بنفس القدر ؛ ولذا خضع البارونات لروجر ، وسرعان ما اعترف به بوهمند السابع وكيلا قانونيا. وعيّن روجر بعض الفرنسيين من بلاط تشارلز كمسؤولين رئيسيين أمامه ؛ فأصبح أودو بوالشيان قهرمانا، وريتشارد (أوف نيوبلانز) كونستابلا، وجيمس فيدال رئيسا عسكريا[٦٤].

وجاءت هذه الترتيبات على هوى بيبرس؛ فبإمكانه أن يثق في أن مثل تشارلز لن يستحث حملة صليبية جديدة ولن يتآمر مع المغول ، وبهذا الشعور بالأمان كان على استعداد للسماح للشرق الفرنجي بالبقاء لسنوات أخرى قليلة ، وفي الوقت نفسه يستطيع المبادرة بالهجوم على الخان . وكان أباغا مدركا للخطر ، ولذا كان تواقا لإقامة تحالف مع الغرب . وفي ١٢٧٣م أرسل خطابا إلى عكا موجّه إلى إدوارد ملك انجلترا ، يسأل متى تصل حملته الصليبية التالية . وقام بنقل الرسالة إلى أوروبا دافيد وهو دومينيكي كان راعيا للبطريق توماس (أوف لينتينو). وأرسل إدوارد ردا ودودا اعتذر فيه قائلا إنه لا هو ولا البابا قد قرر متى يمكن أن تذهب حملة أخرى إلى الشرق . وفي العام التالي ظهر مبعوثون مغول في مجمع ليون ، وقام كردينال أوستيا - الذى صار لاحقا البابا إينوسنت الخامس - بتعميد اثنين منهم . وكانت الردود التي تلقياها من البابا وإدارته مرة أخرى ودودة ولكنها غامضة . وفي خريف ١٢٧٦م عاود الخان

---

(٦٣) (المترجم) الأنجيفيين : Angevins نسبة الى آنجو Anjou أو ينتمي الى ملوك الخط الإنجليزى من عائلة بلانتاجين (١١٥٤-١٣٩٩).

(٦٤) *Estoire d'Eracle*, pp. 478-9; *Gestes des Chiprois*, pp.206-7; Amadi,p.214; Sanudo, pp.227-8; John of Ypres in Martène and Durand, *Thesaurus Novus Anecdotorum*,vol. iii,col.755.

المحاولة مرة أخرى ؛ فقد هبط إلى البر فى إيطاليا اثنان مـن الجورجيين ، همـا الأخـوان جون وجيمس فاسيلي ، لزيارة البابا ومعهما أوامر بالذهاب إلى بلاطي فرنسا وانجلترا ، وكانا يحملان رسالة شخصية من أباغا إلى إدوارد الأول ، اعتذر فيها عن أن مسـاعدته فـى سـنة ١٢٧١م لم تكـن فعّالـة علـى نحـو أكـبر . ولم يسـفر أى مـن هـذه الأنشـطة الدبلوماسية عن أية نتيجة. وكان الملك ادوارد يأمل مخلصا فى الذهاب فى حملة صليبيـة أخرى ، بيد أنه لم يكن هو ولا فيليب الثالث ملك فرنسا مستعد لذلك بعد .وكـانت الإدارة البابوية تحت النفـوذ الشـرير لتشـارلز (أوف آنجـو) الـذى كـان يكـره المغـول باعتبارهم أصدقاء أعدائه البيزنطيين والجنويين ، والذى كـان يقيـم سياسـته كلهـا علـى أساس التفاهم مع بيبرس . وكان الباباوات يراودهم أمل متفائل فى الترحيب بالمغول فى حظيرة الكنيسة ، لكنهم لم يتحققوا من أن الوعد بالمثوبة فى السماء لم يكن إغراءً كافيا للخان . بل حتى النداءات التى أطلقها ليو الثـالث الأرمينـى ، الـذى كـان فـى الوقـت نفسه تابعا مخلصا للخان وعلى اتصال وثيق بروما ، لم تسفر عن أيـة نتيجـة عمليـة مـن البابوية[٦٥].

١٢٧٧م : بيبرس يغزو الأناضول

تمكن بيبرس من تنفيذ مخططاته دون تهديد من الغرب بالتدخل. ففى ربيع ١٢٧٥م قاد بنفسه غارة داخل كيليكيا خرب فيها مدن السهل ، بيد أنه لم يتمكـن مـن التوغـل إلى العاصمة سيس . وبعد سنتين قرر غزو الأناضول . وكان السـلطان السـلجوقى الآن طفلا هو قيخوسرو الثالث ، وكان وزيره سليمان حامل الأختـام بمثابـة القـوة الرئيسـية فى البلاد، غير أنه كان عاجزا عن السيطرة على الإمارات المحلية التى كـانت آخـذة فـى الظهور ، وأهمها إمارة الكارامانيين ؛ وكان للخان محمية واسعة فى السـلطنة ، يفـرض وجودها حامية مغولية كبـيرة . وفـى ١٨ إبريـل ١٢٧٧م اجتـث المماليك شـأفة هـذه الحامية فى البستان ؛ وبعـد خمسـة أيـام دخـل بيـبرس قيصريـة مازاكـا ، فسـارع وزيـر السلطان – سليمان – والأمـير الكارامـانى إلى تهنئـة المنتصـر ؛ غـير أن أباغـا استشـاط غضبا وقاد بنفسه جيشا مغوليا فى استعراضات شاقة إلى داخـل الأنـاضول . ولم ينتظـر بيبرس وصوله ، وإنما تقهقر إلى سوريا ، واستعاد أباغا بسرعة السـيطرة على السـلطنة

---

(٦٥) William of Nangis, pp. 540, 564; D'Ohsson, *op. cit.* iii, pp. 543-9; Powicke, *op. cit.* p.602 n.1; iii,, pp. 280-1 *op. cit.* Howorth,.

السلجوقية . وألقى القبض على سليمان الخائن وقتله ، وقالت الشائعات إن لحمه قُدم مطهيًا فى أطباق على مأدبة الخان الرسمية التالية(٦٦).

وفاة بيبرس

ولم يعش بيبرس طويلا بعد مغامرته فى الأناضول. وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فاستنادا إلى بعض المؤرخين مات متأثرا بجراحاته التى أصيب بها فى حملته الأخيرة ؛ واستنادا إلى البعض الآخر أفرط فى شراب القُمّز ، وهو لبن الفرسة المخمر الذى يحبه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هى أنه أعد القُمّز المسموم للأمير الأيوبى صاحب الكرك ، القاهر ابن الناصر داود الذى كان مع جيشه والذى أساء اليه، ثم شرب باهمال من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات يوم أول يولية ١٢٧٧م(٦٧).

ولقد أزاح موته أعدى أعداء المسيحية منذ صلاح الدين . فعندما أصبح بيبرس سلطانا كانت الأراضى الفرنجية تمتد بطول الساحل من غزة إلى كيليكيا، مع وجود قلاع ضخمة فى داخل البلاد لحمايتها من الشرق . وعلى مدى حكمه الذى استمر سبع عشرة سنة حصر الفرنج فى مدن قليلة بطول الساحل ، عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، مع مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعتى عثليت ومرقب . ولم يطل به العمر ليشهد إزالتها إزالة كاملة ، بيد أنه جعل إزالتها أمرا حتميا. وكانت شخصيته تتميز بقليل من الخصال التى أكسبت صلاح الدين الإحترام حتى من أعدائه . لقد كان قاسيا، غير مخلص، خؤونا ، بأخلاقه غلظة ، وفى كلامه خشونة . ولم يكن بوسع رعاياه أن يحبوه ، لكنهم منحوه أعجبوا به بحق، إذ أنه كان جنديا حاد الذكاء وسياسيا ماهرا، وإداريا حكيما، سريعا فى اتخاذ قراراته وكتمانها ، وكانت أهدافه واضحة له تماما . وبرغم أنه كان مسترقا فى الأصل فقد رعا الفنون وتوسع فى البناء، فعل الكثير لتجميل مدنه وإعادة عمارة قلاعه . وكرجل كان شريرا ، لكنه كحاكم كان من بين أعظم حكام زمانه.

(٦٦) Abu'l Feda, p. 165; Maqrisi, *Sultans*,ı, ii, pp.144-5; Bar-Hebraeus, pp. 456-9; D'Ohsson, *op. cit.* pp. 486-9. See Howorth, *op. cit.* iii, pp. 252-6.

(٦٧) Maqrisi, *Sultans*, ı, ii, p.150; Abu'l Feda, pp. 165-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 208-9; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 193; Bar-Hebraeus, p. 458.

الباب الرابع:

نهاية الشرق الفرنجي

الفصل الأول:

تجارة الشرق الفرنجي

تجارة الشرق الفرنجى

"بكثرة تجارتك ملأوا جوفك ظلما فأخطأت"

(حزقيال ٢٨:١٦)

على مدى تاريخ الشرق الفرنجى ، كانت القضية المباشرة فيها بين المسيحية والإسلام يعتورها شيئ من الغموض أو العِوَج. ذلك أن المستعمرات الفرنجية كانت واقعة فى منطقة تشتهر بالغنى ، وبأنها يقينا تسيطر على بعض أعظم الطرق التجارية فى العالم. وكانت طموحات المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تتعارض أحيانا مع الانتماء الدينى، وكانت هناك مناسبات تطلبت فيها احتياجاتهم الإنسانية الأساسية مصادقة جيرانهم المسلمين.

ولم تكن هناك قوة تجارية دافعة وراء إطلاق الحملة الصليبية الأولى . أما المدن البحرية الإيطالية ، التى كان تجارها أخبث جامعى الأموال فى عصرهم ، فقد استشعرت الخطر بادئ الأمر نتيجة لتلك الحركة التى كان يمكن أن تقضى على العلاقات التجارية التى أقيمت مع مسلمى الشرق ؛ وحينما نجحت الحملة الصليبية

وأنشئت المستوطنات الفرنجية فى سوريا ، عرض الإيطاليون مساعدتهم وقد تحققوا من إمكان استخدام المستعمرات الجديدة لصالحهم . وكان الحافز التجارى الذى دفع الصليبيين، يتمثل فى شدة الرغبة فى الأرض فيما بين النبلاء الأقل فى فرنسا والبلاد الواطئة ، وشوق الفلاحين هناك إلى الفرار من بيوتهم الموحشة المحرومة ، ومن الفيضانات والمجاعات التى حدثت فى السنوات الأخيرة ، والهجرة إلى الأراضى ذات الثراء الأسطورى . وقد وجد كثيرون من البسطاء غموضا شديدا فى التمييز بين هذ الحياة التى يعيشونها والحياة الآخرى ؛ وخلطوا بين أورشليم الدنيوية وأورشليم الملكوت[1] وتوقعوا أن يجدوا مدينة مرصوفة بالذهب تفيض لبنا وعسلا . ولقد خدعتهم آمالهم ولم يفيقوا من الوهم إلا شيئا فشيئا ؛ إذ أن حضارة مدن الشرق ومستوى معيشتها الأعلى ، اتخذت مظهر الثراء الوفير ، وهذا ما كان الحجاج العائدون يقصونه على أصدقائهم . على أنه بمرور الوقت تناقص بريق تلك الأقاصيص . وبعد الحملة الصليبية الثانية لم تعد جماهير غفيرة من فلاحي الغرب تذهب باحثة عن بيوت جديدة فى الأراضى المقدسة . وظل النبلاء المغامرون يذهبون إلى الشرق لاكتساب الثروات ، ومن بين الصعوبات التى عرقلت تنظيم الحملات الصليبية المتأخرة غيبة الحافز الاقتصادى[2].

ولم تكن الأقاليم الفرنجية فى الشرق الفرنجى غنية بطبيعتها وفى حقيقة الأمر. وقد كانت هناك مناطق خصبة ، مثل سهل بزرعيل (إزدراليون) وسهل شارون وسهل أريحا، والشريط الساحلى الضيق الواقع بين جبال لبنان والبحر ، ووادى البقاع ، وسهل أنطاكية . بيد أنه بالمقارنة بما وراء الأردن وحوران والبقاع ، كانت فلسطين بلدا جدبا غير ذى زرع . وكانت أهمية الأردن للفرنج تكمن فيما تزرعه من حبوب بنفس قدر سيطرتها على الطريق الذاهب من دمشق إلى مصر[3]. وبدون مساعدة

---

(١) (المترجم) أورشليم الملكوت ، أو أورشليم الجديدة New Jerusalem ، المذكورة فى الإنجيل ، سفر الرؤيا ٢١:٢ "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيَّأة كعروس مزينة لرجلها"

(٢) يعتبر التاريخ الذى كتبه Heyd ، واسمه *Histoire du Commerce du Moyen Age* ، العمل الرئيسى للتاريخ الإقتصادى للحملات الصليبية . وقد نوقشت حديثا المسألة برمتها فى مقال هام كتبه Cahenبعنوان""Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III ، منشور فى *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*، مايو-يونية ١٩٥١. ويوردCahen أسباب تقليل الأهمية التجارية للدويلات الصليبية الى أدنى حد لها

(٣) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٢٧-٢٨.

الأردن، لم يكن الأمر سهلا دائما على مملكة القدس في أن تُطعم نفسها . وفي حالة الحصاد السيئ ، كان يتعين استيراد الحبوب من سوريا المسلمة(٤). وفي العقدين الأخيرين للشرق الفرنجي ، عندما كان الفرنج محصورين في مدن الشريط الساحلي ، كان لزاما استيراد الحبوب دائما.

منتجات الشرق الفرنجي

وكانت إمدادات المواد الغذائية الأخرى كافية . فكانت التلال توفر المراعي لأعداد كبيرة من الأغنام والماعز والخنازير . وكانت هناك حدائق للفاكهة والخضروات تحيط بكل المدن ، كما كانت أشجار الزيتون. وربما كان زيت الزيتون في واقع الأمر يصَدّر بكميات قليلة إلى الغرب ، بينما كانت الفواكه الفلسطينية النادرة ، كالليمون الحلو أو شراب الرمان أو الزبيب الأحمر، تشاهد أحيانا على موائد أثرياء إيطاليا(٥).

ومع ذلك ، كانت هناك منتجات قليلة يستطيع الشرق الفرنجي تصديرها على نطاق كبير يكفي لجلب قدر كبير من العوائد إلى البلد . وأهم تلك المنتجات هو السكر؛ فعندما وصل الصليبيون إلى سوريا وجدوا أن قصب السكر يزرع في مناطق ساحلية كثيرة وفي وادي الأردن ، فواصلوا زراعته وتعلموا من أبناء البلد طريقة استخلاص السكر من القصب . وكان هناك مصنع سكر ضخم في عكا، ومصانع في أغلب المدن الساحلية ، وكانت صور هي المركز الرئيسي لتلك الصناعة . وكان السكر المستهلك كله في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر يأتي من الشرق الفرنجي(٦). وتأتي الملابس بشتى أنواعها في المرتبة الثانية من مراتب التصدير الرئيسية ؛ فكانت دودة القز تُربّب حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس ، بينما كان

---

(٤) E.g. in 1185 . أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٤٩٦-٤٩٧.

(٥) كان رئيس أساقفة صور يمتلك ٢٠٤٠ شجرة زيتون في قرية واحدة فقط, Tafer-Thoma, *Urkunder*, p.299. أنظر Cahen, "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin II", in *Bulletin de* la faculté des lettres de Strasbourg (April, 1951), p. 293. Rey, *Les Colonies Franques*, p. 245; Heyd, *op. cit.* pp. 177-8. ويقول Burchard of Mount Sion في مؤلفه وصف الأرض المقدسة Description of the Holy Land إن حدائق الفاكهة المحيطة بطرابلس كانت تعود على أصحابها بعائد سنوي قدره ٣٠٠ ٠٠٠ بيزانت ذهبي. ed. P.P.T.S. p. 16

(٦) Heyd, *op. cit.* i, p. 179, ii, pp. 680-6; Cahen, *op. cit.* ii, p. 293; Rey, *op.cit.* pp.248-9

الكتان ينمو فى سهول فلسطين ، وكانت المواد الحريرية تباع للتصدير . وكانت الانسجة الحريرية المطرزة بالذهب والفضة تصنع فى عكا وبيروت واللاذقية ؛ وكانت صور تشتهر بقماش يعرف باسم زندادو أو سِندال . وكان للأقمشة الكتانية المصنوعة فى نابلس شهرة عالمية ، وكانت الأصباغ الأرجوانية الآتية من صور درازا عصريا للملابس . بيد أن الإيطاليين كانوا يستطيعون أيضا شراء الحرير والكتان فى أسواق سوريا ومصر حيث كانت الإمدادات أكبر والأسعار أرخص دائما(٧). وكذلك الحال مع الزجاج ؛ فكان اليهود فى شتى المدن ، خاصة صور وأنطاكية ، ينتجون الزجاج للتصدير ، بيد أن الزجاج المنتج فى مصر كان ينافس منتجاتهم. وربما كانت المدابغ لا توفر سوى الإحتياجات المحلية ، لكن الفخار كان يُصدّر أحياناً(٨).

وكانت هناك سوق دائمة للأخشاب فى مصر ؛ فمنذ أقدم العصور كان الأسطول المصرى يُبنى بالأخشاب المستجلبة من غابات لبنان أو التلال الواقعة جنوب أنطاكية ، هذا فضلا عمّا كان يحتاجه المصريون من أخشاب بمقادير كبيرة لأغراض البناء المعمارى. ونادرا ما كانت الحروب بين المصريين والدويلات الصليبية تقطع هذه التجارة لفترة طويلة(٩). وكانت هناك مناجم حديد بالقرب من بيروت، وإن بدا أن إنتاجها لا يكفى للتصدير(١٠).

وكانت تُصدَّر أنواع معينة من الأعشاب والعطارة ؛ أهمها المرهم ؛ الزيوت العطرية ولأنها تستخدم أساسا فى أوروبا فى طقوس الكنيسة ، يصبح الآتى منها من الأراضى المقدسة أكثر شعبية ، وفى القرن الثانى عشر كانت تزرع بمقادير كبيرة بالقرب من القدس ، غير أنه لم يكن من اليسير زراعة المحصول الذى يتطلب ريّا باهظ التكاليف . وبعد إعادة الفتح الإسلامى فى نهاية القرن تضاءلت زراعتها وسرعان ما

---

(٧) Heyd, *op. cit.* i, pp. 178-9, ii, pp. 612, 696, 699, 705 .وكانت بياضات نابلس خشنة بمقارنتهابتلك الى تنتج فى مصر (*ibid.* p.632 n.1). Rey, *op. cit.* pp.214-21. ويقول الإدريسى فى Idrisi (Arabic text, ed. Guildemeister, p.11) *Geography* إن نوعا معينا من الملابس البيضاء كان يُصنع فى صور

(٨) Heyd, *op. cit.* i, p. 179; Rey, *op. cit.* pp. 211-12 (quoting *Assises,* ii, p. 179), 224-5..
أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ص.٣٣٩-٣٤٠.

(٩) See Rey, *op. cit.* pp. 234-40, for the forests in Outremer.

(١٠) Idrisi, p.16، يقول إن الحديد كان يُرسل من بيروت الى سائر أنحاء سوريا

اختفت[١١].

التجارة العابرة

وكان حكام الشرق الفرنجي يحصلون على أكبر الإيرادات من البضائع التي كانت تمر عبر البلد؛ فكان هناك طلب متزايد في أوربا العصور الوسطى على البضائع الشرقية والعطارة والأصباغ والأخشاب المعطرة والحرير والخزف ، وكذلك بضائع من البلدان الإسلامية الواقعة على حدود الشرق الفرنجي . بيد أنه كان لزاما على هذه التجارة أن تتوقف على الظروف السياسية في آسيا ؛ فعندما بدأت الحملات الصليبية كانت أغلب تجارة الشرق الأقصى تأتي بحرا عبر المحيط الهندي فالبحر الأحمر إلى مصر ، وقد جذبها ما كانت عليه المدن المصرية من ثراء وما كان الحكم الفاطمي يوفره من أمان ، وبذا بعدت التجارة عن طريقها السابق أعلى الخليج الفارسي إلى بغداد . وكانت الموانى السورية تستخدم في تصدير البضائع المحلية دون غيرها، كأصباغ النِّيلة من العراق أو الأدوات المعدنية الدمشقية ، وأية عطارة من جنوب الجزيرة العربية تحمل في قوافل بدلا من القوارب . وفي نهاية القرن الحادي عشر ، لم تجد التجارة أو الصناعة في داخل سوريا تشجيعا بسبب الحروب الصغيرة التي أعقبت الغزوات التركية ؛ ولم ترجع سوريا إلى سابق ازدهارها إلا عندما جعل نورالدين ، ومن بعده صلاح الدين ، من سوريا ومصر وحدة منظمة ، فزادت المنتجات المحلية ، وأمكن نقل البضائع الآتية من العراق وفارس بأمان إلى حلب أو حمص أو دمشق ومن أيها إلى البحر ، وكان تجار حلب يستخدمون ميناء السويدية ، الذي يصلون اليه من خلال أنطاكية ، وميناء اللاذقية ؛ أما طرطوس وطرابلس فكانتا مينائي حمص وعكا ودمشق[١٢].

وعلى الرغم من أن الإيطاليين ساعدوا الصليبيين في غزو كل ميناء من تلك الموانى، بقيت مصالحهم التجارية الرئيسية في مصر ؛ فكانت القوانين التجارية الصادرة في البندقية خلال القرن الثاني عشر تذكر دائما الإسكندرية أكثر مما تذكر عكا ، وبصورة خاصة بعد طرد البنادقة من القسطنطينية . كما أن سجلات جنوا في الفترة من ١١٥٦ إلى ١١٦٤م تظهر أن عدد العملاء الذين لهم مصالح في الإسكندرية يبلغ

---

(١١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 577-8.

(١٢) Heyd, *op. cit.* i, pp. 168-77.

ضِعف عدد من لهم مصالح فى الشرق الفرنجي تقريبا . والجدير بالملاحظة كذلك فى النصف الأول من القرن الثاني عشر أن أغلب المسافرين من أوروبا إلى فلسطين يذهبون أولا فى سفن بندقية أو جنوية إلى القسطنطينية ومنها برا، أو فى سفن ساحلية يونانية إلى سوريا ؛ أو أنهم يبحرون مباشرة من جنوب إيطاليا فى سفن مملكة صقلية ، ولذا يبدو أنه لم تكن هناك سفن كثيرة تبحر فى رحلات منتظمة من الموانى التجارية الإيطالية إلى سوريا حتى السنوات الأخيرة من القرن[١٣]. وحتى ذلك الوقت لم يكن حجم البضائع التى تمر خلال الموانى السورية كبيرا ؛ ولأن الرسوم الجمركية على هذه البضائع العابرة كانت بمجرد عشرة فى المائة من قيمتها تقريبا ، فمن اليسير أن نفهم علة عدم امتلاء خزانة الشرق الفرنجى فى أغلب الأحوال، وعله إغراء الملوك بالإغارة دائما فى الوقت الذى كان حريا بهم لدواعى الشرف والدبلوماسية الحفاظ على السلام[١٤].

ومن اليسير كذلك أن نفهم علة تردد المدن البحرية الإيطالية فى مساندة الحملات الصليبية . ذلك أن الواجب المسيحى يملى عليهم تقديم العون إلى الفرنج ضد المسلمين؛ بيد أن الازدهار الكامل لتلك المدن كان يتوقف على احتفاظها بعلاقات طيبة مع المسلمين ، وكلما أسهمت بالمساعدة فى مغامرة مسيحية ، كانت تجازف بخسارة حقوقها التجارية مع الإسكندرية . ومع ذلك، وفى غيبة تعاونها لم يكن الصليبيون قادرين البتّة على غزو المدن الساحلية ؛ وتظهر حقيقة تعاونها أن مشكلتها لم تكن بالمشكلة الهيّنة على كل حال . فقد أرسل الجنويون مساعدتهم بينما كانت الحملة الصليبية الأولى ما تزال فى أنطاكية ؛ وأبحر أسطول من بيزا قبل أن تصل إلى الغرب أنباء الإستيلاء على القدس ؛ وكان سلوكها اللاحق الذى اتصف بالبرود تجاه مملكة القدس يُعزى إلى شجار بلدوين الأول مع ديامبرت ، الذى كان رئيس أساقفتها ، أكثر من كونه يعزى إلى أية حسابات تجارية ؛ وحتى البنادقة ، الذين كانت لهم أوثق العلاقات مع مصر ، قدموا المساعدة إلى جودفرى (أوف لورين) قبل موته مباشرة . ولم تكن هذه السياسة تتصف تماما بالمجازفة بنفس القدر الذى يبدو من الوهلة الأولى ؛ إذ لا توجد تجارة ما لم تعد بالنفع على كلا الجانبين . ولم تكن السلطات الإسلامية فى مصر ترغب – شأنها فى ذلك شأن الإيطاليين – فى قطع العلاقات التجارية لفترة طويلة . وبرغم أن تلك السلطات كانت فى لحظات الغضب تغلق الإسكندرية فى وجه السفن

---

(١٣) Cahen, *op. cit.* iii, p. 330-3، ويورد إحصائيات

(١٤) Cahen, *op. cit.* iii, pp. 330-3 . وكانت الغزوات من مثل غزوات بلدوين الثالث فى عام ١١٥٧م لا تستهدف سوى الحصول على المال (أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ص ٣٨٨.)

المسيحية ، فقد كانت تعاني من توقف الأعمال ، ومن ثـم لم تكـن تتأثر بصـورة بالغـة الصرامة . وفضلا عن ذلك ، وجد الإيطاليون مزايا كثيرة فى الحصول علـى حصـة مـن الموانى التى تؤخذ حديثا ، ولم يتوفر لديهم أبدا شعور بـالأمن فـي المدن الإسـلامية ولا حتى في القسطنطينية ؛ ففى حالة قيام الجماهير بأعمال شغب ، ربمـا تدمّـر منشـآتهم ، أو ربما يتدخل حكام غرباء بنزواتهم فى أعمالهم ؛ ورغم أن حجم التجارة الفعلى المقرر لموانـى سـوريا المسـيحية ربما كـان أقـل منـه فـي القسـطنطينية أو الإسـكندرية ، كـان بمقدورهم الإعتماد على عـدم انقطـاع أعمـالهم . ولم يكـن لديهـم مـن صعـاب سـوى منافسة رفاقهم الإيطاليين وليس عداوة الحكام المحليين . وكانت هناك أيضا ميزة أخـرى ذات أهمية متزايدة تتصل بالموانى الفرنجية ؛ إذ كانت الصعوبة الرئيسية للإيطـاليين هـى العثور على بضائع فى أوروبا يوفـر بيعهـا ثمـن البضـائع التـى يرغبـون فـى شـرائها مـن الشرق. وحتى السنوات الأولى من القرن العاشر كانت الصادرات الرئيسية للبندقية هي العبيد من أوروبا الوسطى ، بيد أن تحول السلاف والمنجاريين إلى المسـيحية أنهـى هـذه التجارة . وفى النصف الأخير من القرن الثالث عشر أحيـا الجنويـون تجـارة العبيـد التـى كانت تقوم على نقل العبيد الأتـراك والتـتر مـن موانـى البحـر الأسـود لبيعهـم لممـاليك مصر، على أنه فى السنوات التى تخللت ذلك لم يكن هناك مـن العبيـد سـوى القليـل . وكانت الصادرات الهامة الوحيدة من الغرب هى المعادن والأخشاب ، ولأن هذه المـواد كانت تستخدم أساسا فى صناعة الأسلحة ، فكـان مـن الطبيعـى أن ترفـض السـلطات الدينية فى أوروبا بيعها للمسلمين. غير أن الإيطاليين تعلموا تدريجيا أن الحركة الصليبية ووجود الشرق الفرنجى قد جذبا إلى الشـرق عـددا كبـيرا مـن الجنـود والدبلوماسـيين ، والأهم منهم ، الحجاج ؛ فإذا تولى الإيطاليون نقلهم على سفنهم ، تمكّن أصحاب تلـك السفن من استغلال عائدات نقـل المسـافرين ومصروفـاتهم فـي الموانـى السـورية لشـراء البضـائع المستوردة مـن الأمـاكن الأبعـد إلى الشـرق . وأخـيرا، وبرغـم تمسـك التجـار الإيطاليين بمصالحهم، فإنهم لم يتجاهلوا كليّة هواجسهم الدينيـة ؛ فكـان الكثـير منهـم، حتى فى جنـوا أو البندقيـة ، يفضلـون ممارسـة تعـاملاتهم فـى الموانـى المسيحية وليـس الإسلامية ؛ فضلا عن أن الكنيسة تعارض بشدة من الناحية العملية التجارة مع الكفـرة، وقد كان للكنيسة قوتها السياسية فى إيطاليا، ومن شأن معاداتها أن يتسبب فـى حـرج خطير(١٥).

---

(١٥) . *Ibid.* and pp. 340-4 ويحتمل أن المؤرخ Cahen يُنقص قليلا من أهمية الشرق الفرنجـى للإيطـاليين بصورة عامة . وفى التاريخ ما يوحى بشدة اهتمامهم بالشرق الفرنجى بصورة تفوق ما يتضمنه جـدل

دور التجار الإيطاليين

وكانت الفترة التى شهدت ذروة ازدهار التجارة فى الشرق الفرنجى هى فترة السنوات العشر السابقة مباشرة على استعادة صلاح الدين للقدس والعقود الأولى من القرن الثالث عشر . وكان العالم الإسلامى متحدا مزدهرا وقد اكتشف الإيطاليون مزايا التجارة من خلال الموانى المسيحية ؛ وفى ذات الوقت تعلم المستعمرون الفرنج كيف يصادقون جيرانهم الكفرة . ويبين الحاج المسلم المؤرخ ابن جبير، الذى ارتحل مع قافلة من التجار المسلمين من دمشق إلى عكا، أن تلك القوافل كانت متواترة بصورة منتظمة، وأعرب عن استحسانه لسلاسة ترتيبات جمع الرسوم الجمركية[١٦] . وكانت عكا أكثر موانى الساحل ازدحاما بحركة الأعمال ، إذ كان الميناء الطبيعى لدمشق ، ولذا كان يستخدم لمنتجات المصانع الدمشقية والريف الغنى المحيط بحوران ، ليس هذا وحسب وإنما يخدم كذلك تجار اليمن الذين دأبوا على المجىء بطريق الحجاج بطول ساحل الجزيرة العربية؛ كما أن عكا هى الميناء الوحيد الآمن فى فلسطين كلها ، وكان المسافرون إلى الأماكن المقدسة يفضلون النزول إلى البر فيه أكثر من تفضيلهم النزول فى ميناء يافا ذات المرسى المفتوح حيث كانت تقع الحوادث بكثرة قبل استيلاء الصليبيين على عكا . وكانت المثلبة الوحيدة لعكا هى ضآلة المرفأ الداخلى بحيث لم يكن يتسع للسفن الكبيرة فى ذلك الوقت التى كانت تضطر إلى الرسو خارج حاجز الأمواج حيث تتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، أو تضطر إلى أن تبحر شمال الساحل حيث مرفأ صور الأكبر والأكثر أمانا[١٧] . وفى شمال سوريا كان أفضل مرفأ هو مرفأ اللاذقية الذى كان يناسب جميع الأحوال الجوية، رغم أن مرفأ السويدية الواقع على مصب نهر العاصى كان ملائما بصورة أكبر لأنطاكية وحلب وكان يستخدم للسفن الأصغر[١٨] .

المؤرخ

(١٦) Ibn Jubayr (ed. Wright), pp. 306-7 .

(١٧) Ibn Jubayr, pp. 307-8، الذى يلاحظ أن ميناء صور أفضل من ميناء عكا للسفن الأكبر

(١٨) أثنى الجغرافيون المسلمون جميعا على مرفأ اللاذقية باعتباره مرفأ جيدا بصورة خاصة (مثل الإدريسى Idrisi, p. 23، وياقوت فى قاموسه الجغرافى Yakut, *Geographical Dictionary*, ed. Wustenfeld, iv, p. 338، والدمشقى Dimashki, ed. Mehren, p. 209. ويبدو أن ميناء سان سيميون (السويدية) كان يستخدم بصورة أقل كثيرا فيما عدا التجارة الذاهبة الى أنطاكية ذاتها . وربما كان المرفأ قد بدأ يمتلىء بالطين فعلا . أما ياقوت Yakut, iii, p. 385 ، الذى كان يكتب قبل غزو بيبرس ، فقد أشار إليه على أنه ميناء أنطاكية الذى كان الفرنج يستخدمونه

وتذكر قوانين القلس عددا من البضائع التى كانت تمر فى جمارك الشرق الفرنجى ؛ وإلى جانب الحرير وغيره من المنسوجات كانت هناك شتى أنواع العطارة مثل القرفة والحبهان والقرنفل ولحاء جوزة الطيب والمسك ونبات الخلنجان وجوزة الطيب ، وكذلك النيلج و أصباغ الفوة وعود نبات الند والعاج[١٩]. وكان للفرنج دور ضئيل جدا فى هذه التجارة . وكان التجار ، مسلمون أو مسيحيون وطنيون ، يحضرون البضائع إلى الساحل من داخل البلاد ؛ وفى شمال سوريا كان يحضرها من أنطاكية أيضا اليونانيون والأرمن ، وكان التجار الزائرون يعاملون معاملة طيبة ؛ فيسمح للمسلمين أداء عباداتهم فى المدن المسيحية ، وفى واقع الأمر كان هناك فى عكا ذاتها جزء من الجامع الكبير - الذى حولوه إلى كنيسة - مخصص كى يباشر المسلمون طقوسهم . وكانت هناك أنزال يمكنهم البقاء فيها ، كما كانت هناك دور مسيحية تضم سكانا مسلمين . وكان التجار الإيطاليون يشترون مباشرة من المستوردين المسلمين ؛ وفضلا عن الإيطاليين يبدو أن كان هناك عدد معين من المسلمين الآتين بحرا إلى عكا لشراء البضائع من الداخل ، وخاصة المغاربة الآتين من شمال غرب أفريقيا وكانوا يرتحلون إلى أماكن بعيدة تصل إلى دمشق أو غيرها من المدن الإسلامية الداخلية[٢٠].

الطرق التجارية فى ظل المغول

أدى توسع الإمبراطورية المغولية فى القرن الثالث عشر إلى تغيير الطرق التجارية الرئيسية الآتية من الشرق الأقصى . وبعدما استولى المغول على داخل آسيا شجعوا التجار على اتخاذ طريق برى من الصين يخترق التركستان ثم يتجه شمالى بحر قزوين إلى الموانى الواقعة على الساحل الشمالى للبحر الأسود مثل كافا ، أو جنوبى بحر قزوين خلال إيران إلى طرابزون الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، أو إلى أياس فى مملكة أرمينيا الكيليكية . ونتيجة لنظام المغول المثالى أصبح هذا الطريق مفضلا على الطريق البحرى المحفوف بالمخاطر عبر المحيط الهندى[٢١]. وفى القرن الثانى عشر كانت

---

(١٩) *Assises*, ii, pp. 174-6. See Heyd, *op. cit.* pp. 563 ff. The *Assises* mention ııı dutiable articles.

(٢٠) Ibn Jubayr, pp. 307-9.

(٢١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 70-3.

السفن الصينية تبحر دائما غرب سيلان إلى الموانى العربية ، أما الآن فلم يعد الأمر يستحق الذهاب إلى أبعد من الساحل الشرقى للهند[٢٢] وقد أسفر الغزو المغولى للعراق عن وصول بعض التجارة الهندية إلى الغرب عن طريق البحر أعلى الخليج الفارسى ، وكانت نسبة منها تعبر خلال دمشق أو حلب إلى الموانى الفرنجية . غير أن أغلب التجار كانوا يفضلون البقاء داخل الأراضى الواقعة تحت السيطرة المغولية ومنها يعبرون إلى البحر المتوسط عند أياس بينما تنقل أغلب التجارة الهندية برا خلال أفغانستان وفارس[٢٣]. وكانت مصر ما تزال سوقا رائجة للبضائع الشرقية ، لكنها لم تعد تقع على أقل الطرق تكلفة من الشرق الأقصى إلى أوروبا[٢٤].

وفى ذات الوقت كانت كل من البندقية وجنوا تزيدان تجارتهما تدريجيا ، وأخذت المنافسة بينهما تزداد حدة ، وبيزا تتباطأ خلفهما . وقد زادت المنافسة بين تلك المدن نتيجة لتحول طرق التجارة ؛ فكانت البندقية أول الأمر تتحكم فى البحر الأسود نظرا لسيطرتها على الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، ولذلك لم تتأثر بقيام القوة المغولية ، ولكن عندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١م بالمساعدة الفعالة من جنوا ، تمكن الجنويون من استبعاد البنادقة من البحر الأسود واحتكار تجارة آسيا الوسطى ، وكذلك التجارة الجانبية المربحة - تجارة العبيد بين السهول الروسية ومصر؛ ولأن حكام المماليك كانوا يعتمدون على امدادات منتظمة من عبيد الكيشاك والقبائل التركية المجاورة ، كان من المحال على البنادقة إستبعاد الجنويين من الإسكندرية ؛ ورغم أن الملك الأرمينى سمح للبنادقة بالمشاركة فى التجارة المغولية الآتية إلى أياس ، كان من الضرورى للبندقية أن تحاول طرد الجنويين من الموانى الفرنجية ؛ فأما فى عكا ، فقد أصابوا النجاح ، وأما صور التى انسحب إليها الجنويون فكان موقعها يقل فى جودته. وأصبحت السياسة العامة للبندقية - فى كراهيتها لجنوا - معارضة المغول، إذ كانت جنوا تحصد من امبراطوريتهم تلك الأرباح الطائلة ؛ ونتيجة لذلك ، كان البنادقة يستخدمون نفوذهم فى عكا لتحريض حكومتها على مؤازرة المماليك ضد المغول[٢٥].

---

(٢٢) يقول الادريسى إن السفن الصينية كانت تذهب فى القرن الثانى عشر حتى دايبال الواقعة على مصب نهر الإندوس ، لكنها فى القرن الثالث عشر لم تكن تذهب إلى أبعد من موسطرة . ثم تولت السفن العربية تجارة المحيط الهندى التى كانت ما تزال مزدهرة. أنظر Heyd, *op.cit.* i, pp. 164-5.

(٢٣) Heyd, *op. cit.* pp. 73 ff. .

(٢٤) *Ibid.*. وكان المصريون يتقاضون كذلك رسوما جمركية أعلى. (*ibid.* p.78)

(٢٥) أنظر أعلاه ص ٣٣٣ وما بعدها؛ وأيضا Bratianu, *Commerce Génois dans la Mer Noire*,

ومن الطبيعي أن يتسبب تطوير ميناء أياس - باعتباره المنفذ الرئيسي لتجارة المغول في البحر المتوسط - في تقليل أهمية الموانى الفرنجية ؛ غير أن الزيادة العامة في التجارة الآسيوية في ظل المغول كانت تعني استمرار وجود فائض في التجارة يستخدم الطرق الأقدم . ودأب تجار الموصل على زيارة عكا أثناء النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ولم تكن الحروب الدائرة بين المماليك والمغول تعرقل كثيرا مرور القوافل من العراق وإيران إلى فلسطين . وكانت عكا حتى السنوات الأخيرة من عمرها ، وباعتبارها العاصمة المسيحية ، مليئة بالنشاط التجارى ، بينما كانت البضائع التي تتداولها اللاذقية في الشمال والآتية من حلب من الضخامة بحيث توسل تجار حلب بصورة خاصة السلطان المملوكي للإستيلاء على الميناء الذى لا ينبغي - بمثل مكانه هذا النفيس - أن يبقى في أيدى الكفرة[٢٦] .

ثروة البارونات

ومع ذلك ، كانت كل هذه التجارة المزدهرة ذات نفع ضئيل للفرنج . ذلك أنه بجعل الموانى البحرية بمثابة ميدان قتال بين المستعمرات الإيطالية المتنافسة ، غدت تلك الموانى مصدرا لضعف سياسى فعال ؛ وحتى لو ظل الإيطاليون في سلام ، لم يكن حكام الشرق الفرنجي ليحصلوا من التجارة على أموال كثيرة . فكان يحق للملك رسميا الحصول على عشرة في المائة تقريبا من المكوس الجمركية ، غير أنه كان يبيع حصصا ضخمة من تلك النسبة لأتباعه أو للكنيسة أو للأنظمة الدينية العسكرية ، وبذا لم يكن يتبقى له الكثير . وكان أمراء أنطاكية وكونتات طرابلس أفضل حالا بقليل لأنهم لم يمنحوا غيرهم سوى القليل من عوائد الإقطاعيات، غير أن الشرق الفرنجي لم يكن بالمكان الذى تجمع فيه الثروات الضخمة ؛ إذ كان هناك لوردات على قدر من الثراء يتيح لهم العيش في رفاهية، مثل آل إبيلين في بيروت الذين كانوا يمتلكون مناجم الحديد المحلية ، أو آل منونتفورت في صور بما لهم من مصانع السكر . وكان مواطنو الشرق الفرنجي يظهرون في أعين المسافرين الغربيين البسطاء بمظاهر الإزدهار الرائع ؛ غير أن تلك المظاهر كانت مظاهر زائدة عن الحاجة ومصطنعة . وكانت المدن أكثر نظافة وترتيبا في مبانيها ، وبإمكان ساكنيها شراء الملابس الحريرية والتعطر بالعطور والطيب

---

esp. pp. 79 ff

(٢٦) For Ayas, called by the Italians Lajazzo, see Bratianu, *op. cit.* pp. 158-62.

بأسعار لا يقدر عليها سوى أثرياء الأثرياء فى أوروبا الغربية ، بيد أن تلك الأشياء كانت من المنتجات المحلية ولذلك كانت رخيصة نسبيا(٢٧).

وليس لدينا سوى القدر القليل من العلومات المتصلة بأنشطة الطبقات البورجوازية في الشرق الفرنجى التى يبدو أنها لم تلعب دورا فى التجارة الدولية وإنما قصر أفرادها جهدهم على إدارة الحانوت وتصنيع البضائع للإستهلاك المحلى . وكانت لهم بعض القوة السياسية ؛ ذلك أن كوميون عكا - الذى يتألف من البورجوازية الفرنجية - كان عنصرا هاما في الدولة ، بيد أنه انتحى بنفسه جانبا بعيدا عن المجتمعات الوطنية فيما يبدو ، حتى عن الأرثوذوكس الذين كانوا يعامَلون ككيان منفصل(٢٨). وفى أنطاكية ، حيث كان الكوميون أكثر تأثيرا ، كانت البورجوازيتان الفرنجية واليونانية تعملان معا، وربما كان هناك تزاوج أكثر ، ولم يكن الفرنج هناك بأعداد كبيرة كما هى حالهم فى عكا أو فى طرابلس التى يبدو أنها حذت حذو نمط عكا(٢٩). أما الطبقات العاملة فكانت في أغلبها من أصل وطنى أو من أصول متخلطة؛ وكثيرا ما كانت هناك أعداد كبيرة من العبيد ، من المسلمين المأسورين فى الحروب ، للعمل فى المناجم أو فى تشييد المبانى العامة أو فى الضياع الملكية أو ضياع النبلاء(٣٠).

وكان الحكم يفتقر إلى المال دائما. وحتى فى وقت السلم كان يتعين على البلد أن يكون مهيأ لإندلاع حرب مفاجئة ، وعادة ما كانت الحرب تسفر عن تخريب مناطق كبيرة من الريف . ولم تكن إيرادات المكوس والضرائب كافية ؛ وكان من العسير مجابهة الطوارىء المفاجئة فى غيبة المساعدة الخارجية ، مثل أسر الملك أو قسم بكامله من أقسام الجيش . ولحسن الحظ كانت المساعدة الخارجية دائما قادمة ؛ ذلك أنه بالإضافة إلى الأموال التى يحصل عليها الفرنج - عادة بطرق غير حكيمة - عن طريق الإغارة فى الأراضى الإسلامية للنهب ، كانت الهبات ترسل من أوروبا بلا انقطاع ؛ إذ

---

(٢٧) يحسب أمادى Amadi أن قيمة إقطاعية فيليب (أوف مونتفورت) الموجودة فى طورون فى عام ١٢٤١م هى ستين ألف بيزانت شرقى .(p. 180) غير أن حوى أمير جبيل كان بمقدوره إقراض خمسين ألف بيزانت شرقى إلى ليوبولد دوق النمسا وثلاثين ألف بيزانت شرقى لفريدريك الثانى (أنظر أعلاه ، ص ١٤٩ و ١٨٢) . أنظر أيضا La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 171-4.

(٢٨) أنظر Cahen, *op. cit.* iii, pp. 335-7; also Prawer 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre' in *Revue Historique de Droit Français*, 1951.

(٢٩) بالنسبة لأنطاكية انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 549 ff., 153 ff. وبالنسبة لطرابلس أنظر Richard, *La Conteté de Tripoli*, pp. 71 ff. .

(٣٠) Rey, *Les Colonies Franques*, pp. 105-8

أن فلسطين هي الأرض المقدسة ، والصليبيون والمستعمرون كانوا عموما يعتبرون جنود المسيح . وكان الزائرون يدفعون ضريبة فور وصولهم ؛ وو لم يتوقف الأمر عند ما كان يحضره الحجاج من أموال إلى البلد لإنفاقها أو التصدق بها ، وإنما كان لكثير من المزارات والأديرة أراض ممنوحة لها في الغرب كانت إيراداتها تُرسل اليها في فلسطين . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تحصل على أغلب دخولها من هبات الغرب التي أتاحت له أن تظل على ثرائها الفاحش حتى وإن فقدت كل ممتلكاتها في سوريا. وكان كل فرد من مواطني الشرق الفرنجي ، بدءا من الملك هبوطا إلى المواطن العادي ، يتلقى الهبات من حين لآخر من أقاربه في الغرب أو من المتعاطفين معه ؛ وكانت تلك الإعانات تساعد بدرجة كبيرة في موازنة مالية الشرق الفرنجي ، وهكذا فإن رغد العيش في المدن السورية ، الذي كان يحوز إعجاب الزائرين من الغرب، كان يموّله جزئيا أبناء جلدتهم في موطنهم[٣١] .

ضرب العملة في الشرق الفرنجي

كان ضرب العملة في الشرق الفرنجي مصدرا آخر من مصادر القوة الإقتصادية يصعب تقييم آثاره . فعندما بدأت الحملات الصليبية لم يكن هناك ضرب للعملات الذهبية في غرب أوروبا باستثناء صقلية والأندلس المسلمة ، وكانت الفضة هي أثمن المعادن المستخدمة ، كما لم تكن الدويلات الإسلامية في سوريا تصدر عملات ذهبية في ذلك الوقت رغم أن الخليفتين في بغداد والقاهرة كانا يتنافسان في ذلك . ومع ذلك ، ما أن أنشئت الدويلات الصليبية حتى بدأ ملك القدس وأمير أنطاكية وكونت طرابلس في سك الدنانير الذهبية التي كانت تعرف باسم (البيزانتات الشرقية) وال كانت مقلّدة من دنانير الفاطميين ، لكن محتواها الذهبي كان مجرد الثلثين تقريبا . وكانت هذه العملات ، خاصة عملات مملكة القدس التي كان المسلمون يطلقون عليها (الصوري) نسبة إلى مدينة صور ، سرعان ما انتشر تداولها انتشارا واسعا في أنحاء الشرق الأدنى . ومن الصعب معرفة المصدر الذى حصل الفرنج منه على الذهب ؛ إذ أن السلب والفدية لم يوفرا سوى قدر ضئيل غير منتظم ، وكان المصدر الرئيسي للذهب في ذلك الوقت هو السودان ، ويحتمل أن يكون التجار المغاربة قد أحضروا منه بعض الذهب . بيد أنه لتفسير ظهور ضرب العملة ، لابد وأن كانت هناك حركة عامة

---

(٣١) La Monte, *op. cit.* pp. 174 ff

للذهب من البلدان الإسلامية إلى البلدان المسيحية ؛ ولابد أن المستوطنين الأوروبيين كانوا يشترون الذهب من المسلمين - بأسعار باهظة بلا شك - فى مقابل الفضة التى كانت وفيرة فى أوروبا ؛ لابد وأن إصدارات هذه العملات الذهبية المنخفضة القيمة قد ساعد فى حركة الذهب كلها . ولابد أن تكون مقادير كبيرة من الذهب قد انتقلت إلى الغرب ؛ إذ تجدر ملاحظة أن كانت هناك عملات ذهبية من سبائك رائعة بدأت تظهر خلال القرن الثالث عشر فى أوروبا الغربية[٣٢].

وكان حكام الشرق الفرنجى يحتفظون بصرامة بحق إصدار العملات الذهبية ؛ ولم يكن مسموحا للمستعمرات الإيطالية هناك ولا للأنظمة الدينية العسكرية بالتعدى على هذا الاحتكار . وكان باستطاعة كبار مستأجرى الأرض سك مجرد العملات البرونزية للإحتياجات المحلية.

وكان للأنظمة الدينية العسكرية مصدر إضافي للثروة مشتق من أنشطتها المصرفية. ذلك أنها بممتلكاتها الشاسعة فى سائر أنحاء العالم المسيحى ، كانت فى موضع يثير الإعجاب يمكنها من تمويل الحملات الصليبية ؛ فلم يكن الإشترك الفرنسى فى الحملة الصليبية الثانية ممكن التحقيق إلا بمساعدة نظام فرسان المعبد الذى دفع مبالغ طائلة للويس السابع فى الشرق تم تسديدها فى فرنسا . وبنهاية القرن الثانى عشر دأب نظام فرسان المعبد على ممارسة الإقراض المنتظم للأموال بأسعار فائدة مرتفعة ، غير أن سمعتهم المالية كانت من الشهرة الواسعة بحيث جعلت المسلمين يثقون فيهم ويستفيدون من خدماتهم . وكان لفرسان المستشفى وفرسان التيوتون معاملات مالية مماثلة ، وإن كانت على نطاق أصغر ؛ ولم تكسب حكومات الشرق الفرنجى شيئا مباشرا من تلك الأنشطة التى زادت من قوة تلك الأنظمة وتمردها ؛ غير أنها كانت تعود بالنفع المالي على البلد ككل[٣٣].

---

(٣٢) (Cahen, *Notes sur l'Historie des Croisades*, iii, pp. 337-8الذى يورد مناقشة هامة جدا حول المشكلة). أنظر أيضا Schlumberger, *Les Principautés Franques du Levant*, pp. 8 - 45وكان لبيزانت القدس الشرقي قيمة ذهبية تزيد قليلا على ثلث الجنيه الإنجليزى الحالى (Sovereign). وكان بيزانت أنطاكية الذهبي أقل فى قيمته بصورة طفيفة.

(٣٣) تتجاهل قوانين القدس *The Assises of Jerusalem* الأعمال المصرفية رغم أن قوانين أنطاكية تعترف بها أنظر Cahen, *op. cit.* p.339. وانظر Piquet, *Les Banquiers du Moyen Age, passim* ؛ وانظر أيضا Melville, *La Vie des Templiers*, pp. 75-83. وكانت حملة لويس التاسع الصليبية، كشأن حملة لويس السابع الصليبية، تموّل بدرجة كبيرة عن طريق النظام.(Piquet,*op.cit.* pp.71-8)

معضلة الشرق الفرنجي الإقتصادية

لا يزال التاريخ الإقتصادى للحملات الصليبية غامضا جدا . فالمعلومات غير كافية، وهناك الكثير من التفصيلات لا سبيل إلى تفسيرها الآن . ومن غير الممكن أن نفهم تاريخها السياسي دون أن تضع في الإعتبار إحتياجات المستوطنين والتجار الإيطاليين التجارية منها والمالية . وعادة ما كانت تلك الإحتياجات تسير بالتضاد مع الدافع الأيديولوجي الذى بدأ الحركة الصليبية وحافظ عليها . وكان الشرق الفرنجي دائما تحت سيف المعضلة المسلط ؛ فقد أنشأه خليط من ذوى الحميّا الدينيّة والمغامرين من المتعطشين إلى امتلاك الأرض . وإذا كان للشرق الفرنجي أن يدوم في حالة صحية فمن غير الممكن أن يظل معتمدا على الإمدادات المنتظمة من الرجال والأموال من الغرب ؛ فلا بد أن يثبت وجوده إقتصاديا ، ولا سبيل لأن يتحقق ذلك إلا بالتراضي مع جيرانه ، فإذا كانوا ودودين ومزدهرين فسوف يزدهر هو أيضا ؛ غير أن السعي إلى صداقة المسلمين بدا خيانة كاملة للمثل الصليبية . ولم يكن المسلمون من جانبهم قادرين أبدا على التصالح مع دولة غريبة ومتقحّمة في الأراضي التي يعتبرونها ملكهم ؛ فكانت معضلتهم أخف إيلاما ، إذ لم يكن وجود المستعمرين المسيحيين ضروريا لتجارتهم مع أوروبا ، مهما بدا وجودهم ملائما أحيانا ؛ ولذا كانت العلاقات الحسنة متقلقلة دائما. وكانت المشكلة الكبرى الثانية التي كان على الشرق الفرنجي مواجهتها هي علاقته بالمدن التجارية الإيطالية ، إذ كانت عنصرا لا غنى لبقاء الشرق الفرنجي عنه ، فبدون تلك المدن يوشك الاتصال بالغرب أن يكون مستحيلا ، ولبات مستحيلا تماما تصدير منتجات البلد أو الفوز بأي نوع من التجارة من الشرق الأبعد . وقد تسبب الإيطاليون في إلحاق أضرار لا سبيل إلى إصلاحها بما كان لهم من عجرفة وتنافس فيما بينهم وما كانت سياستهم تتصف به من عدم اكتراث ؛ فكانوا ينأون بأنفسهم جانبا عن الحملات الحيوية ، ويُظهرون جهارا تفتت العالم المسيحي . وقد زودوا المسلمين بمواد الحرب الأساسية ، وكانوا يقومون بأعمال الشغب ويحاربون بعضهم بعضا في شوارع المدن . ولابد أن كان حكام الشرق الفرنجي يأسفون لهذه التجارة الغنية التي أتت بمثل هؤلاء الحلفاء الجامحين الخطرين إلى شواطئهم ؛ ومع ذلك ، وبدون هذه التجارة ، تصبح قصة الشرق الفرنجي أقصر وأكثر عتامة . وليس من السهل في أية حال الفصل بين ما للرخاء المادى من مطالب عدوانية وبين [illegible]بدة الأيديولوجية . ولا تستطيع أية حكومة أن تأمل في إشباع إيّ من المطلبين إشب[illegible] كاملا ، فليس بوسع المرء أن يعيش على الأيديولوجية وحدها ، بينما يتوقف الإزدهار على قضايا أوسع من أن تنحصر في

شريط أرضى ضيق . ولقد ارتكب الصليبيون أخطاء كثيرة ، وكانت سياساتهم دائمـا تتصف بالتردد والتغير ، بيد أن اللوم كله لم يكن ليقع عليهم لفشلهم فى حل مشكلة لم يكن لها حل فى الواقع.

الفصل الثانى:

العمارة والفنون فى مملكة الشرق الفرنجى

العمارة والفنون
فى مملكة الشرق الفرنجى

"تَزَيَّن الآن بالجلال والعِز والْبس المجد والبهاء"
(أيوب٤٠ : ١٠)

سمح فرنج أوتريمه للتجارة ، التى كان ينبغى لها أن تقيم بلدهم ، بأن تنزلق من قبضتهم . غير أنهم احتفظوا فى بعض مجالات الفنون بمنتجاتهم ، وكانت إنجازاتهم هنا جديرة بالملاحظة ؛ إذ لم يكن المستعمرون كثيرى العدد ، والقليل منهم فقط هم القادرون على أن يكونوا فنانين . وفضلا عن ذلك ، فقد جاءوا إلى الأراضى التى كانت تقاليدها الفنية أقدم بكثير من تقاليدهم ، ولم يجدوا فيها المواد التى اعتادوا عليها؛ ومع ذلك ، بدأوا يطورون نمطاً يجارى احتياجاتهم بصورة مُرضية.

وقد اندثرت أغلب أعمالهم الصغيرة ؛ فلم يسمح تاريخ سوريا وفلسطين المضطرب ببقاء الأشياء الرقيقة الهشّة ، وأنما كانت هندسة عمارتهم أقوى على البقاء برغم ندرة مابقى - كشأن أغلب بلدان العصور الوسيطة - فيما عدا الآثار العسكرية والكنسية . وحتى تلك الآثار تبدل شكلها الأصلى من جراء التغيير والتحلل . وبخلاف

أكثر مزارات العالم المسيحي قداسة ، وهى التى لم يلمسها المسلمون لشدة حرصهم ، والتى أصلحها المسيحيون فيما بعد ، كانت الكنائس الباقية حتى الآن مُصانة فقد أبقى عليها تحويلها إلى مساجد ، واستحال غيرها أطلالا . أما القلاع والحصون الفرنجية فقد دُمّرت كلها تدميرا شديدا فى خضم الحروب ، بحيث كان المسلمون الغزاة مضطرين - إذا رغبوا فى استخدامها - إلى إعادة تشييد الكثير منها وخاصة الأسوار الخارجية والبوابات . وما تركه الإنسان وشأنه ساعدت الطبيعة على تدميره فى الأماكن التى ضربتها الزلازل. وحيثما يجتهد علماء الآثار المحدثون بما لهم من معرفة فى أعمال الترميم والتجديد - كما حدث فى قلعة الفرسان Krak des Chevaliers ليس من الممكن دائما التمييز بوضوح بين ما هو صليبى وما هو مملوكى.

وكانت أول المبانى التى احتاج الصليبيون إلى تشييدها هى ما يدافعون به عن أنفسهم . ووجب على الكنائس والقصور أن تنتظر إلى أن تصبح البلاد آمنة ؛ فكان يتعين ترميم أسوار المدن ، وبناء الحصون لحراسة الحدود ولكى تكون بمثابة مراكز إدارية آمنة لمقاطعات البلد . ولم تكن تحصينات المدن الرئيسية تستدعى سوى ترقيع هنا وهناك ، فيما عدا حالات قليلة كان الصليبيون فيها قد شقوا مدخلا بهدم الأسوار . أما فى أنطاكية، فإن نظام الدفاع العظيم الذى شيّده البيزنطيون عند نهاية القرن العاشر لم يعانِ سوى القليل من الأضرار ، ولم يكن الأمراء اللاتين فى حاجة إلى إضافة أي شيء لنظامِ الدفاع ذاك . وبالمثل ، لم يكن هناك سوى أعمال ترميم طفيفة لأسوار القدس الفاطمية ، رغم ما يبدو من أن الصليبيين قد أحدثوا من فورهم تغييرات وتحسينات فى برج داود ؛ لكنهم سرعان ما بدأوا فى بناء قلاع فى المدن برغم ما فيها من تحصينات كافية ، وقد بُنيت تلك القلاع كلها على حافة المدينة يمكن الدفاع عنها بصورة مستقلة. وكان الدافع لبناء تلك القلاع ليس فقط رغبة أمراء المدن فى تحقيق القدرة على استمرار المقاومة حتى فى حالة سقوط المدينة فى أيدى الأعداء ، وإنما ليكونوا أيضا فى موضع يرهبون به المدينة إذا ما بدرت منها بوادر تمرد أو عصيان. والقلعة الأولى التى يمكن تحديد تاريخها بصورة مؤكدة هى قلعة الكونت ريموند على جبل الحاج التى بُنيت سنة ١١٠٤م لتكون له بمثابة مقر أثناء حصاره طرابلس ؛ وكانت خارج المدينة رغم أن طرابلس الإسلامية بُنيت فيما بعد عند قاعدتها ، على أن الذى تبقى إلى الآن مما شيده ريموند يجاوز السور الغربى بقليل . ولا بد أن قلاع أمراء الجليل فى طبرية وطورون قد بُنيت فى نفس الوقت تقريبا . وقد بدأ العصر العظيم الأول لبناء القلاع فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى ظل بلدوين الثانى واستمر فى ظل فولك ،

وفيه شيدت قلاع عظيمة مثل قلعة مؤاب وقلعة بيوفورت ، وشمالا قلعة صهيون، وكذلك القلاع الأصغر في يهودا مثل الصافية وبينة[(١)].

القلعة البيزنطية

ولقد وجد الصليبيون هندسة معمارية عسكرية متقدمة تقدما بالغا في الشرق عنها في الغرب الذى بدأت فيه القلعة الحجرية في الظهور الآن فقط . فقد درس الرومان الدفاع العسكرى باعتباره علما من العلوم ، وقام البيزنطيون ، الذين قلّدهم غزاة أجانب لا نهاية لهم ، بتطويره ليناسب احتياجاتهم ، وتعلم منهم العرب . على أن مشاكل البيزنطيين لم تكن هي نفسها مشاكل الصليبيين ؛ إذ كان البيزنطيون يفترضون أن القوة البشرية متاحة دائما ، وبوسعهم توفير حاميات كبيرة ، وكانوا يلاقون العنت كي يدافعوا عن مدنهم دفاعا جيدا ؛ وكانت أسوار القسطنطينية ما تزال قادرة - بعد بنائها بألف عام - على تحدى أحدث مدافع العثمانيين ، وأما أسوار أنطاكية فقد أذهلت الصليبيين إعجابا بها. على أن القلعة البيزنطية لم تزد كثيرا عن كونها معسكرا حصينا ، وكانت مصمّمة للتعامل مع عدو تقل أسلحته هولا عن أسلحة البيزنطيين . أما العرب ، وهم أخطر منافسيهم ، فكانوا أقل تقدما فى آلات الحصار ولم يكن ضروريا أن تكون أسوارالقلعة البيزنطية قوية ؛ إذ كانت هناك شبكة من التحصينات الخارجية من أهم ملامحها خندق واحد على الأقل باتساع كبير يمنع العدو من إحضار المناجق أو سلالم التسلق بالقرب من القلعة ؛ وكانت الأبراج ناتئة بصورة طفيفة على مسافات منتظمة بطول الأسوار ، وتستهدف توفير مجال أطول لأفراد الحامية من رماة السهام وقاذفى الخنادق يصل إلى خطوط الأعداء أكثر من كونها تستهدف الدفاع عن الأسوار ذاتها . ولم يكن البرج المركزى فى وسط القلعة مصمّما كآخر خط دفاعى ، وإنما ليكون مخزنا للأسلحة والمؤن . وباستثناء أمثلة قليلة على الحدود الأرمينية حيث كان يعيش بارونات الحدود عيشة شبه مستقلة ، لم يكن مقصودا من القلعة البيزنطية أن تكون مكان إقامة ؛ إذ كان آمر القلعة جنديا محترفا يترك زوجته وأولاده فى منزله . وأخيرا ، ورغم الإفادة من الدفاعات الطبيعية ، لم يكن الإعتبار الأول هو الحيلولة دون الوصول إلى الموقع ، وإنما كانت الاستفادة الرئيسية بالقلعة هى أنها بمثابة ثُكنة

---

(١) أنظر ، الجزء الثاني ، ص ٨٨-٨٩ و١٢٣ و٢٦٣-٢٦٥. وانظر Deschamps, *La Défense du Royaume de Jérusalem*, pp. 5-19, and *Le Crac des Chevaliers*, pp . 43-4.

عسكرية. ولم يكن من الملائم إجبار الجنود على الكدح فى صعود الجبل وهبوطه فى كل مرة يتحركون فيها(٢).

ومال العرب إلى اتباع النمط البيزنطى رغم أنهم كانوا أقل اهتماما بمشاكل الدفاع، إذ كانت جيوشهم أساسا متحركة وهجومية(٣).

وعكف الصليبيون على دراسة هندسة العمارة العسكرية التى كانوا يقابلونها فى ترحالهم باتجاه الشرق وتعلموا منها الكثير ، غير أن احتاجاتهم الأساسية كانت مختلفة ؛ إذ كانت تعوزهم القوة البشرية دائما ولا يستطيعون الإحتفاظ بحاميات كبيرة ، ومن أجل ذلك كان لابد لقلاعهم أن تكون أقوى بكثير وأيسر فى الدفاع عنها ، ويتعين اختيار موقع القلعة بخصائصه الدفاعية ، ويجب استغلال كل منحدر وكل تل صغير بأقصى استغلال ممكن ؛ ولَمّا لم يكن هناك من يمكن الإستغناء عنه وتكليفه بالاستطلاع وحمل الرسائل كان لابد لكل معقل أن يتمكن من مشاهدة جاره وتبادل الإشارات معه . وكان لابد للأسوار أن تكون سميكة ومرتفعة حتى تكون قادرة على الصمود للهجوم المباشر ، لأن الدفاع عن التحصينات الخارجية يتطلب الكثير من الرجال . وفى الوقت نفسه ، ينبغى الإنتفاع بالقلعة كمكان إقامة لآمرها وكمركز إدارى له. وقد أحضر الصليبيون معهم وسائلهم الإقطاعية ولَمّا كانوا يحكمون أناسا غرباء ، كانت القلعة مركزا للحكم المحلى . ولابد أن يكون برجها المركزى الذى يتوسطها من الكبر بما يكفى لحماية القطعان والأسراب فى حالة الغارات العدائية المتكررة . وفى واقع الأمر، كانت القلعة بالنسبة للفرنج تلعب دورا هاما يفوق كثيرا دورها عند البيزنطيين والعرب(٤).

---

(٢) *Le Crac*, pp. 45-57; Ebersolt, *Monuments d'Architecture Byzantine*, pp. 101-6; Fedden, *Crusader Castles*, pp. Deschamps22-6 .

(٣) Deschamps, *Le Crac*, p.51; Fedden, *op. cit.* p.26.

(٤) Deschamps, *Le Crac*, pp. 89-103; Smail, "Crusaders' Castles of the Twelfth Century", in *Cambridge Historical Journal*, vol.x, 2، حيث ترد مناقشة رائعة حول أعمال القلعة.

قلاع القرن الثاني عشر

أما في الغرب ، فكانت القلعة حتى ذلك الوقت لا تزيد عن كونها برجا مربعا صلدا وقد يكون محصّنا من النوع الذى بلغ به النورمانديون حد الكمال[٥]. ولم تكن هذه القلعة ملائمة لمتطلبات الشرق الفرنجى. وقد أجبر الصليبيون على أن يكونوا روادا في ذلك المجال ، فاقتبسوا من البيزنطين الكثير من الأفكار ؛ فمنهم تعلموا استخدام الكوّة لإطلاق القذائف على المهاجمين ، والإستفادة من تشييد الأبراج بطول الأسوار ، رغم أنهم سرعان ما أدخلوا تعديلا فى ذلك بعد أن اكتشفوا أن البرج المستدير يتيح نطاقا أوسع من البرج القائم الزوايا الذى كان البيزنطيون يفضلونه. وكانت الحصون الأصغر المبنية فى أوائل القرن الثاني عشر ، مثل حصن الكوكب ، قد بُنيت على الطراز البيزنطى المعتاد بأسوار خارجية مضلّعة قائمة الزوايا تقريبا ، وقد زُيّنت بأبراج ، وتحيط بحيّز فى الوسط يضم البرج المركزى . وقد اختيرت المواقع بحيث يمكن الإستغناء عن أعمال التحصينات الخارجية ، وكان البناء كله متينا للغاية . ودائما ما كانت الأعمال البيزنطية متكاملة . وفى قلعة صهيون كانت الخنادق البيزنطية مستكملة بقناة ضيقة عمقها تسعون قدما محفورة فى الصخور الصلبة[٦]. كما أضاف الفرنج الأبواب الحديدية المدلاة التى لم تكن مستعملة فى الشرق منذ عصور الرومان ، وكذلك المدخل الملتوى الذى بدأ العرب فى تفضيله وإن لم يكن البيزنطيون يستخدمونه إلا نادرا ، ربما لأنه لم يكن مناسبا للآلات الثقيلة التى كانوا يحتفظون بها داخل القلاع[٧].

ومن الطبيعي أن تكون القلاع الأكبر أكثر تعقيدا . فلم تكن قلعة الكرك مثلا تقتصر على إيواء قائدها وأسرته ، وإنما كذلك الجنود والكتبة الذين يتولون إدارة المقاطعة ؛ وفى مثل هذه القلعة فى القرن الثانى عشر كان موقع البرج المركز والأماكن السكنية فى أبعد الأماكن وأكثرها يسرا فى الدفاع عنها من الحيّز المركزى . وعادة ما كان موضع المخازن والكنيسة الصغيرة فى الحيّز المركزى، بينما الأبراج الأخرى المحيطة بالحيز كبيرة بحيث تضم حجرات الثكنات والمكاتب . وكان تصميم

---

(٥) (المترجم) النورمانديون Normans : أبناء نورماندى Normandy وهو إقليم تاريخى يقع شمال غرب فرنسا على القنال الإنجليزى.

(٦) للإطلاع على مخطط لقلعة الكوكب أنظر Deschamps, *La Défence*, p.121 ، وللإطلاع على مخطط أبسط لقلعة اليحمور (Chasel Rouge) أنظر *Le Crac*, p. 57 . وتمت تقوية القلعتين التوأمتين الشغر وبكاس بخنادق صناعية مثل صهيون (*Le Crac*, pp. 80-1) .

(٧) Deschamps, 'Les Entrées de Châteaux des Croisés', in *Syria*, vol. xiii

القلعة يختلف باختلاف المنطقة التى تقع فيها . وكان البرج المركزى ما يزال برجا مكعّبا بسيطا - على الطراز النورماندى - بمدخل واحد فقط عادة . وكان البناء نفسه صلبا وبسيطا بلا زخرفة وإن كانت هناك بعض المحاولات لزخرفة أماكن الإقامة والكنيسة الصغيرة . ولسوء الحظ لم تبق أية زخارف لقلاع القرن الثانى عشر ؛ أما الحصون التى ظلت مسيحية بعد عصر صلاح الدين فقد أعيدت زخرفتها فى القرن التالى ، وقد غيّر العرب الحصون التى احتلوها ؛ واستحال ما تبقى إلى أطلال[٨].

وبتقدم سنوات القرن الثانى عشر طرأت بعض التغييرات على مخطط القلعة . من ذلك أن وضع البرج المركزى - وهو أقوى جزء فى القلعة - أصبح فى أضعف قسم من الحيز المركزى ، بدأ يعتبر من الأمور المنطقية ، وأصبح البرج المركزى نفسه مستديرا عادة وليس مضلعا لأن السطح المستدير يقاوم القصف بطريقة أكثر فعالية من السطح المضلع ؛ وأزيدت فى البرج الأبواب والأبواب السرية . وكان حجم القلعة يميل إلى الزيادة خاصة عندما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تبنى القلاع لنفسها أو عندما تستولى على قلاع من النبلاء العلمانيين ؛ ولم يكن فى قلاع الأنظمة الدينية العسكرية سيدات مقيمات، ورغم إمكان توفير أماكن إقامة رائعة لكبار المسؤولين فقد كان كل مقيم فيها يؤدى غرضا عسكريا . وأما القلاع الأكبر مثل قلعة الكرك أو عثليت فكانت مدنا عسكرية قادرة على إسكان عدة آلاف من المحاربين وما يلزمهم من خدم . ونادرا ما كانت تمتلىء هذه القلاع عن آخرها. وكانت الدفاعات الآن تقوّى عن طريق حيز مركزى مزدوج متحد المركز ؛ وكان للقلاع العظيمة التى يملكها فرسان المستشفى - مثل الكرك ومؤاب - حزام مزدوج . واتبع فرسان المعبد نفس النظام فى صافيتا، وإن كانوا يفضلون كمبدأ عام الحيز المركزى الواحد ؛ وطبقا للطراز الأول بُنيت قلعتاهم الرئيسيتان طرطوس وعثليت فى القرن الثالث عشر ، على أنه فى كل من الحالتين كانت الأقسام الأطول من الأسوار تنتصب من البحر مباشرة ، وعبر شبه الجزيرة التى كانت تصل عثليت باليابسة كان هناك خط مزدوج معقد . كما أن قلعة فرسان التيوتون فى مونتفورت ذات حيز مركزي واحد . ولم تكن فكرة الحيز المركزى فكرة جديدة ؛ ذلك أن الأسوار الأرضية للقسطنطينية كانت مبنيّة بخط مزدوج فى القرن الخامس ، وفى القرن الثامن أحاط الخليفة المنصور مدينته الدائرية بغداد بخط مزدوج .

---

(٨) أنظر على سبيل المثال الوصف التفصيلى وتصميم قلعة الكرك فى مؤاب و الصبيبة فى بانياس فى Deschamps, *La Défense*, pp. 80'93, 167-75، وانظر أيضا اللوحات .

بيد أن فرسان المستشفى كانوا هم أول مَنْ طبّق فكرة الحيز المزدوج فى قلعة صغيرة رغم عدم إمكان استخدامها إلا لقلعة كبيرة الحجم[٩].

وكانت التحسينات الأخرى لقلاع القرن الثالث عشر تتمثل فى النعومة الشديدة لواجهة الأسوار الخارجية التى تحول دون تثبيت السلالم ، وفى الإستخدام الأوسع للمزاغل والفتحات لرماة السهام ذات حواف منحدرة عادة إلى أسفل وأحيانا قواعد تشبه الركاب - وفى تعقيدات أكثر فى بوابات المداخل ؛ ففى قلعة الكرك هناك مدخل طويل مغطى تسيطر عليه فتحات لرماة السهام فى جداريه الجانبيين ، تعقبه ثلاثة أركان قائمة الزوايا ، ثم باب حديدى مدلّى ، وأربعة بوابات منفصلة. وكانت الحماية تتوفر للأبواب الخلفية من أركان غير متوقعة ، وهى وسيلة كان البيزنطيون أول من قدمها[١٠].

ضعف دفاعات القلاع

إن هذه القلاع الضخمة ، بأبنيتها القوية ، ومواقعها الرائعة على الصخور الشامخة وقمم الجبال، بدت منيعة قبل أن يُعرف البارود . وكانت طبيعة الأرض تحول دائما دون أن يصبح استعمال السلالم أمرا عمليا ، وليس فى الإمكان إحضار أبراج الحصار للسيطرة على الأسوار إلا إذا كانت هناك أرض مسطّحة فى الخارج تخلو من الخنادق . وكان من الصعب دائما على المحاصرين أن يجدوا موقعا قريبا بما فيه الكفاية يضعون فيه المناجق أو الراجمات لقذف الصخور . وكان الخطر الفنى الرئيسى هو النفق ؛ إذ كان المهندسون يحفرون النفق تحت الأسوار ، يسندون سقفه أثناء توغلهم بعُمُد خشبية ثم يشعلون فيها النيران فى نهاية الأمر بفروع الأشجار ، مما يتسبب فى انهيار النفق نفسه ومعه أحجار الأسوار من فوقه . غير أن حفر النفق كان مستحيلا فى حالة بناء القلعة فوق الصخور الصلدة ، كقلعة الكرك . وعلى الرغم من وجود المخازن والصهاريج ، كانت المجاعة والعطش هما الخطر الحقيقى . وكان نقص القوة البشرية يعنى عدم القدرة

---

(٩) Rey, *Architecture Militaire des Croisés*, pp. 70 ff. وهو يبالغ فى الفرق بين النمطين اللذين استخدمهما فرسان المعبد وفرسان المستشفى ؛ Fedden, *op. cit.* pp.28-9. أنظر Deschamps, *Le Crac*, pp. 279 ff. وذلك للإطلاع على مراحل كل نمط والتغيرات الداخلة عليه . أنظر أيضا Melvin, *La Vie des Templiers*, pp. 136-42.

(١٠) Fedden, *op. cit.* pp. 29-30.

على الدفاع بصورة جيدة ؛ إذ ليس بوسع المملكة دائما إرسال قوة مخلّصة ، وكانت معرفة هذه الحقيقة تتسبب في إثارة التشاؤم بين أفراد الحامية؛ ذلك أنه في ذروة انتصارات صلاح الدين ، لم تستطع قلعة صهيون العظيمة - التى اشتهرت بأنها أقوى القلاع في زمانها - مقاومة المسلمين إلا لثلاثة أيام[١١].

إن أهمية القلاع الصليبية تقع في نطاق التاريخ العسكرى أكثر مما تقع في نطاق التاريخ الفنى؛ ذلك أن الصليبيين العائدين إلى أوروبا أتوا معهم بأفكار عبرت عن نفسها عمليا هناك ؛ فقلعة ريتشارد قلب الأسد التى تعرف بقلعة حيّار قدمت تلك الأفكار إلى العالم الغربى .غير أن القلاع في الشرق كانت لها قيمتها الجمالية، فكنائسها تعد من أروع أمثلة العمارة الكنسية في الشرق الفرنجى؛ وقاعاتها الضخمة - وأجملها في قلعة الكرك - تقارن بأروع القاعات القوطية الأولى في غرب أوروبا ؛ وتظهر أحياؤها السكنية الرقة والجمال ، وقد بقيت لتعطينا فكرة عن قصور النبلاء في الشرق الفرنجى . أما غرفة السيد الأعظم في قلعة الكرك ، التى ترتفع عالية في البرج الجنوبى الغربى من الحيز المركزى الداخلي ، بقبّتها المضلّعة ، وأعمدتها الرقيقة ذات التيجان والقواعد ، وإفريزها البسيط كامل الإستدارة بحيث يُظهر زينته الزخرفية بخمس زهرات بيتلاتها ، ربما كانت هى الغرفة الأكثر بهاءً دون أغلب غرف قلاع وقصور المدن الأخرى . وطرازها هو الطراز القوطى لشمال فرنسا في القرن الثالث عشر ، بينما للقاعة الضخمة زخارف قوطية حجرية مماثلة للزخارف الموجودة في كنيسة سانت نيكولاس العصرية في ريم[١٢].

وكانت القلاع عملا هندسيا في أساسه ، بينما كان المقصود بالكنائس أعمالا فنية . وعندما وصل الصليبيون إلى الشرق وجدوا فيه تقاليد قديمة للبناء تناسب البلاد . وكان الخشب سلعة نادرة ؛ وكل ما تقدمه الغابات يستغل في بناء السفن وصناعة الأسلحة ، ولذا كان على المهندسين أن يقوموا بالبناء دون دعامات خشبية ، وكانت الأسقف من الحجارة وغالبا مسطّحة كي تكون بمثابة شرفات لقضاء الأمسيات . وكان نظام التقبية يستخدم لدعم السقوف ، وكانت الأقواس المدببة القادرة على حمل الأوزان الثقيلة من الملامح العصرية آنذاك . وكان الطراز الوطنى للبنائين السوريين هو

---

(١١) Oman, *History of the Art of War in the Middle Ages,* ii, pp. 29 ff.; Fedden, *op. cit.* pp. 34-40.

(١٢) (المترجم) : ريم Reims : مدينة شمال شرق فرنسا شهدت استسلام ألمانيا للحلفاء عام ١٩٤٥.

الطراز العربي - البيزنطي الذي بلغ الكمال في ظل الخلفاء الأمويين، والذي امتد أثره إلى ما حدث من تطور في العصر العباسي بعد ذلك ، وفي فن العمارة الفاطمية وما تأثرت به من شمال أفريقيا وكان البنّاؤون السوريون قد شاهدوا مؤخرا الأعمال البيزنطية في الأماكن المقدسة وفي أنطاكية ، كما كان هناك تدفق للحرفيين الأرمن المهرة بطرازهم الخاص بهم.

عمارة الأماكن المقدسة

كانت أول كنيسة بناها الصليبيون في الشرق هي كتدرائية القديس بول في طرسوس التي استكمل بناؤها قبل عام ١١٠٢م . وهي عبارة عن مبنى يتسم بالخشونة والفظاظة على طراز كنائس شمال فرنسا الرومانيسكية الأسطورية ، ولكن أقواسها مدببة ؛ وهي كتدرائية مستطيلة الشكل ذات جناحين وصحن تحده أعمدة وركائز بالتبادل . وقد أُحضرت الأعمدة من بعض المباني القديمة ؛ وتيجان الأعمدة مكعبات حجرية بسيطة بمثلثات، منحوتة من زوايا المكعبات ، وهو شكل من الزخرفة يوجد في الراينلاند الألمانية ، وكذلك في أرمينيا، وربما قام العمال الأرمن بعمل هذه الأشكال هنا . وكان لطريقتها الفجّة أثر في ذوق العمارة الصليبية بعد ذلك[١٣].

وما أن استقر المستعمرون آمنين حتى كان أول اهتمامهم إصلاح الأماكن المقدسة ، وبعد ذلك إنشاء الكنائس المناسبة في مدنهم الرئيسية . ومن أقدس المزارات التي بقيت في حالة جيدة كنيسة الميلاد في بيت لحم التي بناها قسطنطين ورممها جستنيان ؛ والإضافات المعمارية الوحيدة التي أضافها الصليبيون رواق بسيط مسقوف ذو أعمدة على النمط القرطي أقيم سنة ١٢٤٠م تقريبا ، ومدخل شمالي جنوبي إلى مغارة الميلاد، بُني سنة ١١٨٠م تقريبا على الطراز الرومانيسكي المتأخر، له قوس مدبب وعلى تيجان الأعمدة زخرفة على هيئة أشواك من صنع سوري فيما يبدو . كما بنى الصليبيون مقاراً للرهبان حول الكنيسة دُمّرت الآن[١٤]. أما الكنيسة الأكثر قداسة عمّا سواها ، وهي كنيسة القبر المقدس في القدس ، فقد بدت لهم غير ملائمة ؛ فبعد أن دمّرها الخليفة الحاكم بأمر الله، أعاد البيزنطيون بناء القاعة المستديرة المحيطة بالقبر

(١٣) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 378-9

(١٤) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 66-8.

نفسه، غير أنهم جعلوا الطرف الشرقي مسطحا وبنوا هناك ثلاثة محاريب مقبّبة ، وأُلحِق مصلّى القديسة ماري العذراء بشمال القاعة المستديرة ، أما مصلى القديس جون ، ومصلى الثالوث ، ومصلى القديس جيمس فقد أُلحِقت بجنوب القاعة المستديرة . وأُعيد بناء موضع جُلْجُثَة[١٥] كمُصلّى منفصل ، كما أعيد بناء مصلى القديسة هيلينا فى كهف اكتشاف الصليب[١٦]. وكانت المباني مزخرفة في ترف بالرخام والفسيفساء . وقرر الصليبيون وضع كافة المباني معا تحت سقف واحد . ومن الواضح أن الأعمال الرئيسية قد نفذت بعد زلزال سنة ١١١٤م وقبل سنة ١١٣٠م برغم عدم انتهاء بعض الأجزاء عند موت بلدوين الثاني سنة ١١٣١م ، ولم يتم تكريس الصرح الجديد حتى ١٥ يولية ١١٤٩م ، وهو الذكرى السنوية الخمسين للإستيلاء على المدينة ، وأُضيف برج الجرس في حوالى سنة ١١٧٥م.

وكان لا بد أن يتأثر مخطط المبنى الجديد بالموقع الذى كان يحده من الجنوب صخرة الجمجمة ومن الشرق بالمنحدر المؤدى إلى مصلى القديسة هيلينا الذى يقع أسفل القاعة المستديرة بعدة أقدام، ولذلك هدم الفرنج الجدار الشرقى للقاعة البيزنطية ، ودمروا محاريبها المقبّبة ، مستبدلين أوسطها بقوس كبير يؤدى إلى داخل كنيسة جديدة تتألف من مكان مخصص لجوقة المنشدين له قبّة تقوم على ركائز بالقرب من الطرف الغربى ، وجناح يحيط به ممشى مسقوف ، والطرف الشرقى منحنٍ وبه ثلاثة محاريب مقبّبة . وبين المحراب الأوسط والمحراب الجنوبي سلم ينحدر مؤدياً إلى كنيسة القديسة هيلينا مباشرة . وأماالجناح الجنوبى فيقع قبالة مصلى الجمجمة الذى أعيد بناؤه برغم بقاء الفسيفساء البيزنطية على أعمدة المدخل . وفى ناحية الغرب من جلجثة ، وفيما بينها وبين القاعة المستديرة ومصلى القديس جون ، بُنيت قاعة جديدة لتضم فى غرب مصلى الجمجمة، حجر المسحة[١٧] وقبري جودفرى وبلدوين الأول. وكان هناك ممر - وهو المدخل الرئيسى الحالى - يؤدى من القاعة الجديدة إلى فناء . وامتد بطول الجناح الشمالى جناحٌ خارجى شيّد البيزنطيون معظمه ، ينفتح على فناء آخر يتفرع منه ممر

(١٥) (المترجم) : جُلْجُثَة Golgotha : (فى الإنجيل)، الموضع الذى صُلِب فيه المسيح : "وجاءوا به إلى موضع جُلْجُثَة الذى تفسيره موضع جُمْجُمة" (إنجيل مرقس ١٥ : ٢٢).

(١٦) (المترجم) اكتشاف الصليب Invention of the Cross ، احتفال الثالث من مايو تخليدا لذكرى ما يُروى عن اكتشاف الصليب الحقيقى فى القدس عام ٣٢٦م بواسطة هيلينا أم قسطنطين العظيم.

(١٧) (لمترجم) المِسحة Anointing : من الطقوس المسيحية يُجرى بمسح الشخص خاصة عند العماد أو الذى يحتضر أو المريض بمرض خطير وما إلى ذلك.

يجاوز كنيسة القديسة مارى ويؤدى إلى شارع البطريق. وهناك فناء ثالث يحيط بمصلى القديسة هيلينا وتحيط به مبان حديدة لسكنى كبار الرهبان الأوغسطين الذين عُهد إليهم آنذاك بالكنيسة.

وهذه الأعمال الصليبية - التى حاوزت تخريب الخوارزميين سنة ١٢٤٤م ، ومرور الزمن ، والحريق الفاجع فى ١٨٠٨م - تبدو وثيقة الصلة بالكنائس الكلونية الكبيرة التى بناها الحجاج ، وخاصة كنيسة القديس سيرنين فى تولوز التى كرّسها البابا إيربان بعد مؤتمر كليرمونت مباشرة . ويذكرنا المشى المسقوف بشدة بأمثاله فى كلونى نفسها وبكنيسة القديس سيرنين ؛ وإن كان هناك فارق فإنه فارق فى الحجم . فقد حرص مهندسو القبر المقدس على جعل أعمدتهم أقصر وأقوى حتى تتسق مع القاعة المستديرة البيزنطية ، التى ربما كان المقصود بتصميمها مقاومة صدمات الزلازل . وفى الإمكان مقارنة التفصيلا الزخرفية - باستثناء ما تبقى من الفسيفساء البيزنطية وتيجان الأعمدة - بالكثير من مثيلاتها فى جنوب فرنسا وجنوبها الغربى . وتبدو أعمال النحت ، وبخاصة نحت الأشكال المنحوتة على الأعتاب العليا للأبواب والنوافذ ، فى أغلبها من مدرسة تولوز وإن كانت قد نحتت محليا . وعلى وجه العموم يبدو أن المهندسين والفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا فرنسيين ، ومن جنوب غرب فرنسا على الأرجح وتشربوا التراث الكلونى . والمعروف أن المهندس الذى كان يصمم برج جرس الكنيسة يدعى جوردان (الأردن) ، وهو اسم عادة ما يُطلق على الأطفال الذين يُعمّدون فى النهر المقدس .وربما كان من مواليد فلسطين[١٨].

الكنائس فى القدس

وكانت كنيسة القبر المقدس هى الضريح الأقدم الوحيد الذى أدخل عليه الصليبيون تغييرات واسعة . ورمموا عدة كنائس صغيرة ، مثل كنيسة صعود المسيح الواقعة على جبل الزيتون ، وقبر العذراء فى الجثمانية[١٩]. وعندما صارت قبة الصخرة كنيسة فرسان المعبد لم يضيفوا إليها سوى رخام زخرفى وأعمال حديدية زخرفية ، كما لم يُمَس المسجد الأقصى برغم إعادة تهيئة المنطقة التى يعلوها لتصبح حظائر

(١٨) Enlart *op. cit.* ii, pp. 144-80; Duckworth, *The Church of the Holy Sepulchre,* pp.203-58; Harvey, *Church of the Hohly Sepulchre* pp. ix-x.

(١٩) (المترجم) الجثمانية Gethsemane : الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس.

للجياد ومخازن ، وشُيّدت المباني حول المسجد لإيواء فرسان النظام ، بينما أضيف جناح في الجهة الجنوبية الغربية أصبح مكان الإقامة المفضّل للملوك . وفي أغلب المدن التي استعمروها وجدوا أن الكنائس قد أصابها من شدة الدمار ما لا يجعلها تستحق الإصلاح ، فكانوا يتركونها لأصحاب الطوائف من السكان الأصليين الذين كانوا يملكونها فعلا . واستولوا على بعض الأديرة القديمة ، وإن كانوا يفضلون بصورة عامة تشييد مبانيهم الخاصة بهم.وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون المواضع السابقة وقواعدها التحتية ، كما حدث في كنيسة البازيليك ذات القاعدة الرومانية الكبيرة في جبل صهيون ؛ وفي أحيان أخرى كانوا يغيّرون اتجاهات الموضع السابق تغييرا طفيفا، كما حدث في كنيسة الجثمانية . وفي أغلب الأحيان كانوا يختارون المواقع الخاصة بهم أو يعيدوا بناء الكنيسة برمتها في مواقع تقليدية[٢٠].

وبخلاف كنائس فرسان المعبد التي كانت دائرية الشكل ، كان التصميم الثابت للكنيسة الصغيرة هو الشكل المستطيل مع وجود نتوء دائري أحيانا في الحائط الخارجي في الطرف الشرقي . وكان البناء قويا ذا عقد مدبب واحد متقاطع الأضلع يدعم سقفا حجريا مسطحا . وكانت هذه الكنائس الصغيرة مبنيّة في كل قلعة، حتى في القلاع المعزولة مثل القلعة الواقعة على تل الوعيرة بجوار أطلال البتراء القديمة[٢١].

وكانت الكنائس الأكبر مستطيلة كذلك ، ولها أجنحة جانبية بطول المبنى تفصلها عن صحن الكنيسة أعمدة أو قوائم. ودائما ما كانت هناك ثلاثة محاريب متوارية في عمق الجدار . وكان في الكندرائية الكبرى في صور وفي كنيسة أو كنيستين أخريين أجنحة فرعية قصيرة تجعل صحن الكنيسة يتخذ هيئة صليب، وإن لم يكن لذلك مدلولا معماريا. وتوجد في كندرائية طرطوس غرفة للأشياء المقدسة وأخرى لأدوات التناول مبنيتان في الركنين الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي . وكان لقليل من الكنائس ، مثل كنيسة القديسة آه في القدس، ولكندرائية قيصرية فيما يبدو قباب تقوم على أعمدة وتغطي الحيز الواقع أمام الحرم ؛ وكان السقف في العادة مسطحا أو برميلي الشكل .

---

(٢٠) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 207-11, 214-21, 233-6, 243-5, 247-9.

(٢١) لم يبق من كنيسة الوعيرة سوى ما يزيد قليلا على النتوء المستدير في الحائط الخارجي . كما لا يوجد سوى بقايا شائهة لإفريز مصبوب ولا أثر هناك للزخرفة . وتبدو الأحجار المستخدمة في تشييدها أصغر ممّا اعتاد الصليبيون على استخدامه في المباني . ويبدو أن كان لها دهليز صغير وسرداب . أما كنيسة قلعة الكرك فكانت أكبر بكثير ولها أربع نوافذ . ويقال إن لها زخارف جصّية وإن لم يبق منها شيء الآن . أما كنيسة فرسان المعبد في قلعة عثليت فلم تكن دائرية وإنما باثني عَشر ضلعا ؛ وتنتمي للقرن الثالث عشر.

وكانت الأعمدة الجانبية مغطاة في معظم الأحوال بأقبية ذوات حنايا ؛ وكان الصحن مغطى إما بقبو ذى حنايا أو بقبو برميلى طويل مدبب مضلع . وإذ كانت الأجنحة أقل ارتفاعا من بقية أجزاء الكنيسة ، تعددت النوافذ حول المنور ، وكانت النوافذ كلها ، بما في ذلك تلك التى تقع في الطرف الشرقى ، صغيرة لتوارى ضوء شمس سوريا المبهر. وكانت الأقواس مدببة باستثناء القليل منها . وكانت الأبراج نادرة؛ وكان لكنيسة الدير فى جبل الطور برجان على جانبى المدخل الغربي ، يحوى كل منهما مصلّى على هيئة محراب فى الدور الأرضى . وكانت تلحق بالكنائس أحيانا أبراج أجراس ، ولكنها لم تكن جزءا مكملا لها[٢٢].

زخرفة الكنائس

كانت زخارف كنائس القرن الثانى عشر بسيطة ؛ ودائما ما كانت تستخدم فى ذلك أعمدة مأخوذة من المبانى القديمة ؛ وتنوعت رؤوس تلك الأعمدة ، فكان بعضها قديما ؛ واتخذ البعض النمط الكورينثى والسّلّى لرؤوس الأعمدة البيزنطية والعربية ، الذى كان يتبعه البناؤن المحليون أو الفرنج الذين سايروا الأنماط المحلية؛ كما اتخذ البعض النمط الرومانيسكى الغربى[٢٣]. وكانت توجد فى بعض الكنائس ، مثل كنيسة قرية الناب ، لوحات جدارية على النمط البيزنطى[٢٤]، وكانت هناك أعمال من الفسيفساء

(٢٢) أنظر Enlart, *op. cit. passim* وقد اعتمدت بدرجة كبيرة على المعلومات الشخصية المتصلة بالمبانى.

(٢٣) أنظر Enlart, *op. cit.* i, pp. 70-3

(٢٤) أنظر أدناه ، ص ٤٣٩.

في حجرة العشاء الأخير على جبل صهيون ، وفى كنيسة الرقاد[٢٥] الملاصقة لها[٢٦]. ولابد من أن يكون الفنانون البيزنطيون الذين أرسلهم الامبراطور مانويل ومعهم أدواتهم قد مارسوا فنهم هناك ، كما مارسوه بالفعل فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم[٢٧]؛ وإن كانت الزخرفة التصويرية نادرة . وكان للزخارف المحيطة بالأقواس أطراف مدببة ، أو على شكل أنياب الكلب . ولم يبق إلا القليل من الأشكال المنحوتة؛ وكانت لبنات عقود الأقواس مبطّنة فى الغالب ، وكانت الحليات وردية الشكل البسيطة من الزخارف الأخرى المفضّلة[٢٨].

وكان الوقع العام لكنائس القرن الثانى عشر يتميز بالحدّة إلى حد ما ، ولم يبلغ شأو العمارة المعاصرة فى الغرب ، ويرجع ذلك إلى الحرص على اجتناب استخدام الأخشاب والإحتراز من الزلازل ، وإن جاءت النتيجة حسنة التناسب . ولا شك فى أن الصليبيين قد جاءوا معهم بمهندسين معماريين تشرّبوا الأنماط الفرنسية ، البروفانسى والتولوزى منها على وجه الخصوص ، بيد أنه من الواضح أنهم أخذوا بآراء البنّائين المحليين ؛ وتعلموا فى الشرق طريقتهم فى استخدام القوس المدبب . وأول مثالين للقوس المدبب فى الغرب يتمثلان فى كنيستين قامت ببنائهما حوالى سنة ١١١٥م إيدا اللورينية، وهى أم أول حاكمين فرنجيين للقدس ، وكان ابنها الأكبر إيوستاس البولونى

---

(٢٥) (المترجم) الرقاد أو الموت Dormition : ويقصد به رقاد السيدة العذراء فى نزعها الأخير ، ويمثل هذا الرقاد موضوعا فنيا تناوله الفنانون المسيحيون تناولا مختلفا عبر العصور . ويرجع الإختلاف فى لوحات أولائك الفنانين إلى أن تناول موضوع موت السيدة العذراء جاء فى الأجزاء المكذوبة من الكتاب المقدس . وهذا الموضوع الفنى يدور حول فكرة تقول إن تلامذة المسيح المنتشرين فى أرجاء الأرض جاءوا عند موت العذراء إلى فراش موتها بطريقة إعجازية والتفوا حوله ، كما هبط المسيح نفسه من السماء وانضم إليهم ليتولى رفع روحها بنفسه . وفى اللوحات الأولى التى تناولت هذا الموضوع ، ظهر السيد المسيح يحمل روحها على شكل طفل فى أكفان بيضاء ، بينما ظهر القديس بولس واضعا رأسه على صدرها منصتا إلى دقة القلب الأخيرة . وفى لوحات تالية اتخذت روحها شكل ملاك ، ثم اختفى السيد والمسيح والروح فى لوحات لاحقة . ولم يكن ليتح لهؤلاء الفنانين هذا التنوع الخصب فى معالجة هذا الموضوع ما لم تكن تلك الرواية قد وردت فى الأجزاء المكذوبة من الكتاب المقدس.

(٢٦) فى سنة ١١٠٦م شاهد دانيال الهيجومينى Daniel the Higumene الفسيفساء فى حجرة العشاء الأخير in Khitrowo, *Itinéraires Russes*, p. 36؛ وفى حوالى سنة ١١٦٠م كان John of Würzburg يصف لوحات الرسل الفسيفسائية هناك بما عليها من كتابات لاتينية تصف هبوط الروح القدس، وكذلك الفسيفساء فى كنيسة الرقاد التى تصور الرقاد نفسه والكتابات المدونة عليها المكتوبة باللاتينية وإنما تستخدم مصطلحات يونانية(*P.P.T.S.* pp. 42-3) .

(٢٧) أنظر أدناه ، ص ٤٣٩.

(٢٨) Enlart, *op. cit.* i, pp. 93 ff.

قد عاد حديثا من فلسطين . ومن العسير ألاّ نعتقد أن المهندسين العائدين أشاعوا الطريقة الجديدة في الغرب ، حيث طوّرت كي تناسب الحاجات المعمارية المحلية(٢٩).

ويستحيل على المرء أن يلجأ إلى التعميم في تناوله لأصول شتى الوجوه المعمارية والزخرفية ؛ ذلك أن قبة كنيسة القديسة آن في القدس شديدة الشبه بالقباب التي بناها المهندسون الفرنسيون في Pérgord ، وإن كان نفس نمط القبة القائمة على أعمدة بلا اسطوانة موجود في الشرق(٣٠). وغالبا ما يقارب الحفر الرومانيسكي الحفر البيزنطي والأرميني بحيث تتعذر التفرقة الواضحة بينها ؛ ومن المحتمل أن حفر الأشكال ، والخيال الزائد الذي تتسم به رؤوس الأعمدة ؛ من نتاج الفنانين الفرنج ، على أن زخارف أوراق الأقنْثا أو الكروم نشأت محليا . ويبدو أن نموذج الأطراف المدببة كان ينتقل من الشمال إلى الجنوب حتى في أوروبا ؛ وكان نمط أنياب الكلب معروفا في الشرق من قبل ، ويوجد هذا النمط ، ونمط لبنات العقود المبطنة ، على البوابة الفاطمية العظيمة 'باب الفتوح' في القاهرة ، التي بناها مهندسون أرمينيون من الرها ، وهي المدينة التي سبق أن كان البيزنطيون مسؤولين فيها لعدد من العقود عن إقامة كثير من المباني الجديدة(٣١).

الفسيفساء واللوحات الجدارية

وتُظهر الأمثلة الباقية من فنون التصوير تأثرا شديدا بالفن البيزنطي يشكّك فيما يبدو في أن فنانا فرنجيا واحدا قام بعمل في الشرق . ومن اليقيني أن أعمال الفسيفساء

---

(٢٩) . Enlart, *op. cit.* i, pp. 3-4, 67-8 إن بعض الزخارف في كنيسيِّ إيدا في Wast and Saint Wlmer في بولونيا تذكرنافي وضوح بالأعمال العربية . ولقد وجدت الأقواس المدببة في كلوني Clunyفي نفس التاريخ تقريبا. والدور الذي قام به المهندسون الأرمن في نشر القوس المدبب وفي نقبة أقواس العقود)التي بالغ Strzygowski في استكبارها(جدير بالإعتبار . أنظر Baltrusaitis, *Le problème de l'Ogive dt l'Arménie*, pp. 45 ff. esp. pp. 68-70 . ولا يزال هناك الكثير مما يقال عن أعمال الأرمن في أوربيه . أنظر أيضا Clapham, *Romanesque Architecture*, pp. 107-12.

(٣٠) . . Clapham, *loc. cit.* وقبة القديسة صوفيا في القسطنطينية بلا اسطوانة . وكانت الإسطوانات نادرة في العمارة الفارسية.

(٣١) . Clapham, *op. cit.* pp. 110, 112-13 وهو يرفض قبول أن المقارنات الأرمينية ذات صلة ، بسبب الشكوك المحيطة بالتواريخ . على أن زخارف الكنائس في أرمينيا الكبرى يمكن تحديد تواريخها بشيء من اليقين . أنظر (Der Nersessian, *Armenia and the Byzantine Empire*, pp. 84 - 109الذي يظهر عرضا دسمرية تتبع أصول الأنماط الزخرفية).

فى بيت لحم صممها ونفذها فنانان من القسطنطينية هما بـارل وإفريم ، وإن كانـا قـد قاما بعملهما بالتعاون مع السلطات اللاتينيـة المحليـة . وبـدت فـى تلـك الأعمـال صـور القديسـين الغربيـين وكذلـك الشـرقيين ، وجـاءت الكتابـات عليهـا فـى اللغـة اللاتينيـة وكذلك اليونانية، ويحتمل أن يكون رسم المسيح بالفسيفساء فى الكنيسـة اللاتينيـة فـى الجمجمة من عملهم(٣٢) . ونمط اللوحات الجدارية ، التى يعتورها البلى سريعا فى قريـن الناب ، نمط بيزنطي والنقوش عليها لاتينية ، وإن كـان اختيار موضوعهـا شـرقيا(٣٣) . وكان هناك ، على وجه اليقين ، فنانون يونـانيون يعملـون فـى فلسـطين حوالى سـنة ١١٧٠م تحت رعاية الامبراطور مانويل ، وكانوا مسؤولين عن اللوحات الجداريـة فـى الأديرة الأرثوذكسية فى كلامون وسان إيدثيميوس ، ولا شك فى أن الآباء اللاتينيـين فى قرية الناب كانوا يستخدمونهم فى زخرفة كنيستهم(٣٤) . وأحيانا ما تؤخذ الكنيسـة الصغيرة فى أميون ، علـى مقربـة مـن طرابلـس ، على أنهـا أثـر صليبـى اسـتدلالا مـن معمارها ، ولكن تكريسها باسم قديس يونانى فوكاس وكتاباتهـا اليونانيـة ، ولوحاتهـا الجدارية البيزنطية، تظهر أنهـا مـزار أورثوذوكسـى فـى كـل حـال ، وهـى تدلـل علـى الصعوبة البالغة فى التفرقة بين النمطين الفرنجى والمحلى(٣٥) . ولقد انتفع كثير من كنائس الفرنجة بالهدايا التى منحها الأمبراطور فى القسطنطينية لأساقفتها، ويخبرنا كبير الأساقفة العظيم وليم الصورى بأن الأمبراطور مانويل أغدق عليـه هدايـا فـاخرة لكتدرائيـة(٣٦) . ولقد زار أسقف الناصرة أشـارد المدينـة الإمبراطوريـة ليفـاوض فـى أمـر زواج بلدويـن الثالث ، ومات هناك ، وعاد جثمانه محمـلا بالهدايـا كذلـك(٣٧) . وكـان هنـاك اتصـال مستمر طوال القرن الثانى عشر ، خاصة فى عهد مانويل، بين أوتريميه وبيزنطة ، ولا بد

---

(٣٢) *Church of the Nativity at Bethlehem* (ed. Schultz), pp. 31-7, 65-6) John Phocas's description); Enlart, *op. cit.* i, p. 159, ii, pp. 65-6; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 414-15. See above, vol. ii, pp. 391-2 and n. i. The mosaic Christ in Glory from the vault of the Latin Chapel of Calvary is reproduced as the frontispiece of Harvey, *op. cit.* Very little has been written about it. It may be Bayzantine work of the previous centry .

(٣٣) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 323-4 .

(٣٤) أنظر الجزء الثانى ص ٣٣٦ ملوحظة ١.

(٣٥) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 35-7

(٣٦) .William of Tyre, xxii, 4, p.1068

(٣٧) *Ibid.* xviii, 22, p. 857 .

من أن يكون لبيزنطة تأثير فنى عظيم آنذاك ، واستمر هذا التأثير عبر القرن التالى ويوحى الوصف الذى أورده ويلبراند (أوف أولدنبرج) لقصر آل إبلين فى بيروت بلوحاته الجدارية ورخامه ، بأنه عمل بيزنطى ؛ واللورد العجوز جون الإبلينى الذى بناه كانت أمه أميرة بيزنطية(٣٨).

وكان ذلك القصر – فى بيروت – استثناءً . فعمارة القرن الثالث عشر فى أوتريميه اقتربت من التراث الفرنسى أكثر من عمارة القرن الثانى عشر . وبانحسار المناطق الفرنجية فيما لا يجاوز المدن الساحلية إلا قليلا، بدا أن دور الصنّاع الوطنيين والتراث المحلى قد أخذ فى التقلص . وكانت كتدرائية البشارة فى الناصرة هى آخر الكنائس التى اكتملت قبل فتوحات صلاح الدين ثم حطّم بيبرس مبناها ، بيد أن الشكل المنحوت الباقى هناك فرنسى صرف ، ويبدو أن مدخلها الكبير ، وهو أكثر المداخل زخرفة ، كان يشبه إلى حد كبير مداخل كثير من الكتدرائيات الفرنسية فى ذلك الوقت ، وكان المبنى بأسره يقترب فيما يحتمل من النمط الفرنسى أكثر مما يقترب من النمط المحلى السابق(٣٩). وكانت الكنيسة الرئيسية التى بنيت فى القرن الثالث عشر – وهى كنيسة القديس أندرو فى عكا – عبارة عن مبنى قوطيا عاليا ورشيقا ، لا يبقى منه الآن إلا بقايا قليلة، ولكن الأوصاف والرسوم التى تركها الرحالة القدامى تؤكد ارتفاعها ؛ وكانت أجنحتها الجانبية عالية تنورها نوافذ طويلة وضيّقة مدببة من أعلاها، ويلتف أسفلها حول الأسوار الخارجية ممر مقفل عند الأطراف ذو أعمدة أنيقة.

ولا يمكننا أن نعرف كيفية إضاءة المنور والطرف الشرقى ، أما الباب الغربى فكانت تعلوه ثلاث نوافذ أكبر تعلوها ثلاث نوافذ أخرى تتخذ شكل عيون البقر . وكل ما يتبقى من الكنيسة الآن رواق من جانبها الغربى فيما يحتمل ، نقل بعد فتح عكا على ظهور الجمال إلى القاهرة حيث اتخذ مدخلا لمسجد أقيم تخليدا لذكرى السلطان أشرف فاتح عكا ؛ ويتخذ هذا الرواق أبعادا مرتفعة وأنيقة ، وتحمل سقفه المقوّس من جانبيه سلسلتان من الأعمدة تتألف كل منهما من ثلاثة أعمدة اسطوانية يعقبها عمودان أقل استدارة وهكذا ، ويتلاقى جانبا السقف المقوّس فى تناسق مع

---

(٣٨) Wilbrand of Oldenburg in Laurent, *Peregrinatores Medii Aevi Quattuor*, pp. 166 ff.
انظر الجزء الثانى ص ٣٦١.

(٣٩) Enlart, *op. cit.* pp. 298-310 .

رؤوس الأعمدة ، وينتؤ فى باطن هذا السقف سقف آخر على شكل ورقة شجر ثلاثية الأطراف تخترقه عين بقرة . وهذا النمط هو النمط القوطى المتبع فى جنوب فرنسا[٤٠].

ويتّسم أسلوب عمارة القرن الثالث عشر في قلعة الكرك بنفس النمط الشامخ . وكانت غرفة السيد الأعظم الشاهقة وقاعة الطعام العظيمة تصطبغان كليّة بالصبغة الغربية ؛ وللثانية رواق شديد الشبه برواق كنيسة القديس أندرو فى عكا، وإن كانت أعمدته أقل أناقة ، وله نافذة وردية الشكل تتوسط سقفه المقوس ، تقابل عين البقرة التى تتوسط سقف رواق كنيسة القديس آندرو[٤١].

ومن المؤسف أنه لم يبق من آثار القرن الثالث عشر إلا القليل ، على أن نمط أوتريمه فى عمومه كان يقارب النمط الفرنسى القوطى المعاصر المتبع فى قبرص فى ظل حكم آل لوسينيان ، مبتعدا عن النمط الأكثر محلية الذى ساد فى القرن السابق . وتوحى الأعمال الباقية فى الناصرة بأن الفن الصليبي كان على صلة بالحركة القوطية فى الغرب . ولقد حفزت فتوحات صلاح الدين كثيرا من الحرفيين المحليين بأن يحاولوا الإستفادة من النمط الإسلامى . ومن المحتم أن يقلّص انهيار بيزنطة عند منعطف القرن من تأثير أنماطها ؛ وقد جلبت الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق أعدادا كبيرة من الفنانين والصنّاع الغربيين . ويبدو أن العداء المتزايد بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية أوحى فى نفس الوقت بتباين أشد بين أنماطهما.

مزامير الملكة مليسيند[٤٢]

ولا يوجد من مخطوطات القرن الثانى عشر سوى مخطوطة مزخرفة الحروف يُعرف أنها انتهت الينا من أوتريميه ، وهى "سفر المزامير" المعروف باسم مزامير الملكة مليسيند. وتنتمى هذه المخطوطة بلا شك إلى امرأة ؛ وقد جاء فيها ذكر موت بلدوين الثانى والملكة مورفيا ، ولم تذكر موت الملك فولك ، مما يدعو إلى افتراض أنها تنتمى إلى مليسيند وأنها كُتبت قبل موت الملك فولك . ومع ذلك ، فإن هناك ما يبرر افتراض أنها كُتبت لشقيقة مليسيند ، جوفيتا، رئيسة دير بيثانى ، وفى هذه الحالة ، وبافتراض

---

(٤٠) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 15-23 .

(٤١) Enlart, *op. cit.* i, pp. 134-7 .

(٤٢) (المترجم): نسبة إلى سفر المزامير فى العهد الجديد من الكتاب المقدس.

أن ذكر فولك لا محل له ، يمكن أن يرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى أية سنة منحصرة في الفترة التي عاشتها حوفيتا ، أى حتى سنة ١١٨٠م. وقد كتب النص كاتب لاتينى مقتدر ، وتبدو العناوين المزخرفة لاتينية أكثر مما تبدو بيزنطية ، وإن كانت زخرفة الصفحة الكاملة بيزنطية تتخذ أسلوب المقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، يظهر عليها توقيع رسّام يدعى بازل ؛ ومن الممكن أن يكون بازل هذا هو نفسه الذى قام برسم اللوحات الجدارية فى بيت لحم سنة ١١٦٩م. وتشابه صور المخطوطة إلى حد ما صور كتاب قداس عُثر عليه فى سوريا قام بزخرفته حوزيف الذى كان يعيش فى ملطية فى عهد أسقف يدعى حون ، الذى يُرى أنه نفس الأسقف الذى كان يحكم من سنة ١١٩٣م إلى سنة ١٢٢٠م ، ومن ثم يمكن أن يكون الفنان الذى زخرف مزامير مليسيند سوريًا تدرب فى مدرسة بيزنطية ، ويحتمل أن تكون المخطوطة قد كتبت لجوفيتا رئيسة الدير فى السنوات الطويلة من عمرها الطويل(٤٣).

وهناك مجموعة مثيرة من المخطوطات يُنظر إليها فى العادة على أنها نتاج صقلى ، ويثبت البحث الحديث أنها كُتبت فى عكا فى الوقت الذى كان يقيم فيه القديس لويس هناك على وجه التقريب من سنة ١٢٥٠م إلى سنة ١٢٥٤م ، فأسلوبها بيزنطى، وقد اشترى لويس مقتنيات كثيرة من امبراطور القسطنطينية بلدوين الثانى ، وربما كان من بينها مخطوطات أرسلت إليه فى عكا وألهمت الفنانين الذين كانوا يعملون هناك . ومن المستحيل أن يقال إن تلك المدرسة قد بقيت بعد عودة الملك إلى فرنسا(٤٤).

لم يبق من الفنون الصغرى إلا أقل القليل ، ومن المستحيل أن نعرف ما صُنع منها محليا وما استجلب من الشرق أو الغرب ؛ فالأثاث والأشياء التى تستخدم فى الحياة اليومية جاءت ولا شك من ورش محلية ، ويحتمل أن تكون مواد الزينة قد جاءت من الخارج ، من القسطنطينية أو من المدن الإسلامية الكبرى ، أو جاء بها زوار من فرنسا.

---

(٤٣) Boase, 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute,* vol. ii, pp. 14-15 . أما Dalton، فى مؤلفه *Byzantine Art and Archaeology,* pp. 471-3 فيعتقد أن صور الصفحة الكاملة بيزنطية اقليمية وأنها ضُممت لعمل آخر . ورؤوس الصفحات من عمل فنان آخر؛ وربما كانت رومانيسكية غربية وإن كانت بتأثيرات شرقية (مثلا القديس حون الإنجيلى بلحية). والفنان الثانى أكثر رقة من الأول ، وإن كانت ألوانه أضعف . وفى *East Christian Art,* p.309، يفترض أن الفنان الأول أرمينى. أنظر Buchthal, 'The Painting of Syrian Jacobites' in *Syria* vol. xx, pp. 136 ff. esp. p. 138 .

(٤٤) أى حكم على هذه المجموعة من المخطوطات لا بد أن ينتظر نشر العمل الوشيك الذى كتبه Dr. H. Buchthal.

أو إيطاليا . وهناك مجموعة من الأشياء عُثر عليهـا فـى القـرن التاسـع عشـر تحـت أبنيـة الأديرة فى بيت لحم تضم حوضين نحاسيين يبدو أنهما يرجعان إلى المدرسة الموسينية فـى القرن الثانى عشر ، حُفرت عليهـا مجموعـة مـن الرسـوم تصـور حيـاة القديس تومـاس الرسول ، وشمعدانين فضيين يبدو أنهما من صنع بيزنطى فى نهاية القرن الثـانى عشـر ، وآخرين مطليين بمينا مدينة ليموج الفرنسية يرجعان إلى نهاية القرن الثانى عشر كذلك، وآخر أكبر من سابقيه ، ورأس صولجان أسقف ، مطلّين بمينا مدينة ليموج كذلك[٤٥]. وربما يكون الحاجز الحديدى الذى أقامه الصليبيون فى قبة الصخرة من صنع محلى ، وإن كان شديد الشبه بالمشغولات الحديدية الرومانسكية الفرنسيـة[٤٦].

الفنون الصغرى

وربما كانت الثريات الحديدية المستخدمة فى الكنائس مصنوعة محليا ، وإن جـاءت تصميماتها على غرار تصميمات أوروبا الغربية المعتـادة[٤٧] ولم تبـق أدوات فخاريـة أو زجاجية يمكـن إرجاعهـا إلى تلـك الأيـام . وكـانت العمـلات والأختـام تصنـع محليـا ، وكانت تلك العملات تُصك بقصد استخدامها فى الشـرق ، ومـن ثـمَّ اتخـذت الأنمـاط الإسلامية المحلية ، وجـاءت عليهـا نقـوش عربيـة . وأختـام القـرن الثـانى عشـر بسـيطة وبدائية ، أما أختام القرن الثالث عشر فتتميز برقة واتقان أكثر[٤٨]. وهناك وعاء بلورى على هيئة ركاب فى إطار من الفضة المزينة بالجواهر ويحوى صندوقا داخليا من الخشـب المشغول ، وهو محفوظ الآن فى القدس وربما كان من صنـع محلى، وإن كـانت أجـزاؤه الفضية أو البلورية قد جاءت من وسط أوروبا[٤٩] وهناك لوحتان من العـاج منقوشـتان فى رقة، وهما بمثابة غطائين لسفر مزامير الملكة مليسيند ؛ على أحدهما مدليات تحكـى قصة داود وفى أركانه رسوم أرواح ، وعلى الآخر عرش الرحمة وفى أركانـه حيوانـات خرافية . ورسوم الأيقونات غربية أكثر منها بيزنطية برغم أن الملابس الملكيـة بيزنطيـة ، أما الحيوانات فذات طابع أندلسى ، والزخارف أرمينية الإيحاء . ولا يمكننا فيما يبدو أن

---

(٤٥) Enlart, *op. cit.* i, pp. 172-201 .

(٤٦) *Ibid.* ii, pp. 310-11 .

(٤٧) *Ibid.* i, pp. 175-9 .

(٤٨) See Schlumberger, *Sigillographie de l'Orient Latin,* esp. introduction by Blanchet.

(٤٩) Enlart, *op. cit.* i, pp. 197-8 .

نفترض أن صانع عاج على هذا القدر من المهارة كان يعيش في القدس في ذلك الوقت. وربما كانت هاتان اللوحتان هدية من مكان آخر(٥٠).

ولا ينبغي أن يستخلص الباحث من ضآلة الشواهد أن الجهد لم يكن كبيرا ؛ ذلك أنه إذا ما ازدهرت العمارة ازدهرت الفنون الأخرى كذلك وعكست صورة الحياة في أوتريميه ؛ فالعمارة في القرن الثاني عشر عمارة مستعمرين كانوا على استعداد للتوافق مع البلاد التي جاءوا إليها ، وإن كانوا يستمدون العون دائما من الغرب. على أن الكوارث التي حلت في نهاية القرن الثالث عشر قضت على التوازن القديم ؛ ففي القرن الثالث عشر لم يتبق من الأسر العظيمة القديمة في أوتريميه سوى القليل ، وحلت محلها الأنظمة الدينية العسكرية التي كانت تجّند أساسا من الغرب ولم تكن تتعاطف كثيرا مع التراث المحلي . والعناصر الوطنية في المدن تفرقت الآن، واتجهت عكا بناظريها إلى الغرب ، وتركزت الثروة لدى الإيطاليين ، بينما كانت القوة في العادة في أيدى ذوى النفوذ من الغرب أو من ينوب عنهم . وأخذ النبلاء - أكثر فأكثر - في اللجوء إلى قبرص حيث كانت تنبثق حضارة قوطية . وكانت هناك أصداء بيزنطية قليلة تتناهى إلى الأسماع ، وإن كانت تتخافت شيئا فشيئا ، فبيزنطة أخذت في الأفول ، وقضى المغول على الثقافة العربية الأعرق ، وكانت ثقافة مصر المملوكية الأحدث معادية. وربما استمر تلاقى الثقافات في أنطاكية ، غير أن النهب والزلزال والبلى قضت على شواهده. وفي الجنوب من أنطاكية ، فإن محاولة أوتريميه اتخاذ نمط يميزها قد قضى عليها في ميدان القتال في حطين . ولم يكن الجهد الشديد المتواضع في أوتريميه إبّان القرن الثاني عشر سوى افتتاحية لم تؤد إلى شيء ، وما كانت أوتريميه في القرن الثالث عشر إلا إقليما نائيا لعالم البحر المتوسط القوطي.

(٥٠) Enlart, *op. cit.* i, pp. 199-200; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 221-3, and *East Christian* Art, p. 218 points out the Oriental affinities and believes that the carver was local. Boase, *loc. cit.* .

الفصل الثالث:

سقوط عكا

سقوط عكا

"نهاية.قد جاءت النهاية على زواياالأرض الأربع"
(حزقيال ٢:٧)

عم الفرح الشرق الفرنجى لأنباء وفاة بيبرس . وكان خليفته إبنه الأكبر بركة الذى كان شابا ضعيفا يقضى وقته فى محاولة السيطرة على أمراء المماليك . وكانت مسؤوليات السلطنة فوق احتماله . وفى أغسطس ١٢٧٩م تمرد عليه أمير الجنود السوريين قلاوون وزحف على القاهرة ؛ وتنازل بركة عن العرش لأخيه البالغ من العمر سبعة عشر سنة ؛ وتولى قلاوون الحكومة، وبعد ذلك بأربعة أشهر خلع قلاوون السلطان الصبى ونصب نفسه سلطانا ؛ ورفض حاكم دمشق ، سنقر الأشقر ، الاعتراف بسلطته ونصب نفسه هو الآخر سلطانا هناك فى شهر ابريل التالى ؛ لكنه لم يستطع الصمود أمام المصريين ، وبعد معركة قريبة من دمشق دارت رحاها فى يونية ١٢٨٠م ، تقاعد فى شمال سوريا وسرعان ما تصالح مع قلاوون الذى استولى بذلك

على ميراث بيبرس كله(١).

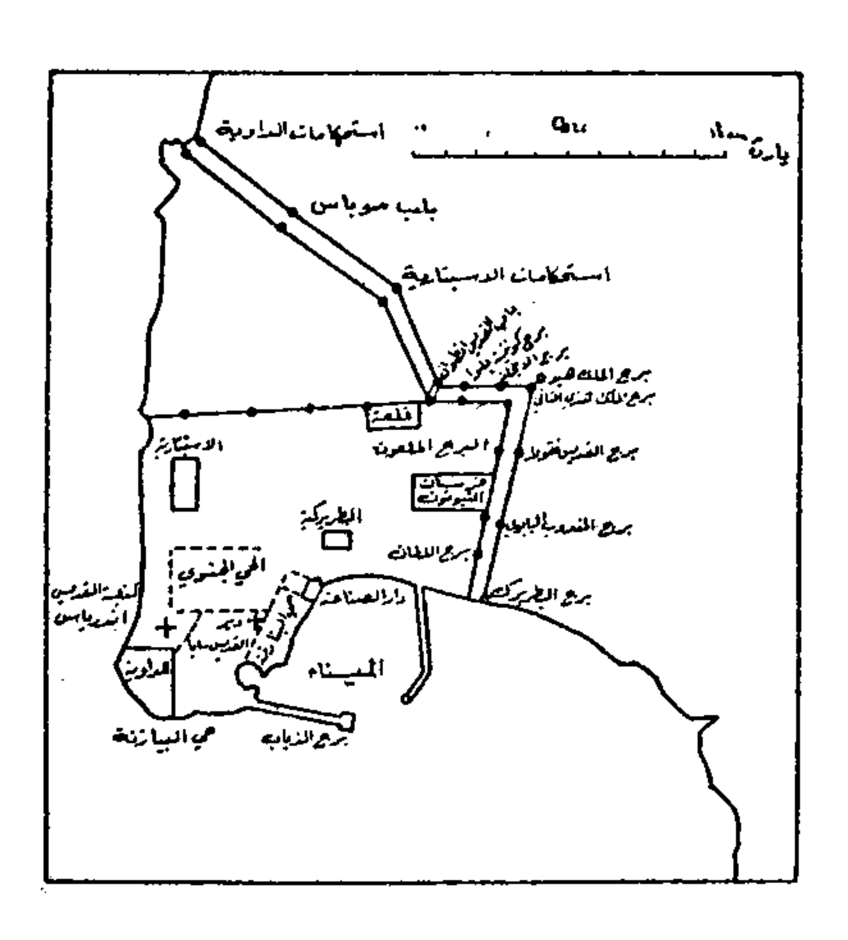
ولم يستغل الفرنج الهدنة ؛ إذ عبثا حثّهم الخان أباغا وتابعه ليو الثالث ملك أرمينيا على عقد تحالف والقيام بحملة صليبية . ولم يكن لهم من مناصر سوى نظام فرسان المستشفى . وكان تشارلز (أوف أنجو) ، بكراهيته لبيزنطة وحلفائها الجنويين ، قد أمر وكيله فى عكا روجر (أوف سان سفرينو) باحترام التحالف المعقود مع البنادقة وفرسان المعبد والبلاط المملوكى . أما البابا ، الذى وعده الامبراطور ميخائيل بإخضاع الكنيسة البيزنطية ، فقد شجّع تشارلز فى مخططاته السورية كي يشتت انتباهه عن الهجوم على القسطنطينية . وأبدى إدوارد الأول ملك انجلترا تعاطفه مع المغول ؛ ولكنه كان بعيدا فى انجلترا وليس لديه الوقت ولا المال لحملة صليبية جديدة(٢).

وفى الشرق الفرنجى ، كان بوهمند السابع على استعداد للتعاون مع عمه الأرمينى، غير أنه كان على علاقة سيئة بفرسان المعبد ؛ وفى ١٢٧٧م تشاجر مع أقوى أتباعه ، جوى الثانى إمبرياكو أمير جبيل الذى كان من أبناء عمومته وصديقا حميما له، وقد سبق أن حصل على وعد بتزويج إحدى الوريثات المحليات من عائلة أليمان لأخيه جون . غير أن بارثولوميو أسقف طرطوس رغب فى أن يكون الميراث لإبن أخيه وحصل على موافقة بوهمند ؛ وعلى الأثر اختطف جوى الفتاة وزوجها لجون ، ولخشيته من انتقام بوهمند هرب إلى فرسان المعبد . ورد بوهمند بأن دمر مبانى فرسان المعبد فى طرابلس وقطع أشجار غابة لهم قريبة فى مونترولك . وعلى الفور قاد السيد الأعظم لفرسان المعبد ، وليم (أوف بوجو)، فرسانه إلى طرابلس وسار فى استعراض خارج الأسوار ، وعندما عاد أحرق حصن البطرون ؛ غير أن محاولته قصف نيفين أسفرت عن أسر اثنى عشر فارسا من فرسانه ألقى بهم بوهمند فى السجن ؛ وعندما انطلق فرسان المعبد عائدين إلى عكا ، زحف بوهمند على جبيل لمهاجمتها ؛ خرج جوى لملاقاته ومعه كتيبة من فرسان النظام كان قد تركها له وليم (أوف بوجو)، ودارت معركة عنيفة على أميال قليلة شمال البطرون ، وكان فى كل جانب مائتا مقاتل بالكاد غير أن القتال استعر ، وهُزم بوهمند هزيمة منكرة ، ومن بين الفرسان الذين فقدهم ابن عمه ، وزوج أخت جوى ؛ وباليان أمير صيدا ، وهو آخر رجال بيت جارنييه

(١) Abu'l Feda, pp. 157-8; Maqrisi, *Sultans*, t, ii, p. 171, n, i, 26; d'Ohssom, *Histoire des Mongols*, pp. 519-22.

(٢) Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 180-1.

خريطة عكا سنة ١٢٩١م



الكبير[٣].

١٢٨٢م : الحرب الأهلية فى طرابلس

قبل بوهمند بعد هزيمته هدنة لمدة سنة ؛ غير أن جوى وفرسان المعبد عاودوا مهاجمته سنة ١٢٧٨م ؛ ومرة أخرى هُزم بوهمند ، بيد أن اثني عشر غليونا حاولت شق طريقها للدخول إلى مرفأ طرابلس لكن عاصفة بعثرتها . ثم أرسل بوهمند خمسة عشر غليونا لمهاجمة قلعة فرسان المعبد فى صيدا ، فنجحت فى إحداث بعض الأضرار هناك قبل أن يتدخل السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، نيكولاس لورني ، الذى سارع إلى طرابلس ورتّب هدنة أخرى . غير أن جوى أمير جبيل كان ما يزال على شراسته وقد عقد العزم على الإستيلاء على طرابلس ذاتها . وفى يناير ١٢٨٢م ، تمكن زمعه إخوته وبعض أصدقائه من التسلل إلى حى فرسان المعبد فى طرابلس . وقد حدث شئ من سوء الفهم ، وكان قائد فرسان المعبد - ريديكور - غائبا إذ ارتاب جوى فى وجود خيانة وأصابه الذعر ؛ وبينما كان يحاول اللياذ بمقر فرسان المستشفى جاء شخص ما وحذر بوهمند ؛ وهرب المتآمرون إلى أحد أبراج فرسان المستشفى فحاصرهم جنود بوهمند . وبعد ساعات قليلة أخذوا بنصيحة فرسان المعبد ووافقوا على الإستسلام شريطة الإبقاء على حياتهم ؛ غير أن بوهمند حنث بوعده ، وفقأ أعين رفاق جوى جميعا ؛ أما جوى نفسه فقد أُخذ مع أخويه جون وبلدوين وابن عمه وليم إلى نيفين حيث دُفنوا جميعا فى حفرة حتى أعناقهم ، وتركوا كي يموتوا جوعا.

وارتاع أتباع بوهمند مما لاقاه المتآمرون من مصير بشع ؛ فضلا عن أن أسرة امبرياكو لم تنس أبدا أصلها الجنوى ، وقد كان هناك الكثير من أبناء جنوا بين المتآمرين. ولأن أبناء جنوا كانوا أصدقاء ودودين للأرمن ودعاة للتحالف مع المغول ، فقد تباعد بوهمند عن سياستهم . وفى ذات الوقت خطط جون أمير مونتفورت - الذى كان حليفا حميما لأبناء جنوا - للخروج من صور كي ينتقم لأصدقائه ؛ لكن بوهمند وصل إلى جبيل قبله . وقد تملكت أبناء بيزا دون غيرهم مشاعر البهجة الخالصة من هذه الحكاية كلها لما يكنّونه لأبناء جنوا من كراهية.

ولم تكن الأحوال السياسية أفضل حالا فى الجنوب . ذلك أن النبلاء المحليين كانوا

(٣) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 481; *Gestes des Chiprois*, pp. 207, 210-13.

يزدرون حكم روجر (أوف سان سفرينو) في عكا . وفي ١٢٧٧م حاول وليم (أوف بوجو) أن يكسب إلى جانبه جون أمير مونتفورت وأفلح في مصالحته مع البنادقة الذين سُمح لهم بالعودة إلى أحيائهم السابقة في صور . غير أن جون ابتعد عن حكم عكا ؛ وفي ١٢٧٩م هبط إلى البر فجأة في صور الملك هيو ، وفي مأموله أن يجمع النبلاء حوله . وسانده جون ، لكن أحدا لم ينهض لنصرته . وكانت فترة الأشهر الأربعة - التي كان يحق له فيها قانونا المطالبة بأن يتواجد أتباعه القبرصيون القادمون من وراء البحار - قد مرت بصورة عقيمة. وعندما عاد فرسانه إلى قبرص كان على الملك أن يتبعهم ؛ وألقى باللائمة لفشله على فرسان المعبد - بحق - إذ أن وليم (أوف بوجو) هو الذي أبقى عكا على إخلاصها لروجر (أوف سان سفرينو) . وانتقم من فرسان المعبد بمصادرة أملاكهم في قبرص بما في ذلك قلعتهم في جاستريا . واشتكى نظام فرسان المعبد لدى البابا الذي كتب لهيو يأمره برد الممتلكات، لكنه تجاهل الأمر البابوي. وعلى الرغم مما يبدو من موافقته على التحالف مع المغول ، بسبب معارضة روجر (أوف سان سفرينو) في المقام الأول ، فإنه لم يكن في وضع يمكّنه من اتخاذ أية خطوة عمليه في الأراضي الرئيسية[٤].

وكان الخان متلهفا على مهاجمة المماليك قبل أن يتمكن قلاوون من ترسيخ وضعه؛ وكان سنقر - أمير دمشق السابق - ما يزال يتحدى المصريين في شمال سوريا إلى أن عبر جيش مغولي الفرات في نهاية سبتمبر ١٢٨٠م واحتل عينتاب وبجراس ودربساك ، وفي ٢٠ أكتوبر دخل حلب حيث نهب أسواقها وأشعل الحرائق في مساجدها ، فارتاع السكان المسلمون في المقاطعات وهربوا جنوبا إلى دمشق ؛ وفي ذات الوقت قام فرسان المستشفى في المرقب بغارة مثمرة على البقاع وتوغلو فيها حتى كادوا يصلون إلى قلعة الكرك ، وأثناء عودتهم هزموا جيشا إسلاميا بالقرب من مرقية كان قد أُرسل لصدهم . بيد أن المغول لم يكونوا من القوة الكافية للإحتفاظ بحلب ؛ فعندما جمع قلاوون قواته في دمشق انسحبوا عبر الفرات ، واكتفى السلطان بإرسال قوة لمعاقبة فرسان المستشفى الذين هزموها أمام المرقب[٥].

وفي ذات الوقت تقريبا ، ظهر سفير مغولي في عكا ليخبر الفرنج باقتراح الخان

---

(٤) *Gestes des Chiprois*, p. 207; *Annales de Terre Sainte*, p. 457; Amadi, p. 214; Mas Latrie, *Documents*, ii, p. 109; Raynaldus, 1279, p. 488 .

(٥) Maqrisi, *Sultans*, ii, i, p. 26; Abu'l Feda, p. 158; Bar-Hebraeus, p. 463; *Gestes des Chiprois*, pp. 208-9.

بإرسال جيش من مائة ألف رجل إلى سوريا فى الربيع التالى ، وليزحوهم تعزيز الجيش بالرجال والمؤن . وأحال فرسان المستشفى الرسالة إلى الملك إدوارد فى انجلترا ؛ أما فى عكا نفسها فلم تكن هناك استجابة . وشعر قلاوون بالخوف من أنباء الغزو المغولى القادم ، فتصالح مع سنقر فى يونية ١٢٨١م ، مانحا إياه أنطاكية وأفاميا كإقطاعيتين ، وأرسل إلى عكا مقترحا عقد هدنة لعشر سنوات مع النظامين الدينين العسكريين ، وكانت الهدنة المعقودة مع حكومة عكا فى ١٢٧٢م ما تزال سارية لمدة عام آخر ؛ ونصح بعض الأمراء من أعضاء السفارة المصرية الفرنج بعدم قبول الهدنة مع قلاوون لأنه سرعان ما سيطاح به ، وما أن سمع روجر (أوف سان سيفرينو) ذلك حتى كتب إلى السلطان يحذره ، وتمكن السلطان من القبض على المتآمرين فى الوقت المناسب . وفى ذلك الوقت وافقت الأنظمة الدينية العسكرية فى عكا على المعاهدة التى وُقّعت فى ٣ مايو . وفى ١٦ يولية وقّع بوهمند على هدنة مماثلة . لقد كان ذلك نصرا دبلوماسيا لقلاوون ؛ فلو أن الفرنج اتحدوا من خلفه حتى بدون تعزيزات من الغرب ، لتسبب ذلك فى تعقّد حملته ضد المغول تعقدا خطيرا[٦].

١٢٨١م : معركة حمص

فى شهر سبتمبر ١٢٨١م ، توغل جيشان مغوليان فى سوريا ؛ كان الخان يقود أحدهما بنفسه وتمكن من إخضاع القلاع الإسلامية بطول الحدود مع نهر الفرات ، بينما كان يقود الثانى أخو الخان - مانغو تيمور - الذى بدأ بالإتصال بليو الثالث ملك أرمينا ثم سار جنوبا خلال عينتاب وحلب إلى داخل وادى العاصى . وكان قلاوون قد ذهب إلى دمشق حيث جمع قواته ثم سارع إلى الشمال. وانتحى الفرنج جانبا فيما عدا فرسان المعبد فى مرقب الذين رفضوا الإلتزام بالهدنة التى عقدها نظامهم الدينى العسكرى فى عكا ؛ وسار بعض فرسانهم للإنضمام إلى ملك أرمينيا . وفى ٣٠ أكتوبر تقابل الجيشان المغولى والمملوكى خارج حمص مباشرة . وكان مانغو تيمور يقود قلب المغول ، وعلى ميسرته أمراء مغوليون آخرون ، وعلى ميمنته قوات احتياطيه جورجية مع الملك ليو وفرسان المستشفى . وكانت ميمنة المسلمين تحت قيادة المنصور صاحب حماه ، وكان قلاوون يقود بنفسه المصريين فى القلب ، وإلى جانبه جيش دمشق بقيادة الأمير لاجين ، وفى ميسرته سنقر المتمرد السابق ومعه أبناء سوريا

(٦) Maqrisi, *Sultans*, II, i, pp. 28-34; Röhricht, *Regesta*, p. 374.

الشمالية والتركمان.

وما أن نشبت المعركة حتى نجح المسيحيون في ميمنة المغول في اقتلاع سنقر من مكانه وطاردوه إلى داخل معسكره في حمص ، وبذا فقدوا الإتصال بمركزهم . وفي ذات الوقت ، وعلى الرغم من صمود ميسرة المغول ، جُرح مانغو تيمور نفسه أثناء هجوم مملوكي على القلب ؛ وتخلت عنه رباطة جأشه فأمر بانسحاب متعجّل ؛ فوجد ليو ملك أرمينيا ورفاقه أنفسهم في عزلة فكان عليهم أن يشقوا طريقهم عائدين إلى الشمال وتكبدوا خسائر جسيمة ، وخسر قلاوون الكثير من الرجال أثناء مطاردتهم للأرمن. وعاود الجيش المغولي عبور نهر الفرات بلا مزيد من الخسائر ، وبقى النهر العظيم بمثابة الحدود بين الإمبراطوريتين ، ولم يغامر قلاوون بمعاقبة الأرمن . وكان الراهب الإنجليزي لفرسان المستشفى - جوزيف (أوف تشانسي) - حاضرا في المعركة، وفيما بعد كتب وصفها وأرسله إلى إدوارد الأول قائلا إن الملك هيو والأمير بوهمند لم يتمكنا من الإنضمام إلى المغول في الوقت المناسب ؛ وربما كان يحاول حمايتها من سخط الملك الإنجليزي ، وهو العاهل الغربي الوحيد الذي ما زال مهتما بالحرب المقدسة ، والذي كان يساند التحالف المغولي بشدة . ولكن أحدا في الشرق في مثل فراسة ادوارد؛ فلم يفعل الملك هيو شيئا ، وتهادن بوهمند مع المسلمين ، بينما ذهب روجر (أوف سان سفرينو) ومندوب الملك تشارلز في رحلة خاصة لمقابلة قلاوون وتهنئته على انتصاره(٧).

١٢٨٢ م : انهيار قوة تشارلز (أوف أنجو)

وكان الصقليون ساخطين على غطرسة تشارلز (أوف أنجو) وجنوده ، فهبّوا فجأة مساء ٣٠ مارس ١٢٨٢م وذبحوا جميع الفرنسيين في الجزيرة . وكان لصلوات المساء الصقلية أثرا يجاوز مداه ما كان يتوقعه سكان الجزيرة الغاضبون . لقد ظهر أن الإمبراطورية المتوسطية العظيمة التي يتربع عليها تشارلز كانت بلا قواعد ترتكز عليها. فطوال العقدين التاليين حاول هو وخلفاؤه عبثا استعادة صقلية من أمراء أراجون الذين

---

(٧) Maqrisi, *Sultans,* II, i, pp. 35-7; Abu'l Feda, pp. 158-60; Bar-Hebraeus, pp. 464-5; Hayton, *Flor des Estoires,* pp. 182-4; *Gestes des Chiprois,* p. 210; letter of Joseph of hricht, *Regesta,* Chauncy, and King Edward's reply (ed. Sanders), P.P.T.S. vol. v; R p. 375; d'Ohsson, *op. cit.* pp. 525-34

انتخبوا لتولى عرشها ؛ ولم تعد مملكة الأنجفين[٨] فى نابلى قوة عالمية ؛ أما البابوية ، التى أمّنت للأنجفين مملكتهم الصقلية ، فقد أهينت ولحق بها الدمار المالي فى محاولاتها الإبقاء على عملائها ، وتخلى الأنجفيون عن مشاريعهم فى البلقان وشرقه ، وفى القسطنطينية تنفس الامبراطور الصعداء ، فلم يعد مضطرا لإثارة حنق مواطنيه بأن يعرض خضوع كنيستهم لروما إذا استطاعت روما كبح جماح طموحات تشارلز[٩]. وفي الشرق الفرنجى وجد روجر (أوف سان سفرينو) نفسه فجأة بلا أي نصير ، وقد استدعاه سيده للعودة إلى إيطاليا ، فغادر عكا فى نهاية العام بعد أن عهد بمنصبه كوكيل للمملكة إلى قهرمانه أودو بوالشين[١٠].

وتلقى مماليك مصر أنباء انهيار قوة تشارلز بمشاعر الصدمة والارتياح في آن. فقد كان كل من بيبرس وقلاوون يخشاه ويحترمه ولذا أحجما عن مهاجمة إقليمه الجديد فى أوتريكيه . والآن ، لم يعد بوسع أحد أن يكبح جماح السلطان طالما حيل بين الفرنج وتحالفهم مع المغول . وفي يونية١٢٨٣م ، وهو موعد انتهاء الهدنة الموقعة فى قيصرية ، عرض قلاوون على أودو بوالشين تجديدها لعشر سنوات أخر ، فقبل أودو بسرور لكنه لم يكن واثقا من سلطته ؛ ولذا قام كميون عكا وفرسان المعبد فى عثليت وصيدا بالتوقيع في الجانب الفرنجى من المعاهدة التى ضمنت للفرنج ممتلكاتهم فى جبل الكرمل وعثليت وأيضا فى صيدا ، واستبعدت صور وبيروت . كما نصت المعاهدة على الحق فى حرية الحج إلى الناصرة[١١].

وابهج أودو أن يحافظ على السلام ؛ إذ أوشك الملك هيو مرة أخرى على استعادة أراضى مملكته الرئيسية. وكانت الليدى إيزابيلا البيروتية قد ماتت مؤخرا ، وانتهت مدينتها إلى أختها إشيفا زوجة همفرى أمير مونتفورت الذى كان الأخ الأصغر لسيد صور . ولإدراك هيو أن بإمكانه أن يثق فى آل مونتفورت ، فقد أبحر من قبرص فى

---

(٨) (المترجم) الأنجفين : Angevin نسبة إلى إقليم آنجو Anjou التاريخى فى غرب فرنسا والذى ساعد على ظهور الأسرة التى حكمت فى انجلترا Plangagenet house من ١١٥٤ حتى ١٤٨٥م

(٩) يبقى تاريخ أمارى Amari حرب الصلوات المسائية الصقلية*La Guerra del Vespero Siciliano* أفضل تاريخ عام للصلوات المسائية والحرب التى ترتبت عليها

(١٠) *Gestes des Chiprois,* p. 214; Sanudo, *Chronique de Romanie* in Mas Latrie, *Nouvelles Preuves,* i, pp. 39-40 . وقد تزوج أودو من أرملة باليان الإبيلينى أمير أرسوف وهى لونشيا (أوف جوفين).

(١١) Maqrisi, *Sultans,*ii, i, p. 60, 179-85, 224-30. See Hill, *History of Cyprus,*ii, p.176.

نهاية يولية بصحبة اثنين من أبنائه - هنرى وبوهمند - وفى نيّته الهبوط فى عكا ، غير أن الرياح قذفت به إلى بيروت التى وصلها فى أول أغسطس واستُقبل استقبالا حسنا . وبعد أيام قلائل واصل إبحاره إلى صور وقد أرسل جنوده برا جنوب الساحل. وفى الطريق لقى الجنود أذى كثيرا من غارات المسلمين ، وظن هيو أن فرسان المعبد فى صيدا هم الذين حرضوا المسلمين على ذلك ؛ وعندما هبط على البر فى صور وقعت أحداث كانت بمثابة نذير شوم له ؛ إذ سقطت رايته فى البحر، وعندما جاء رجال الدين فى موكبهم لمقابلته انزلق الصليبُ الضخم الذى كانوا يحملونه وهشم جمجمة طبيب البلاط اليهودى . ومكث هيو منتظرا فى صور ، غير أنه لم يبد أحد فى عكا أية بادرة للترحيب به هناك ؛ لقد كان كميون عكا وفرسان المعبد يفضّلون الحكم غير المتقحِّم لأودو بوالشين . ولن يبق مع هيو نبلاؤه القبارصة لأكثر من الفترة القانونية وقدرها أربعة أشهر ، وفى الثالث من نوفمبر - قبل انقضاء الفترة - مات بوهمند أحد ولديه الذي كان يعلق عليه الآمال العراض . وكان الحدث الأخطر بالنسبة له موت صديقه وزوج أخته جون (أوف مونتفورت) الذى لم يترك ذرية ، ولذا سمح الملك بأن تؤول صور إلى أخيه ووريثه - همفرى - لورد ببيروت ؛ غير أنه أضاف بندا يبيح لأخيه - إذا رغب - شراء المدينة مرة أخرى للتاج نظير مائة وخمسين بيزانت ، غير أن همفرى مات فى فبراير التالى ، وبعد فترة مناسبة تزوجت أرملته من الإبن الأصغر لهيو - جوى - ومنحته بيروت . وبقيت صور فى ذلك الوقت تحت حكم أرملة جون ، مرجريت[١٢].

وبقى هيو فى صور حتى بعد أن تركه نبلاؤه ، وفيها مات يوم ٤ مارس ١٢٨٤م. ولقد بذل ما فى وسعه للمحافظة على السلطة فى مملكة الشرق الفرنجى وحالت دون ذلك صفاته الشخصية ، إذ برغم وسامته الطاغية وجاذبيته كان سيئ الطباع وتعوزه المهارة . ويُعزى فشله بدرجة كبيرة إلى عداوة تجار عكا والأنظمة الدينية العسكرية الذين كانوا يفضلون العاهل الغائب البعيد الذى لا يتدخل فى شؤونهم[١٣].

وخلف هيو على العرش ابنه الأكبر جون ، وهو صبي وسيم فى السابعة عشرة من عمره تقريبا . وتوّج ملكا لقبرص فى نيقوسيا يوم ١١ مايو ، وبعد ذلك مباشرة عبر البحر إلى صور حيث تُوّج ملكا للقدس . بيد أن سلطته لم يُعترف بها خارج صور

(١٢) *Gested des Chiprois,* pp. 214-16; Amadi, pp. 214-15 .

(١٣) *Gestes des Chiprois,* pp. 216-17; Amadi, p. 216. See Hill, *op. cit.* p. 178

وبيروت . وحكم لسنة واحدة فقط ، ومات فى قبرص يوم ٢٠ مايو ١٢٨٥م . وورثه أخوه هنرى الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره وتوّج ملكا لقبرص يوم ٢٤ يونية . ولم يغامر آنذاك بعبور البحر إلى سوريا[١٤].

١٢٨٥م : ضياع المرقب

كان قلاوون يتهيّأ لمهاجمة الفرنج الذين لا تشملهم الهدنة الموقعة سنة ١٢٨٣م . وسارعت السيدتان الأرملتان اللتان تحكمان بيروت وصور - إيشيفا ومرجريت - تطلبان منه الهدنة ، فأجابهما إلى طلبيهما[١٥]. وكان هدف السلطان الإستيلاء على قلعة المرقب العظيمة التابعة لفرسان المستشفى الذين دأبوا على التحالف مع المغول . وفى ١٧ إبريل ظهر السلطان مع جيش عظيم فى سفح الجبل الذى تعلوه القلعة وقد أتى بعدد كبير من المناجق يجاوز أي عدد شوهد مجتمعا من قبل ، وقام رجاله بجرها إلى أعلى التل وبدأو قصف الأسوار . غير أن القلعة كانت مجهزة تجهيزا جيدا وكانت مناجقها فى وضع أفضل، فدمّرت الكثير من آلات الأعداء ؛ ولم يحرز المسلمون تقدما طوال شهر . وفى نهاية الأمر نجح مهندسو السلطان فى حفر نفق تحت برج الأمل الذى كان يرتفع فى نهاية الزاوية الشمالية البارزة ، وملأوه بالأخشاب القابلة للإحتراق. وفى ٢٣ مايو تفجّر النفق وسقط البرج حطاما . وتسبب سقوطه فى عرقلة هجوم المسلمين واضطروا إلى التقهقر ، غير أن الحامية اكتشفت توغل النفق بعيدا تحت دفاعاتها ، فتحققت من الهزيمة واستسلمت. وسُمح لقادة فرسان المستشفى فى القلعة البالغ عددهم خمسة وعشرين قائدا بالإنسحاب مع منقولاتهم على صهوات الجياد وبكامل أسلحتهم . وسمح لباقى أفراد الحامية بحرية الرحيل دون أن يحملوا معهم شيئا، فانسحبوا إلى طرطوس ومنها إلى طرابلس . ودخل قلاوون القلعة دخول المنتصرين يوم ٢٥ مايو[١٦].

وشعر مواطنو عكا بالخطر لضياع المرقب ، وفى نفس الوقت تقريبا علموا بوفاة

---

(١٤) *Gestes des Chiprois*, p. 217; Amadi, *loc. cit.*; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 80.

(١٥) Maqrisi, *Sultans*, II, ii, pp. 212-13

(١٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 217-18; Amadi, *loc. cit.;* Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 80 (also in p. 86 but dated the following yeat); Abu'l Feda, p. 161; life of Qalawun in Reinaud, *Bibliothèque des Croisades*, ii, pp. 548-52.

تشارلز (أوف أنجو) ؛ وكان ابنه تشارلز الثانى (أوف نابولى) متورطا للغاية فى الحرب الصقلية بحيث لم يعبأ بالشرق الفرنجى ، وكانت الحرب تثير الإضطراب شيئا فشيئا فى أوربا الغربية كلها . وقد حان الوقت كى يكون للشرق الفرنجى حاكم قريب متاح؛ وبناء على نصيحة فرسان المستشفى أرسل هنرى الثانى مبعوثا من قبرص يدعى حوليان الأصفر إلى عكا للتفاوض على الإعتراف به ملكا . فوافق الكميون ، وتعاطف نظاما المستشفى والتيوتون ، ووافق نظام المعبد - بعد بعض التردد - على مؤازرته؛ غير أن أودو برالشين رفض التخلى عن منصب وكيل المملكة ، وكانت الكتيبة الفرنسية المعالة بأموال ملك فرنسا تسانده.

وفى الرابع من يونية هبط هنرى إلى البر فى عكا حيث استقبله الكميون بمشاعر الغبطة ، وقد ارتأى السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية - المستشفى والمعبد والتيوتون - أن الحكمة تقضى تغيبهم عن الإستقبال قائلين إن طبيعة مناصبهم الدينية تجبرهم على التزام جانب الحياد . واتجه هنرى مباشرة إلى كنيسة الصليب المقدس حيث أعلن أنه سوف يقيم فى القلعة كما كان يفعل الملوك السابقون ؛ لكن أودو برالشين رفض مغادرة القلعة التى وضع فيها حامية من الفرنسيين ، فذهب إليه أسقف فاماجوستا وراهب المعبد الدومينى فى عكا ليحاجونه ، لكنه رفض الإستماع إليهم وتقدم باعتراض قانونى . وأقام الملك موقتا فى قصر أمير صيدا المتوفى وأعلن ثلاث مرات إمكان رحيل الفرنسيين عن القلعة مع كافة أمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ؛ بينما أخذ المواطنون يسخطون على أودو وتهيّأوا لمهاجمته ، وعلى الأثر، نظر السادة الثلاثة العظام للأنظمة الدينية العسكرية وتحققوا من اتجاه رياح الأحداث ، ونصحوا أودو بتسليمهم القلعة ثم أعطوها لهنرى الذى دخلها فى موكب وقور يوم ٢٩ يونية(١٧).

١٢٨٦م : آخر أعياد الشرق الفرنجى

وبعد ذلك بستة أسابيع ، يوم ١٥ أغسطس ، قام رئيس الأساقفة بوناكورسو (أوف جلوريا) ، نائبا عن البطريق ، بتتويج هنرى فى صيدا . وبعد الإحتفال عاد البلاط إلى عكا حيث انقضى أسبوعان فى حفول تخللتها الألعاب ومسابقات الفروسية،

(١٧) *Gestes des Chiprois,* pp. 218-20; Amadi, pp. 216-17; Sanudo, *Liber Secretorum,* p. 229; Machaeras (ed. Dawkins), p. 42; Mas Latrie, *Documents,* iii, pp. 671-3.

وأقيمت فى قاعة فرسان المعبد الكبيرة عروض مسرحية شملت مشاهد من قصة المائدة المستديرة ظهر فيها لانسلوت وتريسترام وبالاميد ، وقدموا قصة ملكة فيمينى المأخوذة من قصة طروادة[١٨]. ولم يشهد الشرق الفرنجى طوال قرن مضى مثل ذلك الحفل البهيج الرائع ؛ وكان لجاذبية الملك الصبى الوسيم أثرها على الجميع ؛ إذ لم يكن معروفا بعد أنه مصاب بالصرع ؛ فكان من ورائه عمّاه فيليب وبلدوين الإبيليين ينصحانه بكل شئ ، وكانا يحظيان باحترام عميق . وبناء على نصيحتهما لم يمكث طويلا فى عكا ، وإنما عاد إلى قبرص بعد أسابيع قليلة تاركا بلدوين الإبلينيى وكيلا للمملكة ، وكان عماه يدركان جيدا أن إقامة الملك في المملكة أمر لن يستسيغه العامة من الناس[١٩].

ولا بد أن السلطان في القاهرة قد ابتسم لدى سماعه بمرح الفرنج الأرعن ؛ أما الخان المغولى فى تبريز فقد بدا له أن الوقت قد حان للقيام بعمل أكثر جدية . وكان أباغا قد مات فى أول ابريل ١٢٨٢م ، وخلفه أخوه تيكودار الذى عمّدوه فى طفولته ليدخل عقيدة النساطرة باسم نيكولاس ، غير أن ميوله كانت مع المسلمين . وما أن اعتلى العرش أو كاد حتى أعلن تحوله إلى الإسلام متخذا إسم أحمد ولقب السلطان ، وفى نفس الوقت أرسل إلى القاهرة لإبرام معاهدة صداقة مع قلاوون . وارتاع المغول المسنون فى بلاطه من سياسته ، فما كان منهم إلا أن شكوه فى الحال لدى الخان الأعظم قوبلاى . وبموافقته ، قام ابن أباغا - أرغون - بقيادة تمرد فى خراسان التى كان حاكمها . وهُزم بادئ الأمر، غير أن قواد أحمد تخلوا عنه ، وانتهى أمر السلطان أحمد بأن اغتيل في مكيدة دُبّرت في القصر يوم ١٠ أغسطس ١٢٨٤م. وعلى الفور اعتلى أرغون العرش[٢٠]. وكشأن أبيه، كان أرغون إنتقائيا من الناحية الدينية ، وكانت ميوله تتجه نحو البوذية، غير أن وزيره سعد الدولة كان يهوديا ، وأعز أصدقائه كان كاثوليكوس بطريق الأرمن النسطورى ، مار يابهالاه. وكان هذا الرجل المرموق من أصل تركي ، من الأونغوت ولد فى مقاطعة شانسي الصينية على ضفاف نهر هوانج هو . وقد جاء إلى الغرب مع ابن جلدته - رابّان ساوما - على أمل غاش فى أن

---

(١٨) (المترجم) المائدة المستديرة **Round Table** مائدة كبيرة مستديرة كان يجلس عليها الملك آرثر مع فرسانه، وقد اختارها مستديرة تجنبا للخلاف حول الصدارة أو الأسبقية

(١٩) *Gestes des Chiprois*, p. 221; *Annales de Terre Sainte*, p. 548; Amadi, p. 217.

(٢٠) Howorth, *History of the Mongols*, iii, pp. 295-310؛ ويشير المؤرخ أبو الفدا **Abu'l Feda**, p.160، ومؤرخون عرب آخرون إلى السلطان أحمد)أنظر المراجع التى يوردها Howorth(، لكن المؤرخين الغربيين يتجاهلونه . ويتناوله المؤرخ ابن العبرى Bar-Hebraeus, pp. 467-71 بإسهاب

يحج إلى القدس . وبينما كان في العراق سنة ١٢٨١م خلا منصب البطريق الأرمنى وتم انتخابه ليشغله . وكان له نفوذ قوى على الخان الجديد الذى كان تواقـا لإنقـاذ أمـاكن العالم المسيحى المقدسة من أيدى المسلمين ؛ بيد أنه امتنع عن ذلك ما لم يساعده ملوك الغرب المسيحيون[٢١] .

١٢٨٧م : سفارة رابّان ساوما

وفى سنة ١٢٨٥م كتب أرغون إلى البابـا هونوريوس الرابع يقـترح القيـام بعمل مشترك ، لكنه لم يتلق أى رد. وبعد عامين قرر إرسال سفارة إلى الغرب واختار سـفيرا له رابّان ساوما ، وهو صديق مار يابهالاه ؛ وانطلق السـفير فـى وقـت مبكـر مـن سـنة ١٢٨٧م وكتب قصة بعثته بأسلوب ينبـض بالحيـاة . وقـد أبحـر مـن طرابـزون ووصـل القسطنطينية في عيد الفصح تقريبا ، واستقبله الامبراطور أندرونيكوس استقبالا ودودا ، وزار كنيسة القديسة صوفيا وغيرهـا مـن المزارات العظيمـة فـى المدينـة الإمبراطوريـة . وكان الامبراطور أندرونيكوس على علاقة ممتازة بـالمغول وأبـدى استعداده لمساعدتهم بقدر ما تسمح له موارده الآخذة في التناقص . ومن القسـطنطينية توجـه رابّـان سـاوما إلى نابولى التى وصلها فى نهاية يونية. وبينما كان هناك شاهد معركة حربية فـى المرفـأ بين الأسطولين الأراجونى والنابوليتـانى ؛ وكـان ذلـك شـاهده الأول علـى أن أوروبـا الغربية مشغولة بنزاعاتها . وواصل طريقه إلى روما حيث وجد أن البابا هونوريـوس قـد مات لتوه ، و لم يجتمع الكرادلة بعد لإنتخاب خليفته ؛ واستقبله الكرادلـة الإثنـا عشـر المقيمون في روما ، غير أنه وجدهم جهلاء لا نفع يرجى منهم ؛ ذلك أنهـم لا يعرفـون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغـول ، وصدمهـم أن يعرفـوا أنـه يخدم عـاهلا وثنيـا . وعندما حاول الحديث في السياسة ، بدأوا معه استجوابا حول عقيدتـه وانتقـدوا أوجـه انحرافها عن عقيدتهم ؛ وانتهى الأمر بأن كاد يفقد السيطرة على أعصابه . ذلك أنه قال إنه قد جاء ليعرب للبابا عن احترامـاتـه ولكـى يضـع الخطـط للمستقبل وليـس لإجـراء مناقشة حول العقيدة . وبعد أن أدى طقوس عبادته في كنائس روما الرئيسية ذهب فى حيور إلى جنوا التى رحب أبناؤها به في احتفال كبير ، إذ كان التحـالف المغـولى علـى جانب من الأهمية بالنسبة لهم ، وقد أنصتوا لمقترحات السفير بكل انتباههم.

---

(٢١) See Budge, *The Monks of Kublai Khan*, introduction, pp. 42-61, 72-5.

وفى نهاية أغسطس ذهب رابّان ساوما إلى فرنسا ووصل باريس فى وقت مبكر من شهر سبتمبر ، حيث كان فى استقباله كل ما كان يتمناه ؛ إذ رافقه حرس خاص فى دخوله العاصمة ، وفى مقابلته مع الملك الصغير فيليب الرابع ، حظى بالتشريفات الملكية ، ونهض الملك من على عرشه لتحيته وأولاه أذنا مصغية بمشاعر الاحترام العميق. وغادر القاعة ومعه وعد بأن يقود فيليب بنفسه - إذا شاء الرب - جيشا لإنقاذ القدس . وكان لباريس أثرها المبهج فى نفس السفير ، وخاصة جامعتها التى كانت آنذاك فى قمة مجدها فى العصر الوسيط . وصحبه الملك شخصيا فى جولة فى كنيسة القديس[٢٢] لمشاهدة الآثار المقدسة التى احتلبها القديس لويس من القسطنطينية. وعندما آذنت ساعة رحيل رابّان ساوما من باريس عين الملك سفيرا - جوبرت هيليفيل - بتعليمات لأن يعود معه إلى بلاط الخان للترتيب لمزيد من تفصيلات التحالف.

وكان المضيف التالى لرابان ساوما هو ملك انجلترا إدوراد الأول الذى كان آنذاك فى عاصمة ممتلكاته الفرنسية بوردو، وكان إدوارد قد حارب فى الشرق وطالما ناصر فكرة التحالف مع المغول ، ووجد رابّان ساوما عنده استجابة ذكية وعملية لمقترحاته وألقى فى روعه أن الملك هو أقدر رجال السياسة الذين قابلهم فى الغرب ، وقد أحس بالرضا عندما طلبوا منه إقامة قداس فى البلاط الإنجليزى . بيد أنه عندما حان الوقت لوضع جدول زمنى ، راوغ الملك ولم يستطع - كشأن ملك فرنسا فيليب - أن يحدد بدقة متى سيكون جاهزا للشروع فى حملة صليبية . وعاد رابّان ساوما إلى روما وفى صدره شئ يقلقه . ولقد توقف فى جنوا لقضاء أعياد الميلاد وتصادف أن قابل هناك الكاردينال جون (أوف توسكولوم) ممثل البابا وأخبره بما يعتمل فى صدره من مخاوف ؛ وكان المماليك يعدون العدة آنذاك للقضاء على آخر دويلة مسيحية فى سوريا، وليس هناك فى الغرب من يأخذ التهديد مأخذا جادا.

وفى شهر فبراير ١٢٨٨م اختير نيكولاس الرابع لمنصب البابا ؛ وكان من بين أول أعماله استقبال السفير المغولى ، وكانت العلاقة الشخصية بينهما رائعة ؛ فقد خاطب رابّان ساوما البابا على إنه الأسقف الأول للعالم المسيحى ، وأرسل نيكولاس بركاته إلى الكاثوليكوس أى بطريق الأرمن النسطورى واعترف به بطريقا للشرق . وعلى مدى أسبوع الآلام السابق لعيد الفصح كان السفير يقيم القداس أمام جميع

(٢٢) (المترجم) كنيسة القديس :Sainte-Chapelle كنيسة فى باريس بناها لويس التاسع سنة ١٢٤٥م لتضم "تاج الشوك" وغيره من "آثار الآلام" . وفى سنة ١٩٠٦ لم تعد كنيسة

الكرادلة ، وتناول من يـدى البابا نفسه القربـان المقدس؛ وغـادر رومـا مـع جوبـرت هيليفيـل فـى أواخـر ربيـع ١٢٨٨م محمـلا بالهدايـا ، الكثـير منهـا آثـار قيّمـة ، للخـان ولكاثوليكوس بطريق الأرمن النسطورى ، ومعه خطابات لهما ولأميرين مسـيحيين فـى البلاط ، ولأسقف تبريز اليعقوبى دينيس . بيد أن الغموض كان يكتنف الرسائل ؛ إذ لم يستطع البابا أن يعد بعمل محدد في أي تاريخ محدد[٢٣].

وفى واقع الأمر ، كان لملوك الغرب ما يصرفهم عن الحملة الصليبية ، وهذا ما بدأ رابّان ساوما يدركه ؛ ذلك أن شبح تشارلز (أوف آنجو) المشؤوم اشـترك مـع مـا كـان للبابوية من رغبة فى الانتقام ، وحالا دون القيام بأية حملـة صليبية . فقـد أعطـى البابـا جزيرة صقلية للأنجفينيين ، والآن وقد انقلب الصقليون ضـد الأنجفينيـين ، فـإن الحفـاظ على المهابة اضطر البابوية وفرنسا إلى محاربة أقوى قوتين بحريتين فـى البحـر المتوسـط - جنوا وأراجون - لإعادة الإستيلاء على الجزيرة ؛ ولم يكن نيكـولاس ولا الملـك فيليـب على استعداد للتفكير فى حملة صليبية إلى أن تُسوى المسألة الصقلية . ولقد أدرك إدوارد ملك انجلترا الخطر المحدق بالمسألة الصليبية ، وتمكن فى عام ١٢٨٦ من ترتيب هدنة بين فرنسا وأراجون ، غير أنها بقيت هدنة قلقة لاستمرار القتال فـى إيطاليـا وفـى البحـر . وفضلا عن ذلك ، كان لإدوارد مشاكله الخاصة به ؛ وربما راوده الحنين لإنقاذ الأراضى المقدسة ، لكنه وجد أن الأكثر إلحاحا غزو ويلز ومحاولة غـزو اسكتلندا . وبعـد مـوت ألكسندر الثالث ملك اسكتلندا فى سنة ١٢٨٦م ، تحولت أنظاره باتجاه الشمـال ، بينمـا كان يخطط للسيطرة على تلك المملكة المجاورة مـن خـلال وريثتهـا الطفلـة مرجريـت ، عذراء النرويج ، ويجب على الشرق أن ينتظـر . ولم يكـن هنـاك أية قـوة لـلرأى العـام خليقة بأن تحث العواهل على المضى قدما ؛ وكمـا أظهـرت تحقيقـات البابـا جريجـورى العاشر ، كانت الروح الصليبية تحتضر[٢٤].

١٢٨٩م : الخان يحث حملة صليبية

ولم يكن أرغون ليصدق أن مسيحيي الغرب ، بكـل تـأكيداتهم الورعـة المخلصـة

---

(٢٣) يورد بودج Budge, op. cit. pp. 164-97 ترجمة كاملة لمقال رابان ساوما عن رحلاته فى أوروبا

(٢٤) للإطلاع على الصورة العامة للوضع أنظر Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 711-21، وللإطلاع على آثار الحرب الصقلية على السياسة العامة أنظر أيضا Lévis-Mirepoix, *Philippe Le Bel*, pp. 22 ff.. وانظر أيضا أعلاه الصفحات ٤٨٢ وما بعدها.

على حبهم للأراضى المقدسة ، يمكن أن يُظهروا مثل هذه اللامبالاة بمصيرها المحفوف بالأخطار . وقد رحب برابان ساوما لدى عودته إلى الوطن بأسمى آيات التشريف ، وأبدى مشاعر الود لجوبرت هيليفيل ؛ غير أنه كان يرغب فى معلومات أكثر دقة مما أعطاه له جوبرت . وبعد فصح سنة ١٢٨٩م مباشرة أرسل مبعوثا ثانيا من أبناء جنوا يدعى بوسكاريل (أوف جيسولف) كان قد استقر فى أراضى الخان منذ وقت طويل ، ومعه رسائل إلى البابا وملكى فرنسا وانجلترا . ولا يزال الخطاب المرسل إلى فيليب موجودا حتى يومنا هذا، وهو مكتوب باللغة المغولية باستخدام الخط الأويجورى. وباسم الخان العظيم قوبلاى، يعلن أرغون إلى ملك فرنسا أنه يقترح - بمساعدة الرب - الزحف على سوريا فى آخر شهر شتوى من سنة الفهد ، أى فى يناير ١٢٩١م ، والوصول إلى دمشق فى حوالى منتصف أول شهور الربيع ، فبراير . وإذا أرسل الملك قوات إضافية واستولى المغول على القدس ، فسوف تمنح القدس للملك ؛ لكنه إذا فشل فى التعاون ، فسوف تذهب الحملة سدى. وهناك حاشية مضافة إلى الخطاب كتبها بوسكاريل بالفرنسية تعرب فى مهارة عن مديح الملك الفرنسى وتضيف أن أرغون سوف يُحضر معه ملوك جورجيا المسيحيين وعشرين أو ثلاثين ألف خيّال ، وسوف يضمن تزويد الغربيين بالمؤن الوفيرة . ولا بد أن هناك رسالة مماثلة قد أرسلت إلى الملك إدوارد - وهى مفقودة الآن - وقد أضاف إليها البابا مذكرة توصية وتشجيع . ولم يصلنا رد فيليب ملك فرنسا ، وإنما لدينا رد إدوارد ؛ وهو يهنئ الخان على مشروعه المسيحى ويثنى عليه بصورة ودودة . بيد أن الرد جاء خلوا من تاريخ محدد ومن وعد مبذول ، وإنما أحيل الخان إلى البابا الذى لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى القليل فى غيبة تعاون الملوك[٢٥]. وفى تلك الأثناء كتب فرنجى مجهول الإسم بحثا يظهر مدى سهولة نزول قوة من الغربيين إلى البر فى أياس بأرمينيا التى سيكون ملكها غاية فى التعاون ، ومنها تذهب القوة لتنضم إلى المغول . ولم يلتفت أحد إلى نصيحته[٢٦].

وعلى الرغم من الردود المثبّطة التى عاد بها بوسكاريل ، أرسله أرغون مرة أخرى مع اثنين من المغول المسيحيين هما أندرو زاغان وساهادين ؛ فذهبوا أولا إلى روما حيث استقبلهم البابا نيكولاس ، ثم انطلقا لزيارة ملك انجلترا وقد تسلحوا برسائل عاجلة من البابا الذى اعتبر على ما يبدو أن ملك انجلترا يحتمل أن يتحمس للحملة الصليبية أكثر

(٢٥) Chabot, *op. cit.* pp. 593-4, 604-16؛ وقد أورد نص الرسالتين

(٢٦) Kohler, "Deux Projets de Croisade en Terre Sainte", text and introduction, *Mélanges pour Servir a l'Histoire de l'Orient Latin*, pp. 516 ff..

من الملك فيليب، ووصلوا اليه فى وقت مبكر من سنة ١٢٩١م . غير أن عذراء النرويج كانت قد ماتت فى العام الفالت وغرق إدوارد فى الشؤون الأسكلندية ، وعاد المبعوثون محزونين إلى روما حيث مكثوا طوال الصيف . وفى ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ، إذ تحدد مصير الشرق الفرنجى ، ومات الخان أرغون(٢٧).

ولو أن التحالف المغولى تحقق ونفّذه الغرب باخلاص ، فلعل بقاء الشرق الفرنجى كان قد طال أكثر من ذلك ، ولبات المماليك فى حالة من الشلل ، إن لم يُدمّروا ، ولبقيت خانية فارس قوة كبرى صديقة للمسيحيين وللغرب . ولكن الذى حدث ، أن بقيت الامبراطورية المملوكية لثلاثة قرون تقريبا ، وفى غضون أربع سنوات من موت أرغون اتسع المعسكر الإسلامى ليشمل مغول فارس . إن إهمال الغرب لم يتسبب فى خسارة القضية الفرنجية فحسب ، وإنما فى خسارة قضية تجمعات العالم المسيحي الشرقى البائسة. ويعزى إهمال الغرب هذا أساسا إلى الحرب الصقلية التى كانت من نتاج المرارة البابوية والإستعمار الفرنسي.

وفى تلك الأثناء تركت أوتريميه انطباعا متزايدا بالاستهانة المخلة؛ فلم يكد الملك هنرى يرجع إلى قبرص من احتفالات عكا حتى اندلعت حرب شعواء على الساحل السورى بين أبناء بيزا وأبناء جنوا . وفى ربيع سنة ١٢٨٧م أرسلت جنوا أسطولا إلى الشرق بقيادة الأدميرالين توماس سبينولا وأورلاندو أشيرى . وبينما كان سبينوزا فى زيارة للإسكندرية للحصول على حياد مسالم من السلطان ، كان أشيرى مبحرا أعلى وأسفل الساحل السورى يغرق أية سفينة او يأسرها، إذا كانت لأبناء بيزا أو لفرنج من أصل بيزيّ . وكان تدخل فرسان المعبد هو وحده الذى حال دون بيع البحارة المأسورين كعبيد. ثم إن أشيرى انسحب إلى صور ليخطط للهجوم على مرفأ عكا وألحق البنادقة أسطولهم المحلى بأبناء بيزا لحماية المرفأ ؛ غير أن أشيرى انتزع انتصارا أمام حاجز الأمواج يوم ٣١ مايو ١٢٨٧م ، رغم أنه لم يتمكن من التوغل داخل الميناء . وعندما أبحر سبينولا شمالا من الإسكندرية ، تمكن أبناء جنوا من محاصرة الساحل كله . وفى نهاية الأمر تمكن السيدان الأعظمان لفرسان المعبد وفرسان المستشفى ، مع ممثلى النبلاء المحليين ، من اقناع أبناء جنوا بالإبحار إلى صور والسماح بحرية الملاحة(٢٨).

---

(٢٧) Chabot, *op. cit.* pp. 617-19.

(٢٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 220-30; *Annales Januenses*, p. 317

١٢٨٧م : سقوط اللاذقية

وتجنب ميناء واحد هذا الصراع ، لأنه كان يواجهه فعلا مصيرا أسوأ . ذلك أن تجار حلب دأبوا على الشكوى إلى السلطان منذ بعض الوقت من أنه من غير المناسب أن يضطروا إلى إرسال بضائعهم إلى ميناء اللاذقية المسيحى ، وهو آخر بقايا إمارة أنطاكية . وسنحت الفرصة لقلاوون فى ذلك الربيع بعد أن دمّر زلزال أسوار المدينة يوم ٢٢ مارس تدميرا شديدا . وادعى السلطان بأن اللاذقية - باعتبارها جزءامن الإمارة القديمة - لا تغطيها الهدنة المعقودة مع طرابلس ، وأرسل قائده الأمير حسام الدين طورانطاى للإستيلاء على المدينة التى سقطت بسهولة فى يديه ؛ غير أن المدافعين عنها انسحبوا إلى القلعة الواقعة فى فتحة المرفأ ، والتى يصلها بالأرض الرئيسية طريق مرتفع. ووسّع طورانطاى الطريق المرتفع وسرعان ما أقنع الحامية بالإستسلام يوم ٢٠ إبريل ، ولم يحاول أحد أن يخف لنجدتها[٢٩].

ولم يعش سيدها السابق بوهمند السابع طويلا بعد ضياعها ؛ فقد مات أبتر يوم ١٩ أكتوبر ١٢٨٧م ، وورثته أخته لوتشيا التى سبق أن تزوجت الأدميرال الكبير السابق لتشارلز (أوف أنجو) المدعو نارجوت (أوف توسى)، وهى تعيش الآن فى أبوليا. ولم يرغب نبلاء ومواطنو طرابلس فى أن يستدعوا إلى الشرق أميرة توشك ألا تكون معروفة ، وترتبط بالأنجفتين سيئى السمعة ؛ فعرضوا الكونتية على السيدة المسنة الأميرة سيبيلا الأرمينية التى ما أن تلقت العرض حتى كتبت إلى صديقها القديم الأسقف بارثولوميو أسقف طرطوس تدعوه ليكون وكيلها عن المملكة . غير أن رسالتها وقعت فى أيدى نبلاء الكونتية الذين جاءوها وأخبروها أن الأسقف غير مقبول. ورفضت أن تتحول عن موقفها . وبعد مشهد عاصف انسحب النبلاء وتشاوروا مع كبار التجار ؛ وأعلنوا جميعا خلع الأسرة الحاكمة عن العرش وإنشاء كميون يصبح من الآن قدُما هو السلطة السيادية . وكان رئيس الكوميون هو بارثولوميو إمبرياكو الذى كان والده برتراند العدو اللدود لبوهمند السادس والذى سبق لبوهمند السابع أن أعدم أخوه وليم بصورة بشعة مع ابن عمه لورد جبيل.

---

(٢٩) *Gestes des Chiprois*, p. 230; Abu'l Feda, p. 162; Maqrisi in Reinaud, *op. cit.* pp.5612.

١٢٨٨م : لوتشيا ، كونتيسة طرابلس

وذهبت الأميرة المسنة إلى أخيها في أرمينيا . وفي وقت مبكر من سنة ١٢٨٨م وصلت لوتشيا مع زوجها إلى عكا لكي تذهب إلى طرابلس لتسلم ميراثها. واستقبلها فرسان المستشفى استقبالا طيبا، فهم الحلفاء القدامى لأسرتها الحاكمة، وصحبوها حتى مدينة نيفين الحدودية للكونتية ؛ وهناك أصدرت بيانا بإعلان حقوقها . وكان رد الكميون اصدار قائمة طويلة تحوى المآسي والشكاوى من أعمال القسوة والاستبداد التي ارتكبها أخوها وأبوها وجدها ، وأعلنوا عن عدم رغبتهم في هذه الأسرة الحاكمة، ووضعوا أنفسهم تحت حماية جمهورة جنوا ؛ وقد أرسل رسول إلى جنوا لإطلاع الدوج الجنوى الذى أرسل على الفور الأدميرال بنيتو زخاريا ومعه خمس سفن ليتفق مع الكوميون . وفي ذات الوقت توجّه السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، ومعهم وكيل البنادقة في عكا ، إلى طرابلس للدفاع عن قضية الوريثة ؛ وكان دافع فرسان المستشفى في ذلك هو الصداقة القديمة بين النظام وعائلتها ، وتمثل دافع فرسان المعبد وفرسان التيوتون في أنهم يساندون البندقية ضد جنوا . بيد أنه قد قيل لهم إنه يجب على لوتشيا أن تعترف بالكوميون كحاكم للكونتية.

وعندما وصل الأدميرال زخاريا أصر على عقد معاهدة تعطى أبناء جنوا مزيدا من الشوارع في طرابلس، والحق في وجود قاض لقضاة المدينة ليحكم مستعمرتهم ، بينما ضمن حرية الكميون وامتيازاته . على أن مواطني طرابلس بدأوا يرتابون في نزاهة صديقتهم جنوا . أما بارثولوميو إمبرياكو ، الذى ضمن السيطرة على جبيل بتزويج ابنته آجنس من ابن عمه بطرس ابن جوى الثاني ، فقد اشتهى الكونتية لنفسه ؛ وأرسل رسالة إلى القاهرة ليعرف ما إذا كان قلاوون سوف يسانده إذا ما نادى بنفسه كونتا وبدأت الشكوك تحوم حول طموحاته ؛ وتحول الرأى العام في طرابلس لمناصرة قضية لوتشيا . وكتب الكميون في عكا رسالة لها ، دون إخطار أبناء جنوا ، يعرض قبولها إذا ما أكّدت وضع الكميون وامتيازاته . وفي حركة لا تخلو من فطنة أخبرت لوتشيا زخاريا الذى كان في أياس يرتّب لعقد معاهدة تجارية مع ملك أرمينيا ، فسارع إلى عكا لمقابلتها . ووافقت على تأكيد امتيازات كل من الكميون وجنوا ، وبهذه الشروط تم الإعتراف بها كونتيسة طرابلس[٣٠].

---

(٣٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 231-4; Amadi, pp. 217-18; Sanudo, p. 229; *Annales Janvenses*, pp.322-6.

ولم تلق تلك الترتيبات استحسانا من البنادقة ولا من بارثولوميو إمبرياكو الذى كان على اتصال فعلى بقلاوون . ووصل إلى القاهرة اثنان من الفرنج يلتمسان تدخل السلطان ، وليس فى الإمكان الآن معرفة ما إذا كان بارثولوميو هو الذى أرسلهما، أم بنادقة عكا ؛ وكان كاتم أسرار السيد الأعظم لفرسان المعبد يعرف أسماء المبعوثين لكنه فضّل عدم الكشف عنهما . وقد حذرا السلطان من أنه إذا سيطرت جنوا على طرابلس فسوف تهيمن على الشرق كله ولسوف نغدو تجارة الإسكندرية تحت رحمتها(٣١).

وابهج السلطان أن توجّه اليه الدعوة للتدخل ؛ إذ كانت تلك الدعوة ذريعة لخرق الهدنة مع طرابلس . وفى فبراير١٢٨٩م نقل الجيش المصرى كله إلى سوريا دون أن يكشف عن الهدف . غير أن أحد أمرائه ، بدرالدين بكتاش الفخرى، كان مأجورا لفرسان المعبد ، فأرسل كلمة إلى السيد الأعظم ، وليم (أوف بوجو) أن هدف قلاوون هو طرابلس . وسارع وليم يحذر المدينة ويناشدها الإتحاد وترتيب دفاعاتها . ولم يصدقه أحد ، إذ كان المشهور عن وليم أنه مغرم بالمكائد السياسية ، وقيل إنه اختلق تلك القصة لمصلحته الخاصة آملا أن توجّه اليه الدعوة للوساطة ولم يتغير شئ وواصلت الأطراف نزاعاتها حتى أواخر مارس تقريبا عندما زحف الجيش الضخم للسلطان مخترقا البقاع وتجمع أمام أسوار المدينة(٣٢).

١٢٨٩م : سقوط طرابلس

وأخيرا ، أخذ التهديد مأخذا الجد. ففى داخل المدينة منح الكميون والنبلاء على السواء الكونتيسة لوتشيا السلطة العليا . وأرسل فرسان المعبد قوة شمالا بقيادة مارشالهم، جيوفرى (أوف فينداك) ؛ وأرسل فرسان المستشفى قوة بقيادة مارشالهم ، ماثيو (أوف كليرمونت) . وسارت الكتيبة الفرنسية شمالا من عكا بقيادة جون (أوف جريللى) . وكان فى الميناء أربعة غلايين جنوية وغليونان بندقيان ، فضلا عن قوارب أصغر بعضها لأبناء بيزا . ومن قبرص أرسل الملك هنرى أخاه الأصغر أماليرك الذى كان قد عيّنه لتوه كونستابلا للقدس ، ومعه صحبة من الفرسان وأربعة غلايين . وفى

---

(٣١) . Gestes des Chiprois, p. 234 ويقول أبو المحاسن Abu'l Muhasin in Reinaud, op. cit. p. 561 إن بارثولوميو حذر قلاوون

(٣٢) . Gestes des Chiprois, pp. 234-5 وكان الفخرى يلقّب (بأمير السلاح)، ومن هنا يطلق عليه صاحب تاريخ Gestes صلاح . انظر أبو الفدا Abu'l Feda, p. 159

نفس الوقت هرب الكثير من المواطنين غير المقاتلين عابرين البحر إلى قبرص.

كانت طرابلس العصور الوسطى تقع علي البحر ، على شبه الجزيرة الجدباء التي تقف عليها الآن ضاحية "الميناء" العصرية، وقد فصلت عن قلعة جبل الحاج التي لم تبذل محاولة للدفاع عنها على ما يبدو . أما المدينة نفسها فقد كانت دفاعاتها رائعة . وبرغم سيطرة المسيحيين على البحر ، إلا أن التفرق العددى الشاسع للمسلمين وضخامة آلات حصارهم أثبت عدم إمكان المقاومة . وعندما دمّر القصف برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من الأسوار الأرضية، وبرج المستشفى الواقع بينه وبين البحر ، قرر البنادقة استحالة الدفاع أكثر من ذلك ، وحملوا سفنهم على عجل بكل ممتلكاتهم وأبحروا خارجين من المرفأ . وتسبب فرارهم في شعور أبناء جنوا بالخطر ، وقد ارتاب قائدهم زاخاريا في أن البنادقة يحاولون سرقة بعض قواربه ؛ فجمع هو الآخر رجاله وتركوا المدينة بعدما أخذوا معهم كل ما أمكنهم أخذه . وتسبب رحيلهم في بث الفوضى بين المسيحيين ؛ وفي ذلك الصباح ، ٢٦ إبريل ١٢٨٩م ، أمر السلطان بهجوم عام ؛ واحتشد المماليك بحشود كثيفة على السور الجنوبي الشرقي المنهار داخلين المدينة.

وفي المرفأ، كافح المواطنون الذين أصابهم الذعر للوصول إلى القوارب ؛ وتمكنت الكونتيسة لوتشيا من الإبحار بأمان إلى قبرص ومعها أماليك القبرصي ومارشالا النظامين الدينيين العسكريين ، لكن قائد فرسان المعبد لقى حتفه في القتال وكذلك بارثولوميو امبرياكو . وكان المسلمون يقتلون على الفور أي رجل يجدونه في طريقهم، أما النساء والأطفال فكانوا يؤخذون رقيقا . وتمكن بعض اللاجئين من العبور في قوارب تجديف إلى جزيرة سانت توماس الصغيرة الواقعة أمام اللسان الأرضي مباشرة ، لكن خيالة المماليك تقدموا في المياه الضحلة وسبحوا اليها ، حيث تلت مذابح مماثلة ، وعندما حاول المؤرخ أبوالفدا الحموى زيارة الجزيرة بعد أيام قلائل صدته الرائحة النتنة المنبعثة من الجثث المتحللة(٣٣).

وعندما انتهت المذبحة والنهب ، دمر قلاوون المدينة وسواها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج استعادتها بما لهم من سيطرة على البحار . وأمر بتشييد مدينة جديدة في

---

(٣٣) *Gestes des Chiprois*, pp. 235-7; Amadi, p. 218; *Annales Januenses, loc. cit.*; Auria, *Annales in M.G.H.* Scriptores, vol. ,xviii, p. 324; Maqrisi, *Sultans*, ii, i, pp.101-3; Abu'l Feda, pp. 163-4 .

سفح جبل الحاج تبعد عن الشاطئ أميال قليلة[٣٤].

وذهب بعض جنود المماليك للإستيلاء على البطرون ونيفين . ولم تكن هناك أية محاولة للدفاع عنهما . وعرض بطرس امبرياكو ، لورد جبيل ، خضوعه للسلطان ، وسُمح له بالإحتفاظ بمدينته تحت الإشراف الصارم لعشر سنوات أخرى تقريبا[٣٥].

وقع سقوط طرابلس من أهالى عكا وقع الصدمة المريرة . وكانوا فى السنوات القليلة الأخيرة قد أقنعوا أنفسهم بأنه طالما أنهم ليسوا عدوانيين ، فلن يعترض السلطان حقيقة على استمرار بقاء المدن المسيحية على طول الساحل . وربما يهاجم قلاعهم التى يتمثل فيها خطر كامن عليه . وربما يتبرم من الأنظمة الدينية العسكرية التى كان عملها الحرب من أجل عقيدتها ، حتى وإن كان المسلمون والمسيحيون على السواء يتعاملون مع فرسان المعبد على أنهم أصحاب مصارف . غير أن تجار الموانى وأصحاب الحوانيت لم يطلبوا سوى السلام ، ومن الواضح الجلى أن نبلاء أوتريميه من عشاق الرفاهية لم تعد لديهم الرغبة فى حملة صليبية وما يصاحبها من حرج . لقد كانت عكا وأخواتها الموانى أماكن ملائمة لتجارة المسلمين وكذلك المسيحيين ؛ وقد أظهر مواطنوها حسن نواياهم برفضهم للتحالف المغولى . أما هذا الهجوم على طرابلس الذي لم يروا له ما يستفزه فقد أظهر لهم مدى زيف حساباتهم . والآن أجبروا على التيقن من أن هناك مصيرا مماثلا ينتظر عكا.

وبعد سقوط طرابلس بثلاثة أيام وصل الملك هنرى إلى عكا فوجد فيها مبعوثا من قلاوون ، يحمل شكوى السلطان من أن الملك هنرى والأنظمة الدينية العسكرية قد انتهكوا الهدنة المعقودة معه بذهابهم لمد يد العون إلى طرابلس . ورد هنرى بأن الهدنة تنطبق على مملكة القدس ؛ فإذا كانت طرابلس مشمولة بهذه الهدنة ، فلم يكن ينبغى للسلطان أن يعتدى عليها. وقبل المسلمون هذا العذر ، وتم تجديد الهدنة لتغطى مملكتى القدس وقبرص لفترة أخرى قدرها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وسارع ملك أرمينيا وسيدة صور يحذوان حذو الملك هنرى[٣٦]، على أن هنرى لم يعد الآن يثق فى كلمة السلطان ؛ وليس بمقدوره مناشدة المغول ، فيقينا سيعتبر السلطان ذلك خرقا

---

(٣٤) *Gestes des Chiprois,* pp. 237-8

(٣٥) Maqrisi, *Sultans,* II, i, pp. 103-4. Sanudo, p. 230. See Grousset, *op. cit.* p.745 n.3.

(٣٦) *Gestes des Chiprois,* p. 238; Amadi, *loc. cit.* See Stevenson, *Crusaders in the East,* p.351 n.3..

للهدنة . غير أنه قبل أن يعود إلى قبرص في سبتمبر ، وقد ترك أخاه كركيل للمملكة في عكا ، أرسل جون (أوف جريللى) إلى أوروبا لكى يصور لعواهل أوروبا مدى ما وصله الوضع من يأس[٣٧].

١٢٩٠م :صليبيون من شمال إيطاليا

ولقد صُدم عواهل أوروبا كذلك بمصير طرابلس ؛ غير أن المسألة الصقلية كانت ما تزال تستحوذ على أذهان الجميع فيما عدا إدوارد ملك انجلترا الذى كانت مشكلته الإسكتلندية قد بلغت حد الأزمة . أما البابا نيوكولاس الرابع فقد استقبل جون (أوف جريللى) بمشاعر العطف المخلصة ، وكتب فى حرارة الأسى إلى ملوك الغرب يستعطفهم لإرسال المساعدة . غير أنه كان هو نفسه كان متورطا فى المسألة الصقلية ؛ ولم يكن بوسعه إلا كتابة الرسائل وحث رجال الدين على التبشير بحملة صليبية . وكان الأمراء والنوردات الذين ناشدهم البابا يفضلون الانتظار إلى أن يبادر الملك إدوارد بحركة ما، إذ أنه برغم كل شئ قد أخذ الصليب ولديه بعض الخبرة بالشرق[٣٨]. ولكن إدوارد لم يتحرك . أما جمهورية جنوا ، التى مُنيت بخسارة فادحة لضياع طرابلس ، فقد انتقمت بالإستيلاء على سفينة تجارية مصرية ضخمة كانت مبحرة قبالة الشاطئ جنوب الأناضول، وبالإغارة على ميناء تينه فى الدلتا العارى من الحماية ؛ وعندما أغلق قلاوون الإسكندرية فى وجه أبناء جنوا سارعوا اليه يطلبون السلام . وعندما وصل مبعوثوهم إلى القاهرة ، وجدوا سفراء من الامبراطور اليونانى والامبراطور الألمانى منتظرين بباب السلطان[٣٩].

ولم تجد مناشدات البابا صدى إلا فى شمالى ايطاليا ؛ ولم تأت الإستجابة من البارونات ، وإنما جاءت من السوقة من الفلاحين والعاطلين من سكان المدن الصغيرة فى لومبارديا وتوسكانيا ، التواقين إلى مغامرة قد تعود عليهم ببعض الفضل والخلاص الروحى وما يحتمل من أسلاب. ولم يكن البابا سعيدا تماما بذلك ، لكنه قَبِل مساعدتهم ووضعهم تحت إمرة أسقف طرابلس الذى سبق أن جاء إلى روما لاجئا . وكان فى

(٣٧) Raynaldus, 1288, p. 43, 1289, p. 72 .

(٣٨) Rhricht, "derniers Jours", p. 529. For Edward's attitude, see Powicke, *op. cit.* pp.729 ff

(٣٩) Heyd, *op. cit.* i, pp. 416-18

مأمول البابا أنهم فلن يفعلوا شيئا يتصف بالحمق بعدما أصبحوا تحت يد كابحة لأسقف يعرف الشرق . أما البنادقة ، الذين لم يأسوا لرؤية جنوا وهى تفقد قاعدتها فى طرابلس، والذين شعروا بخلاف ذلك حيال عكا التى كانت لهم فيها الهيمنة التجارية ، فقد قدموا عشرين غليونا تحت قيادة إبن الدوج - نيكولاس تيبولو - ويساعده ، بناء على طلب البابا ، جون (أوف جريللى) وروكس (أوف سالى) . وكان البابا قد عهد إلى كل فرد من هؤلاء القادة الثلاثة بألف قطعة ذهبية من خزانة البابوية ، بيد أنهم كانوا يفتقدون المؤن . وعندما أبحر الأسطول قاصدا الشرق انضم إليه خمسة غلايين أرسلها الملك جيمس ملك أراجون الذى كان تواقا لتقديم المساعدة على الرغم من أنه كان فى حرب مع البابوية والبندقية[٤٠].

أعادت الهدنة بين الملك هنرى والسلطان بعض الثقة إلى أهل عكا ؛ فعادت التجارة سيرتها الأولى . وفى صيف ١٢٩٠م بدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم مرة أخرى إلى الساحل ؛ وكان الحصاد وفيرا فى الجليل فى ذلك العام ، واحتشد الفلاحون المسلمون بمحاصيلهم فى أسواق عكا . ولم يسبق للمدينة قط أن شهدت مثل تلك الحيوية والنشاط . وفى أغسطس ، وفى قمة هذا الإزدهار ، وصل الصليبيون الإيطاليون. ومن لحظة نزولهم إلى اليابسة أثبتوا أنهم مثار حرج كبير للسلطات ؛ إذ كانوا فوضويين ، سكارى ، فاسقين ، ولم يستطع قادتهم السيطرة عليهم لعجزهم عن دفع رواتبهم بانتظام . ولأنهم قد جاءوا لمحاربة الكفرة ، فقد بدأوا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين المسالمين . وفى أحد الأيام فى أواخر أغسطس اندلعت أعمال شغب؛ قال البعض إنها بدأت فى حانة شراب حيث يتواجد المسيحيون والمسلمون ؛ وقال البعض الآخر إن تاجرا مسلما أغوى سيدة مسيحية ، واستنجد زوجها بجيرانه للإنتقام . وفجأة اندفع غوغاء الصليبيين فى الشوارع وفى الضواحى يقتلون كل مسلم يقابلونه ، ولأنهم قرروا أن كل من له لحية فهو مسلم ، فقد هلك أيضا الكثير من المسيحيين المحليين ؛ وارتاع بارونات المدينة وفرسان الأنظمة الدينية العسكرية ؛ وكل ما استطاعوه هو انقاذ القليل من المسلمين وأخذهم إلى القلعة حيث الأمان ، والقبض على القليل ممن بدا أنهم زعماء الشغب[٤١].

---

(٤٠) *Gestes des Choprois*, p. 238; Dandolo, p. 402; Sanudo, p. 229; Amadi, pp. 218-19

(٤١) *Gestes des Chiprois, loc. cit.;* Amadi, p. 219; Florio Bustron, p. 118; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 109.

وسرعان ما وصلت أنباء المذبحة إلى السلطان الذى استشاط غضبا بحق ، وقرر أن الوقت قد حان ليقتلع الفرنج من التربة السورية . وسارعت حكومة عكا بارسال اعتذاراتها وتأسفها ، غير أن السلطان أرسل مبعوثيه إلى عكا وأصر على تسليمه المذنبين لمعاقبتهم . وعقد الكونستابل أماليك مجلسا نهض فيه السيد الأعظم لفرسان المعبد ونصح بتسليم جميع المجرمين المسيحيين الموجودين آنذاك فى سجون عكا إلى ممثلى السلطان على أنهم مرتكبوا الجريمة . غير أن الرأى العام لم يكن يسمح بإرسال مسيحيين إلى حتفهم على أيدى الكفرة . ولم يتلق سفراء السلطان أية ترضية ، وبدلا من ذلك كانت هناك محاولة فاترة لإثبات أن بعض تجار المسلمين مذنبون بإشعال الشغب وبذا يتعين أن يُلقى باللائمة عليهم[٤٢] .

١٢٩٠م : موت قلاوون

وكان رد قلاوون هو اللجوء إلى السلاح ؛ وحدثت مناقشة أحراها فقهاؤه، جعلته يشعر بالرضى لتوفر المبرر القانونى الذي يسمح له بخرق الهدنه ؛ وأبقى مخططاته طي الكتمان . وبينما كان يعبئ الجيش المصرى ، صدرت الأوامر للجيش السورى بقيادة ركن الدين طوقسو واليه على دمشق بالمسير إلى ساحل فلسطين بالقرب من قيصرية وإعداد آلات الحصار . وكان قد أذاع أن هدف الحملة هو أفريقيا[٤٣] . ولكن مرة أخرى حذّر الأمير الفخرى وليم (أوف بوجو) وفرسان المعبد من نوايا السلطان الحقيقية . ونقل وليم التحذير ، غير أنه كما حدث فى طرابلس لم يكن هناك من يصدقه . فأرسل من تلقاء نفسه مبعوثا إلى القاهرة . فعرض السلطان أن يبقى على المدينة لقاء مبلغ من السيكوينات[٤٤] يعادل عدد السكان . على أنه عندما وضع د العرض أمام المحكمة العليا رفضته باستهزاء ، واتّهم وليم بالخيانة وأهانه الجمع بينما كان يغادر القاعة[٤٥] .

---

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 239-40; Amadi, *loc. cit.*

(٤٣) *Gestes des Chiprois*, p. 240; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 109; Muhi ad-Din, in Reynaud, *op.cit.* pp.567-8.

(٤٤) (المترجم) السكوين sequin عملة نقدية ذهبية قديمة كانت تستعمل فى ايطاليا وتركيا

(٤٥) *Gestes des Chiprois, loc. cit.;* Ludolf of Suchem (trans. Stewart)< P.P.T.S., vol. xii, p.56.

وازداد رضى أهالى عكا عن أنفسهم فى نهاية العام عندما وصلتهم الانباء من القاهرة بموت قلاوون . وكان قد كشف تماما عن اخفاء نواياه فى الزحف على عكا ؛ ففى رسالته لملك أرمينا ذكر قسمه بألا يترك مسيحيا واحدا على قيد الحياة فى المدينة . وفى ٤ نوفمبر ١٢٩٠م ، انطلق من القاهرة على رأس جيشه . لكنه ما أن شرع فى المسير حتى أصابه المرض ، وبعد ستة أيام توفى فى مرحة التين على مجرد خمسة أميال من عاصمته . وبينما هو على فراش الموت أخذ من ابنه الأشرف خليل وعدا بمواصلة الحملة . ولقد كان سلطانا عظيما ، يضاهى بيبرس فى غلظته وقسوته ، وإنما يتميز عنه بإحساس رفيع بالإخلاص والشرف(٤٦).

وعلى غير شاكلة بيبرس ، ترك قلاوون إبنا جديرا بأن يخلفه . وأعقب موته مكيدة القصر المعتادة ؛ بيد أن الأشرف لم يكن ليؤخذ على غرة ، وتمكن من القبض على زعيم المكيدة الأمير طورونطاى ، واستطاع ترسيخ تربعه على العرش.والآن ، كان الوقت متأخرا جدا للزحف على عكا ، وتأجلت الحملة إلى الربيع(٤٧).

وانتهزت حكومة عكا هذه المهلة السلمية وأرسلت سفارة أخرى إلى القاهرة قادها أحد وجهاء عكا ، فيليب مينبوف ، الذى كان دارسا مثقفا للعلوم العربية ؛ ومعه فارس من فرسان المعبد يدعى بارثولوميو بيزان ، وفارس من فرسان المستشفى ، وكاتم أسرار يدعى جورج . ورفض السلطان مقابلتهم ، وألقى بهم فى غيابة السجن حيث لم يبقوا طويلا على قيد الحياة(٤٨).

شرع جيش المسلمين فى التحرك فى مارس ١٢٩١م ، وكان الأشرف قد اتخذ جوانب الحيطة فى ترتيباته واستكملها؛ إذ جمع آلات الحصار من سائر أنحاء السلطنة . وكان الجيش محمّلا بكثير الكثير من حماة حتى أنه استغرق شهرا للإرتحال من الكرك - حيث توقف لأخذ منجنيق ضخم يسمى المنصور - حتى عكا جنوبا فى جو ممطر ملئ بالطمى ؛ فضلا عن مائة آلة حصار أخرى صُنعت فى دمشق ومصر . وكان هناك منجنيق ضخم آخر يسمى الغاضب ، ومناجق أخرى أصغر ذات كفاءة خاصة ، تعرف باسم الثيران السوداء . وفى ٦ مارس غادر الأشرف القاهرة قاصدا دمشق حيث ترك

(٤٦) Maqrisi, *Sultans*, II, i, pp.110-12; Abu'l Feda, p. 163; *Gestes des Chiprois*, pp. 240-1; Amadi, p.219.

(٤٧) Abu'l Feda, *loc. cit.*; *Gestes des Chiprois*, p. 241

(٤٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 241-3; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p.120 .

الحريم . وفى ٥ إبريل وصل أمام عكا بكل قواته الضخمة . وتحدث البعض عن ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل . ومهما قد تبدو هذه الأعداد مبالغا فيها فقد جاوز جيشه بكثير ما كان باستطاعة المسيحيين حشده(٤٩).

١٢٩١م : المدافعون عن عكا

تسببت أنباء استعدادات السلطان فى أن أرغمت أهل عكا أخيرا على التحقق من ورطتهم . وأُرسلت أثناء الشتاء استنجادات عاجلة إلى أوروبا ، ولم يكن لها سوى نتائج طفيفة للغاية ؛ إذ كان قد وصل قليل من الفرسان المتفرقين خلال الخريف السابق، من بينهم أوتو (أوف جراندسون) السويسرى ومعه بعض الإنجليز الذين أرسلهم إدوارد الأول ؛ وجمع فرسان المعبد والمستشفى جميع رجالهم ؛ أما السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، بوركارد (أوف شواندن) ، فقد تسبب فى توليد انطباع سيئ باختياره التخلي عن منصبه في تلك اللحظة بعينها ؛ غير أن خليفته ، كونراد (أوف فيوشتوانجن) ، استدعى عددا من رفاقه الفرسان من أوروبا . وأرسل هنرى ملك قبرص جنودا قبرصيين وأخاه أماليك لقيادة الدفاع ، ووعد بالمجئ بنفسه مع التعزيزات. وتم قيد كل مواطن قادر بدنيا من مواطني عكا ليلعب دوره(٥٠). على أنه حتى مع ذلك كانت الأعداد قليلة؛ إذ كان عدد سكان عكا المدنيين جميعا ثلاثين أو أربعين ألف نسمة ، بالإضافة إلى ما يقل عن ألف فارس أو مساعد فارس بجواد ، وحوالى أربعة عشر ألف جندى مشاة ، بما في ذلك الحجاج الإيطاليون . وكانت تحصينات المدينة فى حالة جيدة قد تمت تقويتها مؤخرا بأوامر من الملك هنرى . وقد أصبح هناك الآن خط أسوار مزدوج لحماية شبه الجزيرة التى تقع عليها المدينة وضاحيتها الشمالية مونتموسارت ، وسور واحد يفصل مونتموسارت عن عكا ، وتقع القلعة على ذلك السور الأخير بالقرب من نقطة اتصاله بالسور المزدوج . وكان هناك اثنا عشر برجا على مسافات غير منتظمة من الأسوار الخارجية والداخلية ، وقد شُيد الكثير منها على نفقة بعض الحجاج البارزين ، مثل البرج الإنجليزى الذى بناه إدوارد الأول ، وبرج كونتيسة بلوا التالى له . وفى الزاوية التى تنحرف فيها الأسوار من المضى شمالا من خليج عكا لكى تمضى غربا ناحية البحر ، قام برج ضخم على السور الخارجي بناه

(٤٩) Al-Jazari (ed. Sauvaget), pp. 4-5; Maqrisi, *loc. cit.*; Abu'l Feda, p. 163

(٥٠) hricht, *Geschichte*, pp. 1008 ff. *Gestes des Chiprois*, p. 241. See also R

حديثا الملك هنرى الثانى فى مواجهة البرج الملعون على السور الداخلى . وأمام برج الملك هنرى كان هناك مدخل ضخم بناه الملك هيو[٥١] . وكانت هذه الزاوية بكاملها أضعف جزء في الدفاع ؛ ولذلك عُهد بها إلى جنود الملك تحت إمرة أخيه أمالريك . وعلى ميمنته تمركز الفرسان الفرنسيون والإنجليز بقيادة جون (أوف جريللى) وأوتو (أوف جراندسون) ثم الجنود البنادقة وأبناء بيزا وجنود كميون عكا . وعلى ميسرة أمالريك كان هناك أولا فرسان المستشفى ثم فرسان المعبد ، كلّ بقيادة سيده الأعظم ، وذلك لتغطية أسوار مونتموسارت، أما فرسان التيوتون ، فكانوا بمثابة تعزيز للكتائب الملكية عند البرج الملعون . أما فى جانب المسلمين ، فقد تمركز جيش حماة - وكان معه المؤرخ أبو الفدا بنفسه - ناحية البحر فى مواجهة فرسان المعبد ؛ وتمركز جيش دمشق فى مواجهة فرسان المستشفى ؛ وكان الجيش المصرى فى موضع يمتد من نهاية سور مونتموسارت ويلتف إلى خليج عكا ، ونُصبت خيمة السلطان على مسافة غير بعيدة من الشاطئ ، فى مواجهة برج المندوب البابوى[٥٢] .

١٢٩١م : إتّهامات بالجبن

وفيما بعد ، عندما ضاع كل شيئ ، توهجت جذوة الغضب والحزن فأشعلت التناهم وتبادل السباب . فراح المؤرخون المسيحيون ، بلا ضابط ، يقذفون الحامية باتهامات الجبن[٥٣] لكن حقيقة الأمر أن المدافعين عن أوتريميه أظهروا فى تلك اللحظة

---

(٥١) أنظر أعلاه ص ٥٩، والخريطة ص ٤٥١ . وانظر أيضا Rey, *Colonies Franques*, pp.451 ff. وكانت كونتيسة بلوا المسنة أليس (أوف بريتانى) قد زارت عكا سنة ١٢٨٧م وماتت هناك (*Annales de Terre Sainte*, pp.459-60; Sanudo,p. 229).

(٥٢) Abu'l Feda, p. 164; *Gestes des Chiprois*, p. 243

(٥٣) التواريخ الفرنجية الرئيسية التى تناولت سقوط عكا هى:

١- *Gestes des Chiprois* كتبه المدعو (فارس معبد صور) Templar of Tyre الذى كان كاتم أسرار السيد الأعظم للنظام ، وكان شاهد عيان . ورغم إعجابه بالسيد الأعظم ، لم يكن تابعا لنظام فرسان المعبد . وكان على وجه العموم منصفا (انظر أدناه ص ٥٥٠).

٢- Marino Sanudo, the elder، ولم يكن حاضرا وإنما بنى تاريخه على *Gestes*.

٣- *De Excidio Urbis Acconis* (in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol.v) وهو عمل لمجهول كتبه أحد المعاصرين ولكنه لم يكن شاهد عيان ، وأطلق لنفسه العنان فى اتهاماته بالجبن والخيانة.

٤- Thaddeus of Naples, *Hystoria de Desolacione Civitatis Acconensis* (ed. Riant)،

الحاسمة من لحظات مصيرهم شجاعة واخلاصا طوتهما طيا مؤسفا كتابات السنوات الحديثة. وربما حدث أثناء تحميل السفن بالنساء والمسنين والأطفال لإرسالهم إلى قبرص قبل بداية الحصار أن هرب معهم بعض الرجال من القادرين على الحرب. وربما أظهر بعض التجار الإيطاليين مشاعر الأنانية المرتاعة حول ممتلكاتهم . ولم تشترك جنوا فى الصراع فى الواقع ، إذ كان قد استبعدها البنادقة فعلا من عكا ، وعقدت معاهدتها مع السلطان . غير أن البنادقة وأبناء بيزا حاربوا ببسالة وكان أبناء بيزا مسؤولين عن تشييد منجنيق ضخم كان أكثر آلات المسيحيين كفاءة.

عكا سنة ١٢٩١م

بدأ الحصار فى السادس من ابريل . ويوما بعد يوم راحت مناجق السلطان كبيرها وصغيرها تقذف أحجارها أو حاوياتها الفخارية وبها مزيج قابل للإنفجار ، فتصطدم بأسوار المدينة ، أو تجاوزها إلى داخل المدينة ، وراح رماة سهام السلطان يصبون سُحب سهامهم على المدافعين فى أروقة الأبراج وشرفاتها ، بينما راح مهندسوه يعدون العدة لتلغيم الدفاعات الصعبة ، وقيل إنه كان لديه ألف مهندس أمام كل برج . وكان المسيحيون لا يزالون مسيطرين على البحر ، وكانت مؤن الطعام تصل بانتظام من قبرص ؛ غير أنهم كانوا يفتقرون إلى التسليح ، وبدأو يتحققون من عدم وجود ما يكفى من الرجال لوضعهم على الأسوار لمجابهة الأعداء بأعدادهم المهولة ؛ غير أنه لم يكن هناك حديث عن الإستسلام . وثبتوا فى إحدى سُفنهم منجنيقا تسبب فى إحداث أضرار جسيمة فى معسكر السلطان . وفى ليلة ١٥ إبريل ، والقمر ساطع فى السماء ، خرج فرسان المعبد ، يساعدهم أوتو (أوف جراندسون) ، واندفعوا فى هجوم مباشر على معسكر رجال حماة ؛ وبوغت المسلمون ؛ غير أن الكثير من فرسان المعبد تعثروا فى حبال الخيام فى غُبْشة الليل وسقطوا وأسروا ، وأُجبر الآخرون على أعقابهم إلى داخل المدينة بخسائر فادحة . وبعد ليال قليلة قام فرسان المستشفى بخروج آخر فى ظلام تام ، كان مآله الفشل الزريع، إذ أشعل المسلمون على الفور مشاعلهم ونيرانهم. وبعد

وهو عمل مسيء بنفس القدر .

وهناك تاريخ كتبه راهب يونانى يدعى Arseniud ، استشهد به Bartholomew of Neocastro ، نشره Paladino فى Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, XIII, iii, p.132، وهو يتهم الفرنج بالفسوق والخمول وليس بالجبن . وتقول كل المصادر تقريبا كلاما طيبا عن الملك هنرى

هذا الخروج الثانى تقرر أن ذلك باهظ التكلفة فى القوة البشرية . على أن التخلى عن المعارك الهجومية أضر بمعنويات المسيحيين ، وتفشى بينهم الإحساس بانقطاع الأمل . لقد كان الوقت فى جانب المسلمين.

وفى الرابع من مايو ، أى بعد حوالى شهر من بدء الحصار ، وصل الملك هنرى من قبرص ومعه ما استطاع جمعه من جنود بلغ عددهم مائة خيال وألفي راجل فى أربعين سفينة ؛ وكان برفقته رئيس أساقفة نيقوسيا ، جون توركو (أوف انكونا)، وربما يعزى تأخره فى المجئ إلى المرض . واستُقبل بمشاعر البهجة ، وما أن هبط إلى البر حتى تسلم القيادة ونفث قوة فى الدفاع . غير أنه سرعان ما اتضح جليا أن تلك التعزيزات كانت غاية فى الضآلة ، فلم تحدث فرقا فى المحصّلة العامة.

١٢٩١م : آخر محاولة للتفاوض

وحاول الملك محاولة أخيرة للسلام ، فأرسل فارسين هما وليم (أوف كافران) ووليم (أوف فيليير) من فرسان المعبد إلى السلطان يسأله لماذا خرق الهدنة ، ويعده بالإنتصاف من أية مظالم . واستقبلهما الأشرف خارج خيمته ؛ وقبل أن يبدأ بتسليم الرسالة سألهما باقتضاب ما إذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة ؛ وعندما أجابا بالنفى قال إنه إنما يريد المكان ولا يعبأ بمصير السكان . وتقديرا لشجاعة الملك الذى جاء للحرب وهو صغيا ومريض، فإنه سوف يبقى على السكان إذا استسلموا له ؛ ورد المبعوثان بأنهما سوف يُعتبران خائنين إذا وعدا بالإستسلام ، وبعد أن قالا ذلك مباشرة قذف منجنيق من الأسوار بحجر سقط بالقرب من المجموعة ؛ فاستشاط الأشرف غضبا واستل سيفه ليقتل السفيرين ، لكن الأمير الشجاعى قام إليه وهدأه قائلا إنه لا ينبغى أن يلوث سيفه بدماء الخنازير . وسُمح للفارسين بالعودة إلى مليكهم.

كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلا فى تلغيم الأبراج . وفى ٨ مايو قرر رجال الملك أن برج الملك هيو الضخم لم يعد الدفاع عنه مجديا ، فأشعلوا فيه النيران وتركوه لينهار . وخلال الأسبوع التالى لُغم البرج الإنجليزى وبرج كونتيسة بلوا، وبدأ انهيار الأسوار المجاورة لبوابة القديس أنطوان وبرج القديس نقولا . وصمد برج هنرى الثانى الجديد حتى ١٥ مايو، عندما انهار جزء من جداره الخارجى ؛ وفى الصباح التالى شق المماليك طريقهم فى الأطلال ، وكان لا بد للدفاع أن يتقهقر إلى الأسوار الداخلية . وفى نفس ذلك اليوم كان هناك هجوم مركّز على بوابة القديس أنطوان ولم يمنع

الأعداء من الدخول إلى المدينة سوى بسالة فرسان المعبد وفرسان المستشفى . وتميّز مارشال فرسان المستشفى ، ماثيو (أوف كليرمونت) ، بشجاعته الفائقة.

وفى اليوم التالى عزز المسلمون قبضتهم على السور الخارجى ؛ وأمر السلطان بهجوم عام صباح الجمعة ١٨ مايو ؛ وشن الهجوم بطول الأسوار من بوابة القديس أنطوان حتى برج البطريق بجوار الخليج ، غير أن الهجوم الرئيسى للمسلمين كان على البرج الملعون عند زاوية الجزء الناتئ؛ وألقى السلطان بكل إمكانياته فى المعركة ، فلم تتوقف المناحق عن القصف، وانهمرت سهام رماته - التى كادت أن تأخذ شكل كتلة متحدة - على المدينة ؛ واندفعت الكتيبة تلو الكتيبة يقودها أمراؤها بعماماتهم البيضاء تهاجم الدفاعات ؛ وكانت الضوضاء تثير الرعب ، والمهاجمون يصرخون صرخات المعركة تستحثهم الأبواق والصنج المعدنية والطبول التى يقرعها ثلاثمائة طبّال على ظهور الجمال.

ولم يمض طويل وقت حتى شق المماليك طريقهم إلى داخل البرج الملعون مما اضطر حاميته - المؤلفة من الفرسان السيريان والقبارصة - إلى التقهقر غربا باتجاه بوابة القديس أنطوان حيث خف لمساعدتهم فرسان المعبد والمستشفى يحاربون جنبا إلى جنب ، وكأنه لم يكن هناك قط قرنان من التنافس بينهما . وحاول ماثيو (أوف كليرمونت) يائسا قيادة هجوم مضاد لإستعادة البرج ، بيد أنه على الرغم من أن السيدين الأعظمين تبعاه ، لم يجدِ ذلك فتيلا . وبطول الأسوار الشرقية للمدينة تمكن جون (أوف جريللى) وأوتو (أوف جراندسون) من الصمود لبضع ساعات ؛ بيد أنه بعد سقوط البرج الملعون استطاع الأعداء المرور من الأسوار المنهارة والاستيلاء على بوابة القديس نيقول ؛ وبذا ضاع السور بكامله ورسّخ المسلمون وضعهم داخل المدينة.

١٢٩١م : الهروب من عكا

واستعر القتال فى الشوارع ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله لإنقاذ عكا . وأصيب وليم (أوف بوجو) السيد الأعظم لفرسان المعبد إصابات مميتة فى هجومه المضاد العقيم على البرج الملعون ، وحمله أتباعه إلى مبنى نظام المعبد حيث مات ، وكان معه ماثيو (أوف كليرمونت) ، لكنه عاد إلى المعركة والى حتفه . وجرح السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جون (أوف فيلير) ، لكن رجاله أحضروه إلى المرفأ ووضعوه على متن سفينة وسط اعتراضاته . وكان الملك هنرى وأخوه أماليك قد ركبا السفينة فعلا ؛

وفيما بعد اتّهم الملك هنرى بالجبن لتخليه عن المدينة ، غير أنه كان فاقد الحيلة ، وكان واجبه إزاء مملكته يحتم عليه تجنب الأسر . وفى القطاع الشرقى جرح جون (أوف جريللى) وتسلم القيادة أوتو (أوف جراندسون) الذى صادر كل ما كان يجده من السفن البندقية ووضع عليها جون (أوف جريللى) وجميع ما أمكن إنقاذه من الجنود وكان هو آخر من انضم اليهم على ظهرها . وعم اضطراب مفزع أرصفة الميناء ؛ واكتظت قوارب التجديف بالجنود والمدنيين، وفيهم النساء والأطفال ، فى سعى للوصول إلى الغلايين الراسية قبالة الشاطئ . وكان البطريق العجوز نيكولاس (أوف حنابى) ، قد جرح جرحا بسيطا وحمله خدمه المخلصون ووضعوه على زورق شراعى صغير ؛ ومن قبيل العطف سمح لكثير من اللاجئين أن يركبوا معه القارب إلى أن هبط الزورق بثقلهم وأغرقهم جميعا . وبعض الرجال أسعفتهم أذهانهم فاختطفوا قاربا وراحوا يجمعون رسوما باهظة من اليائسين على الأرصفة من التجار والسيدات ؛ وقام المغامر الكتالونى[٥٤] روجر فلور ، الذي حارب بشجاعة كفارس من فرسان المعبد أثناء الحصار ، بتولى قيادة غليون تابع لفرسان المعبد ، وكان بمثابة أساس لثروته الضخمة التى جمعها من ابتزازه لنبيلات عكا[٥٥].

وكانت السفن ضئيلة العدد للغاية بحيث لا تستطيع أن تنقذ الهاربين . وسرعان ما توغل جنود المسلمين فى المدينة مباشرة ، يقتلون من يقابلهم ، المسنون والنساء والأطفال على السواء ؛ وابتسم الحظ لقليل من المواطنين الذين مكثوا فى بيوتهم ، فقد أُخذوا أحياء ليباعوا رقيقا ، ولكن لم ينج الكثير . وليس بمقدور أحد أن يخبرنا بعدد الذين هلكوا ؛ وفيما بعد حاولت الأنظمة الدينية العسكرية وكذلك بيوتات التجار العظام وضع قوائم بالناجين من أفرادها، غير أن مصير أغلب أفرادها كان مجهولا . وتحدث من سافروا لاحقا إلى الشرق عن مشاهدتهم لبعض أعضاء فرسان المعبد المرتدين عن دينهم يعيشون عيشة حقيرة فى القاهرة ، وآخرين يعملون فى قطع

---

(٥٤) (المترجم) نسبة الى كتالونيا Catalonia ، وهو اقليم فى شمال شرق اسبانيا عاصمته برشلونة.

(٥٥) هذه الرواية مأخوذة من *Gestes des Chiprois*, pp. 43-54 ؛

-Sanudo, pp. 230-1; Amadi, pp. 220-5; *De Excidio,* cols. 760-82; Thaddeus, pp. 18-23; Ludolf of Suchem (P.P.T.S.pp. 54-6); al-Jazari, p. 5; Maqrisi, *Sultans,* II,i, pp. 125-6; Abu'l Feda, pp. 164-5; Abu'l Muhasi in Reinaud, *op. cit.* pp. 569-72. There is a picturesque account (unfortunately withou references) in Schlumberger, *Byzance et Croisades,* pp. 207-79. Muntaner, *Cronica* (ed. Coroleu), p. 378, tells of Roger of Flor's conduct.

الأخشاب ناحية البحر الميت . وأطلق سراح بعض الأسرى وأعيدوا إلى أوروبا بعد تسع أو عشر سنوات . وقيل إن الرقيق من الفرسان وذرياتهم كان أسيادهم يعاملونهم بشئ من الإحترام . واختفت نسوة كثيرات وأطفال إلى الأبد فى حريم أمراء المماليك . وزاد العرض في سوق الرقيق بدمشق زيادة كبيرة ، فانخفض سعر الفتاة إلى دراخمة واحدة(٥٦). على أن عدد المسيحيين الذين قُتلوا كان أكبر(٥٧).

وبحلول ليل ١٨ مايو باتت عكا كلها فى قبضة السلطان ، فيما عدا قلعة فرسان المعبد الضخمة ذات النتوء المطل على البحر فى النقطة الجنوبية الغربية من المدينة ، حيث لاذ بها فرسان المعبد الناجون من الموت ومعهم عدد من المواطنين من الجنسين . ولعدة أيام تحدت جدرانها الضخمة الأعداء ، والسفن التى أنزلت اللاجئين فى قبرص عادت لمساعدتهم . وبعد أسبوع تقريبا عرض الأشرف على مارشال النظام ، بطرس (أوف سيفرى) ، السماح له بركوب البحر مع كل من كان معه فى القلعة بمنقولاتهم إذا استسلموا له ؛ وقبل بطرس الشرط ، ودخل أحد الأمراء ومائة مملوك القلعة للإشراف على الترتيبات ، بينما رفرفت راية السلطان على البرج . لكن هؤلاء المماليك كانوا خارج سيطرة المشرفين عليهم ، فبدأوا فى إزعاج المسيحيات والأطفال وفى تملكهم ، الأمر الذى أثار حنق الفرسان فانقضوا على المسلمين وقتلوهم ، وأنزلوا راية الأعداء وتهيّأوا للمقاومة حتى الموت . وعندما هبط الظلام ، أرسل بطرس (أوف سيفرى) خزانة نظام فرسان المعبد مع قائد الفرسان ، تيبالد جودين ، مع قليل من غير المقاتلين ، فى قارب إلى القلعة فى صيدا . وفى اليوم التالى ، وعندما رأى الأشرف قوة القلعة وما كانت عليه حاميتها من شجاعة يائسة ، عرض نفس الشرط المشرّف كما سبق ؛ وخرج بطرس وقليل من رفاقه بمرور آمن لمناقشة الإستسلام . غير أنهم ما أن وصلوا خيمة السلطان حتى حوصروا وقيّدوا وضربت أعناقهم على الفور ؛ ولمّا رأى أفراد الحامية من فوق الأسوار ما حدث أغلقوا البوابة وواصلوا الحرب . غير أنهم لا يستطيعون منع المهندسين المسلمين من الزحف حتى الأسوار وحفر نفق ضخم تحتهم . وفى ٢٨ مايو بدأ جانب القلعة المطل على اليابسة فى الإنهيار ، ودفع الأشرف ، الذى خذله صبره ، بألفى مملوك إلى داخل الفتحة الآخذة فى الإتساع . ولم تتحملهم قواعد

---

(٥٦) (المترجم) الدراخمة : عملة يونانية فضية قديمة ؛ وهى الآن العملة الرسمية لليونان الحديثة

(٥٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 254-5; Maqrisi, *op. cit.* p. 126; letter of Sultan al-Ashraf to hricht, *Geschichte*, p. Hethoum of Armenia in Bartholomew Cotton, p. 221. See R 1021 n.3 .

المبنى التى تزايد ميلها ؛ وبينما كانوا يشقون طريقهم قتالا إلى الداخل انهار الصرح كله وقضى على المدافعين والمهاجمين على السواء بالكم الهائل من الأحجار المنهارة(٥٨).

١٢٩١م : تدمير عكا

ما أن أصبحت عكا فى يد السلطان حتى أخذ فى تدميرها بصورة منتظمة وقد عقد العزم على ألا تعود أبدا كرأس حربة للعدوان المسيحى فى سوريا ؛ فنهبت البيوت والأسواق ثم حرِّقت ؛ وهدمت مبانى الأنظمة الدينية العسكرية ، وعُطِّلت تحصينات الأبراج والقلاع وتُركت أسوار المدينة للتفكك. وعندما مر بها الحاج الألمانى ليودولف (أوف سوشين) بعد ذلك بأربعين سنة ، لم يجد سوى بعض الفلاحين التعساء يعيشون بين أطلال ما كان مرة العاصمة الرائعة لمملكة الشرق الفرنجى؛ وما زال هناك كنيسة أو كنيستين لم تدمر كليّة ؛ غير أن المدخل الرائع لكنيسة القديس أندرو قد أُخذ لتزيين المسجد الذى بنى فى القاهرة لتشريف السلطان المنتصر ؛ وفى وسط الجدران المتهدمة فى كنيسة سانت دومينيك ، لا يزال قبر الراهب الدومينكى ، جوردان السكسونى ، باقيا لم يُمس ، إذ أن المسلمين قد حدّقوا فيه ووجدوا أن الجثة لم تفسد(٥٩).

١٢٩١م : موت مملكة الشرق الفرنجى

وسرعان ما لقيت المدن الفرنجية المتبقية نفس مصير عكا. فبعد أن أصبح أغلب عكا فى قبضة الأشرف ، أرسل يوم ١٩ مايو فرقة جنود كبيرة إلى صور التى كانت أقوى مدن الساحل ، منيعة أمام أي عدو يفتقد السيطرة على البحر ؛ وفيما مضى تسببت مرتين فى إحباط صلاح الدين. وقبل أشهر قليلة كانت الأميرة مرجريت ، التى تنتمى اليها المدينة ، قد سلّمتها لإبن أخيها ، أخى الملك ، أماليك. وكانت حاميتها صغيرة ، وما أن اقترب العدو حتى تملك الهلع وكيل أماليك ، آدم)أوف كارفان(، وأبحر هاربا إلى قبرص وتخلى عن المدينة دون قتال(٦٠). وفى صيدا قرر

(٥٨) *Gestes des Chiprois,* pp. 255-6; Bartholomew Cotton, p. 432; Ludolf of Suchem, *loc. cit.*; Sanudo, p.231. The Story is also told by Bar-Hebraeus, p. 493 (dated 1292)

(٥٩) Enlart, *Monuments des Vroisés,* ii, pp. 9-11; Etienne de Lusignan, *Histoire de Chypre,* fol. 90; Ludolf of Suchem (P.P.T.S. p. 61)

(٦٠) *Gestes des Chiprois,* p. 254; Sanudo, *loc. cit.*; al-Jazari, p. 6; Abu'l Feda, p. 164;

فرسان المعبد المقاومة . وكان تيبالد جودين حاضرا مع ثروة نظام فرسان المعبد ، وكان الفرسان الباقون على قيد الحياة قد انتخبوه سيدا أعظم ليخلف وليم أوف بوجو . ولقد تُركوا في هدوء لمدة شهر . ثم جاء جيش مملوكي عرمرم بقيادة الأمير الشجاعي . وكان الفرسان من القلة بحيث لا يستطيعون الإحتفاظ بالمدينة ، ولذا انسحبوا مع الكثير من وجهاء المواطنين إلى قلعة البحر التي بنيت على جزيرة صخرية على بعد مائة ياردة من الشاطئ ، تم ترميمها حديثا . وفي الحال أبحر تيبالد إلى قبرص لجمع الجنود لمساعدة القلعة ؛ لكنه بعدما أصبح هناك لم يفعل شيئا ، إمّا لجبنه أو ليأسه . وحارب فرسان المعبد الموجودون في القلعة ببسالة ، ولكن عندما بدأ مهندسو المماليك في بناء ممر مرتفع في البحر استيأسوا وأبحروا شمال الساحل إلى طرطوس. وفي ١٤ يولية دخل الشجاعي القلعة وأمر بتدميرها(٦١).

وبعد أسبوع ظهر الشجاعي أمام بيروت التي كان مواطنوها يعلقون الآمال على أن المعاهدة المعقودة بين السيدة إشيفا والسلطان سوف تحفظهم من الهجوم ؛ وعندما قام الأمير بتوجيه الأمر إلى قادة الحامية بالحضور للإعراب عن احترامهم له انصاعوا للأمر بقلق، لا لشئ سوى ليجدوا أنفسهم سجناء . ولا تستطيع الحامية أن تفكر في الدفاع في غيبة قوادها. فهرع أفرادها إلى سفنهم وولوا الأدبار حاملين معهم ما في الكتدرائية من آثار ، ودخل المماليك المدينة يوم ٣١ يولية . ولقد هدموا أسوارها وتحولت الكتدرائية إلى مسجد(٦٢).

وما أسرع ما احتل السلطان بعد ذلك حيفا دون مقاومة يوم ٣٠ يولية ، وحرق رجاله الأديرة على جبل الكرمل وقتلوا رهبانها . وما زال هناك قلعتا فرسان المعبد في طرطوس وفي عثليت ؛ ولم يكن في أي منهما الحامية ذات القوة الكفيلة بمواجهة الحصار ، فصار الجلاء عن طرطوس يوم ٣ أغسطس وعن عثليت يوم ١٤ من نفس الشهر . وكل ما بقي الآن لفرسان المعبد هو قلعة جزيرة إرواد على بعد حوالي ميلين

Maqrisi, *Sultans*, II, i, p.126.. وكانت مرجريت ما تزال سيدة صور في ١٢٨٩م *Gestes*, p.237، رغم أن *Gestes (ibid)* يتحدث عن أماريك باعتباره سيد صور في ١٢٨٨م . أنظر Hill, *op. cit.* p. 182 n. 5 .

(٦١) *Gestes des Chiprois*, pp. 256-7; *Annales des Terre Sainte*, p. 460; al-Jazari, p. 7; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 131; Abu'l Feda, *loc. cit*

(٦٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 257-8; al-Jazari, *loc. cit.*; Maqrisi, *loc. cit.*; Abu'l Feda, *loc. cit.*

من الساحل في مواجهة طرطوس ؛ وظلوا ماكثين هناك طوال اثنتى عشرة سنة أخرى ، ولم يجلوا عن الجزيرة إلا في سنة ١٣٠٢م عندما بدأت الشكوك تحوم حول مستقبل هذا النظام الديني العسكري(٦٣).

وراح جند السلطان لعدة أشهر يجوبون السواحل شمالا وجنوبا ، يدمّرون بعناية أي شئ قد يفيد الفرنج إذا ما حاولوا النزول على الشاطئ مرة أخرى ؛ فراحوا يقطعون أشجار بساتين الفاكهة ، ويفسدون أنظمة الري . والقلاع الوحيدة التي تُركت قائمة هي تلك القلاع البعيدة عن الساحل ، مثل قلعة جبل الحاج في طرابلس ، وقلعة المرقب على جبلها المرتفع . ولقد عمّ الخراب على طول البحر . وشاهد فلاحو المزارع - التي كانت ذات مرة غنية بالمزروعات - مزارعهم وقد دُمّرت ، فلاذوا بالجبال . وسارع من كان من أصل فرنجي إلى الإندماج في العنصر الوطني . وعومل المسيحيون الوطنيون معاملة أفضل قليلا من العبيد ؛ لقد انتهى ما كان للإسلام من تسامح كريم؛ ذلك أن مرارة الحروب الدينية الطويلة نالت من المنتصرين ، فلم يعد لديهم مكان للرحمة إزاء الكفار(٦٤).

ولم تكن جماعة المسيحيين التي هربت إلى قبرص بأفضل حالا ؛ فقد عاش جيل حياة بئيسة ، حياة اللاجئين غير المرغوبين ، وبمضى السنين تقلص العطف عليهم واستحال إلى تعاطف هزيل ؛ وكانت فائدتهم الوحيدة أنهم كانوا يذكّرون القبارصة بالكارثة المروعة ، ولم يكن القبارصة بحاجة إلى مذكّر . وطوال القرن التالي كانت سيدات الجزيرة العظيمات، عندما يخرجن من دورهن ، يرتدين العباءات السوداء فتغطيهن من الرأس إلى القدم . لقد كانت علامة الحداد على موت الشرق الفرنجي(٦٥).

---

(٦٣) *Gestes des Chiprois, p. 250; Annales de Terre Sainte, loc. cit.;* al-Jazari, p. 8; Maqrisi, *Sultans,* II, i, p.126; Abu'l Feda, *loc. cit.*

(٦٤) أنظر أدناه ص ٥٣٧.

(٦٥) Sanudo, p. 232; Cobham, *Excerpta Cypria,* pp. 17, 22. .

الباب الخامس:

خـــــلاصـة

الفصل الأول:

آخر الحملات الصليبية

آخر الحملات الصليبية

"والفاهمون من الشعب يُعلّمون كثيرين . ويعثُرون بالسّيف
وباللهيب وبالسّبي وبالنهب أياما"
(دانيال ١١ : ٣٣)

سقطت عكا ، وطُرد الفرنج من سوريا ، فبدأت الحركة الصليبية تتناءى عن نطاق السياسة الواقعية . وقبل ذلك بقرن، وبعد فتوحات صلاح الدين ، كان الفرنج ما يزالون يحتفظون بقلاع ضخمة في الأراضي الرئيسية ، صور وطرابلس وأنطاكية ؛ وكانت هناك قواعد يستطيع أي جيش مخلّص أن ينطلق منها . أما الآن فقد ضاعت القواعد ، ولم تكن جزيرة إرواد الصغيرة الجرداء عديمة القيمة ، ولذا كان لا بد من تنظيم تموينها عبر البحر ، من قبرص . ولم تبق هناك أراض مسيحية سوى مملكة أرمينيا في كيليكيا ؛ غير أن الرحلة من كيليكيا إلى سوريا كانت صعبة ، ولم يكن الأرمن في مجملهم موضع ثقة . ومرة أخرى ، جاء ضياع القدس عام ١١٨٧م صدمة مرعبة للعالم المسيحي ، وبالمثل جاء انهيار المملكة مباغتا. على أن الجميع كانوا يعلمون في ١٢٩١م أن مملكة الشرق الفرنجي كانت تتقوّض ؛ وأتى اختفاؤها بالحزن دون المفاجأة .

وتهيمن على أوروبا الغربية الآن مشاكل ومشاحنات داخلية ، ولذا لن تتأجّج جمرة الحميّا التي تدفع عواهل أوروبا إلى الشرق كما كان عليه الحال أيام الحملة الصليبية الثالثة ؛ ويستبعد كذلك أن تنطلق حملة شعبية ضخمة كالحملة الصليبية الأولى ؛ فشعوب الغرب تستمتع الآن بجوانب جديدة من الراحة والإزدهار ولن يستجيب لأي تبشير رؤيوي لأي فرد من أمثال بطرس الناسك استجابة لأسلافهم في ورع ساذج جهول قبل ذلك بقرنين من الزمان ، فلم تعد تقنعهما وعود الغفران الكنسي بعدما صدمهما استغلال الحرب المقدسة لأغراض سياسية . ولم يعد في الإمكان تنظيم حملة عسكرية ضخمة بعدما أحيلت الإمبراطورية البيزنطية إلى ظل باهت. لقد كانت نهاية الشرق الفرنجي نبأ محزنا ، لكنه لم يستفز رد فعل عنيف.

على أن البابا نيكولاس الرابع وحده أخذ يحيل أساه إلى عمل ؛ لكنه لم يجد من يلجأ إليه، وقد أصيبت هيبة البابوية بالشلل لإخفاق الحرب الصقلية ؛ فلم يعد الملوك يعبأون بتنفيذ الأوامر البابوية . وكان الامبراطور الغربي - الذى أفسد البابوات سلطته الدنيوية - مشغولا للغاية فى ألمانيا ؛ وإذا ما تحرك فلم يكن ذلك إلا القيام بحملة فى إيطاليا . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا مقتدرا ونشطا ، غير أنه بعدما انتشل مملكته من الحرب الصقلية ، راح ينفق طاقته فى دعم السلطة الملكية . وكان إدوارد ملك انجلترا غارقا إلى أذنيه في اسكتلندا . وفضلا عن ذلك ، كان التنافس الشديد بين انجلترا وفرنسا يزداد حدة وسرعان ما تولدت عنه حرب المائة عام . وكان عاهل أقوى قوة بحرية في البحر المتوسط ، ألا وهو جيمس الثانى ملك أراجون ، ومعه أخوه فريدريك المطالب بصقلية ، فى حرب مع عميل البابا تشارلز الثانى ملك نابولى الذى كان على استعداد كبير من الناحية النظرية للمساعدة فى أمر الحملة الصليبية، بيد أنه يتعين عليه أولا أن يطرد أبناء أراجون من صقلية . وفى الشرق ، كان الامبراطور البيزنطى فى شغل شاغل للتصدى للأتراك من ناحية، والتصدى لعاهلى البلقان الجديدين فى بلغاريا والصرب من ناحية أخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، كان الأنجفيون فى نابولى يأخذون على عاتقهم مطالب الأباطرة اللاتين الذين حرموا من أملاكهم . ولذلك ، لم يكن بوسع البابا ، راعيهم ، أن يأمل فى اكتساب تعاطف اليونانيين . وكانت المدن التجارية الإيطالية مشغولة للغاية فى تكييف سياساتها مع الظروف المتغيرة ولم يكن بوسعها أن تعد بأية وعود قد تسبب لها الحرج . أما ملكا قبرص وأرمينيا فكانا شديدى الاهتمام بالمشكلة وثيقة الصلة بهما؛ ذلك أن مملكتيهما كانتا فى خط المواجهة الآن ، وكان على واحدة منهما أو الأخرى أن تكون قاعدة لأية حملة صليبية جديدة . بيد أن الملكين

كانا حريصين بالغ الحرص على ألا يستفزا السلطان ؛ فكان على ملك أرمينيا أن يصارع الأتراك والمصريين ، وكان على ملك قبرص أن يجد حلا لمشكلة اللاجئين ؛ وزيادة على ذلك ، فإن البيتين الملكيين المترابطين الآن بروابط الزواج ، سرعان ما اضطربت أمورهما بالمشاحنات العائلية والحرب الأهلية . وبقى الخان فى فارس بمثابة حليف محتمل ؛ على أن الخان أرغون قد أصيب بخيبة أمل مريرة لفشله فى تحريك الغرب ليفعل شيئا قبل سقوط عكا ؛ ولن يقوم بشيء.وفى ١٢٩٥م ، وإثر موت أرغون، اتخذ الخان غزّان الإسلام دينا رسميا للخانية ، وتخلى عن ولائه للخان الأعظم فى الشرق ؛ وكان غزان صديقا ودودا للمسيحيين ، إذ أنه نشأ وتربى على يدي ديسبينا خاتون ، زوجة الخان أباغا الكريمة التى يحترمها الشرق كله ؛ ولم يقلل اعتناقه للإسلام بأى حال من كراهيته للمصريين والأتراك . ولم تعد هناك سفارات مغولية إلى روما ، وخبا الأمل فى أن تصبح فارس قوة مسيحية . وصحيح أن كان هناك مبعوث بابوي فى بكين ، وهو الأخ حون (أوف مونت كورفينو) ؛ وبرغم تمتع الأخ حون بصداقة الخان الأعظم قوبلاى ، إلا أن الخان فقد اهتمامه بشؤون الشرق الأدنى[١].

الافتقار إلى حلفاء

ولا يبقى سوى الأنظمة الدينية العسكرية التى تأسست كى تحارب من أجل العالم المسيحى فى الأراضى المقدسة، وما يزال ذلك هو واجبها الأول . وبعد سقوط عكا هجر النظام التيوتونى الشرق إلى ممتلكاته فى البلطيق[٢]؛ لكن نظام فرسان المعبد ونظام فرسان المستشفى أقاما مقريهما فى قبرص ؛ ولما كانا عاجزين هناك عن إنجاز مهامهما، فقد انصرفا إلى التوسط فى السياسات المحلية ؛ وربما كان باستطاعة البابا الإعتماد عليهما لتوفير المساعدة لأية حملة يرسلها؛ إذ أن ما لهما من هبات شاسعة فى سائر أنحاء

---

(١) Baluze, *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), iii, p. 150; Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 34-6; Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 193 ff.; Browne, *Literary History of Persia*, iii, p. 40. For John of Monte Corvino, see Atiya, op. cit. pp. 248-52.

(٢) انتقل مقر قيادة التيوتون الى البندقية سنة ١٢٩١م ، ومنها الى مارينبرغ Marienburg فى بروسيا سنة ١٣٠٩م . وللإطلاع على التاريخ اللاحق للنظام أنظر الفصل الذى كتبه Boswell فى تاريخ كامبريدج الوسيط. *Cambridge Medieval History*, vol. vii, pp. 248 ff.

أوروبا أثار من الغيرة ما قد يترتب عليه نتائج خطيرة ما لم يكن هناك ما يبررها . غير أن نظامي المعبد والمستشفى لا يستطيعان القيام بحملة صليبية بدون مساعدة[٣].

ولقد فشل البابا نيكولاس في إثارة الغرب بعد سقوط طرابلس ؛ وكان على نفس القدر من العجز بعد كارثة عكا التي تفوق كارثة طرابلس جسامة ، ولم يمنحه مستشاروه أية مساعدة ؛ وقد أيد تشارلز الثاني ملك نابولي اقتراحا طُرح منذ بضع سنين بدمج الأنظمة الدينية العسكرية لوضع حد للتنافس بينهم ، لكنه كان يعتقد أن القيام بعمل عسكري في الشرق من المحال في هذه اللحظة ، وإنما أيد ضرب حصار اقتصادي على مصر وسوريا ، لسهولته ولآثاره المدمّرة على السلطان[٤]. وكان ذلك أيضا أمرا غير عملي في الواقع ؛ إذ لن تتعاون في الحصار قط المدن التجارية الإيطالية ولا البروفنسالية في جنوب شرق فرنسا ولا الأراجونية ، إذ أن ازدهارها يتوقف على التجارة الشرقية التي يمر أغلبها في أراضي السلطان . وفي واقع الأمر، لو توقفت هذه التجارة لعجزت تلك المدن عن تسيير أساطيلها ، ولأصبح المسلمون يسيطرون على البحر المتوسط. وكان من حسن الحظ أن الصادرات الرئيسية التي كان المسيحيون يدفعون بها أثمان البضائع الشرقية تتألف من الأسلحة ؛ فهل كان الأمر يستحق حرمان أوروبا من المنافع الناتجة من كل هذا النشاط التجاري؟ لا بد وأن تعترض الكنيسة على هذا التبادل الشنيع للبضائع ؛ لكن المصالح التجارية باتت الآن أقوى من الكنيسة . ومات نيكولاس الرابع سنة ١٢٩١م وقد خابت آماله في مساعيه[٥].

ولم يحقق أيّ من خلفائه نتيجة أفضل . بيد أنه على الرغم من افتقاد الجنود لحملة صليبية إلا أن الشعور بخذلان العالم المسيحي ولّد موجة جديدة من الدعاية ؛ غير أن القائمين بالدعاية لم يعودوا هم المبشرون المرتحلون كما كان الأمر في الماضي، وإنما تولى ذلك الآن الأدباء الذين كانوا يكتبون الكتب والنشرات لتبيان الحاجة إلى حملة مقدسة، وكان لكل كاتب ملكه في خطته . وفي ١٢٩١م ، قام الأخ الفرنشيسكاني فيدينزو (أوف بادوا) وهو الذى اعتاد البابا فيما سبق على استخدامه في البعثات الدبلوماسية ، والذى ارتحل كثيرا في الشرق ، بنشر بحث يسمى كتاب استعادة الأرض المقدسة Liber de Recuperatione Terre Sancte، أهداه لسلفه نيكولاس الرابع . ويحتوى على

(٣) انظر أعلاه صفحة ٤٩٤ وما بعدها

(٤) Atiya, *op. cit.* pp. 35-6

(٥) *Ibid.* p.45

تاريخ متعمق للأراضى المقدسة ، مع مناقشة لنوع الجيش المطلوب لإستعادتها ، بدائل الطرق التى يتعين أن يسلكها هذا الجيش . وكان عملا إخباريا مقنعا ؛ غير أن فيدينزو افترض أن هناك جيشا متاحا وأن قائده سوف يختار الطريق اختيارا نهائيا[٦]. وفى العام التالى ١٢٩٢م ، نشر المدعو Thaddeus of Naples مقالا عن سقوط عكا ؛ وهو عمل روائى ينبض بالحياة ، موشّى باتهامات وافرة بالجبن لكل شخص كان هناك فعلا. وكان الأسلوب العنيف الذى استخدمه ثاديوس مقصودا يستهدف إلحاق العار بالغرب استفزازا له كي يُطلق حملة صليبية ؛ وأنهى كتابه بمناشدة عظمى للبابا والأمراء والمتدينين المخلصين كي ينقذوا الأرض المقدسة التى هي تراث المسيحيين[٧].

ريمـوند لُـلْ

كان لكتاب ثاديوس أثره اليقينى على الداعية الذى جاء بعده ، وهو من أبناء جنوا ويدعى جالفانى (أوف ليفانتى) ، الذى كان طبيبا فى البلاط البابوى . وكان كتابه الذى نشره سنة ١٢٩٤م ، وأهداه للملك فرنسا فيليب الرابع ، عبارة عن مزيج من التشبيهات المأخوذة عن لعبة الشطرنج ومواعظ باطنية ، وكان خلوا من الآراء العملية[٨]. أما الشخصية التى جاوزت الآخرين فى أهميتها فهى المبشر الأسبانى الكبير ريموند لُلْ ، الذى ولد فى مايوركا سنة ١٢٣٢م ، ورُجم حتى الموت فى بوجيه فى شمال إفريقيا سنة ١٣١٥م . وذاعت شهرته باعتباره صوفيًا ، وإن كان فى الوقت نفسه سياسيا عمليا. وكان يجيد اللغة العربية ودأب على الإرتحال فى البلاد الإسلامية . وفى سنة ١٢٩٥م تقريبا قدم للبابا مذكرة حول العمل المطلوب لمحاربة الإسلام ، وفى سنة ١٣٠٥م نشر كتابه (كتاب النهاية) Liber de Fine الذى فصّل فيه أفكاره وقدم برنامجا يُنتفع به ؛ فينبغى عنده للمبشرين المتعلمين تعليما جيدا أن يستميلوا المسلمين ، وبقدر الإمكان الكنائس المسيحية الهرطيقية والمنشقة، وإن كانت الحملة المسلحة ضرورية ، ويجب أن يكون قائدها ملكا Rex Bellator (الملك المحارب)، وينبغى لكافة الأنظمة الدينية العسكرية أن تتحد تحت قيادته فى نظام دينى عسكرى واحد جديد يكون بمثابة

---

(٦) *Ibid.* pp. 36-43.. وكتاب فيدينزو الذى نشره Golubovitch منشور فى *Biblioteca Bio - Bibliografica della Terra Sancta*, ii, pp. 9 ff

(٧) Atiya, *op. cit. pp. 31-4; The Hystoria de Desolacione* is edited by Riant

(٨) Atiya, *op. cit.* pp. 71-2 .

العمود الفقرى للجيش. ويقترح أن تطرد الحملة الصليبية المسلمين من اسبانيا ، ثم تعبر البحر إلى افريقيا وتتجه شرقا إلى تونس ومنها إلى مصر ؛ ثم ينادى بعد ذلك بحملة بحرية كذلك، مفترضا ضرورة الإستيلاء على جزيرتي مالطا وردوس لتكونا بمثابة قاعدتين لما لهما من موانى جيدة . ثم يفضل بعد ذلك فيما يبدو أن تنتزع الحملة البرية القسطنطينية من اليونانيين وترتحل عبر الأناضول . وهو ملئ بنصائح محددة حول تنظيم الجيش والأسطول ، وحول إمداد الطعام ومواد الحرب ، وكذلك حول تدريب المبشرين الذين يجب أن يصاحبوا الجيش. والكتاب مطول وأحيانا يناقض نفسه ، إلا أنه من وضع رجل ذى ذكاء ملحوظ وخبرة واسعة ، رغم أن موقفه إزاء المسيحيين الشرقيين يتسم بتعصب منفر[٩].

وفي الوقت الذى كتب فيه ريموند لل ، بدا أن هناك حملة صليبية وشيكة بالفعل؛ إذ أعلن فيليب ملك فرنسا عن رغبته في إطلاق حملة ، وجرى رسم الخطط ودراستها للتنفيذ فى كل من البلاط البابوى وباريس . ولم يكن واضحا بعد الدافع الحقيقى للملك فيليب قد تبين بعد ، ألا وهو انتزاع الأموال من الكنيسة بهذه التعلة الرائقة. وكان قد خرج لتوه ظافرا من نزاعه مع البابا بونيفاس الثامن الذى وجد أن الأسلوب الذى سبق أن دمر أسرة هوهينشتوفن لا يجدى مع عواهل الغرب الجدد . وكان البابا كليمنت الرابع قد انتخب سنة ١٣٠٥م وكان فرنسيا ، ورسخ بابويته فى أفينيون على حدود مملكة الملك الفرنسى ، ودأب على إظهار احترامه للملك . وسارع إلى جمع مذكرات يسترشد بها هو نفسه والملك كذلك[١٠].

مقترحات الحملة الصليبية

وخصصت أكثر هذه المذكرات إثارة للاهتمام لاطلاع الملك وحده . ذلك أن قانونيا فرنسيا، هو بطرس دوبوا ، قدم إليه رسالة اتفق على أن يطلع أمراء أوروبا على نصفها الذى يأمرهم بالإنضمام إلى الحركة تحت قيادة ملك فرنسا ، وبه بعض التوصيات حول الطريق الذى يُتّبع وطرق تمويل الحملة . وأوجبت الرسالة إلغاء نظام فرسان المعبد وضم ممتلكاته ، وإصدار تشريع بتحصيل ضريبة التركات من رجال

---

(٩) يورد Atiya, *op. cit.* pp. 74-94 مناقشة كاملة لحياة لل وأعماله فيما يتصل بالحملة الصليبية

(١٠) *Ibid.* p. 48 .

الدين. وأضاف كاتب الرسالة بعض المقترحات العامة حول الاتجاه إلى السماح للقساوسة بالزواج وتحويل الأديرة إلى مدارس للبنات . وكان النصف الثاني نصيحة خاصة للملك توضح له كيفية ضمان السيطرة على الكنيسة بالتضيق على مجمع الكرادلة ، وتحثه على إنشاء امبراطورية شرقية يجلس أحد أولاده على قمتها[١١]. وبعد ذلك مباشرة ، في سنة ١٣١٠م ، قام كبير المستشارين الدبلوماسيين للملك فيليب بإرسال مدونة عن الحملة الصليبية إلى البابا ، تحوى مقترحاتها استراتيجية ضئيلة ؛ وتركز في أساسها على كيفية التمويل . فكان على الكنيسة تقديم كل الأموال ، وكان إلغاء نظام فرسان المعبد هو أول بند من البنود[١٢]. وفي ذات الوقت كان البابا يطلب المشورة. وكان الأمير الأرميني هيثوم أو هايتون كوريكوس ، الذى تقاعد في فرنسا وأصبح رئيسا لدير رهبان برايمونستراتينسي بالقرب من بواتيه ، قد طلب منه أن يقدم آرائه . ونشر كتابه "زهرة تاريخ أراضي الشرق".Flos Historiarum Terre Orientis.سنة ١٣٠٧م الذى حقق انتشارا واسعا فور صدوره؛ وكان يضم إيجازا مجملا عن تاريخ الشرق ، مع مناقشة تنم عن اطلاع جيد على حالة الإمبراطورية المملوكية.وأوصى هايتون بحملة مزدوجة تذهب بحرا وتتخذ قاعدة لها في قبرص وفي أرمينيا . وأوصى بالتعاون مع أرمينيا وتحالف وثيق مع المغول[١٣]. وبعد ذلك بقليل ، أعرب الدبلوماسي البابوى وليم آدم عن آراء مماثلة ، وكان قد ارتحل إلى أماكن كثيرة في الشرق ثم ذهب إلى الهند ؛ وأضاف اقتراحا بضرورة أن يحتفظ المسيحيون بأسطول في المحيط الهندى ليقطع تجارة مصر الشرقية . كما كان يعتبر أنه ينبغي للاتين إعادة الإستيلاء على القسطنطينية[١٤]. وفي سنة ١٣١٢م قدم أسقف ميندى ، وليم دورانت، بحثا أوصى فيه بالطريق البحرى وركّز على عناصر تكوين الحملة وخاصة فيما يتعلق بمعنوياتها[١٥]. كما أن الأدميرال العجوز الجنوي بنيتو زاخاريا ، الذى كان ذات مرة قاضي قضاة طرابلس ، كتب آراءه فيما يتصل بالقوات البحرية المطلوبة[١٦].

---

(١١) *Ibid.* pp. 48-52; Hill, *op. cit.* ii, p. 239 .

(١٢) Atiya, *op. cit.* pp. 53-5 .

(١٣) Hayton's *Flos* is published in *Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens,* vol. ii. See Atiya, op. cit. pp. 62-4 .

(١٤) Atiya, *op. cit.* pp. 64-7 . وآراء آدم منشورة كمرفق لكتاب هايتون في *Recueil*.

(١٥) Atiya, *op. cit.* pp. 67-71 .

(١٦) *Ibid.* pp. 60-1. See Mas Latrie, *Documents,* ii, p. 129.

وكانت هناك مقترحات عملية أجدى، طرحها ثلاثة زعماء كان لهم أن يلعبوا دورا رائدا فى أية حملة صليبية . ذلك أنه فى سنة ١٣٠٧م كان السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى فى أفينيون ، وطلب منهما البابا كلمنت أن يعربا عن آرائهما؛ فأرسل الأول - جيمس (أوف مولاى) - من فوره تقريرا أوصى فيه بعملية مسح أولي للبحار بواسطة عشرة غلايين كبيرة ، يعقبها جيش لا يقل عن اثنى عشر إلى خمسة عشر ألف خيّال وأربعين إلى خمسين ألف جندى مشاة . ولن يجد ملوك الغرب صعوبة في جمع هذه الأعداد ، ويتعين إقناع الجمهوريات الإيطالية بتوفير وسائل النقل. وأعرب عن عدم موافقته على الهبوط في كيليكيا ؛ وإنما يتعين أن تتجمع الحملة فى قبرص وتهبط على الساحل السورى(١٧). وبعد ذلك بأربع سنوات ، وفي وقت انعقاد مجمع فيينا ، كتب السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، فولك أوف فيلاريت ، إلى الملك فيليب يخبره بالترتيبات التى اتخذها نظامه الدينى العسكرى وغيرها من الترتيبات التى يستطيع أن يقوم بها من أجل الحملة الصليبية(١٨). وفي نفس الوقت قدم هنرى الثانى ملك قبرص آراءه إلى المجمع . وكان يرغب فى ضرب حصار اقتصادى على الإمبراطورية المملوكية . وأعرب عن عدم ثقته فى الجمهوريات الإيطالية ، بأسباب مقنعة ، وحث على ألا تعتمد الحملة الصليبية عليها فى النقل البحرى . وكان مؤيدا لهجوم على مصر باعتبارها المنطقة الأيسر اختراقا من بين المناطق التابعة للسلطان(١٩).

وبعد كل تلك المذكرات وكل ذلك الحماس ، أخذت الجميع المفاجأة وخيبة الأمل - عدا الملك فيليب - لعدم القيام بحملة صليبية ؛ فقد حقق فيليب هدفه الرامى إلى وجود ذريعة لجمع المال من الكنيسة ؛ وسرعان ما كشف عن آرائه الحقيقة بهجوم على منظمة كبيرة تعتبر مساعدتها شيئا أساسيا للحملة الصليبية(٢٠).

١٣٠٨م : فرسان المستشفي يحتلون جزيرة رودس

إن ضياع الشرق الفرنجى ترك الأنظمة الدينية العسكرية فى حالة من عدم اليقين .

---

(١٧) Baluze, *op. cit.* ii, pp. 145 ff.

(١٨) Delville le Roulx, *France en Orient,* ii, pp. 3-6.

(١٩) Mas Latrie, *Documents*, ii, pp. 118-25; Atiya, *op. cit.* pp. 58-60.

(٢٠) Atiya, *op. cit.* pp. 53, 73.

وقد وجد فرسان التيوتون حلا لمشكلتهم بتركيز كل طاقتهم لغزو البلطيق[٢١]. غير أن نظامي فرسان المعبد والمستشفى وجدا نفسيهما في قبرص مقيّدين بقيود معينة وبلا ترحيب . وبدأ نظام فرسان المستشفى ، الأكثر حصافة من المعبد ، في البحث عن وطن جديد. وفي ١٣٠٦م جاء إلى قبرص قرصان جنوي ، فينيرلو دي فينولي ، وكان قد استأجر جزيرتي كوس و ليروس من الأمبراطور البيزنطي أندرونيكوس ، واقترح على السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، فولك (أوف فيلاريه) ، أن يشتركا معا في غزو جزر أرخبيل دوديكانيسيا كلها وتقسيمها بينهما ، على أن يحتفظ هو بثلثها. وبينما أبحر فولك إلى أوروبا للحصول على تأييد البابا على الخطة ، رسا على ساحل جزيرة رودس أسطول صغير لفرسان المستشفى ، تساعده بعض غلايين جنوا ، وبدأ في إخضاع الجزيرة شيئا فشيئا . وحاربت الحامية اليونانية ببسالة ، ولم تسقط قلعة فيليرمو الضخمة في يد الغزاة سنة ١٣٠٦م إلا بالخيانة ، وصمدت مدينة رودس لسنتين أخريين. وأخيرا ، حدث في صيف سنة ١٣٠٨م أن أرسلت القسطنطينية بغليونا يحمل التعزيزات للحامية ، لكن عاصفة دفعته إلى فاماجوستا في قبرص حيث استولى عليه فارس قبرصي يدعى فيليب الأصفر الذي أخذه مع ركابه وسلّمه للمحاصرين . ولكي ينقذ قائد الحامية حياته ، وكان من أبناء رودس، وافق على التفاوض على استسلام المدينة التي فتحت أبوابها لنظام فرسان المستشفى يوم ١٥ أغسطس . وعلى الفور أقام نظام المستشفى مقره في الجزيرة ، وجعل من المدينة وميناءها الرائع أقوى قلعة في الشرق . وهلّل الغرب لذلك الغزو - الذى تحقق على حساب يونانيين مسيحيين باعتباره نصرا صليبيا مؤزرا ؛ وقد أعطى هذا النصر بالفعل قوة جديدة لنظام المستشفى الديني العسكري ، كما منحه الوسيلة لمواصلة مهمته الموكل بها إليه . بيد أنه كان على أهالي رودس البؤساء أن ينتظروا لأكثر من ستة قرون ليستعيدوا حريتهم[٢٢].

أما نظام فرسان المعبد فكان أقل إقداما وأقل حظا ؛ وكان دائما أكثر إثارة للعداوة من نظام المستشفى . وإن كان هو الأكثر غنى ، وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسي ومقرض الأموال في الشرق ، يحقق النجاح في مهنة لا تلهم المودّة ، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأنانية والإستهانة . وبرغم شجاعة فرسانه في قتالهم وقت الحرب ، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيجة قربى بين فرسانه والمسلمين ؛ واتخذ الكثير

---

(٢١) أنظر أعلاه ص ٢٣٩.

(٢٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 319-23; Delaville le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte*, pp. 273-9, Amadi, pp. 254-9

من الفرسان أصدقاء مسلمين ، واهتموا بالديانة والعلم الإسلاميين. وذاعت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلاعه فلسفة خفية، وأنه كان ينخرط فى طقوس ملطّخة بالهرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تجديفيّة يعوزها الاحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة. ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها اختلاقات من الأعداء لا أساس لها. وبما كان في تلك الشائعات ما ينبى عما يكفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام[٢٣].

١٣٠٨م : محاكمة نظام المعبد الدينى العسكرى

وعندما ذهب جيمس (أوف مولاى) إلى فرنسا سنة ١٣٠٦م لمناقشة البابا كلمنت فى شأن الحملة الصليبية المتوقعة ، سمع عن اتهامات موجّهة إلى نظامه الدينى العسكرى، فطلب إجراء تحقيق عام ؛ وتردد البابا الذى تحقق من أن الملك فيليب قد عقد العزم على إلغاء النظام ، ولم يجرؤ على الإساءة إلى الملك . وفى أكتوبر ١٣٠٧م قام الملك فيليب فجأة باعتقال جميع أعضاء النظام الموجودين فى فرنسا وحاكمهم بتهمة الهرطقة التى ساقها فارسان من ذوى السمعة السيئة كانا قد طُردا منه . وأدلى المتهمون بالاعترافات تحت التعذيب ، ورغم أن القليل منهم أنكر التهم كلها ، أقبل أغلب المتهمين على الإقرار بما طلب منهم. وفى الربيع التالى ، وبناء على طلب الملك فيليب ، أمر البابا بأن يقوم كل حاكم يوجد فى الأراضى التابعة لسلطته أية ممتلكات لنظام المعبد الدينى العسكرى باعتقال أعضاء النظام والبدء فى محاكمة مماثلة ؛ وبعد شئ من التردد استجاب مختلف ملوك أوروبا فيما عدا دينيس البرتغالى الذى لم يكن ليدخل فى هذا الأمر المؤسف . وفى غير ذلك المكان صودرت ممتلكات نظام المعبد ، واقتيد الفرسان ليمثلوا أمام المحاكم . ولم يكن التعذيب يستخدم دائما ، ولكن كان هناك استجواب ثابت . وكان المتهمون يعرفون أنه يُنتظر منهم أن يعترفوا ، وقد اعترف

(٢٣) توجد مناقشة استدلالية حول السمعة الشائهة لنظام فرسان المعبد الدينى العسكرى أوردهاMartin فى مؤلفه (محاكمة فرسان المعبد *The Trial of the Templars*, pp. 18-24, 46-50) وتسبيت فضيحة محاكمتهم الجائرة فى أن يميل المؤرخون إلى رفع اللوم عنهم كليّة ، غير أنه من الواضح أن الريب التى حامت حول عاداتهم لم تكن بلا أساس تماما . وقد نشر Lizerand المستندات والمصادر ذاتِ الصلة فى مؤلفه (إضبارة مسألة فرسان المعبد *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*) وتعتبر آخر مؤرخة لهم ، الآنسة ميلفين Mlle Melvin، متعاطفة معهم للغاية فى مؤلفها حياة فرسان المعبد (*La Vie des Templiers*, pp. 246 ff.)

الكثير منهم(٢٤).

وكان تعاون حكومة قبرص يمثل جانبا خاصا من اهتمامات البابا ؛ إذ كان مقر النظام يقع في الجزيرة . بيد أن حاكم الجزيرة الآن هو شقيق الملك هنرى الثانى ، أماريك ، الذى تمكن بمساعدة نظام المعبد من تنحية الملك مؤقتا عن سلطاته ووصل رئيس الراهب هايتون من أفينيون فى مايو ١٣٠٨م يحمل خطابا من البابا يأمر فيه باعتقال كافة الفرسان على الفور إذ اتضح أنهم كافرون . وتلكأ أماريك فى تنفيذ الأمر مما أتاح للفرسان الوقت للإستعداد للدفاع عن أنفسهم بقيادة مارشالهم آيمى (أوف أوسيلير) ؛ على أنه بعد تناوش مسلح قصير استسلموا فى أول يونية. وكانوا قد أخفوا جزءا ضخما من ثروتهم بعناية شديدة بحيث لم يُسترجع أبدا ؛ ونُقل الجزء الباقى من ثروتهم من ليماسول إلى بيت أماريك فى نيقوسيا ، ووضع الفرسان تحت الحراسة فى كيروكيتيا ويورماسويا أول الأمر ثم فى ليفكارا ، حيث ظلوا ثلاث سنوات. وفى مايو ١٣١٠م ، وبعد عودة الملك هنرى الثانى إلى السلطة ، حوكم فرسان المعبد القبارصة نظرا لإصرار البابا على ذلك وبغاية السرعة . وقد سبق لكثير من إخوانهم أن حُرقوا فى فرنسا ، وفى سائر أنحاء أوروبا كان أعضاء النظام يسجنون أو يجردون من كل ما يملكون . ولم يكن الملك هنرى يشعر بالرضا حيال الفرسان الذين خذلوا قضيته قبل سنوات قليلة، بيد أنه أتاح لهم محاكمة عادلة . وتم توجيه الإتهام إلى ستة وسبعون فارسا منهم ، وانكروا جميعا تلك التهم ؛ وأقسم شهود بارزون على براءتهم ، وأعلن واحد من شهود قليلين معادين لهم أنه لم تأخذه الريبة فيهم إلا بعد سماع رواية البابا عن جرائمهم . وبرئت ساحتهم كليّة . وعندما وصلت أنباء براءتهم إلى أفينيون ، كتب البابا مغاضبا إلى الملك هنرى لإجراء محاكمة ثانية ؛ وأرسل مندوبا بابويا شخصيا ، دومينيك باليسترينا ، للتأكد من إنفاذ العدالة التى أمر بها البابا . وأعيدت المحاكمة سنة ١٣١١م ، لكن نتيجتها غير مسجّلة .وكان البابا كلمنت قد أمر – إذا ما أحدق خطر تبرئة ثانية – بأن يتدبر دومينيك الحصول على مساعدة الرهبان الدومينيكان والفرنشيسكان فى اللجوء إلى التعذيب ؛ وقد أُرسل المندوب البابوى فى الشرق ، بطرس أسقف روديز ، إلى قبرص لمساعدة دومينيك فى مساعيه . ولذلك احتفظ الملك بحكمه على مايبدو وأبقى المتهمين فى السجن . وكانوا لا يزالون فى السجن فى سنة ١٣١٣م ، عندما وقف بطرس أسقف روديز أمام جميع أساقفة الجزيرة

(٢٤) Martin, *op. cit.* pp. 28-46; Melvin, *op. cit.* pp. 249-57.

وكبار رجال الدين فيها وقرأ عليهم مرسوم البابا المؤرخ فى ١٢ مارس ١٣١٣م ، بإلغاء النظام كله وتسليم كافة ثرواته وممتلكاته لنظام فرسان المستشفى ، بعد تعويض السلطات المدنية عما تكبدته من مصروفات فى شتى المحاكمات . ووجد الملوك فى سائر أنحاء أوروبا أن هذه المصروفات مرتفعة على نحو كبير ؛ ولم يتسلم نظام فرسان المستشفى سوى جزء ضئيل من الممتلكات الفعلية . ولم يُفرج عن قادة فرسان المعبد فى قبرص أبدا ؛ بيد أنهم كانوا أسعد حظا من سيدهم الأعظم الذى بعدما أمضى سنوات فى السجن والتعذيب وفى الإدلاء بكثير من الإعترافات والتراجع عنها، أحرق حتى الموت فى باريس فى مارس ١٣١٤م[٢٥].

أزيل فرسان المعبد من قبرص وهاجر فرسان العبد إلى رودس ، فباتت المملكة القبرصية الحكومة المسيحية الوحيدة المهتمة فعليا بالأراضى المقدسة . وكان الملك ملكا للقدس من الناحية الإسمية ؛ وظل الملوك لأجيال كثيرة لاحقة يتوجون بالتاج القبرصى فى نيقوسيا ثم يُتوجون بتاج القدس فى فاماجوستا ، وهى المدينة الواقعة على أقرب مسافة من أراضيهم المفقودة . وفضلا عن ذلك ، كان الساحل السورى ذا أهمية استراتيجية لقبرص ؛ إذ أن وجود عدو شرس فى سوريا خليق بأن يجعل وجودها نفسه معرضا للخطر . ولحسن الحظ ، كان السلطان يخشى حملة صليبية جديدة ولذا بقيت الموانى السورية دون الإستفادة بها ، وفضّل أن يتركها هكذا مهجورة . ومع ذلك ، ظلت قبرص فى خطر دائم من مصر . ولمّا كان الملك هنرى يعتقد أن الهجوم خير وسائل الدفاع ، فقد أرسل فى سنة ١٢٩٢م خمس عشرة غليونا يساعدهم عشرة غلايين من البابا ، للإغارة على الإسكندرية . بيد أنه كان جهدا عقيما ، ولم تكن له من نتائج سوى تصميم الأشرف على غزو قبرص ؛ وعندما أمر ببناء مائة غليون صاح قائلا "قبرص ، قبرص ، قبرص"، غير أنه كانت لديه مخططات أخرى أكبر . فينبغى أولا اقتلاع المغول والإستيلاء على بغداد . وشعر أمراؤه بالخطر من طموحاته فاغتالوه يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٢٩٣م ؛ وكان اغتياله بمثابة جائزة بائسة للأمير الشاب ذى العزم ، الذى أتم ما بدأه صلاح الدين ونظّف سوريا من بقايا الصليبيين الأخيرة[٢٦].

---

(٢٥) Hill, *op. cit.* ii, pp. 232-6, 270-4

(٢٦) *Gestes des Chiprois,* pp. 61-2; Thaddeus, p. 43; Sanudo, p. 283; Wiet, *L'Egypte Arabe,* p.461

١٢٩٩-١٣٠٨م : المغول يغزون سوريا ثانية

كان الأشرف مصيبا في ألا يغفل عن المغول . ففى سنة ١٢٩٩م ، وفى عهد المملوك السلطان الناصر محمد، الذى لم ينعم بفترة سلام فى كثير من الأحوال، زحف غزان المغولى - الذى غير لقبه من الخان إلى السلطان - على سوريا غازيا واجتث شأفة قوات الدفاع المملوكى فى سلامية القريبة من حمص يوم ٢٣ ديسمبر . وفى يناير ١٣٠٠م استسلمت له دمشق واعترفت بسيادته ؛ ورجع إلى فارس فى الشهر التالى معلنا أنه سرعان ما سيعود لغزو مصر . وعلى الرغم من أن غزان كان مسلما إلا أنه فكان يرحب بالتحالف مع مسيحيين. وسارع ريموند لُلْ إلى سوريا فور سماعه بأنباء غزوه لسوريا ، لكنه وصل بعد مغادرة غزان لسوريا ، فعاد إلى قبرص والتمس من الملك مساعدته فى الذهاب فى بعثة تبشيرية إلى الحكام المسلمين . وتجاهل الملك هنرى طلبه هذا ، لأنه لم يوافق على أن افضل وسيلة لكسب صداقة الكفرة هى كشف أخطائهم لهم ، والأجدى اتباع نهج دبلوماسي ، غير أنه لم يتم شئ ، وانتهت الفرصة عندما هُزم الجيش المغولى سنة ١٣٠٣م عند مرج السفر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، فى سنة ١٣٠٨م ، دخل غزان سوريا مرة أخرى ، وتوغل هذه المرة حتى القدس. وأشيع عنه أنه كان على استعداد لتسليم المدينة المقدسة للمسيحيين إذا عرضت عليه أية دولة مسيحية التحالف معه . وفى ذلك الوقت كان البابا وفيليب ملك فرنسا يرفعان عقيرتهما بالدعاية لحملتهما الصليبية المزمعة ، ورغم ذلك لم ترد للمغول أية عروض من الغرب ، بينما تسببت المشاحنات بين الملك هنرى وأخيه فى تحويل قبرص إلى دولة عاجزة . وعلى أية حال ، ربما وجد غزان - الذى حسُن إسلامه بعد تحوله اليه - صعوبة تنفيذ مثل ذلك الوعد(٢٧). وبوفاته سنة ١٣١٦م ، تبددت فرص وجود تحالف مغولى مع المسيحيين . أما ابن أخيه وخليفته أبو سعيد ، فقد غيّر اتجاهه نحو المصالحة مع مصر . وكان آخر الحكام المغول العظام الذين حكموا فارس ؛ وبعد وفاته سنة ١٣٣٥م بدأت الخانية الأولى تتفكك(٢٨).

وعلى الرغم مما كان يبدو من عزلة مملكة قبرص ، فلم يكن هناك من خطر عاجل

---

(٢٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 296-306; Hill, *op. cit.* ii, pp. 212-15; Atiya, *op. cit.* pp. 90-1. أما المؤرخ Felix Fabri ، الذى كتب بعد ذلك بقرنين تقريبا ، فيذكر رواية أسطورية عن الإمبراطور التترى الطيب "كازانوس" Casanus الذى كان - بحسب قوله - مسيحيا عرض إعادة القدس الى المسيحيين. trans. Stewart, P.P.T.S. vol.x, pp. 372-8

(٢٨) Brown, *op. cit.* iii, pp. 51-61.

يتهددها ؛ إذ لم يكن لدى السلطان ، حتى بعدما ذهب عنه ما يشغله عن المغول ، ما يكفى من القوة البحرية للمجازفة بالحملة على الجزيرة ؛ ولم يكن راغبا فى الإساءة إلى الجمهوريات الإيطالية ، إذ أنه كان يكتسب هو الآخر منافع كبيرة من تجارتهم . وقد انتزع إرواد من فرسان المعبد سنة ١٣٠٢م ، وكان حريا بأن يترك قبرص وشأنها لولا أنها باتت قاعدة لحملة صليبية جديدة ؛ وحاولت الحكومة القبرصية من جانبها ، بقدر ما تسمح به الطبائع الشخصية والأسر الحاكمة ، أن تكون على علاقة وثيقة بملوك أرمينيا فى كيليكيا ، ومع ملكي أراجون وصقلية ، الذين كانت أساطيلهما تفرض الاحترام[٢٩].

بعد أن خبت جذوة حديث الغزو الصليبي الذى أوحى به فيليب ملك فرنسا ، كانت هناك فترة هدوء. غير أن فيليب السادس أعاد الحياة إلى هذا الحديث سنة ١٣٣٠م . وكانت نواياه تتصف الإخلاص البالغ على خلاف نوايا عمه ، وشجّع نواياه تلك البابا جون الثاني والعشرون. ومرة أخرى قدمت المذكرات إلى البلاطين البابوي والملكى ؛ وكتب طبيب ملكة فرنسا ، جوى (أوف فيجيفانو) ، مقالا موجزا عن الأسلحة المطلوبة[٣٠]. وكان هناك برنامج أطول وأكثر تفصيلا أرسله إلى الملك المدعو بوركارد ، وهو كاهن كان يعمل فى كيليكيا من أجل ضمان ضم الكنيسة الأرمينية إلى روما . وكانت مقترحات بوركارد كثيرة ، لكنها عقيمة ؛ إذ أنه أظهر عداوة للمسيحيين الإنشقاقيين والهراطقة تفوق عداوته للمسلمين ، واعتبر أن غزو الصرب وبيزنطة الأرثوذكسيتين جزء أساسى فى أية حملة صليبية . ولم تناقش مخططاته لإختبارها . وقبل أن تنطلق أية حملة صليبية كان ملك فرنسا مشغولا باندلاع حرب المائة عام مع انجلترا[٣١].

وفى تلك الأثناء كان هناك برنامج أحدى ، لا يتطلب أية حملة عسكرية ضخمة ، نشره المؤرخ مارينو سانودو Marino Sanudo الذى كان احد أفراد بيت دوقية جزيرة ناكسوس[٣٢]، وكانت الدماء اليونانية تجرى فى عروقه، وكان مراقبا فطنا ورائدا فى

---

(٢٩) *Gestes des Chiprois,* p. 309, dating the capture of Ruad 1303; Sanudo, p.242, dating it 1302. See Hill, *op. cit.* ii, pp. 215-16

(٣٠) Atiya, *op. cit.* p. 96.

(٣١) *Ibid.* pp. 96-113.

(٣٢) (المترجم) جزيرة ناكسوس: Naxos أكبر الجزر فى مجموعة Cyclades اليونانية جنوب بحر إيجة

علم الإحصاء . وكان مؤلفه Secreta Fidelium Crucis ، الذى ظهر سنة ١٣٢١م تقريبا، يضم تاريخا للحملات الصليبية ، مصطبغا نوعا ما بمقاصد القائمين على الدعاية، لكنه يتصل في أغلبه بمناقشة مفصّلة لوضع الشرق الإقتصادى . وكان يرى أن السبيل الأنجع لإضعاف مصر يكمن فى حصار اقتصادى ، غير أنه تحقق من استحالة منع التجارة الشرقية فجأة ؛ إذ يجب العثور على طرق ومصادر إمدادات بديلة . وكان تحليله متعمقا ، وتميزت اقتراحاته ببعد النظرة والشمول . ولسوء الحظ ، ليس هناك من سبيل لتنفيذها إلا إذا تعاونت كافة القوى الأوروبية ، وهو الأمر الذى يستحيل تحقيقه الآن(٣٣).

١٣٥٩م : استخلاف بطرس الأول القبرصي

وفى واقع الأمر ، كانت هناك محاولة وحيدة لإنقاذ الأراضى المقدسة من الكفرة . ففي سنة ١٣٥٩م اعتلى بطرس الأول عرش قبرص ؛ وكان أول عاهل بعد القديس لويس الفرنسى تتحرق رغبته العارمة ليقاتل فى حرب مقدسة. وكان قد أنشأ وهو شاب نظام فروسية جديد أطلق عليه اسم فرسان السيف بهدف واحد معروف ألا وهو استعادة القدس ، واجترأ على سخط والده الملك هيو الرابع ومحاولة السفر إلى الغرب للفوز بمجندين لحملته الصليبية . ودارت حروبه الأولى بعد اعتلائه العرش ضد أتراك الأناضول حيث اكتسب موطئ قدم بحصوله على غابة كوريكوس من الأرمن. وفى سنة ١٣٢٦م انطلق فى جولة عامة فى العالم المسيحي لتعزيز هدفه ؛ وبعد زيارته لجزيرة رودس حيث حصل على وعود بالمساعدة من فرسان المستشفى ، أبحر إلى البندقية ومكث فيها إلى ما بعد بداية العام الجديد ١٣٦٣م . وأبدى البنادقة تعاطفهم رسميا مع مخططاته . وبعد زيارته لميلانو ، ذهب إلى جنوا حيث انشغل بتسوية خلافات بين مملكته وجمهورية جنوا، وفاز بموازرة يعوزها الوضوح من أبناء جنوا .ووصل أفينيون يوم ٢٩ مارس ١٣٦٣م ، أي بعد أشهر قليلة من انتخاب البابا إيربان الخامس. وكانت مهمته الأولى هي حماية حقه في عرشه من هيو أمير الجليل ابن أخيه الأكبر المتوفى. وحصل هيو على تعويض في صورة راتب تقاعدى سنوى قدره خمسين ألف بيزانت . وبينما كان في أفينيون ، زار المدينة جون الثانى ملك فرنسا ووعده بتعاونه

---

(٣٣) *Ibid.* pp. 114-27; Hill, *op. cit.* iii,p. 1144 . وترد نشرة Sanudo الوحيدة فى Bongars, *Gesta Dei per Francos*, vol. ii.

الوثيق ، وأخذ الملكان الصليب معا فى إبريل ومعهما الكثير من النبلاء الفرنسيين والفبارصة ؛ وفي ذات الوقت كان البابا يبشر بالحرب المقدسة وعيّن الكاردينال تاليراند مندوبا بابويا. ثم قام بطرس بجولة طاف فيها بفلاندرز وبرابانت والراينلاند[٣٤]. وفى أغسطس ذهب إلى باريس لمقابلة الملك جون مرة أخرى.

١٣٥٦م : الملك بطرس يخطط حملته الصليبية

وقررا أن تنطلق الحملة في شهر مارس التالى . وغادر بطرس باريس قاصدا مدينتي روين وكاين فى شمال غرب فرنسا وأبحر إلى انجلترا . وأمضى شهرا تقريبا فى لندن حيث أقيم احتفال ضخم ومسابقات الفروسية على شرفه فى سميثفيلد . وأهداه الملك إدوارد الثالث سفينة جميلة تدعى كاثرين وأموال لتغطية ما تكبده مؤخرا من مصروفات ؛ ولسوء الحظ سُرقت منه الأموال وهو فى طريق عودته إلى الساحل . وعاد إلى باريس لتمضية أعياد الميلاد ثم اتجه جنوبا إلى اقليم أكيتان لمقابلة الأمير الأسود فى بوردو[٣٥]. وأثناء وجوده هناك تلقى فى أسى نبأ موت الكاردينال تاليراند فى يناير ١٣٦٤م ، ثم موت الملك جون الفرنسى فى شهر مايو . وذهب إلى سانت دنيس للمشاركة فى جنازة جون ، ثم إلى ريم لحضور تتويج خليفته تشارلز الخامس ، ثم ذهب إلى ألمانيا حيث عرض فرسان ومواطنو مدينتي إيسلنجن وإيرفورت الإنضمام إلى حملته الصليبية ، غير أن مارجريف دوق فرانكونيا ورودولف الثانى دوق ساكسونى ، وبرغم استقبالهما له بمراسم التشريف ، قالا إن قراريهما يتوقف على الامبراطور ؛ ولذا ذهب مع رودولف إلى براغ حيث يقيم الامبراطور تشارلز الذى أكد له حماسه ودعا بطرس لمصاحبته إلى كراكو حيث كان على وشك أن يعقد مؤتمرا مع ملكي هنجاريا وبولندا . وهناك اتّفق على إرسال بيان إلى كافة أمراء الإمبراطورية يدعوهم إلى التعاون فى الحرب المقدسة . وبعد أن زار بطرس فيينا ، حيث وعده رودولف الرابع دوق النمسا بمزيد من المساعدة ، عاد إلى البندقية فى نوفمبر ١٣٦٤م. وكان جنوده قد ساعدوا البنادقة مؤخرا فى قمع تمرد فى جزيرة كريت ، ومن ثم استقبلته البندقية بأسمى آيات

---

(٣٤) (المترجم) فلاندرز :Flanders إقليم شمال غرب أوروبا على بحر الشمال يضم جزءا من شمال غرب فرنسا وأجزاء من بلجيكا . برابانت :Branbant دوقية سابقة فى غرب أوروبا نشأت فى أواخر القرن الثانى عشر ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠م قسّمت بين هولاندا وبلجيكا . راينلاند :Rhineland الجزء من ألمانيا الواقع غرب نهر الراين

(٣٥) (المترجم) الأمير الأسود : Black Prince إسم لأمير ويلز ، إبن إدوارد الثالث ١٣٣٠-١٣٧٦م.

التشريف، ومكث هناك حتى نهاية يونية ١٣٦٥م . وأثناء تواجده هناك وقّع على معاهدة مع جنوا بتسوية كافة الخلافات المامة[٣٦].

وفي تلك الأثناء كان البابا إيربان يكتب بهمة لا تعرف الكلل إلى أمراء أوروبا يحثهم على الإنضمام إلى الحملة ؛ وتعززت جهوده بنشاط جديد أضفاه عليها المندوب البابوى الجديد إلى الشرق بطرس (أوف ساليحناك دى توماس) وهو البطريق الإسمى للقسطنطينية ، الذى يتميز بشدة حرصه على التماسك ، ومعارضته للإنشقاقيين وللهراطقة وللكفار ، ويتميز بولاء حاز احترام حتى من كان يضطهدهم . وكان يعمل معه تلميذه فيليب (أوف ميزيير) ، وهو صديق حميم للملك بطرس ، الذى عيّنه مستشارا لقبرص . ما اجتمعوا عليه و لم يسفر من نشاط عن أعداد المجندين التى كان يتوقعها الملك بطرس وتلقى بها الوعود ؛ فلم يتقدم أحد من الألمان ، ولا أحد من كبار نبلاء فرنسا أو انجلترا أو الأراضى المجاورة ، بخلاف إيمى كونت جنيف و وليم روجر فيكونت تورين وإيرل هيريفورد . على أنه كان هناك الكثير من الفرسان الأقل شأنا الآتين من أماكن قصيّة كاستكتلاندا ؛ وقبل أن يغادر الملك بطرس البندقية ، تجمع هناك جيش كبير مخيف. لقد كان الإسهام البندقى مفيدا على نحو خاص ، إلا أن جنوا بقيت متنائية[٣٧].

ولقد تقرر أن تتجمع الحملة الصليبية في رودس فى أغسطس ١٣٦٥م ، وبقيت محطتها التالية سرا ؛ فلو أن بعض تجار البندقية أخبر المسلمين لكان هناك خطر جسيم. ووصل الملك بطرس إلى رودس في وقت مبكر من الشهر ، وفى الخامس والعشرين أبحر الأسطول القبرصى كله ودخل المرفأ ، وكان قوامه مائة وثمانى سفن من كافة أنواعها ، غلايين وسفن نقل وسفن تجارية وزوارق خفيفة ؛ وبإضافة ما قدمته البندقية وفرسان المستشفى من غلايين ضخمة ، بلغ عدد سفن الأسطول كله مائة وخمس وستين سفينة، كانت تحمل جيشا كاملا من الجنود مع جياد وفيرة ومؤن وأسلحة ؛ ومنذ الحملة الصليبية الثالثة لم تخرج حملة تتناسب مع حجم هذا الجيش إلى الحرب المقدسة ؛ وعلى الرغم من خيبة الأمل لغيبة عواهل الغرب العظام ، كانت هناك ميزة فى المقابل ألا وهى أن الملك بطرس كان القائد بلا منازع . وفى أكتوبر كتب لمليكته إلينور الأراجونية بأن كل شئ على أهبة الإستعداد ، وفى الوقت نفسه أصدر أمرا إلى جميع رعاياه فى سوريا

---

(٣٦) للإطلاع على رحلة بطرس أنظر Atiya, *op. cit.* pp.330-7; Hill, *op. cit.* ii, pp. 324-7

(٣٧) Atiya, *op. cit.* pp. 337-41.

بالعودة إلى الوطن مانعا إياهم مـن المتـاجرة هنـاك . كـان يريـد أن يُظـن أن هدفـه هـو سوريا[٣٨] .

١٣٦٥م : الحملة تهاجم الإسكندرية

بعدما اتّخذ القرار بمهاجمة السـلطان ، كـان اختيـار الإسـكندرية كهـدف اختيـارا ذكيّا . ذلك أنه من غير المجدى غزو سـوريا أو فلسـطين بـدون قـاعدة علـى السـاحل ، وكان المصريون قد دمروا الموانى هناك عمـدا باستثناء طرابلس ؛ وقـد أظهـرت الخـبرة السابقة أنه عندما فقـد حـاكم مصـر دميـاط كـان علـى استعداد للتخلـى عـن القـدس لإستعادتها ؛ وكانت الإسكندرية بمثابة جـائزة أثمـن مـن دميـاط ، وبإمكـان غزاتهـا أن يصبحوا فى وضع تفاوضي أفضل ؛ كما أن الإسكندرية ستكون قاعدة رائعة لمزيـد مـن التقدم ؛ ويقينا بها المؤن الوفيرة ، وقنواتها تجعل الدفاع عنها يسيرا من اليابسـة ، فضـلا عن أنها الميناء الذى من خلاله تمر كـل تجـارة السـلطان تقريبـا عـبر البحـار ، ولسـوف يتسبب فقدها فى إخضـاع أراضيه لنوع من الحصـار الإقتصـادى الشـديد ، ومـن غـير المحتمل كذلك أن يتوقع السلطان هجوما على مدينة يتوفر فيها للتجـار المسيحيين مثـل هذه المصالح الضخمة ، كما اختيرت اللحظـة اختيـارا جيـدا . وكـان السـلطان شـعبان صبيا فى الحادية عشرة من عمره وكـانت السـلطة فـى قبضـة الأمـير يلبغـا الـذى كـان مكروها من رفاقه الأمراء ومن الشعب . وكان والى الإسكندرية خليل بن عـرام متغيبـا يؤدى فريضة الحج فى مكة ، وكان نائبه على الإسكندرية جنغرة ضابطا صغـيرا بحاميـة لا تكفى ولا أمل فيها . ومن الناحية الأخرى ، كان المشـهور عـن أسـوار الإسـكندرية قوتهـا ؛ وحتـى لـو اسـتولى الأعـداء علـى مينائيهـا وعلـى شـبه جزيـرة فـاروس التـى توسطهما، فما زالت هناك تحصينات ضخمة بطول جبهة الميناء.

ووصل الأسطول أمام الإسكندرية فى مساء التاسع من أكتوبـر ، وظـن المواطنـون بادئ الأمر أنه أسطول تجـاري ضخـم وتهيّـأوا للخـروج للمسـاومة . ولم تتضـح نوايـا الأسطول إلا فى الصباح التالى عندما دخلت السفن الميناء الغربى ولم يدخـل مـن المينـاء الشرقى الذى كان يستقبل وحده السفن المسيحية . وسارع نائب الوالى جنغرة بـتركيز رجاله على الشاطئ الأمـامى ليحـول دون الهبـوط عليـه ؛ وبرغـم بسـالة بعـض الجنـود

(٣٨) Atiya, *op. cit.* pp. 341-4; Hill, *op. cit.* ii, pp. 329-31

المغاربة ، شق الفرسان المسيحيون طريقهم على الشاطئ. وبينما تدفق التجار الوطنيون خارجين من المدينة عبر البوابات المؤدية إلى داخل البلاد، تقهقر حنفرة إلى ما وراء الأسوار وجمع حاميته الصغيرة للسيطرة على القطاع المواجه لمكان الإنزال . وكان الملك بطرس ينتوى التوقف عن الهجوم لرغبته في هبوط جميع رجاله وخيوله على مهل فى شبه جزيرة فاروس ، غير أنه عندما استشار قادته وجد أن الكثير منهم يعارض اختيار الإسكندرية كهدف قائلين إنهم من القِلّة بحيث لا سبيل لهم للإحتفاظ بمثل هذه القلعة الضخمة ، ولا التقدم منها إلى القاهرة ، وأعربوا عن رغبتهم فى الإبحار إلى مكان آخر، لكنهم سوف يبقون إذا تم الإستيلاء فورا على المدينة بقصفها قبل أن يتمكن السلطان من إرسال قوات تخلصها. واضطر بطرس إلى النزول على رغبتهم وبدأ فى التو الهجوم على السور الغربي كما توقع حنفرة ؛ وأثناء التصدى لهم هناك ، انتقل المهاجمون إلى القطاع المواجه للميناء الشرقي . وكان المكان الموصل بين القسمين بين الأسوار يمر عبر مبنى الجمارك الضخم؛ وكان أحد ضباط الجمارك غير الرسميين قد أقام المتاريس عبر الأبواب خشية السرقة. ولم يستطع حنفرة نقل رجاله فى الوقت المناسب لمواجهة الهجوم الجديد ، وظنوا أن المدينة قد فقدت فبدأوا فى التخلى عن مواقعهم والهرب فى الشوارع قاصدين البوابات الجنوبية حيث الأمان ، وبحلول ظهيرة يوم الجمعة العاشر من الشهر كان الصليبيون قد وطدوا مراكزهم داخل المدينة ، وتواصل القتال فى الشوارع. وفي ليل الجمعة شن المسلمون هجوما مضادا شرسا من خلال إحدى البوابات الجنوبية التى حرقها المسيحيون فى غمرة هياجهم ، وصُد الهجوم المضاد ؛ وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها فى قبضة الصليبين.

١٣٦٥م : نهب الإسكندرية

واحتفل الغزاة بنصرهم فى وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلّم الصليبين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهى المذابح سوى مذبحة القدس سنة ١٠٩٩م ومذبحة القسطنطينية سنة ١٢٠٤م . ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا فى أنطاكية ولا فى عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراء غير عادي ، وقد جُن جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذى عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين في المدينة شاهدوا مصانعهم ومخازنهم تُنهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على

المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دمروه ؛ ولم تسلم الكنائس من نهبهم رغم أن سيدة قبطية كسيحة شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها ، ومَن توانى منهم في تسليم كل ممتلكاته قُتل هو وأسرته ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف سجين من المسيحيين واليهود والمسلمين ليبعهم رقيقا. وحُملت الأسلاب على ظهور الخيول والحمير والجمال التي سارت في خط طويل لنقلها إلى السفن الراسية في الميناء ، وبعدما انتهت الدواب من مهمتها قتلت في أماكنها . وغرقت المدينة كلها في رائحة جثث الآدميين والدواب.

وعبثا حاول الملك بطرس الحفاظ على النظام . وكان في مأموله الإحتفاظ بالمدينة، ولكنه هدم الجسر الذي يعبر القناة والمؤدي إلى الطريق الذاهب إلى القاهرة بعد أن أحرق الصليبيون البوابات . على أنه لم يكن للصليبيين رغبة سوى العودة بأسلابهم إلى بلادهم بأسرع ما يمكن ؛ إذ كان هناك جيش آت من القاهرة وكانوا عازفين عن المخاطرة بدخول المعركة؛ بل إن شقيق الملك أخبره باستحالة الدفاع عن المدينة ، بينما أعلن فيكونت تورين صراحة ، ومعه أغلب الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، أنهم لن يبقوا في المدينة بعد الآن ؛ وعبثا اعترض بطرس والمندوب البابوي ؛ وبحلول يوم الخميس السادس عشر لم يكن هناك بالمدينة سوى قليل من الجنود القبرصيون ، وعاد باقي أفراد الحملة إلى السفن على أهبة الإستعداد للرحيل . وبوصول المصريين إلى ضواحي المدينة ، اعتلى بطرس نفسه غليونه وأعطى الأمر بالجلاء . وناءت الأسلاب بالسفن بحيث كان لابد من أن يُطرح في البحر كثير من قطع الأسلاب الكبيرة . ودأب الغواصون المصريون لشهور تلت على إنقاذ أشياء ثمينة من المياه الضحلة أمام أبي قير(٣٩).

وكان بطرس والمندوب البابوي يعلقان الآمال على أن يبدأ الصليبيون ، بعد تخزين أسلابهم بأمان في قبرص ، في الخروج مرة أخرى في حملة جديدة ؛ غير أنهم ما أن وصلوا فاماجوستا حتى بدأوا جميعا في إعداد العدة للرحيل إلى أوطانهم في الغرب . وتهيأ المندوب البابوي للحاق بهم للعثور على مجندين مكانهم ، لكنه مرض مرضا مميتا قبل أن يغادر الجزيرة . وأدى الملك بطرس صلاة شكر بعد عودته إلى نيقوسيا ، غير أنه

(٣٩) يورد وليم أوف ماشوت William of Machaut وصفا مسهبا لحملة الإسكندرية في شعر حماسي جيد منثور . ed. Mas Latrie, esp. pp. 61 ff. ويبدو أن ماشوت لم يذهب قط إلى الشرق ؛ غير أن ما يورده من معلومات - باستثناء ما يتصل بمولد بطرس وموته - يعتمد عليها . وللإطلاع على قصة الحملة كاملة أنظر . Atiya, *op. cit.* pp. 345-69, also Hill, *op. cit.* ii, pp. 331-4

كان موجع القلب . وذكر انتصاره فى تقريره للبابا انتصاره ، كما ذكر خيبة أمله المريرة(٤٠).

استقبل الغرب أنباء نهب الإسكندرية استقبالا متباينا ؛ فقد هلّل له بادئ الأمر على أنه نصر عسكرى وإذلال للإسلام . ولقد ابتهج البابا ، لكنه رأى ضرورة إرسال تعزيزات على الفور إلى بطرس ليحلوا محل الذين تخلو عن الحملة، ووعد تشارلز ملك فرنسا بإرسال جيش ، وأخذ الصليب أبرز فرسانه برتراند دو جوسلين ؛ كما أن أماديوس ، كونت سافوى ، المعروف في القصص بالفارس الأخضر ، والذى كان يتهيّأ للإرتحال إلى الشرق ، قرر الإبحار إلى قبرص . غير أن البنادقة أعلنوا آنذاك أن بطرس عقد معاهدة سلام مع السلطان ؛ فكفّ تشارلز ملك فرنسا عن إعداد جيشه ، وذهب دو جوسلين ليحارب فى أسبانيا ، وذهب أماديوس إلى القسطنطينية(٤١). أما البنادقة ، فلم يجدوا للحملة نتائج تبعث على السرور ، على خلاف البابا ؛ إذ كانوا يأملون فى استخدامها لتعزيز قبضتهم التجارية على الشرق ، والذى حدث هو أن ممتلكاتهم الوفيرة في الإسكندرية قد دمرت ، وتوقفت كل تجارتهم مع مصر . وكاد تخريب الإسكندرية أن يدمّرهم كقوة تجارية ، وهو الأمر الذى أدخل البهجة على أبناء جنوا الذين كوفئوا على تخلفهم. وسرعان ما وقعت على الغرب كله آثار الحملة الصليبية ؛ فقد ارتفعت للغاية أسعار التوابل والحرير وغيرهما من البضائع الشرقية التى كان الجمهور قد اعتاد عليها الآن(٤٢).

وواقع الأمر أن بطرس شرع فى التفاوض مع مصر ، لكن المرارة الشديدة تملّكت الجانبين بحيث ذهبت برغبة كل منهما فى السلام . فبينما كانت كراهية الشعب تعوق الأمير يلبغا ، الذى كان يحاول كسب الوقت حتى يتمكن من بناء أسطول يغزو به قبرص ، كان بطرس يغالى فى مطالبه بالتنازل عن الأراضى المقدسة ، وأعقب ذلك بغارات على الساحل السورى . على أن أتباعه بدأوا يشعرون بالخطر لما أصابه من هوس الحملة الصليبية ، وكانوا يخشون نضوب موارد الجزيرة فى قضية يائسة ؛ وعندما دبر فارس – سبق أن تشاجر معه بطرس – أمر اغتياله سنة ١٣٦٩م لم يحرك حتى إخوته ساكنا لإنقاذه. وفى العام التالى لوفاته عُقدت معاهدة مع السلطان ، وتم تبادل

---

(٤٠) Atiya, *op. cit.* p. 369.

(٤١) Atiya, *op. cit.* p.370; Hill, *op. cit.* ii, p. 335-6.

(٤٢) Machaut, pp. 115-16; Heyd, *Histoire du Commerce du Levant,* ii, pp. 52-5.

الأسرى ؛ وانتهى الأمر بمصر وقبرص إلى سلام مقلقل(٤٣).

كان هولوكوست الإسكندرية بمثابة علامة على انتهاء الحملات الصليبية التي كان هدفها المباشر استعادة الأراضي المقدسة . وحتى لو كان جميع الصليبيين على نفس القدر من الحماس كما كان الملك بطرس ، فمن المشكوك فيه ما إذا كانت الحملة ستجلب النفع على العالم المسيحي بأي حال من الأحوال ؛ فعندما بدأ تنفيذها كانت مصر في سلام مع الفرنج لما يزيد على نصف قرن ، وقد بدأ المماليك يفقدون كانوا عليه من تعصب ، وكان رعاياهم المسيحيون يعاملون معاملة أكثر طيبة ؛ وكان يُسمح للحجاج بحرية الحج إلى الأماكن المقدسة ؛ وكانت التجارة تزدهر بين الشرق والغرب. والآن عادت الحياة إلى مرارة المسلمين ؛ فعاني المسيحيون الوطنيون من فترة اضطهاد جديدة برغم براءتهم من الذنب ؛ ودمّرت الكنائس ، وحتى كنيسة القبر المقدس أغلقت لثلاث سنوات ؛ وأحدث توقف التجارة أضرارا جسيمة من كل ناحية في عالم لم يبرأ بعد مما أحدثه الطاعون الأسود من خراب(٤٤)؛ وبعدما كان المماليك على استعداد لتحمل وجود مملكة قبرص ، باتت الآن عدوا يتعين إزالته . وانتظرت مصر مدة ستين سنة لتأخذ بثأرها ، وكان التخريب الشنيع الذي حدث للجزيرة سنة ١٤٢٦م بمثابة عقاب مباشر لتخريب الإسكندرية(٤٥).

١٣٧٥م : انهيار المملكة الأرمينية

ولقيت المملكة المسيحية الوحيدة الأخرى في الشرق حتفها قبل قبرص . ولم يشترك أرمن كيليكيا في حملة الملك بطرس الصليبية ؛ لكن بيتهم الملكي أمسى الآن فرنجيا ، وللكثير من النبلاء علاقات وثيقة مع قبرص ، واعترفت كنيستهم بسيطرة روما. وطوال القرن الرابع عشر كان المصريون يضغطون على الأرمن ، إذ كانوا يرتابون بحق في أنهم أصدقاء الفرنج والمغول وأنهم غيورون من الثروة التي كانت تمر عبر طريق التجارة في مصر الذي يصل إلى البحر عند أياس. ولقد أدى انهيار الخانية

---

(٤٣) Atiya, *op. cit.* pp. 371-6; Hill, *op. cit.* ii, pp. 345-67; Heyd, *op. cit.* pp. 55-7.

(٤٤) (المترجم) الطاعون الأسود :Black Death طاعون وبائي اكتسح أوروبا وآسيا فيما بين عامي ١٣٤٧ و ١٣٥١م ، وربما كان كلا من الوباء الدّمّلي والوباء الرئوي ، وقد أهلك عددا من البشر يزيد على أي وباء آخر معروف أو حرب.

(٤٥) Atiya, *op. cit.* pp. 377-8.

المغولية إلى حرمانهم من أهم مؤيديهم ؛ وضم الأتراك أغلب أراضيهم في سنة ١٣٣٧م. وفي سنة ١٣٧٥م ، وبينما كان القبارصة مستغرقون في حرب مريرة مع جنوا ، أكمل المسلمون الغزاة من المماليك وحلفائهم الأتراك إخضاع البلد؛ وهرب آخر ملك ارميني، ليو السادس ، إلى الغرب حيث مات كلاجئ في باريس ، وبهذا انتهى الاستقلال الأرميني(٤٦).

وحقيقة الأمر ، أن حملة صليبية كتلك التي خطط لها الملك بطرس لم تكن في أوانها ؛ فلم يكن بوسع العالم المسيحي أن يحتمل هذا التفريط ؛ إذ كان عليه أن يواجه تهديدا بالغ الخطورة في الشمال . ذلك أن مخططي الحملة الصليبية الأولى قد أدركوا بوضوح أن انقاذ الأراضي المقدسة يتوقف علي الإحتفاظ بقوة مسيحية في الأناضول . غير أنه منذ أن مات البابا إيربان الثاني ، لم يتوفر لأي سياسي غربي أي قدر من الحكمة يوقفه على أن الاحتفاظ بالأناضول يعتمد على بيزنطة . ولقد سببت الحركات الصليبية في القرن الثاني عشر حرجا للأباطرة البيزنطيين . وأضافت تلك الحركات الصليبية مشاكل جديدة كان على بيزنطة مواجهتها، ولم تتح للأباطرة قط الفرصة لإخضاع الغزاة الأتراك . وربما كانت المهمة مستحيلة تماما ، ذلك أن أسلوب الغزو التركي ، في تدمير الزراعة والاتصالات ، جعل استعادة الأناضول عملا عسيرا، بينما أدت طموحات الأباطرة المتنوعة، مثل مانويل وأندرونيكوس ، إلى مزيد من تبديد الطاقة . وقد سمحت كارثة منزيكرت سنة ١٠٧١م بدخول الأتراك إلى الأناضول ؛ وأما كارثة ميريوسيفالوم سنة ١١٧٦م فضمنت لهم البقاء هناك . غير أن الحملة الصليبية الرابعة ، وما سببته من دمار للنظام الإمبراطوري البيزنطي لا يرجى له إصلاح، كانت هي الحملة التي أتاحت للأتراك فرصة المضي إلى أبعد من ذلك . وفي القرن الثالث عشر أتيح للعالم المسيحي الفرصة الأخيرة للتعامل مع الأتراك ؛ فكانت قوتهم في الأناضول حتى ذلك الوقت تعتمد على سلطنة قونية السلجوقية ؛ وقد أدت الغزوات المغولية التي بدأت سنة ١٢٤٢م إلى تقويض الدولة السلجوقية وتدميرها في نهاية الأمر ؛ وكان الأباطرة البيزنطيون المقيمون في المنفى في نيقية مدركين أن فرصتهم سانحة ، غير أن ما عرقل جهودهم مشاغلهم الأوروبية وتلهفهم على استعادة عاصمتهم

---

(٤٦) أنظر Tournebize, *Histoire Politique et Religieusze de l'Arménie*, pp. 644 ff., esp. pp. 654-30. والتاريخ الغامض لنهاية المملكة الأرمينية يتوقف أساسا على تاريخ الفرنشيسكاني جون دارديل the Franciscan John Dardel (published in *R.H.C., Documents Arméniens*, vol.ii).

الإمبراطورية فى مجابهة عداوة الغرب اللاتينى الذى كانت تعوزه البصيرة والخبرة ليفهم الوضع. وما أن أعاد البيزنطيون ترسيخ أنفسهم فى القسطنطينية حتى ضاعت الفرصة . وكان على أباطرة آل باليولوجوس أن يواجهوا الممالك الصغيرة القوية فى البلقان ، وطلبات الجمهوريات الإيطالية وخطر إعادة الغزو اللاتينى ، الذى كان أمرا واقعا إلى أن أعاقت صلوات المساء الصقلية تشارلز أوف أنجو ؛ وفى نهاية القرن الثالث عشر كان الوقت متأخرا جدا ؛ فقد ذهب السلاجقة، ولكن مكانهم شغلته عدة إمارات نشطة وطموحة ، تقويها هجرة القبائل التركية التى كانت خاضعة للمغول . وكان اقتلاعهم يحتاج إلى جهود طويلة متناسقة . وكان من بين أهم الأمراء كرمان الكبير ، الذى امتدت أراضيه تمتد بطول البلاد من فيلادلفيا حتى جبال طوروس المقابلة . وكان هناك أمراء آخرون مستقرين فى أضاليا ، فى آيدين (ترال) وفى مانيسة (مغنسية) . وكان الساحل الشمالى ما يزال فى قبضة بيزنطة وأختها امبراطورية طرابزون ، وكان التركمان يحتلون البلاد الواقعة جنوب طرابزون ؛ وفى الشمال الغربي كانت هناك إمارة جديدة عفيّة تبرز تحت أمير مقدام يدعى عثمان(٤٧).

١٣٤٤م : الاستيلاء على أزمير

كان إدراك اللاتين بأهمية الأناضول يتزايد الآن ، رغم أنهم كانوا ينظرون إليها كقاعدة للعدوان عليهم بأقل مما كانوا ينظرون اليها على انها منطقة يحتاجون فيها إلى قواعد للسيطرة على البحر المتوسط . ولقد كان احتلال فرسان المستشفى لجزيرة رودس محض مصادفة ، غير أن ذلك كان ينطوى على توجه جديد. وكانت الجمهوريات الإيطالية مهتمة منذ زمن طويل بجزر بحر إيجة ، وكان من الطبيعى أن يمتد قلقها ، وقلق العالم اللاتينى كله ، إلى الأراضى الرئيسية المقابلة لتلك الجزر . وعندما قام الأمير عمر صاحب آيدين ، الذى كان فى حوزته ميناء أزمير الرائع ، ببناء أسطول للقرصنة فى مياه بحر ايجة ، لم يترك البنادقة والفرسان فى رودس الأمر يمر دون أن يفعلوا شيئا . وفى سنة ١٣٤٤م أبحر أسطول مغيرا على أزمير أسهم فيه البنادقة ومن فى ركابهم بحوالى عشرين سفينة ، والفرسان بست سفن ، والبابا وملك قبرص بأربع

(٤٧) أنظر Gibbons, *The Foundation of the Ottoman Empire*, pp. 15-34; Koprülü, *Les Origines de l'Empire Ottoman*, pp. 34-79; Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, pp. 33-51 .

قطع. وكان القائد هو بطريق القدس اللاتيني هنرى (أوف آستى) ، وهـزم أمير آيدين في معركة بحرية في يوم الصعود أمام مدخل الخليج . ورفض الحلفاء المسيحيون ، بناء على طلب البابا ، دعوة تقدم بها لورد جزيرة خيوس السابق واستولى الأسطول، في طريقه إلى أزمير، على جزيرة خيوس، فطلب صاحبها السابق إعادتها إليه، ولكن الحلفاء المسيحيين رفضوا ذلك بناء على طلب البابا واستمروا في الاتجاه شمالا إلى أزمير التي قاومت مقاومة قصيرة ثم وقعت في أيدى المسيحيين يوم ٢٤ أكتوبر رغم صمود القلعة . ويعزى هذا النصر اليسير في أساسه إلى أن الأمير عمر لم يكن مستعدا رأنه يغار ويخشى رفاقه الأمراء ؛ فجاء بجيشه لإنقاذ المدينة بعد فوات الأوان. غير أنهم استدرجوا إلى محاولة غزو البلاد. فلحقت بهم هزيمة منكرة على بعد أميال قليلة من المدينة ، وقتل هنرى (أوف آستى) ومارتين زاخاريا . وبعد أن فشل الأتراك في استعادة ازمير تم توقيع معاهدة في سنة ١٣٥٠م قضت بأن يعهد بالمدينة إلى فرسان المستشفى رغم بقاء القلعة في أيدى الأتراك . واحتفظ فرسان المستشفى بأزمير حتى سنة ١٤٠٢م عندما قصفها تيمور[٤٨].

وبينما كان مصير أزمير ما يزال في الميزان ، أعلن نبيل فرنسي يدعى همبرت الثاني ، دوفين (أوف فيين)[٤٩]، عن رغبته في الذهاب في حملة صليبية إلى الشرق. وكان رجلا ضعيفا لا خير فيه ، وإن كان ذا ورع أصيل وبلا طموحات شخصية. وبعد شئ من التفاوض مع البابا ، تقرر أن يذهب لإستكمال الجهد المسيحي في أزمير؛ وفي مايو ١٣٤٥م انطلق من مرسيليا مع صحبة من الفرسان والقساوسة ، وانضم اليه في رحلته المتجهة شرقا جنود من شمال إيطاليا ؛ وبعد مغامرات شتى عديمة الفعالية ، وصل أزمير سنة ١٣٤٦م ، وهزم جيشه الأتراك في معركة خارج الأسوار . ولم يبق هناك طويلا ، وإنما عاد إلى فرنسا في صيف ١٣٤٧م . ولقد كانت الحملة كلها فريدة في عمقها، وتكمن أهميتها في أن الكنيسة باتت الآن مستعدة لأن تعتبر أية حملة ذاهبة إلى الأناضول بمثابة حملة صليبية[٥٠].

وفي سنة ١٣٦١م ، نال بطرس القبرصي مساعدة فرسان المستشفى في هجوم

---

(٤٨) Atiya, *op. cit.* pp. 290-300.

(٤٩) (المترجم) دوفين : Dauphin لقب الإبن الأكبر لملك فرنسا ، وهو لقب استخدم من ١٣٤٩ إلى ١٨٣٠م.

(٥٠) *Ibid.* pp. 300-18.

على ميناء أضاليا التركي، بعد أن حصل مؤخرا على كوريكوس من الأرمن ؛ وبعد قتال قصير سقط الميناء في يديه في الرابع والعشرين من أغسطس ؛ وسارع أمراء الجوار في علايا ومونوفجات ونيكي إلى تقديم ولائهم له ، وهم يحسبون أن صداقته قد تكون نافعة ضد عدوهم الرئيسي كرمان الأكبر . وسرعان ما تخلوا عن خضوعهم وحاولوا غير مرة استعادة أضاليا التي بقيت ، مع ذلك ، في القبضة القبرصية لستين عاما[٥١].

تنامي السلطنة العثمانية

وفي تلك الأثناء وجدت أوروبا نفسها مضطرة إلى تحويل انتباهها إلى الشمال . ذلك أن العقود الأولى من القرن الرابع عشر شهدت تناميا غير عادى فى قوة الإمارة التركية التى أسسها عثمان بن ارطغرل واتخذت لقبها "عثمانلية أو عثمانية" من اسمه؛ وكان عثمان فى سنة ١٣٠٠م زعيما ضئيل الشأن له أراض فى جنوب بيثينيا ، وعند وفاته سنة ١٣٢٦م كان سيد بروصا وأغلب الأراضى الواقعة بين أدراميتيوم ودوريليوم وبحر مرمرة . ويعزى توسعه جزئيا إلى دبلوماسيته الماهرة والمرنة إزاء رفاقه الأمراء ، والأهم من ذلك ، إلى ضعف بيزنطة . وفى سنة ١٣٠٢م ، استأجر الامبراطور أندرونيكوس الثانى فى حركة طائشة مجموعة من الكتالان يرأسها روجر فلور ، فارس المعبد السابق الذى جمع ثروته بسلوكه المشين أثناء نهب عكا . وحارب روجر الأتراك بنجاح ، وإن حارب بمزيد من النشاط سيده الإمبراطورى . وقتل سنة ١٣٠٦م ، لكن جماعة كتلان بقيت فى الأراضى الإمبراطورية فى تعاديها حتى ١٣١٥م . وأثناء حروبها أحضرت إلى أوروبا كتيبة تركية سبق أن استخدمها الامبراطور فى آسيا[٥٢]. وإثر ذهاب مجموعة كتلان ،اندلعت الحرب الأهلية في الإمبراطورية بين أندرونيكوس الثانى وحفيده أندرونيكوس الثالث ، ولم تنته إلا بوفاة الأول سنة ١٣٢٨م ؛ وقد استخدم كل من الجانبين الأتراك كمرتزقة . وفى تلك الأثناء ، واصل ابن عثمان - أورهان - ما بدأه والده ؛ فأكسب لنفسه هيمنة غامضة على أمراء الأراضى الواقعة جنوب أراضيه ، وواصل غزوه لبيثينيا . واستولى على نيقية سنة ١٣٢٩م وعلى

---

(٥١) *Ibid.* pp. 323-30; Hill, *op. cit.* ii, pp. 318-24.

(٥٢) See Vasiliev, *History of the Byzantine Empire,* pp. 605-8 . ويورد المؤرخ المعاصر Muntaner قصة مجموعة كتلان في سرد ينبض بالحياة.

نيكوميديا سنة ١٣٣٧م[٥٣]. واندلعت الحرب الأهلية في الإمبراطورية مرة أخرى سنة ١٣٤١م بين حون الخامس وزوج أمه حون كانتاكوزينوس ، بينما كان تنامى قوة ستيفن دوشان فى الصرب يجتذب انتباه كافة شعوب البلقان[٥٤].

وفى سنة ١٣٥٤م أرسل أورهان ، الذى اتخذ لقب سلطان ، جنودا عبر الدردنيل للإستيلاء على مدينة حاليبولى ؛ وبعد ذلك بسنتين نقل عدة آلاف من بنى جلدته عبر المضيق وجعلهم يستقرون فى ثريس[٥٥]؛ وفي العام التالى استطاع أن يتقدم داخل البلاد ويستولى على قلعة أدريانوبل العظيمة التى أصبحت عاصمته الثانية . وعند وفاته سنة ١٣٥٩م كانت ثريس كلها تقريبا فى يديه ، وعُزلت القسطنطينية عن ممتلكاتها الأوروبية . وكان ابنه وخليفته مراد الأول ذا اقتدار كبير على أن يواصل ما بدأه أبوه وحده . وكانت أولى مهامه تأسيس هيئات حانيسارى (أو الجندى الجديد) من أطفال الرقيق المسيحيين الذين أجبروا على التحول إلى الإسلام والمرسلين اليه كإتاوة[٥٦].

ولم يمر توسع الأتراك العثمانيين دون أن يُلحظ فى الغرب . ويبدو أنه لم يكن هناك خطر على القارة الأوروبية حتى ذلك الوقت ؛ إذ بدت الإمبراطورية الصربية العظمى قادرة تماما على صد أي تقدم . بيد أنه من الواضح أن القسطنطينية ذاتها كانت مهددة ، ومعها مصالح الإيطاليين التجارية ؛ ومع ذلك كان اليونانيون منشقين؛ وكانت سياسة الكنيسة الغربية هى الإصرار على خضوعهم لروما قبل إمكان البحث فى مسألة إرسال المساعدة لهم . وحقيق أن يفشل هذا النوع من الإبتزاز المعنوي . وكان من المحال أن يوافق اليونانيون على هيمنة الكنسية اللاتينية ، حتى وإن كان حكامهم على استعداد للإلتزام بها ، ليس فقط بسبب عقيدتهم الدينية وإنما أيضا لما يشعرون به من اعتزاز وطنى وما لا يغيب عن ذاكرتهم من الفظائع السابقة[٥٧].

---

(٥٣) Vasiliev, *op. cit.* pp. 608-9; Gibbons, *op. cit.* pp.54-70.

(٥٤) Vasiliev, *op. cit.* pp. 609-13.

(٥٥) (المترجم) ثريس:Thrace الإقليم القديم الواقع شرقى شبه جزيرة البلقان ؛ أو الإقليم الحالى الواقع جنوب شرقى شبه جزيرة البلقان وهو مقسّم حاليا بين اليونان وتركيا.

(٥٦) Gibbons, *op. cit.* pp. 100-3, 110-21 .

(٥٧) Vasiliev, *op. cit.* 670-2.

١٣٦٦م :حملة كونت سافوى الصليبية

كان أماديوس السادس كونت سافوى قد أخذ الصليب سنة ١٣٦٥م . وكان البابا إيربان السادس منشغلا في التبشير بالحملة الصليبية نيابة عن بطرس ملك قبرص. وكان ذهاب أماديوس إلى الأرض المقدسة قد ملك عليه لبه ؛ بيد أنه كان ابن عم الامبراطور البيزنطي جون الخامس وكان يرغب في مساعدته ؛ وأذن له البابا بأن يبدأ حملته بمحاربة الأتراك شريطة أن يضمن إخضاع الكنيسة اليونانية . وبذل البنادقة ما في وسعهم لوقف حملته الصليبية لخشيتهم من أن تتدخل في سياستهم التجارية ؛ كما أنهم لا يريدونه بصورة خاصة أن ينضم إلى بطرس القبرصي ، وتنفسوا الصعداء عندما أحدثت شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع المصريين أثرها لديه وقرر التركيز على بيزنطة، وانتقى مجموعة متميزة من الفرسان ، وإن صادفته مصاعب التمويل منذ البداية . ووصلت الحملة مضيق الدردنيل في أغسطس ١٣٦٦م ، وعلى الفور حاصر جاليبولى التى سقطت يوم ٢٣ أغسطس . على أن أماديوس بدلا من أن يهبط في ثريس ويطهر المقاطعة من الأتراك ، أبحر إلى القسطنطينية حيث وجد أن الملك البلغاري شيشمان الثالث قد خان الامبراطور واعتقله ؛ ولذا كرس كل طاقته فى انقاذ ابن عمه ، ولم يتحقق ذلك إلا بهجوم على ميناء فارنا التابع لشيشمان . وعندما تم إنقاذ جون ، وجد أماديوس أنه قد أنفق كل أمواله ، وكذلك الأموال التى جباها محليا وما اقترضه من الإمبراطورة ، فاضطر إلى العودة إلى الوطن ؛ بيد أنه قبل أن يرحل أخذ من الامبراطور وعدا بأن يجعل كنيسته خاضعة لروما . وجاء إلى غليونه بطريق القسطنطينية فيلوثيوس ومعه فارس يوناني وأخبره بأن الشعب اليونانى سوف يخلع الامبراطور إذا وافق على ذلك ، فما كان من أماديوس إلا أن اختطفهما وأخذهما معه إلى إيطاليا ، وعاد إلى وطنه فى نهاية ١٣٦٧م . على أن حملته الصليبية كانت عديمة القيمة أو تكاد ؛ إذ أن الأتراك استعادوا جاليبولى بعد رحيله مباشرة(٥٨).

وفى ظل حكم مراد ، زاد الأتراك من قوتهم بسرعة . فقد أخضع مراد أمراء غربي الأناضول وتسيّد عليهم ، ثم تقدم فى أوروبا . وبعد انتصاره على الصرب فى ماريتسا سنة ١٣٧١م ، أصبحت بلغاريا دولة تابعة وسرعان ما ضمها كلها. وفى ١٣٨٩م ، نشبت معركة حاسمة بين الصرب والأتراك فى كوسوفو ؛ وقبل المعركة مباشرة اغتيل مراد بيد أحد الصربيين لكن جنوده الذين فاقت أعدادهم أعداءهم للغاية انتصروا

---

(٥٨) Atiya, *op. cit.* pp. 379-97

انتصارا كاسحا . وأصبح الأتراك الآن سادة البلقان(٥٩).

وعلى الرغم من أن جهد الغرب الصليبي قد تحول في سنة ١٣٩٠م فى حملة فاجعة قادهالويس الثاني دوق بوربون إلى المهدية بالقرب من تونس(٦٠)، كان من الواضح أنه لابد من صد الأتراك العثمانيين حتى تبقى أوروبا المسيحية آمنة . وعندما ضم السلطان بايزيد مدينة فيدين على نهر الدانسوب ، وكان أميرها قد اعترف بسيادة هنجاريا ، ناشد الملك الهنجاري سيجيسموند اللوكسمبرجي ، أخو الامبراطور وينزيل ، جميع رفاقه العواهل ليقدموا له المساعدة . وأصدر كل من البابا الرومانى بونيفاس التاسع ، والبابا الأفينيوني بنيديكت الثالث عشر مراسيم بابوية توصي بحملة صليبية ، بينما كتب فيليب (أوف ميزييه) ، وهو عجوز من القائمين على الدعاية ، خطابا علنيا إلى ريتشارد الثانى ملك انجلترا يدعوه إلى التعاون مع تشارلز السادس ملك فرنسا من أجل الحملة الصليبية القادمة . وما كان لسيجيسموند من علاقات مع الألمان مكّنه من أن يجد مؤازرة فى ألمانيا ؛ أما أميرا والاشيا وترانسيلفانيا(٦١)، فقد أخذ منهما الرعب كل مأخذ من التقدم التركى فانضما إليه برغم كراهيتهما الشديدة للهنجاريين . وفى الغرب أعلن دوق برجندى ودوق أورليانز ودوق لانكاستر جميعا رغبتهم فى المساعدة. وفى مارس ١٣٩٥م وصلت إلى البندقية سفارة هنجارية يرأسها رئيس أساقفة جران، نيكولاس (أوف كانيزاى) لضمان تنفيذ وعد دوج البندقية بتوفير وسيلة النقل ؛ ثم واصل السفراء ترحالهم إلى ليون حيث استقبلهم دوق برجاندى فيليب المقدام ، استقبالا مفرط الحفاوة ، ووعدهم بمساعدته في حماس . وبعد أن قاموا بزيارة ديجون لتقديم احتراماتهم للدوقة مرجريت الفلاندرزية ، ذهبوا إلى بوردو لمقابلة عم ملك انجلترا جون (أوف لانكستر) الذى تعهد بتجهيز كتيبة انجليزية . وانطلقوا من بوردو إلى باريس . وكان الملك الفرنسى تشارلز السادس يعانى من نوبة جنون ، ولكن الأوصياء وعدوا بالقيام بتشجيع النبلاء الفرنسيين على الانضمام إلى الحملة الصليبية . وبدأ تجمع جيش دولى ضخم لانقاذ العالم المسيحى . ومن أجل تمويله فرض دوق برجاندى ضرائب خاصة أدت إلى جمع مبلغ ضخم قدره سبعمائة ألف فرنك ذهبى ، وأضاف النبلاء الفرنسيون إسهاماتهم كل بدوره ؛ وقدم جوي السادس كونت لا

---

(٥٩) Vasiliev, *op. cit.* p.624; Gibbons, *op. cit.* pp.174-8.

(٦٠) يرد الوصف الكامل لحملة لويس فى. Atiya, *op. cit.* pp. 398-434

(٦١) (المترجم) والاشيا : Wallachia إقليم فى شرق أوروبا يقع جنوب الألب الترانسيلفانية ، اندمج مع مولدافيا سنة ١٨٦١م ليكوّنا رومانيا

تريمواي أربع وعشرين ألف فرنك . ووافق اللوردات الفرنسيون والبرجانديون على قبول قيادة الإبن البكر لدوق برجندى ، جون كونت نِفرس ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين تملأه الحيوية(٦٢).

١٣٩٦م : حملة نيكوبوليس الصليبية

بينما عاد السفراء الهنجاريون مسرعين إلى بودا لإطلاع الملك على ما حققوه من نجاح ، وليبذلوا له النصيحة بالمضى قدما في ترتيباته ، أصدر دوق برجاندى مراسيم دقيقة لتنظيم تصرفات الجنود الفرانكو هنجاريين . وقد استدعوا للتجمع في ديجون فى العشرين من ابريل ١٣٩٦م ؛ وتقرر أن يقود الحملة جون النفرسي ، ونظرا لصغر سنه تشكّل مجلس استشاري مؤلف من فيليب ابن دوق بار ، وجوى (أوف لا تريمواي) ، وأخيه وليم ، والأدميرال جون (أوف فيِّنا) ، وأودارد لورد شاسيرون . وفى نهاية الشهر انطلق جيش من عشرة آلاف رجل وارتحل خلال ألمانيا إلى بودا ؛ وفى طريقه انضم اليه ستة آلاف ألماني يرأسهم الكونت بالاتين روبرت إبن روبرت الثالث كونت ريتلسباخ ، وإيبرهارد كونت كاتزنيلينبوجين . وسار خلفهم على مقربة ألف مقاتل انجليزي بقيادة الأخ غير الشقيق للملك ريتشارد ، جون هولاند ، إيرل هنتينجدون(٦٣).

ووصلت الجيوش الغربية فى نهاية يولية تقريبا إلى بودا حيث وجدت الملك سيجيسموند فى انتظارها ومعه قوة تتألف من نحو ستين ألف رجل ؛ وانضم اليه تابعه ميرسيا حاكم والاشيا ومعه عشرة آلاف رجل آخرون وحوالى ثلاثة عشر ألف مغامر جاءوا من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا ؛ وكان هذا الجيش المتحد الذي اقترب من مائة ألف جندى أكبر تجمع على الإطلاق دخل مجال الحرب ضد الكفرة . وفى تلك الأثناء توغل أسطول فى البحر الأسود وألقى مراسيه عند مصب نهر الدانوب ، وكان رجاله من فرسان المستشفى تحت قيادة السيد الأعظم فيليبيرت (أوف نايلاك) ومن البنادقة واهل جنوا.

ولم يبق السلطان العثمانى بايزيد من جانبه فى الجانب الآخر مكتوف اليدين .

---

(٦٢) Atiya, *Crusade of Nicopolis*, pp.1-34, a fully referenced account.

(٦٣) *Ibid.* pp. 41-8, 67-8, 184 nn.

وعندما وصلته الأنباء بتجمع الحملة الصليبية ، كان يحاصر القسطنطينية ؛ وعلى الفور استدعى جميع رجاله وسار شمالا إلى الدانوب ، وكان تعداد جيشه يُقدّر بما يجاوز مائة ألف.

غير أن فرسان الغرب لم يلفتوا شيئا مما مروا به عبر ثلاثة قرون من الخبرة. وعندما نوقشت خطة الحملة في بودا نصح الملك سيجيسموند باتخاذ استراتيجية الدفاع ، وكان يعرف قوة عدوه . ولقد ارتأى أنه من الأفضل أن يستدرج الأتراك إلى داخل هنجاريا ثم يهاجمهم من مواقع أعدها ؛ وكان سيجيسموند يعتقد ، كغيره من الأباطرة البيزنطيين إبان الحملات الصليبية المبكرة ، أن سلامة العالم المسيحي تتوقف على الحفاظ على مملكته ؛ على أن حلفاءه ، كشأن الحملات الصليبية المبكرة ، كانوا يفضلون هجوما كبيرا ؛ فمن شأن ذلك أن يحطم الأتراك وأن يجعل الجيوش المسيحية تتقدم منتصرة خلال الأناضول إلى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها ؛ وكان الحلفاء على قدر كبير من الحماس لرأيهم بحيث رضخ سيجيسموند . وفي وقت مبكر من شهر أغسطس انطلقت جيوش التحالف جنوب الضفة اليسرى لنهر الدانوب حتى أورسوفا عند البوابات الحديدية ، وهناك عبرت إلى داخل أراضي السلطان.

وقضى الجيش ثمانية أيام ليعبر النهر ، ثم سار بطول الضفة الجنوبية إلى مدينة فيدين التي كان حاكمها أميرا بلغاريا يدعى جون-سراشيمير ، بيد أنه كان تابعا للسلطان الذى كان قد ترك حامية صغيرة هناك . وبوصول المسيحيين انضم اليهم جون-سراشيمير وفتح لهم البوابات ، وقُتل الأتراك . وكانت المدينة التالية الواقعة إلى الجنوب على النهر هي مدينة راهوفا ، وهي قلعة قوية يحيطها خندق مائي وسور مزدوج وفيها حامية تركية كبيرة . وعلى الفور اندفع للهجوم أكثر الفرسان الفرنسيين حماسا بقيادة فيليب (أوف أرتوا) كونت إيو ، وجون لو مانجر الذى كان يشتهر بلقب مارشال بوسيكوت ، وكادوا أن يهلكوا جميعا لولا أن سيجيسموند أدركهم بالهنجاريين . ولم تستطع الحامية الصمود طويلا أمام الجيش المسيحي كله . وقُصفت المدينة وقُتل جميع سكانها وأغلبهم من البلغاريين المسيحيين ، فيما عدا ألف من الأثرياء احتجزوا من أجل الفدية.

١٣٩٦م : معركة نيكوبوليس

وتحرك الجيش من راهوفا قاصدا نيكوبوليس التي كانت المعقل التركي الرئيسي

على الدانوب ، في موقع يصل الطريق الآتي من وسط بلغاريا إلى النهر ، وقد بُنيت بجانب النهر على تل توجت قمم منحدراته الشديدة بخطين من الأسوار المائلة . وقد جاء الصليبيون بدون آلات للحصار ؛ إذ لم يتحقق الغربيون من ضرورتها ، ولم يكن سيجيسموند قد أعد العدة إلا لأعمال الدفاع . وعندما فشلت السلالم التي سارع الفرنسيون بإقامتها ، وكذلك الأنفاق التي حفرها المهندسون المجاريون ، قبع الجيش على أمل تجويع المدينة كي تستسلم ، وقد ساعدهم على ذلك وصول أسطول فرسان المستشفى الذي أبحر باتجاه الشمال في نهر الدانوب وألقى مراسيه أمام الأسوار يوم ١٠ سبتمبر ؛ على أن نيكوبوليس كانت مزودة جيدا بالمون ، ولم يكن حاكمها التركي دوجان بيك ينتوي الإستسلام وكان قد سمع بمصير أبناء جلدته في فيدين وراهوفا.

كان التأخير مميتا لمعنويات الجيش المسيحي ؛ إذ راح الفرسان الغربيون يتسلون بالخمر والميسر وكافة أنواع الفسق . وتجرأ جنود قليلون وقالوا إن الأتراك عدو مخيف فأمر المارشال بوسيكوت بصلم آذانهم عقابا لهم على الروح الإنهزامية . ونشبت مشاجرات بين مختلف الفصائل ، بينما بدأ أتباع سيجيسموند الترانسلفانيون وحلفاؤهم الولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الحصار.

وبعدما أمضت الحملة الصليبية أسبوعين أمام نيكوبوليس ، جاءت الأنباء باقتراب الأتراك . فقد انطلق جيش السلطان بسرعة من تُريس باتجاه الشمال ؛ وكان تسليحه خفيفا وخيّالته أسرع بكثير في تحركها من الفرنج ، وكان رماته على مستوى رفيع من التدريب ، ويتفوقون بميزة النظام الأمثل والطاعة التامة لقيادة السلطان وحده الذي كان هو نفسه ذا اقتدار غير عادي . ولقد أرسل أمامه بعض الجنود الذين هزمتهم كتيبة فرنسية بقيادة اللورد كوسي في أحد ممرات البلقان؛ لكن غيرة المارشال بوسيكوت ، الذي اتهم كوسي بمحاولة سرقة شرف النصر من جون النفرسي ، حالت دون بذل أية محاولة أخرى لوقف تقدم الأتراك ؛ وفي ذات الوقت قرر الفرسان قتل الأسرى المأسورين في راهوفا.

وفي الخامس والعشرين من سبتمبر ١٣٩٦م ، بدت للعيان طليعة الجيش التركي التي عسكرت في التلال الواقعة على بعد ثلاثة أميال تقريبا من المسيحيين . وقبل شروق الشمس في الصباح التالي زار سيجيسموند جميع رفاقه القادة ورجاهم أن يبقوا في حالة الدفاع . ورغم أنه أخبرهم صراحة أنه لا يستطيع أن يضع ثقته في أتباعه من الترانسلفانيين والولاشيين، لم يسانده سوى كوسي وجون (أوف فيين) ، أما القادة

الأخرون فكانوا عاقدى العزم على فرض معركة على الفور ؛ وخضع سيجيسموند في ضعفه ، وقسّم جيشه إلى ثلاث فرق جاعلا جنوده المنحاريين في القلب والولاشيين في الميسرة والترانسيلفانيين في الميمنة ، وكانت الطليعة تتألف من الغربيين جميعهم بقيادة جون النفرسي.

وعندما انبلج الصبح كان كل ما يمكن رؤيته من الأتراك فرقة من الفرسان غير النظاميين خفاف الحركة ، فوق منحدر التل مباشرة ، وخلفها مشاة الأتراك مع فصيلة من الرماة ، تحميهم خطوط من الأوتاد ؛ أما الجزء الرئيسي من فرسان السباهي[٦٤] التي يقودها السلطان بنفسه فكانت مختبئة وراء قمة التل . وكان على ميسرته فرقة من فرسان الصرب بقيادة الأمير ستيفن لازاروفيتش ، وهو أحد الأتباع المخلصين للسلطان.

وأظهرت المعركة ، كعهدها في الإستراتيجيات السابقة ، أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا طوال القرون . فلم يبق الفرسان الغربيون في المقدمة ليطلعوا سيجيسموند على خططهم ، وفي حماس بالغ فائق الثقة هاجموا قمة التل وفرقوا فرسان الأتراك الخفاف أمامهم ؛ وبينما عاود فرسان الأتراك تجميع أنفسهم خلف مشاتهم ، وجد الفرسان أن الأوتاد تعترضهم، فترجلوا على الفور وواصلوا هجومهم راجلين وهم ينزعون الأوتاد أثناء تقدمهم ، يدفعهم في ذلك أن مشاة الأتراك تبعثرت هي الأخرى ، وكان باستطاعة بعض الأتراك التقهقر خلف الفرسان التي كانت تتجمع ، غير أن كثيرين قتلوا أو طردوا أسفل السهل . غير أنه عندما كان الصليبيون المنتصرون المنهكون يسرعون في هجومهم هذا إلى أن وصلوا إلى قمة التل ، وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام فرسان السباهي السلطانية وقوات الصرب ؛ وجاء هجوم هؤلاء الجنود الجدد مباغتا للصليبيين الراجلين المنهكين العطشى المثقلين بأسلحتهم ، فسرعان ما اندفعوا مبعثرين في فوضى عارمة واستحال نصرهم هزيمة شنعاء . ونجا فرسان قليلون من القتل؛ وكان من بين الهالكين وليم (أوف لاتريمواي) وابنه فيليب جون (أوف كادزورد) أدميرال فلاندرز ، والمعلم الأكبر لفرسان التيوتون . وسقط جون (أوف فيين) أدميرال فرنسا الكبير متشبثا براية نوتردام الكبيرة التي عُهد بها إليه، ولم ينقذ جون النفرسي من القتل سوى صياح مصاحبيه بالتعريف بشخصه وحثه على الإستسلام ، واقتيد معه

(٦٤) (المترجم) فرسان السباهي :Sipahi Cavalry فرسان إقطاعيون في الإمبراطورية العثمانية كانوا يؤلفون أغلب الجيش العثماني حتى حوالى منتصف القرن السادس عشر.

كونت إيو وكونت لامارش وجوي (أوف لا تريموراي) وإنجوراند (أوف كوسي) والمارشال بوسيكوت.

١٣٩٦م : انتصار السلطان

عندما ترجّل الفرسان اندفعت خيولهم عائدة إلى المعسكر ولا يعلو صهواتها أحد؛ وعلى الفور قرر الولاشيون والترانسفاليون أنهم خسروا المعركة وسارعوا بالإنسحاب بعدما استولوا على كل ما يجدونه من القوارب كي يعبروا النهر، غير أن سيجيسموند أمر جنوده بالتقدم لإنقاذ الغربيين ؛ وقتلوا كثيرين من مشاة الأتراك المبعثرين أثناء تحركهم باتجاه أعلى التل . وعندما اقتربوا من ساحة القتال وجدوا أنهم وصلوا بعد فوات الأوان ، إذ هجم فرسان السلطان هابطين عليهم وردوهم بخسائر جسيمة حتى ضفاف النهر.

ولمّا تبعثر جيش سيجيسموند ، أغوته نفسه بالكف عن القتال ، فلجأ إلى سفينة بندقية راسية في النهر حملته إلى القسطنطينية ومنها إلى وطنه خلال بحر إيجة والبحر الأدرياتيكي ؛ وكان يخشى الإرتحال برا لتوجسه من خيانة الولاشيين . أما جنوده فقد انطلقوا مع قليلين من الصليبيين الغربيين الباقين على قيد الحياة واتخذوا طريقهم إلى بلادهم بأية طريقة يستطيعونها ، يضايقهم الوطنيون المعادون والوحوش ولسعات برد الشتاء المبكر ؛ فوصل الكونت بلاتين إلى قلعة أبيه في أسماله الممزقة ومات بعد ذلك بأيام قليلة ، وكان قليل من رفاقه اللاجئين أكثر حظا منه[٦٥].

ولقد نال بيازيد نصرا عظيما وإن كانت خسائره جسيمة ؛ فأمر في سورة غضبه، وفي ذاكرته كذلك ما ارتكبه الصليبيون من مذابح ، بقتل ثلاثة آلاف من سجنائه عمدا ، ولم يبق إلا على قليل من النبلاء يمكن الحصول منهم على فدية كبيرة ؛ وقد كُلّف فارس فرنسي يدعى جيمس (أوف هيلي)، وكان يتحدث التركية، بالتعرف عليهم ثم سُمح له بالرحيل إلى الغرب للترتيب لجمع مال الفدية الذي لم يجمع إلا في يونية التالي ، ووصلت سفارة غربية إلى السلطان في بروسا وسلّمته المبالغ الضخمة التي طلبها ؛ وقد أرسل كثير من المتعاطفين في سائر أنحاء العالم المسيحي إسهاماتهم ، لكن الجزء الأكبر دفعه الملك سيجيسموند ودوق برجاندي الذي قدم ما يزيد على

(٦٥) Atiya, *Crusade of Nicopolis*, pp. 50-99.

مليون فرنك . ووصل الأسرى الذين أطلق سراحهم إلى بلادهم في نهاية ١٣٩٧م تقريبا[٦٦].

كانت حملة نيكوبوليس الصليبية أضخم وآخر الحملات الصليبية الدولية الكبيرة . واتخذ نمط تاريخها المؤسف في دقة تبعث على الحزن ، سيرة الحملات الصليبية المفجعة الكبيرة في الماضي، مع فارق يتمثل في أن ميدان قتالها كان في أوروبا وليس في آسيا . وجاءت الأخطاء والحماقات كما هي دون تغيير ؛ وتبدد نفس الحماس في المشاحنات والغيرة ونفاد الصبر . إن كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الأخير أن الحرب المقدسة قد انتهت عمليا إلى غير رجعة.

ولم يعد هناك مجال للحملات الصليبية ؛ لكن الكفرة ظلوا يهددون قلب العالم المسيحي ؛ فقد وصلوا إلى الدانوب وشواطئ البحر الأدرياتيكي . وكانت القسطنطينية ما تزال مسيحية ، وإن كانت معزولة ، وقد ظلت مسيحية لا لشئ سوى أن السلطان لم تتوفر له بعد المدفعية القوية بما يكفي لقصف أسوارها الضخمة الكثيفة ، ولا ما يكفي من السفن لقطع وسائل اتصالاتها بحرا . ووجد فرسان المستشفى في رودس ولوردات أرخبيل بحر إيجة الإيطاليون أنهم عند الحدود وأن قبرص موقع بعيد ؛ وراح ملك هنجاريا ، وحكام ولاشيا ومولدافيا ، وزعماء ألبانيا ، يبحثون عن العون للدفاع عن حدودهم ؛ ودأبت الجمهوريات الإيطالية على محاولة معرفة أي السياسات التي يتعين اتباعها للحفاظ على مصالحها التجارية ؛ وكان البابا عميق الإدراك للخطر الذي يتهدد العالم المسيحي ، لكن القوى الغربية لم تعد تهتم ، إذ كانت تجربتها الأخيرة بالغة المرارة ، وليس في الإمكان بعث الحماس الذي عجّل بتلك التجربة بعد هذه الكارثة . ودأب حتى البابا نفسه على أن يحيك المكائد بلا توقف كي يحل لاديسلاس النابوليتاني محل سيجيسموند بغض النظر عمّا سوف تحدثه الحرب الأهلية من أضرار بدفاعات أوروبا الوسطى[٦٧]. أما الملك الفرنسي ، الذى وجد نفسه من سنة ١٣٩٦ إلى ١٤٠٩م سيد جنوا ، فكان قلقا بما فيه الكفاية على مصير المستعمرة الجنوية في بيرا المواجهة للقسطنطينية ، فأرسل المارشال بوسيكوت مع ألف ومائتي رجل إلى البوسفور سنة ١٣٩٩م ؛ فحال وجوده دون القيام بمحاولة غير متحمسة للهجوم على المدينة

(٦٦) *Ibid.* pp. 102-11.

(٦٧) Atiya, *Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 463-4; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vi, 2, pp. 1253-4

الإمبراطورية من جانب الأتراك ؛ لكنه سرعان ما انسحب عندما لم يجد من يموله هو أو رجاله[٦٨] ثم إن الامبراطور البيزنطى مانويل الثاني ارتحل إلى الغرب تحدوه الآمال كى يطلب المساعدة ؛ وصُدم الإيطاليون لرؤيتهم مدى البؤس الذي وصل إليه وريث القياصرة . وأعطاه دوق ميلانو هدايا رائعة كي تتناسب حالته مع مكانته ؛ واستقبل استقبالا فخيما في باريس ولندن ، غير أنه لم تُعرض عليه مساعدة مادية ؛ ولم تعبأ به البابوية لأن مانويل كان بالغ الأمانة فلم يعد بإخضاع كنيسته لروما لإدراكه أن شعبه لن يصبر على ذلك . غير أنه في سنة ١٤٠٢م أسرع عائدا إلى عاصمته وقد أثلجت صدره أنباء تنذر فيما يبدو بانهيار الإمبراطورية العثمانية[٦٩] .

تيمور الأعرج (تيمور لنك)

ولد تيمور لنك سنة ١٣٣٦م بالقرب من سمرقند ، أميرا ضئيل الشأن من ذرية الأتراك المغول ، وفى سنة ١٣٦٩م كان سيد جميع الأراضى التى تنتمى لفرع ياغاتاى المغولى ؛ ومنذ ذلك الوقت قُدُما وسّع أراضيه بحروب قاسية لا رحمة فيها، بادئا بداية بطيئة أول الأمر ، ثم بقوة دفع متزايدة . ومن سنة ١٣٨١م إلى سنة ١٣٨٦م اكتسح أراضى الخانية المغولية فى فارس ، وفى ١٣٨٦ استولى على تبريز وتفليس ، وطوال السنوات الأربع التالية كان منشغلا على حدوده الشمالية ، وفى سنة ١٣٩٢م استولى على بغداد . وفى السنوات التالية أغار على روسيا ضد مغول القبيلة الذهبية متوغلا فى الأراضى الروسية حتى موسكو ، وفى ١٣٩٥م ظهر في شرقى الأناضول حيث سقطت في قبضته اذربيجان وسيفاس ؛ وفى ١٣٩٨م استولى على شمال الهند فى حملة رائعة زاد من فعاليتها مذابح شنيعة . وفى سنة ١٤٠٠م استدار غربا مرة أخرى وزحف على سوريا وهزم الجيوش المملوكية المرسلة لمحاربته ، أولا فى حلب ثم فى دمشق ، ثم أحتل وخرب كل المدن الكبيرة فى الإقليم . وفى ١٤٠١م عاقب تمردا حدث فى بغداد بأن دمّر المدينة تدميرا كاملا وهى لم تكد تنهض من آثار غزو هولاكو قبل ذلك بقرن ونصف من الزمان . وفى ١٤٠٢م عاد إلى الأناضول وقد عقد العزم على أن يهزم السلطان العثمانى الذى كان العاهل الوحيد الباقى الذى لم يلحق به الإهانة فى العالم الإسلامى. ووقعت المعركة الحاسمة فى أنقرة يوم ٢٠ يولية ، هزم فيها بايزيد هزيمة

(٦٨) Atiya, *op. cit.* pp. 465-6; Vasiliev, *op. cit.* pp. 632-3.

(٦٩) Vasiliev, *op. cit.* pp. 631-4.

كاملة واقتيد أسيرا ومات في الأسر بعد ذلك بأشهر قليلة ، وفي تلك الأثناء سقطت مدن الأناضول العثمانية في قبضة الغازى الذى طرد فرسان المستشفى من أزمير فى ديسمبر ١٤٠٢م(٧٠).

وكان في مأمول الامبراطور مانويل أن تكون الكارثة التي حلّت بالسلطان بيازيد بمثابة نهاية الخطر العثماني ؛ غير أنه لم يكن من القوة بما يكفى لإتخاذ إجراء دون مساندة . وكانت الجمهوريات الإيطالية قد اتخذت جانب الحذر ؛ إذ سارع أبناء جنوا إلى عقد معاهدة مع تيمور للحفاظ على تجارتهم الآسيوية ، غير أنهم كانوا يخشون على تجارتهم في البلقان والمستقبل أمامهم مشكوك فيه ، عاونوا فى الحفاظ على القوة العثمانية بأن ساعدوا بقايا جيش بيازيد في العبور بحرا إلى أوروبا . أما البنادقة فقد تناءوا عن ذلك(٧١)، وكان لموقفهم الحذر ما يبرره ؛ ذلك أن غزو تيمور قد حال فى واقع الأمر دون قيام السلطان العثماني بمهاجمة القسطنطينية ، وساعد ذلك على بقاء بيزنطة لنصف قرن آخر ؛ ولو أن أوروبا كلها تدخلت في الحال لكان في ذلك نهاية الإمبراطورية العثمانية ، بيد أن الأتراك كانوا مستقرين بأجناسهم فى الأناضول وسياستهم في البلقان فلم يكن من اليسير اقتلاعهم ؛ كما لم يكن لتيمور ما كان لجنكيز خان من عبقرية سياسية . وعندما مات تيمور سنة ١٤٠٥م بدأت امبراطوريته تتفكك في الحال . وسرعان ما استعاد المماليك سوريا ، وفي أذربيجان نهضت أسرة حاكمة من تركمان الأغنام السود وأقامت لها سلطانا يمتد من الأناضول إلى بغداد . وكانت هناك فى فارس إرهاصات وطنية سرعان ما أدت إلى ظهور الأسرة الحاكمة الصفوية . وفى ما وراء النهر(٧٢) استمرت ذرية تيمور لما يقرب من قرن ولم يؤسسوا امبراطورية دائمة إلا فى الهند باسم مغول دلهى العظام(٧٣).

وفى الأناضول ، كان الأثر الوحيد والأخير لغزو تيمور هو التدفق الجديد للأتراك

---

(٧٠) للإطلاع على سيرة تيمور أنظر Bouvat, *L'Empire Mongol, 2me phase, passim*, esp. pp. 58-63.

(٧١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 65-7.

(٧٢) (المترجم) ما وراء النهر Transoxiana or Transoxania: اقليم تاريخي في وسط آسيا شرق نهر جيحون Amu Darya (Oxus River) ، وغرب نهر سيحون Syrdarya (Jaxartes River) وهى حاليا فى جمهورية أوزبكستان وأجزاء من جمهوريتى تركمانستان وكازاخستان . كان مركزا حضاريا عظيما في القرن الخامس عشر ومركز الإمبراطورية التيمورية.

(٧٣) Bouvat, *op. cit.* pp. 84 ff.

والتركمان ومن ثمّ تعزيز جذور القوة العثمانية . وعندما مات تيمور تولى أولاد بيازيد ميراث أبيهم . وراحوا يحاربون بعضهم البعض لست سنوات ، وأتاحت الحروب الأهلية للقوى المسيحية فرصة أخرى لوقف مزيد من النمو فى القوة العثمانية ، إلا أن القوى المسيحية لم تهتبل هذه الفرصة . واستعاد الامبراطور البيزنطى بدبلوماسيته قليلا من المدن الساحلية ، وسُمح لفرسان رودس ببناء حصن على الأرض الرئيسية المواجهة لجزيرتهم ، فى بودرون ، وهي هاليكارناسوس القديمة . ولم يُكتسب شئ آخر . وعندما أصبح محمد الأول السلطان الوحيد سنة ١٤١٣م ، كانت الإمبراطورية العثمانية سليمة لم يمسسها أذى . وكان محمد حاكما مسالما يجتنب الحروب العدوانية ، وقد أعاد تنظيم سلطانه في حزم؛ وعندما مات سنة ١٤٢١م كان العثمانيون أقوى من ذى قبل(٧٤).

١٤٤٤م : الحملة إلى فارنا

بدأ خليفة محمد الأول ، مراد الثانى ، عهده بمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، بيد أنه كان ما يزال يفتقر إلى المدفعية الثقيلة والسفن . وبعد أن دافع اليونانيون عن عاصمتهم في شجاعة بدون مساعدة خارجية ، من يونية إلى أغسطس ١٤٢٢م، تخلى مراد عن الحصار وركز انتباهه على غزوات في شبه الجزيرة اليونانية ، وفى آسيا ، وعبر الدانوب(٧٥). وفى مجمع فلورانس الذى عقد فى ١٤٣٩م وافق الامبراطور جون الثامن – خليفة مانويل – فى حالة من اليأس على إخضاع كنيسته لروما ؛ وأنكر شعبه هذا الإتحاد ، وكانت مكافأته ضئيلة فى المقابل(٧٦). وفى ١٤٤٠م نادى البابا إيوجينوس الرابع بحملة صليبية جديدة ؛ وبعد ذلك بأربع سنوات أعلن الزعيم الألبانى سكاندربرج الحرب على الأتراك وانضم اليه سيده ملك الصرب جورج ، ووعد البابا نفسه وملك أراجون بأن يرسل كل منهما عشرة غلايين إلى الشرق ؛ وقام إبن سيجيسموند من السفاح ، جون كورفينوس ، الملقّب هونيادى ، حاكم ترانسيلفانيا باسم الملك فلاديسلاف ، باعداد العدة لقيادة الجيش الهنجارى عبر الدانوب . بيد أنه بعد مناوشات قليلة شعر الحلفاء باليأس ووافقوا على هدنة لعشر سنوات تم التوقيع عليها فى

(٧٤) Hammer, *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. Helbert), ii, pp. 120 ff

(٧٥) *Ibid.* ii, pp. 159 ff.

(٧٦) Vasiliev, *op. cit.* pp. 672-4.

زنجيدين في يونية ١٤٤٤م[٧٧] ثم أعد مراد العدة للإبتعاد بجيشه للتعامل مع أعداء في الأناضول ؛ وعلى الأثر أقنع المندوب البابوى المصاحب للجيش - الكاردينال جوليان سيزاريني - قادة الجيش بأن القسم الذى يُقسم لكافر يُعد قسما باطلا، وحثهم على التقدم .ورفض ملك الصرب الأرثوذكسي هذه الفتوى وأعلن أنه لن يسمح للزعيم الألباني سكندربرج بالبقاء مع الجيش ، واعترض جون هونيادي على الفتوى ولكنه ظل في موقع القيادة ؛ وقاد جيش التحالف المؤلف من عشرين ألف جندى تقريبا إلى فارنا حيث وصلوا في وقت مبكر من نوفمبر ١٤٤٤م ؛ وعلى إثر التحذيرات التى جاءت مراد عن انتهاكهم للمعاهدة ، سارع إلى مقابلتهم على رأس جيش يفوق جيشهم ثلاثة أضعاف . ونشبت المعركة في العاشر من نوفمبر . وقاوم المسيحيون بشجاعة ، وكان مراد قد علّق المعاهدة المنتهكة في رايته وهو في المعركة ، وفي اللحظة الحاسمة كان صوته يدوى قائلا : "أيا المسيح ، إن كنت ربا كما يدعى أتباعك ، فعاقبهم على نقضهم العهد" ، واستجيب دعاؤه وانتصر جنوده؛ وكاد الحلفاء المسيحيون أن يبادوا ، وقُتل الملك فلاديسلاف الذى كان مع جنوده ، كما قتل الكاردينال الخئون . وهرب هونيادى مع حفنة من بقايا جيشه[٧٨].

وترتب على ما بذله سكاندربج من جهود شجاعة انقاذ استقلال ألبانيا لعشرين سنة أخرى ؛ وعلى الرغم من الهزيمة الفاجعة التى لحقت بجون هونيادى في معركة الأيام الثلاثة في ساحة كوسوفو المشؤومة سنة ١٤٤٨م ، فقد حال بين السلطان وعبور الدانوب طوال حياته[٧٩] على أنه عند وفاته سنة ١٤٥٦م ، كان الأتراك قد حققوا ما كان يتطلع إليه العالم الإسلام منذ أيام النبى ﷺ. ذلك أنه في سنة ١٤٥١م كان مراد الثاني قد خلّفه ابنه محمد الثاني ، وهو شاب في الحادية والعشرين من عمره ذو طاقة وإقدام واقتدار لا تحدهما حدود ، وقد حدد لنفسه هدفه الأول ، ألا وهو الإستيلاء على القسطنطينية . ولا مجال في هذه الصفحات لسرد القصة الرائعة الفاجعة لآخر أيام بيزنطة . فأما اليونانيون ، الذين انقسموا على أنفسهم في معاداتهم لحكامهم الذين باعوا كنيستهم لروما ، فقد انتظموا في شجاعة فائقة لاحتمال الألم الأخير ؛ وأما الغرب فقد أرسل من عونا ضئيلا ما يبعث على اليأس على ما فيه من اقدام ؛ وأما

---

(٧٧) Hammer, *op. cit.* ii, pp. 288-302.

(٧٨) See Halecki, *The Crusade of Varna, passim*

(٧٩) Hammer, *op. cit.* ii, pp. 322-7.

السلطان ، فكان له من وفرة الموارد وحسن الاستعداد وغلبة الإدارة، ما جعل النصر مآله . وما كان انتصاره انتصارا لهيبته وحسب ، فقد كانت بيزنطة تحتضر منذ وقت طويل ، وضمن موتها دوام بقاء الأتراك في أوروبا . ومكنهم من السيادة على البحار الشرقية ، وكان يؤذن بانقضاء امبراطوريتي جنوا والبندقية ، ومملكة قبرص، وفرسان المستشفى في رودس؛ وأتاح للسلطان حرية الاندفاع بجيوشه حتى بوابات فيينا(٨٠).

١٤٦٤م : البابا بيوس الثاني آخر الصليبيين

تحقق الجميع في سائر أنحاء أوروبا من أن سقوط القسطنطينية كان علامة على انتهاء عصر . ولم يكن نبأ سقوطها غير متوقع ؛ وإن أدى إلى ندم مرير. ومع ذلك ، وبخلاف الأمراء الذين تتهدد الأخطار حدودهم مباشرة ، لم يعبأ أحد بأن يتخذ اجراء ؛ سوى الكاردينال نونسيو في ألمانيا ، وهو عالم الإنسانيات الكبير إينياس سيلفيوس ، الذى حاول إيقاظ الغرب لأداء واجب تأخر عن موعده . بيد أن خطبه التى ألقاها في المجالس الألمانية لم تسفر عن شئ ، وأنبأت خطاباته التي أرسلها إلى البابا عن خلاصه من الوهم . وفى ١٤٥٨م أصبح هو نفسه البابا تحت إسم بيوس الثاني ؛ ودأب طوال فترة بابويته على أن يخلق من جديد حملة صليبية على غرار ما كان يرسله أسلافه؛ وفي ١٤٦٣م بدا أن مشروعه على وشك بلوغ الغاية؛ فقد جاء اكتشاف مناجم الشَّبَّة في الولايات البابوية في الوقت المناسب لتزويده بعوائد غير متوقعة تهدد بكسر احتكار الإتراك للشَّبَّة . وكان دوج البندقية الجديد يؤيد الحرب على ما يبدو ؛ وكان ملك هنجاريا قد سالم الامبراطور أخيرا ، فبات تواقا إلى تحالف مسيحي ؛ وأظهر دوق برجندى ، جون الطيِّب ، اهتماما مرحّبا . وقد كان القرار الكنسي الصادر في أكتوبر بمثابة انعكاس للتفاؤل البابوي . على أنه بمرور الشهور خبت جذوة الحماس ؛ ولم يقدم للبابا مساندة مادية سوى الهنجاريين الذين كانوا يواجهون حربا تركية على نحو أو آخر. وتردد البنادقة ؛ ولم تكن أي من المدن الإيطالية على استعداد للمجازفة بما سوف يجلبه قطع العلاقات مع السلطان من ضياع للتجارة . وكتب دوق برجندى بأن مكائد ملك فرنسا تجعل من المستحيل عليه مغادرة أراضيه ؛ وقرر البابا بشجاعة أنه سوف يمول الحملة الصليبية ويقودها بنفسه ؛ وبناء على أوامره استجمع وكلاؤه أسطولا من

---

(٨٠) لا يزال أفضل تاريخ لسقوط القسطنطينية هو ما أورده Pears في "دمار الإمبراطورية اليونانية *The Destruction of the Greek Empire*, pp. 237 ff. See also Vasiliev, *op. cit.* pp. 647-55

الغلايين فى أنكونا ؛ وفى ١٨ يولية ١٤٦٤م ، وبرغم ما كان يبدو عليه من الإنهاك وضعف الصحة ، أخذ الصليب في وقار أثناء قداس فى كنيسة القديس بطرس.

وبعد أيام قلائل انطلق قاصدا ميناء الإبحار . ورأى فيه المحيطون به رحلا ميتا ، وأخفوا عنه حقيقة مؤداها أنه لم يحذ حذوه أى من أمراء أوروبا ، وأنه ليست هناك جيوش تزحف وراءه إلى الميناء لتركب غلايينه المتجهة إلى الشرق؛ بل إنهم عندما اقترب من ميناء أنكونا أسدلوا ستائر محفّته حتى لا يرى الطرقات وقد اكتظت ببحارة أسطوله بعدما هجروا سفنهم وقد غذوا السير عائدين إلى أوطانهم . ووصل أنكونا يوم ١٤ أغسطس ، لا لشئ إلا ليموت فيها . وشملته الرحمة بأن خفيت عليه حقيقة انهيار حملته الصليبية انهيارها التام(٨١).

وقبل أربعة قرون تقريبا ، كان تبشير البابا إيربان الثانى بالحملات الصليبية يرسل الرحال بالألوف مخاطرين بحياتهم فى الحرب المقدسة ؛ أما الآن ، فكان كل ما فى وسع البابا ، الذى أخذ هو نفسه الصليب ، أن يجمع حفنة من المرتزقة الذين هجروا القضية من قبل أن تبدأ الحملة . لقد ماتت الروح الصليبية.

(٨١) For Pius II see Atiya, *op. cit.* pp. 227-30; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles,* vii, 2, pp. 1291-352.

الفصل الثانى:

إجمـــال

إجمـــال

"والذى يَزيد عِلما يَزيد حُزنا"

(جامعة ١ : ٨١)

كانت الحملات الصليبية قد أطلقت لإنقاذ العالم المسيحى الشرقي مـن المسـلمين ؛ وعندما انتهت الحملات الصليبية بات العالم المسيحى الشرقي كله تحت حكم المسلمين. وعندما خطب البابا إيربان خطبته العظيمة فى كليرمونت بدا الأتراك وقد أوشكوا علـى تهديد البوسفور ، وعندما بشر البابا بيوس الثانى بآخر حملة صليبية كان الأتراك يعبرون نهر الدانوب . ومن بين آخر الثمار التى أثمرتها الحركـة أن سقطت جزيرة رودس فـى أيدى الأتراك سنة ١٥٢٣م ؛ أما قبرص ، فقد دمّرتها حروبها مـع مصر وحنـوا إلى أن ضمنها البندقية ، ثم آلت فى نهاية الأمر إلى الأتـراك كذلـك سـنة ١٥٧٠م ؛ ولم يتبـق لغزاة الغرب سوى حفنة من الجزر اليونانية ظلت البندقية تحتفـظ بها بصـورة مقلقلـة . ولم يتوقف التقدم التركي بأي جهد متناسق بذله العالم المسـيحي ؛ وإنما أوقفتـه أقـرب

الدول اهتماما بالقضية وهي البندقية وامبراطورية هابسبرج[١]، بينما دأبت فرنسا ، وهى الزعيم القديم للحرب المقدسة ، على مساندة الكفرة . ولقد بدأ انهيار الإمبراطورية العثمانية لفشلها فى إيجاد حكومة على كفاءة تعينها على إدارة ممتلكاتها الشاسعة ، إلى أن باتت غير قادرة على أن تتصدى لطموحات جيرانها ولا أن تخمد الروح الوطنية فى رعاياها المسيحيين ، وهى الروح التى يرجع الفضل فى بقائها للكنائس التى حاول الصليبيون جهدهم التدمير استقلالها.

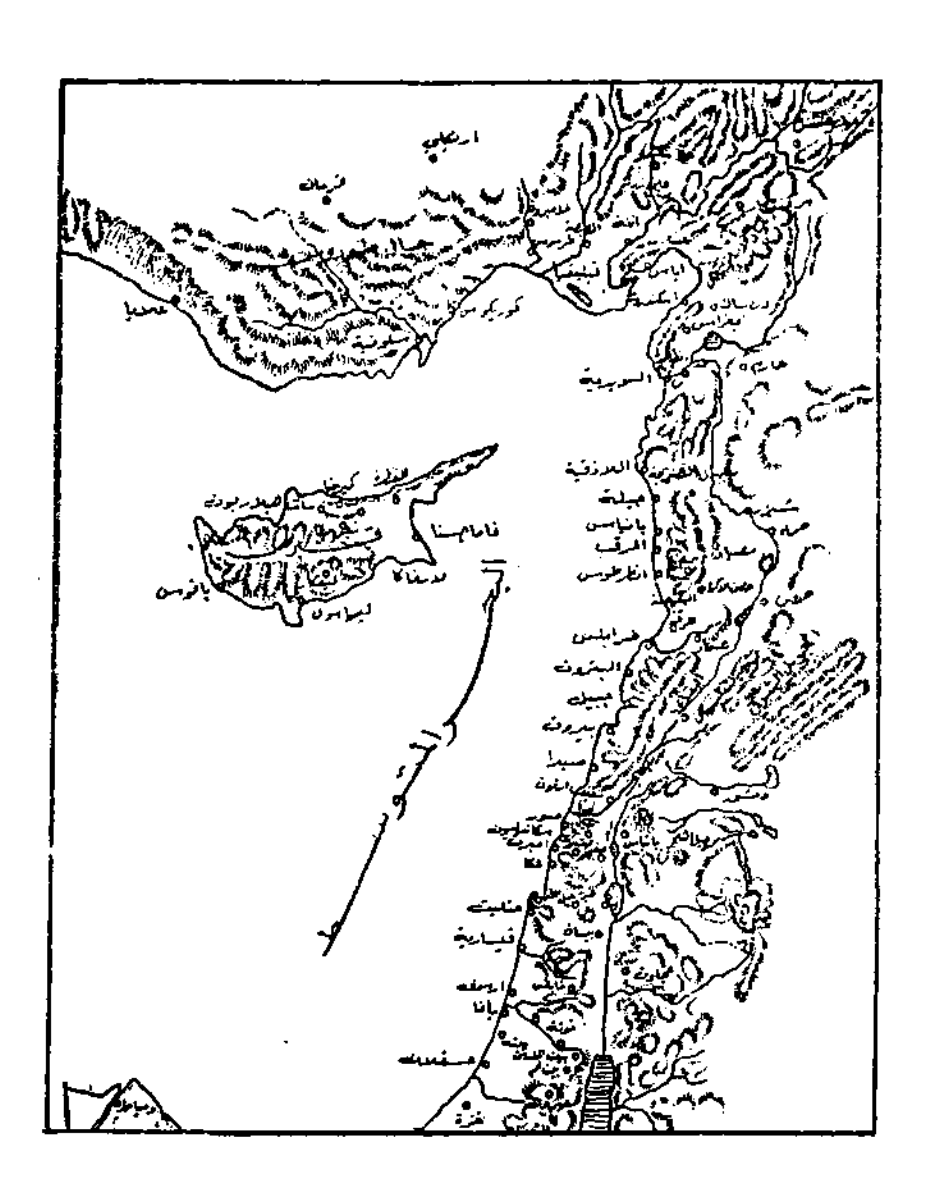
وليست الحركة الصليبية برمتها ، من المنظور التاريخى ، سوى إخفاق تام ؛ ذلك أن نجاح الحملة الصليبية الأولى ، وهو بمثابة معجزة ، أو يكاد ، قد أنشأ الدويلات الفرنجية في أوتريميه ؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان ، عندما بدا أن كل شيء قد ضاع ، جاءت الحملة الصليبية الثالثة بجهدها الشجاع لتحافظ على تلك الدويلات لمائة عام أخر. على أن مملكة القدس الضئيلة وأخواتها الإمارات كانت تاجا واهيا لطاقة لها حماس كبير. فطوال ثلاثة قرون لم يكد هناك زعيم فى أوروبا إلا وأقسم بحماس فى وقت ما على الذهاب إلى الحرب المقدسة ؛ ولم يكن هناك بلد تقاعس عن إرسال الجنود للحرب من أجل العالم المسيحي فى الشرق؛ وكانت القدس فى ذهن كل رجل وكل امرأة ؛ ومع ذلك ، كانت الجهود المبذولة للإستيلاء على المدينة المقدسة أو لإستعادتها يحكمها الهوى والبلادة على نحو خاص . ولم يكن لتلك الجهود ما كان يُرتجى من الأوروبيين الغربيين من أثر على التاريخ العام . إن عصر الحملات الصليبية واحد من أهم العصور فى تاريخ الحضارة الغربية ؛ فعند بدايته ، كانت أوروبا الغربية تنهض لتوها من فترة طويلة من الغزوات البربرية التى نطلق عليها العصور المظلمة ، وعند نهايته ، كانت الزهرة العظيمة التى نطلق عليها "النهضة" قد بدأت تتفتح لتوها ؛ غير أننا لا نستطيع أن نعزو أي شق من هذا التطور إلى الصليبيين مباشرة، فلا شأن للصليبيين بما ساد الغرب من أمن جديد مكّن التجار والدارسين من الإرتحال كما يحلو لهم . لقد أتيحت بالفعل إمكانية الحصول على ما تناهى إليه العالم الإسلامى من علم عن طريق أسبانيا ؛ وكان الطلاب ، مثل جربرت (أوف أوريلاك)[٢]، يرتادون مراكز

---

(١) (المترجم) هابسبرج : Hapsberg إسم أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا والمجر (١٢٧٨-١٩١٨) وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠) والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٣٨-١٨٠٦)

(٢) (المترجم) جربرت (أوف أوريلاك) : Gerbert of Aurillac هو البابا سيلفستر الثانىSylverster II ، ولد فى ٩٤٥م تقريبا في أوريلاك بفرنسا ، ومات يوم ١٢ مايو ١٠٠٣م فى روما، اشتهر بإنجازاته الدراسية ومجالات التقدم التى أدخلها فى التعليم ، وأحكامه السياسية المتبصّرة.

خريطة رقم (٥) الشرق الفرنجى



التعليم الأسبانية . وطوال الحقبة الصليبية ذاتها ، كانت صقلية ، وليس أراضى أوتريميه، بمثابة مكان التقاء الثقافات العربية واليونانية والغربية ؛ ومن الناحية الفكرية لم تضف أوتريميه شيئا على وجه التقريب[٣] . وليس أدل على ذلك من أن رحلا له وزنه مثل القديس لويس يمضى سنوات عدة هناك دون أن تضيف شيئا إلى نظرته الثقافية. وإن كان الامبراطور فريدريك الثانى قد اهتم بالحضارة الشرقية ، فإنما يعزى ذلك إلى نشأته فى صقلية . ولم تسهم أوتريميه فى تقدم الفن الغربى ، خلا عالم العمارة العسكرية ، وربما فى تقديم القوس المدبب؛ وفى مجال فن الحرب – بخلاف بناء الحصون – أظهر الغرب المرة تلو الأخرى أنه لم يتعلم شيئا من الحملات الصليبية ؛ إذ تكررت نفس الأخطاء فى كل حملة من الحملة الصليبية الأولى إلى حملة نيكوبوليس الصليبية . لقد كانت ظروف الحرب فى الشرق تختلف اختلافا شاسعا عنها فى أوروبا الغربية بحيث كان الفرسان المقيمون فى أوتريميه هم الذين اهتموا وحدهم باسترجاع التجارب السابقة . ومن الجائز أن يكون مستوى المعيشة العام فى الغرب قد ارتفع نتيجة لرغبة الجنود والحجاج العائدين فى تقليد أوجه الراحة التى لمسوها فى أوتريميه ؛ على أن التجارة بين الشرق والغرب لم تكن تعتمد عليهم فى وجودها ، برغم ازديادها نتيجة للحملات الصليبية.

الحملات الصليبية والبابوية

ولم تترك الحملات الصليبية بصماتها إلا على بعض جوانب التطورات السياسية لأوروبا الغربية . ذلك أن أحد الأهداف التى أعرب عنها البابا إيربان فى تبشيره بالحملات الصليبية هو أن يجد البارونات المشاغبون المحاربون شيئا مفيدا يفعلونه بدلا من إنفاق طاقاتهم فى الحروب الأهلية فى الوطن ؛ وليس هناك من شك فى أن إزاحة قطاعات كبيرة من ذلك العنصر الجامح وإرساله إلى الشرق قد ساعد على تنامى السلطة الملكية فى الغرب ، مما كان له أكبر الآثار الضارة بالبابوية . على أن البابوية ذاتها قد أصابت فائدة فى الوقت نفسه ؛ ذلك أن البابا قد أطلق الحملة الصليبية كحركة مسيحية دولية تحت قيادته ، وكان لنجاحها الأولى أن ازاد كثيرا من سلطته ومكانته . وكان الصليبيون جميعا ينتمون إلى رعيته ؛ فغزواتهم هي غزواته . ولأن البطرقيات القديمة فى أنطاكية والقدس والقسطنطينية اندرجت تحت سلطانه الواحدة تلو

---

(٣) للإطلاع على حياة أوتريميه الفكرية أنظر أدناه المرفق الثاني.

الأخرى ، فقد بدا أن مطالبته بأن يكون رئيس العالم المسيحي كان لها ما يبررها . وفي الشؤون الكنسيّة اتسع سلطانه اتساعا كبيرا ؛ فقد اعترفت المجامع التي تعقد في أي مكان من العالم المسيحي بسيادته الروحية ؛ وكان المبشرون التابعون له يرتحلون إلى أقاصي الأرض كأثيوبيا والصين . وكانت الحركة كلها بمثابة حافز لتنظيم المحكمة العليا البابوية على أساس دولي يجاوز للغاية عما كان عليه فيما سبق ، وقد لعبت دورا كبيرا في تطوير القانون الكنسي[٤]. ولو أن الباباوات قنعوا بحصاد المنافع الكنسية وحسب، لتوفر لهم المبرر القوي للرضا عن أنفسهم ؛ بيد أن الآونة لم تكن مهيّأة بعد للفصل الواضح بين السياسة الدينية والدنيوية ؛ وفي السياسة الدنيوية اعترى البابوية خداع النفس ؛ فليست الحملة الصليبية جديرة بالاحترام إلا إذا كانت موجّهة ضد الكفرة ؛ والحملة الصليبية الرابعة تم توجيهها ، إن لم يكن تبشيرها ، ضد مسيحيي الشرق ، تلتها حملة صليبية ضد هراطقة جنوب فرنسا ومَن أظهر التعاطف معهم من النبلاء ، وأعقب ذلك حملات صليبية تم التبشير بها ضد هوهنشتوفن ؛ إلى أن انتهى الأمر بالحملة الصليبية على أنها تعنى أية حرب ضد أعداء السياسة البابوية ، واستخدمت ما تملكه الكنيسة من روحانيات غفرانية وثواب أخروي لدعم طموحات الكرسي البابوي. وأفلح الباباوات في تدمير أباطرة الشرق والغرب على السواء ، مما زج بهم في أوضاع مشينة في الحرب الصقلية والأسر الأفينيوني. لقد غُلّفت الحرب المقدسة لتصبح مسرحية هزلية مأساوية.

الحملات الصليبية والإسلام

وبغض النظر عن اتساع سلطة روما الروحانية ، فإن أهم فائدة حصل عليها العالم المسيحي الغربي من الحملات الصليبية كانت فائدة سلبية . ذلك أنه قبل ابتداء الحملات الصليبية كانت أهم مراكز الحضارة في الشرق متمركزة في القسطنطينية وفي القاهرة ، وقبل انقضائها نقلت الحضارة مراكزها إلى إيطاليا وبلدان الغرب الصغيرة. ولم تكن الحملات الصليبية السبب الوحيد لاضمحلال العالم الإسلامي ؛ فالغزوات التركية دمرت فعلا الخلافة العباسية في بغداد ، وحتى بدون الحملات الصليبية كان لا بد للغزوات التركية أن تُسقط في نهاية الأمر الخلافة الفاطمية في مصر؛ ولولا استفزازات الحرب المتواترة ضد الفرنج لاكتمل اندماج الأتراك في العالم

(٤) See Ullmann, *Medieval Papalism*, pp. 120-1, 128-9.

العربي ولقدموا لـه حيوية وقـوة جديدتين دون تدمير وحدته الأساسية . وكـانت الغزوات المغولية أشد تدميرا للحضارة العربيـة ، وليـس فـى الإمكـان إلقـاء اللـوم علـى الحملات الصليبية لمجيء المغول . على أنـه لـولا الحمـلات الصليبيـة لكـان العـرب أقـدر بكثير على التصدى للعدوان المغولى ، وكانت الدولة الفرنجية الدخيلة بمثابة قـرح متقيّح لا سبيل للمسلمين إلى نسيانه ؛ وطالما شغلهم القـرح فـلا سـبيل قـط لأن يركـزوا كـل انتباههم على المشاكل الأخرى.

بيد أن الضرر الحقيقي الذى ألحقته الحملات الصليبية بالإسلام كـان أكـثر خبثـا . كانت الدولة الإسلامية قائمة على الحكـم الدينـى ، ويتوقـف صلاحهـا السياسـي علـى الخلافة المتمثلة فى خط من الملوك الدينين وهبتهم الأعراف استخلافا وراثيا . ولقـد جـاء الهجوم الصليبي عندمـا كـانت الخلافـة العباسـية عـاجزة سياسيا أو جغرافيـا عـن قيـادة الإسلام للتصدى له ؛ و لم تستطع الخلافة الفاطميـة - بـالنظر اليهـا مـن منظـور يخـالف المنظور السنيّ - أن تسيطر على نطاق واسع يحظى بما يكفى من الولاء . وكانَ الرجـال الذين نهضوا لإلحاق الهزيمة بالمسيحيين ، مثـل نورالديـن وصـلاح الديـن ، شـخصيات بطولية محسورة نالت الإحترام والولاء ، ذلك أنه لم يكـن ممكنـا قـط قبـول الأيوبيـين ، برغم ما كانوا عليه من اقتدار بالغ ، كـأعلى قـادة للإسـلام لأنهـم ليسـوا بخلفـاء ؛ ولم يكونوا من نسل النبوة و لم يكن لهم مكان ملائم فى الحكم الدينى الإسلامى. ولقد يسر تدمير المغول لبغداد مهمة المسلمين على نحو أو آخر ؛ فقد تمكن المماليك من إقامة دولـة دائمة في مصر لأنه لم يعد فى بغداد خلافة شرعية ، سوى خط مصطنع قابع فى الظـل تحت الحجز التشريفى فى القاهرة . وفى نهاية الأمر حل سـلاطين آل عثمـان المشـكلة بأن تولوا الخلافة هم أنفسهم ؛ وقبلهم المسلمون لشـدة قوتهـم ، ولكنـه لم يكـن قبـولا بكل الإخلاص لأنهم كانوا كذلك مغتصبين ولا ينتسبون إلى بيت النبوة. ولقد سمحت المسيحية منذ البداية بالفصل بين مـا لقيصـر ومـا للـرب، ومـن ثـم، لم تفقـد المسـيحية حيويتها عندما انهار مفهوم مدينة الرب السياسية غـير المقسـمة الـذى كـان سـائدا فـى العصر الوسيط، لم تتعطل حيويتها ؛ لكن الإسلام وحدة سياسية ودينية فـى آن واحـد؛ وقد تصدعت هذه الوحدة قبل الحملات الصليبية ، وقد تسـببت أحـداث تلـك القـرون فى توسيع الصدع بحيث لم يكن هناك سبيل إلى رتقه . وقد أنجز سلاطين عثمان العظام إصلاحا سطحيا ولكن إلى حين ؛ فقد دام الصدع حتى يومنا هذا.

غير أن الضرر الأكبر تمثل فيما تركته الحرب المقدسة من آثار على روح الإسـلام . فأي دين يقوم على أساس تنزيل شامل لابد من أن يُظهر بعـض الإزدراء لغير المؤمـنين؛

ولكن الإسلام لم يكن متعصبا فى أيامه الأولى ؛ واعتبر النبى أن اليهود والمسيحيين تلقوا شيئا من التنزيل ولذلك لا يتعين اضطهادهم ؛ وفى ظل الخلفاء الأوائل لعب المسيحيون دورا مشرفا فى المجتمع الإسلامي ، وكان هناك عدد كبير لافت للنظر من المفكرين والكتاب العرب من المسيحيين الذين قدموا دافعا فكريا مفيدا ؛ ذلك أن المسلمين ، باعتمادهم على كلام الله ، انصرفوا بكل وقتهم وجهدهم إلى القرآن ، وركنوا إلى السكون و لم يذهبوا بتفكيرهم مذاهب شتى. كما أن التنافس بين الخلافة وبيزنطة المسيحية لم يكن يخلوا من الود ؛ فقد كان الدارسون والتقنيون فى حيئة وذهوب بين الإمبراطوريتين مما عاد بالفائدة المتبادلة . وكان فى الحرب المقدسة التى بدأها الفرنج دمار تلك العلاقات الحسنة ؛ وما أظهره الصليبيون من تعصب وحشى رد عليه المسلمون بتعصب آخذ فى التزايد ، أما ما كان يتحلى به صلاح الدين وأسرته من إنسانية واسعة الأفق ، فسرعان من صاق نطاقه وأصبح شيئا نادرا بين المؤمنين. وبحلول عصر المماليك بات المسلمون كالصليبيين على نفس القدر من ضيق الأفق ، وكان رعاياهم المسيحيون من بين أول الذين عانوا ؛ و لم يستعيدوا قط ما ساد بينهم وبين جيرانهم وأسيادهم المسلمين من أُلفة ؛ فخبت حياتهم الفكرية ، وانطفأ معها ما كان لها من تأثير واسع على الإسلام . وباستثناء فارس بما لها من تقاليد هرطيقية مزعجة ، توارى المسلمون خلف أستار عقيدتهم ؛ وليست العقيدة المتعصبة بقادرة على التقدم.

الحملات الصليبية والعالم المسيحي الشرقي

كان ما ألحقته الحملات الصليبية من ضرر بالإسلام ضئيلا بمقارنته بما ألحقته من أضرار بالعالم المسيحى الشرقى . وقد أمر البابا إيربان الثانى الصليبيين بالذهاب إلى الشرق عونا واستنقاذا لمسيحيي الشرق ؛ وكان استنقاذا غريبا؛ إذ عند انتهائه كان العالم المسيحى الشرقي يعيش فى ظل سيطرة الكفرة ، و لم يؤد ما بذله الصليبيون من جهد جهيد إلى تخليصه. وعندما استقر الصليبيون فى الشرق لم تكن معاملتهم لرعاياهم المسيحيين بأفضل مما كان يفعله الخليفة من قبلهم ، ولا شك فى أن الصليبيين كانوا في واقع الأمر أشد قسوة لأنهم تدخلوا فيما كانت تمارسه الكنائس المحلية من ممارسات دينية ؛ وحينما طُردوا تركوا المسيحيين المحليين بلا حماية يتحملون سخط الغزاة المسلمين . ومما لا خلاف عليه أن المسيحيين الوطنيين تلقوا الصاع صاعين من هذا السخط بسبب اعتقادهم اليائس بأن المغول سوف يعطونهم الحرية الدائمة التى لم

يحصلوا عليها من الأتراك ، وكان عقابهم قاسيا وكاملا ؛ إذ أثقلتهم القيود القاسية والمهانة، وانتهى بهم الأمر إلى اهمالهم. حتى أراضيهم لم تسلم من العقاب ؛ فقد خرب الخط السورى الساحلي الجميل واستحال قفرا . أما المدينة المقدسة ذاتها فقد غرقت مهمَلة فى اضمحلال طويل لا اطمئنان فيه.

وواكبت مأساة المسيحيين السيريان فشل الحملات الصليبية ؛ لكن تدمير بيزنطة ترتب على سوء نية عمدى . إن الكارثة الحقيقية للحملات الصليبية تتمثل فى عجز العالم المسيحى الغربي عن فهم بيزنطة. وطوال العصور كان هناك دائما سياسيون آملون يعتقدون أن شعوب العالم سوف يتحابون ويتفاهمون لو أنهم تقاربوا . وذلك وهم مأساوي . ذلك أنه طالما كان هناك تفاعل بين بيزنطة والغرب ، وإن قل ، ظلت العلاقة بينهما علاقة ودودة ؛ وقد وجد الحجاج المرتزقة الغربيون الترحيب فى المدينة الإمبراطورية وعادوا إلى أوطانهم يقصون الكثير عن روائعها ، غير أنهم لم يكونوا كثرة يمكنها أن تحدث تلاقيا؛ وكان هناك بين الامبراطور البيزنطى والقوى الغربية ما يختلفون عليه أحيانا؛ فكان موضوع الخلاف ينتهى فى الوقت المناسب أو تبتكر بمهارة صيغة ما لتجزئته . وكانت هناك مسائل دينية مستديمة يفاقم من حدتها مطالب البابوية الهلدبراندية[٥]؛ وحتى مع ذلك ، كان بالإمكان الإتفاق على بعض ترتيبات العمل . على أنه فى وجود إصرار من النورمانديين على التوسع فى شرق البحر المتوسط ، بدأ عصر جديد باعث على القلق . وتناطحت المصالح البيزنطية فى صراع حاد مع مصالح الغرب، وقد تم صد النورمانديين ، وأطلقت الحملات الصليبية كحركة مصالحة. على أنه كان هناك سوء فهم منذ البداية ؛ إذ ظن الامبراطور البيزنطى أن واجبه المسيحي المحافظة على حدوده لتكون بمثابة الحصن ضد الأتراك الذين اعتبر أنهم هم الأعداء ؛ وكان الصليبيين يرغبون فى مواصلة التقدم حتى الأراضى المقدسة ؛ إذ جاءوا ليدخلوا فى حرب مقدسة ضد الكفرة من كافة الأجناس . وبينما فشل قادة الصليبين فى تفهم سياسة الامبراطور ، وجد الألوف من الجنود والحجاج أنهم فى أرض بدا لهم فيها أن اللغة والعرف والدين أشياء غريبة تستعصى على فهمهم ومن ثم فهم فى المكان الخطأ؛ لقد توقعوا أن يجدوا الفلاحين والمواطنين فى الأراضى التى يمرون فيها لا يماثلونهم

---

(٥) (المترجم) الهلدبراية نسبة الى البابا Hildebrand وهو البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) ويشتهر بإصراره المفرط على سلطة الكنسية . أصلح الكنيسة وألغى السيمونية (بيع المناصب الكنسية) وغيرها، وطرد الإمبراطور هنرى الرابع من الكنيسة مرتين ، وأعفى أتباع الإمبراطور من الولاء له ...الخ.

وحسب، وإنما يرحبون بهم كذلك ؛ لقد أصابتهم خيبة أمل مزدوجة ؛ ولأنهم فاتهم أن يدركوا أن ما أتوه من سرقة وما اعتادوه من تخريب، لم يكن ليكسبهم إعجاب ضحاياهم أو احترامهم ، فقد شعروا بالأذى والغضب والحقد ؛ ولو قد أتيح الإختيار للجندى الصليبي العادى ، لإختار مهاجمة القسطنطينية وتخريبها قبل ذلك بكثير. غير أن قادة الحملة الصليبية كانوا بادىء الأمر مدركين غاية الإدراك لواجبهم المسيحي وسيطروا على أتباعهم ، ورفض لويس السابع قبول ما نصح به بعض نبلائه وأساقفته من حمل السلاح ضد المدينة المسيحية ؛ ورغم أن هذه الفكرة داعبت فريدريك بارباروسا ، إلا أنه سيطر على تمالك نفسه وتجاوز المدينة . وتُرِكَ أمرُ مهاجمتها للأوغاد الجشعين الذين وجّهوا الحملة الصليبية الرابعة ، فانتهزوا فرصة ضعف بيزنطة المؤقت ليخططوا لتدميرها وينفذوه.

دمار بيزنطة

كانت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، وقد تصور الغربيون أنها آثمة ، طفلا سقيما للغرب الذى دفعه الحرص على رعايته إلى التضحية باحتياجات أبنائه فى الأراضى المقدسة . وكان البابوات أنفسهم متلهفين على إبقاء اليونانيين الكارهين تحت سيطرتهم الكنسية أكثر من تلهفهم على إنقاذ القدس ؛ وعندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم ، دأب كبار الكهنة والسياسيون الغربيون سواء بسواء على العمل الجاد معا لاستعادت السيطرة الغربية . إن الحملات الصليبية لم تعد حركة لحماية العالم المسيحي، وإنما أصبحت حركة لإقامة سلطة الكنيسة الرومانية.

لقد كان إصرار الغربيين على غزو أراضى بيزنطة واستعمارها بمثابة كارثة على مصالح أوتريميه ؛ بل كانت كارثة أكبر على الحضارة الأوروبية ؛ وكانت القسطنطينية ما تزال مركز العالم المسيحى المتحضر . ونرى فى صفحات وليلهاردوين الأثر الذى طبعته على الفرسان الآتين من فرنسا وإيطاليا للإستيلاء عليها : لم يكن بمقدورهم أن يصدقوا أن مثل هذه المدينة الفخيمة موجودة على ظهر الأرض ؛ لقد كانت دون المدن

كلها الحاضرة المتسيدة[٦]؛ ولم يكن رحال الحملة الصليبية الرابعة - كشأن أغلب الغزاة البرابرة - ينتوون تدمير ما وجدوه ، وإنما كانوا يرغبون فى المشاركة فيه والسيطرة عليه، بيد أن ما كان يتسلط عليهم من جشع وحمق ساقهم إعمال معول التخريب فى المدينة حتى دمروها تدميرا . وكان البنادقة دون غيرهم ، بما هم عليه من قدر أعلى من الإستنارة ، هم الذين تعرفوا على أكثر الأشياء نفعا فأنقذوها ؛ ولقد حصدت إيطاليا في الواقع بعض المنافع من اضمحلال بيزنطة وسقوطها ، وأما الفرنج الذين استوطنوا الأراضى البيزنطية ، وبرغم ما أوجدوه فى تلال اليونان وأوديتها من حيوية رومانتيكية مصطنعة ، فقد استعصى عليهم أن يفهموا تقاليد الثقافة اليونانية التى طال عليها الزمن ؛ وأما الإيطاليون ، الذين لم تنقطع قط علاقتهم باليونانيين طويلا ، فكانوا أقدر على تقدير قيمة ما أخذوه . وعندما آذن اضمحلال بيزنطة برحيل علمائها وتفرقهم ، فتحت لهم إيطاليا ذراعيها مرحّبة بهم . لقد كان انتشار الدراسات الإنسانية فى إيطاليا نتيجة غير مباشرة للحملة الصليبية الرابعة.

كانت النهضة الإيطالية فخارا للإنسانية . غير أنه من الأفضل لو أنها تحققت بغير تدمير العالم المسيحى الشرقى . وقد نجت الثقافة البيزنطية من صدمة الحملة الصليبية الرابعة . وفى القرن الرابع عشر وباكورة القرن الخامس عشر ازدهر الفن والفكر البيزنطيين على نحو رائع الوفرة ، لكن القواعد السياسية للإمبراطورية لم تكن آمنة ؛ وفى واقع الأمر ، لم تعد بيزنطة إمبراطورية منذ سنة ١٢٠٤م ، وإنما دولة بين دول كثيرة تضاهيها فى القوة أو أقوى ؛ ولمّا واجهتها عداوة الغرب ومنافسة جيرانها فى البلقان ، لم تعد قادرة على حراسة العالم المسيحى ضد الأتراك . إن الصليبيين أنفسهم هم الذين أقدموا عمدا على هدم دفاعات العالم المسيحى ، ومن ثم يسّروا للكفرة عبور المضايق والتوغل إلى قلب أوروبا . إن الشهداء الحقيقيين فى الحملات الصليبية ليسوا هم الذين سقطوا فى حطين أو أمام أبراج عكا ، وإنما هم الأبرياء من مسيحيى البلقان، وكذا مسيحيى سوريا والأناضول ، الذين كان مصيرهم القتل والإسترقاق.

أما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من أوجه الفشل البيّن لا تفسير له. لقد كانوا يحاربون لنصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت

---

(٦) "Or poez savoir que mult esgarderent Costantinople cil qui onques mais l'avoient veüe; que il ne pooient mie cuidier que si riche ville peüst estre en tot le monde.... Muls nel poist croire se il ne le veïst a l'oil le lonc et lé de la ville, qui de totes les autres ere soveraine" (Villehardouin, ed. Faral., i, p. 130)

قضية الرب تلك . وفى فورة النجاح الأولى وضعوا عنوانا لتواريخهم Gesta Dei per Francos، أى (الفرنج قاموا بعمل الرب) ، غير أن الحملة الصليبية الأولى أعقبتها سلسلة طويلة من الكوارث ، وحتى انتصارات الحملة الصليبية الثالثة لم يكتب لها تمام ولا يقين . لقد كانت هناك قوى شريرة أحبطت عمل الرب . وفى بادىء الأمر أمكن إلقاء اللائمة على بيزنطة ، وعلى الامبراطور المنشق بكنيسته ، وعلى الشعب الكنود الذى رفض الإعتراف برسالة الصليبين الإلهية . وبعد الحملة الصليبية الرابعة لم يعد ممكنا لهذه الذريعة أن تظل قائمة ، ومع ذلك أخذت الأحوال تسوء بصورة مطردة ؛ وربما زعم المبشرون الأخلاقيون أن الرب كان غاضبا على محاربيه لما ارتكبوه من آثام ؛ وانطوى ذلك الزعم على شئ من الصدق وأن شئنا تفسيرا كاملا فإن الحملة انهارت عندما قاد القديس لويس جيشه إلى واحدة من أعظم الكوارث التى مر بها الصليبيون في تاريخهم ؛ ذلك أن القديس لويس كان رجلا يظن عالَم العصور الوسطى أنه طاهر الذيل بلا آثام . إن ما قضى على الحروب المقدسة فى واقع الأمر لم يكن الشر بقدر ما كان الغباء ؛ ولا ضير ، فتلك هي الطبيعة البشرية ، إذ يعترف المرء طواعية أنه آثم ولا يعترف بأنه أحمق ؛ وليس فى الصليبيين مَنْ يعترف بأن ما ارتكبوه فعلا من جرائم لم يكن سوى جهل ضائق أفقه وبصيرة عمياء مستهترة.

كانت العقيدة أهم الدوافع التى استحثت الجيوش المسيحية على الإتجاه شرقا . ولاقت من الصعاب ما لا يخطر على قلب بشر كي تفوز بالنصر فى الحملة الصليبية الأولى التى بدا نجاحها معجزة من المعجزات ، ولذا توقع الصليبيون أن تستمر المعجزات لتنقذهم فى أوقات الشدة ، ولأنهم كانوا على ثقة من تدخل المعجزات ، فقد أصبحوا متهورين . وظلوا حتى النهاية فى نيكوبوليس - كما كان حالهم فى أنطاكية - على يقين من أن السماء ستمد إليهم يد العون . ومرة أخرى ، جعلتهم عقيدتهم - بكل بساطتها - متعصبين . لقد كان ربّهم ربا غيورا ، ولم يكن بوسعهم يتفهموا أن ربهم يمكن أن يكون بنفس قوة اله المسلمين، وكان كل من يظهر تسامحا للكفار خائنا فى نظرهم، وحتى أولئك الذين يمارسون طقوسا تغاير طقوسهم فى عبادة كانوا مثار ارتياب وتأسى.

ودائما ما كانت هذه العقيدة الأصيلة مرتبطة بجشع لا حياء فيه . وقليل هم المسيحيون الذين يعتقدون دوما أنه من غير المناسب الربط بين عمل الرب واكتساب المزايا المادية ، وأن الصواب أن ينتزع جنود الرب الأراضى والثروة من الكفرة ، وأن سرقة الهراطقة والإنشقاقيين لها ما يبررها كذلك . لقد ساعدت الطموحات الدنيوية فى

إيجاد روح الأقدار التى كانت بمثابة الأساس للكثير من نجاح الحركة فى أول أمرها. غير أن الجشع وشهوة القوة سيدان فيهما خطر ؛ إذ أنهما يولّدان قلة الصبر ، ذلك أن حياة الإنسان قصيرة وهو يتعجّل النتائج ؛ ويولّدان الغيرة ، ذلك أن المناصب والممتلكات محدودة ، ومن المحال إرضاء كل طالب . ولقد استدامت العداوات بين الفرنج الذين استقروا فى الشرق وبين أولائك الذين جاءوا لمحاربة الكفرة والبحث عن الثروة ؛ ونظر هؤلاء وأولائك إلى الحرب من وجهة نظر مختلفة ، وفى خضم الحسد وانعدام الثقة والمكائد ، لم تتهيّأ فرصة النجاح الكبير إلا للقليل من الحملات ، وفاقم الجهل المشاحرات والإفتقار إلى القدرة . وشيئا فشيئا راح المستعمرون يكيّفون أنفسهم مع أسلوب الحياة والمناخ فى الشرق ؛ وبدأوا يتعلمون كيف يحارب أعداؤهم وكيف يصادقونهم . أما الصليبي الوافد حديثا ، فقد وجد نفسه فى عالم غريب عليه تماما ، وهو عادة على قدر من التكبّر يحول دون أن يسلم بنقائصه؛ فامتلأ نفورا من أبناء عمومته المستقرين فى أوتريميه وأعرض عن الإستماع إليهم ؛ وهكذا وقعت الحملة تلو الأخرى فى نفس الأخطاء وفى نفس النهاية المؤسفة. وربما كان بوسع مستعمرى أوتريميه أن يبلغوا نظرة أوسع ولكن جنود الغرب جاءوا ليحاربوا من أجل الرب المسيحى.

الافتقار إلى قائد

ولو كانت هناك قيادة قوية وذكية لكانت خليقة بأن تنقذ الحركة . غير أن الخلفية الإقطاعية التى جاء منها الصليبيون جعلت من الصعب قبول قائد من القواد . لقد كانت الحملات الصليبية من شأن البابا ، ونادرا ما كان المندوبون البابويون جنرالات أكفاء . وكان هناك الكثير من الرجال المقتدرين بين ملوك القدس ، لكن سلطتهم على رعاياهم كانت ضئيلة ، وانعدمت سلطتهم على حلفائهم الزائرين . أما الأنظمة الدينية العسكرية ، التى كانت توفر أروع الجنود وأكثرهم خبرة ، فكانت مستقلة وقد سادت الغيرة فيما بينها . وبدا فى وقت من الأوقات أن الجيوش الوطنية التى يقودها الملك بمثابة سلاح أفضل؛ ولكن ، على الرغم من أن الملك ريتشارد الإنجليزى ، ذا العبقرية العسكرية ، كان واحدا من القادة الناجحين القلائل بين الصليبيين ، كانت الحملات الملكية الأخرى مشؤومة كلها بلا استثناء . وكان من العسير على أي عاهل أن يخرج فى حملة لمدة طويلة فى أماكن تبعد كثيرا عن أراضيه ؛ وكانت إقامة قلب الأسد وإقامة

القديس لويس في الشرق على حساب رفاهية انجلترا وفرنسا . وكانت التكلفة المالية خاصة باهظة. وكان بمقدور المدن الإيطالية أن تجعل من الحملات الصليبية شيئا مربحا ؛ وربما كان النبلاء المستقلون الآملون في العثور على الضياع أو التزوج من الوريثات في أوتريميه يجدون عوضا عمّا تكبدوه من أموال ، أما إرسال الجيش الملكي إلى ما وراء البحار فكان مشروعا باهظ التكلفة بأقل القليل من الأمل في التعويض المادي ، ومن ثم يتعين جمع ضرائب خاصة في سائر أنحاء المملكة ؛ ولا غرابة في أن يفضّل بعض الملوك من ذوي التفكير العملي ، مثل فيليب الرابع الفرنسي ، أن يجمع الضرائب ثم يظل ماكثا في بلده ولم يكن ممكنا في أي حال العثور على القائد المثالي الجندي والدبلوماسي العظيم الذي يتوفر له وقت ومال ينفقه في الشرق ، وإدراك واسع بالأساليب الشرقية. ولم يكن لنا في واقع الحال أن نلحظ تناهي الحركة الصليبية إلى الفشل بقدر ما نلاحظ أنه كان عليها أن تصيب نجاحا، وأن على أوتريميه أن تبقى لمائتي عام بعد أن تحرز سوى نصر واحد بعد تأسيسها المشهود.

إن انتصار الحملات الصليبية إنما هو انتصار للعقيدة . وما العقيدة بلا حكمة إلا خطر ماثل . وبمنطق قوانين التاريخ الصارمة، فإن العالم كله يكفّر عما يرتكبه كل مواطن فيه من جرائم وحماقات . وفي سياق تفاعل وتلاقي الشرق والغرب الطويل الذي نمت فيه حضارتنا ، كانت الحملات الصليبية حدثا فاجعا ومدمّرا . وإذ ينظر المؤرخ وراءه عبر القرون إلى قصتها الرائعة، لا بد وأن يجد أن اعجابه بها تغلله سحابة من الأسى لكونها شاهدا على قصور الطبيعة البشرية . لقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كان فيها كثير من الإخلاص وقليل من الفهم . لقد لوثت المثل العليا بالقسوة والجشع ، ولطخت الجسارة والجلَد بالورع الأعمى الضيق؛ ولم تعد الحرب المقدسة أن تكون تزمتا طويلا من التعصب باسم الرب ، وما ذاك إلا إثم في حق الروح القدس.

المرفقات:

المرفق الأول: المراجع الرئيسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

المرفق الثاني: الحياة الفكرية فى أوتريميه

المرفق الأول

المراجع الرئيسية
لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

(١) المراجع اليونانية

ليست المراجع اليونانية بذات أهمية إلا فى تاريخ الحملة الصليبية الرابعة . وأهم مؤرخ لهذه القصة هو[١] Choniates Nictas ويتناول المؤرخ[٢] George Acropolites الحملة الصليبية الرابعة والفترة حتى الإسترجاع البيزنطى للمدينة . أما الفترة التى تلت ، فإن أهم تاريخ هو تاريخ George Pachymer [٣].

ويتناول تاريخا المؤرخين القبرصيين اليونانيين[٤] Leontius Makhaeras وGeorge Bustron[٥] باقتضاب كبير الفترة السابقة على القرن الرابع عشر[٦].

---

(١) انظر أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢٧

(٢) Edited by Meisenberg in the Teubner series

(٣) Published in the Bonn Corpus

(٤) *Recital concerning the Sweet Land of Cyprus,* edited with a translation by Dawkins

(٥) edited in Sathas, vol. ii.

(٦) يورد Neophytus غزو ريتشارد الأول لقبرص فى *De Calamitatibus Cypri,* edited by Stubbs and published as preface to the *Itinerarium* (see above, vol. ii, bibliography)

(٢) المراجع اللاتينية والفرنسية القديمة

تعتبر أهم مجموعة تواريخ تتناول أوتريميه من الحملة الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا هي مجموعة استرسالات وليم الصورى William of Tyre الفرنسية القديمة . وحتى سنة ١١٩٨م يبدو أن تاريخ إرنول Ernoul وهو المصدر الرئيسى ، يبدو أنه مفقود ، ومنه التارخ الموحود 'Ernoul' or Bernard the Treasurer والمخطوطتان C و G لتاريخ هرقل Estoire d'Eracles تعتبر أقرب النسخ ، والمخطوطات A and B المتماثلتان ، وD التى تختلف عنهما اختلافا طفيفا ، تعتبر مسودات أخرى . ومن سنة ١١٩٨م إلى سنة ١٢٠٥م تعتبر كل النسخ متطابقة . ومن سنة ١٢٠٥م قدُما يتطابق كل من'Ernoul' و Cو G و D من التاريخ Estoire حتى سنة ١٢٢٩م التى ينتهى فيها .'Ernoul' ثم تتبع المخطوطتان C و ـ G باختلاف طفيف – المخطوطتين A و B من الـ Estoire الذى لا علاقة له منذ سنة ١٢٠٥م سوى القليل بتاريخ . 'Ernoul' وتنتهى المخطوطة A فى سنة ١٢٤٨م ، وتستمر المخطوطات B, C and D حتى السنوات ١٢٦٦م و ١٢٧٥م و١٢٧٧ م . وفى تلك الأثناء يوجد استرسال آخر ، يعرف باسم مخطوطة Rothelin، يغطى الفتى من ١٢٢٩م إلى ١٢٦١م ؛ ويقينا نُشر فى مكان ما فى فرنسا[٧]. وأما النسخة الموجودة من حوليات الأرض المقدسة Annals de Terre Sainte فيبدو أنها تجميع مختصر لإحدى مصادر استرسالات وليم . وأما مخطوطات الفترة من ١٢٤٨م قدُما فتكاد أن تكون مطابقة لها[٨].

أما التجميع الذى تم فى بدايات القرن الرابع عشر ، والمعروف باسم Gestes des Chiprois، فيبدأ بتاريخ مقتضب للأرض المقدسة brief Chronique de Terre Sainte، من ١١٣١م إلى ١٢٢٢م ، وهو يقوم على أساس حوليات الأرض المقدسة Annales de Terre Sainte والقسم الثانى عبارة عن تاريخ الحروب التى دارت بين آل إبلين والإمبراطوريين ، وقد كتبها فيليب النوفارى Philip of Novara سنة ١٢٤٥م تقريبا ، بتعليقا من ترجمته الذاتية ، وهو إيطالي يعيش فى قبرص ويكتب بالفرنسية . وتبدو كتابات فيليب نابضة بالحياة ولها طلاوة خاصة ؛ وهو يدرج فى سرده قصائد شعرية طويلة من نظمه هو نفسه ، فيها غضاضة سارة وفطنة، برغم خلوها من البراعة الشعرية

(٧) أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٥٢٨-٩٢٩ و. Cahen *La Syrie du Nord*, pp. 21-5

(٨) أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، ص ٢٣١، الحاشية ١٢.

الكبيرة . وكان فيليب صاحب ولاء متحمس لآل إبلين ، لكنه صادق ودقيق بقدر ما يسمح له ولاؤه . والقسم الأخير من "المآثر "Gestes عبارة عن تاريخ أوتريميه من سنة ١٢٤٩م إلى سنة ١٣٠٩م ، كتبها رجل تعرفه التقاليد على أنه فارس المعبد الصورى Templar of Tyre ويقينا لم يكن من فرسان المعبد هو نفسه ، لكنه شغل فيما يبدو منصب أمين سر السيد الأعظم لنظام المعبد الدينى العسكرى ، وليم (أوف بوجو) . ومن الواضح أنه قد عرف المصدر الذى يقوم على أساسه استرسالات Continuations وليم الصورى . والأرجح أن رجلا معينا هو جيرار المونتريالى قد جمع "المآثر Gestes" فى سنة ١٣٢٥م تقريبا[٩].

ولكل واحدة من الحملات الصليبية الرئيسية مجموعة مؤرخيها . فكان يغطى الحملة الصليبية الثالثة مؤرخون مختلفون من الأنجلو-نورمان، وأهمهم[١٠] Benedict of Peterborough, Richard of Devizes, Ralph of Diceto and William of Newburgh. وتعتبر هذه التواريخ ، مع Libellus de Expugnatione على جانب خاص من الأهمية للفترة المبكرة من الحملة الصليبية قبل وصول ريتشارد قلب الأسد إلى الشرق . كما أنها تحتوى على نسخ من رسائل تتناول شؤون الشرق الأدنى . وفيما يتعلق بحملة الملك ريتشارد وحده ، فإن أهم المراجع هى: المرجع اللاتينى Itinerarium Regis Ricardi: كتبه على ما يبدو أحد مواطنى لندن ، ريتشارد الثالوث المقدس Richard of the Holy Trinity؛ والشعر الفرنسى القديم الذى نظمه[١١] Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte. والمرجعان مرتبطان ببعضهما البعض ارتباطا وثيقا ، وربما كان الإثنان قد اشتقا من مفكرة يومية فقدها جندى فى الجيش الإنجليزى ، وقد كرسها بحماس لمليكه ، وهى صادقة بحسب ايضاحاته المنحازة[١٢]. وترد وجهة النظر الفرنسية فى

---

(٩) نشر المآثر *Gestes* ، جاستون رينود فى نشرة معينة . أنظر Cahen, *op. cit.* pp.25-6 وانظر أيضا Hill, *History of Cyprus,* iii, p. 1144 .

(١٠) نشرت تواريخهم جميعا فى سلسلة . Rolls أنظر ثبت المراجع أدناه ص، ٤٩٧-٤٩٨ ، والمجلد الثانى ص، ٤٩٣ و ٤٩٥.

(١١) أنظر الجزء الثانى ، ثبت المراجع ، ص ٥٤٧.

(١٢) كتب Gaston Paris فى مقدمته لنشرة Ambroise عن اعتقاده أن الـ *Itinerarium* تعتمد على Ambroise. أما الآنسة Miss Norgate, 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the Song of Ambroise" *English Historical Review,* vol. xxv، فتقترح أن Ambroise تعتمد على الـ *Itinerarium* . أما إدواردز Edwards فى مقاله المعنون The Itinerarium Regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte المنشور فى *Essays in Honour of James Tait* (pp. 59 - 77)، فيجادل جدلا مقنعا بأن الإثنين يقومان على أساس مصدر مشترك ضائع . ويسير على وجهة

المقالة المقتضبة التى كتبها[١٣] .Rigord, Gesta Philippi Augusti أما التواريخ الألمانية التى تصف الحملة الصليبية لفريدريك الأول ، مثل "Ansbert, Expeditio Friderici"فتنتهى بوفاة الامبراطور[١٤].

وأهم مصادر الحملة الصليبية الرابعة هو[١٥] Geoffrey of Villehardouni's Conquête de Constantinople وقد كتبه سنة ١٢٠٩م تقريبا فارس قام هو نفسه بدور بارز فى الحملة وكان عما لقاهر Moreaوربما أقام Villehardouin قصته على أساس ملاحظات أخذها آنذاك ؛ وبغض النظر عن تحيزه الشديد إلى الغرب ، يمكن اعتباره شاهدا يعتمد عليه . ويعتبر Conquête de Constantinople الذى كتبه Robert of Clari بمثابة شاهد عيان آخر ، غير أن كاتبه كان أكثر بساطة وجهلا[١٦].

وأهم مصادر الحملة الصليبية الخامسة بخلاف ما كُتب فى أوتريميه هو رسائل الكاردينال[١٧] James of Vitryو Historia Damiatana التى كتبهاOliver of Paderborn الذى كان أمين سر الكاردينال بيلاجيوس . وبرغم ولاء أوليفر لسيده ، فإن ما كتبه نابض بالحياة وموضوعيا بشكل معقول[١٨].

ولم تلهم حملة فريدريك الثانى الصليبية أى كاتب متخصص ؛ غير أن لدينا لحملة القديس لويس الصليبية التاريخ النفيس Histoire de Saint Louis : الذى كتبه John, Sieur of Joinville الذى كان حاضرا فى الحملة ؛ ولم يمنعه إعجابه البالغ بالملك من أن يكتب سردا أمينا وحيًا وشخصيا جدا[١٩].

نظره كل من Hubert و La Monte فى مقدمة ترجمة كل منهما لـ.Ambroise

(١٣) Edited by Delaborde.

(١٤) Edited by Chroust. See Cahen, *op. cit.* p.19 n. 3.

(١٥) النشرة التى نشرها(Faral بمقدمة فرنسية عصرية) هى الأكثر ملاءمة ، ولها مقدمة مفيدة.

(١٦) نشره .Lauer أما الترجمة الأحدث الى الفرنسية العصرية*Poèmes et Récits de la Vieille France*, vol. xvi التى ترجمتها Charlot ، فهى غير كافية وخاصة فيما يتصل بملاحظاتها.

(١٧) نشرهاRöhricht فى Zeitschrift für Kirchengeschichte أنظر ثبت المراجع ادناه.

(١٨) Edited, with his letters, by Hooeweg. The volumes of the *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, edited by Röhricht, contain all the lesser authorities covering the fifth Crusade.

(١٩) أحسن نشرة هى نشرة . de Wailly وأهم مؤرخ آخر لحملة لويس التاسع الصليبية هوWilliam of Nangis الذى كتب بعد الحملة ببضعة عقود.

أما سقوط عكا الأخير فقد أدى إلى حصيلة من المورخين ، ولكنهم جميعا كانوا غائبين عن عكا فيما عدا فارس معبد صور "Templar of Tyre" أما Thaddeus of Naples ، والكاتب المجهول الذى كتب de Exidio Urbis Acconis، فانهما يبالغان بصورة واضحة فى روايتيهما لأغراض الدعاية[٢٠].

وطوال الفترة كلها ، تعد المراسلات البابوية هى الأكثر أهمية ، إلى جانب الرسائل التى بقيت من أعضاء الأنظمة الدينية العسكرية ومن الملكو ومن وزرائهم[٢١].

وعن الشؤون الدستورية ، هناك مرجعان أساسيان هما Philip of Novara's Livre: de Jean d'Ibelin، وهو عمل فقهى رائع كتبه كونت يافا Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois,* vol. i.Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois,* vol. i.Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois,* vol. i. أما The Assises de la Cour des Bourgeois التى جمعت بين عامى ١٢٤٠م و١٢٤٤م ، فنصف الإجراءات التجارية[٢٢] وليست Assises d'Antioch موجودة سوى بالترجمة الأرمينية التى ترجمها حوالى عام ١٢٦٠م Sempad، وهو أخو الملك هيثوم الأول ؛ وتغطى باقتضاب اجراءات وعادات كل من المحاكم البارونية والبورجوازية فى الإمارة[٢٣].

وهناك أعمال هامة مختلفة كتبها مسافرون معاصرون ، وهى نافعة بصورة خاصة فى وصف العلاقات الغربية بالمغول ؛ وأتم تلك الأعمال تقارير عن بعثاتها كتبها[٢٤]

---

(٢٠) See above, p. 414 n.2. The *De Excidio* is published in Martène and Durand, *Inokussuna Coccectio,* vol.v. See also Kingsford in *Transactions of Royal Historical Society,* 3rd series, vol. iii, p. 142 n.2.

(٢١) Innocent III's correspondence is published by Migne, P. L. vols. 214-16: Honorius IV's *Regesta* are edited by Pressutti, Gregory IX's *Registrs* by Auvray, Innocent IV's *Registres* by Bergen, Alexander IV's by Bourel de la Roncière, Urban IV's by Guirard, Clement IV's by Jordan, Gregory X's by Guiraud, Nicholas III's by Gay and Vitte, Honorius IV's by Pron and Nicholas IV's by Langlois, all published in the *Bibliothèque des Ecoles Francaises dà Athènes et de Rome.*

(٢٢) نشرت فى نفس الجزء

(٢٣) نشرها فى البندقية the Mekhitarist Fathers مع ترجمة فرنسية.

(٢٤) Both translated and edited by Rockhill in *Hakluyt Society Publications,* 2nd series, vol. 137

John Pian del Carpine and William of Rubruck ومما يوفر معلومات قيّمة ، وصف الأراضى المقدسة الذى كتبه James of Vitry والوصفين اللاحقين اللذين كتبهما Ludolf of Suchem and Felix Fabri.

(٣) المراجع العربية

سبق ذكر المؤرخين العرب الذين تناولوا حروب صلاح الدين والعقود الأولى من القرن الثالث عشر ، وذلك فى المرفق الأول من المجلد الثانى من هـذا التاريخ . وينتهى التاريخ القيّم الذى كتبه بهاء الدين بوفاة صلاح الدين ، لكـن إبن الأثير ، وأبا شامة (الذى ينقـل عـن عمـاد الديـن)، وكمـال الديـن ، يأخذوننـا إلى داخـل القـرن الثـالث عشر[٢٥] وللفترة المتبقية من ذلك القرن ، هناك مؤرخون عديدون معـاصرون ؛ غـير أن الكثير من أهم تلك التواريخ لم ينشر بعد وليس فى الإمكان قراءتها إلا فى مخطوطاتهـا. ذلك أن أعمال ابن واصل ، التـى تضـم حيـاة الصـالح التـى تعـود حتـى سنة ١٢٥٠م وتاريخ الأيوبيين حتى ١٢٦٣م، موجـودة فـى عـدة مخطوطـات ، وليـس منهـا مـا هـو منشور سوى عدد قليل من المقتبسات الضئيلـة التـى اقتبسـها Reinaud فـىMichaud's Bibliothèque des Croisades, vol. iv ومـع ذلـك ، استعان المؤرخـون اللاحقـون بـابن واصل كما تجلو لهم ، مثل ابن الفـراض والمقريـزى[٢٦] وقـد فُقـدت تمامـا ، أو تكـاد ، حياة بيبرس التي كتبها ابن شداد الجغرافى ؛ كمـا أن حيـاة قلـوون التـى كتبهـا بيـبرس المنصورى مجزأة وإن استخدمها ابن الفـارض[٢٧] ويـورد Reinaud فـى (المرجـع المشـار اليه)[٢٨] مقتطفات مما كتبه ابن عبد الظاهر عن حياة بيبرس وقلوون . ويرد فى تـاريخ ابن العميد القبطى معلومات أصلية عن الفترة حتـى ١٢٦٠م[٢٩]؛ أمـا التـاريخ المجهـول لبطارقة الإسكندرية الذى يتوقف عند نفس التاريخ تقريبـا ، فيعطـى معلومـات جديـدة

(٢٥) انظر اعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢٣.

(٢٦) انظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 68-70

(٢٧) انظر. *ibid.* pp. 75, 78-9

(٢٨) *Ibid. p. 74*

(٢٩) Edited by Cheikho in *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. iii.. وأما الترجمات التى قام بها Erpennius and Ecchelensius فى القرن السـادس عشـر ، فلا تجاوز سـنة ٥١٢ هجرية (١١١٨م).

مأخوذة من مصادر قبطية[٣٠]. أما ما ورد فى تاريخ أبو الفدا[٣١] فهو كله عبارة عن تجميع من مصادر أقدم إلى أن يصل بتاريخه إلى احداث عصره، من حوالى ١٢٩٠م قُدُما[٣٢]. وأما تاريخ يونيني Younini فلا يوجد إلا فى مخطوطة ، ويستمر حتى سنة ١٣١١م، وإن كان يضم نفس المعلومات الواردة فى التاريخ المعاصر للجزرى[٣٣] Al-Jazri.

ومن بين المؤرخين المتأخرين ، بخلاف ابن خلدون والموسوعى ابن خلكان[٣٤]، فإن ابن الفراض يعد الشخصية الأعظم ، وقد كتب تاريخه فى نهاية القرن الرابع عشر ، وهو بدرجة كبيرة تجميع من التواريخ السابقة التى فقد الكثير منها ، ولكنه موضوع بإحساس حقيقي بفن التأريخ[٣٥]، وأما معاصره المقريزى فيفتقر إلى تميّزه ككاتب . وبخلاف بعض معلومات محضة عن مصر ، فإن تواريخه الذى يتناول مصر الأيوبية والمملوكية مشتقة بكاملها من أعمال سابقة ؛ لكنها مكملة ويعتمد عليها وسهلة المنال[٣٦]. أما تاريخ العينى المكتوب قرب منتصف القرن الخامس عشر فهو بالمثل ليس سوى تجميع منقول فيما عدا الفصول الأخيرة[٣٧].

(٤) المصادر الأرمينية

المؤرخون الأرمينيون الذين أرخوا للمملكة الكيليكية مذكورون فى المرفق الأول للمجلد الثانى من هذا التاريخ . وأكثرهم فائدة هو المؤرخ Vartan وخاصة فى الشؤون

(٣٠) النص الكامل ليس منشورا. وترد مقتطفات تتناول باكورة القرن الثالث عشر على هيئة ترجمة فرنسية قام بها Blochet فـي (*Revue de l'Orient Latin*, vol.xi).

(٣١) المقتطفات منشورة فى Recueil, *Historiens Orientaux*, vol. iii.

(٣٢) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٤.

(٣٣) نشر Sauvaget بعضا من تاريخ الجزرى بدءا من سنة ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠م) بترجمة فرنسية.

(٣٤) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٤

(٣٥) لم تُنشر الفصول التى تغطى القرن الثالث عشر . أنظر Cahen, *op. cit.* pp.85-6.

(٣٦) انظر الجزء الثانى ص ٥٣٤. ترد مقتبسات كاملة من "تاريخ مصر" للمقريزى Maqrisi's *History of Egypt* أوردها Blochet فى *Revue de l'Orient Latin*, Vols. viii, ix and x cited above as Maqrisi, viii, ix and x وكذلك "تاريخ سلاطين المماليك" الذى ترجمه Quatremère 2 vols. cited above as Maqrisi; Sultans i and ii.

(٣٧) ترد مقتبسات فى *Recueil, Historiens Orientaux*, vol. ii, p. 2.

المغولية التى تتوفر لديه بشأنها معلومات شخصية مألوفة[٣٨] ولا بد من أن يُذكر ضمن المصادر الأرمينية Flor des Estoires de la Terre d'Orient الذى كتبه بالفرنسية الأمير الأرمينى Hayton (Hethoum of Corycus) بعد تقاعده فى فرنسا فى وقت مبكر من القرن الرابع عشر ؛ ويعد تاريخا قيّما لعصره . كما كتب حوليات بالأرمينية تعتمد على مصادر أرمينية وعلى[٣٩] Annales de Terre Sainte.

وأهم مؤرخى القرن الثالث عشر هو (Bar-Hebraeus ابن العبرى) الذى كتب بالسريانية ، وقد مات سنة ١٢٨٦م عن ستين سنة ، وعلى الرغم من وجود الكثير من الشائعات والأساطير فيما أورده عن الفترات المبكرة ، فإنه عندما يكتب عن الأحداث التى عاصرها فى حياته ، يقدم قدرا كبيرا من المعلومات القيّمة لا توجد فى أي مكان آخر[٤٠]. أما تاريخ رابّان ساوما عن حياة الكاثوليكوس النسطورى مار ياهبهاللاها the Nestorian Catholicus Mar Yahbhallah، وعن سيرة حياته هو نفسه ، التى كُتبت بالأويغورية Ouighur وترجمها مجهول إلى السريانية بعد ذلك بسنوات قليلة ، فهى ذات لما ورد فيها عن الحياة النسطورية فى ظل المغول ، والأهم من ذلك لما تحويه من قصة سفارة رابّان ساوما إلى أوروبا الغربية[٤١].

(٥) المصادر الفارسية

يعتبر تاريخ سلاجقة الروم ، الذى كتبه ابن بيبى ، وبرغم إفراطه فى التفصيلات ، تاريخا قيّما للأناضول أثناء النصف الأول من القرن الثالث عشر[٤٢] كما أن "تاريخ العالم" الذى كتبه رشيد الدين ذو أهمية بالغة لما يحويه من تاريخ المغول . ولقد كتب

---

(٣٨) أنظر الجزء الثانى ، ص ٥٣٧-٥٣٨. والنص الأرمينى الكامل لهذا المؤرخ Vartan الذى نشره Emin سبق نشره فى موسكو سنة ١٨٦١م.

(٣٩) نشرت *Flor* فى *Recueil, Documents Arméniens* vol. ii . وقد نشر Aucher الحوليات الأرمينية فى البندقية سنة ١٨٤٢م . وترد مقتبسات منها فى ، *Recueil, Documents Arméniens*, vol.

(٤٠) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٨.

(٤١) ترجم Budge ما قام به ربّان ساوما Rabban Sauma وذلك فى *The Monks of Kublâi Khaân* ، وأما النص السريانى فقد نشره Bedjian.

(٤٢) نشرت ترجمة تركية ومختصرات فارسية فى Houtsma, *Textes Relatifs à l'histoire des Seldjoukides*, vol. iii and iv .

مدنيا لخانات فارس وعرض فيه وجهات نظرهم[٤٣].

(٦) المصادر الأخرى

ولا يزال التاريخ الجورجي Georgian Chronicle ذا أهمية في تناوله للشؤون القوقازية[٤٤]. وأما التواريخ الروسية القديمة ، وخاصة إصدارات[٤٥] Novgorod Chronicles، فتهتم بالشؤون البيزنطية ، وهي أساسية لدراسة المغول . كما توجد مصادر مغولية مختلفة مفيدة ، أهمها Yuan Ch'ao Pi Shih ، تاريخ المغول الرسمي ، أو السري[٤٦].

---

(٤٣) نشر Berezin العمل كله بترجمة روسية . ونشر Quatremére الجزء الثاني من تاريخ الخانات مع ترجمة فرنسية.

(٤٤) أنظر الجزء الثاني ص ٥٣٨.

(٤٥) أفضل إصدارات *Novgorod Chronicle* هي التي نشرها. Nasonov (Moscow, 1950)

(٤٦) أنظر أعلاه ، ص ٢٨٧، حاشية ١.

المرفق الثانى

الحياة الفكرية فى أوتريميه[1]

كانت الحياة الفكرية في أوتريميه مخيّبة للآمال، بمقارنتها بالحياة الفكرية في صقلية أو أسبانيا . وربما كان المتوقع - كشأن الحال فى باليرمو - أن يكون التلاقى بين الفرنج والشرقيين حافزا لإثارة النشاط الفكرى ؛ غير أن الحقيقة هي أن مجتمع أوتريميه، الذي يتألف في مجمله تقريبا من الجنود والتجار ، لم يكن مناسبا لخلق حياة فكرية عالية المستوى أو المحافظة عليها . وكان هناك الكثير من المثقفين بين الأمراء والنبلاء ؛ وعلى سبيل المثال ، يقال لنا إن الملك بلدوين الثالث والملك أماليك الأول كرسا نفسيهما للآداب ، واشتهر رينالد أمير صيدا باهتمامه بالعلم الإسلامي ، بينما كان همفرى الرابع أمير طورون ذا معرفة فائقة باللغة العربية[2]، وقد أنجبت أوتريميه واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسيطة فى شخص وليم الصورى[3] William of Tyre غير أننا لا نعرف سوى النذر اليسير حول التعليم في أوتريميه . ولا شك أنه كانت هناك - كما هي الحال في الغرب - مدارس ملحقة بأهم الكتدرائيات ؛ وإن كان من الأمور ذات المغزى أن وليم الصورى قد ذهب في صباه إلى فرنسا ليتلقى العلم ، وفضلا عن ذلك ،

(١) أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، صفحتى ٤١٠ و٤٢١.

(٢) أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحات ٤١٠ و٤١٢ و٤٢٢، والجزء الثالث ص ٩٧.

(٣) أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٥٢٧-٥٢٨.

فإن جميع رجال الكنيسة الذين لعبوا دورا بارزا فى تاريخ أوتريميه ولدوا ونشأوا فى الغرب ؛ وكان الكثير من هؤلاء الأساقفة يهتمون بالآداب ، مثل بطريق أنطاكية إيمرى[٤]، أو بالحياة العلمية السائدة ، مثل أسقف عكا فى القرن الثالث عشر ، جيمس (أوف فيترى)[٥]؛ وكانت شتى مشاريع الحملات الصليبية المتأخرة تشجّع تنشيط الإهتمام بجغرافية الشرق[٦]. بيد أن الثقافة الفرنجية فى أوتريميه ظلت فى عمومها استيرادا من الغرب، مع القليل جدا من الإتصال بالثقافة الوطنية ، عدا الفنون . وترك الطب برمته فى أيدى الوطنيين ؛ وقد كان الأمراء يستخدمون الأطباء المسيحيين السوريين على ما يبدو ؛ وعندا رفض الملك أماليك الأول نصيحة أطبائه السوريين وأخذ بنصيحة طبيب فرنجى ، مات بسببه ؛ وما أورده المؤرخ أسامة من أمثلة على الطب الفرنجى يُظهر أنه كان بدائيا على نحو واضح[٧] ويبدو أن الفرنج لم يحاولوا التعلم من الطب الوطنى ، كما كانت عليه الحال في جنوب إيطاليا ، رغم ما يبدو من أن شخصا يدعى ستيفن الأنطاكى قد ترجم بحثا طبيا من اللغة العربية سنة ١٢٢٧م[٨]. ولا توجد سجلات تدل على أن الفرنج بذلوا أي جهد لدراسة الفلسفة المحلية أو المعرفة العلمية ، بخلاف قلة من النبلاء.

ويندرج ما أنتجته أوتريميه الفرنجية من إنتاج أدبى تحت ثلاثة عناوين . أولا ، هناك وهذه - باستثناء التاريخ العظيم الذى كتبه وليم الصورى، وأعمال بعض من تابعوه من أمثال إرنول Ernoul - كتبها رجال ولدوا فى الغرب ، وتنتمى إلى التراث التاريخى لكتابة التواريخ[٩]. وثانيا، هناك حصيلة كبيرة من الأعمال القانونية ؛ إذ كان المستعمرون وذرياتهم عميقى الإهتمام بالأمور القانونية والدستورية ، وكانوا حريصين على كتابة آرائهم وما انتهوا إليه إلى حد لا يبارى في الغرب؛ غير أن ما أعادوا صياغته

---

(٤) كان إيمرى (أوف ليموج Aimery of Limoges) أميًا أو يكاد ، لكنه دأب على مراسلة الأدباء الأوروبيين مثل هرحو أتيريانوس . وترد الرسائل فى Martène and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. i. .

(٥) يُظهر الوصف الذى أورده James of Vitry للأراضى المقدسة اهتماما بالنظريات المحلية المتصلة بالزلازل . (ed. P.P.T.S. pp. 91-2) غير أنه كان شديد الإستهجان للمسلمين وللمسيحيين المحليين بحيث لم يكن له أى اتصال مباشر بهم.

(٦) أنظر Rey, *Les Colonies Franques*, pp. 177-8.

(٧) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٣٦٣ و٤٤٩.

(٨) Leclerc, *La Médecine Arabe*, ii, p. 38 .

(٩) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحات ٥٢٧-٥٢٩؛ والجزء الثالث ، الصفحتين ٥٥٠-٥٥١.

من قوانين كان غربيا صرفا ، وإن أدخلوا عليه بعض التعديلات الضرورية(١٠). وأخيرا، كانت هناك أشعار شعبية ورومانسية؛ إذ كان المستعمرون في أوتريميه يحبون القصائد الحماسية الرومانتيكية في ذلك العصر . وقد رافق الحملات الصليبية أعداد من المنشدين المتجولين وشعراء الألمان الغنائيين ، مثل روديل أو ألبرت (أوف جوهانيدورف(١١). وكان ريموند أمير أنطاكية إبن الشاعر الغنائي البارز وليم التاسع الأكيتاني . وكانت أحداث الحملات الصليبية المثيرة مناسبة كل التناسب لإثراء المواضيع التي يتغنى بها الشعراء ؛ فسرعان ما أصبح جودفرى اللوريني بطلا أسطوريا أدخلت مغامراته في قصائد فارس البجعة (cycle of the Chevalier au Cygne) ؛ وكانت القصائد التي تتناول صباه ونسبه متداولة قبل أن يكتب وليم الصوري تاريخه(١٢). على أن هذه القصائد نُظمت في الغرب . وبالمثل ، نظمت القصيدتين الشعريتين المتصلتين بالحملة الصليبية الأولى في الغرب بصورة شبه يقينية وهما أنشودة أنطاكية وأنشودة القدسChanson d'Antioche and the Chanson de Jerusalem، من واقع المعلومات التي أدلى بها الصليبيون العائدون(١٣). والملحمة الوحيدة التي نُظمت أصلا في أوتريميه هي أنشودة البؤساء Chanson des Chétifs وهي قصة عجيبة عن صليبين أسرهم كيربوجا (Corboran) تختلط فيها أحداث الحملة الصليبية الأولى والحملات الصليبية سنة ١١٠١م على نحو يتيح الفصل بينها. وهذه الملحمة نظمها شاعر مجهول استجابة لرغبة ريموند أمير أنطاكية الصريحة ، وإن لم تتم قبل وفاة ريموند سنة ١١٤٩م(١٤). ويوحي الأساس التاريخي المشوّش غير الدقيق لهذه القصة أن المؤلف كان قد وصل حديثا إلى

---

(١٠) تقوم على أساس القانون الغربي مختلف القواعد *Assises* والأعمال التي كتبها جون الإيليني وفيليب النوفارى. أنظر La Monte, *Feudal Monarchy, passim*.

(١١) من المؤكد أن روديل Rudel زار الشرق على ما يبدو ، إذ أهداه المنشد المتجول ماركابرون Marcabrunقصيدة كرسها له بالكلمات "إلى جوفرى روديل عبر البحار" . غير أن قصة حبه مع الأميرة لوانتين ، ميليسند الطرابلسية Melisende of Tripoli ، *La Princesse Lointaine,* لا بد وأن تعتبر شبه تراثية على الأقل أنظر Chaytor, *The Troubadours*, pp. 44-6. ويقال إن بطرس فيدال Peter Vidal رافق الحملة الصليبية الثالثة حتى قبرص حيث تزوج فتاة يونانية وتحجج أنها وريثة القسطنطينية (*ibid.*pp. 98-9,102). ومن بين الشعراء الألمان الغنائيين ، رافق ألبرت)أوف جوهانسدورف)Albert of Johansdorf الحملة الصليبية الثالثة ، كما فعل فريدريك (أوف هوسين Frederick of Hausen) الذى مات على أية حال قبل وصول الجيش الألماني الى قونية.

(١٢) أنظر Hatem, *Les Poèmes Epiques des Croisades*, pp. 395-400.

(١٣) أنظر Cahen, *op. cit.* pp. 12-16.

(١٤) *Ibid.* pp. 569-76; Hatem, *op. cit.* pp. 375 ff.

الشرق . وكان لمصير الأسرى المسيحيين لدى المسلمين سحر خيالى على الفرنج، ومن ثم نال موضوع البؤساء Chétifs شعبية كبيرة فى أوتريميه وكذلك فى أوروبا[١٥].

وكان لأوتريميه أعمال شعرية أخرى ، وإن لم يكن من نعرف من شعرائها قد ولد فى الشرق . وكان فيليب النوفارى (Philip of Novara) سياسيا ومؤرخا وفقيها قانونيا، وكان إيطالي المولد ، لكنه كان يكتب بالفرنسية، وقد أورد فى تاريخه شعرا ينبض بالحياة وإن لم يكن شعرا رائعا[١٦]. وكتب Philip of Nateuil ، عندما كان أسيرا فى القاهرة قصائد تفيض حنينا إلى وطنه الفرنسى[١٧]. وعلى الرغم من أنه يمكن إعتبار فيليب النوفارى واحدا ممن أوجدوا الثقافة الفرنجية الإقليمية فى قبرص ، فليس أدب أوتريميه ببساطة سوى فرع من الأدب الفرنسى ؛ إذ لم يكن هناك أدب محلى بين رعايا الفرنج فى سوريا لأبناء البلد الأصليين من رعايا للفرنج فى سوريا، على الرغم من أنه فى قبرص واليونان نفسها نشأ فى ظل السيادة الفرنجية أدب يونانى شبه شعبى متأثر تأثرا قويا بالمؤثرات الفرنجية.

وفى واقع الأمر ، لم تجاوز الحياة الفكرية فى أوتريميه حياة مستعمرة فرنجية . وكان لبلاط الملك أو بلاط الأمير سحرا شاملا خلابا، لكن عدد الدارسين المقيمين فى أوتريميه كان ضئيلا ، وقد حالت الحروب والصعاب المالية دون وجود مؤسسات كمراكز دراسة حقيقية يمكنها أن تستوعب المعارف الوطنية المجاورة. وكان غياب هذه المراكز سببا فى أن أمسى إسهام الحملات الصليبية فى أوروبا الغربية ضئيلا على نحو مخيّب للآمال

---

(١٥) قارن تراث اطلاق سراح بوهمند من الأسر)أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٦٥، حاشية ١١ والقصص التى مفادها أن إيدا (مارجرافين النمساوية) كانت أم زنكى (أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٣) وأن أخت برتراند التولوزى تزوجت نورالدين وكانت أم وريثه الصالح. (*ibid.* p. 288 n.1)

(١٦) أنظر أعلاه ، الصفحتين ٢٤٢ و٥٥٥ و Hill, *History of Cyprus*, iii, pp. 1112-15 وعلى ما يبدو، فإن وليم (أوف ماشوت) William of Machaut مؤلف الشعر الحماسى لحملة بطرس القبرصى على مصر ، لم يقم بزيارة الشرق مطلقا.(*ibid.* 1115)

(١٧) أنظر أعلاه ، ص ٢٦٦.

BIBLIOGRAPHY

(Note. This bibliography is supplementary to the bibliographies in vol. I and vol. II of this *History*, and does not include works mentioned there, except when different editions have been used. The same abbreviations are employed; and a few additional abbreviations, used in the footnotes and bibliography of this volume, are given at the end of certain items.)

I. ORIGINAL SOURCES

1. Collections of Sources

Acta Imperii Selecta (ed. J. F. Bohmer). Innsbruck, 1870.

Annales Monastici (ed. H. R. Luard), Rolls Series, 5 vols. London, 1864–9.

Baluzius, S. *Collectio Veterum Monumentorum*, 6 vols. Paris, 1678–1715.

Baluzius, S. *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), 4 vols. Paris, 1914–27.

Bartholomaeis, V. de. *Poesie Provenziale Storiche relative all' Italia.* 2 vols. Istituto Storico Italiano, Rome, 1931.

Bongars, J. *Gesta Dei per Francos*, 2 vols. Hanover, 1611.

Chronicles: Stephen, Henry II and Richard I (ed. Howlett), Rolls Series, 4 vols. London, 1885–90.

Chroust, A. *Quellen zur Geschichte des Kreuzzūges Kaiser Friedrichs I, M.G.H.Ss.*, new series. Berlin, 1928.

Cobham, C. D. *Excerpta Cypria.* Cambridge, 1908.

Cotelerius, J. B. *Ecclesiae Graecae Monumenta*, 4 vols. Paris, 1677–92.

Delaville le Roulx, G. *Cartulaire générale de l'Ordre des Hospitaliers de St Jean de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1894–1904.

Du Chesne, A. *Historiae Francorum Scriptores*, 5 vols. Paris, 1636–49.

Golubovich, G. *Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francescano*, 5 vols. Florence, 1906–27.

Heisenberg, A. *Neue Quellen zur Geschichte des lateinischen Kaisertums.* Munich, 1923.

Historia Diplomatica Friderici Secundi (ed. J. L. A. Huillard-Bréholles), 6 vols. Paris, 1852–61.

Kohler, C. *Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin et des Croisades.* Paris, 1906.

Martène, E. and Durand, U. *Thesaurus Novus Anecdotorum*, 5 vols. Paris, 1717.

Martène, E. and Durand, U. *Veterum Scriptorum et Monumentorum Amplissima Collectio*, 9 vols. Paris, 1727–33.

MAS LATRIE, L. DE. *Documents*, see Bibliography II.

MAS LATRIE, L. DE. *Nouvelles Preuves de l'Histoire de Chypre*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, vols. XXXII, XXXIV and XXXV. Paris, 1871–4.

POTTHAST, A. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2 vols. Berlin, 1874–5.

RAYNALDUS, O. *Annales Ecclesiastici*, 15 vols. Lucca, 1747–56.

Regesta Honorii Papae III (ed. P. Pressutti), 2 vols. Rome, 1888–95.

Regestum Innocentii Papae super Negotio Romani Imperii (ed. F. Kempf), *Miscellanea Historiae Pontificiae*, vol. XII. Rome, 1947.

Registres des Papes, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris:
Alexander IV (ed. Bourel de la Roncière), 2 vols. 1902, 1917.
Gregory IX (ed. Auvray), 2 vols. 1896, 1907.
Gregory X (ed. Guiraud), 2 vols. 1892, 1906.
Innocent IV (ed. Berger), 4 vols. 1884–1921.
Nicholas III (ed. Gay and Vitte), 2 vols. 1898, 1938.
Nicholas IV (ed. Langlois), 2 vols. 1886, 1905.
Urban IV (ed. Guiraud), 4 vols. 1892–1929.

RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.

RÖHRICHT, R. *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, Société de l'Orient Latin. Série Historique, II. Geneva, 1879. (Röhricht, *S.M.Q.B.S.*).

RÖHRICHT, R. *Testimonia Minora de Quinto Bello Sacro*, *ibid.* III. Geneva, 1882.

RYMER, T. *Foedera, Conventiones, Literae et Acta publica inter Reges Angliae*, 4 vols. in 7. London, 1816–69.

SCHWANDTNER, J. G. *Scriptores Rerum Hungaricarum*, 3 vols. Vienna, 1746–8.

STREHLKE, E. *Tabulae Ordinis Teutonici*. Berlin, 1869.

TAFEL, G. L. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856–7.

THEINER, A. *Vetera Monumenta Historica Hungariam Sacram Illustrantia*, 2 vols. Rome, 1859–60.

WATTERICH, J. M. *Pontificum Romanorum qui fuerunt inde ab exeunte saeculo IX usque ad finem saeculi XII Vitae*, 2 vols. Leipsic, 1862.

WINKELMANN, E. *Acta Imperii Inedita Saeculi XIII*, 2 vols. Innsbruck, 1880–5.

2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

Adam, William. *De Modo Saracenos Extirpandi* (ed. Kohler), *R.H.C. Arm.* vol. II.

Alberic of Trois Fontaines. *Chronicon*, in *R.H.F.* vol. XVIII.

Amadi, Francesco. *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*, ed. Mas Latrie. Paris, 1891.

Annales Claustroneoburgenses, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.

Annales de Dunstaplia, in *Annales Monastici*, vol. III.

Annales Januenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
Annales Marbacenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVII.
Annales Romani, in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae.*
Annales Stadenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.
Anonymus Halberstadensis. *De Peregrinatione in Greciam*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.
Ansbert. *Expeditio Friderici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen.*
Assises of Romania (ed. Recoura). Paris, 1930.
Auria, Jacobus. *Annales*, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
Bacon, Roger. *Opus Majus* (ed. Bridges), 3 vols. Oxford, 1900.
Baldwin I, Emperor of Constantinople, letter, in *R.H.F.* vol. XVIII.
Bartholomew of Neocastro. *Historia Sicula*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, vol. XIII, 3.
Bonomel, Ricaud. Poems, in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale.*
Bruno, Bishop of Olmütz, *Bericht* (ed. Höfler), *Abhandlungen der historische Klasse der Bayerische Akademie der Wissenschaft*, series 3, IV, Munich, 1846.
Burcard (Brochard). *Directorium ad Philippum Regem*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
Bustron, Florio, *Chronique de l'Ile de Chypre*, ed. Mas Latrie. Paris, 1886.
Chronica Regia Coloniensis (ed. Waitz), *M.G.H.Ss. in usum scholarum*, 1880.
Chronicle of Mailros (ed. Stevenson). London, 1856.
Collectio de Scandalis Ecclesiae (ed. Stroick), in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. XXIV, Rome, 1931.
Cotton, Bartholomew, *Historia Anglicana* (ed. Luard), Rolls Series. London, 1859.
Dardel, John. *Chronique d'Arménie*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
De Excidio Urbis Acconis, in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol. V.
De Itinere Frisonum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Devastatio Constantinopolitana, in *Annales Herpipolenses*, *M.G.H.Ss.*, vol. XVI.
Dubois, Peter. *De Recuperatione Terre Sancte* (ed. Langlois). Paris, 1891.
Durand, William. *Informatio brevis de Passagio futuro* (ed. Viollet), *Histoire Littéraire de la France*, vol. XXXV. Paris, 1921.
Edward I, King of England. Letter to Joseph of Chauncy, in *P.P.T.S.* vol. V.
Epistola de Morte Friderici Imperatoris, in Chroust, *Quellen.*
Epistolae Cantuarenses (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1865.
Fabri, Felix. *Book of the Wanderings*, trans. Stewart, 3 vols. *P.P.T.S.* vols. VII–IX.
Fidenzio of Padua. *Liber Recuperationis Terrae Sanctae*, in Golubovich, *Biblioteca Bio-bibliografica*, vol. II.
Figuera, Guillem. 'Dun Servientes Far', in Bartholomaeis, *Poesie Provenziale.*
Fragmentum de Captione Damiate, Provencialis textus, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Frederick II, Emperor. Letter to King Henry, in Bohmer, *Acta Imperii Selecta.*
Galvano. *Liber Sancti Passagii Christocolarum contra Saracenos*, extracts (ed. Kohler), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VI. Paris, 1898.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

Gesta Innocentii III, in *M.P.L.* vol. ccxiv.
Gesta Obsidionis Damiete, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Gestes des Chiprois (ed. Raynaud). Geneva, 1887.
Gregory IX, Pope. Letters, in *M.G.H. Epistolae Saeculi*, xiii, vol. i.
Gunther of Pairis. *Historia Constantinopolitana*, in Riant, *Exuviae*, vol. i.
Guyot of Provins, *Œuvres* (ed. Orr). Manchester, 1915.
Haymar Monachus. *De Expugnata Accone* (ed. Riant). Lyons, 1876.
Hayton (Hethoum). *Flos Historiarum Terre Orientis*, in *R.H.C. Arm.* vol. ii.
Hayton (Hethoum). *La Flor des Estoires de la Terre d'Orient*, *ibid.*
Henry II, King of Cyprus. *Informatio ex parte Nunciorum Regis Cypri*, in Mas Latrie, *Documents.*
Historia Peregrinorum, in Chroust, *Quellen.*
Humbert of Romans. *Opus Tripartitum*, in E. Brown, *Appendix ad fasciculum rerum expetendarum et fugiendarum.* London, 1690.
Innocent III, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vols. ccxiv–ccxvii.
John of Ypres. *Chronicon Sythiense Sancti Bertini*, in Martène and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. iii.
John of Tulbia. *De Domino Johanne Rege Jerusalem*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Joinville, John, Sieur of. *Histoire de Saint Louis* (ed. Wailly). Paris, 1874.
Joseph of Chauncy. Letter to Edward I, in *P.P.T.S.* vol. v.
La Broquière, Bertrandon of. *Voyage d'Outremer* (ed. Schefer). Paris, 1892.
Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou (ed. Delaborde), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii. Paris, 1894.
Liber Duellii Christiani in Obsidione Damiate exacti, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Louis IX, King of France. Letter in Baluzius, *Collectio*, vol. iv.
Ludolph of Suchem (Sudheim). *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. xii.
Lull, Ramon. *Liber de Fine*, in Gottron, *Ramon Lulls Kreuzzugsideen*, see Bibliography II.
Machaut, William. *La Prise d'Alexandrie* (ed. Mas Latrie). Geneva, 1877.
Manuscrit de Rothelin, in *R.H.C. Occ.* vol. ii.
Matthew Paris. *Chronica Majora* (ed. Luard), Rolls Society, 7 vols. London, 1872–84.
Matthew Paris. *Historia Minora* (ed. Madden), Rolls Society, 3 vols. London, 1866–9.
Matthew of Westminster. *Flores Historiarum* (ed. Luard), Rolls Society, 3 vols. London, 1890.
Memoria Terre Sancte, in Kohler, *Mélanges*, vol. ii.
Molay, James of. Report to Clement V, in Baluzius, *Vitae Paparum*, vol. iii.
Muntaner, Ramon. *Cronica* (ed. Caroleu). Barcelona, 1886.
Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam (ed. da Silva Lopez). Lisbon, 1844.

Oliver Scholasticus. *Opera*, I. *Historia Damiatana*; II. *Epistolae* (ed. Hooewg), *Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart*, vol. CCII. Tübingen, 1894.
Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss. in usum Scholarum*, 1912.
Philip of Novara. *Le Livre de Forme de Plait*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
Philip of Novara. *Mémoires*, in *Gestes des Chiprois* (English translation by La Monte and Hubert, *The Wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus*. New York, 1936).
Pian del Carpine, John. *Historia Mongolorum* (ed. Pulle). Florence, 1913.
Richard of Devizes. *De Rebus Gestis Ricardi Primi*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. III.
Richard of San Germano, *Chronicon* (ed. Pertz), *M.G.H.Ss.* vol. XIX.
Rigord. *Gesta Philippi Augusti* (ed. Delaborde). Paris, 1882.
Robert de Monte (appendix), in *R.H.F.* vol. XVIII.
Robert of Clary. *La Conquête de Constantinople* (ed. Lauer). Paris, 1924.
Roger of Wendover. *Chronica* (ed. Hewlett), Rolls Series, 3 vols. London, 1886–9.
Rutebeuf. *Onze Poèmes concernant la Croisade* (ed. Bastin and Faral). Paris, 1946.
Salimbene de Adam. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.Ss.* vol. XXXII.
Sanudo, Marino. *Chronique de Romanie*, in Mas Latrie, *Nouvelles Preuves*.
Sanudo, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis*, in Bongars, *Gesta Dei per Francos*, vol. II.
Sequentia Andegavensis, in Riant, *Exuviae*, vol. II.
Sicard of Cremona. *Cronica* (ed. Holder-Egger), *M.G.H.Ss.* vol. XXXI.
'Templar of Tyre.' *Chronique*, in *Gestes des Chiprois*.
Thaddeus of Naples. *Hystoria de Desolacione et Conculcacione Civitatis Acconensis et tocius terre sancte* (ed. Riant). Geneva, 1873.
Thomas of Spalato. *Historia Salonitana*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. III.
Thwrocz, Joannes de. *Illustrissima Hungariae Regum Chronica*, in Schwandtner, *Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. I.
Via ad Terram Sanctam, in Kohler, *Mélanges*, vol. II.
Villaret, Fulk. *Mémoire* (ed. Petit), *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*. Paris, 1889.
Villehardouin, Geoffrey of. *La Conquête de Constantinople* (ed. Faral), 2 vols. Paris, 1938–9.
Vincent of Beauvais. *Speculum Historiale*. Douai, 1624.
Vitry, James of. *Epistolae* (ed. Röhricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, vols. XIV–XVI. Gotha, 1894–6.
Vitry, James of. *History of Jerusalem* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XI.
Wilbrand of Oldenburg. *Reise* (ed. Laurent). Hamburg, 1859.
William le Breton. *Gesta Philippi Regis* and *Philippis* (ed. Delaborde), 2 vols. Paris, 1882, 1885.

William of Newburgh. *Historia Rerum Anglicarum*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. II.
William of Rubruck (Rubruquis). *Itinerarium* (trans. Rockhill), Hakluyt Society, series II, vol. IV. London, 1900.
William of St Pathus. *Vie de Saint Louis* (ed. Delaborde). Paris, 1899.
William of Tripoli. *Tractatus de Statu Saracenorum*, in Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge* (see Bibliography II).
Zaccaria, Benito. *Mémoire*, in Mas Latrie, *Documents*.

3. Greek Sources

Acropolita, George. *Opera* (ed. Heisenberg). Leipsic, 1903.
Bustron, George. Χρονικὸν Κύπρου, in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol II.
Germanus, Patriarch of Constantinople. Ἐπιστολαί, in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. II.
Letter of Greek clergy to Innocent III, in Cotelerius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, vol. III.
Makhaeras, Leontius. *Recital concerning the Sweet Land of Cyprus, entitled Chronicle* (ed. with translation Dawkins), 2 vols. Oxford, 1932.
Mesarites, Nicholas. *Opera*, in Heisenberg, *Neue Quellen*.
'Narrative of the thirteen holy fathers burnt by the Latins', in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. II.
Pachymer, George. *De Michaele et Andronico Palaeologis*, 2 vols. *C.S.H.B.* Bonn, 1835.

4. Arabic and Persian Sources

Al-Aini. *Perles d'Histoire*, extracts in *R.H.C.Or.* vol. II, 2.
Dimashki. *Geography* (ed. Mehren). St Petersburg, 1866.
Histoire des Patriarches d'Alexandrie, extracts (trans. Blochet), *Revue de l'Orient Latin*, vol. XI. Paris, 1908.
Ibn al-Amid. *Chronicle* (ed. Cheikho), *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. III, 1.
Ibn Batuta. *Voyages* (ed. with French translation Defremery and Sanguinetti), 4 vols. Paris, 1879.
Ibn Bibi. *History of the Seldjuks*, Turkish translation (ed. Houtsma), *Textes relatifs à l'histoire des Seldjouqides*, vols. III, IV. Paris, 1902.
Ibn al-Furad. *Chronicle* (part ed. Zouraiq). Beirut, 1935–7.
Ibn Khattikan, Ibn Shedad. *Geography*, extracts (ed. by Cahen), in *Revue des Etudes Islamiques*. Paris, 1936.
Ibn Wasil. *History of the Ayubites*, selections in Reinaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.
Idrisi. *Geography*, ed. Gildemeister, *Zeitschrift für Deutsche Palästina Verein*, vol. VIII. Leipsic, 1885.

Al-Jazari. *Chronique de Damas* (trans. Sauvaget). Paris, 1949.

Juwaini, Sa'd ad-Din Ibn Hamawiya, extracts (trans. Cahen), 'Une Source pour l'Histoire des Croisades', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 28e année, no. 7, 1950.

Maqrisi. *Histoire des Sultans Mamelouks* (trans. Quatremère), 2 vols. Paris, 1837–45.

Muhi ad-Din Ibn Abdazzahir. *Lives of Baibars and Qalawun*, selections in Reynaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.

Rashid ad-Din. *History of the Mongols* (Russian trans. by Berezin), 4 vols. St Petersburg, 1861–88: Part IV, *History of the Mongols of Persia* (ed. with French translation Quatremère). Paris, 1836.

Yakut. *Alphabetical Dictionary of Geography* (ed. Wustenfeld), 6 vols. Leipsic, 1866–73.

5. Armenian, Syriac, Slavonic and Mongol Sources

Ballad on the captivity of Leo, son of King Hethoum I, in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Hayton (Hethoum of Corycus). *Chronological Tables*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Hethoum II, King of Armenia, *Poem*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.

Kirakos of Gantzag. *History* (trans. Brosset). St Petersburg, 1870.

Orbelian, Stephen. *History of Siunia*, Armenian text. Moscow, 1861.

Vartan. *History of the World*, Armenian text. Moscow, 1861.

Rabban Sauma. *History of Rabban Sawma and Mar Yahbhallaha* (trans. Budge), in Budge, *The Monks of Khublai Khan*, see Bibliography II.

Novgorod Chronicle (*Novgorodskaya Pervaya Lietopis*, ed. Nasonov), Academy of Sciences of the U.S.S.R. Moscow/Leningrad, 1950.

Histoire Secrète des Mongols (*Yuan Ch'ao Pi Shih*), Mongol text transcribed in Latin letters, with partial French translation and ed. Pelliot. Paris, 1949.

II. MODERN WORKS

Alphandery, P. 'Les Croisades d'Enfants', in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. LXXIII. Paris, 1916.

Amari, M. *La Guerra del Vespro Siciliano*, 3 vols. Milan, 1886.

Atiya, A. S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.

Atiya, A. S. *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.

Baltrušaitis, J. *Le Problème de l'Ogive et l'Arménie*. Paris, 1936.

Barthold, W. Articles, 'Cingis Khan' and 'Khwaresm', in *Encyclopaedia of Islam*.

Boase, T. S. R. 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute*, vol. II. London, 1938–9.

Bouvat, L. *L'Empire Mongol, 2me Phase*, vol. VIII, 3, pt. II of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1927.

Bratianu, G. I. *Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au XIIIe Siècle.* Paris, 1929.

Bretschneider, E. *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, 2 vols. London, 1888.

Buchthal, H. 'The Painting of Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art', in *Syria*, vol. xx. Beyrouth, 1929.

Budge, E. A. W. *The Monks of Kûblâi Khân, Emperor of China.* London, 1928.

Cahen, C. 'Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III, Orient Latin et Commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 9e année, no. 8, 1951.

Cahen, C. 'Turcomans de Roum', in *Byzantion*, vol. xiv. Brussels, 1939.

Cartellieri, A. *Philipp II August und der Zusammenbruch des angevinischen Reiches.* Leipsic, 1913.

Chabot, J. B. 'Relations du Roi Argoun avec l'Occident', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii. Paris, 1894.

Chaytor, H. J. *The Troubadours.* Cambridge, 1912.

Clapham, A. W. *Romanesque Architecture in Western Europe.* Oxford, 1936.

Cognasso, F. *Un Imperatore Bizantino della Decadenza*, in *Bessarione*, vol. xxxi, Rome, 1915.

Dalton, O. M. *Byzantine Art and Archaeology.* Oxford, 1911.

Dalton, O. M. *East Christian Art.* Oxford, 1925.

Delaville la Roulx, J. *La France en Orient au XIVe Siècle*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris, 1886.

Der Nersessian, S. *Armenia and the Byzantine Empire.* Cambridge, Mass., 1945.

Deschamps, P. *La Défense du Royaume de Jérusalem*, 2 vols. Paris, 1939.

Deschamps, P. *Le Crac des Chevaliers*, 2 vols. Paris, 1934.

Diehl, C. *Une République Patricienne, Venise.* Paris, 1915.

D'Ohsson, M. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timur Béc.* 2 vols. Amsterdam, 1834–5.

Donovan, J. P. *Pelagius and the Fifth Crusade.* Philadelphia, 1950.

Duckworth, H. T. F. *The Church of the Holy Sepulchre.* London, 1922.

Ebersolt, J. *Monuments d'Architecture Byzantine.* Paris, 1934.

Edwards, J. G. 'The *Itinerarium Regis Ricardi* and the *Estoire de la Guerre Sainte*', in *Essays in honour of James Tait.* Manchester, 1933.

Enlart, C. *Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1925.

Fedden, R. *Crusader Castles.* London, 1950.

Fliche, A. *La Chrétienté Romaine*, vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise.* Paris, 1950.

Foreville, R. and Rousset de Pina, J. *Du Premier Concile du Latran à l'Avènement d'Innocent III*, vol. ix, 2, of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise.* Paris, 1952.

GIBBONS, H. A. *The Foundation of the Ottoman Empire.* Oxford, 1916.

GOTTRON, A. 'Ramon Lulls Kreuzzugsideen', in *Abhandlungen zur Mittleren und Neueren Geschichte*, vol. XXXIX. Berlin/Leipsic, 1912.

GREGOIRE, H. 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', in *Byzantion*, vol. XV. Boston, 1941.

GREKOV, B. and IAKOUBOVSKI, A. *La Horde d'Or* (trans. into French by Thuret). Paris, 1939.

GREVEN, J. 'Frankreich und der Fünfte Kreuzzug', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XLII. Munich, 1923.

GROUSSET, R. *L'Empire des Steppes.* Paris, 1941.

GROUSSET, R. *L'Empire Mongol, Ière Phase*, vol. VIII, 3, of Cavaignac, *Histoire du Monde.* Paris, 1941.

HAENTSCH, E. 'Die letzten Feldzüge Cingis Hans und sein Tod', in *Asia Major*, vol. IX. Leipsic, 1932.

HALECKI, O. *The Crusade of Varna.* New York, 1943.

HAMMER-PURGSTALL, J. VON. *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. into French by Hellert), 18 vols. Paris, 1843.

HILL, G. *History of Cyprus*, vols. II and III. Cambridge, 1948.

HOPF, K. *Geschichte Griechenlands vom Beginne des Mittelalters bis auf die neuere Zeit.* Leipsic, 1867.

HOWORTH, H. H. *History of the Mongols*, 5 vols. London, 1876–88.

IORGA, N. *Philippe de Mézières et la Croisade au XIVe Siècle.* Paris, 1896.

JORDAN, E. *Les Origines de la Domination Angevine en Italie.* Paris, 1909.

KANTOROWICZ, E. *Frederick the Second.* London, 1931.

KARAMZIN, N. M. *History of the Russian Empire* (in Russian), 3 vols. St Petersburg, 1851.

KINGSFORD, C. L. 'Otho de Grandison', in *Transactions of the Royal Historical Society*, 3rd series, vol. III. London, 1909.

[illegible]RÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman.* Paris, 1935.

LA MONTE, J. L. 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol. XII. Brussels, 1937.

LANGLOIS, C. V. *La Vie en France au Moyen Age*, 3 vols. Paris, 1927.

LECLERC, L. *La Médecine Arabe.* Paris, 1876.

LEVIS-MIREPOIX, DUC DE. *Philippe le Bel.* Paris, 1936.

LEVY, R. *A Baghdad Chronicle.* Cambridge, 1929.

LIZERAND, G. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers.* Paris, 1928.

LONGNON, J. *L'Empire Latin de Constantinople.* Paris, 1949.

LONGNON, J. *Les Français d'Outre-mer au Moyen Age.* Paris, 1929.

LUCHAIRE, A. *Innocent III: La Question d'Orient.* Paris, 1911.

MAKHOULY, N. *Guide to Acre.* Jerusalem, 1941.

MARTIN, E. J. *The Trial of the Templars.* London, 1928.

MARTIN, H. D. *The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China.* Baltimore, 1950.

MAS LATRIE, L. *Histoire de l'Ile de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan*, vol. I, *Histoire*; vols. II and III, *Documents*. Paris, 1852–61.

MELVIN, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.

MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX. New York, 1914.

NORGATE, K. *Richard the Lion Heart*. London, 1924.

NORGATE, K. 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the *Song of Ambroise*', in *English Historical Review*, vol. XXV. London, 1910.

OMONT, H. 'Peintures d'un Evangéliaire Syriaque', in *Monuments et Mémoires publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XIX. Paris, 1911.

PELLIOT, P. 'Chrétiens d'Asie Centrale et de l'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. XI. Leiden, 1914.

PELLIOT, P. 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vols. XXIII, XXIV, XXVIII. Paris, 1922–32.

PIQUET, J. *Les Banquiers du Moyen Age: Les Templiers*. Paris, 1939.

POWICKE, F. M. *King Henry III and the Lord Edward*, 2 vols. Oxford, 1947.

PRAWER, J. 'Etude de Quelques Problèmes Agraires et Sociaux d'une Seigneurie Croisée au XIIIe Siècle', in *Byzantion*, vol. XXII. Brussels, 1952.

PRAWER, J. 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre', in *Revue Historique de Droit Français et Etranger*. Paris, 1951.

PRUTZ, H. G. *Kaiser Friedrich I*, 3 vols. Danzig, 1871–4.

PRUTZ, H. G. *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1883.

REY, E. G. *Les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre*. Paris, 1871.

RÖHRICHT, R. 'Der Kinderkreuzzug 1212', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXXVI. Munich, 1876.

RÖHRICHT, R. *Etudes sur les Derniers Temps du Royaume de Jérusalem*, *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.

RÖHRICHT, R. *Studien zur Geschichte des Fünften Kreuzzüges*. Innsbruck, 1891.

SACERDOTEANU, A. *Marea Invazie Tatara şi Sud-estul European*. Bucarest, 1933.

SCHLUMBERGER, G. *Byzance et Croisades: Pages Médiévales*. Paris, 1927.

SMAIL, R. C. 'Crusaders' Castles in the Twelfth Century', in *Cambridge Historical Journal*, vol. X, 2. Cambridge, 1951.

SOBERNHEIM, M. Article 'Baibars', in *Encyclopaedia of Islam*.

STERNFELD, R. *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis 1270*. Berlin, 1896.

STRAKOSCH-GROSSMANN, G. *Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*. Innsbruck, 1893.

THROOP, P. A. 'Criticism of Papal Crusade Policy in Old French and Provençal', in *Speculum*, vol. XIII. Cambridge, Mass., 1938.

THROOP, P. A. *Criticism of the Crusades*. Amsterdam, 1940.

VAN ORTROY, F. 'Saint François et son Voyage en Orient', in *Analecta Bollandiana*, vol. XXXI. Brussels, 1912.

VASILIEV, A. A. *History of the Byzantine Empire*, new edition. Madison, 1952.

VASILIEV, A. A. 'The Foundation of the Empire of Trebizond', in *Speculum*, vol. XI. Cambridge, Mass., 1936.

VERNADSKY, G. *Kievan Russia*, vol. II of Vernadsky and Karpovitch, *History of Russia*. Newhaven, 1948.

WINKELMANN, E. *Kaiser Friedrich II*, 2 vols. Leipsic, 1889–97.

WINKELMANN, E. *Philipp von Schwaben und Otto IV von Braunschweig*, 2 vols. Leipsic, 1873–8.

WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1838.

YULE, H. *Cathay and the Way Thither*, 2 vols. Hakluyt Society, no. 37. London, 1866–7.